

العقيدة وعلم الكلام

من أعمال الإمام محمد زاهد الكوثري

نظرة قاصرة في تراجم من يذكر نزول موسى عليه السلام قبل الآخرة
للإمام الكوثري

الانصاف فيما يجب اعتقاده والاهتمام به

للقاضي أبي بكر بن الطيب البغدادي المتوفى ٤٧٢ هـ

وليته

رفع مشيخته الشريفة

عندهم عبد الرحمن بن محمد البغدادي المتوفى ٥٥٧ هـ

وليته

رفع مشيخته من مشيخته وتكررت وتسب ذلك إلى السيد أحمد الإمام أحمد

بدرام تبرأ إليه أبي بكر بن محمد البغدادي المتوفى ٥٥٧ هـ

وليته

السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل

للمؤلف قتيبة بن سعيد الكوفي في السيرة المتوفى ٤٥٧ هـ

وليته

العالم والشمس ثم واليفقة الأبسط واليفقة الأكبر

ورسالة أبي حنيفة إلى عثمان بن أبي

دوسية الأوامر أبي حنيفة في التوحيد

عليها

ولهم منة ابن مؤيد بن محمد بن عبد الله بن مؤيد

مؤيد

بدرام

مؤيد بن مؤيد بن مؤيد

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العقيدة وعلم الكلام

من أعمال الإمام محمد زاهد الكوثري

نظرة غائرة في فرائض من يذكر نزول هبة عليه السلام قبل الآخرة
للإمام الكوثري

الانصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به

للقاضي أبي بكر بن الطيب البغدادي المتوفى ٤٠٤ هـ

وبليغ

دفع شبهة التشبيه

للإمام عبد الرحمن بن علي الجوزي المتوفى ٥٩٧ هـ

وبليغ

دفع شبهة من شبهة وتمرد ذلك إلى الشبهة الجاهلية للإمام أحمد

للإمام عبد الله بن أبي بكر بن محمد المصنف المتوفى ٨٨٩ هـ

وبليغ

السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل

للإمام يحيى الدين بن علي بن عبد الله بن السبكي المتوفى ٧٥٥ هـ

وبليغ

العالم والمتعلم والفقه البسيط والفقه الأكبر

ورسالة أبي حنيفة إلى عثمان بن عيسى

ودعوة الإمام أبي حنيفة في التوحيد

مكتبة تمغية

للإمام أحمد بن حنبل بن محمد زاهد بن محمد بن علي الكوثري

المتوفى ٣٧١ هـ

مكتبة

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

تسجيلات مركز دراسات بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright
All rights reserved
Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تصيد الكتاب كاملاً أو
مجزأ أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اصطوانات مدمجة إلا بموافقة الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means,
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale
d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur
cassette, disquette, C.D, ordinateur toute production
écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation écrite
de l'éditeur.

الطبعة الأولى

٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الطريرف - شارع البشري - دائرة مفكارت
الإدارة العامة: هرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
مخالف وفكس: ٨٠١٨٠ / ١١ / ١٢ / ١٣
صندوق بريد: ٩١١١ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beirut - Lebanon

Ramli Al-Zari, Bohtory Str. Metkari Bldg 1st Floor

Head office

Aramoun - Inn. Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah

Beyrouth - Liban

Ramli Al-Zari, Rue Bohtory, Imn. Metkari, 1er Etage

Administration général

Aramoun - Inn. Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-4364-6



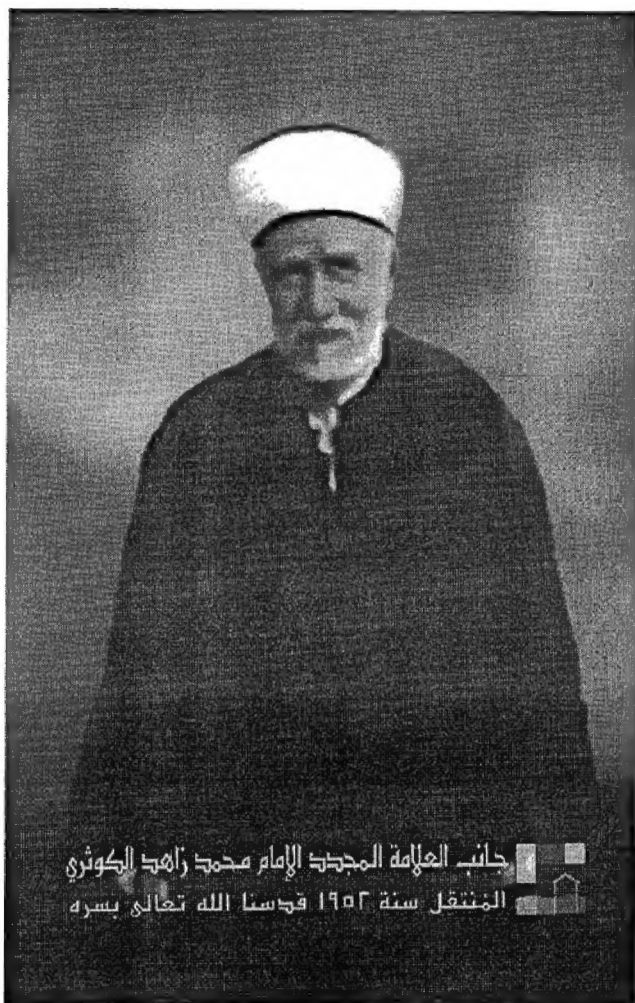
9782745143648

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com



جانب العلامة المجدد الإمام محمد زاهد الكوثري
المنتقل سنة ١٩٥٢ قديسنا الله تعالى بصره



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإمام الكوثري

بقلم الأستاذ الكبير الشيخ محمد أبو زهرة
وكيل كلية الحقوق وأستاذ الشريعة بجامعة القاهرة
(رحمهما الله تعالى)

١ - منذ أكثر من عام^(١) فَقَدْ الإسلامُ إمامًا من أئمة المسلمين الذين عَلِمُوا بأنفسهم عن سَفَسَاتِ هذه الحياة، واتجهوا إلى العلم اتجاء المؤمن لعبادة ربه، ذلك بأنه عَلِمَ أَنَّ العلم عبادةٌ من العبادات يُطَلَّبُ العالمُ به رضا الله لا رضا أحدٍ سواه، لا يُبَيِّغِي به عَلَمًا في الأرض ولا فسادًا، ولا استطالةً بفضلٍ جاء، ولا يُريدُهُ غَرَضًا من أعراض الدنيا، إنما يَبِيغِي به نُصْرَةَ الحق لإرضاء الحق جَلَّ جلاله. ذلكم هو الإمامُ الكوثري، طِيبَ الله ثراه، وَرَضِيَ عنه وأرضاه.

لا أعرفُ أَنَّ عالِمًا مات فَخْلًا مكانَهُ في هذه السنين، كما خلا مكانُ الإمام الكوثري، لأنه بَقِيَّةُ السلفِ الصالح الذين لم يجعلوا العلمَ مُرْتَقًا ولا سُلْمًا لغاية، بل كان هو مشتهى الغايات عندهم، وأسمى مطارح أنظارِهِم، فليس وراءَ علم الدين غايةٌ يَنْغِيها مؤمن، ولا مُرْتَقَى يَصِلُ إليه عالم.

لقد كان رَضِيَ الله عنه عالِمًا يَنْحَقُّ فيه القولُ المأثورُ «العلماءُ وَرَثَةُ الأنبياء» وما كان يرى تلك الوراثةَ شَرْقًا فقط، ليفتخرَ به وَيَسْتِطِيلَ على الناس، إنما كان يرى تلك الوراثةَ جهادًا في إعلان الإسلام، وبيانِ حقائقِهِ، وإزالةِ الأوهام التي تَلْحَقُ جوهرَهُ فَيُبَيِّدُ للناس صافيتا مُشْرِقًا منيرًا، فَيَغْشُو الناسَ إلى نُورِهِ، ويهتدون بهديه، وَأَنَّ تلك الوراثةَ تتقاضى العالمُ أَنْ يُجاهِدَ كما جاهد النبيون، وَيَصْبِرَ على البأساء والضراء كما صَبَرُوا، وَأَنْ يَلْقَى الْعَثَثَ ممن يدعوهم إلى الحق والهداية كما لَقُوا، فليست تلك الوراثةُ شَرْقًا إلا لمن أَخَذَ في أسبابها، وقام بحققها، وغَرَفَ الواجب فيها، وكذلك كان الإمامُ الكوثري رَضِيَ الله عنه.

٢ - إِنَّ ذلك الإمامَ الجليل لم يكن من المتحليين لمذهبٍ جديد، ولا من الدعاةِ إلى أمرٍ بديءٍ لم يُسَبِّقْ به، ولم يكن من الذين يسمُّهم الناسُ اليومَ بِسَمَةِ التجديد، بل كان يَنْفِرُ

(١) توفي الإمام الكوثري رحمه الله عام ١٣٧١ هـ.

منهم، فإنه كان مُتَّبِعًا، ولم يكن مُتَّبِعًا، ولكنني مع ذلك أقول: إنه كان من المجتدين بالمعنى الحقيقي لكلمة التجديد، لأن التجديد ليس هو ما تعارفه الناس اليوم من خلع للربقة وزد لعهد النبوة الأولى، إنما التجديد هو أن يُعاد إلى الدين رَوْثُهُ وَيُزال عنه ما عَلِقَ به من أوام، وَيُبين للناس صافيا كجوهرة، نقيًا كأصليه، وإنه لمن التجديد أن تحيا السنة وتموت البدعة ويقوم بين الناس عمود الدين.

ذلك هو التجديد حقًا وصدقًا، ولقد قام الإمام الكوثري بإحياء السنة النبوية، فكشَفَ عن المخبوء بين ثنايا التاريخ من كُتُبها، ويُن مناهج رُؤايتها، وأعلن للناس في رسائل دُونها وكُتِب ألفها سُنَّة النبي ﷺ، من أقوال وأفعال وتقريرات، ثم عَكَف على جهود العلماء السابقين الذين قاموا بالسنة وزعوا حق رعايتها، فنشر كتبهم التي دُونت فيها أعمالهم لإحياء السنة والدين قد أشربت النفوس خُبُه، والقلوب لم تُرثق بفساد العلماء لم تشغلهم الدنيا عن الآخرة، ولم يكونوا في ركاب الملوك.

٣- لقد كان الإمام الكوثري عالمًا حقًا، عَرَفَ علَمُ العلماء، وقليل منهم من أدرك جهاده، ولقد عَرَفْتُهُ سِنِينَ قبل أن ألقاه، عَرَفْتُهُ في كتاباته التي يَشْرِقُ فيها نور الحق، وعَرَفْتُهُ في تعليقاته على المخطوطات التي قام على نشرها، وما كان والله عَجِيبِي من المخطوط بقُدْرِ إعجابي بتعليق من عَلَّقَ عليه، لقد كان المخطوط أحيانًا رسالة صغيرة.

ولكن تعليقات الإمام عليه تجعل منه كتابًا مقروءًا، وإن الاستيعاب والأطلاع واتساع الأفق، تُظهِر في التعليق بادية البيان، وكل ذلك مع طَلَاوة عبارة، ولطف إشارة، وقوة نقد، وإصابة للهدف، واستيلاء على التفكير والتعبير، ولا يمكن أن يجول بخاطر القارئ أنه كاتب أعجمي وليس بعربي مُبين.

ولقد كان لَفَرَطِ تواضعه لا يَكْتُبُ مع عنوان الكتاب عَمَلُهُ الرَّسْمِي الذي كان يتولاه في حكم آل عثمان، لأنه ما كان يرى رِضِيَّ الله عنه أن تُشَرَفَ العالم ينالُه مِن عَمَلِهِ الرَّسْمِي وإنما ينالُه من عَمَلِهِ الْعِلْمِي، فكان بعضُ القارئین - لسلامة المبنى مع دقة المعنى وإشراق الديباجة وجزالة الأسلوب - لا يَجُولُ بخاطره أن الكاتب تُركِي بل يعتقد أنه عربي، ولَدَ عربيًا، وعاش عربيًا، ولم يُظَلُّه إلا بيئة عربية.

ولكن لا عَجَبُ فإنه كان تركيًا في سُلَالَتِهِ وفي نشأته، وفي حياته الإنسانية في المدة التي عاشها في الأستانة، أما حياته العلمية فقد كانت عربية خالصة، فما كان يقرأ إلا عربيًا، وما ملأ رأسه المُشْرِقُ إلا النور العربي المحمدي، ولذلك كان لا يَكْتُبُ إلا كتابة نقية خالية من كل الأساليب الدخيلة في المنهاج العربي، بل كان يَخْتَارُ الفصيح من الاستعمال الذي لم يَجِرْ خِلافَ حول فصاحته، مما يدل على عِظَمِ اطلاعه على كتب اللغة متنا ونحوًا وبلاغة، ثم هو فوق ذلك يَفْرِضُ الشعر العربي فيكون منه الحسن.

٤- لقد احتَصَنَ رِضِيَّ الله عنه بمزايا رَفَعَتْهُ وجعلته قُدوةً للعالم المسلم، لقد علا بالعلم عن سَواقِ الاتجار، وأعلَمَ الخافقين أن العالم المسلم وطنه أرض الإسلام، وأنه لا يَرْضَى

بالدِّينَةِ في دينه، ولا يأخذ من يُذل الإسلام بهوَافَة، ولا يجعلُ لغير الله والحقِّ عنده إرادة، وأَنه لا يَصْبَحُ أن يَعيشَ في أرض لا يستطيع فيها أن يَنطَلِقَ بالحق، ولا يُعلِّيَ فيها كلمة الإسلام، وإن كانت بِلَدَةٍ الذي نشأ فيه، وشذا وترعرعَ في مَغانِيهِ، فإنَّ العالمَ يَحيا بالروح لا بالمادة، وبالحقائق الخالدة، لا بالأعراض الزائلة، وخسبُهُ أن يكون وجهًا عند الله وفي الآخرة، وأما جاة الدنيا وأهلها فظلَّ زائل، وعرضُ حائل.

٥ - وإنَّ نظرةَ عابرةَ لحياةِ ذلك العالم الجليل، تُرينا أنه كان العالمُ المخلصُ المجاهدُ الصابِرُ على البأساء والضراء، وتَنقُلِيهِ في البلادِ الإسلامية والبلاءَ بلاءً، ونشره النورَ والمعرفةَ حشما حُلًّا وأقام. ولقد طُوِّفَ في الأقاليم الإسلامية فكان له في كل بلد خل فيه تلاميذٌ تَهَلَّوْا من منهله العذب، وأشرقت في نفوسهم رُوحه المخلصة المؤمنة، يُقدِّمُ العلمَ صَفْوَاً لا يُرتفقه براءٌ ولا التواء، يَمضي في قولِ الحقِّ قُدْماً لا يَهْمُهُ رِضاُ الناسِ أو سَخَطُوا ما دام الذي بينه وبين الله عامراً.

ويظهر أن ذلك كان في دِمْهِ الذي يَجري في عُرْوَقِهِ، فهو في الجهادِ في الحقِّ منذ نشأ، وإنَّ في أسرته تَقْوَى وثُوةٌ نفسٍ وصبرٌ واحتمالٌ للجهاد، إنه من أسرة كانت في القوقاز، حيث المَنعةُ والقُوَّةُ وخَمالُ الجِسم والروح، وسلامةُ الفكر وعمقه.

ولقد انتقل أبوه إلى الأستاذة فولدَ على الهُدَى والحق، فدرَسَ العلومَ الدِّينيةَ حتى نال أعلى درجاتها في نحو الثامنة والعشرين من عمره، ثم تدرَّجَ في سُلَمِ التدريس حتى وصلَ إلى أقصى درجاته وهو في سنة صغيرة، حتى إذا ابْتُلِيَ بالذين يُريدون فَضْلَ الدنيا عن الدين، لثَخَنَ الدنيا بغير ما أنزل الله، وَقَفَ لهم بالمرصاد، والعُودُ أخضرٌ، والآمالُ متفتحة، ومطامحُ الشباب متحفزة، ولكنه آثرَ دينه على دُنياهم، وآثرَ أن يُدافعَ عن البقايا الإسلامية على أن يكون في عيشٍ ناعم، بل آثرَ أن يكون في نَعَبٍ دائمٍ فيه رِضاُ الله، على أن يكون في عيشٍ رافٍ وفيه رِضاُ الناسِ وِرْضا من بيدهم سُوءُ الدنيا، لأن إِرْضا الله غايةُ الإيمان.

٦ - جاهدَ الاتحاديين الذين كان بيدهم أمرُ الدولة لما أرادوا أن يُضَيِّقُوا مَذى الدراسات الدينية ويُقَصِّرُوا زَمَنَها، وقد رأى رِضاُ الله عنه في ذلك التَقْصِيرَ نقْصاً لأطرافها، فأَعْمَلَ الجيلةَ ودبرَ وقدرَ، حتى قَضَى على رِغبتهم، وأطالَ المدةَ التي رَغِبوا في تَقْصِيرِها، ليتمكن طالبُ علوم الإسلام من الاستيعابِ وقَضَمِ العلوم، وخصوصاً بالنسبةِ لأعجميِّ بلسانِ عربيٍّ مُبين.

٧ - وهو في كل أحواله العالمُ الثَّرةُ الأنيثُ الذي لا يَعتمدُ على ذي جاه في ارتفاع، ولا يَتملِّقُ ذا جاه لئيل مطلبٍ أو الوصولِ إلى غايةٍ مهما شَرُفت، فإنه رِضاُ الله عنه كان يرى أن معالي الأمور لا يُوصَلُ إليها إلا طريقٌ سليمٌ ومنهاجٌ مستقيم، ولا يُمكنُ أن يَصِلَ كَرِيمٌ إلى غايةٍ كريمةٍ إلا من طريقٍ يَصُونُ النفسَ فيها عن الهَوَان، فإنه لا يُوصَلُ إلى شريفٍ إلا شريفٌ مثله، ولا شَرَفٌ في الاعتماد على ذوي الجاه في الدنيا، فإنَّ من يَعتمدُ عليهم لا

يكون عند الله وجيهاً.

٨ - سقى رضى الله عنه بجده وعمله في طريق المعالي حتى صار وكيل مشيخة الإسلام في تركيا، وهو ممن يعرف للمنصب حقه، لذلك لم يُفَرِّط في مصلحة إرضاء لذي جاء مهما يكن قوياً مسيطراً، وقيل أن يُعزَّل في منصبه في سبيل الاستمساك بالمصلحة. والاعتزال في سبيل الحق خير من الامتثال للباطل.

٩ - عُزِّل الشيخ عن وكالة المشيخة الإسلامية، ولكنه بقي في مجلس وكالتها الذي كان رئيساً له، وما كان يرى غصاً لمقامه أن يُنزل من الرياسة إلى العضوية ما دام سبب النزول رقيقاً، إنه الغلو النفسي لا يمنع العامل من أن يعمل رئيساً أو مروضاً، فالعزلة تُستفد من الحق في ذاته، ويُاركمها الحق جل جلاله.

١٠ - ولكن العالم الأبي العف الثقي يُمتحن أشد امتحان، إذ يرى بلده العزيز وهو دار الإسلام الكبرى، ومناط عزته، وخط آمال المسلمين يؤوده الإلحاد، ثم يسيطر عليه من لا يرجو لهذا الدين وقاراً، ثم يُصبغ فيه القابض على دينه كالقابض على الجفر، ثم يجد هو نفسه مقصوداً بالأذى، وأنه إن لم يُنَجِّ ألقى في غيابات السجن، وجبل بينه وبين العلم والتعليم. عندئذ يجد الإمام نفسه بين أمور ثلاثة: إما أن يبقى مأسوراً مقيداً، ينطفئ علمه في غيابات السجون، وإن ذلك لعزير على عالم تعود الدرس والإرشاد، وإخراج كنوز الدين ليعلمها الناس عن بيته، وإما أن يتملق ويداهن ويمالي، ودون ذلك خُزط القناد بل خُز الأعناق، وإما أن يُهاجر ويلاذ الله واسعة، وتذكر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ اللَّهُ دَمِيمَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

١١ - هاجر إلى مصر ثم انتقل إلى الشام، ثم عاد إلى القاهرة، ثم رجع إلى دمشق مرة ثانية، ثم ألقى عصا النسيار نهائياً بالقاهرة، وهو في رحلته إلى الشام ومقامه في القاهرة كان ثوراً، وكان منكنه الذي كان يسكنه ضؤل أو أشنع مدرسة يأتى إليها طلاب العلم الحقيقي، لا طلاب العلم المدرسي، فيتهدي أولئك التلاميذ إلى ينابيع المعرفة، من الكتب التي كُتبت وسوق العلوم الإسلامية رائجة ونفوس العلماء عامرة بالإسلام، فرد عقول أولئك الباحثين إليها ووجههم نحوها، وهو يُفسر المغلق لهم، ويفيض بغزير عليه وثمار فكره.

١٢ - وإن كاتب هذه السطور لم يلق الشيخ إلا قِليل وفاته بنحو عامين، وقد كان اللقاء الروحي من قبل ذلك بسنين، عندما كنت أقرأ كتاباته، وأقرأ تعليقه على ما يخرج من مخطوط، وأقرأ ما ألف من كتب، وما كنت أحسب أن لي في نفس ذلك العالم الجليل مثل ما لهُ في نفسي، حتى قرأت كتابه «حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي» فوجدته رضى الله عنه خصني عند الكلام في الجيل المنسوبة لأبي يوسف بكلمة خير. وأشهد أنني سمعت ثناء من كُبراء وعلماء، فما اعتزرت بشيء كما اعتزرت بشيء ذلك الشيخ الجليل، لأنه وسام علمي ممن يملك إعطاء الوسام العلمي.

سَعَيْتُ إِلَيْهِ لَالِقَاءَهُ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَجْهَلُ مَقَامَهُ، وَإِنِّي لَا يَسِيرُ فِي مَيَدَانِ الْعَنْبَةِ الْخَضِرَاءِ، فَوَجَدْتُ شَيْخًا وَجِيهًا وَقَوْرًا، الشَّبَبُ يَنْشُتُ مِنْهُ كَثُورُ الْحَقِّ، يَلْبَسُ لِبَاسَ عِلْمَاءِ الثَّرَكِ، قَدْ التَّفَّ حَوْلَهُ طَلَبَةٌ مِنْ سُورِيَّةٍ، فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهُ الشَّيْخُ الَّذِي أَسَمَى إِلَيْهِ. فَمَا أَن زَائِلٌ تَلَامِيذُهُ حَتَّى اسْتَفْسَرْتُ مِنْ أَحَدِهِمْ: مِنَ الشَّيْخِ؟ فَقَالَ: إِنَّهُ الشَّيْخُ الْكُوثَرِيُّ، فَاسْرَعْتُ حَتَّى التَّقِيْتُ بِهِ لِأَعْرِفَ مَقَامَهُ، فَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ نَفْسِي، فَوَجَدْتُ عِنْدَهُ مِنَ الرِّغْبَةِ فِي اللَّقَاءِ مِثْلَ مَا عِنْدِي، ثُمَّ زَرْتُهُ فَعَلِمْتُ أَنَّهُ فَرَّقَ كُتُبَهُ، وَفَوْقَ بُحُورِهِ، وَأَنَّهُ كَثُرَ فِي مِصْرَ.

١٣ - وَهَذَا أُرِيدُ أَنْ أَبْدِيَ صَفْحَةً مِنْ تَارِيخِ ذَلِكَ الشَّيْخِ الْإِمَامِ، لَمْ يَعْرِفْهَا إِلَّا عَدَدٌ قَلِيلٌ: لَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ يَغْمُ نَفْعُهُ، وَأَنْ يَتِمَّ كُنْ طَلَابُ الْعِلْمِ مِنْ أَنْ يَرُدُّوا وَرَدَةَ الْعَذْبِ، وَيَتَنَفَّعُوا مِنْ مَثَلِهِ الْغَزِيرِ، لَقَدْ اقْتَرَحَ قِسْمُ الشَّرِيعَةِ عَلَى مَجْلِسِ كَلِيَّةِ الْحُقُوقِ بِجَامِعَةِ الْقَاهِرَةِ: أَنْ يُنَدَّبَ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ لِلتَّدْرِيسِ فِي دِلُومِ الشَّرِيعَةِ، مِنْ أَقْسَامِ الدِّرَاسَاتِ الْعِلْمِيَّةِ بِالْكَلِيَّةِ، وَوَأَقْبَلَ الْمَجْلِسُ عَلَى الْاِقْتِرَاحِ بَعْدَ أَنْ عَلِمَ الْأَعْضَاءُ الْأَجْلَاءُ مَكَانَ الشَّيْخِ مِنْ عِلْمِهِ الْإِسْلَامِ، وَأَعْمَالِهِ الْعِلْمِيَّةِ الْكَبِيرَةِ.

ذَهَبْتُ إِلَى الشَّيْخِ مَعَ الْأَسَاتِذِ رَئِيسِ قِسْمِ الشَّرِيعَةِ إِيَّانَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّا فَوَجَدْنَا بِاعْتِزَالِ الشَّيْخِ عَنِ الْقَبُولِ بِخَرَضِهِ وَمَرَضِ زَوْجِهِ، وَضَعْفِ بَصَرِهِ، ثُمَّ يُصَرُّ عَلَى الْاِعْتِزَالِ، وَكُلَّمَا أَحْصَيْنَا فِي الرَّجَاءِ لُجُجَ فِي الْاِعْتِزَالِ، حَتَّى إِذَا لَمْ نَجِدْ جَذْوَى رَجْوَانِهِ فِي أَنْ يُعَاوِذَ التَّفَكُّيرَ فِي هَذِهِ الْمُعَاوَنَةِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي تُرْفِقُهَا وَنَتَمَلَّأُهَا، ثُمَّ عُدْتُ إِلَيْهِ مُتَفَرِّدًا مَرَّةً أُخْرَى، أَكْرَزُ الرَّجَاءِ وَالْجَفِّ فِيهِ، وَلَكِنِّ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَ مَعِي صَرِيحًا، قَالَ الشَّيْخُ الْكَرِيمُ... إِنَّ هَذَا مَكَانٌ عِلْمٌ حَقًّا، وَلَا أُرِيدُ أَنْ أُدْرُسَ فِيهِ إِلَّا وَأَنَا قَوِيٌّ الْقِيَّ دُرُوسِي عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَجِبُ، وَإِنْ شِئْخُوخَتِي وَضَعْفُ صَحْتِي وَصِحَّةُ زَوْجِي، وَهِيَ الْوَحِيدَةُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ، كُلُّ هَذَا لَا يُمَكِّنُنِي مِنْ آدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَرْضَاهُ.

١٤ - خَرَجْتُ مِنْ مَجْلِسِ الشَّيْخِ وَأَنَا أَقُولُ أَيُّ نَفْسٍ عُلوِيَّةٌ كَانَتْ تُسْجِنُ فِي ذَلِكَ الْجِسْمِ الْإِنْسَانِي، إِنَّهَا نَفْسُ الْكُوثَرِيِّ.

وَأَنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْكَرِيمَ الَّذِي ابْتَلِيَّ بِالشَّدَائِدِ، فَانْتَصَرَ عَلَيْهَا، ابْتُلِيَ بِفَقْدِ الْأَحْبَةِ، فَقَفَذَ أَوْلَادَهُ فِي حَيَاتِهِ، وَقَدْ اخْتَرَمَتْهُمْ الْمَوْتُ وَاحِدًا بَعْدَ الْآخَرِ، وَمَعَ كُلِّ فَقْدٍ لَوْعَةٌ، وَمَعَ كُلِّ لَوْعَةٍ نُدُوبٌ فِي النَّفْسِ وَأَحْزَانٌ فِي الْقَلْبِ. وَقَدْ اسْتَطَاعَ بِالْعِلْمِ أَنْ يَصْبِرَ وَهُوَ يَقُولُ مَقَالَةً بِعُقُوبِ: «فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ» وَلَكِنْ شَرِيكَتُهُ فِي السَّرِّ وَالضَّرِّ أَوْ شَرِيكَتُهُ فِي بَاسِ هَذِهِ الْحَيَاةِ بَعْدَ تَوَالِي النِّكَبَاتِ، كَانَتْ تُحَاوِلُ الصَّبْرَ فَتَنْصَبِرُ، فَكَانَ لَهَا مُوَاسِيَا، وَلِكُلُّوْمَهَا مُدَاوِيَا، وَهُوَ هُوَ نَفْسُهُ فِي حَاجَةٍ إِلَى ذَوَاهُ.

وَلَقَدْ مَضَى إِلَى رَبِّهِ صَابِرًا شَاكِرًا حَامِدًا، كَمَا يَمْضِي الصُّدُيقُونَ الْأَبْرَارَ، فَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ.

ترجمة الإمام الكوثري^(١)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد : فهذه نبذة مختصرة جامعة عن مؤلف هذا الكتاب .

هو الإمام العلامة المحدث المحقق الفقيه الأصولي المؤرخ الصوفي المتكلم الشيخ محمد زاهد بن حسن بن علي الكوثري الحنفي .

وُلد يوم الثلاثاء ٢٧ أو ٢٨ من شوال سنة ١٢٩٦ في قرية الحاج حسن^(٢) أفندي وتلقى مبادئ العلوم على والده وعلى شيوخ دوزجة .

ثم انتقل إلى الآستانة سنة ١٣١١ فأخذ العلم عن كبار علمائها مثل : الشيخ العلامة إبراهيم حقي الأكني المتوفى سنة ١٣١٨ ، والشيخ العلامة علي زين العابدين الألبصوني المتوفى سنة ١٣٣٦ ، والشيخ حسن القسطنطوني المتوفى سنة ١٣٢٩ ، والشيخ العلامة يوسف ضياء الدين التكوشي المتوفى سنة ١٣٣٩ ، وعمدته والده العلامة حسن بن علي الكوثري المتوفى سنة ١٣٤٥ عن مائة سنة رحمه الله جميعاً .

وقد تولى عدة مناصب منها التدريس بجامعة الفاتح وآخرها وكالة المشيخة الإسلامية في الدولة العثمانية .

وعندما أطيح بالخلافة العثمانية وتولى عدو الله كمال أتاتورك سلطنة الدولة كان الشيخ من أشد المعارضين حتى حُكِمَ عليه بالإعدام ففرّ بدينه وهاجر إلى مصر ووصل إلى الإسكندرية سنة ١٣٤١ دون أن يودع أهله وسكن في القاهرة ثم رحل إلى الشام قبل أن يتم سنته الأولى من حين وصوله إلى مصر ، ثم زارها مرة أخرى في سنة ١٣٤٧ وكان مدة

(١) للتوسع في ترجمته انظر الترجمة الوافية بعنوان «الإمام الكوثري» للأستاذ أحمد خير في آخر مجموع «الفقه وأصول الفقه» من أعمال الإمام محمد زاهد الكوثري .

(٢) وهي قرية أنشأها والد المترجم رحمه الله وتقع على بُعد خمس مراحل شرق الآستانة ، وتعرف الآن ببلدة دوزجة .

قيامه في الزيارتين بدمشق ما يقرب من سنة وعكف فيهما على المكتبة الظاهرية ينقب عن نفائس مخطوطاتها.

ثم ألقى عصا السيار بمصر حتى توفي بها في يوم الأحد ١٩ من ذي القعدة سنة ١٣٧١ هـ رحمه الله رحمة واسعة.

وقد أجازته كبار علماء عصره من أمثال:

- ١ - العلامة الشيخ يوسف الدجوي وقد سمع عليه الموطأ وقد توفي سنة ١٣٦٥.
- ٢ - والمحدث العلامة الشيخ أحمد رافع الطهطاوي المتوفى سنة ١٣٥٥.
- ٣ - والمحدث العلامة الشيخ محمد جعفر الكتاني وقد سمع منه «الشمال المحمدية» بدمشق في رحلته الأولى سنة ١٣٤٢. وقد توفي سنة ١٣٤٥.
- ٤ - والعلامة المحدث الشيخ عبد الحي الكتاني المتوفى سنة ١٣٨٢.
- ٥ - ومن كبار مشايخ الأزهر العلامة محمد سالم الشراقوي المعروف بالنجدي المتوفى سنة ١٣٥٠.

- ٦ - والشيخ العلامة محمد حبيب الله الشنيطي المتوفى سنة ١٣٦٣.
 - ٧ - وأخوه العلامة مفتي المدينة المنورة محمد الخضر الشنيطي المتوفى سنة ١٣٥٣.
 - ٨ - ومولانا الشيخ العلامة حكيم الأمة محمد أشرف علي التهانوي المتوفى سنة ١٣٦٢. وغيرهم من العلماء رحمهم الله جميعاً.
- وقد عُرف عن المترجم رحمه الله تعالى التواضع وسعة الاطلاع والحافظة القوية والإيثار والزهّد والقوة في الحق، والرد على المبتدعة، وصون جَمَى الدين.
- وتلذذ عليه خلق لا يحصون قبل هجرته وبعدها واستجازه كبار معاصريه في العالم الإسلامي كما كان له سند عالٍ.
- وقد ترك رحمه الله تعالى مؤلفات كثيرة من شتى العلوم تشهد بعلمه وفضله، منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو قيد الطبع:

- ١ - تأنيب الخطيب فيما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب.
- ٢ - النكت الطريفة في التحدّث عن ردود ابن أبي شيبه على أبي حنيفة.
- ٣ - إحقاق الحق بإبطال الباطل في مغيب الخلق.
- ٤ - الإشفاق على أحكام الطلاق.
- ٥ - نظرة عابرة في مزاعم من ينكر نزول عيسى قبل الآخرة. وهو ضمن هذا المجموع الذي بين أيدينا.
- ٦ - من عبّر التاريخ.
- ٧ - صفعات البرهان على صفحات العدوان.
- ٨ - محقّ القول في مسألة التوسّل.
- ٩ - حُسن التقاضي في سيرة أبي يوسف القاضي.

- ١٠ - بلوغ الأمان في سيرة محمد بن الحسن الشيباني.
- ١١ - الإمتاع بسيرة الإمامين محمد بن زياد وصاحبه محمد بن شجاع.
- ١٢ - لمحات النظر في سيرة الإمام زفر.
- ١٣ - الحاروي في سيرة أبي جعفر الطحاوي.
- ١٤ - الاستبصار في التحدث عن الجبر والاختيار.
- ١٥ - تذهيب التاج اللجيني في ترجمة البدر العيني.
- ١٦ - أقوم المسالك في رواية مالك عن أبي حنيفة وأبي حنيفة عن مالك.
- ١٧ - التحرير الوجيز فيما يتغيه المستجير. وهو ثبته.
- ١٨ - نبراس المهندي من اجتلاء أنباء العارف بالله دمرdash المحمدي.
- ١٩ - إرغام المريد في شرح النظم العتيد لتوسل المريد.
- ٢٠ - المنتقى المفيد من العقد الفريد في علو الأسانيد.
- ٢١ - مقدمات وتعاليق وتقايرظ الإمام الكوثري ويحوي هذا الكتاب ما يقرب من ٦٠ مقدمة للشيخ على مختلف الكتب.
- ٢٢ - البحوث السنية عن بعض رجال أسانيد الطريقة الخلوتية.
- وغيرها من الكتب.
- وأما كتبه المخطوطة : فمنها ما هو في حكم المفقود ومن أهم تلك الكتب :
- ١ - المدخل العام لعلوم القرآن وهو من أهم كتبه.
- ٢ - إبداء وجوه التعدي في كامل ابن عدي.
- ٣ - نقد كتاب الضعفاء للعقيلي.
- ٤ - التعقب الحديث فيما ينفيه ابن تيمية من الحديث.
- ٥ - رفع الريبة عن تخططات ابن قتيبة.
- ٦ - الاهتمام بترجمة ابن الهمام.
- ٧ - تحذير الخلف من مخازي أدياء السلف.
- ٨ - فصل المقال في تمحيص أحذوثة الأوعال.
- ٩ - عتب المغترين بدجاجلة المعترين.
- وقد جمعت مقالاته التي كتبها لي بعض المجلات ضمن كتاب «مقالات الكوثري» وهي حوالي ١١٧ مقالة.
- كما حقق رحمه الله تعالى ما يقرب من ٤٠ كتابًا حلأها بتعاليقه الوافية الممتعة.
- وللتوسع في ترجمته انظر الترجمة الوافية التي كتبها العلامة الأديب البخائة الأستاذ:
- أحمد خيري رحمه الله في كتابه «الإمام الكوثري»^(١).

(١) وهذا الكتاب موجود في آخر مجموع «الفقه وأصول الفقه» من أعمال الإمام محمد زاهد الكوثري.

وممن ترجم له :

- ١ - عزت العطار الحسيني في مقدمة تأنيب الخطيب .
- ٢ - أحمد إبراهيم السراوي في مقدمة «طبقات ابن سعد» من الطبعة المصرية سنة ١٣٥٨ .
- ٣ - الشيخ عبد الله الغماري في كتابه «سبيل التوفيق من ترجمة عبد الله بن الصديق» ذكره ضمن شيوخه .
- ٤ - الأعلام لخير الدين الزركلي رحمه الله ، وقد دُس من بعض المتزهريين المعروفين بالذس في كتب العلماء من ترجمة الإمام بعد وفاة المؤلف الزركلي رحمه الله جملة وتناوله بعض الفضلاء بالنقد في كتاب «الكوثري وتعليقاته» .
- ٥ - الأستاذ زكي مجاهد رحمه الله في «الأخبار التاريخية» .
- ٦ - محمود سعيد مدوح في تراجم مشايخ الشيخ الغاداني «تشيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماح» ، إلا أنه غمز الشيخ رحمه الله تبعاً لمشايقه المغاربة المعروفين بذلك .
- وأما الذين أثنوا على الإمام واعترفوا بعلمه وفصله فخلق لا يحصون غيروا عن ذلك باللسان والبيان فمن الذين أثنوا عليه :
- ١ - الشيخ العلامة محمد يوسف البنوري رحمه الله تعالى في أول «مقالات الكوثري» .
- ٢ - الشيخ الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله في أول «المقالات» كذلك وترجمته له أثبتناها في أول هذا الكتاب .
- ٣ - الشيخ إسماعيل عبد رب النبي واعظ القاهرة في أول المقالات .
- ٤ - شيخ الإسلام مصطفى صبري رحمه الله في كتابه العظيم «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين» .
- ٥ - الشيخ العارف بالله سلامة العزامي الشافعي رحمه الله في «البراهين الساطعة» و«فرقان القرآن» ، بين صفات الخالق وصفات الأكوان .
- ٦ - والعلامة الفقيه الشيخ أبو الوفا الأفغاني في بعض كتبه . رحمه الله .
- ٧ - والشيخ عبد الرحمن المعلمي في مقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم .
- ٨ - الشيخ عبد الغني عبد الخالق في مقدمة «مناقب الشافعي وآدابه» لأبي حاتم الرازي .
- ٩ - والعلامة محمد يوسف موسى رحمه الله في بعض كتبه .
- ١٠ - وتلميذه الشيخ العلامة عبد الفتاح أبو غدة حفظه الله في كثير من كتبه .
- ١١ - والشيخ توفيق يحيى إسلام في مقدمة كتاب «قانون التأويل» للإمام الغزالي .
- ١٢ - الشيخ العلامة مولانا نجم الدين الكردي النقشبدي ، في مقدمته لكتاب شيخه «فرقان القرآن» من الطبعة الثانية .
- ١٣ - والعلامة الشيخ محمد عبد الرشيد النعماني في مقدمة كتاب «التعليم» لمسعود بن أبي شيبة رحمه الله .

- ١٤ - والشيخ رضوان محمد رضوان في فهارس البخاري .
- ١٥ - الأستاذ حسام الدين القدسي في مقدمة الطبعة الثانية لكتاب «تبيين كذب المفتري» .
- ١٦ - محمد منير الدمشقي رحمه الله في كتابه «نموذج من الأعمال الخيرية» .
- ١٧ - الدكتور محمود الطناحي في كتابه «تاريخ نشر التراث» .
- ١٨ - الدكتور العلامة طه الدسوقي الحيشي في مقدمة تحقيقه لكتاب ابن جهيل الذي رَدَّ به على أغلاط ابن تيمية في الفتوى الحموية .
- وقد كتبت بحوث في سيرته وعلمه منها :
- ١ - رسالة دكتوراه تقدم بها الطالب «حامد إبراهيم محمد» من الأزهر الشريف نُوقِشت في شهر ذي الحجة من عام ١٤٠٨ هـ ونال بها الطالب درجة الدكتوراه وكانت بعنوان «محمد زاهد الكوثري وجهوده الكلامية» .
- ٢ - بحث قدَّمه الطالب في الدراسات العليا محمد بن سعيد حَوَّى إلى جامعة الأردن بعنوان «الكوثري محدثاً» .
- ٣ - رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الإلهيات في أنقرة بعنوان «الكوثري محدثاً» .
- إلى غير ذلك من مآثر هذا الإمام العظيم التي لا ينكرها إلا مَنْ أصابته غشاوة أو عدمت بصيرته .

نظرة عابرة

في منراعم من يُنكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة

للإمام الكوثري

فتوى الشيخ محمود شلتوت في وفاة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام، ورفعہ ونزوله منقولة عن كتابه «الفتاوى» ص ٥٢ - ٧٥

رفع عيسى عليه السلام

ورد إلى مشيخة الأزهر الجلييلة من حضرة عبد الكريم خان بالقيادة العامة
لجيوش الشرق الأوسط سؤال جاء فيه :

هل (عيسى) حي أو ميت في نظر القرآن الكريم والسنة المطهرة؟ وما حكم
المسلم الذي ينكر أنه حي؟ وما حكم من لا يؤمن به إذا فرض أنه عاد إلى الدنيا مرة
أخرى؟

وقد حُوِّل هذا السؤال إلينا فأجبنا بالفتوى التالية التي نشرتها مجلة الرسالة في
سنتها العاشرة بالعدد ٤٦٢.

القرآن الكريم ونهاية عيسى :

أما بعد، فإن القرآن الكريم قد عرض لعيسى عليه السلام فيما يتصل بنهاية شأنه
مع قومه في ثلاث سور :

١ - في سورة آل عمران قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ
أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْيَهُودُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ عَمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥١﴾
رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا آتَاكَ وَآتَيْنَا الرُّسُلَ فَأَكْتَبْنَا مَعَ النَّبِيِّينَ ﴿٥٢﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَى ابْنِيَّ إِنِّي مَرْفُوعٌ بِكَ ذَرِكْ إِلَيْكَ وَطَهِّرْكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَجَاعِلٌ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْفِتْنَةِ ثُمَّ إِنْ مَرِجُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران : ٥٢ - ٥٥].

٢ - وفي سورة النساء قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الْقُلُوبِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

٣ - وفي سورة المائدة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ لِلنَّهْيَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ أُولَئِكَ مَا يَقُولُ يٰحَسْبُكَ إِنْ كُنْتَ تَقُولُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَقْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١٧٤﴾ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُمْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الْغَرِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٥﴾﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

هذه هي الآيات التي عرض القرآن فيها لنهاية شأن عيسى مع قومه.

والآية الأخيرة (آية المائدة) تذكر لنا شأنًا أخروياً يتعلق بعبادة قومه له ولأمه في الدنيا وقد سأله الله عنها. وهي تقرر على لسان عيسى عليه السلام أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢] وأنه كان شهيداً عليهم مدة إقامته بينهم، وأنه لا يعلم ما حدث منهم بعد أن توفاه الله.

معنى التوفي:

وكلمة (توفي) قد وردت في القرآن كثيراً بمعنى الموت حتى صار هذا المعنى هو الغالب عليها المتبادر منها، ولم تستعمل في غير هذا المعنى إلا وبجانبها ما يضرها عن هذا المعنى المتبادر: ﴿قُلْ بَنُوا بَنِيكُمْ مَلَائِكَةَ الْبَرِّ وَالْأَوَّلَىٰ رُوحُكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَلْبَكةَ ظَالِمِي الْأَسْجِمِ﴾ [النساء: ٩٧]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠] توفته رسلنا. ومنكم من يتوفى. حتى يتوفاهن الموت. ﴿تَوَفَّىٰ مُسْلِمًا وَالْحَفْظِيُّ بِالْمَصْلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

ومن حق كلمة ﴿تَوَفَّيْتَنِي﴾ [المائدة: ١١٧] في الآية أن تُجمل هذا المعنى المتبادر وهو الإماتة العادية التي يعرفها الناس، ويدركها من اللفظ والسياق الناطقون بالضاد. وإذن فالآية لو لم يتصل بها غيرها في تقرير نهاية عيسى مع قومه، لما كان هناك مبرر للقول بأن عيسى حي لم يموت.

ولا سبيل إلى القول بأن الوفاة هنا مراد بها وفاة عيسى بعد نزوله من السماء بناء على زعم من يرى أنه حي في السماء، وأنه سينزل منها آخر الزمان، لأن الآية ظاهرة في تحديد علاقته بقومه هو لا بالقوم الذين يكونون آخر الزمان وهم قوم محمد باتفاق لا قوم عيسى.

معنى ﴿رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] وهل هو إلى السماء؟

أما آية النساء فإنها تقول: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] وقد فرها بعض المفسرين بل جمهورهم بالرفع إلى السماء، ويقولون: إن الله ألقى على غيره شبهه، ورفعه بجسده إلى السماء، فهو حي فيها وسينزل منها آخر الزمان، فيقتل الخنزير ويكسر الصليب، ويعتمدون في ذلك:

أولاً: على روايات تفيد نزول عيسى بعد الدجال، وهي روايات مضطربة مختلفة في ألفاظها ومعانيها اختلافاً لا مجال معه للجمع بينهما، وقد نصّ على ذلك علماء الحديث، وهي فوق ذلك من رواية وهب بن منبه وكعب الأحبار وهما من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام وقد عرفت درجتهم في الحديث عند علماء الجرح والتعديل.

ثانياً: على حديث مروى عن أبي هريرة اقتصر فيه على الإخبار بنزول عيسى وإذا صحّ هذا الحديث فهو حديث آحاد. وقد أجمع العلماء على أن أحاديث الآحاد لا تفيد عقيدة ولا يصح الاعتماد عليها في شأن المغيات.

ثالثاً: على ما جاء في حديث المعراج من أن محمداً ﷺ حينما صعد إلى السماء وأخذ يستفتحها واحدة بعد واحدة فتفتح له ويدخل، رأى عيسى عليه السلام هو وابن خالته يحيى في السماء الثانية. وكفينا في توهين هذا المستند ما قرره كثير من شراح الحديث في شأن المعراج وفي شأن اجتماع محمد ﷺ بالأنبياء، وأنه كان اجتماعاً روحياً لا جسمانياً. «انظر فتح الباري وزاد المعاد وغيرهما».

ومن الطريف أنهم يستدلون على أن معنى الرفع في الآية هو رفع عيسى بجسده إلى السماء بحديث المعراج بينما ترى فريقاً منهم يستدل على أن اجتماع محمد بعيسى في المعراج كان اجتماعاً جدياً بقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] وهكذا يتخذون الآية دليلاً على ما يفهمونه من الحديث حين يكونون في تفسير الحديث، ويتخذون الحديث دليلاً على ما يفهمونه من الآية حين يكونون في تفسير الآية.

الرفع في آية آل عمران:

ونحن إذا رجعنا إلى قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مُؤْتِفِكَ وَرَافِعِكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] في آيات آل عمران مع قوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] في آيات النساء وجدنا الثانية إخباراً عن تحقيق الوعد الذي تضمنته الأولى، وقد كان هذا الوعد بالتوفية الرفع والتطهير من الذين كفروا، فإذا كانت الآية الثانية قد جاءت خالية من التوفية والتطهير، واقتصرت على ذكر الرفع إلى الله، فإنه يجب أن يلاحظ فيها ما ذكر في الأولى جمعاً بين الآيتين.

والمعنى أن الله توفي عيسى ورفعه إليه وطهره من الذين كفروا.

وقد فسر الألوسي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مُؤْتِفِكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] بوجوه منها - وهو أظهرها - إني مستوفي أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك، وهو كناية عن عصمته من الأعداء وما هم بصده من الفتك به عليه السلام، لأنه يلزم من استيفاء الله أجله وموته حتف أنفه ذلك.

وظاهر أن الرفع الذي يكون بعد التوفية هو رفع المكانة لا رفع الجسد خصوصاً وقد جاء بجانبه قوله: ﴿وَمَطْهُرُكَ مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم.

وقد جاء الرفع في القرآن كثيراً بهذا المعنى: ﴿فِي يَوْمٍ أُوذِيَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]، ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ شَأْنٍ﴾ [الأنعام: ٨٣]، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مریم: ٥٧]، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١١] الخ...

وإذن فالتعبير بقوله: ﴿وَرَافِعِكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقوله: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] كالتعبير في قولهم ليجئ فلان بالرفيق الأعلى وفي ﴿إِنَّكَ اللَّهُ مَنَّانٌ﴾ [التوبة: ٤٠] وفي ﴿جَنَّةٌ لِّكَ مُتَقَلَّبَةٍ﴾ [القمر: ٥٥]، وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ والدخول في الكنف المقدس. فمن أين تؤخذ كلمة السماء من كلمة ﴿إِلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٨]؟

اللهم إن هذا لظلم للتعبير القرآني الواضح خضوعاً لقصاص وروايات لم يقم على الظن بها - فضلاً عن اليقين - برهان ولا شبه برهان!

الفهم المتبادر من الآيات:

ويعد فما عيسى إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، ناصبه قومه العدا، وظهرت على وجوههم بوادر الشر بالنسبة إليه، فالتجأ إلى الله شأن الأنبياء والمرسلين

فأنقله الله بعزته وحكمته وخبث مكر أعدائه. وهذا هو ما تضمنته الآيات ﴿فَلَمَّا أَتَىٰ عِيسَىٰ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَصَاوَىٰ إِلَيَّ أَكْثَرُ﴾ [آل عمران: ٥٢] إلى آخرها، بين الله فيها قوة مكره بالنسبة إلى مكرهم، وأن مكرهم في اغتيال عيسى قد ضاع أمام مكر الله في حفظه وعصمته، إذ قال: ﴿يَكِيدُونَ إِلَيَّ تُؤْفِكُ وَيَأْفِكُ إِنِّي وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] فهو يشره بإنجائه من مكرهم ورد كيدهم في نحورهم وأنه سيستوفي أجله حتى يموت حتف أنفه من غير قتل ولا صلب، ثم يرفعه الله إليه.

وهذا هو ما يفهمه القاريء للآيات الواردة في شأن نهاية عيسى مع قومه متى وقف على سعة الله مع أنبيائه حين يتألب عليهم خصومهم، ومتى خلا ذهنه من تلك الروايات التي لا ينبغي أن تحكم في القرآن، ولست أدري كيف يكون إنقاذ عيسى بطريق انتزاعه من بينهم ورفعه بجسده إلى السماء مكرأ؟ وكيف يوصف بأنه خير من مكرهم مع أنه شيء ليس في استطاعتهم أن يقاوموه، شيء ليس في قدرة البشر.

ألا إنه لا يتحقق مكر في مقابلة مكر إلا إذا كان جارياً على أسلوبه، غير خارج عن مقتضى العادة فيه. وقد جاء مثل هذا في شأن محمد ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرَ الْمَكْرِيينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

رفع عيسى ليس عقيدة يكفر منكرها:

والخلاصة من هذا البحث:

١ - أنه ليس في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رُفع بجسده إلى السماء وأنه حي إلى الآن فيها وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض.

٢ - أن كل ما تفيد الآيات الواردة في هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله ورافعه إليه وعاصمه من الذين كفروا، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبوه ولكن وفاه الله أجله ورفعه إليه.

٣ - أن من أنكر أن عيسى قد رُفع بجسده إلى السماء وأنه فيها حي إلى الآن وأنه سينزل منها آخر الزمان فإنه لا يكون بذلك منكراً لما ثبت بدليل قطعي، فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه ولا ينبغي أن يحكم عليه بالردة، بل هو مسلم مؤمن، إذا مات فهو من المؤمنين يُصلّى عليه كما يُصلّى على المؤمنين ويُدفن في مقابر المؤمنين، ولاشية في إيمانه عند الله والله بعباده خير بصير.

مناقشة

بعد نشر هذه الفتوى في مجلة «الرسالة» السنة العاشرة العدد ٤٦٢ قامت ضجة أحدثها قوم جمدوا على القديم، وأذعوا الغيرة على الدين. وقد رددنا على شبهات هؤلاء بالحجج العلمية الدامغة ونشرت ذلك «الرسالة» في الأعداد ٥١٤، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٨، ٥١٩ من السنة الحادية عشرة. وفيما يلي خلاصة لهذا الرد:

مبادئ مسلمة عند العلماء:

١ - حدّد الشارع العقائد، وطلب من الناس الإيمان بها، والإيمان هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل. ومن الواضح أن هذا الاعتقاد لا يحصله كل ما يسمى دليلاً، وإنما يحصله الدليل القطعي الذي لا تعثره شبهة.

٢ - وهذا الدليل القطعي يتمثل في شيئين:

الأول: الدليل العقلي الذي سلحت مقدماته، وانتهت في أحكامها إلى الحس والضرورة، فهذا - باتفاق - يفيد اليقين، ويحقق ذلك الإيمان المطلوب.

الثاني: الدليل النقلي إذا كان قطعياً في وروده، قطعياً في دلالة.

ومعنى كونه قطعياً في وروده: ألا يكون هناك أي شبهة في ثبوته عن الرسول، وذلك كالقرآن الكريم الذي ثبت كله بالتواتر القطعي، وكالأحاديث المتواترة عن الرسول، إن ثبت تواترها.

ومعنى كونه قطعياً في دلالة، أن يكون نصاً محكماً في معناه، وذلك إنما يكون فيما لا يحتمل التأويل.

٣ - فإذا كان الدليل النقلي بهذه المثابة أفاد اليقين، وصلاح لأن تثبت به العقيدة.

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن العلبيات التي لم ترد بطريق قطعي أو وزدت بطريق قطعي، ولكن لابسها احتمال في الدلالة، فاختلف فيها العلماء، ليست من العقائد التي يكلفنا بها الدين، والتي تعتبر حداً فاصلاً بين الذين يؤمنون والذين لا يؤمنون.

٤ - هذه المبادئ التي ذكرنا تنير سبيل البحث لمن يريد معرفة الحق فيما هو من العقائد وما ليس منها، وهي مبادئ مسلمة عند العلماء يعرف كل مطلع على كتبهم ومناقشاتهم أنه لا نزاع فيها^(١).

وعلى ضوء هذه المبادئ نستقبل قول الذين زعموا «أن رفع عيسى ونزوله آخر الزمان ثابتان بالكتاب والسنة والإجماع».

ولنا في ذلك نظرات ثلاث: نظرة فيما ذكروا من آيات، ونظرة فيما ساقوا من أحاديث، والنظرة الثالثة فيما ادعوا في هذا المقام من إجماع.

نظرة فيما ساقوا من آيات:

فأما الآيات التي تذكر في هذا الشأن فنحن نرجعها إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: آيات تذكر وفاة عيسى ورفعه، وتدل بظاهرها على أن الوفاة قد وقعت، وهذه الآيات هي:

١ - قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَبْعَثُ إِلَيَّ مَوْفِيكَ وَرَأْسَكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

٢ - قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٥٧] إلى قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨].

٣ - قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿لَمَّا نُوَفِّيَنِي كُنْتُ أَتَى الْأَرْيَبِ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقد تناولنا هذه الآيات في الفتوى ودرستها دراسة علمية واضحة، وعرضنا إلى آراء المفسرين فيها، وبيّنا أنه ليس فيها دليل قاطع على أن عيسى رفع بجسمه إلى السماء، بل هي - على الرغم مما يراه بعض المفسرين - ظاهرة بمجموعها في أن

(١) راجع فصل «طريق ثبوت العقيدة» من كتابنا «الإسلام عقيدة وشريعة».

عيسى قد توفي لأجله، وأن الله رفع مكانته حين عصمه منهم، وصانه وطهره من مكرهم. ولسنا في حاجة إلى أن نعيد شيئاً مما ذكرناه^(١).

النوع الثاني: آيات ما كان ليخطر بالبال أن لها صلة بموضوع البحث، فلذا لم نفكر فيها، وحسبنا الآن أن نمثل لهذا النوع بما قال أحدهم:

«ولك أن تضم إلى ما ذكرناه قوله تعالى عنه عليه السلام: ﴿وَجِئَا فِي الْأُتَيَا وَالْآخِرَةِ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥]. ففي قوله: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ إشارة إلى رفعه إلى محل الملائكة المقربين».

والشيخ يريد السماء طبعاً، وهو لي للكتاب غريب، فقد وردت كلمة «المقربين» في غير موضع من القرآن الكريم: ﴿وَالْمُتَّقُونَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ أَتْلُوكَ الْقُرْآنَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١]، ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [قوله: ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾] [المطففين: ٢٨]، وإذن فليس عيسى وحده هو الذي يعيش بجسمه في السماء، بل معه أفواج من عباد الله يعيشون فيها ويزداد عددهم يوماً بعد يوم. وهكذا فليكن المنطق!

ثم يقول: «بل في قوله تعالى: ﴿وَجِئَا فِي الْأُتَيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] إشارة إلى ذلك، لأن الوجيه بمعنى ذي الجاه، ولا أدل على كونه ذا جاه في الدنيا من رفعه إلى السماء».

(١) غير أنهم تمسكوا بقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] بعد قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ حَقّاً﴾ [النساء: ١٥٧] فقالوا: إن الرفع بعد نفي القتل هو رفع الجسم حتماً، وإلا لما تحققت المنافاة بين ما قبل «بل» وما بعدها، ونحن نقول لهم إن المنافاة متحققة، لأن الغرض من الرفع رفع المكانة والدرجة بالحيلة بينهم وبين الإيقاع به كما يريدون. والمعنى: أن الله عصمه منهم فلم يمكنهم من قتله بل أحبط مكرهم وأنقله ورفعه لأجله فرفع بذلك مكانته. وقد قلنا في الفتوى: إن الآية بهذا تتفق تماماً مع ظاهر قوله تعالى: ﴿إِنْ تُؤْمِنُ فَلَكَ دَرَكٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] وهذا احتمال قوي في الآية يمنع الزعم بأنها نص أو ظاهر في رفعه بجسمه حياً. ويقول الإمام الرازي في تفسيره: «ومظهره: مخرجك من بينهم ومفروق بينك وبينهم. وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه أخير عن معنى التخليص بلفظ التطهير، وكل ذلك يدل على المبالغة في إعلاء شأنه وتعظيم منزلته». ويقول في معنى قوله تعالى: ﴿وَيُجِئُكَ الْيَوْمَ أَهْلُكُمُوهُ فَذَلِكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٥] القول الثاني المراد من هذه الفوقية الفوقية بالحجة والبرهان» ثم يقول: واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله: ﴿وَجِئَا فِي الْأُتَيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] هو رفع الدرجة والمنتبة لا بالمكان والجهة، كما أن الفوقية في هذه الآية ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة اهـ.

وهذا كلام لا يقال، فإن وجاهة عيسى في الدنيا هي الرسالة المؤيدة بالمعجزات البينات ﴿وَمَعْلَمَةُ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةُ وَالنُّورُ وَالْإِنجِيلُ﴾ ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩] فكيف تذكر بجانب هذه الوجاهة قصة الرفع إلى السماء التي يرغمون هذه الآية على إفادتها أو الإشارة إليها؟ وكيف يكون وجهها في الدنيا من غادر الأرض وترك أهلها الذين يحسون وجاهته؟ وهكذا ينتزع القوم من كل عبارة إشارة أو تلميحاً ليؤيدوا ما زعموا أنه عقيدة يكفر منكرها؟

النوع الثالث: آياتان قد اختلفت آراء المفسرين في بيان المراد منهما، وجاء في بعض ما قيل: إنهما تدلان على نزول عيسى وهما:

١ - قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَأَن يِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٦].

٢ - وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَأَن لَّمْ يَلْمِزْ لِّسَانُكَ فَلَا تَنزَعْ مِنَّهَا﴾ [الزخرف: ٦١].

ما غاب عنا، وقت أن كتبنا الفتوى، النظر في هاتين الآيتين وفي درجة دلالتهما على نزول عيسى، وما غاب عنا ما ذكره المفسرون من الآراء والأفهام المختلفة فيهما، وما كنا نحسب - ونحن بصدد البحث عن دليل قاطع يُحكّم بالكفر على مخالفه - أن أحداً يعرض لهاتين الآيتين وقد رأى فيهما ما رأينا من أقوال المفسرين المختلفة في ذاتها، والمختلفة في ترجيحها، فيقول إنهما نصّان قاطعان في نزول عيسى! ولذلك أثّرنا إذ ذاك أن نترك الكلام عليهما اكتفاء بظهور درجتهما في الدلالة لكل من بقرا شيئاً من كتب التفسير. ولكنهم أبوا إلا أن يذكرنا هاتين الآيتين ويزعموا أنهما تدلان دلالة قاطعة على نزول عيسى، فلما نجد بدأ من أن نضع بين يدي القراء خلاصة لآراء المفسرين فيهما. ثم نقفي على ذلك بما نرى ليتبين الحق وأضحاً:

الآية الأولى:

للمفسرين في هذه الآية آراء مختلفة وأشهرها رأيان:

الأول: أن الضمير في ﴿به﴾ و﴿موته﴾ لعيسى. والمعنى: ما من أحد من أهل الكتاب يهوديهم ونصرانيهم إلا ليؤمنن بعيسى قبل أن يموت عيسى. قالوا: أخبرت هذه الآية أن أهل الكتاب سيؤمنون بعيسى قبل موته، وهم لم يؤمنوا به إلى الآن على الوجه الذي طلب منهم، فلا بد أن يكون عيسى إلى الآن حياً، ولا بد أن يتحقق هذا الإيمان به قبل موته، وذلك إنما يكون عند نزوله آخر الزمان.

الثاني: أن الضمير في ﴿به﴾ لعيسى، وفي ﴿موته﴾ للكتابي. والمعنى أنه ما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن قبل موته بعيسى. والإخبار بإيمان أهل الكتاب على هذا الوجه لا يتوقف على حياة عيسى الآن، ولا على نزوله في المستقبل، لأن المراد أنهم يؤمنون عند معايتهم الموت بأنه نبي الله وابن أمته.

هذان رأيان مشهوران في الآية عند المفسرين. ولكل منهما من يرجحه. وقد ساقهما ابن جرير، وذكر الآثار التي تدل لكل منهما ثم قال: «وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال: تأويل ذلك، وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل أن يموت عيسى. وإنما قلنا ذلك لأن الله جلّ ثناؤه حكم لكل مؤمن بمحمد ﷺ بحكم أهل الإيمان في الموارثة والصلاة عليه والحق صغار أولاده بحكمه في الملة، فلو كان كل كتابي يؤمن بعيسى قبل موته لوجب ألا يرث الكتابي إذا مات إلا أولاده الصغار أو البالغون منهم من أهل الإسلام.. وأن يكون حكمه حكم المسلمين في الصلاة عليه وغسله وتقبيره. لأن من مات مؤمناً بعيسى فقد مات مؤمناً بمحمد.. وقد أجمع أهل الإسلام على أن كل كتابي مات قبل إفراره بمحمد صلوات الله عليه، وما جاء به من عند الله فمحكوم له بحكم ما كان عليه أيام حياته غير منقول شيء من أحكامه في نفسه وماله وولده صغارهم وكبارهم بموته عما كان عليه في حياته، فدل هذا على أن المعنى: إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى، وإن ذلك عند نزوله»^(١).

ويريد ابن جرير بهذه العبارة أن الإيمان بعيسى يلزمه الإيمان بمحمد صلوات الله وسلامه عليهما، لأن رسالة محمد مما جاء به عيسى، وعليه يكون من آمن بعيسى مؤمناً بمحمد فيكون مسلماً له أحكام المسلمين في التوارث والصلاة عليه وغسله ودفنه في مقابر المسلمين.. الخ وهذا يخالف إجماع المسلمين على عدم ثبوت شيء من هذه الأحكام للكتابي الذي يموت، وإذا كان هذا يخالف الإجماع فقد بطل أن يكون معنى الآية ما ذكر، وكان أولى الأقوال بالصحة والصواب» في نظر ابن جرير هو الرأي الأول الذي لا يترتب عليه مصادمة الإجماع.

إلى هنا، وقبل مناقشة ابن جرير فيما رجح به، ليس في الأمر أكثر من أن مفسراً من بين المفسرين قد اختار رأياً من رأيين حكاهما عن أهل المأثور ورجح ما اختاره بما رأى، ولكن القوم تلقفوا هذا عن ابن جرير دليلاً قاطعاً على ما يزعمون من نزول عيسى. ونحن نلخص ردنا عليهم في النقاط الآتية التي غفلوا أو تغافلوا عنها.

(١) عن ابن جرير ببعض تصرف.

١ - أن ابن جرير يذكر احتمالين في الآية، ويذكر الآثار الدالة لكل منهما ويصل بالرأي الثاني إلى ابن عباس ومجاهد وغيرهما، فكيف بعد نصاً قاطعاً غير محتمل لأكثر من معنى ما خالف فيه ابن عباس ومجاهد وغيرهما؟

٢ - أن ابن جرير كما وجه الرأي الذي اختاره وجه الرأي الثاني أيضاً «بأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه» وهذا فيما أرى هو الذي جعل ابن جرير يقتصد في التعبير عن ترجيح ما اختاره فيقول: «وأولى الأقوال» بدل أن يقول مثلاً: والرأي الصحيح.

٣ - إن يكن ابن جرير قد رجح أحد المعنيين فقد رجح غيره من العلماء المعنى الآخر ومنهم الإمامان: النووي والزمخشري وغيرهما. قال ابن حجر في فتح الباري: «ورجح جماعة هذا المذهب - يريد الثاني - بقراءة أبي بن كعب: «إِلا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ» أي أهل الكتاب، قال النووي: معنى الآية على هذا ليس من أهل الكتاب أحد يحضره الموت إلا آمن عند المعاينة قبل خروج روحه بعيسى وأنه عبد الله وابن أمته، ولكن لا ينفعه هذا الإيمان في تلك الحالة كما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْكُوفَةُ لِلَّذِينَ يَحْمِلُونَ الصَّلَاطَ حَقًّا إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ﴾ [النساء: ١٨] ثم قال: وهذا المذهب أظهر، لأن الأول يخص الكتابي الذي يدرك نزول عيسى، وظاهر القرآن عمومته في كل كتابي في زمن نزول عيسى وقبْله.

وقد ذكر صاحب الكشاف قريباً من هذا وأطال فيه ونقله عنه الإمام الرازي في تفسيره فليرجع إليهما من شاء.

بهذا يتبين:

١ - أن هذه الآية ليست نصاً في معنى واحد حتى تكون دليلاً قاطعاً فيه.

٢ - أن ما تمسك به ابن جرير في ترجيحه للرأي الأول غير مسلم له، فقد بناء على أن المراد بالإيمان في الآية هو الإيمان المعتبر الذي ينفع صاحبه وترتب عليه الأحكام، مع أنه إيمان - كما قرره العلماء، ومنهم ابن جرير نفسه - لا يعتد به ولا يُقام له وزن ولا ترتب عليه أحكام لأنه إيمان جاء في غير وقته.

٣ - أن من ينظر فيما تمسك به أصحاب المذهب الثاني: من العموم الواضح في قوله: ﴿وَلَيْنَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩] ومن قراءة أبي «إلا ليؤمنن به قبل موتهم» ومن أن إيمان المعاينة لا ينفع صاحبه عند الجميع، لا يسهه إلا أن

يخالف ابن جرير فيما ذهب إليه وأن يقول مع النووي عن المذهب الثاني: «وهذا المذهب أظهر».

والنتيجة الحتمية لهذا كله أن الآية ليست ظاهرة فيما يقتضي نزول عيسى فضلاً عن أن تكون قاطعة فيه!

الآية الثانية:

للمفسرين في هذه الآية أيضاً آراء مختلفة، ومن هذه الآراء أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَئِيمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١] راجع إلى محمد ﷺ أو إلى القرآن، ولكننا نستبعد هذا ونرى أن الضمير راجع إلى عيسى كما يراه كثير من المفسرين، وذلك لأن الحديث في الآيات السابقة كان عن عيسى. ومع ذلك نجد خلافاً آخر يصوره لنا بعض المفسرين بقوله: ﴿وَأَنَّهُ لَئِيمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [البقرة: ١٣٠] أي عيسى ﴿لَئِيمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١] أي إنه بنزوله شَرَطُ من أشراطها، أو بحدوثه بغير أب، أو بإحيائه الموتى دليل على صحة البعث^(١).

ومن ذلك يتبين أن في توجيه كون عيسى علماً للساعة ثلاثة أقوال:

الأول: أنه بنزوله آخر الزمان علامة من علامات الساعة.

الثاني: أنه بحدوثه من غير أب دليل على إمكان الساعة.

الثالث: أنه بإحيائه الموتى دليل على إمكان البعث والنشور.

ولقد كان في احتمال الآية لهذه المعاني التي يقررها المفسرون كفاية في أنها ليست نصاً قاطعاً في نزول عيسى، ولكننا لا نكتفي بهذا بل نرجح القول الثاني (وهو أن عيسى بحدوثه من غير أب دليل على إمكان الساعة) معتمدين في هذا الترجيح على ما يأتي:

١ - أن الكلام مسوق لأهل مكة الذين ينكرون البعث ويعجبون من حديثه، وقد عنى القرآن الكريم في كثير من آياته وسوره بالرد عليهم، واقتلاع الشك من قلوبهم. وطريقته في ذلك أن يلفت أنظارهم إلى الأشياء التي يشاهدونها فعلاً أو يؤمنون بها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نَّارٍ﴾ [الحج: ٥]، ﴿وَنَرَى الْأَرْضَ هَائِلَةً فَإِنَّا أَنزَلْنَاهَا عَلَيْهَا أَلَمْ تَرَ يَوْمَئِذٍ﴾ [الحج: ٥]، ﴿فَانظُرْ إِلَى مَائِدِ رَحْمَتِ

أَلَمْ يَكُنْ يَحْيَى الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْبَأٌ ﴿٥٠﴾ [الرُّوم: ٥٠] وقد عرضت سورة الزخرف التي وردت فيها هذه الآية إلى هذا المعنى في أولها: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَّيِّتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُكَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١].

وهذه هي الطريقة المستقيمة المنتجة في الاستدلال المقتلعة للشك. أما أن يلفت أنظارهم إلى أشياء يخبرهم هو بها كنزول عيسى، وهي أيضاً في موضع الشك عندهم، ويطلب منهم أن يقتلوا بهذه الأشياء ما في قلوبهم من شك فذلك طريق غير مستقيم، لأنه استدلال على شيء في موضع الإنكار بشيء هو كذلك في موضع الإنكار!

٢ - ومما يزيد هذا قول الله تعالى تفرعاً على أن عيسى علم للساعة: ﴿فَلَا تَعْتَرِكُ إِيَّاهُ﴾ [الزخرف: ٦١] فإنه يدل على أن الكلام مع قوم يشكون في نفس الساعة، والعلامة إنما تكون لمن آمن بها وصدق أنها آتية لا ريب فيها، أما الذي ينكر وقوعها أو يشك فيها فهو ليس بحاجة إلى أن يتحدث معه عن علامتها، بل لا يصح أن يتحدث في ذلك معه، وإنما هو بحاجة إلى دليل يحمله على الإيمان بها أولاً ليتمكن أن يقال له بعد ذلك: هذا الذي آمنت به علامته كذا.

٣ - ثم إنه من الأصول المقررة في فهم أساليب اللغة العربية أن الحكم إذا أسند في اللفظ إلى الذات، ولم نصح إرادتها معنى، قدر في الكلام ما كان أقرب إلى الذات وأشد اتصالاً بها. فإذا طبقنا هذه القاعدة على قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتُمْ لَيْلِمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١] وعلمنا أن ذات عيسى من حيث هي لا يصح أن تكون مرادة هنا، وأنه لا بد من تقدير في الكلام، ثم وازنا بين النزول، والخلق من غير أب، وإحياء الموتى، فلا شك أننا نجد الخلق من غير أب أقرب هذه الثلاثة إلى الذات، لأنه راجع إلى إنشائه وتكوينه لا إلى شيء عارض له، وحينئذ يتعين الحمل عليه ويكون معنى الآية الكريمة: (لا تشكوا في الساعة، فإن الذي قدر على خلق عيسى عن غير أب قادر عليها).

وبهذا يتبين:

أولاً: أن الإخبار بنزول عيسى لا يصلح دليلاً على الساعة يقتل به ما في نفوس المنكرين لها من شك ويصح أن يقال عقبه: ﴿فَلَا تَعْتَرِكُ إِيَّاهُ﴾ [الزخرف: ٦١].

وثانياً: أن جعل عيسى بنزوله آخر الزمان علامة من علامات الساعة لا يستقيم هنا، لأن الحديث مع قوم منكرين للساعة فهم بحاجة إلى دليل عليها، لا مع قوم مؤمنين بها حتى تذكر لهم علاماتها.

وثالثاً: أن أقرب ما تحمل عليه الآية هو المعنى الثاني الذي بيّنا.



أما بعد فهذه هي الآيات التي أوردوها في شأن عيسى من رفعه أو نزوله. ولا شك أن القارئ المنصف بعد عرضها على هذا النحو وتطبيقها على المبادئ التي ذكرنا لا يخامرهم شك في أنه (ليس في القرآن الكريم ما يفيد بظاھر غلبة ظن بنزول عيسى أو رفعه فضلاً عما يفيد القطع الذي يكون العقيدة، ويُكفّر مُنْكَرُهُ كما يزعمون).

النظرة الثانية في الأحاديث:

والنظرة الثانية فيما ساقوا من أحاديث:

وموجز ما نقول فيها: أنها لا تخرج عن كونها أحاديث آحاد، وأحاديث الآحاد مهما صحّت لا تفيد يقيناً بثبوت عقيدة يكفر منكرها.

وإنه ليؤسفني أن أرى قوماً تظاهروا بالانتساب إلى الدين والغيرة على أحاديث الرسول استباحوا لأنفسهم - في سبيل أغراضهم الدُّنيا - أن يصطنعوا كل أساليب التليس والتمويه في شأن أحاديث عيسى التي لا يمكن أن يكون منها متواتر حتى على أوسع الآراء في تحقيقه، وهي مع أحاديثها بكثرة ويشد في معظمها ضعف الرواة واضطراب المتن ونكارة المعاني، فتراهم يقولون هي متواترة قد رواها فلان وفلان من الصحابة والتابعين، وذكرت في كتاب كذا وكتاب كذا من كتب المتقدمين، فإذا رأوا في بعضها ضعفاً أو اضطراباً أو نكارة حاولوا التخلص من ذلك فقالوا: إن الضعيف فيها منجبر بالقوي، وإن العدالة لا تشترط في رواية المتواتر. وهكذا يخلعون عليها ثوباً مهلهلاً من القداسة لا رغبة في علم ولا غيرة على حق، ولكن مكابرة وعناداً، وإصراراً على التضليل، وليقال على السنة العامة وأشباه العامة إنهم حفاظ وإنهم محدثون!



بقي بعد هذا أمر لا بد من تقريره: وهو أن تلك الأحاديث كيفما كانت ليست من قبيل المحكم الذي لا يحتمل التأويل حتى تكون قطعية الدلالة، فقد تناولتها أفهام العلماء قديماً وحديثاً ولم يجدوا مانعاً من تأويلها: وقد جاء في شرح المقاصد بعد أن قرر مؤلفها أن جميع أحاديث أشراف الساعة آحادية ما نصه: ولا يمتنع حملها على ظواهرها عند أهل الشريعة... وأول بعض العلماء النار الخارجة من الحجاز بالعلم والهداية سيما الفقه الحجازي، والنار الحاشرة للناس بفتنة الأتراك، وفتنة الدجال بظهور الشر والفساد، ونزول عيسى عليه السلام باندفاع ذلك وبُذُو الخير والصلاح... الخ.

ومن ذلك نرى أن السعد - صاحب المقاصد - لا يقرر وجوب حملها على ظواهرها حتى تكون من قطعي الدلالة الذي يمتنع تأويله، وإنما يقرر بصريح العبارة «أنه لا مانع من حملها على ظواهرها» فيعطي بذلك حق التأويل لمن انفدح في قلبه سبب للتأويل. ثم يحدث عن بعض العلماء أنهم سلكوا سبيل التأويل في هذه الأحاديث فعلاً، وبين المعنى الذي حملوها عليه، ولا شك أن هذا لم يكن منه إلا لأنه يعتقد - كما يعتقد سائر العلماء الذين يعرفون الفرق بين ما يقبل التأويل وما لا يقبله - أن ما تدل عليه ألفاظ تلك الأحاديث ليس عقيدة يجب الإيمان بها فمن أذاه نظره إلى أن يؤمن بظواهرها فله ذلك، ومن أذاه نظره إلى تأويلها فله ذلك شأن كل ظني في دلالته.

ومما تقدم يتبين جلياً «أنه ليس في الأحاديث التي أوردوها في شأن نزول عيسى آخر الزمان قطعية ما، لا من ناحية ورودها ولا من ناحية دلالتها».

النظرة الثالثة في الإجماع:

بقي أن ننظر النظرة الثالثة فيما زعموا من إجماع في هذا المقام.

وأحب أن أشير هنا إلى أن «الإجماع» الذي اشتهر بين الناس أنه أصل من أصول التشريع في الإسلام قد اختلفت فيه المذاهب والآراء اختلافاً بعيداً:

اختلفوا في حقيقته، واختلفوا في إمكانه، وتصور وقوعه.

ثم اختلفوا في حجتيه. الخ مما يتبين لنا به أن حجة الإجماع في ذاتها غير معلومة بدليل قطعي فضلاً عن أن يكون الحكم الذي أثبت به معلوماً بدليل قطعي فيكفر منكروه.

ثم نقول: إن الذين ذهبوا إلى حجية الإجماع لم يتفقوا على شيء يحتاج به فيه سوى الأحكام الشرعية العملية، أما الحسيات المستقبلية من أشراط الساعة وأمور الآخرة فقد قالوا: «إن الإجماع عليها لا يعتبر من حيث هو إجماع لأن المجتمعين لا يعلمون الغيب، بل يعتبر من حيث هو منقول عن بطلعه الله على الغيب، فهو راجع إلى الإخبارات فيأخذ حكمها، وليس من الإجماع المخصوص بأمة محمد ﷺ لأن الحسي المستقبل لا مدخل للاجتهاد فيه، فإن ورد به نص فهو ثابت به ولا احتياج إلى الإجماع، وإن لم يرد به نص فلا مسأغ للاجتهاد فيه»^(١) وعلى هذا تخضع جميع الأخبار التي تتحدث عن أشراط الساعة ومن بينها نزول عيسى إلى مبدأ قطعية النصوص وظنيها في الوجود والدلالة.

خلاف قديم وحديث في المسألة:

وعلى فرض أن أشراط الساعة مما يخضع للإجماع الذي اصطلاحوا عليه نقول: إن نزول عيسى قد استقرّ فيه الخلاف قديماً وحديثاً:

أما قديماً فقد نصّ على ذلك ابن حزم في كتابه «مراتب الإجماع» حيث يقول: «وافتقوا على أنه لا نبي مع محمد ﷺ ولا بعده أبداً، إلا أنهم اختلفوا في عيسى عليه السلام: أيأتي قبل يوم القيامة أم لا؟ وهو عيسى ابن مريم المبعوث إلى بني إسرائيل قبل مبعث محمد عليه السلام»، كما نصّ عليه أيضاً القاضي عياض في شرح «سلم»، والسعد في شرح المقاصد، وقد سقنا عباراته قريباً وهي واضحة جلية في أن المسألة ثلثية في ورودها ودالاتها

وأما حديثاً فقد قرر ذلك كل من الأستاذين المغفور لهم: الشيخ محمد عبده والسيد رشيد رضا، والأستاذ الأكبر الشيخ المراغي.

فالشَّيْخُ مُحَمَّدُ عَبْدُهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَذْكُرُ وَهُوَ بِصَدَدِ تَفْسِيرِ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ: ﴿قَالَ اللَّهُ يَتِيمِمْ إِلَى مُتَوَكِّلِكَ وَرَاقِيكَ إِلَ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٥٥] «أن للعلماء هنا طريقتين: إحداهما وهي المشهورة أنه رُفِعَ بجسمه حيّاً وأنه سينزل في آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى... والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها، وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر منه وهو الإمامة العادية وأن الرفع يكون بعده وهو

رفع الروح... الخ» ثم يذكر «أن لأهل هذه الطريقة في أحاديث الرفع والنزول تخريجين: أحدهما أنها آحاد تتعلق بأمر اعتقادي، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي وليس في الباب حديث متواتر، وثانيهما تأويل النزول» بنحو ما سبق نقله عن شرح المقاصد^(١).

وقد ورد على المغفور له السيد رشيد رضا سؤال من «تونس» وفيه «ما حالة سيدنا عيسى الآن؟ وأين جسمه من روحه؟ وما قولكم في الآية: ﴿إِنِّي مُتَوَلِّيكَ وَرَأْسُكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] وإن كان حياً يُرزق كما كان في الدنيا فمم يأتيه الغذاء الذي يحتاج إليه كل جسم حيواني كما هي سنة الله في خلقه؟ فأجابه السيد رشيد إجابة مفصلة عما سأل عنه نفتطف منها ما يأتي:

قال بعد أن عرض للآيات وآراء المفسرين فيها «وجملة القول إنه ليس في القرآن نص صريح في أن عيسى رُفِعَ بروحه وجسده إلى السماء حياً حياة دنيوية بهما بحيث يحتاج بحسب سنن الله تعالى إلى غذاء فيتوجه سؤال السائل عن غذائه، وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء وإنما هي عقيدة أكثر النصارى، وقد حاولوا في كل زمان منذ ظهور الإسلام بشها في المسلمين» ثم تكلم عن الأحاديث وقال: «إن هذه المسألة من المسائل الخلافية حتى بين المتقول عنهم رفع المسيح بروحه وجسده إلى السماء»^(٢).

أما المغفور له الأستاذ الأكبر الشيخ المراغي فقد كتب بمناسبة السؤال الذي رفع إليه وكان سبباً في فتوانا، إجابة جاء فيها: «ليس في القرآن الكريم نص صريح قاطع على أن عيسى عليه السلام رفع بجسمه وروحه، وعلى أنه حي الآن بجسمه وروحه. وقول الله سبحانه: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَىٰ إِنِّي مُتَوَلِّيكَ وَرَأْسُكَ إِكَ وَمُطَهَّرَكَ مِنَ الْإِيمَانِ كَقَوْلِهِ﴾ [آل عمران: ٥٥] الظاهر منه أنه توفاه وأماته ثم رفعه، والظاهر من الرفع بعد الوفاة أنه رفع درجات عند الله كما قال في إدرس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْتَهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۖ﴾ [مریم: ٥٧] وهذا الظاهر ذهب إليه بعض

(١) الجزء الثالث من تفسير المنار.

(٢) الجزء العاشر من المجلد الثامن والعشرين للمنا.

علماء المسلمين فهو عند هؤلاء توفاه الله وفاة عادية ثم رفع درجاته عنده، فهو حي حياة روحية كحياة الشهداء وحياة غيره من الأنبياء. لكن جمهور العلماء على أنه رفعه بجسمه وروحه فهو حي الآن بجسمه وروحه، وفسروا الآية بهذا بناءً على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذي يسوغ تفسير القرآن بها، ثم قال: «لكن هذه الأحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التي توجب على المسلم عقيدة، والعقيدة لا تجب إلا بنص من القرآن أو بحديث متواتر» ثم قال: وعلى ذلك فلا يجب على المسلم أن يعتقد أن عيسى عليه السلام حي بجسمه وروحه، والذي يخالف في ذلك لا يعد كافراً في نظر الشريعة الإسلامية».

هذه نصوص صحيحة يقرر بها هؤلاء العلماء قديماً وحديثاً أن مسألة عيسى مسألة خلافية، وأن الآيات المتصلة بها ظاهرة في موته عليه السلام موتاً عادياً، وأن الأحاديث الواردة فيها أحاديث آحاد لا تثبت عقيدة، وهي مع هذا تحتل التأويل وأنه لا يكفر المسلم بإنكار رفع المسيح أو نزوله، فأين مع هذا كله ما يدعونه من إجماع^(١)؟

انتهت فتوى الشيخ محمود شلتوت

(١) من المهم مراجعة ما كتبناه عن ثبوت العقيدة بالقرآن والسنة والإجماع في فصل «طريق ثبوت العقيدة» من كتابنا «الإسلام عقيدة وشريعة».

مجلد ما تضمنته فتوى الشيخ محمود شلتوت من آراء

تضمنت:

- ١ - أن توفية الله لسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنِّي مُتَوَلِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] توفية موت وانتفاء حياة.
- ٢ - أن رفع سيدنا عيسى عليه السلام ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] معناه رفع المكانة لا رفع الجسد إلى السماء.
- ٣ - أن الأحاديث الواردة في رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء: (روايات مضطربة، مختلفة في ألفاظها ومعانيها اختلافاً لا مجال فيه للجمع بينها، وقد نص على ذلك علماء الحديث، وهي فوق ذلك: من رواية وهب بن منبه، وكعب الأحرار، وهما من أهل الكتاب...).
- ٤ - أن علماء المسلمين القائلين بالرفع الذاتي لسيدنا عيسى عليه السلام: لا اعتمادوا على حديث مزوي عن أبي هريرة، اقتصر فيه على الإخبار بنزول عيسى، وإذا صُح هذا الحديث فهو حديث آحاد، وقد اجتمع العلماء على أن أحاديث الآحاد لا تُفيد عقيدة، ولا يصح الاعتماد عليها في شأن المعتقدات).
- ٥ - أنهم اعتمادوا (على ما جاء في حديث المعراج من أن محمداً ﷺ، حينما صعد إلى السماء، وأخذ يستفتحها واحدة بعد واحدة، فتفتح له ويدخل، رأى عيسى عليه السلام هو وابن خالته يحيى في السماء الثانية. وكفينا في توضيح هذا المستند ما قرره كثير من شراح الحديث في شأن المعراج، وفي شأن اجتماع محمد ﷺ بالأنبياء، وأنه كان اجتماعاً رُويًا لا جسمانيًا).
- ٦ - أن الإجماع في الشريعة الإسلامية غير واقع ولا حاصل...
- ٧ - أن (إجماع العلماء على أن أحاديث الآحاد لا تُفيد عقيدة، ولا يصح الاعتماد عليها في شأن المعتقدات).
- ٨ - وغير هذا من التناقض والنهاتر والآراء الزائفة...

واليك من بعد هذا

كتاب الإمام الكوثري رداً على هذه الفتوى

نظرة عابرة

في مزاعم من ينكر نزول عيسى عليه السلام قبل الآخرة

وهو كتاب الإمام الكوثري

ردًا على فتوى الشيخ محمود شلتوت

التي وردت في الصفحات السابقة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد فإن مما يُحزُّ في نفس كل غيور على الدين الإسلامي أن يُرى من تُغْدِقُ عليه الأمة كل خير، ليقوم بحراسة الدين وجُمع كلمة المسلمين، يَسْعَى بكل ما أُوتِيَ من قوة البيان، في التشكيك فيما توارثته الأمة في المسائل الاعتقادية والعملية والخلقية من صدر الإسلام إلى اليوم، وتشتيت كلمتهم بمُفاجأتهم بما يَدْعُهُم حيارى بين الأخذ بالجديد والاستمرار على القديم، متهامين فيما بينهم بما لا يُرضي الله ورسوله.

وهو يخسب أنه في سبيل التجديد، ظناً منه أن كل تجديد يرفع شأن الأمة، مع أن التجديد النافع هو اكتشاف أمور جديدة من أسرار الكون واستخدامها في مرافق الحياة، وإصلاح شؤون المجتمع بإزالة أسباب الانحلال الخُلقي والتذبذب الديني.

وهذا هو الذي يُعلي شأن الأمة حقاً، ويُغنيها عن أن تكون عالة على أمة سوى نفسها، فتجعلها تقطع شوطاً بعيداً في سبيل استعادة مجد الأجداد، فلا تجد من يُعاكس مثل هذا النهوض، بل يُلْقَى كُلُّ تشجيع وتقدير وثناء في كل ناد. وأما بساسُ دين الأمة والأحكام العملية والاعتقادية المستقرة من صدر الإسلام إلى اليوم، بتحويل وتغيير، باسم الإصلاح أو التجديد بين حين وآخر، فلا يكون وسيلة خير أصلاً.

وكتاب الله محفوظ كما أنزل، وسنة رسوله محفوظة ببيباة من عناية الحُفَظ في كل قرن، ومسائل الوفاق والخلاف مدونة في كتب خالدة في جميع الطبقات، لا يُحوِّجُ شيء إلى شيء، غير بعض عناية بالاطلاع، وهكذا جميع العلوم المتصلة بالقرآن الحكيم.

فدين يكون كتابه، وسنة رسوله، ومسائله، ومؤلفاته كما وصفناه لا يحتاج إلى «لوثية»، ومن ظن خلاف هذا فقد جهل تاريخ دين الإسلام وتاريخ الدين النصراني،

وأساء المقارنة بينهما، وليس التلاعب بالمعتقد والأحكام العملية مما يرفع رأس الأمة عالياً، بل يُنكس رأسها، ويجعلها تذوق مرارة الانحلال في الاعتقاد والعمل والخلق. فليعمل دعاة التجديد في الدين (معروفاً) مع أنفسهم، ومع الأمة، وليقبلوا عن الميأس بأحكام الدين، وكفاهم أن يتوسعوا في العلوم الإسلامية، ويحافظوا على التراث كما هو، غير ملموس بالتحوير والتغيير، فينالون بذلك كل الثناء وكل الشكر. وليس الدين مما يبدل كل يوم، وإن أبوا إلا تبديل الشعار، وتغيير الأحكام العملية والاعتقادية، بشئ الوسائل، تبعاً لأهواء المتوسسين، فلا تتأخر عنهم نعمة الله ومقت المسلمين.

وقد سبق أن تناول بعض المشايخ على كثير من الأسس القويمة قبل عام^(١) فردّ عليه أهل العلم بما يرجع الحق إلى نصابه، والآن يُعيد الكرة! ويصير على إنكار رفع عيسى عليه السلام حباً ونزولاً في آخر الزمان، على خلاف معتقد المسلمين، بمقالات ينشرها في مجلة الرسالة، يزداد فيها بعداً عن الجادة، وعن أسس العلم، وتشكيكاً للعامة في العمل والاعتقاد.

ولا أدري أي حاجة كانت تدعوه إلى ذلك الإنكار، أم أي فائدة كان يتصور أن تجنيها الأمة من وراء جنائبه على اعتقادهم؟ فإن كانت بيت مخالفتهم رغم قيام الأدلة ضدّ رايه، كان في إمكانه الإسراؤ بقنياه إلى المستغني كما فعل شيخه^(٢)، وأما بعد أن جاهر بها وأعلن وأصر واستكبر، فلا نرعد أن تبقى في عداد الشياطين الخُزَم عن إبطال الباطل، فترد في فصول على تلبساته وتشكيكاته بإذن الله سبحانه، وهو ولي التوفيق.

(١) هو الشيخ محمود شلتوت، المرود عليه بهذا الكتاب، فقد كتب أكثر من مقال في مجلة الرسالة بعنوان (شخصيات الرسول)، خلط فيه وبلطاً فردّ عليه الإمام الشيخ الخضر حسين، شيخ الأزهر فيما بعد، وغيره من العلماء، فيشير الإمام الكونري هنا إلى مزائف الشيخ شلتوت في تلك المقالات وأمثالها.

(٢) هو الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر آنذاك.

أما سئموا من النزول؟!!

إصرارُ فاضٍ على فُتْنِ زائفةٍ له في إنكار نزول عيسى عليه السلام، أوجب مُناصرةَ عقيدةَ المسلمين في المسألة، ولولا هذا لكنا في غُنية عن هذا الحديث في مثل هذه الظروف.

ومن الناس من لا يجد موطىءَ قَدَمٍ يَقْوَى على خَمْلِ أثقالِهِ، فلا يزدادُ إلا نُزولاً وتورُطاً كلما حاول النهوضَ من حيث كُنّا، مثل الأُستاذِ المتهَجِّمِ، فإنك تراه يزدادُ تورُطاً وتخيُّطاً وانكسافاً وانخسافاً، كلما حاولَ الدفاعَ عن خروجهِ على المتوارِثِ في العمل والعقيدة.

فها هو ذا قد كُتِبَ مقالاً في العدد (٥١٤) من مجلة الرسالة، يظهرُ منه أنه يريد أن يشغل الناسَ - إلى نزول عيسى عليه السلام - برأيه الشاذِّ في النزول، بعد أن أمانتهُ حُجَجُ أهلِ الحقِّ وأقْبَرَتُهُ، والدُّجَالُ الأعورُ لا يتأخَّرُ عن الاعترافِ بنزولهِ عليه السلام، حين يَرى نُزولهَ بعينه السليمةِ مع عدمِ اعترافِهِ بالوحي.

ومن أسوأ ما يُصابُ به المرءُ أن لا يَشْعُرَ بما مُبْنِي به في مُناهضةِ عقيدةِ الجماعة، فيزدادُ سُقوطاً بتمرُّدِهِ واستكبارِهِ عن قبولِ الحقِّ، ويرفِيهِ جماعةُ أهلِ العلمِ بدائِهِ، قاعداً تحتَ المَثَلِ السائر: «أَوْسَغْتُهُمْ سَبًّا وَأَوْذَوْا بِالْإِبِلِ»، وهو مطمئنٌ إلى أننا لا نستطيعُ أن تُساجِلَهُ في ذلك، وله الحقُّ في هذا الاطمئنان.

ومما يدل على مبلغ نهجِ أعصابِهِ إزاء وطأةِ الحقِّ قولُهُ عن حُجَجِ أهلِ الحقِّ الرادين على باطلِهِ: إنها إنما نُثِيرَتْ في مجلاتٍ وصُحُفٍ لا تَقَعُ عليها غيرُ عالم!! كلمةٌ ما أسخَفُها!! وبذلك يكونُ أَقْرَ على نَفْسِهِ بأنهُ غيرُ عالم، لأنه من كُتُنابِ مجلةٍ نكُتُبُ فيها، وكم كُتِبَ فيها واثني عليها، ورأى الردودَ على شطحاته فيها، فحاولَ الجوابَ عنها، فهو يراها ثم يراها إلى أن تقومَ قيامَتُهُ، وهذا الإقرار منه حُجَّةٌ قاصرةٌ لا تتعدى شخصَ المُقَرِّ، وله أن يُقَرِّ على نفسه بما يشاء.

وبعد أن اعترف هكذا بأنه غير عالم، كيف يزج نفسه في مضايق البحوث العلمية؟ أم كيف يبيح لنفسه أن يحكم على أناس بأنهم جهلة؟^(١) وليس الحكم على أناس بأنهم جهلة من شأن الجاهل، والجاهل إنما يعلم جهلة العالم، بيد أن الجاهل جهلاً مكعّباً - بجهله للشيء، وبعجهله لجهله له، وبجسايته مع ذلك أنه يعلمه فوق علم كل عالم - لا يتحاشى عن تجهيل الأمة بأسرها من صدر الإسلام إلى اليوم، في مسألة أجمعت الأمة عليها، وشذ هو فيها عن جماعة أهل الحق.

وأما إن كان العالم في نظره هو من يستلهم الفقه من (لاهاي)، ويستوجي العقيدة من (لاهور)^(٢)، فلتلك المجلات والصحف كل الفخر إذا لم تقع عليها عين مثل هذا العالم.

وقد أنطقه الله في مفتتح مقال له أية تنطبق كل الانطباق على شخص الشاذ نفسه، لو فكر وتدبر.

الصحابة والتابعون وأئمة الفقه والحديث والتفسير والتوحيد كلهم في جانب، يؤيدهم الكتاب والسنة والإجماع، وذلك المتحامل في جانب يعضده متنبئ القول في (قاديان)، وفيلسوف (طرة) في سابق الأزمان! منظر ما أرزعه! ومع ذلك كله يعد نفسه هو المحق النقي النقي الصالح الورع الوديع الحكيم، ويفرض أن جماعة علماء المسلمين على توالي القرون هم المبطلون المنتطمعون الحشوية! فاعجب أن يتحدث مثله عن الحجة والبرهان، وقد داس تحت رجله معايير العلم وموازين الفهم! فبحان قاسم المواهب.

فيجب أن يعلم أن إحالة من أحال المسألة عليه - كما فعل مثل ذلك في حمليه على التجرد على السنة - لا تبرر مؤلفه من حجاج الشرع في نزول عيسى عليه السلام، فها نحن أولاً نتعقب بإذن الله سبحانه خطوة فخطوة، في جميع ما يبدى ويعد، من انحرافات عن الجادة، وثريه بتوفيق الله وتسيديه ما دام للحق سلطان، كيف يكون رُهوق الباطل تحت قوارع الحجج؟ إلى أن يقتنع بالحق.

رجل يقول: إن الشيطان ليس بكائن حي عاقل، بل هو قوة الشر المنبئة في العالم! - كما هو رأي الباطنية - ويقسم السنة إلى أقسام، تمهيداً للانسلاخ من معظمها بل كلها، تقريباً إلى اللاهوتية نقاء السنة، ويستسهل إلغاء فريضة الظهور لمن صلى العيد

(١) يعني بلد القادياني، الذي جاءت فتوى الشيخ شلتوت على وفق دعواه!

يوم الجمعة علناً جهاراً - تشكيكاً للعامة في المتوازيات، ويدعو إلى القول بموت عيسى وعدم نزوله في آخر الزمان - موافقةً ومناصرةً للأحمدية أتباع منبىء المغول في قاديان.

(ولم ينس الناس بعد، ذلك الحديث المنشور لشيخه في (الصاعقة) و(الجامعة الإسلامية) و(الفتح) وتلك الفقرات في (تقرير البعثة الهندية، عنهم!).

ويحيل زملاءه باسم الدين الإسلامي على تجويز إقعاد معبوديه على ظُهر بغوصة، وإثبات القعود والقيام والمشي والحركة والتنقل والاستقرار المكاني والحدّ والجهة والمكان والبُعْد المكاني له تعالى، كما هو معتقد الحشوية.

(صغيرهم) يفعل ذلك كله، ولا يخجل مما اقترف، بل يخجّز على نشر ذلك المقال المكتظ بالعدوان على أهل الحق، ويُسمّح له أن ينال من أسس الدين، باسم جراحة الدين، ويكافأ مكافأة الخُراس الأماناء، ويحمل فوق الاكتاف هذا ما يئنه في تعليله العقل في بلد يكون العلم سائلاً فيه.

وقد بلغت به الجرأة إلى حد أن يُشهد على ما عند الله سبحانه - كأنه رسول من عند الله - فيقول فيمن ينفي زُفْع عيسى حياً، ونزولَه في آخر الزمان: إنه لاثبته في إيمانه عند الله. فيكون ما عليه الجماعة من الاعتقاد المتوازي على ضد من ذلك طبعاً، وهذا قلب للأوضاع فطبع، وجهل بأصول الاستدلال الشرعي شنيع. ولا أدري من أين أتاه هذا الوُحْي ضد اعتقاد جماعة المسلمين؟

واني أوصي ذلك المتحايل أن لا يذهل عن مداولات الألفاظ التي يوجهها إلى قُرّة عيون المجاهدين، وسيف المناظرين، العلامة الأوحى مولانا شيخ الإسلام^(١) - أمتع الله المسلمين بعلومه، وأطال بقاءه في خيرٍ وعافية - وأن يبتعد عن إرسال الكلام جُزأفاً نحوه، لأن سماعته ليس من الطراز الذي تعود صاحب المقال التجرؤ عليه، وهو القائم بالحجة في هذا العصر، كما كان البرهان الأنابسي يقول ذلك في ابن الهُمام، فيذوب أمام صَوْلَتِه العلمية كل مُبطل، فلطمّة أدبية منه تدع هذا المتهجم مثلاً في الآخرين.

(١) يعني به: شيخ الإسلام مصطفى صبري، آخر شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية، وقد سكن مصر مهاجراً إليها، ورد على بعض شذوذات الشيخ محمود شلتوت بقلمه البالغ الرفيع.

وما لصاحب المقال ولذلك المجهول في الجماعة؟! وهو نفسه غريقاً إلى (شوشته) في مخاضة لا يستطيع الخلاص منها، ولا النهوض حيث وقع. فأول واجب عليه أن يخلص نفسه مما تورط فيه من الزيغ المبين، لا أن يدافع جفاح الفضولي ويشهد بالنفي! عن مجهول يعلم نفسه ويغلمه غيره، ولا شأن له به.

وطائفة لا تأبى الانصياع لتقرير يكتبه بطل الخروج على كل متوازت، عن كتاب «الثقف» المكتظ بوثنيات مشروحة في العديدين (٤٤، ٤٥، ١٣٦١هـ من - مجلة - الإسلام، وتقرئ إباحة نشره، وأن لا شيء في تداوله: لا محل لاستبعاد أن يوجد بينهم من يقول: «إن قوله تعالى: ﴿وَنَاثَرَ النَّبِيعُ﴾ [الأحزاب: ٤٠] عرصة الاحتمالات العشرة!! وحديث «لا نبي بعدي» خير آحاد لا يفيد العلم، والإجماع في إمكانه ووقوعه وإمكان نقله وحجتيه: كلام!.

مع أن التقعر بالاحتمالات العشرة لا يمت إلى أي إمام من أئمة الدين بأي صلة، وإنما هو صنع يد بعض المبتدعة، وتابعه بعض المتفلسفين من أهل الأصول، فسائر هذا الرأي مسايرون من المقلدة، كما مخصص ذلك في موضعه، والقول بظنية الدليل اللفظي مطلقاً: باطل، لأدلة مشروحة في موضعه.

ومن لا يكون له الإمام بالسنة، ويكون له هوى في إبطالها بكل وسيلة، يسهل عليه أن يقول في كل ما ثبت بالتواتر المعنوي: هذا خير آحاد، كما يقول الشيخ في حديث نزول عيسى عليه السلام، وغيره في حديث «لا نبي بعدي»، مع أن طرقيهما في غاية الكثرة عند أهل العلم بالحديث.

وقد نص على تواتر حديث نزول عيسى عليه السلام، ابن جرير والأكبري وابن عطية وابن رشد الكبير والقرطبي وأبو حيان وابن كثير وابن حجر وغيرهم من الحفاظ، وهم أصحاب الشأن، وكذا صرح بتواتره الشوكاني وصديق خان والكشميري في مؤلفاتهم.

وسهل أيضاً على كل من يسير وراء الهذامين من اللامذهبية أن يقول في المسائل الإجماعية: إن الإجماع في إمكانه ووقوعه وإمكان نقله وحجتيه كلام! كما سبق، فإذن لا كتاب ولا سنة ولا إجماع، فليتقول من يشاء ما يشاء، كل يوم باسم الشرع!!

وليس انتقاد بطل الإسلام^(١) لأناس إلا بغد أن وَضَعَ إصبعه المشخصة على نصوص كلامهم، فلا يمكن لهم أن ينفلتوا من يده، حيث يَبْنِي رُدُودَهُ على الحقائق الملموسة - وفي كتابه الخبر اليقين -.

والضغينة التي يتخيلها بطلُ الشذوذ في كلام سماحيته، ما هي إلا بغض في الله، وليس بحومٍ حولَ فكره السامي طائرُ العنصریات والإقليميات وسائرُ وجوه الجهالات، التي وَضَعَهَا المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - تحت قُدَيْمِهِ الشريفة، لأن الإسلام لا يَعْرِفُ عنصراً ولا إقليماً، وإنما يَعْرِفُ إخاءً شاملاً على مبادئ سامية، وهكذا العلم لا يَخْصُ بلداً ولا قَبِيلاً، بل هو نُورٌ شامل.

ولذا تجدُ سماحته من أبرأ الناس من مثل تلك الجاهلية الجاهلاء، بل يُعَدُّ المبطلُ مبطلاً كائناً من كان، والباطلُ باطلاً حيثما كان، وإلا ما تَحَدَّثَ عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بما تَحَدَّثَ به عنه، لأنه تُرْكَمَانِي الدم - من بني جنبيه - كما كان الشيخُ نفسه يُصْرِّخُ بذلك، ومن شهود هذا التصريح صاحبُ «المنار» في المجلد الثامن (ص ٣٧٩)، ومعالِي الوزير الحكيم الشيخُ مصطفى عبد الرزاقِ باشا في مقدمة «العروة الوثقى».

وأما الشيخُ محمد عبده فله مميزات معروفة، وكان نادرةً بين شيوخ عصره في الكتابة والإدارة وتصريف الشؤون، والقيام ببعض ما يَمُودُ على المجتمع بخير، وقد أثنى عليه صديقه اللورد كرومر، بسعة العلم واستنارة الذهن، كما أثنى على مُريديه بأنهم: «جذبون بكل تشجيع ومساعدة، يمكن إمدادهم بهما، لأنهم خُلَفَاءُ المصلح الأوروبي الطبيعيين»!

وقال عن الشيخ عبده: «كان أخذَ زعماءِ الفتنَةِ العُرابية، فلما جثَّ مصر سنة ١٨٨٣ كان مغضوباً عليه، ولكن الخديو توفيق عفا عنه بما فُجِّرَ عليه من مكارم الأخلاق، وانقياداً لتشديد الإنكليز عليه في ذلك، وعيَّنه قاضياً (أهلياً)، فاحسنَ العملِ وأدَّى الأمانةَ حقَّها».

وقال أيضاً «إنني قَدِمْتُ لمحمد عبده كلَّ تشييط استطعته مدةً سنين كثيرة... ولسوءِ الحظ كان على خلافٍ كبير مع الخديو، ولم يتمكن من البقاء في منصب الإفتاء، لولا أنَّ الإنكليز أَيْدَوْهُ بِقُوَّة»!

(١) يعني به: سماحة الإمام شيخ الإسلام مصطفى صبري.

وصدَّقَ اللورد كرومر قولَ المستشارِ القضائي في الشيخ: «قام لنا بخِدمٍ جزيلة لا تُقدَّرُ، في مجلسِ سُورَى القوانين، في مُعظَمٍ ما أحدثناه أخيراً من الإصلاحات المتعلقة بالموادِّ الجنائية وغيرها، من الإصلاحات القضائية»^[١]

وقال اللورد أيضاً: «وفي سنة ١٨٩٩ رُفِّي إلى منصبِ الإفتاءِ الخطيرِ الشأنِ، فأصبحتُ مَسْؤُوتَهُ ومُعَاوَنَتُهُ في هذا المنصبِ ذاتَ قيمة ثمينة، لتضلُّعِهِ من علومِ الشرع الإسلامي، مع ما به من سعةِ العقلِ واستنارةِ الذهنِ»، ثم دَكَرَ كمنال فتواه في تسمير الأموال في صناديقِ التوفير.

وقد طال أمدُ الصداقة بين الشيخ وبين اللورد كرومر، فعرَفَ كُلُّ منهما صاحِبَهُ، فإذا انتَقَدَ يثُلُهُ بعضُ نواحي الانتقادِ في الشيخ، لا يُتَّهَمُ بِغَرَضٍ، بل يُعَدُّ منصفاً، ما غَطَّتْ صداقَتُهُ على حقيقةِ أمرِ صديقه، فدونك ما يقوله في «مصر الحديثة»، على ما تجد في المجلد الحادي عشر من المنار (ص ٩٤):

«واخشى أن يكون صديقي محمد عبده في حقيقةِ أمره (لا أذرياً) ولو أنه يستاء منه لو تُبَيَّنَ إليه». ثم يأخُذُ عليه حديثَهُ مع جمال الدين بشأن الخديو إسماعيل كما في (ص ٩٦) من المجلد المذكور. وأقْرَبُ الناسِ إلى الشيخ ما كان يُنْكِرُ تساهُلَ الشيخ في الإنشاءِ، ويأخُذُ عليه أنجبُ تلاميذِهِ المنفلوطي في «النظرات» فَتَحَهُ لبابِ التأويلِ على مصراعيهِ^(١)، بل يَسْتَبْعِدُ كثيرٌ من الناسِ التجرُّؤَ على المسائلِ المتوارثة ممن يرى قداسة الشرع.

والواقع أن للشيخ أطواراً في العلم والعمل والاتجاه، فوجِهَتُهُ في عهد «العروة الوثقى» غيرُ وجهته بعدَ اتِّصَالِهِ بزعيمه، كما ذكره مصطفى عبد الرازق باشا في «الشباب». واتجاههُ يومَ رَفَعِ اللاتحةَ إلى شيخ الإسلام العثماني غيرُ اتجاهه فيما بعد، وقد ذَكَرْتُ صفحَةً منها في العدد (١٩ - ١٣٦٢ هـ) من مجلة الإسلام، ومن طالَعَ «الواردات» و«العقيدة المحمدية» و«حاشية اللُّؤاني على العضدية» و«فتاواه» وما نُقِلَ عنه في التفسير، و«رسالة التوحيد»، لا يَصْغُبُ عليه فَهْمُ أطواره.

وتصوُّرُهُ الخطابَ إلى الحسن في دين، وإلى القلبِ في دين آخر، وإلى العقلِ في دين الإسلام فقط: خَيَالُ شاعرٍ بأباه قوله تعالى: ﴿وَيْلَكَ حُجَّتًا أَتَيْتَهَا لِزَيْمَةٍ﴾ [الأنعام: ٨٣] وغيره من الآيات، بل كُلُّ دينٍ إلهي إنما يكونُ الخطابُ فيه إلى العقلِ

(١) انظر في الجزء الأول من «النظرات» مقالة (يوم الحساب) ففيها نقد المنفلوطي لشيخه محمد عبده بأسلوب أدبي لاذع.

الذي سلطانه على المشاعر الظاهرة والباطنة على حدّ سَوَاء، ورأيه في تطوُّر الأدیان مَنَازَ جَدَلِ اليَوْمِ في الجامعة.

ولم يتحدث سماحة شيخ الإسلام إلا عن العلماء الذين تقاعسوا عن القيام بواجبهم، ولا تكلم عن المجلات والصحف عامة، بل عن الصحف والمجلات المنحرفة عن الثقافة الإسلامية.

فإن كان كاتب المقال يجهل وجود انحراف عن الثقافة الإسلامية، في صحف ومجلات تُنشر هنا وهي بين يديه، ويكتب في بعضها، - وصلة منبر آرائه بإسماعيل أذهم^(١) لا تزال ماثلة في الأذهان - فذلك لا يهمننا، وليس جهل ذلك بناع علينا، وما الجري وراء الخرص والتظن والتشويه إلا شأن غيرنا.

وأما تقرير كتاب معالي هبكل باشا مع نفيه المعجزات الكونية، ومع ردّه الاحتجاج بالسنة، فيجعل المؤلف والمقرّظ في صف واحد، وبيان حال المقرّظ في العدد (٤٢ - ١٣٦١هـ)، على أن المعجزات كلها قاهرة، وقصر المعجزة القاهرة على القرآن الحكيم نفى لسائر المعجزات!

ومن الغريب أن صاحب المقال كلما تحدّث عن السُّبِّ يُعطي الراذيين عليه حُجَجاً جديدة، تدل على بُغْده الشاسع عن معرفة علوم الحديث، وليس هو على علم من أن الحُجَرَ الذي تكثرُ رُواته في كل طبقة، بحيث تصل إلى حدّ التواتر، لا ينقُى للجرح والتعديل شأن في رجال أسانيد اتفاقاً بين أهل العلم بالحديث، وليس القول بأن هذا ضعيف منجبر، أو حسن، أو صحيح، إلا بالنظر إلى سند خاص ورواية خاصة، وأما الحديث الذي يرويه نحو ثلاثين صحابياً بطرق كثيرة تَبْلُغ حدّ التواتر في كل طبقة، فيخلو من أن تنال يد النقد طُرْفُه واحدة واحدة، بعد ثبوت التواتر بالنظر إلى مجموع الأسانيد والروايات.

فهذا البيان يعلم أن هُزَةَ الشيخ في الكلام عن سبعين حديثاً - أربعون منها صحاح وحسان، والباقي منجبر^(٢) - لا يجد مَوْرِداً، فترتد إلى مَصْدَرِهِ، ومُجَامَلَةُ أَهْلِ الحق لا تُنتظر ممن تعود مُجَامَلَةُ أَهْلِ الباطل.

(١) الملحد الزنديق، وداعية الإلحاد في تأليف كتاب له خاص بالإلحاد. وانظر ترجمته في (الأعلام) للزركلي.

(٢) انظر في هذا كتاب إمام العصر محمد أنور شاه الكشميري، واسمه: «التصريح بما تواتر في نزول المسيح»، وهو مطبوع في الهند ولبنان، وهو غابة الغابات في موضوعه.

وإذا رأيت من ظَهَرَتْ للعلل مُسَايَرَتُهُ لَاهْوَاءِ أَهْلِ عَصْرِهِ يَقُولُ فِي الْأَبَاةِ الْكَرَامِ الرَّادِّينَ عَلَى بَاطِلِهِ، الْقَائِمِينَ بِالذَّبِّ عَنْ دِينِ اللَّهِ يَوْمَ خَذَلَهُ خُرَاسُهُ: «فَتِلْكَ شَيْثِينَةُ عَرِفَتْ مِنْ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ مُنِيَ الْإِسْلَامُ بِهِمْ فِي كُلِّ عَصْرٍ، وَرَأَوْا أَنَّ مَسَايِرَةَ الْجَمَاهِيرِ فِي أَمْوَالِهِمْ وَعَقَائِدِهِمْ أَجْدَى لَهُمْ وَأَسْبَغَ لِلنِّعْمَةِ عَلَيْهِمْ» وَعَرَفَتْ دَعْوَتَهُ وَدَعْوَتَهُمْ، وَخَبِرَتْ مَخْيَأَهُ وَمَخْيَأَهُمْ: عَرَفَتْ مَبْلَغَ تَوَخُّي الصَّدِّقِ فِي قَلَمِهِ، وَهَكَذَا يَكُونُ الْأَدَبُ الرَّاقِي!! وَلَسْنَا نَعِيشُ فِي كُرَّةِ الْبَرِيخِ حَتَّى تَجْهَلُنَا الْأُمَّةُ.

وَأَمَّا تَوْهُمُهُ اتِّصَالَاتٍ بِشَأْنِهِ فَصُنِّعْ خِيَالَهُ! وَمُنَاصَرَةُ أَهْلِ الْحَقِّ لِلْحَقِّ فِي مِثْلِ هَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ لَا تُحَوِّجُ إِلَى اتِّصَالَاتٍ، لَكِنَّ الْمُرِيبَ يَكُونُ وَهَامًا، وَضِيَّيَ اللَّهِ عَنِ الَّذِينَ يُنَاصِرُونَ الْحَقَّ حَيْثَمَا كَانُوا.

وَلَيْسَ الشَّيْخُ بِمَوْفِقٍ حَتَّى فِي ضَرْبِهِ الْأَمْثَالُ وَذِكْرِهِ النِّظَائِرُ، عَلَى أَمَلٍ أَنْ تُخَفَّفَ الرُّوَاةُ عَنْهُ، وَهُوَ كَثِيرُ الْأَغْلَاطِ فِيهَا أَيْضًا، فَلَكُونَهَا غَرِيبَةً عَنِ الْمَوْضُوعِ، لَا نَسْتَغْلُ بِتَبْيِينِ تِلْكَ الْأَغْلَاطِ هُنَا، حَيْثُ لَا نَسْمَحُ لَهُ أَنْ يَسْرَحَ فِي خَارِجِ الْبَحْثِ، إِلَى أَنْ يُلْفَظَ مَا فِي جَنْبَيْهِ فِي الْمَوْضُوعِ. وَنَكْتَفِي بِلَفْظِ نَظَرِهِ إِلَى أَنَّهُ لَا تُنْقِذُهُ مِنْ وَرَطَبِهِ مُوَافَقَةُ طَائِفَةٍ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ، فَلْيَقُلْ مَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ كَاتِنًا مَا كَانَ قَوْلُهُ، وَاقِفُهُ الْيَهُودُ مَثَلًا أَمْ لَمْ يُوَافِقُوا، لَكِنْ لِيَحْذَرْ كُلُّ الْحَذَرِ مِمَّا يُخَالِفُهُ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ كَمَا لَتْنَا هَذِهِ، وَهَنَّاكَ الطَّائِمَةُ.

العقيدة الدينية وطريق ثبوتها

بهذا العنوان مقال أيضاً في العدد (٥١٦) يُوسَع فيه كاتبه - بعد مقدمة غريبة عن الموضوع - دائرة البحث الجاري بينه وبين الدّأبين عن عقيدة أهل الحق في نزول عيسى عليه السلام، فيتحرّر فيه ما لا صلة له به من آراء تكشف الغطاء عن علّم الكاتب وفهمه واتجاهه أكثر من ذي قبل، وتنبئه شهرة، لكن بما لا يرضاه لنفسه، وقد انفراد بفهم معنى (العقيدة)، وباكتشاف طريق ثبوتها في الإسلام، وإن تأخر هذا الفهم وهذا الاكتشاف إلى القرن الرابع عشر الهجري!! فلا بأس أن نستعرض هنا بعض آرائه الطريفة، لئلا يشغف عن مرمى كاتب المقال ووجهته.

فمنها قوله: «إن ما يجب الإيمان به يرجع إلى الأصول التي اشتركت فيها الأديان السماوية»، فعلى هذا لا يعترف الكاتب بعقيدة خاصة في الإسلام، ولا يقر بعقيدة فيه ما لم تكن متوارثة من الأديان السابقة!! فيكون هذا خبز الزاوية في بناء توحيد الأديان!! بل وضع أساس للاستغناء عن اللاحق بالسابق!!

مع أنه لا مضلّز يؤثّق به في الاطلاع على جليلة أحوال الأديان السابقة غير القرآن الحكيم والسنة النقية البيضاء. وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣] وقوله تعالى: ﴿تَسْأَلُونَ عَنْ كَيْفَ سَلَّمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦٤] للشدّرج بالمخاطبين إلى الدعوة المحمدية بحكمة. وليس الاشتراك في بعض الأسس يوجب الاشتراك في الجميع.

ومنها قوله: «إن الإيمان هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع عن دليل». وهذا رأي ساقط، لأن اعتقاد العامة لا عن دليل، فيكونون غير مؤمنين على هذا الرأي!.

ومنها قوله: «إن الدليل العقلي يقيّد اليقين، ويحقّق الإيمان المطلوب بالاتفاق بين العلماء»، فيختص بأن يكون مضلّز العقيدة، لأنها لا تؤخذ مما اختلف فيه عنده، والدليل العقلي مختلف فيه في نظره كما سيأتي منه.

ومنها قوله: «إِنَّ الأدلةَ النقليَّةَ لا تُفِيدُ اليقينَ، ولا تُحصِلُ الإيمانَ المطلوبَ، ولا تُثَبِّتُ بها وحدها عقيدةً عند كثير من العلماء، والذين ذهبوا إلى أنها تفيد اليقين، وتُثَبِّتُ العقيدةَ، شَرَطُوا في الدليلِ النقليِّ أن يكون قطعيَّ الورود، قطعيَّ الدلالة»، وذكرَ أمثلةً للنوعين على رأي الفريق الثاني، ثم قال: «ولا بد أن يَعْمَ العلمُ بالعقائد جميعَ الناس، ولا يَخْتَصُّ بطائفةٍ ذُوْنَ أخرى... ومن مقتضيات هذا العلم العامُّ بها أن لا يَقَعَّ خلافٌ بين العلماء في ثبوتها أو نفيها، والعِلْمِيَّاتُ المُخْتَلَفُ فيها لَيْسَتْ من العقائد».

فعلى هذا لا يكون أخذُ سالمِ العقيدةِ والإيمانِ ما لم يَعْتَقِدْ جميعُ الناس ما اعتَقَدَهُ هو، وما لم تَعْلَمْ كافَّةُ البَشَرِ ما عَلِمَهُ هو، فلا يُمكن للأشعرية أو الماتريدية مثلاً أن ينفردوا بعقيدة تكون حقاً، ما لم يُشاركهم باقي الفِرَقِ فيها، فتكون النُحُلُ كُلُّها على قَدَمِ المساواة، وتزُولُ الحواجزُ بينها، ويرتفعُ الغمُّ مع الذئابِ في مرتعٍ واحدٍ! فتكون النُحُلُ موحدةً بفضلِ هذا الاجتهادِ الجديد!!

ومنها قوله: «إن ما اختلفَ فيه العلماءُ في بابِ العقليات، والعِلْمِيَّاتِ، كاختلافِ الفقهاءِ في العملياتِ، في عدمِ التضليلِ والتفسيقِ، فضلاً عن التكفيرِ». والعلماءُ في نظره أَعْمُ من علماءِ أهلِ الحقِّ وزُعماءِ سائرِ الفِرَقِ من أي نوع كان يَدْعُهُمْ.

وهو يفرضُ أن الدليلَ القطعيَّ البَيِّنَ عند هذا، يكون بيناً معلوماً عند الجميع، وأنَّ الناسَ كُلَّهُم سَوَاسِيَةٌ في العلمِ والفهم!! فتَبَيَّنَ بتلك المبادئِ تصفيةُ كتبِ العقائدِ في الإسلام، وتنزيلُ مسائلها إلى عَشْرِ مِئْثَاطِها!! وفي ذلك الاقتصادُ التامُّ في العقيدة، والاقتصادُ مطلوبٌ في كل شيء!!

هذا هو مَنزِعُ صاحبنا، فما يجبُ اعتقادهُ في نظره هو ما اتَّفَقَ عليه أربابُ النُحُلِ، ويكونُ الناسُ أحراراً في اعتقادٍ ما يشاؤون، في مواضعِ الخلافِ بين الفِرَقِ بدونِ أي لومٍ وتثريب!! وقد سَبَقَ منه تنويعُ السُّئَةِ إلى أنواع^(١)، لا يكونُ للوَحْيِ شأنٌ إلا في الثَّرْرِ البَسيرِ منها، فَتَسْقُطُ أَغْلَبُ السُّئَةِ من أن تُصَلِّحَ للاحتجاجِ بها في بابِ العملِ، فضلاً عن بابِ الاعتقادِ، رَغَمَ ما يُقرُّهُ فخرُ الإسلامِ في ذلك، مع افتتانِ الكاتبِ بالنقلِ عنه فيما يهواه.

(١) وذلك في مقالاته التي كتبها بعنوان (شخصيات الرسول).

وهنا يضعُ قاعدةً تمنعُ من أخذ الاعتقاد من مُرَدِّ الخلاف، وإفادة الدليل اللفظي اليقينَ مختلفَ فيها، فلا يصحُّ أن تُؤخَذَ من الدليل اللفظي عقيدةٌ، على هذه القاعدة التي استقعداها هنا، فيسقط الكتابُ من مقام الحُجَّة في باب الاعتقاد، كما تسقط أغلبُ الشئِ من مقام الاحتجاج بها في باب العملِ عنده.

فمن يكون مُليماً بتاريخ الأديان والتَّحليل والمذاهب، لا يتردُّ لحظةً أنه لا تُوجد طائفةٌ تَرى مجموعَ تلك الآراء، فيظهُرُ أنه ليس من طائفةٍ من الطوائف المعروفة في كتب التَّحليل، وإنما هو أمةٌ وَحْدَهُ، لا يُعْمَلُ بكلامه طائفةٌ من تلك الطوائف، بل يُعْمَلُ نفسه فقط، كما قال الأستاذ العقاد في الأستاذ زكي مبارك.

ولا أرى بأساً في أن أتحدَّث هنا عن الدليل اللفظي، وعن المُخْطِئ. في العِلْمِيَّاتِ، لخطورة ما فاه به كاتبُ المقال بشأنهما.

أما الدليلُ اللفظي فيفيدُ اليقينَ عند توازُد الأدلة على معنى واحد، بطرقٍ متعددة وقرائنٍ منضمةٍ عند الماتريدية، كما في «إشارات الغزالي» للبتازي وغيره، وإلى هذا ذهب الآبيدي في «الأبكار»، والسعدُ في «شرح المقاصد» و«التلويح»، والسيدُ في «شرح المواقف».

وعليه جَرَى المتقدمون من أئمة هذه الأمة وجماهير أهل العلم من كل مذهب، بل الأشعرى يقول: إن معرفة الله لا تكونُ إلا بالدليل السمعي. ومن يقول هذا يكون بعيداً عن القول بأن الدليل السمعي لا يفيد إلا الظن، فيكونُ من غَزَا المسألة إلى الأشعرية مطلقاً، متساهلاً بل غالباً غلطاً غير مستساغ.

والواقعُ أن القول بأن «الدليل اللفظي لا يفيد اليقين إلا عند تيقن أمورٍ عَشْرَةٍ ودون ذلك خَرُطُ القنادة»: تَقَعُرُ من بعض المبتدعة، وقد تابعه بعضُ المتفلسفين من أهل الأصول وجَرَى وراءه بعضُ المقلدة من المتأخرين، وليس لهذا القول أي صلة بأي إمام من أئمة أهل الحق، وحاشاهم أن يضعوا أصلاً يُهدمُ به الدين، وتُحَدَّدُ معولاً بأيدي المشككين، والدليل اللفظي القطعي الثبوت، يكون قطعي الدلالة في مواضع مشروحة في أصول الفقه.

وأما ما أجمله الفخر الرازي في «المحصل» فقد أوضحه في «المحصل» و«نهاية العقول»، واعترفَ فيهما بأن القرائن قد تعيَّن المقصود، فيفيدُ الدليلُ اللفظي اليقين، فتبَلَّتْ بذلك من أيدي المشككين إمكانُ التمسك بقول الرازي في «المحصل» في باب

التشكيك في القرآن الحكيم، بل القول بمجرد الدليل العقلي في علم الشريعة بدعة وضلالة.

بل الأصل في علم التوحيد والصفات هو التمسك بالكتاب والسنة ومجانبة الهوى والبدعة، ولزوم طريق السنة والجماعة في المباحثة مع الذين أقروا برسالة النبي ﷺ، وإنما يستعمل الدليل العقلي وحده مع غيرهم كما يقوله فخر الإسلام وغيره، فلا يُعُول عند أهل الحق على اعتقاد لا يُقره الكتاب والسنة، فمن سعى في إبعادهما عنه فقد أبعَد في الضلال.

وأما عَدُ كاتب المقال لمسائل الخلاف في علم أصول الدين بمنزلة الخلاف في مسائل الفقه في عدم التائيم: فنزوع منه إلى رأي غُبيد الله بن الحسن العنبري في تصويب المختلفين في العقائد. ومبلغُ شناعة رأيه في ذلك يَظْهَرُ مما يَسطِه ابنُ قتيبة في «مخيلف الحديث» ص ٥٥.

وقد توسّع أئمةُ الأصول في نقض خيال الجاحظ في عدم تائيم المختلفين في العلبيات والعمليّات بعدَ بذل الجهد منهم، مع كون الصواب واحداً عنده في النوعين، كما توسّعوا في التشنيع على العنبري في تصويب المختلفين مطلقاً.

قال الغزالي في «المصطفى»: مذهب العنبري شرٌّ من مذهب الجاحظ، فإنه أقرّ بأن المصيب واحد، ولكن جعل المخطئة معذوراً، بل هو شرٌّ من مذهب السوفسطائية، لأنهم نفّوا حقائق الأشياء، وهذا أثبت الحقائق ثم جعلها تابعة للاعتقادات، فهذا لو وُزِدَ به الشرع لكان مُحالاً، بخلاف مذهب الجاحظ.

وقد استبشع إخوانه من المعتزلة هذا المذهب فأنكروه وأؤلّوه وقالوا: «أراد به اختلاف المسلمين في المسائل الكلامية التي لا يلزم فيها تكفير، كمسألة الرؤية، وخلق الأعمال، وخلق القرآن، وإرادة الكائنات، لأن الآيات والأخبار فيها مُتشابهة، وأدلة الشرع فيها مُتعارضة، وكل فريق ذُهب إلى ما رآه أوفق لكلام الله وكلام رسوله عليه السلام، واليَقُ بعظمة الله سبحانه وثبات دينه، فكانوا فيه مصيبين ومعذورين».

ثم قال الغزالي: «إن زعم أنهم فيه مصيبون، فهذا مُحالٌ عقلاً، لأن هذه أمور ذاتية لا تختلِفُ بالإضافة، فلا يُمكنُ أن يكون القرآن قديماً ومخلوقاً أيضاً، بل أحدهما، والرؤية مُحالاً وممكناً أيضاً، والمعاصي بإرادة الله تعالى وخارجة عن إرادته، أو يكون القرآن مخلوقاً في حق زيد قديماً في حق عمرو.

وإن أراد أن المصيبَ واحدٌ لكنَّ المُخطيءَ معذورٌ غيرُ آثمٍ، فهذا ليس بمُحال عقلاً، لكنه باطلٌ بآدلةٍ سمعيةٍ ضروريةٍ، واتِّفاقٍ سلفِ الأمةِ على ذمِّ المبتدعةِ ومُهاجرتِهِم، وقُطْعِ الصَّحبةِ معهم، وتشديدِ الإنكارِ عليهم، مع تركِ التشديدِ على المختلفين في مسائلِ الفرائضِ وفروعِ الفقه، فهذا من حديثِ الشرعِ دليلٌ قاطعٌ . . ولم يَنْتِه الغموضُ في الأدلةِ إلى حدٍّ لا يُمكنُ فيه تمييزُ الشبهةِ من الدليلِ اهـ.

ولذا قال السعد في «التلويح»: «وإنما قال - يعني صَدَرَ الشريعة - (المخطيءُ في الاجتهاد لا يُعاقَب) لأن المخطيءَ في الأصولِ والعقائدِ يُعاقَبُ، بل يُضَلَّلُ أو يُكْفَرُ، لأنَّ الحقَّ فيها واحدٌ إجماعاً، والمطلوبُ هو اليقينُ الحاصلُ بالأدلةِ القطعيةِ، إذ لا يُعقَلُ حدوثُ العالمِ وقِدْمه، وجوازُ رؤيةِ الصانعِ وغدْمه، فالمخطيءُ فيها مخطيءٌ ابتداءً وانتهاءً، وما نُقِلَ عن بعضهم من تصويبِ كُلِّ مجتهدٍ في المسائلِ الكلاميةِ، إذا لم يُوجبِ تكفيرَ المخالفِ، كمسألةِ خلقِ القرآنِ، ومسألةِ الرؤيةِ، ومسألةِ خلقِ الأفعالِ: فمعناه نَفْيُ الإثمِ، وتحقُّقُ الخروجِ عن عَهْدَةِ التكليفِ لا حَقِيقَةُ كُلِّ من القولينِ اهـ.

يريد بمنتَهَى كلامه الإشارةَ إلى رأيِ العنبري على تأويلِ إخوانِهِ المعنزة، وقد قُدِّدَ الغزالي كما سَبَقَ.

وقال القاضي عياض في «الشفاء»: «اجتمعَ فِرَقُ الأُمَّةِ سواء - يعني العنبري - على أنَّ الحقَّ في أصولِ الدينِ واحدٌ، والمخطيءُ فيه آثمٌ عاصٍ فاسِقٌ، وإنما الخلافُ في تكفيرِهِ»، وتوسَّعَ القاضي هناك في نقلِ نصوصِ أهلِ العلمِ في المسألةِ، ومنزلةِ القاضي عياض في علومِ الروايةِ والدرايةِ غيرِ مجهولةٍ عند من اطلَعَ على كتبه، أو طالَعَ «أزهارِ الرياضِ».

فثبتَ أنَّ الخلافَ في العقائدِ ليس كالخلافِ في الفروعِ، في عدمِ تأثيمِ المخطيءِ، وعلى هذا اتفاقُ أهلِ الحقِّ خلفاً عن سلفِ، بل اتفاقُ الفِرَقِ كُلِّها، على ما سبق من القاضي عياض.

وأما ما وقع في كلامِ العز بن عبد السلام، ففي مثلِ زيادةِ الصفاتِ، وحُكْمِ ذلك مشروعٍ في شَرْحِ الدُّوَائِي على «العُصْدِيَّةِ»، وفي كلامِ عبيدِ الحكيمِ على «الشَّيْفِيَّةِ»، وغيرِهما من الكتبِ المتداوَلةِ بأيدي طلبةِ العلمِ، وكذا مسألةُ الاستطاعةِ قَبْلَ الفعلِ مُبَيَّنَةٌ في كلامِ عبيدِ الحكيمِ على «المقدماتِ الأربعِ». وهكذا أَوْضَحَ علماءُ العقائدِ في كتبهم ما يكونُ التنازُعُ فيه خطيراً أو غيرَ خطيرٍ، فلا يُبَيِّحُ ذلك إرسالَ الكتابِ الكلامِ على عَوَائِهِ في عدمِ تأثيمِ المختلفينِ في العقائدِ إطلاقاً.

على أن ابن عبد السلام له شطحات تسرّنت إليه من مطالعة بعض كتب ابن حزم، التي أتى بها محيي الدين بن عربي إلى الشام، فلا تزيد تلك الشطحات على أن تكون وهلة منه، فلا يصحّ اتخاذها حجة، بل نرجو الله سبحانه أن يسامحه عليها.

وأما ابن حزم فعلى بعض ميل منه إلى رأي الجاحظ في المسألة، يرى إكفاز المعانيد بعد إقامة الحجة عليه ولو بخبر الآحاد، فلا يُلْقَى صاحبُ المقالِ بُعْثُهُ عنده بل عند العنبري فقط، وقد أُقيمت الحجة بتوفيق الله وتسديده على كاتب المقال، من كتاب الله وستة رسوله المتواترة وإجماع أهل الحق.

وسبق أن أشرنا إلى أن الاحتمالات غير الناشئة من الدليل لا تُجِلُّ بكونها دلالة النصوص قطعية، وذكرنا بعض ما أُلّف في إثبات تواتر حديث النزول، ونقلنا بعض نصوص أصحاب الشأن في تواتره وفي الإجماع على نزوله، والمعاند بعد هذا يكون في موقف أخطر من التائيم فقط، ولذا صُرخ السيوطي بتكفير منكر النزول في «الإعلام» المطبوع في ضمن «الحاوي» له ٢: ١٦٦٠، وهو على القاعدة في إنكار ما تواتر في الشرع.

وليس أئمة هذه الأمة وعلماءها من الصدر الأول إلى اليوم، يجهلون معنى «العقيدة»، وهم قد ذوّنوا مسألة النزول في كتبهم في العقائد على توالي القرون، قبل أن يخلق صاحب «الجوهر» وصاحب «الخريدة» بدهور، زغم أنف كل مكابر.

على أن مسألة نزول عيسى عليه السلام ليست من المسائل التي جُرّت إليها المناقشات مثل الاستطاعة، وخلق القرآن، وزيادة الصفات، بل هي ثابتة بنصوص الشرع مباشرة، فلا يمكن لمن يدين بالكتاب والسنة والإجماع أن ينكرها، فيكون لف الكاتِب ودَوْرانُهُ واستقاعده لقواعد وصنوف مغالطاته إطالة للكلام بدون جدوى غير انكشاف حاله كل الانكشاف عند الجميع.

وحديثنا عن بضع تشكيكاته في الآيات يكون في فصل مفرد إن شاء الله تعالى، وليس جهل الكاتب للدليل المسائل مما يوجب أن يجهله العالمون، وتبجح به فهم معنى «العقيدة» لا يَكْبِه فُخْرًا بعد أن جهل الدليل، وجهل حصول العقيد الجازم بالبرهان مرة، وبالأدلة الإقناعية، أو خبر الآحاد أو التقليد مرة أخرى.

قال علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري في «شرح أصول فخر الإسلام البزدوي»: «اعتقاد القلب فضل على العلم، لأن العلم قد يكون بدون عقد القلب،

كعلم أهل الكتاب بحقيّة النبي عليه السلام مع عدم اعتقادهم بحقيّته... ، والعقد قد يكون بدون العلم أيضاً، كاعتقاد المقلّد، وإذا كان كذلك جاز أن يكون خبر الواحد موجباً للاعتقاد الذي هو غمّل القلب، وإن لم يكن موجباً للعلم.

قال أبو اليسر: الأخبار الواردة في أحكام الآخرة من باب العمل، فإنّ العمل نوعان: غمّل الجوارح، واعتقاد القلب، فالعمل بالجوارح إن تعذّر لم يتعدّر العمل... العمل بالقلب اعتقاداً اهـ وذلك عند شرحه لقول فخر الإسلام: «وفيه ضرب من العمل أيضاً وهو عقد القلب عليه، إذ العقد أفضل عليه».

فظهر أنّ خبر الأحادي الصحيح قد يُفيد اعتقاداً جازماً في أناس، ولا يُفيد البرهان العلمي اعتقاداً في آخرين، فواحد يعتقد اعتقاداً جازماً بنزول عيسى عليه السلام، بمجرد أن سمع حديثاً واحداً في ذلك من صحيح البخاري مثلاً، وآخر لا يعتقد ذلك ولو أسمعته سبعين حديثاً، وثلاثين أثراً من الصحاح والسُنَنِ والمسانيد والجوامع وسائر المدونات في الحديث، مما يحصل التواتر بأقلّ منها بكثير، فالناجي هو ذلك الواحد دون الآخر. ووجه الفرق بين الأنبياء والعلماء والعامة من ناحية الجزم الحاصل لهم، وطريق حصول الجزم لكل منهم: مشروحان في «تأنيب الخطيب»، فليراجع هناك.

آيات في الرفع والنزول

وفي العدد (٥١٧) بعنوان «آيتان...» مقال يتناسى فيه كاتبه ما قرره في العدد السابق، من أن مورد الخلاف لا يصلح أن يتخذ مضدراً للعقيدة، وأن الدليل النقلي لا يفيد اليقين عند كثير من العلماء، والذين قالوا بإفادته اليقين شرطوا شروطاً إلى آخر ما ذكره في النوعين على رأي الفريق الثاني.

وأما الآن فيقول في مفتتح هذا المقال: إنه كان قرّر فيما سبق «أن القرآن كله قطعي الثبوت، وأنه في دلالته نوعان: قطعي لا يحتمل التأويل، وغير قطعي يحتمل معنيين فأكثر». فيتراجع هكذا عن القول بعدم إفادة الدليل النقلي اليقين عند كثير من العلماء، فيتهاثر.

ولم أر بين الذين في أنفسهم مَرَضُ الخروج على الجماعة: من لا يتهاثر، فإذا اعترف هكذا أنه يوجد بين الأدلة التقليدية كثير مما يفيد اليقين، فقد انهزم ما بناه، واضطر إلى الرجوع لقول الجماعة بدون أن تنفع تمهيداته المهلهلة في شيء من مقاصده.

وقوله: «قطعي لا يحتمل التأويل» يدل على أنه غاب عنه أن احتمال التأويل احتمالاً غير ناشئ من الدليل: لا يخل بكون الدلالة قطعية اتفاقاً بين أهل العلم، على ما هو مشروح في «المستصفى» و«التلويح» و«براة الأصول» وغيرها.

كما أن قوله: «وغير قطعي يحتمل معنيين فأكثر» يدل على أنه لا يميز بين المُجْمَل المحتمل لمعنيين على قدم المساواة، وبين الظاهر المحتمل لمعنيين يكون أحدهما راجحاً بنفسه أو بدليل، والآخر مرجوحاً في حكم القدم عند انتفاء ما يوجب الاعتداز به، كما لا يميز بين أقسام الوضوح التي إنما يكون احتمال التأويل في بعضها، مع كون جميعها قطعية الدلالة عند عدم دليل يعضد الاحتمال الآخر اتفاقاً.

وتلك الأقسام من الظاهر والنص والمفسر والمُحكّم متداخلة، وتغايرها بالمفهوم عند المتقدمين، والتباينُ المعتَبَرُ بينها عند المتأخرين مشروحٌ في محله، ولا شأنٌ لنا به هنا.

وظنُّهُ الظاهر إنما هي عند وجود ما يدلُّ على الاحتمال الآخر، وإلا فحُكْمُهُ حُكْمُ النصِّ في القطع بالمراد منه، بل عند تضافر الظواهر الظنية على معنى، يحصل القطعُ بذلك المعنى، كما هو الحال في خبر الأحاد المفيد للظن؛ فإنَّ الأخبار إذا تواردت على معنى حصل اليقين بذلك المعنى.

ثم الظاهر: إما ظاهرٌ بالوضع، وإما ظاهرٌ بالدليل، كما في «التمهيد» لأبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلواذي، فتبين أن الظاهر ليس بقطعي مطلقاً، ولا ظني مطلقاً، وأنَّ الظواهر في الرفع والنزول قطعيةٌ لتضافر الأدلة وغدَم وجود ما يدلُّ على الاحتمال الآخر.

وبعدَ هذا الاستطراد اليسير أعودُ فأقول: إنَّ الأساتذة القائمين بالذب عن عقيدة الجماعة، لم يدْعُوا قولاً لقائل في تبين وجوه دلالة كتاب الله على المسألة، فجزاهم الله عن العلم خبراً، لكنَّ الشيخ لما رأى أنَّ قَلَمَهُ طَوَّعَ بَنَائِهِ لا يَثْمُرُ عليه فيما يُريدُ أن يُودِعَهُ الطُّروسَ، ولسانُهُ لا يُعَاكِسُهُ فيما يَشَاءُ أن يَقُوَّةَ به، والجماعةُ أطْوَعُ له من ظُلْمِهِ: أَصْرٌ على مُخَالَفَةِ الأُمَّةِ، فأخذَ يَسْتَرْبِلُ وَيَكُتُبُ وَيَتَكَلَّمُ بكلِّ هاجِسَةٍ في نفسه، ظناً منه أنَّ الأعزَلَ من الحُجَّةِ يَكْبِتُ في مَغَمَّةِ الجِجَاجِ شيئاً غَيْرَ الموبِ الأدبي، وأنه يتمكن - ولو إلى حين - من تغطية الحق وترويح الباطل بين فَنَامٍ غَهْدٍ انخداعهم بِشَفِيهِ ومغالطته.

لكن خاب خدشُهُ، وضاع نَفْسُهُ وسَفِيهُ في إظهار عقيدة المسلمين المتوارثة، بمظهر اعتقاد الجماهير الجَهْلَةِ الطُّغَامِ، وتصويره للذابين عنها بصورة غِنْدَةِ المَادَّةِ الثَّقِيلِينَ المُجَارِينَ لأهْوَاءِ العائِثَةِ الجَهْلَةِ، مما يدلُّ على أنه ممن يَرَوْنَ ديناً للعمامة، وديناً للخاصة، وأنه إنما يَحْكِي للناس عما يرى في مِرَاةٍ يَنْظُرُ هو فيها، ولسنا نعيش في غير هذه الكُرَّةِ حتى تَجْهَلُنَا الأُمَّةُ وتَجْهَلَهُ.

يكونُ المناضلُ عن عقيدة الجماعة على ضلالٍ! والخارجُ عليها المُشَقُّ على هُدًى! فسبحان الفتاح العليم، هكذا يكونُ المنتصفُ صاحبُ الضمير الحي، والمُضْلِحُ الموجِبُ للثُرَّةِ!! ولسنا نَطْمَعُ في سكوته عن الباطل. وإسكاته بيد الله القاهر، وإنما نريدُ صَوْنَ المجتمع من تشكيكاته، وقد فعلنا بتوفيق الله سبحانه.

ولا نزال نمضي على مُناصرة الحق بإذنه جَلُّ شأنه، رَغَمَ كل صعوبة قائمة، حتى ظَهَرَ للملأ أنه لو ابْتَغَى نَفَقاً في الأرض أو سُلماً في السماء، ليأتي برواية صحيحة، عن أحد من علماء أهل الحق من صدر الإسلام إلى عهد متنبئ؛ المغول، يَنْفِي ما يَنْفِي كاتِبُ المقالِ لَمَّا وَجَدَ إلى ذلك سبيلاً، لِيَقَالَ: إِنَّ له زميلاً في الشدود، فضلاً عن أن يُتصَوَّرَ احتمالُ أن يكون الحقُّ في جانبه ولو بمقدارِ نسبةِ الواحدِ إلى الألف.

فيكفي في سُقوطِ كلامِهِ ظُهُورُ أنه قال ما لم يَقُلْهُ أَحَدٌ من العالمين رَجَمَ الله الإمامَ رَفَرَبْنَ الهُدَيْلِ حيث قال: «إني لا أناظِرُ أحداً حتى يَسْكُتَ، بل أناظِرُهُ حتى يُجِنَّ، قالوا: كيف ذلك؟ قال: يقول بما لم يَقُلْ به أحد»، كما رواه الصَّيْغَرِيُّ وغيره عنه.

وأكتفي في الحديث عن الآيات التي نحن بصدد بيانها، بلمحة سيرة إليها هنا، حيث أَعْتَى عن التوسع فيها ما سَبَقَ توضيحه بقلم الأساتذة الراذيين على باطله، فأقول: إِنَّ قوله تعالى: ﴿... وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۖ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨] نُصِّ في الرفع الجسي، لأن حقيقة الرفع هي النقلُ من السُّفْلِ إلى العُلُو، كما يقول أبو حيان الأندلسي في «البحر المحيط»، ولا صَارَفَ عن الحقيقة حتى يَجُوزَ حَمْلُ الرفع هنا على رَفْعِ المكانةِ مجازاً، فيكون احتمالُ المجاز احتمالاً غيَرِ ناشئاً من دليل، فيكون ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] نُصّاً في الرفع الجسي بل في الآية ما يَزِدُّ احتمالَ المجازِ زُداً باتاً من وجوه:

أما أولاً فَإِنَّ السياقَ في تقرير بُطلانِ ما قاله اليهودُ مِن قتلِهِ، ببيان أنهم إنما قَتَلُوا الشَّيْءَ، فبرَفْعِهِ الجسيي يكونُ إنقَادُ شَخْصِهِ منهم، فينْسَجِمُ بذلك ما قُبِلَ «بل» بما نَعُدُّها، وَرَفْعُ المكانةِ مما لا يُنَافِي القَتْلَ، وكم من نَبِيٍّ قُتِلَ وهو رفيعُ المكانةِ، فلا يَصِحُّ دخول «بل» بينهما، لانتفاء التضادِّ بينهما.

وقد أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم في «تفسيره» بسند صحيح إلى ابن عباس، أنَّ عيسى رَفِعَ من رُؤُوفَةِ في البيت، وساق ابنُ كثير السندَ في «تفسيره» ١: ٥٧٤ وهذا ليس مما يُعْلَمُ بالرأي، فيكونُ في حكم المرفوع عند جماعة أهل العلم.

وأما ثانياً فَإِنَّ حَمْلَ الرفع هنا على رَفْعِ المكانةِ لا يَظْهَرُ له وَجْهُ اختصاصٍ بهذا الموقف، لأنَّ أولي العزم من الرُّسُلِ يكون كلُّ واحد منهم رفيعُ المكانةِ دائماً.

وَأَمَّا ثَالِثًا فَإِنَّ ذِكْرَ مُنْتَهَى لِرَفْعِ شَخْصٍ بِوَضْعِ ﴿رَفَعَهُ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٥٨] بلفظ (إلى)، يقضي على احتمال المجاز بحمله على رفع المكانة، لأنَّ رَفَعَ المكانة يُنَاقِبه ذِكْرُ مُنْتَهَى له قطعاً، وإدخال (إلى) على ضمير المتكلم من قبيل الإضافة للتشريف، والمعنى إلى سَمَائِي وَمَنْزِلِ مَلَأْتُكَ، كما يقول أبو حيان وغيره.

وَأَمَّا رَابِعاً فَإِنَّ رَفَعَ المكانة لَا يَخُصُّ عِيسَى حَتَّى يَمُتَنَّ اللَّهُ بِهِ هُنَا، بَلْ يَغْمُهُ وَسَائِرُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، بَلْ وَسَائِرُ الْأَبْرَارِ وَالْأَخْيَارِ.

وَأَمَّا خَامِساً فَإِنَّ حَمَلَ الرِّفْعِ عَلَى رَفْعِ رُوحِهِ، بِحَذْفِ الْمُضَافِ - كَمَا وَقَعَ فِي قُتَيْبَةَ الشَّيْخِ - أَمَرٌ لَا يَخُصُّ عِيسَى أَيْضاً، مَعَ كَوْنِ الْحَذْفِ خِلَافَ الْأَصِيلِ، فَلِذَا يَكُونُ الرِّفْعُ لَشَخْصِهِ، فَيَشْمَلُ الرُّوحَ وَالْجَسَدَ مَعاً، وَأَنْتَ لَا تَجِدُ أَحَدًا مِنَ الْمُفْسِّرِينَ يَحْمِلُ الرِّفْعَ هُنَا عَلَى رَفْعِ الْمَكَانَةِ، أَوْ رَفْعِ الرُّوحِ فَقَطْ، لظَهْوَرِ دَلَالَتِهِ الْقِطْعِيَّةِ عَلَى الرِّفْعِ الْجَسَدِيِّ هُنَا.

وهذا كُلُّهُ مَعَ قُطْعِ النَّظَرِ عَنْ تَوَاتُرِ الْأَخْبَارِ فِي الرِّفْعِ وَالنُّزُولِ، وَالْأَمْرُ اسْتَدْرَكُ تَوَاتُرِ الْأَخْبَارِ فِي ذَلِكَ، لَا يَسْعُهُ أَنْ يَتَشَكَّكَ لِحِفْظَةِ فِي هَذَا الْأَمْرِ وَلَوْ لَمْ يَسْتَحْضِرْ وَجُوهَ دَلَالَةِ الْكِتَابِ عَلَى الرِّفْعِ وَالنُّزُولِ، فَكَيْفَ وَالْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ الْمُتَوَاتِرَةُ وَالْإِجْمَاعُ مُتَوَارِدَةٌ مُتَضَافِرَةٌ عَلَى عَقِيدَةِ الْجَمَاعَةِ فِي ذَلِكَ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ مُتَوَلِّكَ ذَلَالَتِكَ إِنَّكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] فَتُحْصَى أَيْضاً فِي الرِّفْعِ الْجَسَدِيِّ حُتْمًا، لِأَنَّ ﴿إِنَّكَ﴾ تَمْنَعُ مِنْ اِحْتِمَالِ الْمَجَازِ بِحَمْلِهِ عَلَى رَفْعِ الْمَكَانَةِ كَمَا سَبَقَ، يَمْتَلِئُ مَنَعِ ﴿يُطِيلُ بِحَنَانِيَّوِ﴾ [الأنعام: ٣٨] مِنْ أَنْ يَكُونَ ﴿طَلَّهِرِ﴾ [الأنعام: ٣٨] مَجَازاً عَلَى مَا قُضِّلَ فِي مَوْضِعِهِ.

وَكَلِمَةُ الْفَخْرِ الرَّازِي فِي بَعْضِ الْوُجُوهِ عِنْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَبْدِلُ الْآزِينَ أَجْمُوكَ قُوَّةَ الْآزِينَ كَرَوَا﴾ [آل عمران: ٥٥] لَا تَكُونُ إِلَّا سَبَقَ قَلَمُ مِنْهُ، لظَهْوَرِ بَطْلَانِ ذَلِكَ رَوَايَةً وَدَرَايَةً، بِمَا فَضَّلْنَاهُ أَنْفَاءً. وَكَمْ لَهُ وَلِغَيْرِهِ مِنْ وَجُوهِ لَا وَجْهَ لَهَا فِي النُّقْلِ وَلَا فِي الدَّرَايَةِ، عَلَى أَنَّهُ يَجْزِمُ مَعَ بَاقِي الْمُفْسِّرِينَ بِالرِّفْعِ وَالنُّزُولِ عِنْدَ تَفْسِيرِهِ لِلآيَاتِ كُلِّهَا، فَمَاذَا عَلَيْهِ بَعْدَ هَذَا لَوْ غَلَبَ فِي وَجْهِ؟ سَبَحَانَ مَنْ لَا يَنْهَوُ وَلَا يَغْلُطُ.

وَأَمَّا ﴿مُتَوَلِّكَ﴾ [آل عمران: ٥٥] فَمِنْ التَّوَفِّيِّ وَهُوَ الْقَبْضُ وَالْأَخْذُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ، وَيُسْتَعْمَلُ مَجَازاً فِي مَعْنَى الْإِمَانَةِ كَمَا يَظْهَرُ مِنْ «أَسَاسِ الْبَلَاغَةِ» لِلزَّمَخْشَرِيِّ، فَيَكُونُ مَعْنَى الْآيَةِ: إِنِّي قَابِضُكَ مِنَ الْأَرْضِ وَرَافِعُكَ إِلَى سَمَائِي. وَقَالَ ابْنُ قَتَيْبَةَ: قَابِضُكَ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ غَيْرِ مَوْتٍ.

وهذا المعنى منسجم مع باقي الآيات والأخبار فيكون نصاً أيضاً في رُفْعِهِ خياً، لأن احتمال المجاز لم ينشأ من دليل، فَيَبْقَى قطعي الدلالة على الوجه الذي شرحناه، ولو فرضنا اشتراك التوفي بين الأخذ بالإماتة والإمامة لكان لِحَقِّقِ البَيَانِ بقاطع من الآيات الأخر، فيكون قطعي الدلالة على الرفع الجسبي والأخذ من غير موت.

ولو فرضنا عذم لحوق بيان لا يتأتى خُفْلُهُ على الموت هنا، لأن اسم الفاعل حقيقة في الحال، ومجاز في الاستقبال عندهم، فلو حملناه على الحقيقة يكون المعنى: إني مُمَيَّنٌكَ الآن. فيكون قُضْدُ اليهود حاصلاً، وقد نُصَّ القرآن الكريم على أن قُضْدَهُمْ لم يحصل. ولو حملناه على الاستقبال مجازاً لا يكون مستقبل أولى من مستقبل إلا بدليل، فيتعين المستقبل الذي خُفْلُهُ باقي الأدلة، وهو ما بُغِذَ نزوله إلى الأرض.

«والواو» لا تفيد الترتيب، فيكون هذا من باب تقديم ما هو مؤخر في الوقوع، لأجل التقرير على مذبي الوهنية، ببيان أنه سيموت، وإليه ذهب قتادة والفراء وعليه يُحْمَلُ ما رواه علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، جُمْعاً بين الأدلة.

على أن ابن أبي طلحة لم يُدْرِك ابن عباس اتفاقاً، وقد قال فيه يعقوب بن سفيان: ضعيف الحديث منكره، ليس محمود المذهب، لا هو منروك، ولا حجة. فيكون مختلفاً فيه، وإن انتفى مُسْلِمُ بعض حديثه.

ومعاوية بن صالح الحضرمي الراوي عنه، لم يكن يحيى بن سعيد القطان يرضاه، وقد قال أبو حاتم: لا يُحْتَجُّ به، وإن انتفى مسلم بعض حديثه.

وعبد الله بن صالح كاتب الليث الراوي عن الحضرمي، كثير الغلط، فلا يثبت بمثل هذا الشئ هذا التفسير عن ابن عباس.

وَوَهَبُ بْنُ مُنْبِّهٍ هو الذي يقول بموته، ثم رُفِعِهِ، ثم إحيائه في السماء، لكنه كثير الرواية عن كُتُبِ أهل الكتاب، فلا يُعَوَّلُ على ما لا يرويه عن المعصوم عند أهل العلم.

وقد صرح محمد بن إسحاق بأن القول بموته قول النصارى، وليس بين قول مَنْ قَالَ: أَنَامَهُ ثم رُفِعَهُ، وقول مَنْ قَالَ: قَبِضَهُ مِنَ الْأَرْضِ وَرَفَعَهُ حَيًّا إِلَى السَّمَاءِ، كبير فرق، فيكون قول ابن خزم في «المُحَلَّى» بموته، ثم رُفِعِهِ، ثم إحيائه ونزوله، مما لا تُعْضَدُهُ رواية ولا دراية بل تكرير إيقاع الموت عليه مما يُنَافِيهِ النَّصُّ.

وفي «الْعُنَيْتَةِ» عَزَّو وَفَاتِهِ ثُمَّ نَزُولِهِ إِلَى مَالِك، وَلَعَلَّ ابْنَ حَزْمِ انْخَدَعَ بِذَلِكَ. وَقَدْ سَبَقَ أَنْ شَرَحْنَا حَالَ «الْعُنَيْتَةِ» فِي الْعَدَدِ (٣٤) ١٣٦١هـ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ الْقَوْلِ كَبِيرُ خَطَرَةٍ غَيْرُ ضَعِيفٍ مُذَرِّكِ الْوَفَاةِ، حَيْثُ كَانَ مَعَ الْجَمَاعَةِ فِي الْإِيمَانِ بِالنَّزُولِ، كَمَا صُرِّحَ بِذَلِكَ فِي «الْفَيْضِ» وَ«الْمَحَلِّ».

وَقَالَ الْأَلْوَيْسِيُّ: وَالصَّحِيحُ كَمَا قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى رَفَعَهُ مِنْ غَيْرِ وَفَاةٍ وَلَا نَوْمٍ، وَهُوَ اخْتِيارُ الطَّبْرِيِّ، وَالرَّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَهـ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ بَعْدَ نَقْلِهِ رَوَايَاتٍ تَفْسِيرَ التَّوْفِيِّ بِالنَّوْمِ أَوْ الْقَنُصِ أَوْ الْمَوْتِ: «وَأَوَّلَى هَذِهِ الْأَقْوَالِ بِالصَّحَةِ عِنْدَنَا قَوْلُ مَنْ قَالَ مَعْنَى ذَلِكَ: أَنِّي قَابِضُكَ مِنَ الْأَرْضِ، وَرَافَعُكَ إِلَيَّ، لِتَوَاتُرِ الْأَخْبَارِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: يَنْزِلُ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ، ثُمَّ سَاقَ أَحَادِيثَ فِي النَّزُولِ، ثُمَّ رَدَّ رَدًّا مُثْبِتًا عَلَى مَنْ زَعَمَ تَكَرُّرَ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَلَيْسَ فِي قَوْلِهِ «وَأَوَّلَى الْأَقْوَالِ بِالصَّحَةِ» مَا يُحْتَجُّ بِهِ عَلَى أَنَّ تِلْكَ الْأَقْوَالَ مُشْتَرَكَةٌ فِي أَصْلِ الصَّحَةِ، كَيْفَ وَقَدْ ذَكَرَ بَيْنَهَا مَا هُوَ مَعْرُوفٌ إِلَى النَّصَارَى، وَلَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَصِحَّ ذَلِكَ فِي نَظَرِهِ، بَلْ كَلَامُهُ هَذَا مِنْ قِبَلِ مَا يَقَالُ: «فَلَانُ أَذْكَى مِنْ جِمَارٍ، وَأَفْقَهُ مِنْ جِدَارٍ»، كَمَا يَظْهَرُ مِنْ عَادَةِ ابْنِ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ عِنْدَ نَقْلِهِ لِرَوَايَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ، كَائِنَةً مَا كَانَتْ قِيمَتُهَا الْعِلْمِيَّةُ، وَقَدْ يَكُونُ بَيْنَهَا مَا هُوَ بَاطِلٌ حَتْمًا، فَلَا يَكُونُ لِمُصَاحِبِ الْمَقَالِ إِمْكَانُ التَّمَسُّكِ بِمِثْلِ تِلْكَ الْعِبَارَةِ فِي تَقْوِيَةِ الرُّوَايَاتِ الْمَرْدُودَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَوَسَّيْنَا﴾ [الْمَائِلَةُ: ١١٧] فَبِمَعْنَى قَبَضْتَنِي بِالرَّفْعِ إِلَى السَّمَاءِ، كَمَا يَقَالُ: تَوَسَّيْتُ الْمَالَ إِذَا قَبَضْتَهُ، وَرُوِيَ هَذَا عَنِ الْحَسَنِ وَعَلِيهِ الْجُمْهُورُ، وَرُوِيَ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ الْجُبَّائِيِّ الْمَعْتَزَلِيِّ - وَهُوَ مِنْ أَجْرَاهِمَ فِي الشُّذُوحِ - أَنَّ الْمَعْنَى (أَنْتَبَيْتُ)، وَادَّعَى أَنَّ رَفَعَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى السَّمَاءِ كَانَ بَعْدَ مَوْتِهِ، وَإِلَيْهِ ذَهَبَ النَّصَارَى كَمَا قَالَ الْأَلْوَيْسِيُّ، وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ: «قِيلَ: هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَوَفَّاهُ قَبْلَ أَنْ يَرْفَعَهُ، وَلَيْسَ بِشَيْءٍ، لِأَنَّ الْأَخْبَارَ تَظَاهَرَتْ بِرَفْعِهِ، وَأَنَّهُ فِي السَّمَاءِ حَيٌّ» أَهـ.

وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ حَقِيقَةِ التَّوْفِيِّ بِحَيْثُ لَا يَدْعُ أَدْنَى رَيْبَةٍ. وَمَا يَقَالُ مَنْ أَنَّ الْمُتَبَايِرَ مِنَ التَّوْفِيِّ هُوَ الْمَوْتُ، فَيُمْكِنُ أَنْ يُسَلَّمَ ذَلِكَ بِالنَّظَرِ إِلَى الْيَوْمِ، لَكِنْ تَطَوَّرُ اللَّغَةُ فِي زَمَنِ مُتَأَخِّرٍ إِلَى مَعْنَى، لَا يَسْتَلْزِمُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْمَعْنَى مَفْهُومًا مِنَ اللَّفْظِ فِي تَخَاطُبِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَزَمَنُ نَزُولِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْمَعْنَى مَفْهُومًا مِنَ لَفْظِ التَّوْفِيِّ إِذْ ذَاكَ، لَكَانَ «جِيئَ مَوْهَبًا» [الزُّمَرُ: ٤٢] لَعَوًّا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ

يَتَوَقَّى الْآلِفُفَسَ جِئْ مَوْتِيهَا» [الرؤس: ٤٢]، وجلّ كلام الله من أن يَقَعَ فيه لغو. ولا تعويل في تفسير كتاب الله على تخاطب اليوم بل على التخاطب في عهد التنزيل كما لا يخفى.

والرسالة مثلاً تُستعمل بمعنى الواجب اليوم، استعمالاً شائعاً منذ زمن غير بعيد، فحاشا أن نفهم من الرسالة الواردة في نصوص الكتاب والسنة هذا المعنى بتلك المناسبة، فتلغني معنى الوحي والرسالة من الله سبحانه، لأنّ مُسَايَرَةَ التطوُّر في اللغة في تطوير معاني الكتاب الحكيم، تَكُونُ تحريفاً للكَلِمِ عن مواضعه حتماً.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]، فالضميران في ﴿به﴾ و﴿موته﴾ يعودان على عيسى، لأنه المتحدّث عنه في السياق، ولأنّ عَوْدَ أحدهما على غير ما يَتَوَدُّ عليه الآخر فيه تشبُّت للضمائر، وهذا مما ينزه عنه الكتاب الكريم، ولذا قال أبو حيان - وأنت تعرف منزلته في العربية - «والظاهر أنّ الضميرين في به، وموته عائدان على عيسى، وهو سياق الكلام، والمغني: من أهل الكتاب: الذين يكونون في زمان نزوله» اهـ ولا صارف عن الظاهر.

وقال ابن كثير: «وهذا القول هو الحقُّ كما سنبينه بالدليل القاطع إن شاء الله تعالى، لأنه المراد من سياق الآي في بطلان ما ادعته اليهود من قتل عيسى وصلبه وتسليم من سلم لهم من النصارى الجهلة ذلك، فأخبر الله أنه لم يكن الأمر كذلك، وإنما سُبِّهَ لهم، فَقَتَلُوا السَّبَّهَ وهم لا يَتَّبِعُونَ ذلك، ثم إنه رَفَعَهُ إليه وأنه باقٍ حيٌّ، وألّه سَيَزِلُّ قَبْلَ يوم القيامة، كما دلَّت عليه الأحاديث المتواترة» اهـ. ثم ساق أحاديث كثيرة في النزول، في (١ - ٥٧٨) كما قُتِلَ يَثَلُّ ذلك في باب الملاحم والفتن في أواخر «تاريخه» في القسم غير المطبوع منه^(١).

وكلام ابن جرير واضح جداً في تعيين إرجاع الضميرين إلى عيسى روايةً ودرايةً، وكذا ما ذكرناه في العدد (٣٤ - ١٣٦١هـ) في هذا الصدد.

وقد صَحَّ عن أبي هريرة في «الصحيحين» إرجاعهما إليه، كما صَحَّ عن ابن عباس في رواية محمد بن بشار، عن ابن مهدي، عن الثوري، عن أبي حصين، عن ابن جُبَيْر، عنه عند ابن جرير وابن كثير، وهذا سنَدٌ كالجبل في الصحة، بل الرواية مستفيضة عنه بطرق أخرى.

(١) ثم طبع هذا القسم من تاريخ ابن كثير باسم «النهاية» لابن كثير.

وأين هذا من سند فيه غثاب بن بشير، وحُصيف، أو سند فيه أبو هارون القنوي إبراهيم بن العلاء وعكرمة، أو جزيبر والضحاك، أو محمد بن حنيد وأبو ثُمينة يحيى بن واضح وحسين بن واقد وعكرمة، أو أبو حذيفة موسى بن مسعود وشبل وعبد الله بن أبي نجيع؟

ولا يلتفت في باب الرواية إلى غير الصحيح عند وجود الصحيح، كما لا يلتفت إلى ما يوجب ترك موجب السياق أو إخراج اللفظ عن مدلوله الظاهر حيث لا صارف، فعلم أن الاحتمال هنا لم ينشأ من دليل، فلا يخلُ بكون الآية نصاً في النزول.

ومثل الزمخشري إلى غود ضمير ﴿مَوْتِهِ﴾ [سَبَا: ١٤]، على الكتابي، إنما نشأ من رواية شهر بن حوشب عنده ظناً منه أنها صحيحة، لأنه لا تعويل على الرأي والدراية عند ثبوت الرواية عن المعصوم، أو عن تلقى من المعصوم، لأنه إذا جاء نَهْرُ اللَّهِ بَطَلَ نَهْرُ مَفْقِلٍ عند أهل الدين. ولو علم أن رواية محمد بن السائب الكلبي عن شهر مردودة عند أهل النقد لما عُرِجَ عليها.

ثم قول النووي تعويلاً على قراءة أبي بن كعب، مخالف لمذهبه في القراءة الشاذة. وقراءة أبي هذه في سندها غثاب بن بشير وحُصيف، وكلاهما ضعيف، والقراءة الشاذة ما لم يصح سندُها لا يُحتجُّ بها في باب التفسير عند أهل العلم.

ثم ترجيح إرجاع الضمير إلى الكتابي في ﴿مَوْتِهِ﴾ [سَبَا: ١٤] لما في ذلك من المحافظة على عموم الإيمان لكل كتابي، ففيه عَدمُ بضر، لبناء قسراً لأن فيه إخراج كلمة ﴿قَلَّ﴾ من معناها، يخلُ الإيمان هنا على الإيمان أثناء الموت لا قبله، واخلُ الإيمان على خلاف المعنى المتبادر منه وهو الإيمان النافع، على أن ما لا ينفع لا يسمى إيماناً في الشرع، وإلغاء ما أقسم الله عليه بقوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ [النساء: ١٥٩].

وأما ترك العام على عمومها هنا، فمن عَدم التدبر في الملابسات، لأن لا جواب القسم ونون التأكيد مما يُمَحَضُّ الفعل للاستقبال، فكيون ﴿لَيُؤْمِنَنَّ﴾ [النساء: ١٥٩] بمعنى: أنه يؤمن كل كتابي موجود في زمن خاص من أزمنة المستقبل، يُعبئه تقييده بلفظ ﴿قَلَّ مَوْتَهُ﴾ [النساء: ١٥٩]، فيكون الكلام مصروفاً إلى ما بعد نزول عيسى، كقوله عليه السلام: «يُنْزَلُ فِيكُمْ عيسى ابن مريم»، فإنه بمعنى: أنه ينزل في الأمة الموجودين بعد النزول، لا الموجودين في زمنه عليه السلام.

والتخصيص بالقرائن والملابسات في الكتاب والسنة في غاية الكثرة، فعلم أن الرواية والدراية تطابقاً على إرجاع الضمير إلى عيسى عليه السلام.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْتَهِزُ لَيْلًا لِّلنَّاسِ﴾ [الزخرف: ٦١] فقد اعترف بطلان الخروج على المتوازات بعزود الضمير فيه على عيسى، وعدم احتمال عوديه على غيره، لكن ظن أنه يجد في السياق ما يمكنه من صرفه عن وجهته، ولم يعلم أن كون الخطاب للمشركين وأهل الجاهلية يضره ولا ينفعه، لأنهم لا يقرّون بحدوث عيسى بدون أب، ولا بإبراهيم الأكمه والأبرص، وإحيائه الموتى بإذن الله. وإنما هذا وذلك مما نص عليه القرآن الكريم وهم لا يؤمنون به، فكيف يتصور إقامة الحجة عليهم بما لا يقرّون به؟ فتعيّن أن عود الضمير إلى عيسى، باعتبار أن نزوله من أشراف الساعة، فأصبح نصاً في النزول لا يعدل عنه.

وقراءة «العلم للساعة» بفتحين قراءة جدة من الصحابة والتابعين كما في «البحر» وغيره، لكن تغاضى عنها الشيخ مع صحة سندها، حيث لم تكن هذه القراءة على هواه، لأنها تُعَيِّنُ عود الضمير إلى عيسى باعتبار أن نزوله من أشراف الساعة، مع أنه كان شديد التمسك بالقراءة المنسوبة إلى أبي بن كعب، مع الضعف في سندها كما سبق، لأنه كان يغدّها من صالحه، وهكذا يكون الهوى!

وقد جاء في صحيح ابن جبان بسند صحيح بطريق مضدّع، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَا تَنْتَهِزُ لَيْلًا لِّلنَّاسِ﴾ [الزخرف: ٦١] قال: نزول عيسى ابن مريم من قبل يوم القيامة.

فهل يمكن لمن يخضع لمعايير العلم أن يتعنت بعد هذا كله في رد ما عليه الجماعة؟ وقد فهم أهل التفسير أمثال الزمخشري من إشارات آيات سوى ما تقدّم رفع عيسى ونزوله، فهما يدلّ على بَقْلَة بالغة. وفي إيضاح مداركهم طول نستغني عن الخوض فيها بصرائح الآيات المتقدمة.

فظهر مما سبق كل الظهور بطلان قول الشيخ: «ليس في القرآن الكريم ما يُفِيدُ بظاهريه غلبة الظن بنزول عيسى أو رفيعه، فضلاً عما يُفِيدُ القطع الذي يكون عقيدة ويكثر منكره كما يزعمون».

واتضح أيضاً أن نصوص القرآن الحكيم وحدها تحتم عليه القول برفع عيسى خياً، ونزوله في آخر الزمان، حيث لا اعتداد باحتمالات خيالية لم تنشأ من دليل، كيف والأحاديث قد تواترت في ذلك، واستمرّت الأئمة خلفاً عن سلف على الأخذ بها، وتدوين مؤجّباتها في كتب الاعتقاد من أقدم العصور إلى اليوم، فماذا بعد الحق إلا الضلال.

السنة وثبوت العقيدة

وفي العدد (٥١٨) مقال بهذا العنوان يقول كاتبه في مفتحه: إنه بين فيما سبق أنه «ليس في القرآن الكريم ما يُفيد بظاهره غلبة الظن برفع عيسى ونزوله، فضلاً عما يُفيد البين».

وقد علّم القارئ الكريم بما قرّرناه في الفصل السابق بطلان هذا الزعم من كل ناحية، وأثبتنا أن في القرآن الحكيم نصوصاً قاطعة تدل على الرفع والنزول، وعلى هذا الفهم ذرخ أئمة الأئمة وعلمائهما ولا سيما المفسرين على تعاقب الدهور، وإنما روي موته ثم رفعه عن وهب بن منبه ومحمد بن إسحاق، وهما إنما حكيا ذلك عن أهل الكتاب، وذلك من ضرورة قولهم بقتله وصلبه.

وقد كذب القرآن ذلك، فلم يبق إلا قول أهل الحق: إنه رفع حيّاً، وسيزل قبل يوم القيامة، ومن حُمل التوفي على الموت، مثل قتادة والفراء جعل قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُّوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٥٥] من باب تقديم ما هو مؤخر في الوقوع، لنكتة، كقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣].

وأما ابن حزم فقد قال بموته، ثم رفعه، ثم نزوله اغتراراً منه بما في «الغنيّة» المشروح حالها في العدد (٣٤ - ١٣٦١هـ) من مجلة الإسلام، وما فيها من عزو موته إلى مالك رواية ساقطة عند أهل النقد، وحمل التوفي على الموت إخراجاً للكلمة عن وضعها، كما يُعلم من كلام ابن قتيبة وابن جرير والزمخشري وغيرهم.

وبعد هذا الحمل لا بُد من الحمل على التقديم والتأخير كما فعل قتادة والفراء، جنحاً بين الأدلة، لأن الواو لا تُفيد الترتيب، ونسبة إنكار رفعه حيّاً إلى المعتزلة مطلقاً تساهل، وإنما هو قول الجبائي، وهو كثير الشذوذ، ومن جملة شذوذه أنه يرى عدم جواز الأخذ بخبر الآحاد عقلاً، فإذا أخذ كاتب المقال برأيه هذا يخلص من أخبار الآحاد بقرّة واحدة.

وما لِفَرْدٍ لا يَصِحُّ أن يُنسَبَ إلى جماعته، وها هو خطيبُ المعتزلة ولسانهم الناطقُ تراه في «الكشاف» يُقَرُّ بالرفع والنزولِ على طولِ الخطِّ، وكذا الإماميةُ عند دفاعهم عن خروج المهدي، فلا يكونُ مُتَكَبِّرُ الرفع والنزولِ إلا مفارقاً للجماعة، جارياً مع الهوى، مُتَابِذاً للكتابِ والسنة، وتَبَذُّ ما عليه الجماعة، المُسْتَمَدُّ من الكتابِ والسنة، والغَمَلُ إلى رأيٍ مستَمَدٍّ من أهلِ الكتاب: إبعادُ في الشذوذ، وقد قال ابنُ أبي عَبدِة: الرَّأْيُ الشَّاذُّ إِنَّمَا يَحْمِلُهُ الرَّجُلُ الشَّاذُّ.

ثم ذَكَرَ الكاتِبُ الفَرَقَ بين خَبَرِ الآحاد والخبرِ المتواتر، بإطالةٍ مستغنى عنها، ونقلَ كلماتٍ بعض أهل العلم في ذلك بيّتر وتزَيَّد، على أَمَلٍ أن يجدَ فيها ما يَغْطِي على شذوذه، والواقعُ أن من قال: إِنَّ خَبَرَ الآحاد يُعِيدُ الْعَمَلَ فَقَطْ، يُرِيدُ بِالْعَمَلِ ما يَشْمَلُ عَمَلَ الجوارح وعَمَلَ القلب - وهو الاعتقاد - كما نصَّ على ذلك البَزْدَوِي نفسه، حيث قال في آخِرِ مبحثِ خَبَرِ الآحاد:

فَأَمَّا الآحَادُ فِي أَحْكَامِ الآخِرَةِ فَمِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ مَشْهُورٌ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ دُونُهُ، لَكِنَّهُ يُوجِبُ ضَرْباً مِنَ الْعِلْمِ، عَلَى مَا قُلْنَا، وَفِيهِ ضَرْبٌ مِنَ الْعَمَلِ أَيْضاً، وَهُوَ عَقْدُ الْقَلْبِ عَلَيْهِ، إِذِ الْعَقْدُ فَضْلٌ عَلَى الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ضَرُورَاتِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَتَحَدَّثُوا بِهَا وَاتَّبَعَتَهَا أُنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَطُغًى﴾ [النمل: ١٤]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَتَرَفَّعُونَ كِبَارًا يَتَرَفَّعُونَ ابْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فَضَخَّ الْإِبْتِلَاءُ بِالْعَقْدِ، كَمَا صَخَّ الْإِبْتِلَاءُ بِالْعَمَلِ بِالْبَدَنِ.

وبذلك يُعَلِّمُ وَجْهَ تدوينِ أخبارِ الآحاد في كتب الحديث في المُعْتَبَرَاتِ وَأُمُورِ الآخِرَةِ، كَمَا يُعَلِّمُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ تَلَازِمٌ كُلِّيٌّ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْإِعْتِقَادِ عَلَى مَا سَبَقَ تَفْصِيلُهُ، فَالآنَ قَدْ ظَهَرَ مَنْ يَفْهَمُ مَعْنَى «العقيدة» وَمَنْ لَا يَفْهَمُهَا حَقًّا. وَمَنْ تَرُوبُّ قَبْلَ أَنْ يَتَخَضَّرَ، يَلْقَى مَا يُلْغَاهُ مِنْ تَرْغَمٍ قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّمَ.

ثُمَّ مِنْ قَالَ: إِنَّ خَبَرَ الآحاد لَا يُؤَيِّدُ الْعِلْمَ، يُرِيدُ خَبَرَ الآحادِ مِنْ حَيْثُ هُوَ بِالنَّظَرِ إِلَى رَأْيِ جَمَاعَةٍ، وَإِلَّا فَخَبَرُ الآحادِ الَّذِي تَلَفَّتُهُ الْأُمَّةُ بِالْقَبُولِ يَقْطَعُ بِصِدْقِهِ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ أَبُو الْمُظَفَّرِ السُّمَعَانِيُّ فِي «القواطع».

وقد حَكَّى السُّخَاوِيُّ فِي «فتح المغيبي» عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ: إِفَادَةَ خَبَرِ الآحادِ الْعِلْمَ عِنْدَ احْتِفَافِهِ بِالْقُرَّانِ، بَلْ قَالَ جَمَاعَةٌ: إِنَّ مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ يُبَيِّدُ فِي غَيْرِ مَوَاضِعَ النِّقْدِ مِنَ الْعِلْمِ، لِاحْتِفَافِهِ بِالْقُرَّانِ، وَمِنْهُمْ الْغَزَالِيُّ.

ثم العملُ بخبرِ الآحادِ ثابتٌ بالدليل القطعيّ المفيد للعلم، كما نصّ على ذلك أبو الحسن الكرخي، والسمعاني في «القواطع»، والغزالي في «المستصفى»، وعبد العزيز البخاري في «شرح أصول فخر الإسلام».

والاعتقاد عملٌ قلبي يؤخذ من خبرِ الآحاد، كما سبق من فخر الإسلام، فيكون إنكارُ أخذِ الاعتقاد من خبرِ الآحاد إنكاراً للدليل القطعيّ المفيد للعلم الموجب للعمل بخبرِ الآحاد، أعني من أن يكونَ عملُ الجوارح، وعملُ القلب - وهو الاعتقاد - ماذا يكون موقفُ الكاتبِ إزاء هذا؟ حتى على فرضِ أن خبرَ النزول خبرُ آحاد؟

فيُعلمُ أن حُفاظَ الأمة ما كانوا عابثين في تدوينهم لأخبارِ الآخرة والأُمور الغيبية في كتبهم، ولا كان الأئمة لاعبين في تدوينهم السمعيّات في كتب العقائد، زعمَ خيال هذا الكاتب.

ثم تأويلُ الغزالي لقول بعض المُحدّثين: «إن خبرَ الآحاد يُفيد العلم» بالعلم بوجودِ العملِ به، لا يُمكنُ تأويلُ كلامِ ابن حزم به، لأنه يُنافي صريحَ كلامه في «الإحكام» ١: ١٢٤، حيث قال بعد سردِ مقدّمات: «وإذا صَحَّ هذا فقد ثَبَتَ بَقِيَّةُ أَنَّ خبرَ الواحدِ العدلِ عن مثله مُبلغاً إلى رسولِ الله ﷺ حقٌّ مقطوعٌ به، موجبٌ للعلم والعملِ معاً». ومعه في هذا الرأي أناسٌ ذكرهم هناك، والعالمُ البعيد عن الهوى لا يقتصرُ في النقل على ما يحسبه نافعاً له بدون تمحيص، بل يرى الحقُّ هو النافعُ حينما كان.

وحديثُ نزولِ عيسى على فرضِ أنه خبرُ آحاد، مما اتَّفَقَ البخاريّ ومسلم عليه بدون تكبيرٍ من أحد من حيث الصناعة الحديثية، وتلقّاه الأمة بالقبول خلفاً عن سلف، واستمرَّ علماء الأمة على اعتقادِ مدلوله على توالي القرون، فيحتَمُ الأخذُ به.

هذا إذا فرضَ أنه خبرُ آحاد، فكيف وهو متواترٌ قطعاً، على ما ذكرنا من نصوص أهل الشأن في ذلك، فيكونُ إنكارُ ذلك بعد الإلمامِ بأطراف الحديث بالغ الخطورة، نسأل الله السلامة.

والمتحقُّ في مسألة الرفع والنزول هو الخبرُ المتواتر. وقد نصَّ البَزْدَوِيُّ في آخر بحثِ المتواتر، على أن مُتَكَرِّرَ المتواتر ومُخَالَفَةُ كَافِرًا، ودُكِّرَ في صدد التمثيل للمتواتر «وذلك مثْلُ القرآن، والصلوات الخمس، وأعداد الركعات، ومقادير الزكوات، وما أشبه ذلك». ونزولُ عيسى ليس بأقلُّ ذكراً في كتب الحديث من مقادير الزكوات.

ثم قال النّزدي: «ومن الناس من أنكر العلم بطريق الخبر أصلاً، وهذا رجل سفيه لم يعرف نفسه، ولا دينه، ولا دنياه، ولا أمه، ولا أباه». فيعلم من ذلك مبلغ إبعاد الكاتب في الشّجعة حيث يقول: «وهكذا تجد نصوص العلماء من متكلمي أصوليين مُجتبغة على أن خبر الأحاد لا يُفيد اليقين، فلا تثبّت به العقيدة»، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضروري، لا يصح أن ينازع أحد في شيء منه، ويحملون قول من قال (كابن حزم في جسان الكاتب): «إن خبر الواحد يُفيد العلم» على أن مرادة العلم بمعنى الظن، كما وُرد، أو العلم بوجود الفعل».

وأين اجتماع نصوص العلماء مع قول أمثال أبي حامد الإسفراييني، وأبي إسحاق الإسفراييني، والقاضي أبي الطيب، وأبي إسحاق الشيرازي، وشمس الأئمة السرخسي، والقاضي عبد الوهاب، ورواية ابن خنيزر مُتّذد عن مالك، وقول أبي يعلى، وأبي الخطاب، وابن الزاغوني، وابن فورك، وغيرهم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم، وفي الخبر المحقق بالقرآن، أو خبر الأحاد مُطلقاً كما سبق.

والواقع أن قريفاً قال: إن خبر الأحاد إنما يُفيد العمل. وهو مذهب الجمهور، لكن من جملة العمل اعتقاد القلب، وقريفاً قال: إنه يُفيد العلم والعمل من غير شرط، كابن حزم، وقريفاً قال: إنه يُفيدهما جميعاً عند احتفافه بالقرآن، وليس قول فريق منهم في صالح كاتب المقال لو تدبر، لأنهم متفقون على أنه يُفيد العمل القلبي - وهو الاعتقاد - وإفادته العمل مقطوع بها، والكاتب يُكرر هذه الإفادة القطعية.

ثم إن المكلف إذا جزم بخبر آحاد يسمعه في أمر اعتقادي، فقد تمّ إيمانه المُتّجي في الآخرة، لأن المطلوب منه هو الاعتقاد الجازم كائناً ما كان طريق حصول ذلك له، ولا يستوجب ذلك أن لا يكون في ذلك الأمر أدلة سواء، ولا هو بمُلزم أن يكون هو القائل بالحجة في عصره، وإن كان لكل مسألة اعتقادية حجاج قطعية، وقد قال عبد العزيز البخاري في «شرح أصول النّزدي»: «ذهب أكثر أصحاب الحديث إلى أن الأخبار التي حَكَمَ أهل الصنعة بصحتها تُوجب علم اليقين، بطريق الضرورة، وهو مذهب أحمد بن حنبل» اهـ.

وقول الإمام الشافعي رضي الله عنه: «أتراني خَرَجْتُ من الكنيسته أو تَرَى علي رؤساً؟» لمن سألَه أناخذ بهذا الحديث؟ - في حديث من أخبار الأحاد - يدل على مبلغ تشدّده فيمن يُعرض عن الحديث، كما صُح ذلك عنه بأسانيد في كثير من الكتب.

وأما تأويل الغزالي لقول من قال بن بعض المَشَارِقَة: «إِنَّ خَبَرَ الْوَاحِدِ يُفِيدُ الْعِلْمَ»، فلا يُمْنِي فِي تَوْجِيهِ كَلَامِ ابْنِ حَزْمٍ، لِأَنَّهُ مَخَالِفٌ لِصَرِيحِ قَوْلِهِ كَمَا سَبَقَ، وَهَذَا كُلُّهُ عَلَى تَقْدِيرِ أَنَّ حَدِيثَ نَزُولِ عِيسَى خَبَرٌ أَحَادٌ كَمَا يَزْعُمُ الْكَاتِبُ، وَإِلَّا فَتَوَاتُرُ هَذَا الْحَدِيثِ أَمْرٌ مَفْرُوعٌ مِنْهُ، بِنُصُوصِ أَهْلِ الشَّانِ، وَالْمَحْتَفُّ بِالْقِرَائِنِ قَبِيحٌ لَخَبَرِ الْوَاحِدِ عِنْدَ الْغَزَالِيِّ.

وَأَذْفَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قَوْلُ الشَّيْخِ الْمَتَهْجَمِ: «وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ مَا قُلْنَاهُ فِي الْفَتَاوَى مِنْ (أَنَّ أَحَادِيثَ الْأَحَادِ لَا تُفِيدُ عَقِيدَةً وَلَا يَصْحُحُ الْإِعْتِمَادُ عَلَيْهَا فِي شَأْنِ الْمَغْيِبَاتِ) قَوْلٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ وَثَابِتٌ بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي لَا مَجَالَ لِلْخِلَافِ فِيهَا عِنْدَ الْعُقَلَاءِ».

هَكَذَا سَلَبَ الْعَقْلَ عَنْ جَمَاعَةِ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ الَّذِينَ لَيْسَ بَيْنَهُمْ مَنْ يَرَى رَأْيَهُ، وَقَوْلُهُ هَذَا فِي فُتْيَاهُ بَاطِلٌ بِشِقْيِهِ، كَمَا أَنَّ تَعْلِيلَهُ عَلَيْهِ هُنَا بَاطِلٌ بِطِلَانِ (مَرْكُزًا)، لِأَنَّ خَبَرَ الْأَحَادِ يُفِيدُ عَقِيدَةً اتِّفَاقًا، كَمَا ذَكَرْنَا نُصُوصَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي ذَلِكَ آنَفًا - وَهُمْ عُقَلَاءُ وَمَنْ يَرْمِيهِمْ بِفَقْدِ الْعَقْلِ أَيْكُونُ هُوَ الْعَاقِلُ؟ - وَلَا يَنَافِي ذَلِكَ ثُبُوتُهَا بِأَدَلَةٍ سِوَاهُ.

وَلَوْلَا الْإِعْتِمَادُ وَالِاسْتِنَادُ عَلَى أَخْبَارِ الْأَحَادِ فِي بَابِ الْمَغْيِبَاتِ لَكَانَ حِفْظُ الْأُمَّةِ لِأَعْيُنٍ فِي تَدْوِينِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا فِي كُتُبِهِمْ، وَلَكَانَ عُلَمَاءُ التَّوْحِيدِ هَازِلِينَ حِينَمَا يَقُولُونَ فِي كُتُبِهِمْ فِي الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ: صَحَّ الْحَدِيثُ فِي ذَلِكَ عَنِ الْمَعْصُومِ، وَلَا اسْتِحَالَةٌ فِي حَمْلِهِ عَلَى ظَاهِرِهِ.

لِأَنَّهُ مِنَ الْمَقْرَّرِ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ أَنَّ النُّصُوصَ تُحْمَلُ عَلَى ظَوَاهِرِهَا، مَا لَمْ يَمْتَنِعْ حَمْلُهَا عَلَى ظَوَاهِرِهَا، فَإِذَا امْتَنَعَ ظَاهِرُ النُّصِ أَوَّلُ إِذْ ذَلِكَ فَقَطْ، فَيَذْكُرُونَ الْأَخْذَ بِالْأَظْهَرِ مَا لَمْ يَمْتَنِعِ الْأَخْذُ بِهِ امْتِنَاعًا عَقْلِيًّا أَوْ شَرْعِيًّا.

ثُمَّ الْغَرِيبُ كُلُّ الْغَرَابَةِ أَنَّ يَدَّعِيَّ عَنْ ذَلِكَ الْحُكْمِ الْبَاطِلِ بِشِقْيِهِ «أَنَّهُ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ»، مَعَ كَوْنِهِ لَا يُعْبَرُ سَمْعًا إِلَى حُجِّيَّةِ الْإِجْمَاعِ، كَمَا يَعْلَمُ مِنْ كَلَامِهِ فِي الْعَدَدِ (٥١٩) فِي الرِّسَالَةِ. وَهَذَا مِمَّا تَضَحَّكَ مِنْهُ التَّكَلِّي لظُهُورِ بَطْلَانِ الْأَصْلِ بِشِقْيِهِ، فَضْلًا عَنْ ثُبُوتِ الْإِجْمَاعِ عَلَيْهِ، بَلْ لَا يَصْحُحُ نَقْلُ أَخِي الشَّقِيقِ عَنْ أَحَدٍ يَدَّعِي مَا يَقُولُهُ، بَلِ الْقَوْلُ «بِأَنَّ ذَلِكَ ثَابِتٌ بِحُكْمِ الضَّرُورَةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي لَا مَجَالَ لِلْخِلَافِ فِيهَا عِنْدَ الْعُقَلَاءِ» لَا يَصُدُّ مَنْ يَزِنُ كَلَامَهُ.

ثم الغريب ممن لا يرى الحجة في أحاديث الصحيحين والسنن والمسانيد والجوامع والمصنفات، كيف يحتج بأقوال أناس من المتأخرين وبينهم من لم يتشف جبر ما كتبه بعد؟!! فابن الصلاح إن كان حجة عنده فيما يقوله في المتواتر، يكون حجة أيضاً فيما يقوله في الصحيحين، وهو يقول في مقدمته بالقطع بصحة أحاديثهما، وحديث نزول عيسى مما اتفقا على روايته، فوقَّع الحق ونظَّل ما كانوا يعملون.

والواقع أنَّ قول ابن الصلاح إنما هو في الواتر اللفظي، فلا يمسُّ كلامه كلامنا من قُرب ولا بُعد، ثم ظنَّ ندرة التواتر اللفظي خلافاً للواقع كما توسَّع في بيان ذلك الحُفَّاظ بعده أمثال الزين العراقي وابن حجر والسخاوي والسيوطي وغيرهم، فأبانوا الدليل وأوضحوا السبيل، ونقلُ نصوبهم هنا يُخرِجنا إلى التوسع فيما يعلمه صفاً طلبه العلم.

ولا يستطيع أحد أن يُنكر كثرة التواتر المعنوي باشتراك الأحاديث في معنى خاص، والتواتر في حديث نزول عيسى عليه السلام، تواتر معنوي حيث تشاركت أحاديث كثيرة جداً، بينها الضحاح والجسان بكثرة في التصريح بنزول عيسى، مع احتمال كل حديث منها على معاني أخرى، وهذا ما لا يستطيع إنكاره أحد ممن شَمَّ رائحة علم الحديث.

وليس الاختلاف في شروط التواتر أو الإجماع مما يوهن أثر أحدهما لأن الاختلاف في شيء لا يوجب عدم الجزم بشيء فيه، والاختلاف بعقل وبدون عقل شأن البشر، وقد اختلف الناس في الله وفي رسوله وفي كل شيء، ولم يمنع ذلك من الجزم بالحقائق بعد تمحيص الأقوال.

فلاستناد في توهين أمر الإجماع أو التواتر، على الاختلاف في شرط قبول كل منهما، لا يكون إلا من ضيق العطن وجمود القرية، وقد استقرَّ عند أهل العلم بأدلة ناهضة ملموسة، أنَّ التواتر ليس في حاجة إلى عُدَّة خاص من خمسة فما فوقها، بل إلى مُجرَّد وزود الخبر عن أناس تُحيلُ العادة تواطؤهم على الكذب في جميع الطبقات، وهذا النوع من الخبر في غاية الكثرة لكثرة طريقه في دواوين الحديث.

وما نصُّ أهل الشأن على تواتره يكون كثير الطرق في كتب الصحاح والسنن والجوامع والمسانيد والمصنفات والأجزاء والتواريخ، ويكون كيان أسانيد من صحاح وجسان وضعاف من جهة قلة الضبط منجرٍ ضعفها بأدلة تدلُّ على ضبط من رُمي بقلَّة الضبط، بموافقة الثقات الأثبات له في الرواية، فتكون الضعاف مغمورة بين تلك

الأخبار الكثيرة التي مُعظمها صحاح وجسان، وأما كثرة الطُرُق من أسانيد تالقة فقط، فلا تُفيدُ الحُسْنَ ولا الصحة فضلاً عن التواتر.

وأما ما نُصِّوا على أنه مُتواتر، فيبدأ تخريبه من الصحيحين وباقي السنن إلى سائر الصحاح والمسانيد والمصنفات، فمن لا يطمئن قلبه إلى مثله في الدين، لا يطمئن إلى شيء ولو تليث عليه الكتب المُتَرَلِّة كلها.

وليست كثرة وجود المتواتر تواتراً معنوياً موضع نزاع القوم، ولا هذا مُقابل قول ابن الصلاح، بل مُجرّد وجود الحديث في الكتب المشهورة المتداولة بأيدي أهل العلم شرقاً وغرباً، بطُرُق كثيرة تُجِبُّ العادة تواطؤ رجالها على الكذب: يؤذُن بتواتر الخبر قطعاً عند كل حاذٍ بعقله، تواتراً لفظياً إذا اتَّفَقَت ألفاظهم، وتواتراً معنوياً إذا اختلفت ألفاظهم، مع اتفاقها في معنى يكون قُدراً مُشْتَرَكاً بين الجميع.

وهذا القسم هو الكثير جدّ الكثرة كما يظهر من كتب أهل الشأن، ومعنى اجتماع تلك الكتب على تخرجي الحديث - في لفظ بعضهم - اجتماع عَدَدٍ منها يحتوي تلك الطُرُق الكثيرة، التي هي مَدَارُ الحكم بالتواتر، لظهور بطلان خُصْلِ الكلام على الاستفراق الحقيقي، لأنّ جمع كتب الحديث كلها غير ميسور لأحد في دور من الأدوار، فكفَى جمع عَدَدٍ من الكتب المشهورة المتداولة، يحتوي تلك الطُرُق، لظهور أنّ التعليق بالمُحال ليس من عادة العلماء.

وكم من حديث لا يُوجَدُ في الموطأ أو المنتقى لابن الجارود مثلاً، ويكون موجوداً في باقي الصحاح والسنن والمسانيد والجوامع، بسبب أنّ الموطأ والمنتقى يقتصران على أحاديث الأحكام، مع كون باقي الكتب أشمَل في الرواية، والحديث المذكور لا يكون من باب الأحكام مثلاً.

وتخطئُ ابن الصلاح في دعوى ندرة التواتر مشروحة في «الثبوت» و«شرح الألفية» للعراقي و«التدريب» للسيوطي وغيرها من الكتب المعروفة، بحُجَج ملموسة. وعَدُّ الكاتب هذا القول أوسَع المذاهب في المُتَوَاتِر غلط بل هو الذي حَقَّقَت الدلائل الناهضة، ومذهب لا يَشْتَرَطُ في عدد الرواة أكثر من خمسة يكون هو أوسَع المذاهب في التواتر.

والظاهر أنه غاب عن كاتب المقال اختلاف الأقوال في الأعداد التي يجب تحقُّقها في التواتر، فيكون ما عليه الجماعة هو أعدل الأقوال، فلا تقوم حُجَّة لسواه،

فمحاولة الكاتب التمسك باجتماع الكتب على تخريج الحديث، وعده لذلك أوسع المذاهب للتخلص من التواتر: مما يذهب هكذا أدراج الرياح عند من تدبر ما ذكرناه.

ثم دعواه الإسراف في الحكم بالتواتر قديماً وحديثاً، إبعاداً في الثجعة، وليس مثل هذه الدعوى المجردة مما يستمع من مثله، بعد أن ساق أهل الشأن الطرق التي بها يحكمون على الحديث بالتواتر من كتب الصحاح والسنن والمسانيد والجوامع والمصنفات وغيرها.

والمزاعم المجردة عن الدليل لا يهزم بها حق، ولا ينصرف بها باطل، بل ترتد إلى زاعمها هزيماً كما صدر، ويقال لقاتلها: «ما هكذا تُوزد الإبل يا بطل!».

وإن دلت هذه الظاهرة منه على شيء، إنما دلت على أنه يريد التشكيك في السنة ودالاتها، كما فعل مثل ذلك في دلالة الكتاب الكريم، فنوصيه أن يقلع عن هذا، ويحذر من المخاطرة بنفسه فيما لا يقبل له به، لأن الحق ظاهر لا يستور التمويه عن الأبصار، والباطل مفضوح كائن من كان ناجز، وأول فخر لمن يقوم بالتدليل على تواتر خبر أن يرد أسماء الصحابة الذين قاموا بروايته، ثم التابعين، ثم وثم طبقة طبقة، والاستياء من مثل هذا الجش العرمرم، شأن من يكون في صف الباطل وانهزم.

ولا أدري ما هو الداعي له إلى ذكر التعصب المذهبي في خلع لقب التواتر على خبر الآحاد في نظره، ونزول عيسى ليس اعتقاد أهل مذهب فقط، بل المسألة إجماعية لا يوجد مذهب ينفيها، فدونك «الفقه الأكبر» رواية حماد، و«الفقه الأبسط» رواية أبي مطيع، و«الرواية» رواية أبي يوسف، و«عقيدة الطحاوي»، يظهر منها أن اعتقاد نزول عيسى مذهب أبي حنيفة وأصحابه وأتباعهم، وهم شطر الأمة المحمدية.

وكذا مالك وأصحابه وأتباعه، والشافعي وأصحابه وأتباعه، وليس أحد منهم ينكر نزول عيسى، ولاحمد بن حنبل كتابات بت بها إلى أصحابه في بيان معتقد أهل السنة، وفي جميعها هذه المسألة، وتلك الرسائل مروية بأسانيدها عند أهل العلم، مدونة في «مناقب أحمد» لابن الجوزي، وفي «طبقات الحنابلة» لابن أبي يعلی وغيرهما، وكذا الظاهرية.

وتصريح ابن حزم بنزوله عليه السلام موجود في ٢٤٩:٣ من «الفصل»، وفي ٩:١ وفي ٣٩١:٧ من «المحلى»، بل المعتزلة كذلك كما يظهر من كلام الزمخشري،

وكذلك الإمامية كما يظهر من كلامهم في الدفاع عن خروج المنتظر، فإين يكون التعصب المذهبي في مثل هذه المسألة، المُخْرِج دليلاً في الصحاح كلها والسُنن كلها والمسانيد كلها، ودان بها جميع الفرق؟

نعم هنا قوة ثمة للأئمة بحكم قطعي، لا يتغير عنه جزواً إلى شبه اليهود والنصارى في المسألة. ولا حجة في كلام بعض المعصريين الذين تعودوا التساهل في كل شيء، لأنهم ضحفيون قبل كل شيء، لا حجة عندهم بأدلة المسألة، ولا وزع يحجزهم عن الإفتاء فيما غاب عنهم دليلاً.

أفدني بربك ما هو الداعي هنا إلى ذكر الوضاعين، أو الأخبار الجارية على الأسن؟ وقد ألفت في القيلين كتب خالدة، يستفيد منها كل من يرغب في علوم السنة، وليس خبر النزول من هذا الوادي ولا من ذلك الوادي كما سبق.

وطرق بحث المعجزات الحسية هنا تطوع من الكاتب في صف ثقاتها بدون أي مناسبة له هنا، غير توسيع دائرة البحث، ليتقى وهو يتكلم، نفع كلامه أم لم ينفع، فإنا نفاة المعجزات الحسية، اعملوا (معروفاً) لا تفضوا على فخر الرسل - صلوات الله وسلامه عليه وعليهم - بمعجزات أثبتها القرآن لسائر الأنبياء.

وقد أجاد ابن كثير في «تاريخه» سرد المعجزات الثابتة لفخر المرسلين، مما ثبت مثله للأنبياء قبله، وتبين أنه ما أوتي نبي قبله معجزة إلا وأعطي مثلها المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، وقد نص أهل العلم على ما تواتر منها مباشرة، وما تواتر القدر المشترك فيه فقط.

وإن كان كاتب المقال تسرب إلى فكره شيء من تشكيكات البرنس قيتانو الإيطالي، في تاريخه الكبير عن الإسلام، فدواء ذلك كتاب الشيخ شبل النعماني وزميله الشيخ سليمان النذوي في السيرة، وهما أجادا وأفادا.

والمعجزات الحسية يجدها الباحث في كتب الصحاح والسُنن والسيرة مع تبين مراتبها، كما يجدها في «الشفاء» و«شروجه»، و«المواهب» و«شرحها» إن كان يقتصد في البحث.

وأما تواتر أحاديث المهدي والدجال والمسيح، فليس بموضع ريب عند أهل العلم بالحديث، وتشكك بعض المتكلمين في تواتر بعضها، مع اعترافهم بوجوب اعتقاد أن أشراف الساعة كلها حق، فمن قلّة خبرتهم بالحديث، وهم معذورون في ذلك، ما لم يعاندوا بعد إقامة الحجة عليهم في المسائل.

وكتاب «التوضيح في تواتر ما جاء في المتنظر والدُّجَالِ والمسيح» للشوكانبي، مطبوع في الهند، وقد نُقِلَ منه صديق خان جملةً صالحة في كتابه «الإذاعة لما كان وما يكون من أشرار الساعة»، وهو أيضاً مطبوع في الهند، وهما ممن أقرَّ لهم كاتب المقال بالإمامة والقُدوة، بل هما من أئمة هذا الشاذ.

وليس إلى مثل الكاتبِ المتهجمِ التحدُّثُ عن مراتبِ الحديث، وله رجالٌ وللتشبيب رجال. وزمِّي من أجاد جَمْعَ الأحاديثِ الواردة في نزول عيسى عليه السلام، ونَقَعَ الأُمَّةَ بعليهِ، بالتمويه والزُّخْضِ وراء الارتزاق، مما لا يصدر من حرِّ سِلْمِ قلبه من الدُّغْل.

ومما يُقْضَى منه العَجَبُ أنَّ يُرْمَى بِمَنْ خَرَقَ الإجماعَ وفارق الجماعةَ في المسألة: مَنْ ناصَرَ معتقداً جماعة المسلمين بالمكابرة والعناد والإصرار على التضييل!! ولا شك أنَّ مَنْ عنده شيء من الوازع الديني أو الزاجر الخُلقي، يزيأ بنفسه أن يقف في مثل هذا الموقف.

ثم لما رأى الكاتبُ انهزامه من كل جانب، وتضييق الأدلة الخائفة لجنائيه أراد أن يسلك في المسألة ما سلكه في تأويل الشيطان فيما سَبَق! فقال: «إنَّ حديثَ النزول ليس بِمُحْكَم، لا يَحْتَمِلُ التأويلَ حتى يكون قطعي الدلالة». والمُحْكَم لا يمتاز عن أَخَوَاتِهِ من أقسام الوضوح إلا بِعَدَمِ احتماليه للنسخ، وأما الخبرُ فلا يَحْتَمِلُ النسخ، فكيون الظاهر والنص في هذا الموضوع في حُكْمِ المُحْكَم.

وأما احتمال التأويل فاحتمالٌ خيالي لم يَنشأ من دليل، فلا يُجْلُ بكون الدليل قطعي الدلالة كما سَبَقَ بيأته مرات، قال الغزالي في «المستصفى» ١: ٣٥٧ «أما الاحتمال الذي لا يعضده دليل، فلا يُخْرِجُ اللفظَ عن كونه نصاً»، ومثله في «التلويح» و«مِرآة الأصول» وغيرها.

ثم قال الكاتب: «فقد تناولتها أفهام العلماء قديماً وحديثاً، ولم يجدوا مانعاً من تأويلها».

لكن لا يَوجَدُ بين علماء أهل الحق من يؤولُ النصوصَ ما لم تستجَل معانيها الظاهرة، ولذا تجدُ في كتب أهل الحق النصُّ على أنَّ «النصوص تُحْتَمَلُ على ظواهرها، والعدولُ عنها إلى معاني يُدَّعيها أهلُ الباطنِ إلحادٌ وكُفْرٌ، وزدَّ النصوصُ كُفْرًا».

ثم نقل الكاتب عن «شرح المقاصد» نقلاً مبنوراً ما يَظُنُّ به أنه يكون حُجَّةً له في تأويل ما وُزِدَ في أشراف الساعة، ولا سيما نزول عيسى عليه السلام، مع إغفال ما يُحقِّقُ المسألة من كلام السعد في مواضع من «شرح المقاصد»، فأنقل كلام السعد هنا مع إثبات ما أهملهُ الكاتب، ليُظهِرَ ما إذا كان قول السعد في صالحه أم لا.

قال السعد في «شرح المقاصد» ٢٢٦:٢ «وبالجملة فالأحاديث في هذا الباب كثيرة، رواها العدولُ الثقاتُ، وصَحَّحَها المحدثونُ الأثباتُ، ولا يَمْتَنِعُ حَمْلُها على ظواهرها عند أهل الشريعة، لأنَّ المعاني المذكورة أمورٌ ممكنةٌ عقلاً.

وزعمت الفلاسفة أنَّ طلوع الشمس من مغربها مما يَجِبُ تأويله: بانعكاس الأمور وجريانها على غير ما ينبغي، وأوَّلَ بعضُ العلماء الثَّارَ الخارجةَ من الحجاز: بالعلم والهداية سيِّما الفقه الجبَّارِي، والثَّارَ الحاشرةَ للناس: بفتنة الأتراك، وخروج الدجال: بظهور الشرِّ والفساد، ونزول عيسى ﷺ: باندفاع ذلك وبدو الخير والصلاح...».

فصدَّرَ كلامه على القاعدة المتَّبعةَ عند أهل الحق، من حَمْلِ النصوص على ظواهرها ما دامت معانيها أموراً ممكنة، ومؤولَ طلوع الشمس كما سبق لا يكون من أهل الشريعة، وكذلك مؤوَّلُ الأشراف على ما سبق، لأنَّ تلك التأويلات بعيدةٌ كُلُّ البُعد عن لُغَةِ التخاطب، فتكون من قبيل التأويلات للباطنية، وقد عرفت حُكْمَها، وليس شيء منها على قواعد التأويل المعروفة عند أهل العلم، راجع «قانون التأويل» للغزالي.

فكان الكاتب لم يذُرْ شيئاً من كتب التوحيد عند أهلِهِ، ليفهَمَ مَقَرَّي كلام المتكلمين في السُّمُعيَّات: هذه أمورٌ مُمَكِّنَةٌ في العقل. يَفْتَنُونَ أنه ذلَّ السمعُ على ثبوتها، فوجبَ حَمْلُها عليها. ومنهم من يُعَبِّرُ عن ذلك بقوله: لا يَمْتَنِعُ حَمْلُها على ظواهرها يَفْنَى عقلاً، فتعيَّنَ حَمْلُها عليها شرعاً، لا بمعنى أنه لا مانع من حَمْلِها على ظواهرها شرعاً ولا مِنْ غَدَمِ حَمْلِها.

وليس المقامُ يتسعُ لشرح الوجوبِ والامتناعِ والإمكانِ ووجوه كون سَلْبِ الضرورة عن جانب العَدَمِ أعمُّ من الوجوب في جانب الوجود، وهذا من مبادئ المعارف لمن يشتغلُ بعلم أصول الدين، فَفَهَّمُ الكاتب هنا يجلبُ إلى نفسه ضَجْكَ الضاحكين من صغار المتعلمين.

ومما يُحَقَّقُ عند القارئ مبلغ بُعد الكاتب عن علم الكلام قوله تفرعاً على كلام السعد المذكور: «ومن ذلك نرى أنَّ السعد لا يُقرِّرُ وجوب حملها على ظواهرها، حتى تكون من قطعي الدلالة الذي يمتنع تأويله، وإنما يُقرِّرُ بصريح العبارة أنه لا مانع من حملها على ظواهرها. فيُعطي بذلك حقَّ التأويل لمن انقذَ في قلبه سببٌ للتأويل».

وعادة المتكلمين أن يُفرِّعوا وجوب الاعتقاد بمعنى الدليل الشرعي على عدم استحالة معناه المؤدية إلى التأويل، وكم ترى السعد نفسه يقول في السمعات: «إنها أمورٌ ممكنة تُطعن بها الكتاب والسنة، وانعقد عليها إجماع الأمة، فيكون القول بها حقاً، والتصديق بها واجباً»، ومثله يتكرَّرُ في «شرح النسفية»، وفي «التجريد» للنصير الطوسي، و«المواقف» للقاضي عُضد الدين.

والذين ذكَّره السعد هنا بقوله: «عند أهل الشريعة»، ليسوا من أهل الشريعة في نظره، كما هو ظاهر، والسعد هو الذي يقول في آخر «شرح المقاصد»: «ذهب العظماء من العلماء إلى أنَّ أربعة من الأنبياء في رُمة الأحياء الخضر والياس في الأرض، وعيسى وإدريس في السماء، عليهم الصلاة والسلام».

كما يقول في ١٩٨:٢: «وأما استحلال المعصية بمعنى اعتقاد جلها فكفر، صبيحة كانت أو كبيرة، وكذا الاستهانة بها بمعنى عدّها هيئة تُرتكب من غير مبالاة، وتجرى مجزى المباحات، ولا خفاء في أنَّ المراد ما ثبت بقطعي، وحكم المبتدع - وهو من خالف في العقيدة طريقة السنة والجماعة - ينهي أن يكون حكم الفاسق، لأن الإخلال بالعقائد ليس بأذون من الإخلال بالأعمال»، يعني فيما هو غير مكتر.

ثم قال: «وحكم المبتدع البُغضُ والعداوة والإعراض عنه، والإهانة والطعن واللعن وكرهية الصلاة خلفه».

ثم قال: «وطريقة أهل السنة أنَّ العالم حادث، والصانع قديم متصف بصفات قديمة... لا شبيه له، ولا ضد، ولا بُد، ولا نهاية له، ولا صورة، ولا حد، ولا يحل في شيء، ولا يقوم به حادث، ولا يصح عليه الحركة والانتقال... وأنه ليس في حيز ولا جهة... وأنَّ أشراف الساعة من خروج الدجال، وأجوج ومأجوج، ونزول عيسى، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض: حق... إلى آخر معتقد أهل السنة والجماعة البسطة هناك.

وَبَعْدَ أَنْ عَلِمَتْ نصوصُ كلامِ السعد، في شتى المواضع من كتابه المذكور، تَعْلَمُ عِلْماً باتاً أَنَّ مُرَادَهُ بِقَوْلِهِ: «وَلَا يَمْتَنِعُ حَمْلُهَا عَلَى ظَوَاهِهَا» بَعْدَ تَقْرِيرِهِ لِثُبُوتِ الْأَحَادِيثِ، لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَعْنَى أَنَّهَا أُمُورٌ مُمَكِّنَةٌ عَقْلاً دَلَّ السَّمْعُ عَلَى ثُبُوتِهَا، فَيَجِبُ التَّصْدِيقُ بِهَا.

ولم يكتفِ الكاتبُ بما سَبَقَ منه من التحريفِ الشائِنِ، حتى خَيَّرَ النَّاسَ فِي الْإِيمَانِ بِأَحَدِ طَرَفَيْ الثُّبُوتِ وَالْإِثْبَاتِ، وَهَذَا هُوَ الْجَهْلُ بَعِيْنُهُ فِي بَابِ الْإِعْتِقَادِ - وَإِنْ كَانَ لَهُ سَابِقَةٌ فِي تَقْرِيرِ لَزْمِائِهِ - وَخَتَمَ كَلَامَهُ بِأَنَّهُ تَبَيَّنَ جَلِيًّا مِمَّا تَقَدَّمَ «أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي أَوْرَدُوهَا فِي شَأْنِ نَزُولِ عِيسَى آخِرَ الزَّمَانِ فَطَعِيَّةٌ مَا، لَا مِنْ نَاحِيَةِ وَرُودِهَا، وَلَا مِنْ نَاحِيَةِ دَلَالَتِهَا».

هَكَذَا يَظُنُّ بِنَفْسِهِ أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ إِبْطَالِ كِتَابِ السَّنَةِ مِنْ صِحَاحٍ وَمُسَانِدٍ وَغَيْرِهَا، بِشَطْبَةِ قَلَمٍ، كَمَا تَمَكَّنَ فِي حِسَابِهِ أَيْضاً مِنْ إلْغَاءِ كُتُبِ الْكَلَامِ وَالتَّوْحِيدِ وَمَا خَوَّنَتْهُ فِي الْمَسْأَلَةِ مِنْ أَوَّلِ عَهْدٍ إِلَى الْيَوْمِ، وَكُتُبُ السَّنَةِ لَا تَزَالُ بِخَيْرٍ، وَكَذَا كُتُبُ التَّوْحِيدِ مَا دَامَ لِلْإِسْلَامِ عِزُّهُ يُنْقِضُ، وَإِنَّمَا الضَّالُّعُ مِنْ أَضَاعَ نَفْسَهُ بِمُنَاقَضَةِ الْأُمَّةِ، حَتَّى أَصْبَحَ مَثَلاً فِي الْآخِرِينَ. وَلَعَلَّ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ فِي هَذَا الْفَصْلِ كِفَايَةً فِي نَقْضِ مَا فِي الْمَقَالِ الْمَذْكُورِ، وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ هُوَ وَلِيُّ الْهَدَايَةِ.

الإجماع وثبوت العقيدة

وبهذا العنوان كلمة أيضاً في العدد (٥١٩)، تناول فيها الكاتبُ ثالثَ حُجَجِ الشرع عند أئمة الدين، بالتشكيك بكل ما استطاع، وبه يكون أتمُّ رسالتُهُ في تهوين دلالة حُجَجِ الله من الكتاب والسنة والإجماع، في نفوس المُصَنِّين إليه من العامة وثبته العامة.

ولستُ أدري ما هو الداعي له إلى هذا اللف والدوران، وتعميد القواعد في النيل من الأدلة المُجمَّع عليها بين أهل الحق، وكان يستطيعُ بدوْن ذلك أن يقول: إنَّ في وفاة عيسى عليه السلام ونُفْي نزوله في آخر الزمانِ النَّصُّ الفُلاني من الكتاب يدلُّ على وفاته ونُفْي نزوله، أو الدليلُ الفلاني من السنة أخرجه فلان وفلان، يُخَالِف ما اعتقده الجماعة في ذلك، أو الروايةُ الفلانية عن فلان من أئمة الدين، بالسند الفلاني تُفِيد وفاته ونُفْي نزوله، لو كان شيء من ذلك موجوداً في دواوين العلم.

لكن لو أجلب الكاتبُ بِخُيَلِهِ رَجُلِهِ ما استطاع سبيلاً إلى رواية في وفاته ونُفْي نزوله عن أحدٍ لم ينخدع بروايات أهل الكتاب، فضلاً عن أن يجدَّ ثبته دليل في الكتاب أو السنة، إزاء نصوص كتاب الله وسنة رسوله المتواترة وإجماع علماء المسلمين، الدالة على معتقد الجماعة في ذلك.

وكم قلنا: إنَّ رواية ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، غيرُ ثابتة، للانقطاع وللکلام في رجالٍ سندها، بل ضَع واستفاض خِلاف ذلك عنه، فيجبُ خَمَل تلك الرواية على التقديم والتأخير، لئلا تُخَالِف ما ضَع واستفاض عنه، إذا جعلنا لها شيئاً من القيمة كما هو رأي قتادة والفراء.

وقولُ وَغِبِ بْنِ مُتَبِّهِ بموته: لم يُسَيِّدْهُ إلى المعصوم، وإنما نقله من أهل الكتاب، ورواية محمد بن إسحاق تَنْصُ على أنَّ القولَ بموته قولُ النصارى، والجُبَّاني منخدعٌ برواية أهل الكتاب، وابنُ حَزْم على غَلَطِهِ بعَدَمِ الفَرْقِ بين التوفي والوفاة مُصَرِّحٌ باعتقاده نُزُولَهُ في آخر الزمان، حيث قال في «المحلى» في ٩: ١: «إنَّ عيسى

ابن مريم سينزل»، وساق بسنيد حديث النزول هناك، وهكذا يقول أيضاً في ٣٩١:٧ فيهبون أمر خلافه، وإن كان واهن المذكور.

وإنما الخلاف الخطر هو نفي نزوله عليه السلام، وقد سبق منا بيان وجوه دلالة الكتاب على الرفع والنزول، مع نقل نصوص الحفاظ على تواتر حديث النزول، والإجماع على الاعتقاد بنزوله.

وممن قال ذلك الحافظ عبد الحق بن عطية الأندلسي وأبو حيان الحافظ في تفسيريهما، وفي «البحر المحيط» ٤٧٣:٢: «قال ابن عطية واجمعت الأمة على ما تضمنته الحديث المتواتر، من أن عيسى في السماء حي، وأنه ينزل في آخر الزمان»، وفي «النهر الماد من البحر» ٤٧٣:٢ بالهامش: «واجمعت الأمة على أن عيسى عليه السلام حي في السماء، وسينزل إلى الأرض، إلى آخر الحديث الذي صرح عن رسول الله ﷺ في ذلك»، وفي «البحر» أيضاً ٣٩١:٣: ﴿يَلْقَاهُ اللَّهُ إِلَیْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] هذا إبطال لما ادعوه من قتله وصلبه وهو حي في السماء الثانية، على ما صرح عن الرسول ﷺ في حديث الجعراج، وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله إلى الأرض.

ومن خلقه الله من غير أب إذا عاش في السماء عيشة الملائكة بدون حاجة إلى الأغذية بإذن الله سبحانه إلى اليوم الموعود، ما استبعد ذلك مؤمن لا يكون في قلبه دغل.

وقد ذكر الذهبي في «تجريد أسماء الصحابة» عيسى عليه السلام في عداد الصحابة، حيث رآه ليلة المعراج وهو حي، وهكذا فعل ابن حجر أيضاً في «الإصابة» ولا يخدش في ذلك حديث عائشة رضي الله عنها في أن الإسراء كان مناماً، فإنه إنما رواه محمد بن إسحاق عن بعض آل أبي بكر رضي الله عنه بدون سند، وبالرواية عن مجهول بدون سند، لا يثبت شيء عن عائشة ولا غيرها.

ومن لخطأ بأن الإسراء كان نوماً لهذا الخبر بنى على غير أساس، وإطباق كتب العقائد من الصدر الأول إلى اليوم على الرفع والنزول، مما لا يدع مجالاً للتشكيك في الإجماع على ذلك، إلا عند من لا يبالى بالإجماع ولا بالمجموعين.

وليس الإجماع بالموضع الذي يراه فيه كاتب المقال، بل يقول فيه ابن حزم في «مراتب الإجماع»: «إن الإجماع قاعدته من قواعد الملة الحنيفية، يرجع إليه، ويُفزع نحوه، ويُكفر من خالفه»، مع كونه من أشد الناس كلاماً فيه، والخلاف في شيء

ليس مما يُزِيلُ حقيقة ذلك الشيء من الوجود، بل أهل البصيرة النافذة يُمحِصُونه بين ضَوْضَاءِ الآخِذِ والرد، فيظهرُ الحقُّ واضحاً جليلاً بعدَ التمحيص، لمن له قَلْبٌ أو أَلْفَى السمع وهو شهيد.

ولعلَّ الحقَّ في ذلك لا يعدو ما قلَّتهُ في «الإشفاق على أحكام الطلاق»، في صدد الرد على من يقول من أبناء اليوم: إنَّ الإجماعَ الذي يَدْعِيهِ الأصوليون ما هو إلا خَيَال... ولا اسْتَقَرَّ رأيُ العلماءِ على قولٍ مقبولٍ في معنى الإجماع - في نفيهِ - وكيف يُحْتَجُّ به ومتى؟».

ولا بأس أن أسوقَ هنا بعضَ ذلك، دفعاً لما عَسَى أن يَغْلَقَ ببعضِ الخواطر من تشكيك ذلك المشكك.

ومما قلَّتُ هناك: «هذا كلامٌ لا يَضُرُّ ممن يَعْقِلُ ما يقول، وإن دُلَّ هذا الكلامُ على شيء، فإنما دُلَّ على أنَّ قائلَهُ ما دَرَسَ شيئاً من أصول الفقه، ولو نحو «مِرَاةِ الأصول»، أو «التحرير»، على واجد من المُبْرِزين في العلم، فضلاً عن كتابِ البَزْذَوِيِّ، وشروجه، ولا اطلَّع على «بَخر» البدر الزركشي، ولا «شامِل» الإتقاني، فضلاً عن «تقويم» الدَّبُوسِيِّ، و«ميزان السمرقندي»، و«فصول» أبي بكر الرازي.

ولم يَطْلُع أيضاً على «فصول» الباجي، و«محصول» أبي بكر بن العربي... ولا «برهان» ابن الجَوَينِيِّ، ولا «قواطع» السمعاني... ولا على «تمهيد» أبي الخطَّاب، و«رَوْضَةُ» المَوْثِقِ و«مختصرها» للطُوفِي، ولا «عَمَدُ» القاضي عبد الجبار، و«مُعْتَمِد» أبي الحُسَيْنِ البصري، ولا «محصول» الرازي، بل «تنقيجه» للقرافي، بل اكتفى في هذا العلم الخطير بتقليب صفحات كُتُبٍ للشوكاني أو القُتُوبِي، شَيْخِي التَّخْطُّطَاتِ في المسائلِ في الدُّورِ الأخير...

أو لم يَعْلَمْ هذا المتقول أنَّ حجَّةَ الإجماع مما اتَّفَقَ عليه فقهاء الأئمة جميعاً، وعدَّوه ثالث الأدلة، حتى إنَّ الظاهرية على بُغْيِهِم عن الفقه، يَعْتَرِفُونَ بِحُجِّيَّةِ إجماع الصحابة، ولهذا لم يَتِمَّكَّنْ ابنُ حزم من إنكار وقوع الطلاق الثلاث مجموعة، بل تابع الجمهور في ذلك.

بل قد اطلَّع كثيرٌ من العلماءِ القولَ بأنَّ مخالِفَ الإجماع كافِرٌ، حتى شُرِطَ للمفتي أن لا يَقْنِيَ بقولٍ يُخَالِفُ أقوالَ جماعة العلماء المتقدمين، ولهذا كان لأهل العلم عناية خاصةً بمثل «مُصَنَّف» ابن أبي شبة، و«إجماع» ابن المنذر، ونحوهما من

الكتب التي تنبئ بها مواطن الاتفاق والاختلاف في المسائل بين الصحابة والتابعين وتابعيهم رضي الله عنهم.

وقد ذلّ الدليل على أنّ هذه الأئمة محفوظة من الخطأ، وأنهم عدولٌ شهداء على الناس، وأنهم خيرُ أمةٍ أُخرجت للناس، يأمرُونَ بالمعروف، ونهَوْنَ عن المُنكر، وأنّ مَنْ تَابَعَهُمْ تَابَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ، وَمَنْ خَالَفَهُمْ سَلَكَ سَبِيلَ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ، وناقض علماء الدين.

ولا أدري من أين أتت هذه الفوضى في التفكير، ومن أين تسرّيت هذه السموم الفاتكة إلى أذهان بعض المتفهمين في هذا العصر؟... فإذا ذكّر أهل العلم الإجماع، فإنما يريدون به إجماع من بلغوا رتبة الاجتهاد من بين العلماء، باعترافهم، مع وَرع يحجزهم عن محارم الله، لِيُمكنَ بقاؤهم بين الشهداء على الناس.

فمن لم يبلغ مرتبة الاجتهاد باعتراف العلماء له بذلك، فهو خارج من أن يُعتدّ بكلامه في الإجماع، ولو كان من الصالحين الورعين، وكذلك من ثبت فسقه أو خروجه على معتقدي أهل السنة، لا يُتصور أن يُعتدّ بكلامه في الإجماع، لسقوطه من مرتبة الشهداء على الناس.

على أنّ المبتدع كالخوارج وغيرهم لا يُعتمدون بروايات ثقات أهل السنة في جميع الطبقات، فكيف يُتصور أن يُوجد فيهم من العلم بالأثار ما يؤهلهم لدرجة الاجتهاد.

ثم أقلّ ما يجب على المجتهد المستجيب لشروط الاجتهاد، باعتراف العلماء: أن يدلّني بحججه، ويصارع الجمهور بما يراه حقاً تعليمياً وتدويناً، إذا رأى أهل العلم على خطإ في مسألة من المسائل، حَسَبَ ما يراه هو، لا أن يُنقِصَ في دأبه، أو يتزوّي في رأس جبل بعيد عن أمصار المسلمين، ساكتاً عن بيان الحق، والساكت عن الحق شيطانٌ آخرس، ناكثاً عهد الله وميثاقه في تبیین الحق، ومن نكث فإنما يُنكث على نفسه، فبِمَجْرَدِ ذلك يلتحق بالساقطين عن مرتبة قبول الشهادة، فضلاً عن مرتبة الاجتهاد.

ومن المحال في جاري العادة بين هذه الأئمة، نظراً إلى نشاط علماء المسلمين في جميع الطبقات لتدوين أحوال من له شأن في العلم، وتسابقهم في كتابة العلوم وتسجيلها، وإفشاء ما يلزم الجمهور علمه في أمر دينهم ودنياهم امتثالاً منهم لأمر

تبلغ الشاهد للغائب، ووفاء بميثاق تبين الحق: أن لا تكون جماعة العلماء في كل عصر يعلمون من هم مجتهدو ذلك العصر، الحائزون لتلك المرتبة العالية، القائمون بواجبهم؟.

فإذا ذاع رأي رآه جمهور الفقهاء في أي قرن من القرون، من غير أن يعلم أهل الشأن مخالفة أحد من الفقهاء لهذا الرأي، فالعقل لا يشك في أن هذا الرأي مجتمّع عليه، وهو الذي يعول عليه المحققون من أئمة الأصول، وهذا مما لا يمكن أن تجري حوله الشرثرة: بأن في الإجماع كلاماً من جهة حجب، وإمكانه، ووقوعه، وإمكان العلم به، وإمكان نقله كما لا يخفى.

وليس معنى الإجماع أن يدون في كل مسألة مجلدات تحتوي على أسماء مئة ألف صحابي مات عنهم النبي ﷺ ورضي عنهم، بالرواية عن كل واحد منهم فيها، بل تكفي في الإجماع على حكم صحة الرواية فيه عن جمیع من المجتهدين من الصحابة، وهم نحو عشرين صحابياً فقط في التحقيق، بدون أن تصبح مخالفة أحد منهم لذلك الحكم، بل قد لا تُفسر مخالفة واحد أو اثنين منهم، في مواضع فصلها أئمة هذا الشأن في محله، وهكذا الأمر في عهد التابعين وتابعيهم.

ومن أحسن من أوضح هذا البحث بحيث لا يدع وجه شك لمتشكك، ذلك الإمام الكبير أبو بكر الرازي الجصاص، في كتابه «الفصول في الأصول»، وقد خص فيه لبّح الإجماع وخذه نحو عشرين ورقة من القطع الكبير، وهو كتاب لا يستغني عنه من يرغب في العلم للعلم، وكذا العلامة الإقناني في «الشامل» شرح «أصول» البزدوي، وهو في عشرة مجلدات، يذكّر فيه نصوص الأقدمين بحروفها، ثم يناقشهم فيما تجب المناقشة فيه، مناقشة من له غوص.

ومن الإجماع ما يشترك فيه العائمة مع الخاصة، لعموم تلقاها، كإجماعهم على أن الفجر ركعتان، والظهر أربع ركعات، والمغرب ثلاث ركعات، ومنه ما ينفرد به الخاصة وهم المجتهدون، كإجماعهم على الحق الواجب في الزرع والثمار، وتحريم الجمع بين العمّة وبين الآخر، فلا تنزل مرتبة هذا الإجماع عن ذلك، لأن المجتهدين لا يزدادون حجة إلى حجبهم بانضمام العوام إليهم.

فمن ادعى أن من الإجماع ما هو قطعي يستغنى عنه بالكتاب المتواتر والسنة المتواترة، وما دونه يتسكع في الظن، فقد حاول رد حجة الإجماع، واتبع غير سبيل المؤمنين، وشرح ذلك في الكتب المبسطة، ولا يتحمل هذا الموضوع للإفاضة فيه.

وماذا على الإجماع من كون بعض أنواعه ظنيًا؟ وخذ ما هو يقيني منه كُفر، وإنكار ما جرى مجرى الخبر المشهور منه ضلالًا وابتداع، وجاجد ما دُون ذلك كجاحد بعض ما صَحَّ من أخبار الآحاد على حدِّ سواه.

أما قول محمد بن إبراهيم الوزير اليماني في الإجماع، فبعد عما يفقهه الفقهاء، وهو لَيْسَ النِّلْمَس في كتبه بالنسبة إلى أمثال المَقْبَلِي ومحمد بن إسماعيل الأمير والشوكاني من أذباله الهدامين، لكن مع هذا اللين تحيلُ كُتُبُه سُما ناعياً، وهو أول من شَوَّش فِقه العِثْرَةِ النبوية ببلاد اليمَن، وكلامُه في الإجماع يرمي إلى إسقاط الإجماع من الحجية، وإن لم يُصرِّح بتصريح الشوكاني في «جزء الطلاق الثلاث». انتهى ما نقلته من «الإشفاق».

وقول الشوكاني في جزئه المذكور «إن الحقَّ عَدَمُ حجِّية الإجماع، بل عَدَمُ وقوعه، بل عَدَمُ إمكانه، بل عَدَمُ إمكان العلم به، وعَدَمُ إمكان نقله» مُتَابِعَةٌ لِلنِّظَام على طُولِ الخَطِّ: مما لا يُستَكثَرُ مِن مثله في التجرُّؤ على الأحكام، وهو الذي لا يَعْتَرِفُ بحدِّ محدود في نكاح النساء، على خلاف الكتاب والسُّنَّة، كما في «وَبَلِّ الغَمَام» له. وتجدُ تفصيل الردِّ عليه في «تذكرة الراشد»، وإن كان هذا على خلاف ما في «نيل الأوطار»، وله مُراجَلُ في الدعوة إلى بدْعَتِهِ.

وقد حلَّقنا على مواضع من «مراتب الإجماع» لابن خُزَم برمز (م) في الغالب، ما يُعيدُ الحقَّ إلى نصائبه في مواضع انحرافه عن الجادة، وهكذا فعلنا فيما علَّقناه على «البُذَّة» لابن حزم بتوفيق الله سبحانه.

وليس بين الأئمة المتبوعين كبيرُ خلاف في الإجماع، وما كلُّ من تحدَّث فيه تحدَّث بما يُقامُ لكلامه وزن، والحقُّ واضح لمن قدَّسَ الإجماعَ من جميع نواحيه، لكنَّ ضَعْفَ المناعةِ الفقهيةِ في متفهمة الأدوار الأخيرة، جعلهم ضحايا للأراء الشاذة التي تُنَشَرُ هنا، بسفي من أصحاب غايات، وذلك ناشئة من القُرْصَى وقلة التبصُّر في مناهج تفقيهم وإن كان القائلون بالأمر يُصَغَّبُ عليهم الاعتراف بذلك، لكنَّ الأمر واقع، ما له من دافع.

ثم إنَّ أَضَيِّقَ المذاهبِ في الإجماع هو مذهبُ الظاهرية، المقتصرين على الصحابة في الإجماع، ونزولُ عيسى عليه السلام مما نَصَّ عليه ثلاثون من الصحابة رضي الله عنهم، وآثارُهم الموقوفة عليهم مُدَوَّنة في «التصريح» للكشيري كما سبق، ولم يصحَّ عن صحابيٍّ واحد القول بما يخالف ذلك.

وما أخرجه الطبراني في سنده مجالد، فإذا لم يكن مثله إجماعاً، فلا يوجد في الدنيا إجماع، ويقول أبو حامد الإسفراييني شيخ الطريقة العراقية في مذهب الشافعي - عَنْ أَن يَقُولُ بَعْضُ أَهْلِ الاجْتِهَادِ بِقَوْلٍ، وَبِئْتَبَرُ ذَلِكَ فِي الْمُجْتَهِدِينَ مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْعَصْرِ، فَيَسْكُنُوا بِدُونِ أَن يَظْهَرُ مِنْهُمْ اعْتِرَافٌ وَلَا إِنكَارٌ - إِنَّهُ إِجْمَاعٌ وَحِجَّةٌ مُّقْطُوعٌ بِهَا. فَلَا يَكُونُ لِكَاتِبِ الْمَقَالِ مَتَمَسِّكٌ بِمَا نَقَلَهُ مِنْ «رِسَالَةِ» الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حَيْثُ خَمَلَهُ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ.

وَرَدُّ مَا يُرَوَّى عَنْ أَحْمَدَ فِي الْإِجْمَاعِ: فِي «السِّيفِ الصَّقِيلِ» ص ١١٠، ثُمَّ الْخِلَافُ فِي الْاِحْتِجَاجِ بِالْإِجْمَاعِ فِي الْعِلْمِيَّاتِ لَيْسَ مِمَّا يُؤْهِنُ أَمْرَ الْإِجْمَاعِ فِي مَوْضِعٍ بَحْثِنَا، لِأَنَّ ذَلِكَ فِي الْمَسَائِلِ الْغَوِيَّةِ الَّتِي تَضْطَرُّ فِيهَا الْعُقُولُ، وَقَدْ دَلَّلْنَا عَلَى أَنَّ الْأَخْبَارَ فِي النُّزُولِ مُتَوَاتِرَةٌ، وَثُبُوتُ تَوَاتُرِهَا لَيْسَ فِي حَاجَةٍ إِلَى اعْتِرَافِ صَاحِبِ الْمَقَالِ بِتَوَاتُرِهَا، بَعْدَ أَن نَصَّ أَصْحَابُ الشَّانِ عَلَى تَوَاتُرِهَا. وَالْإِجْمَاعُ الْيَقِينِيُّ عَلَى مَا ثَبَتَ بِالتَّوَاتُرِ، مِمَّا لَا يُنْكَرُهُ إِلَّا مُكَابِرٌ.

ثُمَّ إِنَّ اعْتِقَادَ النُّزُولِ عَمَلُ الْقَلْبِ، فَيَكُونُ التَّمَسُّكُ بِالْإِجْمَاعِ هُنَا تَمَسُّكاً بِهِ فِي بَابِ الْعَمَلِ، فَيَكُونُ الْاِخْتِجَاجُ بِالْإِجْمَاعِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ أَمراً مُتَّفَقاً عَلَيْهِ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ.

وَمَا نَقَلَهُ كَاتِبُ الْمَقَالِ عَنْ «التَّحْرِيرِ» لِابْنِ الْهَمَّامِ، فِي أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَأُمُورِ الْآخِرَةِ، مِنْ لَزُومِ اسْتِنَادِهَا عَلَى النُّقْلِ دُونَ الْإِجْمَاعِ، هُوَ عَيْنٌ مَا قَالَهُ صَدْرُ الشَّرِيعَةِ فِي «التَّوَضُّعِ»، لَكِنْ نَظَرٌ فِيهِ السَّعْدُ الْمُحَقَّقُ فِي «التَّلْوِيحِ» وَقَالَ: إِنَّ الثَّقَلَ قَدْ يَكُونُ ظَنّاً فَبِالْإِجْمَاعِ يُصِيرُ قَطْعاً. وَهَذَا كَلَامٌ مَتِينٌ.

وَابْنُ الْهَمَّامِ هُوَ الَّذِي يَقُولُ فِي «الْمُسَايَرَةِ»، فِي الْعَقَائِدِ الْمُتَنَبِّئَةِ فِي الْآخِرَةِ، فِي عِدَادِ الْمُكْفَرَاتِ: «وَكَذَا مُخَالَفَةٌ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ، وَإِنْكَارُهُ بَعْدَ الْعِلْمِ بِهِ». وَالْخِلَافُ فِي كَوْنِ الْإِجْمَاعِ مُذَرَكاً مُسْتَقِلاً هُنَا، لَا فِي الْاِعْتِدَادِ بِهِ إِذَا وَقَعَ، وَتَوَارَدُ الْأَدَلَةُ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا يَزِيدُهُ قُوَّةً.

وَقَالَ فِي «الْمَسَابِرَةِ» أَيْضاً: وَأَشْرَاطُ السَّاعَةِ مِنْ خُرُوجِ الدِّجَالِ وَنُزُولِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَخُرُوجِ يَاجُوجَ وَمَاجُوجَ، وَالدَّابَّةِ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا خُتْمٌ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ، وَقَوْلُ ابْنِ رُشْدٍ الْحَفِيدِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْعِلْمِيَّاتِ وَالنَّظَرِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّاتِ فِي بَابِ الْإِجْمَاعِ: مُتَرَنَّخٌ آخَرٌ، لَيْسَ هَذَا مَوْضِعٌ بِسَطِهِ.

وأما قول الكاتب: «وعلى فرض أن أشراف الساعة مما ينخضع للإجماع الذي اصطلموا عليه، نقول: إن نزول عيسى قد استقر فيه الخلاف قديماً وحديثاً، أما قديماً فقد نص على ذلك ابن حزم في كتابه «مراتب الإجماع»، حيث يقول: اختلفوا في عيسى عليه السلام: أيأتي قبل يوم القيامة أم لا...؟. كما نص عليه أيضاً القاضي عياض في شرح مسلم، والسعد في «شرح المقاصد»، وقد سقنا عبارته في البحث السابق، وهي واضحة جلية في أن المسألة ظنية في وزودها ودلائلها. وأما حديثاً فقد قرّر ذلك...»:

فخلو من صلاحية الترتيب به، فإن ابن حزم لم يحل نفى النزول عن أحد من أهل الحق بسند صحيح، حتى يُقام له وزن، وإنما هو توليد واستنتاج مما يحكى في موته، ثم رفعه، وقد مَحَضْنَا هذه الحكاية فيما سبق، بل قال ابن رشد الكبير بعد أن قال: لا بد من نزوله لتواتر الأحاديث بذلك: «فما ذكره ابن حزم من الخلاف في نزوله: لا يصح»، كما في «شرح الأبي على مسلم».

وأما لفظ القاضي عياض في «شرح مسلم» فهو «نزول عيسى عليه السلام، وقُتِلَهُ الدُّجَال: حقٌ وصحيحٌ عند أهل السنة، للأحاديث الصحيحة في ذلك، وليس في العقل ولا في الشرع ما يُبطله، فوجب إثباته، وأنكر ذلك بعض المعتزلة والجهمية». وذلك البعض هو الجبائي. ولو علم تواتر الخبر لما خالف، على أن خلاف المتبعة لا يُخل بالإجماع في التحقيق كما سبق، وجمهرة المعتزلة منع أهل الحق في المسألة، على ما يظهر من كلام خطيبهم الزمخشري في «الكشاف».

وأما ما نقله السعد بعد ذكره قول أهل الشريعة، ويُعدّ ذكره لزعم الفلاسفة: فبعد عن أن يكون نقلاً لخلاف يُعتمد به، بل هو قول بعض من سار سبيل الباطنية في التأويل كما سبق، ولذا أغفل ذكر اسمه، ومن طريقة تأويله يظهر أنه من المتبعة الذين لا يلتفت إليهم، والتأويل من غير داع عقلي ولا شرعي على خلاف لغة التخاطب: شأن الباطنية ومن سار سيرهم، هذا هو قديمه.

وأما حديثه فالدكتور محمد توفيق صديقي (في المجلد الحادي عشر من المنار ص ٣٦٧) ومن لف لُفّه، من أصحاب الصحافة، بالنظر إلى أن هؤلاء ليس عندهم من العلوم الضرورية، لمن يريد أن يتكلّم في هذا الموضوع، ما يسوغ لهم الكلام فيه، فزينا عن ذكرهم صفحاً، على أن منازلهم في العلم والورع غير مجهولة عند الشعب الكريم.

وكَفَى في معرفة الدكتور مقالته الصريحة في نفي الاحتجاج بالسنة مطلقاً، وقُصِر الاحتجاج على القرآن، ومن جملة ما قاله في (١١ - ٣٧٠): «واعلم أن المسلم لا يَجِبُ عليه الإيمان بأنه سيجي يوم القيامة (هكذا) والظاهر أن هذه عقيدة سَرَتْ من النصارى إلى المسلمين، ولم يأت بها القرآن، والأحاديث لا يُؤخَذُ بها في العقائد إلا إذا تواترت، وليس في هذه المسألة حديث متواتر».

فَيُعْلَمُ من ذلك أنه قُدُوهُ كاتب المقال، كما أنه قُدُوهُ الحداثاء الذين تحدثوا في المسألة على خلاف ما عليه الجماعة، ولكاتب المقال قُدُوهُ آخر في الباب، وهو ابنُ هُوْدِ الدمشقي، وكان أصحابه يعتقدون فيه أنه المسيح ابنُ مريم، ويقولون: إن أمه كان اسمها مَرْيَمَ.. ويعتقدون أن قول النبي ﷺ: «يَنْزِلُ فيكم ابنُ مريم»، هو هذا، وأن روحانيته عيسى نَزَلَ عليه.

وابنُ تيمية بيّن لهم فساد دعواهم بالأحاديث الصحيحة الواردة في نزول عيسى، وأن ذلك الوصف لا ينطبق على هذا، وكان منهم من يُفسّر طلوع الشمس من مغربها: بطلوع كلامهم، وبطلوع النفس من البدن، ونزول عيسى ابنِ مريم من السماء: بنزول روحانيته أو جُزئيته على هذا الشخص.

فإذا وُضِلَ التقوُّلُ والتحريفُ إلى هذا الحد، نشكُر الله على سلامة الدين والعقل، ونُسكت، نسأل الله الصون.

وبهذا يُعْلَمُ من هو قُدُوهُ صاحب «المنار» في قوله المنقول في مقال الكاتب «وليس فيه نص صريح بأنه يَنْزِلُ من السماء، وإنما هذه عقيدة أكثر النصارى، وقد حاولوا في كل زمانٍ من ظهور الإسلام بُثّها في المسلمين». انظر إلى هذا الرأي التألف وهذه الجرأة البالغة من صاحب «المنار»!!

والقول بسعي النصارى في بث تلك العقيدة في المسلمين من ظهور الإسلام إذا قُوِرَ بصحة نزوله عليه السلام عن الرسول ﷺ، على لسان ثلاثين من أصحابه رضي الله عنهم، بأسانيد في الصحاح والسنن والمسانيد والجوامع والمصنفات وغيرها: عِلْمٌ مَبْلَغٌ إِيغَالٍ قَائِلِهِ في الباطل، أينطق المصطفى صلوات الله وسلامه بما بُثَّ النصارى ويَرُوجُ عليه؟ أم الصحابة يَرُوجُ عليهم هذا الدُس؟ أم حُفَاطُ الأُمّةِ وأنتمُها يَرُوجُ عليهم هذا البُتُّ وهذا الدُسُّ فيروونها في كتبهم خالفاً عن سالف بطريق التواتر، ولا يتصوّر ما هو أبْلَغُ من هذا المروق، وما هي حُجّة كاتب المقال!!

ومن يرى يثُل هذا الرأي في أصحاب المصطفى ﷺ ورَضِيَ عنهم، وزُواة السُّنَنِ عنهم طبقةً فطبعةً، وفي كُتُب الحديث من صحاح وسُنَنِ ومسانيد وجوامع ومصنِّفات وكتب التفسير بالرواية والدراية وسائر الكتب: فقد كُشِف الثُّقَابُ عن وجهه، فلم يَدْعُ حاجةً إلى المُناقَشة معه، وليس شيخُ الكاتب بالأمس بِحُجَّة كشيخه اليوم. ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ. فَرَرْتُمْ أَقْلَمَ يَمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

وفي هذا القدر كفاية إن شاء الله تعالى في تبين الحق في المسألة، وصلى الله على سيدنا محمد وآلِهِ وصحبِهِ وسلَّم تسليمًا كثيرًا، وأَجِرْ ذُفْوانا أَيْنَ الحمدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمين. وكان ختامُ تحريره في يوم الاثنين ١٨ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٢هـ.

الانصاف

فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجمل به

للقاضي أبي بكر بن الطيب الباقلائي

المتوفى ٤٠٣ هـ

تحقيقه

الأمام العلامة الشيخ محمد زاهد بن حسنة بن علي الكوتري

المتوفى ١٣٧١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال القاضي الإمام السعيد، سيف السُّنة، ولسان الأمة، أبو بكر: محمد بن الطيب بن محمد رضي الله عنه.

الحمد لله ذي القدرة والجلال، والعظمة والكمال. أحمده على سوابغ الإنعام وجزيل الثواب، وأرغب إليه في الصلاة على نبيه محمد المختار وعلى آله الأبرار وصحابته الأخيار، والتابعين لهم بإحسان [إلى يوم القرار] (*) .

أما بعد: فقد وقفت على ما التمسته الحرة الفاضلة الديانة - أحسن الله توفيقها - لما تتوخاه من طلب الحق ونصرته، وتنكب الباطل وتجنبه. واعتماد القرينة باعتقاد المفروض في أحكام الدين. واتباع السلف الصالح من المؤمنين، من ذكر جمل ما يجب على المكلفين اعتقاده، ولا يسع الجهل به، وما إذا تدين به المرء صار إلى التزام الحق المفروض، والسلامة من البدع والباطل المرفوض. وإني بحول الله تعالى وعونه، ومشيتته وطوله، أذكر لها جملاً مختصرة تأتي على البنية من ذلك، ويستغنى بالوقوف عليها عن الطلب، واشتغال الهمة بما سواه. فنقول وبالله التوفيق:

إن الواجب على المكلف:

١ - أن يعرف بدء الأوائل والمقدمات التي لا يتم له النظر في معرفة الله عز وجل وحقيقة توحيده، وما هو عليه من صفاته التي بان بها عن خلقه، وما لأجل حصوله عليها استحق أن يُعبد بالطاعة دون عباده. فأول ذلك القول في العلم وأحكامه ومراتبه، وأن حده: أنه معرفة المعلوم على ما هو به، فكل علم معرفة وكل معرفة علم.

٢ - وأن يعلم أن العلوم تنقسم قسمين: قسم منهما: علم الله سبحانه، وهو صفة لذاته، وليس بعلم ضرورة ولا استدلال، قال الله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِحِلْمٍ﴾

(*) تنبيه: الكلمات الموجودة بين أقواس مربعة هي من نصحيح الإمام الكوثري.

[النساء: ١٦٦] وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِي﴾ [فاطر: ١١] وقال: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤] فأثبت العلم لنفسه، ونص على أنه صفة له في نص كتابه.

والقسم الآخر: علم الخلق. وهو ينقسم قسمين: فقسم منه علم اضطرار، والآخر علم نظر واستدلال: فالضروري ما لزم أنفس الخلق لزوماً لا يمكنهم دفعه والشك في معلومه؛ نحو العلم بما أدركته الحواس الخمس، وما ابتدئ في النفس من الضرورات.

والنظري منهما: ما احتج في حصوله إلى الفكر والرؤية، وكان طريقه النظر والحجة. ومن حكمه جواز الرجوع عنه والشك في متعلقه.

وجميع العلوم الضرورية تقع للخلق من ستة طرق: فمنها: درك الحواس الخمس، وهي: حاسة الرؤية، وحاسة السمع، وحاسة الذوق، وحاسة الشم، وحاسة اللمس وكل مدرك بحاسة من هذه الحواس من جسم، ولون، وكون، وكلام، وصوت، ورائحة، وطعم، وحرارة، وبرودة، ولين، وخشونة، وصلابة، ورخاوة فالعلم به يقع ضرورة. والطريق السادس: هو العلم المبتدأ في النفس، لا عن درك ببعض الحواس، وذلك نحو علم الإنسان بوجود نفسه، وما يحدث فيها ويشطوي عليها من اللذة، والألم، والغم، والفرح، والقدرة، والعجز، والصحة، والسقم. والعلم بأن الضدين لا يجتمعان، وأن الأجسام لا تخلو من الاجتماع والافتراق، وكل معلوم بأوائل العقول، والعلم بأن الثمر لا يكون إلا من شجر، أو نخل، وأن اللبن لا يكون إلا من ضرع وكل ما هو مقتضى العادات.

وكل ما عدا هذه العلوم وهو علم استدلال لا يحصل إلا عن استئناف الذكر والنظر وتفكر بالنظر والعقل فمن جملة هذه الضرورات العلم بالضرورات الواقعة بأوائل العقول، ومقتضى العادات التي لا تشارك ذوي العقول في علمها البهائم، والأطفال والمتقصون؛ نحو العلم الواقع بالبديهة، ومتضمن كثير من العادات، ونحو العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد، وأن الضدين لا يجتمعان، وأمثال ذلك من موجب العادات وبدائة العقول التي لا يخص بعلمها العاقلون.

٣ - وأن يعلم أن الاستدلال هو: نظر القلب المطلوب به علم ما غاب عن الضرورة والحس، وأن الدليل هو: ما أمكن أن يتوصل بصحيح النظر فيه إلى معرفة ما لا يعلم باضطراره، وهو على ثلاثة أضرب: عقلي: له تعلق بمعلومه، نحو دلالة

الفعل على فاعله، وما يجب كونه عليه من صفاته. نحو حياته، وعلمه، وقدرته، وإرادته. وسمعي شرعي: دال من طريق النطق بعد المواضعة، ومن جهة معنى مستخرج من النطق، ولغوي: دال من جهة المواطأة والمواضعة على معاني الكلام، ودلالات الأسماء والصفات وسائر الألفاظ، وقد لحق بهذا الباب: دلالات الكتابات والرموز، والإشارات والعقود، الدالة على مقادير الأعداد، وكل ما لا يدل إلا بالمواطأة والاتفاق. والدال هو ناصب الدليل: فالمدلول هو ما نصب له الدليل. والمستدل الناظر في الدليل، واستدلالة نظره في الدليل وطلبه به علم ما غاب عنه.

٤ - وأن يعلم أن المعلومات على ضربين: معدوم وموجود، لا ثالث لهما ولا واسطة بينهما. فالمعدوم: هو المتفق الذي ليس بشيء. قال الله عز وجل: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ [مریم: ٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَعَلَى الْإِنسَانِ يَمِينٌ يَنزِلُ إِلَهُهُ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكَورًا﴾ [الإنسان: ١] فأخبر أن المعدوم متفقد ليس بشيء، والموجود هو الشيء الكائن الثابت. وقلنا «شيء» إثبات، وقلنا «ليس بشيء» نفي. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَتَىٰ شَيْءٌ أَكْثَرَ شَهَادَةً قُلُوبُ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٩] وهو سبحانه موجود غير معدوم.

وقول أهل اللغة: علمت شيئاً، ورأيت شيئاً، وسمعت شيئاً، إشارة إلى كائن موجود، وقلوبهم: ليس بشيء هو واقع على نفي المعدوم، ولو كان المعدوم شيئاً كان القول ليس بشيء نفيّاً لا يقع أبداً إلا كذباً، وذلك باطل بالاتفاق.

٥ - وأن يعلم أن الموجودات كلها على قسمين. منها: قديم لم يزل وهو الله تعالى، وصفات ذاته التي لم يزل موصوفاً بها ولا يزال كذلك. وقلوبهم: «أقدم، وقديم» موضع للمبالغة في الوصف بالتقدم وكذلك أعلم وعليم، وأسمع وسميع.

والقسم الثاني: محدث، لوجوده أول، ومعنى المحدث ما لم يكن ثم كان، مأخوذ ذلك من قولهم: حدث بفلان حادث. من مرض، أو صداع؛ وأحدث بدعة في الدين، وأحدث روشناً، وأحدث في العرصة بناء، أي فعل ما لم يكن من قبل موجوداً.

٦ - وأن يعلم أن المحدثات كلها على ثلاثة أقسام: جسم، وجوهر، وعرض. فالجسم في اللغة هو: المؤلف المركب. يدل على ذلك قولهم: رجل جسيم وزيد أجسم من عمرو، وهذا اللفظ من أبنية المبالغة، وقد اتفقوا على أن معنى المبالغة في الاسم مأخوذ من معنى الاسم؛ يبين ذلك أن قولهم: «أضرب» إذا أفاد كثرة الضرب

كان قولهم: ضارب مفيداً للضرب، وكذلك إذا كان قولهم: المؤلف المركب مفيداً كثرة الاجتماع والتأليف، وجب أن يكون قولهم جسم مفيداً كذلك.

والجوهر: الذي له حيز. والحيز هو المكان أو ما يقدر تقدير المكان عن أنه يوجه فيه غيره.

والعرض: هو الذي يعرض في الجوهر، ولا يصح بقاؤه وقتين، يدل على ذلك قولهم: «عرض لفلان عارض من مرض، وصداع» إذا قرب زواله، ولم يعتقد دوامه. ومنه قوله عز وجل: ﴿تَرِيْدُونَ عَرَسَ الْأَدْنَىٰ وَأَقَّةُ يَوْمٍ الْآخِرَةِ﴾ [الأنفال: ٦٧] وقوله: ﴿هَٰذَا عَارِشٌ مُّثِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤] فكل شيء قرب عدمه وزواله، موصوف بذلك، وهذه صفة المعاني القائمة بالأجسام، فوجب وصفها في قضية العقل بأنها أعراض.

٧ - وأن يعلم أن العالم محدث، وأنه لا ينفك علويه وسفليه من أن يكون جسماً مؤلفاً، أو جوهرأ منفرداً، أو عرضاً محمولاً. وهو محدث بأسره. وطريق العلم بحدوث أجسامه وحلوث أعراضه. والدليل على ثبوت أعراضه: تحرك الجسم بعد سكونه، وتفرقه بعد اجتماعه، وتغير حالاته، وانتقال صفاته، فلو كان متحركاً لنفسه، ومتغيراً لذاته لوجب تركه في حال سكونه، وتغيره واستحالته في حال اعتداله، وفي بطلان ذلك دليل على إثبات حركته، وسكونه، وألوانه، وأكوانه، وغير ذلك من صفاته، لأنه إذا لم يكن كذلك لنفسه وجب أن يكون لمعنى ما تغير عن حاله واستحال عن وصفه.

والدليل على حدوث هذه الأعراض: ما هي عليه من التنافي والتضاد، فلو كانت قديمة كلها لكانت لم تزل موجودة، ولا تزال كذلك، ولوجب متى كانت الحركة في الجسم أن يكون السكون فيه، وذلك يوجب كونه متحركاً في حال سكونه، وميتاً في حال حياته، وفي بطلان ذلك دليل على طروق السكون بعد أن لم يكن، وبطلان الحركة عند مجيء السكون، والطارىء بعد عدمه، والمعدوم بعد وجوده محدث باتفاق؛ لأن القديم لا يحدث ولا يعدم، ولا يطل.

والدليل على حدوث الأجسام: أنها لم تسبق الحوادث، ولم تخل منها، لأننا باضطرار نعلم: أن الجسم لا ينفك من الألوان، ومعاني الألوان من الاجتماع والافتراق، وما لا ينفك من المحدثات، ولم تسبقه كان محدثاً. لأنه إذا لم يسبقه كان موجوداً معه في وقته أو بعده، وأي ذلك وجد وجب القضاء على حدوثه، وأنه معدوم قبل وجوده.

٨ - وأن يعلم أن للعالم محدثاً أحدثه. والدليل على ذلك وجود الحوادث متقدمة ومتأخرة مع صحة تأخر المتقدم وتقدم المتأخر، ولا يجوز أن يكون ما تقدم منها وتأخر متقدماً ومتأخراً لنفسه، لأنه ليس التقدم بصحة تقدمه أولى من التأخر بصحة تأخره، فوجب أن يدل على فاعل فعله، وصرفه في الوجود على إرادته وجعله مقصوراً على مشيئته، يقدم منها ما شاء ويؤخر ما شاء. قال الله تعالى: ﴿قَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هُود: ١٠٧] قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التحل: ٤٠] ويدل على علمنا بتعلق الفعل بالفاعل في كونه فعلاً كتعلق الفاعل في كونه فاعلاً بالفعل، فإن تعلق الكتابة، والصناعة بال كاتب والصانع كتعلق الكاتب في كونه كاتباً بالكتابة؛ فلو جاز وجود فعل لا من فاعل، وكتابة لا من كاتب وصورة وبنية محدثة لا من مصور، لجاز وجود كاتب لا كتابة له، وصانع لا صنعة له، فلما استحال ذلك وجب أن يكون اقتضاء الفعل للفاعل ودلالته عليه كاقضاء الفاعل في كونه فاعلاً. لوجود الفعل وحصوله منه، ومن صفات هذا الصانع تعالى أنه: موجود، قديم، واحد، أحد، حي، عالم، قادر، مرید، متكلم، سمیع، بصیر، باق^(١) ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وسندل على ذلك فيما بعد إن شاء الله بعد البداية بفرائض المكلفين، وشرائع المسلمين مما يقرب فهمه ولا يتبغي جهله، ولا بد للمكلف من علمه والعمل [به] فإذا أتينا على هذه الجملة رجعنا إلى القول في التوحيد، وإثبات أسماء الله تعالى وصفاته، وذكر ما يجوز عليه وما يستحيل في صفته، وما توفيقه إلا بالله.

٩ - وأن يعلم: أن أول نعم الله تعالى على خلقه الحي الدراك خلقه فيهم إدراك اللذات، وسلامة الحواس، ونيل ما يتفقون به من الشهوات التي تميل إليها طباعهم، وتصلح عليها أجسامهم، ولو أحياءهم، وألمهم ومنعهم إدراك اللذات لكانوا مستضرين بالآلام، ومثابة الأحياء المعذبين من أهل النار، وهذه نعمة الله سبحانه على جميع الحيوان الحاس، العاقل منهم والناقص، والمؤمن والكافر.

١٠ - وأن يعلم أن أفضل وأعظم نعمة الله على خلقه الطائعين وعباده المؤمنين خلقه الإيمان في قلوبهم، وإجراؤه على أنفسهم، وتوفيقهم لفعله، وتمكينهم بالتمسك به. وخلق الإيمان، والتوفيق له نعمة خص الله تعالى بها المؤمنين دون الكافرين، ولذلك قال عز وجل: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة:

(١) والبقاء ليس صفة حقيقة عند الباقلاني بل هو دوام الوجود (ز).

[٦٤] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفُتِنْتُمْ الْأَبْطِلَانِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ لَمِدِ آيَاتِهِ﴾ [الشورى: ٢١] وقال عز وجل: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿بَلَى اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] فلو كانت هذه النعمة له على الكافرين لم يكن لتخصيصه بها المؤمنين وامتنانه على المؤمنين وجه، إذ كان قد أنعم بها على المردة والكفرة الضالين.

١١ - وأن يعلم: أن طرق المباهين عن الأدلة التي يدرك بها الحق والباطل خمسة أوجه: (١) كتاب الله عز وجل و(٢) سنة رسوله ﷺ و(٣) إجماع الأمة و(٤) ما استخرج من هذه النصوص وبنى عليها بطريق القياس والاجتهاد، و(٥) حجج العقول. قال الله تعالى آمراً باتباع كتابه والرجوع إلى بيانه: ﴿أَفَلَا يَنْدَرُونَ الْفُرْقَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمّد: ٢٤] وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَرْوَاءُ يَدَيَّ إِلَىٰ هِمْ أَوْفَمُ﴾ [الاسراء: ٩] وقال سبحانه: ﴿يَنبِئُكَ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] ﴿وَمَا فَطَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال عز وجل في الأمر باتباع رسوله ﷺ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] وقال: ﴿وَمَا يُلْقِىَ مِنَ الْمَوْثِقِ﴾ [١] إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿[النجم: ٤، ٣] وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٦٣].

وقال سبحانه في وصف عدالة أمة نبيه ﷺ والأمر باتباعها، والتحذير من مخالفتها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَتَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال: ﴿وَمَنْ يُضَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال في الأمر بالقياس والحكم بالنظائر والأمثال: ﴿فَاخْتَرُوا بِأَوَّلِي الْأَبْصَرِ﴾ [الحشر: ٢] وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَرَأَىٰ أَنَّهُ يُضْلِفُونَ لَأَسْأَلُوا بِأَوَّلِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُمْ يَلْتَمِذُونَ﴾ [النساء: ٨٣] وقال النبي ﷺ لقاضيه معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أنفذه إلى اليمن لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق: «بم تحكم؟» قال: بكتاب الله عز وجل. قال:

فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي وأحكم. فقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يرضي الله ورسوله. فأقره على الحكم والاجتهاد وجعله أحد طرق الأحكام.

وقال عز وجل في الأمر باتباع حجة العقل: ﴿وَقَدْ أَنشِذَكُمْ أَفَلَا تَتَّبِعُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وقال: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ﴾ [الشع: ٢٨] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّكُونِ وَالْأَرْضِ وَائْتِخَالِفِ النَّبْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] وقال: ﴿وَصَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُنْبِئُ الْغَافِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] ﴿قُلْ يَحْيَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَابِدُهُ﴾ [الزوم: ٢٧] فأمرنا بالاعتبار والاستبصار ورد الشيء إلى مثله أو الحكم له بحسب نظيره، وهذا هو الحكم، المعقول والتقاضي إلى أدلة العقول.

١٢ - وأن يعلم: أن فرائض الدين وشرائع المسلمين، وجميع فرائض المسلمين وسائر المكلفين على ثلاثة أقسام: فقسم منها: يلزم جميع الأعيان وكل من بلغ الحلم وهو: الإيمان بالله عز وجل، والتصديق له، ولرسله، وكتبه، وما جاء من عنده، والعبادات على كل مكلف بعينه، من نحو الصلاة، والصيام، وما سنذكره ونفصله فيما بعد إن شاء الله.

والقسم الثاني: واجب على العلماء دون العامة، وهو القيام بالفتيا في أحكام الدين، والاجتهاد، والبحث عن طرق الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، وهذا فرض على الكفاية دون الأعيان، فإذا قام به البعض سقط عن باقي الأمة وكذلك القول في حفظ جميع القرآن، وما تنفذ به الأحكام من سنن الرسول عليه السلام، وغسل الميت، ومواراته، والصلاة عليه، والجهاد، ودفع العدو، وحماية البيضة وما جرى مجرى ذلك مما هو فرض على الكفاية. فإذا قام به البعض سقط عن باقي الأمة.

والقسم الثالث: من الواجبات من فرائض السلطان دون سائر الرعية: نحو إقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وقبض الصدقات، وتولية الأمراء، والقضاة، والسعاة، والفصل بين المتخاصمين، وهذا وما يتصل به من فرائض الإمام وخلفائه على هذه الأعمال دون سائر الرعية والعوام وليس في فرائض الدين ما يخرج عما وصفناه ويزيد على ما قلناه.

١٣ - وأن يعلم: أن أول ما فرض الله عز وجل على جميع العباد. النظر في آياته، والاعتبار بمقدوراته، والاستدلال عليه بآثار قدرته وشواهد ربوبيته؛ لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار، ولا مشاهد بالحواس، وإنما يعلم وجوده وكونه على ما تقتضيه أفعاله بالأدلة القاهرة، والبراهين الباهرة.

والثاني: من فرائض الله عز وجل على جميع العباد؛ الإيمان به والإقرار بكتبه ورسله، وما جاء من عنده، والتصديق بجميع ذلك بالقلب والإقرار به باللسان.

١٤ - وأن يعلم: أن الإيمان بالله عز وجل هو: التصديق بالقلب، بأن الله الواحد، الفرد، الصمد، القديم، الخالق، العليم، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والدليل على أن الإيمان هو الإقرار بالقلب والتصديق؛ قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] يريد بمصدق لنا. ومنه قوله عز وجل: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلِنْ يَسْأَلْكُم بِهِمْ قَوْمٌ لَّيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [غافر: ١٢] أي تصدقوا. ويقال فلان يؤمن بالله وبالبعث؛ أي يصدق بذلك. وكذلك قولهم: فلان يؤمن بالشفاعة والقدر، وفلان لا يؤمن بذلك، يعني به التصديق، وينفي الإيمان به التكذيب. وقد اتفق أهل اللغة قبل نزول القرآن وبعث الرسول عليه السلام على أن الإيمان في اللغة هو التصديق دون سائر أفعال الجوارح والقلوب.

والإيمان بالله تعالى يتضمن التوحيد له سبحانه، والوصف له بصفاته، ونفي النقائص عنه الدالة على حدوث من جازت عليه.

والتوحيد له هو: الإقرار بأنه ثابت موجود، وإله واحد فرد معبود ليس كمثله شيء؛ على ما قرر به قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْإِلَهَ وَبِعْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وأنه الأول قبل جميع المحدثات. الباقي بعد المخلوقات، على ما أخبر به تعالى من قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التحديد: ٣] والعالم الذي لا يخفى عليه شيء والقادر على اختراع كل مصنوع، وإبداع كل جنس مفعول، على ما أخبر به في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

وأنه الحي الذي لا يموت. والدائم الذي لا يزول، وأنه إله كل مخلوق، ومبدعه ومنشئه، ومخترعه، وأنه لم يزل [مسمىاً] لنفسه [بأ]سمائه، وواصفاً لها بصفاته، قبل

إيجاد خلقه، وأنه قديم بأسمائه وصفات ذاته، التي منها: الحياة التي بها بان من الموت والأموات، والقدرة التي أبدع بها الأجناس والذوات، والعلم الذي أحكم به جميع المصنوعات، وأحاط بجميع المعلومات، والإرادة التي صرف بها أصناف المخلوقات. والسمع والبصر اللذان أدرك بهما جميع المسموعات والمبصرات، والكلام الذي به فارق الخرس والسكوت وذوي الآفات، والبقاء الذي به سبق المكونات، ويبقى به بعد جميع الفانيات، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاهُ الْكِتَابَ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَكَرَ الْإِنِّ يُخَذِّرُ فِيهِ الْآعْرَافَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقوله تعالى: ﴿أَنزَلْنَاهُ بِعِلْمَيْنَا﴾ [الشاء: ١٦٦] ﴿وَمَا تَحِيلُ مِنْ أَنتَقٍ وَلَا تَنْصَعُ إِلَّا بِعِلْمِنَا﴾ [فاطر: ١١] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ يَتَنَّهُمْ قُوَّةً﴾ [القصص: ١٥] وقوله: ﴿ذُرْ الْفُؤَادَ النَّسِيئُ﴾ [الذاريات: ٥٨] فنص تعالى على إثبات أسمائه وصفات ذاته، وأخبره أنه ذو الوجه الباقي بعد تقضي الماضيات، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٢٨] وقال: ﴿وَرَبِّكَ يَتَنَّهُمْ رَبُّكَ ذُو الْكُلِّ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] واليدين اللتين نطق بإثباتهما له القرآن، في قوله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوثَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقوله: ﴿مَا تَنَفَّكُ أَنْ تَجِدَ لَنَا خَلْقٌ يَتَنَّهُكَ﴾ [ص: ٧٥] وأنها لبنا بجارحتين، ولا ذوي صورة وهيئة، والعينين^(١) اللتين أفصح بإثباتهما من صفاته القرآن وتواترت بذلك أخبار الرسول عليه السلام، فقال عز وجل: ﴿وَلَوْصَّغَ عَلَى عَيْتِهِ﴾ [طه: ٣٩] و﴿تَجَرَّى بِأَمْرِنَا﴾ [الشمس: ١٤] وأن عينه ليست بحاسة من الحواس، ولا تشبه الجوارح والأجناس، وأنه سبحانه لم يزل مريداً وشائياً، ومحباً ومبغضاً، وراضياً، وساخطاً، وموالياً، ومعادياً، ورحيماً، ورحماناً. ولأن جميع هذه الصفات راجعة إلى إرادته في عباده ومشيتته، لا إلى غضب بغيره. ورضى يسكنه طبعاً له، وحنق وغيظ يلحقه، وحقد يجده، إذا كان سبحانه متعالياً عن الميل والنفور.

وأنه سبحانه راض في أزله عمن علم أنه بالإيمان يختم عمله ويوافي به. وغضبان على من علم أنه بالكفر يختم عمله ويكون عاقبة أمره، وقد قال تعالى: ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [مُؤد: ١٠٧] و﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْإِسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْمُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [الزلزال: ٢٨].

(١) وتشية العين لم ترد في الكتاب، وحديث الدجال ليس فيه إلا نفي النقص من الله سبحانه لا إثبات العينين له مع كونه خبر آحاد فنعين الانتصار على ما ورد في الكتاب وهو ما في الآيتين ولا يكون في الأمر فتح باب التشبيه (ز).

[٤٠] وقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [الفائدة: ١١٩] ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] في أمثال هذه الآيات الدالة على أنه شاء مريد، وأن الله جلّ شأؤه مستور على العرش، ومستول على جميع خلقه كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] بغير مماسة وكيفية، ولا مجاورة، وأنه في السماء إله وفي الأرض إله كما أخبر بذلك.

وأنه سبحانه يتجلى لعباده المؤمنين في المعاد، فيرويه بالأبصار، على ما نطق به القرآن في قوله: ﴿يَوْمَ يَمُنُّوْنَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْنَا﴾ [الْقِيَامَةُ: ٢٢، ٢٣] وتأكيده كذلك بقوله في الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥] تخصيصاً منه برويته للمؤمنين، والتفرقة فيما بينهم وبين الكافرين، وعلى ما وردت به السنن الصحيحة في ذلك عن رسول الله ﷺ، وما أخبر به عن موسى عليه السلام، في قوله: ﴿رَبِّ أَوْفَيْتُ أَنْظَرُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ولولا علمه بجواز الرؤية بالأبصار لما أقدم على هذا السؤال.

١٥ - وأن يعلم: مع كونه تعالى سميعاً بصيراً: أنه مدرك لجميع المدركات التي يدركها الخلق: من الطعوم، والروائح، واللين، والخشونة، والحرارة، والبرودة؛ بإدراك معين، وأنه مع ذلك ليس بذي جوارح وحواس توجد بها هذه الإدراكات. فتعالى [الله] عن التصوير والجوارح، والآلات.

١٦ - وأن يعلم: أنه مع إدراك سائر الأجناس [من] المدركات وجميع الموجودات، غير ملتذ ولا متألم بإدراك شيء منها، ولا مشقة [له منها] ولا نافر عنها، ولا متفجع بإدراكها [ولا متضرر] بها. ولا يجانس شيئاً منها، ولا يصادها، وإن كان مخالفاً لها.

١٧ - وأن يعلم: أنه سبحانه ليس بمغاير لصفات ذاته، وأنها في أنفسها غير متغايرات؛ إذ كان حقيقة الغيرين ما يجوز مفارقة أحدهما الآخر بالزمان، والمكان والوجود والعدم. وأنه سبحانه يتعالى عن المفارقة لصفات ذاته، وأن توجد الواحدة منها مع عدم الأخرى.

١٨ - وأن يعلم: أن صفات ذاته [هي التي] لم تزل، ولا يزال موصوفاً بها. وأن صفات أفعاله هي التي سبقها، وكان تعالى موجوداً في الأزل قبلها.

ونعتقد أن مشيئة الله تعالى ومحبه ورضاه ورحمته وكرامته وغضبه وسخطه وولايته وعداوته [كلها] راجع إلى إرادته، وأن الإرادة صفة لذاته غير مخلوقة، لا على

ما يقوله القدرة، وأنه يريد بها لكل حادث في سمائه وأرضه مما يتفرد سبحانه بالقدرة على إيجاده، وما يجعله منه كسباً لعباده، من خير، وشر، ونفع، وضر، وهدى، وضلال، وطاعة، وعصيان، لا يخرج حادث عن مشيئته. ولا يكون إلا بقضائه وإرادته.

١٩ - وأن يعلم: أن كلام الله تعالى صفة لذاته لم يزل ولا يزال موصوفاً به وأنه قائم به ومختص بذاته، ولا يصح وجوده بغيره، وإن كان محفوظاً بالقلوب ومتلوّاً باللسن، ومكتوباً في المصاحف، ومقروءاً في المحارب، على الحقيقة لا على المجاز^(١) وغير حال في شيء من ذلك، وأنه لو حلّ في غيره لكان ذلك الغير متكلماً به، وأمرأ ونهاياً.

ومخبراً وقائلاً: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] وذلك خلاف دين المسلمين، وأن كلامه سبحانه لا يجوز أن يكون جسماً من الأجسام، ولا جوهرأ، ولا عرضأ، وأنه لو كان كذلك لكان من جنس كلام البشر، ومحلثأ كهو: يتعالى الله سبحانه أن يتكلم بكلام المخلوقين.

٢٠ - [وأن] يعلم: أن كلامه مسموع بالآذان، وإن كان مخالفاً لساير اللغات، وجميع الأصوات، وأنه ليس من جنس المسموعات، كما أنه [مرئي] بالأبصار، وإن كان مخالفاً لأجناس المرئيات، وكما أنه موجود مخالف لساير الحوادث الموجودة، وأن سماع كلامه منه تعالى بغير واسطة ولا ترجمان. كجبريل، وموسى، ومحمد عليهم السلام حق، سمعه من ذاته غير متلو ولا مقروء، ومن عداهم ممن يتولى الله خطابه بنفسه إنما يسمع كلامه متلوّاً ومقروءأ، وكذلك قال الله عز وجل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وقال: ﴿يُنْهَى عَنْ كَلَمِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وأن قراءتنا القرآن كسب لنا ثواب عليها، ونلام على تركها إذ وجبت علينا في الصلوات. وأنه لا

(١) لأن القرآن يطلق على ما قام بالله من الألفاظ العلمية النبوية - وهو غير مخلوق وغير حال في مخلوق - وعلى المكتوب بين الدفتين وعلى المحفوظ في القلوب من الألفاظ الذهنية، وعلى الملفوظ باللسن على سبيل الاشتراك اللفظي عنده، والقرينة هي التي تعين المراد منها في كل موضع، وما سوى الأول مخلوق، وهذا البحث أنضح عند المتأخرين من أئمة الأشاعرة، والتحقيق: أن وصف القرآن بما سوى الأول وصف للمدلول بصفة الدال، كما في شرح المقاصد (ز).

يجوز أن يحكى كلام الله عز وجل ولا أن يُلغظ به^(١) لأن حكاية الشيء مثله وما يقاربه وكلام الله تعالى لا مثل له من كلام البشر، ولا يجوز أن يُلغظ به بتكلم الخلق لأن ذلك يوجب كون كلام الله تعالى قائماً بذاته قديم ومحدث وذلك خلاف الإجماع والمعقول، وأن كلام الله تعالى غير متبعض ولا متغاير، وأن الصفة هي ما قامت بالشيء وأن الوصف قول الواصف الدال على الصفة خلاف ما يذهب إليه القدرية.

وأنه مقدر لأرزاق جميع الخلق، وموقت لآجالهم، وخالق لأفعالهم، وقادر على مقدوراتهم، وإله ورب لها. لا خالق غيره، ولا رزاق سواه، كما أخبر تعالى في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقال: ﴿مَلَأَ مِنْ خَلْقِي عِزَّ اللَّهِ﴾ [قاطر: ٣] وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [التحل: ٢٠].

وأن بيده الخير، والشر، والنفع، والضرر، وأنه مقدر جميع الأفعال، لا يكون حادث إلا بإرادته، ولا يخرج مخلوق عن مشيئة، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وأنه فعال لما يريد، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، لا هادي لمن أضله ولا مضل لمن هداه، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الأعراف: ١٧٨] ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَآوٍ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وأنه موفق أهل محبته وولايته لطاعته، وخاذل لأهل معصيته، فدل ذلك كله [على] تدبيره وحكمته، وأنه عادل [في] خلقه بجميع ما يبتليهم به ويقضيه عليهم من خير، وشر، ونفع، وضرر، وغنى، وفقير، ولذة، وألم، وصحة، وسقم، وهداية، وضلال: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُمْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُكْمُ الْكَلِمَةُ فُلُوْا سَاءَ لَهْدَنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وأنه سبحانه يعيد العباد، ويحيي الأموات، وأنه يقصد يوم القيامة لفصل القضاء، ويحيي الملائكة صفاً صفاً، و[يمد] الصراط، ويزن الأعمال، وأنه سبحانه قد خلق الجنة والنار.

(١) يعني لا يجوز أن يقال حكى كلام الله أو لفظ به في صدد الإنافة عن قراءته وتلاوته، لأن الحكاية توهم المحاكاة وفيها شائبة المماثلة وهو سبحانه منزّه عنها، وكذا اللفظ والتكلم بكلام الله لإيهام ذلك المشاركة، تعالى الله عن ذلك، على أن تلك العبارات مما لم يرد إذن من الشارع في إطلاقها على كلام الله (ز).

وما لا يتأتى الواجب إلا بفعله صار واجباً؛ كالطهارة مع الصلاة، والقراءة في الصلاة، وإمساك جزء من الليل في الصيام، وإدخال جزء من الرأس في غسل الوجه، إلى غير ذلك مما لا يمكن تحصيل الواجب إلا به صار واجباً.

مسألة

وإذا صح وجوب النظر فالواجب على المكلف النظر والتفكر في مخلوقات الله، لا في ذات الله، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَتَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩١] ولم يقل: في الخالق، وأيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِلَهِ كَيْفَ خَلَقَ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧] فالنظر، والتفكر، والتكيف يكون في المخلوقات، لا في الخالق، وأيضاً قوله ﷺ: «تفكروا في الله»^(١) وأيضاً قوله عليه السلام: «مثل الناظر في [قدر]»^(٢) الله كالناظر في عين الشمس، فمهما ازداد نظراً ازداد حيرة. وأيضاً: فإن موسى عليه السلام لما سأله اللعين فرعون عن ذات الله، أجابه بأن مصنوعاته تدل على أنه إله ورب قادر، لا إله سواه. إذا نظر فيها وتأمل ولم يحدد له الذات فلا يكفيها؛ لأنه لما قال له: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] قال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مریم: ٦٥] إلى أن كرر عليه السؤال وأجابه بمثل الأول، إلى آخر الآيات (٢٥ - ٢٦ و ٢٨) كلها، فمهما سأله عن الذات أجابه بالنظر في المصنوعات التي تدل على معرفته.

وقيل: سئل بعض أهل التحقيق عن الله عز وجل ما هو؟ فقال: إله واحد. فقيل له: كيف هو؟ فقال: ملك قادر، فقيل له: أين هو؟ فقال: بالمرصاد. فقال السائل: ليس عن هذا أسألك؟ فقال: الذي أجبتك به هو صفة الحق، فأما غيره فصفة الخلق. وأراد بذلك أن يسأله عن التكيف، والتحديد، والتمثيل، وذلك صفة المخلوق لا صفة الخالق، ولأن المتفكر إذا تفكر في خلق السموات والأرض وخلق نفسه وعجائب صنع ربه، أذاه ذلك إلى صريح التوحيد؛ لأنه يعلم بذلك أنه لا بد لهذه المصنوعات من صانع، قادر، عليم، حكيم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية واللائكاني في شرح السنة بالفاظ متقاربة في المعنى (ز).

(٢) هكذا في الأثر ولم نجد مرفوعاً فإذا كان النظر في قدر الله موجباً للحيرة فبالحرى كون النظر في الله موجباً للحيرة ممنوعاً (ز).

مسألة

ويجب أن يعلم: أن العالم محدث؛ وهو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى، والدليل على حدوثه: تغيره من حال إلى حال، ومن صفة إلى صفة، وما كان هذا سبيله ووصفه كان محدثاً، وقد بين نبينا ﷺ هذا بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة، لما قالوا له: يا رسول الله: أخبرنا عن بدء هذا الأمر؟ فقال: «نعم. كان الله تعالى ولم يكن شيء، ثم خلق الله الأشياء» فثبت أن كل موجود سواء محدث مخلوق. وكذلك الخليل عليه السلام، إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلى حالة؛ لأنه لما رأى الكوكب قال: هذا ربي، إلى آخر الآيات (٦ - ٧٦ - ٧٩) فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت [على أنها] محدثة مفضولة مخلوقة، وأن لها خالفاً، فقال عند ذلك: ﴿وَجَهَّتْ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَ الْآنَاسَ وَالْأَنْعَامَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

مسألة

وإذا صح حدوث العالم؛ فلا بد له من محدث أحدثه، ومصور صورته، والدليل على ذلك: أن الكتابة لا بد لها من كاتب كتبها، والصورة لا بد لها من مصور صورها، والبناء لا بد له من باني بناءه. فإننا لا نشك في جهل من أخبرنا بكتابة حصلت بنفسها لا من كاتب، وصناعة لا من صانع، وحياكة لا من ناسج. وإذا صح هذا وجب أن تكون صور العالم وحركات الفلك متعلقة بصانع صنعها، ومحدث أحدثها، إذ كانت اللطف وأعجب صنفاً من سائر ما يتعذر وجوده إلا من صانع.

دليل ثان: ويدل على ذلك أيضاً: علمنا بتقدم الحوادث بعضها على بعض، وتأخر بعضها عن بعض، مع علمنا بتجانسها وتشاكلها، فلا يجوز أن يكون المتقدم منها متقدماً لنفسه؛ لأنه لو تقدم لنفسه لوجب تقديم كل ما هو من جنسه معه، وكذلك المتأخر منها، لو تأخر لنفسه وجنسه لم يكن المتقدم منها بالتقدم أولى منه بالتأخر، وفي علمنا بأن المتقدم من التماثلات بالتقدم أولى منه بالتأخر، دليل على أن له مقدماً قدّمه، وعاجلاً عجله في الوجود، مقصوراً على مشيئته.

ويدل على صحة ذلك أيضاً: علمنا بأن الصور الموجودة؛ منها ما هو مربع، ومنها ما هو مدور، ومنها شخص أطول من شخص، وآخر أعرض من آخر؛ مع تجانسها، ولا يجوز أن يكون المربع منها ربع نفسه، ولا المطول منها طول نفسه،

ولا القبيح منها قبح نفسه، ولا الحسن منها حسن نفسه، فلم يبقَ إلا أن لها مصوراً صوّرها؛ طويلة، وقصيرة، وقبيحة، وحسنة، على حسب إرادته ومشيته.

ويدل على صحة ما ذكرناه: أن الموجودات لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها، أنا وجدنا منها الموات والأعراض، أعني الجمادات التي لا حياة فيها، لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها ولا لغيرها، لأن من شرط الفاعل أن يكون حياً، قادراً، فبطل كونها محدثة لنفسها بل لها محدث أحدثها.

ويدل على صحة ذلك أيضاً: أنا وجدنا أنفس الموجودات في العالم، الحيّ القادر العاقل المحصل، وهو الآدمي، ثم أكمل ما تكون. تعلم وتحقق أنه كان في ابتداء أمره نقطة ميتة، لا حياة فيها ولا قدرة، ثم نقل إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم من حال إلى حال، ثم بعد خروجه حياً من الأحشاء إلى الدنيا. تعلم وتحقق أنه كان في تلك الحالة جاهلاً بنفسه وتكييفه، وتركيبه، ثم بعد كمال عقله وتصوره وحذقه وفهمه لا يقدر في حال كماله أن يحدث في بدنه شعرة ولا شيئاً، ولا عرقاً فكيف يكون محدثاً لنفسه ومتقللاً^(١) لها في حال نقصه من صورة إلى صورة ومن حالة إلى حالة وإذا بطل ذلك منه في حال كماله كان أولى أن يبطل ذلك منه في حال نقصه، ولم يبقَ إلا أن له محدثاً أحدثه، ومصوراً صوّره ومُتقللاً نقله؛ وهو الله سبحانه وتعالى.

مسألة

وإذا ثبت أن للعالم صانعاً صنعه، ومحدثاً أحدثه، فيجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون مشبهاً للعالم المصنوع المحدث؛ لأنه لو جاز ذلك لم يخل: إما أن يشبهه في الجنس، أو في الصورة، ولا يجوز أن يكون مشبهاً له في الجنس؛ لأنه لو أشبهه في الجنس لجاز أن يكون محدثاً كالعالم المحدث، أو يكون العالم قديماً كهو. لأنه حقيقة المشبهين المتجانسين: ما سَدَّ أحدهما سَدَّ الآخر وناب منابه، وجاز عليه ما يجوز عليه، ولا يجوز أن يكون يشبه العالم في الصورة لأن حقيقة الصورة هي الجسم المؤلف، والتأليف لا يكون إلا من شيئين فصاعداً؛ ولأنه لو كان صورة لا تحتاج إلى مصوّر صوّره، لأن الصورة لا تكون إلا من مصوّر على ما قدّمنا بيانه،

(١) هكذا في الأصل وهو بصيغة اسم الفاعل من التفعيل أي ناقلاً لها ومصلحاً من حال إلى حال (ز).

وقد بين ذلك تعالى بأحسن بيان فقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]
وقد سئل بعض أهل التحقيق عن التوحيد ما هو؟ فقال: هو أن تعلم أنه ما بينهم
بقدمه كما بينوه بحدوثهم.

وقال الجنيد رضي الله عنه: التوحيد إفراز القوم عن الحدوث، فاحكموا أصول
العقائد بواضح الدليل ولا تخشوا الشواهد.

وقال أبو محمد الحريري رضي الله عنه: من لم يقف على علم التوحيد يشاهده
من شواهد، زلت به قدم الغرور في مهواة التلف.

وقال الجنيد: أول ما يحتاج إليه المكلف من عقد الحكمة: أن يعرف الصانع
من المصنوع، فيعرف صفة الخالق من المخلوق، وصفة القديم من المحدث.

وسئل أبو بكر الزاهد رضي الله عنه عن المعرفة ما هي؟ فقال: المعرفة اسم
ومعناه: وجود تعظيم في القلب، يمنعك عن التعطيل والتشبيه.

وقيل لأبي الحسن البوشنجي: ما التوحيد؟ فقال: أن تعلم أنه غير مشبه
بالذوات ولا بنفي الصفات.

مألة

وإذا ثبت أن صانع الموجودات ومحدثها لا يجوز أن يكون يشبهها، فيجب أن
تعلم أن محدث العالم قديم، أزلي لا أول لوجوده. ولا آخر لدوامه. والدليل على
صحة ذلك: أنه لو لم يكن قديماً كما ذكرنا لكان محدثاً، ولو كان محدثاً لاحتاج إلى
محدث أحدثه؛ لأن غيره من الحوادث إنما احتاجت إلى محدث لأنها محدثة. ولو
كان ذلك كذلك لاحتاج كل محدث إلى محدث آخر، إلى ما لا نهاية له ولا غاية،
ولمّا بطل ذلك صَحَّ كونه قديماً أزلياً.

وبمثل هذا الدليل: يستدل على بطلان قول من زعم من أهل الدهر أن
الحوادث لا أول لوجودها، فافهمه ترشد، إن شاء الله تعالى.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن صانع العلم جَلَّتْ قدرته واحد أحد؛ ومعنى ذلك: أنه
ليس معه إله سواه، ولا من يستحق العبادة إلا إياه، ولا نريد بذلك أنه واحد من
[جهة العدد] وكذلك قولنا أحد، وفرد وجود ذلك إنما نريد به أنه لا شبيه له ولا

نظير، ونريد بذلك أن ليس معه من يستحق الإلهية سواء، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا اللَّهُ إِلَهٌ وَحِيدٌ﴾ [النساء: ١٧١] ومعناه: لا إله إلا الله.

والدليل على أن صانع العالم على ما قررناه: قوله تعالى: ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ أَلَّ اللَّهُ لَمُصَدِّقًا﴾ [الأنبياء: ٢٢] والدليل المعقول مستنبط من هذا النص المنقول، فإننا نرى الأمور تجري على نمط واحد، في السموات والأرض وما فيهما من شمس وقمر وغير ذلك. ولو كانا اثنين أو أكثر فلا بد أن يجري خلاف أو تغير من أحدهما على الآخر، وقد بينه سبحانه وتعالى فقال: ﴿قُلْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ أَلَّ اللَّهُ لَمُصَدِّقًا﴾ [الأنبياء: ٢٢] **﴿٢٢﴾** **﴿٢٣﴾** **﴿٢٤﴾** **﴿٢٥﴾** **﴿٢٦﴾** **﴿٢٧﴾** **﴿٢٨﴾** **﴿٢٩﴾** **﴿٣٠﴾** **﴿٣١﴾** **﴿٣٢﴾** **﴿٣٣﴾** **﴿٣٤﴾** **﴿٣٥﴾** **﴿٣٦﴾** **﴿٣٧﴾** **﴿٣٨﴾** **﴿٣٩﴾** **﴿٤٠﴾** **﴿٤١﴾** **﴿٤٢﴾** **﴿٤٣﴾**.

وأيضاً: فلو جاز أن يكونا اثنين أو أكثر فبريد أحدهما شيئاً ويريد الآخر ضده، فلا يخلو أن يتم مرادهما، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر، ولا يجوز أن يتم مرادهما؛ لأن في إتمام مراد أحدهما عجز الآخر، لأنه تم ما لا يريد، وفي ذلك تعجيز لكل واحد منهما؛ لأنه تم ما لا يتم مراد واحد منهما، فقد ثبت عجزهما أيضاً. ومن يكون عاجزاً فليس بالإله، أو يتم مراد أحدهما دون الآخر؛ فالذي تم مراده هو الإله، والذي لم يتم عاجز ليس بالإله، فلم يكن إلا إله واحد كما ذكرنا.

فإن قيل: فيجوز أن يختلفا في الإرادة. قلنا: هذا القول يؤدي إلى أحد أمرين: إما أن يكون ذلك القول أحدهما للآخر لا ترد إلا ما أريد، فيصير أحدهما أمراً والآخر مأموراً، والمأمور لا يكون إلهاً، والأمر على الحقيقة هو الإله، أو يكون كل واحد منهما لا يقدر أن يريد إلا ما أراده الآخر ولو كان كذلك دل على عجزهما؛ إذ لم يتم مراد واحد منهما إلا بإرادة الآخر معه وإذا ثبت هذا بطل أن يكون الإله إلا واحداً على ما قررناه.

مسألة

ويجب أن يعلم أن الباري جلَّت قدرته حيٌّ. وهذه المسألة أول مسائل قول الشيخ^(١) «موصوف بما وصف به نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه فنقول الباري بوصف بالحياة».

(١) أي أبا الحسن الأشعري، وقوله هذا نضج عنه مسائل كما بسط المؤلف (ز).

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله تعالى: ﴿وَوَكَّلْ عَلَى آلِيَّ الْأَيِّ لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. وأيضاً: فإن الفعل يستحيل وجوده من الموات الذي لا حياة له، والله تعالى فاعل الأشياء ومنشئها، فوجب أن يكون حياً.

مسألة

ويجب أن يعلم: أنه تعالى قادر على جميع المقدورات.

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَوْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النائدة: ١٢٠] ولأننا نعلم قطعاً استحالة صدور الأفعال من عاجز لا قدرة له، ولما ثبت أنه فاعل الأشياء ثبت أنه قادر.

مسألة

ويجب أن يعلم: أنه تعالى عالم بجميع المعلومات.

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا يُوسُفَ﴾ [النساء: ١٦٦] وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩] وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٢٩] وقوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ إِلَهُكُمُ الْقُرْآنَ﴾ [هود: ١٤] إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى.

وأيضاً: فيدل على أنه عالم: صدور الأفعال الحكيمة المتقنة الواقعة على أحسن ترتيب ونظام وإحكام وإتقان، وذلك لا يحصل إلا من عالم بها، ومن جَوَز صدور خط معلوم منظوم مرتب من غير عالم بالخط، كان عن المعقول خارجاً، وفي عمل الجاهل والجاهل.

ويدل على صحة ذلك أيضاً: أنه حي، قادر، عالم، أنا لو جَوَزنا صدور أفعال محكمة متقنة من غير حي، عالم، قادر، لم ندرِ لعل جميع ما يظهر لنا من أفعال الناس من الكتابة والصناعة وسائر الصنائع لعلها لنا منهم وهم أموات عجيبة جهلة، ولعل لنا في هذه المسألة المناظر عليها ميت عاجز.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن الله مريد على الحقيقة لجميع الحوادث، والمرادات، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْإِسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْمُسْرَ وَلِيُخْلِفَ فِي الْأَيِّدِ الَّذِينَ يَشَاءُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَلَّكُمْ فِي الشُّكْرِ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء: ٢٨] وقد قيل في بعض الآثار: أنه تعالى يقول: يا ابن آدم؛ تريد وأريد، ولا يكون إلا ما أريد.

يدل على أنه مريد من جهة العقل: ترتيب الأفعال واختصاصها بوقت دون وقت، ومكان دون مكان، وزمان دون زمان، وكذلك يدل على أنه أراد أن يكون هذا قبل هذا، وهذا بعد هذا، وهذا على صفة، والآخر على صفة غيرها، وهذا من مكان، وهذا من مكان آخر، إلى غير ذلك.

مسألة

ويجب أن يعلم: أنه سمع لجميع المسموعات، بصير لجميع المبصرات.

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ يَرْهَمَ وَهُمْ يَمُوتُونَ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْفِيُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠] وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَلَمْ أَنَّهُ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤] وأيضاً: فإنه لو لم يوصف بالسمع والبصر لوجب أن يوصف بضد ذلك، من الصمم والعمى، والله يتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن الله تعالى متكلم، وأن كلامه غير مخلوق ولا محدث. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿يَنْهَاهُمْ مِّنْ عَمَلٍ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وقوله تعالى: ﴿وَكُنْتَ كَلِمَتًا مِّنْ لَّدُنِّي﴾ [الأنعام: ١١٥]. وقوله ﷺ: «فضل كلام الله على كلام الخلق كفضل الخالق على المخلوق». ولا تصف بداية ولا نهاية؛ لأنه ﷺ كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: «أعذكما بكلمات الله التامة العامة». ومحال أن يعوذ مخلوق بمخلوق، فثبت أنه عوذ مخلوقاً بغير

مخلوق، إلى غير ذلك من الآيات والأخبار. ولأنه لو لم يكن متكلماً لوجب أن يوصف بضد الكلام؛ من الخرس والسكوت والعني، والله يتعالى عن ذلك.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن الله سبحانه باق. ومعنى ذلك: أنه دائم الوجود. والدليل عليه قوله: ﴿وَبَقِيَ رَبُّكَ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٢٧] يعني ذات ربك. وإيضاً قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الْقَصَص: ٨٨] يعني ذاته، ولأنه قد ثبت قدمه وما ثبت قدمه استحالة عدمه.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن الباري عالم بعلم قديم متعلق بجميع المعلومات، ولا يوصف علمه بأنه مكتسب ولا ضروري، وأنه قادر بقدرة قديمة شاملة لجميع المقدورات، مريد بإرادة قديمة متعلقة بجميع الكائنات سمع بسمع قديم متعلق بجميع المسموعات، بصير ببصر قديم متعلق بجميع المبصرات، متكلم وكلامه قديم متعلق بجميع المأمورات والمنهيات، والمخبرات. فعلمه سبحانه وتعالى لا يوصف بالضرورة والكسب؛ لأن ذلك صفات علم الخلق. وقدرته لا توصف بالاستطاعة؛ لأن ذلك صفات الخلق، وسمعه لا يوصف بأنه يقوم بالحواس كسمع الخلق، وبصره لا يوصف بأنه يقوم بالآفاق كبصر الخلق، وكلامه لا يوصف بالجوارح والأدوات؛ لأن ذلك صفات كلام الخلق. بل صفات ذاته قديمة أزلية، لم يزل موصوفاً بها، ولا يزال كذلك، لا تشبه بصفات المخلوقين، ولا يقال إنها هو ولا غيره، ولا صفاته متغايرة في أنفسها.

والدليل على هذه الجملة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يُولَدٌ﴾ ❶ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوًا أَحَدٌ ❷ [الإخلاص: ٣، ٤] فكما [أن] ذاته لا تشبه ذوات الخلق، فكذلك علمه لا يشبه علم الخلق، ولا يوصف بصفة علم الخلق، وكذلك قدرته وإرادته: لا تشبه قدرة الخلق ولا إرادتهم، ولا يوصف شيء من صفاته بصفات الخلق، فاعلم ذلك وتحققه توفيقاً للصواب، بمشيئة الله تعالى.

والدليل على أن صفاته لا يقال لها هي هو: أنها لو كانت هي هو لكانت خالقة فاعلة مثله، فلا يجوز أن يقال هي هو. ويدل على صحة هذا المعنى قول علي

عليه السلام في القرآن: ليس بخالق ولا مخلوق. لأنه لو جعله خالقاً كان إلهاً ثانياً مع الله، ولو جعله مخلوقاً لوجب أن يكون الباري موجوداً بلا كلام ثم خلق كلامه بعد، وذلك لا يصح؛ لأن صفات ذاته قديمة بقدم ذاته.

فإن قيل: فليس ثم إلا خالق أو مخلوق. قلنا: نعم ولكن خالق [قديم بصفات ذاته ومخلوق حادث] بصفات ذاته التي توجد بعد أن لم تكن، وتعدم بعد أن كانت، وصفات القديم لا تتصف بوجود بعد عدم، ولا بالعدم بعد الوجود، وإنما قلنا إن صفات ذاته ليست بأغيار له، ولا هو غير صفاته، ولا صفاته متغايرة في أنفسها؛ لأن حدّ الغيرين ما يجوز مفارقة أحدهما الآخر؛ إما بزمان أو بمكان، وهذا يستحيل تصويره في الله تعالى وصفات ذاته. فافهم وتزيد التحقيق، وفقنا الله وإياك وجميع المسلمين آمين يا رب العالمين.

مسألة

فإن قيل: قد أثبتتم أنه حي عالم قادر سميع بصير متكلم، أفقولون: إنه يغضب ويرضى، ويحب، ويغض، ويوالي، ويعادي، وأنه موصوف بذلك؟ قيل لهم: أجل، ومعنى وصفه بذلك: أن غضبه على من غضب عليه، ورضاه عن من رضي عنه، وحبه لمن أحب، وبغضه لمن أبغض، وموالاته لمن والى، وعداوته لمن عادى. أن المراد بجميع ذلك: إرادته إثابة من رضي عنه وأحبه وتولاه. وعقوبة من غضب عليه وأبغضه وعاداه، لا غير.

ويدل على هذه الجملة: أنه يوصف بالغضب، قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْضَلْ مُؤْمِنًا مَّتَعِدًا فَنَجِرَ آؤُرَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَعَذِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [النساء: ٩٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَسَى أَنْ غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [التور: ٩] إلى غير ذلك من الآيات.

ويدل على أنه يوصف بالحب: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ وَيُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [الحائدة: ٥٤] وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] إلى غير ذلك.

ويدل على أنه يوالي: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨] وقوله: ﴿إِنَّا رَفَعْنَا اللَّهُ رُسُلَنَا﴾ [الحائدة: ٥٥] وقوله ﷺ: «يقول الله تعالى من أذى لي ولياً» إلى غير ذلك من الآيات والأخبار.

ويدل على أنه يعادي: قوله تعالى: ﴿فَارْتَدُّوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٨] وقوله: ﴿لَا تَجِدُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١] إلى غير ذلك من الآيات والآثار.

ويدل أنه يبغض: قوله ﷺ: «ثلاثة يبغضهم الله تعالى: شيخ زان؛ وبائع حلاف؛ وفقير محتال».

مسألة

فإن قيل: فما الدليل على أن غضب الله سبحانه ورضاه، ورحمته، وسخطه، وحبه وعداوته، وموالاته وبغضه إنما هو إرادته لإثابة من رضي عنه وأحبه ورواه ونفعه، وأن غضبه، وسخطه، وبغضه، وعداوته إنما هو إرادة عقاب من غضب عليه وسخط وعادى وإيلامه وضرره؟
قيل له:

الدليل على ذلك: أن الغضب والرضا ونحو ذلك لا يخلو إما أن يكون المراد به إرادته النفع والضرر فقط، أو يكون المراد به نور الطبع وتغييره عند الغضب، ورقته وميله وسكوته عند الرضا، فلما لم يجر أن يكون الباري جلّت قدرته ذا طبع يتغير وينفر، ولا ذا طبع يسكن ويرق، وأن هذه من صفات المخلوقين، وهو يتعالى عن جميع ذلك: ثبت أن المراد ببغضه، ورضاه، ورحمته، وسخطه إنما هو إرادته وقصده إلى نفع من كان في معلومه أنه ينفعه، وضرر من سبق في علمه وخبره أنه يضره لا غير ذلك.

مسألة

فإن قيل: فهل يجوز أن يوصف بالشهوة؟ قيل له:

إن أراد السائل بوصفه بالشهوة إرادته لأفعاله فذلك صحيح من طريق المعنى غير أنه أخطأ وخالف الأمة في وصف القديم بالشهوة؛ إذ لم يرد بذلك كتاب ولا سنة، لأن أسماء تعالى لا تثبت قياساً، وهو معنى قول الشيخ رضي الله عنه (لا مدخل للعقل والقياس في إيجاب معرفته، وتسميته، وإنما يعلم ذلك بفضل من جهته). يعني: إما بنص كتاب، أو سنة. وإن أراد هذا السائل أن يصفه بالشهوة التي هي [شوق] النفس وميل الطبع إلى المتافع واللذات فذلك محال ممتنع على القديم سبحانه وتعالى، بما قلنا ذكره من قبل.

مسألة

ويجب أن يعلم: [أن كل ما] يدل على الحدث أو على سمة النقص فالله **تعالى** يتقدس عنه.

فمن ذلك: أنه تعالى متقدس عن الاختصاص بالجهات، والاتصاف بصفات المحدثات، وكذلك لا يوصف بالتحول، والانتقال، ولا القيام، ولا القعود؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُنُوا أَحَدًا﴾ [الإخلاص: ٤] ولأن هذه الصفات تدل على الحدث، والله تعالى يتقدس عن ذلك فإن قيل أليس قد قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] قلنا: بلى، قد قال ذلك، ونحن نطلق ذلك وأمثاله على ما جاء في الكتاب والسنة، لكن ننفي عنه أمانة الحدث، وتقول: استواؤه لا يشبه استواء الخلق، ولا نقول إن العرش له قرار، ولا مكان، لأن الله تعالى كان ولا مكان، فلما خلق المكان لم يتغير عما كان.

وقال أبو عثمان المغربي يوماً لخادمه محمد المحبوب: لو قال لك قائل: أين معبودك؟ ماذا كنت تقول له؟ فقال: أقول حيث لم يزل ولا يزول. قال: فإن قال: فأين كان في الأزل؟ ماذا تقول؟ فقال: أقول حيث هو الآن. يعني: إنه كما كان ولا مكان.

وقال أبو عثمان: كنت أعتقد شيئاً من حديث الجهة، فلما قدمت بغداد وزال ذلك عن قلبي فكُتبت إلى أصحابنا: إني قد أسلمت جديداً.

وقد سئل الشبلي عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فقال: الرحمن لم يزل ولا يزول، والعرش محدث، والعرش بالرحمن استوى.

وقال جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: من زعم أن الله تعالى في شيء أو من شيء، أو على شيء، فقد أشرك؛ لأنه لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً، والله يتعالى عن جميع ذلك.

وقال بعض أهل التحقيق: (ألزم الكل الحدث، لأن القدم له، فهو سبحانه لا يظله فوق، ولا يقيه تحت، ولا يقابله حد، ولا يزاحمه [عداً]، ولا يأخذه خلف، ولا يحده أمام، ولا يظهره قبل، ولا يغيه بعد، ولا يجمعه كل، ولا يوجد له كان، ولا يفقده ليس، باينهم مقدمه كما باينوه بحدوثهم. إن قلت متى: فقد سبق الوقت

كونه^(١) وإن قلت: أين فقد تقدم المكان وجوده، فوجوده إثباته، ومعرفته توحيده (أن) تميزه من خلقه ما تصور في الأوهام فهو بخلاف [ذلك] كيف يحل به ما منه بدؤه. أو يتصف بما هو إنشاؤه، لا تمقله العيون، ولا تقابله الظنون، قربه كرامته، وبعده إهانتة، علوه من غير ترق، ومجيبته من غير تنقل، هو الأول، والآخر والظاهر، والباطن، والقريب البعيد، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

مسألة

ويجب أن يعلم: أن الحوادث كلها مخلوقة لله تعالى، نفعها وضرها، إيمانها وكفرها، طاعتها، ومعصيتها.

والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وأيضاً فإن الله تعالى رد على الكفار لما ادعوا معه شركاء في الاختراع، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَعَلُوا يُوْشِكَاةَ عَنَقُوهُمْ كَذِبُوا فَتَتَبَهُ الْمَلَأُ مَنَاجِمَ فِي اللَّهِ خَلْقٌ كُلٌّ فِي غَنَةٍ وَهُمْ لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الزهد: ١٦] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَوِّدُ فِي اللَّيْلِ أَلْوَانَ الْبُحْرِ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢]، فأخبر تعالى أنه خالق لسيرنا؛ وهي الحركات والسكنات. وقال تعالى: ﴿مَلَأَ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] وقال النبي ﷺ: «الله خالق كل صانع وصنعة». واجمعت الأمة على القول: بأن لا خالق إلا الله في الدارين، كما أجمعوا أن لا إله غيره.

مسألة

ويجب أن يعلم أن الحوادث كلها تقع مرادة لله تعالى، وأنه لا يتصور أن يوجد في الدنيا والآخرة شيء لم يردّه تعالى؛ من نفع، وضر، ورزق، وأجل، وطاعة، ومعصية، إلى غير ذلك من سائر الموجودات.

والدليل على ذلك: ما يتناه من قبل، وأنه خالق لها، وإذا صح ذلك ترتب عليه أنه مريد لما خلق، قاصد إلى إبداع ما اخترع، ويدل على ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ [الأنعام: ٣٥] وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لَبِثَ شَرَحٌ مَخْرُجٌ وَلَئِنْ لَمْ يَرْزُقْهُمْ يَرْزُقْهُمْ يَخْلُقْ مَا يَشَاءُ اللَّهُ لَيَجْعَلُ لِكُلِّ شَيْءٍ صَبِيغًا حَرِيكًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ لِكُلِّ رَجُلٍ لَبِثَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا زُلْزَلْنَا إِلَى الْأَرْضِ فَاصًّا فَذَرْنَاهُمْ فِيهَا يَكُونُوا كَالْعِشَابِ الْمُدْمَغِجِ سَافًّا فَكَانُوا شِجَارًا لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنعام: ١١١] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [الشجدة: ١٣] والآيات في هذا المعنى في القرآن لا تحصى عدداً. وأيضاً فإن الأمة قد أجمعت على القول بإطلاق هذه الكلمة: «ما شاء الله كان». وما لم يشأ لم يكن» وأيضاً فإنه لو أراد شيئاً وأراد غيره شيئاً فوجد مراد غيره دون مراده كان ذلك دليل المعجز والغلبة، والله يتعالى عن ذلك.

وقال بعض أهل التحقيق: (والله ما قالت القدرية كما قال الله تعالى ولا كما قال النبيون ولا كما قال أهل الجنة، ولا كما قال أهل النار، ولا كما قال أخوهم إبليس)؛ لأن الله تعالى قال: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشحل: ٩٣] وقال: ﴿وَمَا تَسْكَونَ إِلَّا أَن يَسْكَتَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

وقال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَقُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩] وقال موسى عليه السلام: ﴿إِن يَشَاءُ يُفْضِلْ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقال نبينا ﷺ: ﴿قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا إِلَهِي﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقال أهل الجنة: ﴿لَقَدْ جَاءَنَا إِلَٰهُنَّ هَدًى﴾ [الأعراف: ٤٣] وقال أهل النار: ﴿رَبَّنَا عَلَّمْتَنَا لِقَاءَ هَٰذَا النَّارِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦] وقال أيضاً: ﴿بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ لِكُلِّ طَائِفَةٍ الْحَسَنَةُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١] وقال إبليس: ﴿رَبِّ يَا غَافِلِينَ﴾ [الحجبر: ٣٩] وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُمْ﴾ [الزهد: ١١].

مسألة

واعلم: أنه لا فرق بين الإرادة، والمشيئة، والاختيار، والرضى، والمحبة على ما قدمنا. واعلم: أن الاعتبار في ذلك كله بالمآل لا بالحال، فمن رضي سبحانه عنه لم يزل راضياً عنه، لا يسخط عليه أبداً، وإن كان في الحال عاصياً، ومن سخط عليه فلا يزال ساططاً عليه ولا يرضى عنه أبداً وإن كان في الحال مطيعاً.

ومثال ذلك: أنه سبحانه وتعالى لم يزل راضياً عن سحرة فرعون، وإن كانوا في حال طاعة فرعون على الكفر والضلال، لكن لما آمنوا في المال؛ بأن تعالى لم يزل راضياً عنهم، وكذلك الصديق، والفاروق رضي الله عنهما لم يزل راضياً عنهما في حال عبادة الأصنام، لعلمه بمآل أمرهما وما يصير إليه من التوحيد ونصر الرسول والجهاد في سبيل الله تعالى.

وكذلك لم يزل ساخطاً على إبليس، ويعلم، ويرصيص، في حال عبادتهم؛ لعلمه بمآلهم وما يصير إليه حالهم.

وقد سئل الجنيد رضي الله عنه عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [الأنبياء: ١٠١] فقال: هم قوم سبق لهم العناية في البداية، فظهرت لهم الولاية في النهاية.

مألة

ويجب أن يعلم: أن العبد له كسب وليس مجبوراً^(١) بل مكتسب لأفعاله؛ من طاعة ومعصية؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤] يعني من ثواب طاعة ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني من عقاب معصية. وقوله: ﴿يَمَّا كَسَبَتْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [الرؤم: ٤١] وقوله: ﴿وَمَا أَمْنَيْكُمْ يَنْ تُصِيبَكُمْ يَمَّا كَسَبَتْ أَيُّكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] وقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَلَئِنْ جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلِلَّهِ كَانَ يُعْسَاوُونَ﴾ [فاطر: ٤٥].

ويدل على صحة هذا أيضاً: أن العاقل منا يفرق بين تحرك يده جبراً وسائر بدنه عند وقوع الحمى به، أو الارتعاش، وبين أن يحرك هو عضواً من أعضائه قاصداً إلى ذلك باختياره، فأفعال العباد هي كسب لهم وهي خلق الله تعالى. فما يتصف به الحق لا يتصف به الخلق، وما يتصف به الخلق لا يتصف به الحق، وكما لا يقال لله تعالى إنه مكتسب، كذلك لا يقال للعبد إنه خالق.

(١) وبهذا يظهر أن كون العبد مجبوراً في أفعاله ليس من منفعب الأشعري وأول من نطق بعزو ذلك إليه هو الفخر الرازي، واهماً في التخريج، وادعاء، كونه مجبوراً من الخطورة بمكان (ز).

مسألة

ويجب أن يعلم: أن الاستطاعة للعبد تكون مع الفعل^(١) لا يجوز تقديمها عليه ولا تأخيرها عنه، كعلم الخلق وإدراكهم، لا يجوز تقديم العلم على المعلوم، ولا الإدراك، على المنرك.

والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَكَاذِبًا لَا يَتَخَلِّمُونَ مِمَّا﴾ [الكهف: ١٠١] يعني قبولاً عند الدعوة. يعني: أنه لم يكن لهم استطاعة عند مفارقة الدعوة، فيحصل معها القبول، وأيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْهُ مُؤَيَّدًا أَصْلَافًا﴾ [إبراهيم: ٤٠] فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لكان يقول: قد جعلتك مقيماً، ولم يكن لسؤاله معنى؛ لأنه سئل في شيء قد أعطيه وهو قادر عليه. وأيضاً قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فلو كانت الاستطاعة قبل الفعل لم يكن للسؤال فيها معنى، ولأن القدرة الحادثة لو تقدمت على الفعل لوجد الفعل بغير قدرة؛ لأنها عرض، والعرض لا يبقى، ولا يصح أن يوجد بعد الفعل. وأيضاً: لأنه يكون فاعلاً من غير قدرة، فلم يبق إلا أنها مع الفعل.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن الرؤية جائزة عليه سبحانه وتعالى، من حيث العقل، مقطوع بها للمؤمنين في الآخرة؛ تشرافاً لهم وتفضلاً، لوعده الله تعالى لهم بذلك. والدليل على جوازها من حيث العقل: سؤال موسى عليه السلام، حيث قال: ﴿رَبِّ أَوْفِرْ أُنْفُكَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ويستحيل أن يسأل نبي من أنبياء الله تعالى

(١) ومنه ذلك: تجدد الأعراض، لكن دليل التجدد غير تام، ومنعجب أبي حنيفة: تقدم الاستطاعة على الفعل؛ بمعنى سلامة الآلات الصالحة للفعل والترك، والمعتزلة مع أبي حنيفة في هذا، وحاول الفخر الجمع بين الرأيين: بأن القوة العضلية سابقة، والقدرة المستجمعة لشروط التأثير مع الفعل، فلا ينافي أحدهما الآخر في نظره، لأن مجرد القوة العضلية غير كاف في صدور الفعل ما لم يرده سبحانه اتفاقاً، وإرادته تعالى هي تركه العبد يضيي فيما اختاره، كما ذكره عبد القاهر البغدادى، فلا تكون في ذلك سمة جبر، ما دام فعل العبد مستنداً إلى اختياره نفسه، والقوة العضلية هي مدار التكليف، وهي صالحة للفعل والترك، والقدرة المستجمعة لشروط التأثير غير صالحة إلا لأحدهما، فيكون الوجوب في هذا من قبيل الضرورة بشرط المحمول، فلا يكون من الضرورة في شيء (ز).

مع جلالة قدره وعلو مكانه ما لا يجوز عليه سبحانه، ولولا أنه اعتقد جوازها لما سألها، ولأنه تعالى علقها باستقرار الجبل، ومن الجائز استقرار الجبل، ويدل عليه أيضاً: أنه موجود، والموجود يصح أن يُرى.

وأما الدليل على ثبوتها من طريق الكتاب والسنة: قوله تعالى: ﴿يَحِثُّهُمْ يَوْمَ يَلْقَوُهمْ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤] واللقاء إذا قرن بالتحية لا يقتضي إلا الرؤية. وأيضاً قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لَسْنَا وَزِيَادَةً﴾ [يونس: ٢٦] قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «الزيادة النظر إلى وجهه الكريم» وقد ذكر مرفوعاً عن رسول الله ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَبُورِهِ بِوَيْلٍ تَافِرَةٍ﴾ [١١] ﴿إِنَّ رَبَّهَا تَافِرَةٌ﴾ [١٢] [القيامة: ٢٢، ٢٣] والمراد بقوله «تَافِرَةٌ» أنها مشرقة، والمراد بقوله ﴿إِنَّ رَبَّهَا تَافِرَةٌ﴾ أنها لربها رائية؛ لأن النظر إذا عدى بكلمة إلى اقتضى الرؤية نصاً، كقوله تعالى: ﴿فَإِنظُرْ إِلَى كَعَابِكَ وَشَرَابِكَ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وقوله تعالى: ﴿أَلَّا يَنْظُرُوا إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الفاتحة: ١٧] وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله «وزيادة» قال: هي النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف. وأيضاً: فإن الصحابة لما سأله ﷺ هل نرى ربنا؟ فقال ﷺ: «ترون ربكم عياناً كما ترون القمر ليلة البدر لا تضارون في رؤيته». وروي «لا تضامون في رؤيته» وروي «لا يلحقكم ضرر ولا ضيم في رؤيته». ومعنى ذلك: أنه ﷺ شبه الرؤية بالرؤية لا المرئي بالمرئي؛ فكانه ﷺ شبه الرؤية بالرؤية؛ وأن الرائي المعين للقمر ليلة البدر أربع عشرة لا يشك في أن الذي يراه قمر. فكذلك الناظر إليه سبحانه وتعالى في الجنة لا يشك أن الذي يراه سبحانه وتعالى بلا تكييف، ولا تشبيه، ولا تحديد، وهذا كما يقول القائل: أعرف صدقك كما أحرف النهار، ورأيت زيدا كما رأيت الشمس. ويدل عليه أيضاً قوله ﷺ: «إن الله يتجلى للمخلوق عامة ويتجلى لأبي بكر خاصة»^(١).

مسألة

ويجب أن يعلم: أن الطاعة ليست بعلّة الثواب، ولا المعصية علة للعقاب، ولا يجب لأحد على الله تعالى، بل الثواب وما أنعم به على العبد فضل منه، والعقاب عدل منه. ويجب على العبد ما أوجبه الله تعالى عليه، ولا موجب ولا واجب على الله.

(١) لا يثبت، والمصنف كثيراً ما يورد أحاديث ضعيفة (ز).

والحسن ما وافق الأمر من الفعل، والقبیح ما وافق النهي من الفعل، وليس الحسن حسناً من قبل الصورة، ولا القبیح قبیحاً من قبل الصورة.

والدلیل على الفصل الأول: أنه لا واجب عليه لأحد من الخلیقة، وأن حقيقة الواجب ما استوجب من وجب عليه الذم بتركه، والرد تعالى عن الذم علواً كبيراً.

ويدل على صحة ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضِيلَةٍ﴾ [الرؤم: ٤٥] فاعلم أن ذلك بفضل لا بالعمل. وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [النساء: ٨٣] وسئل النبي ﷺ «أيدخل أحد منا الجنة بعمله؟ فقال: لا. فقبل ولا أنت؟ فقال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته، فقال له بعض الصحابة: فقيم العمل؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له» وإنما وعد الله سبحانه بالشواب وأوعد بالعقاب، وقوله الحق ووعد الصدق، فنصب الطاعات أمانة على الفوز بالدرجات، والمعاصي أمانة على التردّي في الهلكات، وكل ذلك أمانة للخلق بعضهم على بعض، لا له سبحانه وتعالى؛ فإنه علم بالأشياء قبل كونها، كما قال بعضهم: «تفرد الحق بعلم الغيوب فعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون».

والدليل على الفصل الثاني: وهو: أن الحسن ما وافق الأمر، والقبیح ما خالف الأمر: أن لذة الجماع في الزوجة والأمة، صورتها في الفرج [الحلال] كصورتها في الفرج الحرام، إلا أن ذلك حسن في الملك بموافقة الشرع، قبيح في غير ذلك بمخالفة الشرع. وكذا القتل: وصورته في القصاص كهي في القتل من غير قصاص، إلا أن أحدهما حسن لمطابقة الشرع، والآخر قبيح بمخالفة الشرع. وكذا الأكل في آخر يوم من شهر رمضان، كصورة الأكل يوم الفطر، إلا أن أحدهما حسن لموافقة الشرع، والآخر قبيح لمخالفته، وكذلك بالعكس: إمساك يوم من شهر رمضان، كصورة الإمساك يوم الفطر، إلا أنه في أحدهما حسن للموافقة، وفي الآخر قبيح للمخالفة.

وجميع قواعد الشرع تدل على أن الحسن: ما حسنه الشرع وجوّزه وسوّغه. والقبیح: ما قبحه الشرع وحزّمه، ومنع منه، لا من حيث الصورة، فنفهم ذلك يخلصك من جميع ما يورده جهال القدرة من شبههم التي تضل عقول العوام. فإذا ثبت هذا وتقرر: جاء منه أن البارئ سبحانه وتعالى ليس فوقه أمر أمره، ولا ناهٍ نهاه؛ حتى تتصف أفعاله تارة بالحسن لموافقة الأمر، ولا بالقبیح لمخالفة الأمر، بل هو

المالك على الحقيقة، يتصرف في ملكه كيف يشاء، ﴿لَا يَسْتَلُ عَنَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْتَكَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

مسألة

ويجب أن يعلم: أن أرزاق العباد وجميع الحيوان من الله تعالى، فلا رازق إلا الله: حلالاً كان أم حراماً.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْخَرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الزهد: ٢٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُمْ مَن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَنَّا يَشْرِكُونَ﴾ [الزوم: ٤٠]. وقد أجمع المسلمون على إطلاق القول «لا رازق إلا الله» كما أجمعوا على أنه «لا خالق إلا الله».

ويدل عليه أيضاً: أنه لو فرض نشوء صبي من حال كونه طفلاً إلى بلوغه بين اللصوص وقطاع الطريق وكان يتناول من طعامهم المسروق المنهوب، ثم من بعد إدراكه والبلوغ سلك مسلكتهم في السرقة والنهب والغارة إلى أن شاخ وهرم ولم يتناول لقمة من حلال قط، فلو قال قائل: إن هذا الشخص لم يرزقه الله رزقاً قط، ولا أكل له رزقاً، كان هذا القائل معانداً للنص الوارد، وخارقاً لإجماع المسلمين. فدلّت هذه الجملة: أن لا خالق إلا الله ولا رازق إلا هو.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن كل ما ورد به الشرع من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير، وردّ الروح إلى الميت عند السؤال، ونصب الصراط، والميزان، والحوض والشفاعة للعصاة من المؤمنين، كل ذلك حق وصدق، ويجب الإيمان والقطع به؛ لأن جميع ذلك غير مستحيل في العقل.

وكذلك يجب القطع بأن الجنة والنار مخلوقتان في وقتنا، وكذلك يجب القطع بأن نعيم أهل الجنة لا يتقطع، وأن عذاب جهنم مخلد للكفار، وإن من كان مؤمناً لا يخلد في النار.

والدليل على إثبات عذاب القبر: قوله تعالى: ﴿وَمَن أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ [طه: ١٢٤]. قال أبو هريرة: يعني عذاب القبر. وأيضاً: قوله ﷺ:

«القبير إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار». وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى آبٍ عَذْوًا وَعَيْشًا﴾ [غافر: ٤٦]، والغدو والعشي إنما يكون في الدنيا، وأيضاً ما روي عنه ﷺ أنه كان يقول: «أعوذ بالله من عذاب القبر».

والدليل على سؤال منكر ونكير قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ النَّاتِلِينَ مَا كُنْتُمْ عَمَلُوا بِالْقَوْلِ الْآخِرِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] يعني وفي الآخرة عند سؤال منكر ونكير. وأيضاً: فإن النبي ﷺ لما دفن ابنه إبراهيم جلس عند رأس القبر، فتكلم بكلام، ثم قال: «ابني قل أبي»، وروي عنه أنه ﷺ قال لعمر رضي الله عنه: «كيف بك يا عمر إذا جاءك فتانا القبر؟ فقال: أكون كما أنا الآن؟ فقال له: نعم. فقال له: إذا أكفياكما». وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: رأيت أبي في النوم، فقلت له يا أبت، منكر ونكير حق؟ فقال: إي والله الذي لا إله إلا هو، لقد جاءني فقالا لي: من ربك؟ فأخذت عليهما وقلت لهما: لا أخلي عنكما حتى تعرفاني من ربكما، فقال أحدهما للآخر: دعه فإنه عمر الفاروق سراج أهل الجنة.

ويدل على نصب الصراط: قوله تعالى: ﴿وَلَنْ نُنْكَرَ إِلَّا وَارِثًا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مریم: ٧١] قيل في التفسير: هو العبور على الصراط. وأيضاً قوله ﷺ: «ينصب الصراط على متن جهنم دحض مزلة والأنبياء يقولون: سلم. سلم. والناس يمرّون عليه، فمنهم من يمر عليه كالبرق الخاطف ومنهم من يمر عليه كالجواد من الخيل. إلى آخره».

والدليل على نصب الميزان: قوله تعالى: ﴿وَنَعْبُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيُوزَنَ الْقِيَمَةُ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥] وأيضاً فإن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله هل تذكر أهلكم يوم القيامة؟ فقال لها: «أما عند مواطن ثلاثة فلا: الكتاب، والميزان، والصراط».

واعلم أن الموزون في الميزان هو صحائف الأعمال. وقيل في بعض الآثار: يشخص رجل يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فيعرض عليه تسعة وتسعون سجلاً مملوءة سيئات، فيقال له احضر وزنك، قيل: فيوضع في كفة قال: فيحار العبد، فيقال له: هل تعلم لك خبيثة أو حسنة؟ قال: فيدهش، فيقول: يا رب لا أعلم شيئاً. فيقول تعالى: بل لك عندي خبيثة، فيخرج له بقدر الإصبع، فيقول: ما تغني هذه في جنب هذه السجلات، فإذا فيها «لا إله إلا الله». اللهم ثبتنا عليها بحولك وقوتك.

والدليل على الحوض: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْطَقْنَاهُ الْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١] قيل في التفسير: هو الحوض. وأيضاً قوله ﷺ: «حوضي كما بين أئمة إلى مكة، له ميزابان من الجنة أكوابيه»^(١) كعدد نجوم السماء، شرابه أبيض من اللبن وأحلى من العسل، وأطيب رائحة من المسك، من كذب به اليوم لم يصبه الشرب يومئذ.

والدليل على ثبوت الشفاعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَفَعَّلُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] يدل على ثبوت الشفاعة لمن أراد سبحانه وتعالى، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَشْهُودًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] وأيضاً قوله ﷺ: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» وأيضاً: قوله ﷺ: «خيرت بين أن يدخل شطر أمتي [الجنة] وبين الشفاعة فاخترت الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفا، أئرونها للمؤمنين المتقين، لا، ولكنها للمؤمنين الخاطئين» وأيضاً: قوله ﷺ: «يقال للعابد يوم القيامة ادخل الجنة، ويقال للعالم قف أنت فاشفع لمن شئت».

والدليل على أن الجنة والنار مخلوقتان: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَرِشَهَا الْكَوْثَرَ ۝١٣٣﴾ [الكهف: ١٠٢] إلى غير ذلك من الآيات. وأيضاً: قوله ﷺ: «عرضت علي ليلة الإسراء الجنة والنار» إلى غير ذلك من الأخبار.

والدليل على تخليد النعيم لأهل الجنة والعذاب لأهل النار: قوله تعالى في أهل الجنة: ﴿حَالِيَيْنَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨] والآي في ذلك كثير، وأيضاً قوله ﷺ: «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش فيوقف بين الجنة والنار، فينظرون إليه فيقال لهم: هل تعرفون هذا؟ فيقولون نعم، هذا الموت، فيذبح، ثم ينادي مناد يا أهل الجنة: خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت».

والدليل على أنه لا يخلد في النار أحد من المؤمنين بذنب: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَكْفُرُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْطَعُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] وأيضاً: قوله ﷺ: «لا يبقى في النار من في قلبه ذرة من إيمان» فإن الكفار لا ينفعهم إحسان مع الكفر، ولا يخرجون من النار، وكذلك الموحد: لا

(١) جمع الجمع لأكواب، هكذا في بعض الروايات، وفي بعضها أكوابه. وفي بعضها: آتية (ز).

تضره سينة مع إثبات التوحيد، ولا يخلد في النار. قيل: وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول في دعائه: اللهم إني أطعك في أحب الأشياء إليك - وهو التوحيد، وقول لا إله إلا الله - ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك - وهو الشرك - فاغفر لي ما بين ذلك.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن الإيمان على ضربين: إيمان قديم، وإيمان محدث، فالقديم إيمان الحق سبحانه وتعالى؛ لأنه سُمي نفسه مؤمناً، فقال: ﴿أَتَلَّكُمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّئِينَ﴾ [الحشر: ٢٣] وإيمانه سبحانه وتعالى تصديقه لنفسه، لقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] وكذلك تصديقه لأنبيائه بكلامه، وكلامه قديم، صفة من صفات ذاته.

والإيمان المحدث: إيمان الخلق؛ لأن الله تعالى خلقه في قلوبهم، بدليل قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَنُرِيَنَّكَ اللَّهُ حَبَّ إِلَيْنِكَ الْإِيمَانَ وَرَزَنَةً فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] ولأن إيمان العبد صفة للعبد، وصفة المخلوق مخلوقة، كما أن صفة الخالق قديمة، أعني صفة ذاته، وأيضاً: فإن حد القديم هو: الذي لا حد لوجوده، ولا آخر لدوامه، وحد المحدث: ما لم يكن ثم كان، فكما لم يجز أن تكون صفة القديم محدثة، فكذلك لا تكون صفة المحدث قديمة، وكيف تكون صفة المحدث قديمة، وهي عرض لا يستقل إلا بحامل، ولا يمكن قيامها بنفسها، لأنه يستحيل وجود حركة من غير متحرك. وسكون من غير ساكن، وعلم من غير عالم. وسواد من غير أسود إلى غير ذلك من صفات المحدثين.

واعلم أن حقيقة الإيمان هو: التصديق. والدليل عليه قوله تعالى إخباراً عن إخوة يوسف عليه السلام: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي بمصدق لنا وأيضاً: أن الرسول عليه السلام لما أخبر عن كلام البقرة والذئب، فقال: «أنا أؤمن به وأبو بكر وعمر» يريد أصدق. أيضاً: قول أهل اللغة: فلان يؤمن بالبعث والجنة والنار، أي يصدق به. وفلان لا يؤمن بعذاب الآخرة، أي لا يصدق به.

واعلم: أن محل التصديق القلب، وهو: أن يصدق القلب بأن الله إله واحد، وأن الرسول حق، وأن جميع ما جاء به الرسول حق، وما يوجد من اللسان وهو الإقرار وما يوجد من الجوارح وهو العمل، فلإنما ذلك عبارة عما في القلب، ودليل

عليه. ويجوز أن يسمى إيماناً حقيقة على وجه، ومجازاً على وجه: ومعنى ذلك: أن العبد إذا صدق قلبه بما قلنا وأقر بلسانه، وعملت جوارحه فهو المؤمن الحقيقي عند الله وعندنا. وأما من كذب بقلبه وأقر بالوحدانية بلسانه وعمل الطاعات بجوارحه فهذا ليس بمؤمن حقيقة، وإنما هو مؤمن مجازاً، لأن ذلك يمنع دمه وماله في أحكام الدنيا، لأنه مؤمن من حيث الظاهر، وهو عند الله غير مؤمن.

والدليل على صحة ذلك: قوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتُنَفِّثُونَ قَالُوا تَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُتَنَفِّثِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المشافقون: ١] فأخبر سبحانه يكذبهم، ونحن نعلم وكل عاقل أنه ما كذب إقرار المستهم، وإنما كذب قلوبهم، حيث أبطنوا خلاف ما أظهروا، لأن الآخرس المصدق بقلبه إيمانه صحيح، وإن كان لا يقدر على النطق والإقرار بلسانه، وكذلك بالعكس من هذا، فإن المؤمن المصدق بقلبه مؤمن عند الله تعالى، وإن نطق بالكفر. يدل ذلك على صحة ذلك: قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦] فأخبر أن نطق اللسان بالإيمان لا ينفع مع إصرار القلب على الكفر، وإقرار اللسان بالكفر لا يضر مع تصديق القلب.

واعلم: أننا لا ننكر أن نطلق القول بأن الإيمان عقد بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان، وعلى ما جاء في الأثر^(١) لأنه ﷺ إنما أراد بذلك أن يخبر عن حقيقة الإيمان الذي ينفع في الدنيا والآخرة، لأن من أقر بلسانه، وصدق بقلبه، وعمل بأركانه حكمنا له بالإيمان وأحكامه في الدنيا من غير توقف ولا شرط، وحكمنا له أيضاً بالثواب في الآخرة وحسن المنقلب، من حيث شاهد الحال، وقطعنا له بذلك في الآخرة، بشرط أن يكون في معلوم الله تعالى أنه يحياه على ذلك، ويميته عليه. ولو أقر بلسانه، وعمل بأركانه، ولم يصدق بقلبه، نفقه ذلك في أحكام الدنيا ولم ينفعه في الآخرة، وقد بين ذلك ﷺ حيث قال: «يا معشر من آمن بلسانه ولما يدخل الإيمان في قلبه» وإذا تأملت هذا التحقيق وتدبرته وجدت بحمد الله تعالى. ومنه: أن الكتاب والسنة ليس فيهما اضطراب ولا اختلاف، وإنما الاضطراب، والاختلال، والاختلاف في فهم من سمع ذلك، وليس له فهم صحيح، نعوذ بالله من ذلك.

وكذلك أيضاً: لا ننكر أن نطلق أن الإيمان يزيد وينقص. كما جاء في الكتاب والسنة؛ لكن النقصان والزيادة يرجع في الإيمان إلى أحد أمرين: إما أن يكون ذلك

(١) لم يصح مرفوعاً، وفي صحيح مسلم الإيمان أن تؤمن بالله الحديث... (ز).

راجعاً إلى القول والعمل، دون التصديق؛ لأن ذلك يتصور فيهما مع بقاء الإيمان، فأما التصديق فمضى انخرم منه أدنى شيء بطل الإيمان. وبيان ذلك: أن المصدق بجميع ما جاء به الرسول عليه السلام إذا ترك صلاة أو صياماً أو زكاة أو قراءة في موضع تجب فيه القراءة، أو غير ذلك من الواجبات لا يوصف بالكفر بمجرد الترك مع كمال التصديق وثباته عليه. وبالعكس من ذلك لو فعل جميع الطاعات. وأقر بجميع الواجبات، وصديق بجميع ما جاء به الرسول إلا تحريم الخمر أو نكاح الأم، ولم يفعل واحداً منهما، فإنه يوصف بالكفر، وانسلخ من الإيمان، ولا ينفع جميع ذلك مع انخرام تصديقه في هذا الحكم الواحد، فيجوز نقص الإيمان وزيادته من طريق الأقوال والأفعال، ولا يجوز من طريق التصديق، وقد بين ذلك ﷺ بقوله: «لا يكمل إيمان العبد حتى يحب لأخيه المسلم الخير» وكذلك قوله «حتى يأمن جاره بوائقه» وأراد بذلك الكف عن الأذى، ولم يرد التصديق، لأنه لو استحل أذاه لم يكن له إيمان لا زائد ولا ناقص. فافهم ذلك.

والأمر الثاني: في جواز إطلاق الزيادة والنقصان على الإيمان، يتصور أيضاً أن يكون من **حديث** الحكم لا من حيث الصورة، فيكون ذلك أيضاً في الجميع من التصديق والإقرار والعمل، ويكون المراد بذلك في الزيادة والنقصان راجعاً إلى الجزاء والثواب، والمدح والثناء، دون نقص وزيادة في تصديق، من حيث الصورة. وقد دل على ذلك الكتاب والسنة.

أما الكتاب: فقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي يَنْكُرَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لُكُلَيْهِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠] ولم يرد أن تصديق من آمن قبل الفتح يزيد على تصديق من آمن بعد الفتح؛ لأن كل واحد منهما من حيث الصورة مصدق بجميع ما جاء به الرسول عليه السلام، لكن تصديق أولئك أكمل في الحكم والثواب، والدرجة، لأن هذا يصدق بشيء لا يصدق به الآخر.

وأما السنة: فقوله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» ومعلوم أن إنفاق مثل أحد ذهباً ما أنفق أحد من الصحابة، لكن إيمانهم ونفقتهم في الحكم والثواب، والجزاء، والدرجة أزيد وأكمل من نفقة غيرهم، [فهو] وإن كانت في الصورة أكثر، لكنها أنقص من حيث الحكم، لا من حيث العين، فاعلم حكم ذلك وتحققه، ووازن هذا من أفعالنا اليوم، وأنها تنصف بالزيادة من حيث الحكم دون العين. أن من صلى صلاة الظهر في بلد من البلاد غير

مكة والمدينة، وأتى بجميع شرائطها، وآخر صلى بمكة والمدينة على الوجه الذي صلى عليه الآخر، لا يقال: إن أحد الصلاتين أزيد من الأخرى من طريق الصورة والعين، ولكن أحدهما أزيد من طريق الحكم؛ في تحصيل الفضل والثواب، ولهذا نظائر يطول تعدادها، وقد تكون الزيادة بكثرة دلائل التصديق لا في التصديق.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن كل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيماناً، لأن معنى الإسلام الانقياد، ومعنى الإيمان التصديق، ويستحيل أن يكون مصدق غير منقاد، ولا يستحيل أن يكون منقاد غير مصدق؛ وهذا كما يقال: كل نبي صالح، وليس كل صالح نبياً.

ويدل على صحة هذه الجملة قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] فنفي عنهم الإيمان وأثبت أن ذلك منهم إسلام لا إيمان. وأيضاً: قوله تعالى: ﴿يَسْتَوُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَسْتَوُونَ عَلَىٰ إِمْلَائِكُمْ بَلَىٰ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُمُ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] فغاير بين الإسلام والإيمان.

ويدل على صحة هذا القول أيضاً أن الرسول عليه السلام فرق هو وجبريل بين الإسلام والإيمان حين سأله، فقال له ما الإيمان؟ فقال له ﷺ: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره» فقال جبريل عليه السلام: صدقت. والمراد بجميع ذلك أن: تصدق بالله ورسوله، إلى آخر ما ذكر، ثم قال له: فما الإسلام؟ فقال: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم شهر رمضان وتحج البيت وتغتسل من الجنابة» وهذا واضح في كونهما غيرين، وأن محل الإيمان القلب، وهو التصديق، ومحل الإسلام الجوارح، وهذا الحديث يقوي لك جميع ما ذكرت لك. وأن التصديق متى اختل منه شيء انخرم الإيمان، والقول والعمل يزيد وينقص، ولا ينخرم الإيمان مع التصديق بجميع ما جاء به الرسل عليهم السلام، فعلى ما قررت لك لا يجوز أن نطلق. فنقول: إيمان أحدنا كإيمان جبريل، ولا كإيمان محمد ﷺ، ولا كإيمان الصديق رضي الله عنه^(١)، بل نمنع من ذلك، ونريد به أن إيمان هؤلاء أفضل وأكمل

(١) ومن يجعلهم سواسية في الإيمان، يريد تساويهم في الاعتقاد الجازم لفظ (ز).

وأرفع، من طريق الحكم الذي بينت لك، ومن طريق آخر، وهو أنه قد بان لهؤلاء من دلائل الرحدانية أكثر مما بان لنا، فلا نطلق التسوية بين إيمانهم وإيماننا، ولا نريد بذلك أنا نصدق بعض ما جاء به الرسل عليهم السلام والصديق يصدق بالجميع، بل لا يصح لأحد إيمان حتى يصدق بالجميع، لكن إيمان الصديق أكمل وأفضل من الوجوه التي بينت لك.

مسألة

ويجب أن يعلم: أنه لا يجوز أن يقول العبد «أنا مؤمن حقاً» ويعني به في الحال، ويجوز أن يقول «أنا مؤمن إن شاء الله» ويعني به في المستقبل. فاما في الماضي وفي الحال فلا يجوز أن يقول «إن شاء الله» لأن ذلك يكون شكاً في الإيمان، ولأن الاستثناء إنما يصح في المستقبل، ولا يصح في الماضي، وقد بين ذلك سبحانه وتعالى في قوله لرسوله ﷺ: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايئٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] وكذلك قال ﷺ: «إنا غداً إن شاء الله نازلون بخفيف بني كنانة» ولأن المشيئة لله تعالى سابقة لكل موجود، فلولا المشيئة لما وجد الموجود، فكما لا يجوز أن يستثنى في الحال فلا يجوز أن يقطع في المستقبل. فاعلم ذلك وتحققه.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن الاسم هو المسمى بعينه وذاته، والتسمية الدالة عليه تسمى اسماً على سبيل المجاز.

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿تَزَيَّجْنَاكُمْ وَلَكِنَّهُ﴾ [الزحزن: ٧٨] ومعناه: تبارك ربك، وأيضاً قوله تعالى: ﴿سَبَّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١] ولا يشك عاقل أن المبح هو الله تعالى، لا قول من يقول التسبيح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَبَّحْتُمُوهَا أُنْثَرُ وَهَلْ تَأْكُلُهَا أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ سَمَانٍ مَاءً لَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ سَمَانٍ مَاءً لَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ سَمَانٍ مَاءً لَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ سَمَانٍ مَاءً لَكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [يوسف: ٤٠] وقد علمنا أنهم ما كانوا يعبدون الأقوال والتسميات، وإنما كانوا يعبدون الأصنام. فاما قوله تعالى: ﴿وَرَبُّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة»، فالعدد في ذلك راجع إلى التسميات التي هي عبارات الاسم، فالتسمية تدل على الذات حسب دلالة الكتابة على المكتوب، فمن لا يميز

بين الاسم والتسمية وبين الكتابة والمكتوب وما جرى هذا المجرى فلا يحل الله له أن يفتي في دين الله تعالى، نعوذ بالله من الجهل بالله تعالى وصفاته.

مسألة

ويجب أن يعلم: أنه يجوز لله تعالى إرسال الرسل وبعث الأنبياء، خلافاً لما تدعيه البراهمة.

والدليل عليه أيضاً: أنه مالك الملك يفعل ما يشاء، مع ما سبق من أنه ليس في إرسال الرسل استحالة، ولا خروج عن حقائق العقول، فدل على جواز ذلك.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن صدق مدعي النبوة لم يثبت بمجرد دعواه، وإنما يثبت بالمعجزات، وهي أفعال الله تعالى الخارقة للعادة المطابقة لدعوى الأنبياء، وتحديدهم للامم بالإتيان بمثل ذلك.

يبين لك ذلك: أن موسى عليه السلام جاء في زمان سحرة وسحر، فتحداهم بقلب العصا حية، فعلم المحققون منهم في السحر، أن ذلك خارج عن قبيل السحر؛ لعجزهم عن ذلك، وخرقه لعادة السحر، فسارعوا إلى الإيمان، وهذا يدل على فضل العلم من أي نوع كان: فإنه أول من سارع إلى الإيمان السحرة، لعلمهم بالسحر، فكان في علمهم ذلك - وإن كان باطلاً - فضل كبير على غيرهم من قومهم ممن لا يعلم السحر.

وكذلك عيسى عليه السلام: جاء في زمان قوم طب ومداواة، فأحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، فأتى بما هو خارج عن قبيل الطب. خارقاً للعادة فيه، لا يقدر عليه مخلوق.

وكذلك: نبينا ﷺ، جاء في وقت فصاحة وشعر وخطب ونظم ونثر، فأناهم بما هو خارج عن عاداتهم في النظم والنثر، وهو أفصح وأجزل وأوجز، وتحداهم بالإتيان بمثله، فوجدوا ذلك خارجاً عن نظمهم ونثرهم وخارقاً لعاداتهم، فعجزوا عنه فسارع من هداه الله إلى الإيمان به، والله الحمد والمآة، على الهداية والتوفيق.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن نبينا محمداً ﷺ مبعوث إلى كافة الخلق، وأن شرعه لا ينسخ، بل هو ناسخ لجميع من خالفه من الملل.

والدليل على ذلك: ثبوت نبوته، وصدق مقاله، وقد أخبر بجميع ذلك.

واعلم أن أكبر معجزاته القرآن العربي، وفيه وجوه من الإعجاز:

أحدهما: ما اختص به من الجزالة، والنظم والفصاحة الخارجة عن أساليب الكلام، وتحدى به فصحاء العرب بأن يأتوا بسورة من مثله فمعجزوا عن الإتيان بمثله، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، ولم يأت لهم ذلك في مدة ثلاث وعشرين سنة.

ومن وجوه الإعجاز في القرآن: اشتماله على قصص الأولين، وما كان من أخبار الماضين، مع القطع بأنه ﷺ كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ، ولم يعهد منه ﷺ في جميع زمانه تعاطي لدراسة كتب ولا تعلمها، وقد نفى عنه سبحانه وتعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ رِسَالَتٌ إِنْ أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ﴾ [التكوير: ٤٨].

ومن وجوه الإعجاز: [أن] اشتمال القرآن على [ما لا يحصى من] علم غيوب متعلقة بالمستقبل ظاهر جلي، مثل قوله تعالى: ﴿وَالْقُرْآنُ يُنْزِلُكَ فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وقوله تعالى: ﴿تَنْتَظُنُّ أَنَّكَ أَمْسَجُ الْحَرَامِ﴾ [الفتح: ٢٧] ومثل قوله: ﴿كَذَّبَ اللَّهُ لَأَعْلَىٰ﴾ [آنا ورسوله] [المجادلة: ٢١] إلى غير ذلك، من وجوه الإعجاز في القرآن كثير جداً.

وله ﷺ آيات ومعجزات سوى القرآن: كانشقاق القمر، واستئصال المطر، وإزالة الضرر من الأمراض، ونبع الماء من بين أصابعه، وتسبيح الحصى في يده، ونطق البهائم، إلى غير ذلك من المعجزات والآيات الخارقة للعادة - ﷺ - رزقنا الله شفاعة، وحشرنا في زمرة.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن نبوات الأنبياء صلوات الله عليهم لا تبطل، ولا تنخرم، بخروجهم عن الدنيا وانتقالهم إلى دار الآخرة، بل حكمهم في حال خروجهم من الدنيا كحكمهم في حالة نومهم، وحالة اشتغالهم، إما بأكل أو شرب، أو قضاء وطر. والدليل عليه: أن حقيقة النبوة: لو كانت ثابتة لهم في حالة اشتغالهم بأداء الرسالة دون غيرها من الحالات، لكانوا في غيرها من الأحوال غير موصوفين بذلك.

وقد غلط من نسب [إلى مذهب] المحققين من الموحدين إبطال نبوة الأنبياء عليهم السلام بخروجهم من دار الدنيا. وليس ذلك بصحيح، لأن مذهب المحققين: أن الرسول ما استحق شرف الرسالة بتأدية الرسالة، وإنما صار رسولاً واستحق شرف الرسالة والنبوة بقول مرسله: وهو الله تعالى: أنت رسولي ونبيي. وقول الله تعالى قديم لا يزول ولا يتغير.

والدليل على صحة هذا أيضاً: أنه ﷺ سئل، فقيل له: متى كنت نبياً؟ فقال: «كنت نبياً وأدم بين الماء والعطين» فحاصل الجواب في هذا: أن شرف النبوة وكمال المنصب ثابت للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين الآن، حسب ما كان ثابتاً لهم في حال الحياة، لم ينلهم ولم ينتقص، سواء نسخت شرائعهم أو لم تنسخ، ومن راجع نفسه ولم يغالط حسه عرف وتحقق أن النبي ﷺ الآن لم يخاطب شفاهاً، ولا يأمرهم ولا يكلمهم من غير واسطة، لكن حكم شريعته وصحة نبوته ثابت لم ينتقص، لأجل خروجه من الدنيا، ولم تزل مرتبته، ولا انخرمت رسالته، ولا بطلت معجزته فاعلم ذلك وتحققه.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن إمام المسلمين وأمير المؤمنين ومقدم خلق الله أجمعين، من الأنصار والمهاجرين، بعد الأنبياء والمرسلين: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لقوله تعالى: ﴿كَانَ أَشَقُّ إِذْ هُمَا فِي الْكَافِرِ﴾ [الثوبة: ٤٠] ولا أفضل من اثنين ثالثهما الله تعالى لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ يَمِينِهِ فَوَيْلٌ لِلَّهِ يَفْقَهُ جُنُودَهُمْ وَيُجِيرُهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤] وهو الصديق وأصحابه، لما قاتل أهل الردة، ولقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَلَّى بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣] قبل في أصح التفاسير: الذي جاء بالصدق محمد ﷺ، وصدق أبو بكر الصديق؛ يؤكد صحة هذا التفسير قوله ﷺ: «قال الناس لي كذبت، وقال أبو بكر صدقت» ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي يَنْكُرُ مَنْ أَفْكَرَ مِنْ قِيلِ الْفَسَحِ وَقَتْلُ أَوْلِيكَ أَكْظَمُ ذَرْبَةً مِنَ الَّذِينَ أَتَقَفُوا مِنْ بَعْدِ وَقَعْتُوا وَكَأَنَّ وَعَدَ اللَّهِ أَلْسِنَةً وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠] والصديق رضي الله عنه أول من أنفق على رسول الله ﷺ، يؤكد هذا قوله ﷺ: «إن آمن الناس علي في نفس ومال أبو بكر الصديق، ما نفعتني مال ما نفعتني مال أبي بكر».

ويدل عليه قوله ﷺ لأبي الدرداء «أتمشي أمام من هو خير منك، والله ما طلعت الشمس ولا غربت على رجل بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر،

وليس في السماء ولا في الأرض بعد النبيين أو المرسلين خير من أبي بكر. وكان رضي الله عنه مفروض الطاعة، لإجماع المسلمين على طاعته وإمامته، وانقيادهم له، حتى قال أمير المؤمنين علي عليه السلام مجيباً لقوله رضي الله عنه لما قال: أقيوني، فليست بخيركم. فقال: لا نقيلك ولا نستقيلك، قدمك رسول الله ﷺ لدينا ألا نرضاك لدنيانا. يعني بذلك حين قدمه للإمامة في الصلاة مع حضوره، واستنابته في إمارة الحج فأمرك علينا. وكان رضي الله عنه أفضل الأمة، وأرجحهم إيماناً، وأكملهم فهماً، وأوفرهم علماً، وأكثرهم حِلماً، وبه نطق قوله ﷺ: «ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح إيمان أبي بكر على إيمان أهل الأرض».

ثم من بعده على هذا أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، لاستخلافه إياه، وقد ورد في فضائله رضي الله عنه من الأحاديث ما لا يحصى، ومن جملة ذلك: قوله ﷺ: «لو كان بعدي نبي لكان عمر، إن الله ربط الحق بلسان عمر وقلبه» وأيضاً: قوله ﷺ: «كادت أنفاس عمر تسبق الوحي» لأنه كلمه في أسارى بدر، وأن تضرب أعناقهم، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ لَتَنِي أَنْ يَكُونَ لَكَ شَرٌّ حَتَّى يُخَوِّتَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدِّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ١٧﴾ [الأنفال: ٦٧] فقال: «لو نزل من السماء عذاب ما نجا منه إلا عمر» حين نزل قوله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَكُنْكُمْ فَمَا آخَذْتُمْ مَذَابٌ عَظِيمٌ ٦٨﴾ [الأنفال: ٦٨] وقال: لو حجبت نساءك فإنه يدخل عليك البر والفاجر، فنزلت آية الحجاب وقال: ﴿مَتَى زَيْدٌ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ [التخريم: ٥] فنزلت الآية في ذلك، وفضله أكثر من أن يحصى.

وبعده: أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، لإجماع المسلمين أنه من جملة الستة الذين نص عمر عليهم. وقد قال ﷺ: «إن عثمان أخي ورفيقي في الجنة» وقال ﷺ: «لو كان لنا ثلاثة زوجناكها يا عثمان» وقال ﷺ: «دعوت الله تعالى أن يرفع الحساب عن عثمان ففعل» وقال ﷺ: «من يزيده في المسجد أضمن له الجنة؟» فزاد فيه عثمان وقال: «من يشتري رومة أضمن له الجنة» فاشترها عثمان وجعلها للمسلمين. وقال: «من يجهز جيش العسرة فله الجنة» فجهزه عثمان: تسعمائة وخمسين بغيراً، وأتمها ألفاً بخمسين فرساً.

وبعده أمير المؤمنين: علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه، وقد ورد عن النبي ﷺ في فضائله أحاديث كثيرة منها: قوله ﷺ: «اللهم أدر الحق مع علي حيث ما دار» وقال ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» وقال ﷺ: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فأعطاهما لعلي عليه السلام.

مسألة

والدليل على إثبات الإمامة للخلفاء الأربعة رضي الله عنهم على الترتيب الذي بيناه: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا أعلام الدين، ومصايح أهل اليقين، شاهدوا التنزيل، وعرفوا التأويل، وشهد لهم النبي ﷺ بأنهم خير القرون، فقال: «خير القرون قرني» فلما قدموا هؤلاء الأربعة على غيرهم ورتبهم على الترتيب المذكور، علمنا أنهم رضي الله عنهم لم يقدموا أحداً تشهياً منهم، وإنما قدموا من قدموه لاعتقادهم كونه أفضل وأصلح للإمامة من غيره في وقت توليه.

قال الشريف الأجل الإمام جمال الإسلام: ووقع لي أنا دليل من نص الكتاب في ترتيبهم على هذه الرتبة: أنه لا يجوز أن يكون غير ذلك [هو] قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيَسَكُنَنَّ لَكُمْ يَلُوكَ الْأَرْضَ كُلَّهَا بَعْدَ زُكُوفِ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَلَيَرَوَنَّ مِنَ الْخَيْرِ مَا لَمْ يَرَوْا بَلَيَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ لَا تَمْلِكُ مِنْهُ الشَّيَاطِينُ وَلَا النَّاسُ شَيْئاً وَلَهُ الْعِزَّةُ يَوْمَ الْإِقَامِ﴾ [التور: ٥٥] ووعده حق، وخبره صدق، لا يقع بخلاف مخبره، فلا بد من أن يتم ما وعدهم به، وأخبر أن يكون لهم، ولا يصح إلا على هذا الترتيب: لأنه لو قدم علي عليه السلام لم تصر الخلافة فيها إلى أحد من الثلاثة، لأن علياً عليه السلام مات بعد الثلاثة. وكذلك لو قدم عثمان رضي الله عنه لم تصر الخلافة إلى أبي بكر وعمر، لأن عثمان مات بعد موتهما، ولو قدم عمر لم تصر الخلافة إلى أبي بكر لأن عمر مات بعده، والله تعالى أخبر ووعده أنها تصير إليهم فلم يصح أن تقع إلا على الوجه الذي وقعت. والله الحمد على الهداية والتوفيق.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن ما جرى بين أصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم من المشاجرة نكف عنه، وترحم على الجميع، ونشني عليهم، ونسأل الله تعالى لهم الرضوان، والأمان، والفوز، والجنان. ونعتقد أن علياً عليه السلام أصاب فيما فعل وله أجران. وأن الصحابة رضي الله عنهم إنما صدر منهم ما كان باجتهاد فلهم الأجر، ولا يفتقون ولا يذعنون.

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [الفائدة: ١١٩] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُوكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ

قَالَزَلَّ السَّكِينَةُ عَلَيْهِمْ وَأَنبَتَهُمْ فَتَمَّ قَرِيبًا ﴿١٨﴾ [الفُتْح: ١٨] وقوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر» فإذا كان الحاكم في وقتنا له أجران [على] اجتهاده فما ظنك باجتهد من رضي الله عنهم ورضوا عنه.

ويدل على صحة هذا القول: قوله ﷺ للحسن عليه السلام: «إن ابني سيد وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين» فأنبت العظم لكل واحدة من الطائفتين، وحكم لهم بصحة الإسلام. وأيضاً قوله ﷺ: «يكون بين أصحابي هنأت ونزغات يكفرها الله تعالى لهم ويشقى فيها من شقي». وقد وعد الله هؤلاء القوم بنزع الغل من صدورهم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِن غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّقْنَصِينَ﴾ ﴿١٧﴾ [الحجر: ٤٧].

مسألة

ويجب أن يعلم أن خير الأمة أصحاب رسول الله ﷺ، وأفضل الصحابة العشرة الخلفاء الراشدون الأربعة رضي الله عن الجميع وأرضاهم، ونقر بفضل أهل بيت رسول الله ﷺ، وكذلك نعترف بفضل أزواجه رضي الله عنهم، وأنهن أمهات المؤمنين، كما وصفهن الله تعالى ورسوله، ونقول في الجميع: خيراً، ونبدع، ونضلل، ونفتق من طعن فيهن أو في واحدة منهن، لنصوص الكتاب والسنة في فضلهم ومدحهم والثناء عليهم، فمن ذكر خلاف ذلك كان فاسقاً مخالفاً للكتاب والسنة نعوذ بالله من ذلك.

مسألة

ويجب الكف عن ذكر ما شجر بينهم، والسكوت عنه، لقوله ﷺ: «إياكم وما شجر بين أصحابي» وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قيل له: ما تقول فيما شجر بين الصدر الأول؟ فقال: أقول كما قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ لَنَا وَلَاخْرَتَنَا أَلَيْتَ سَبْقُونَا بِالْإِسْمِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] وسئل عن ذلك جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقال: أقول ما قال الله: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]. وسئل بعضهم عن ذلك فقال: ﴿يَلَاكُ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلَوْنَ عَنْهَا كَأَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ﴾ ﴿١٣٤﴾ [البقرة: ١٣٤]. وسئل عمر بن عبد العزيز عن ذلك فقال: «تلك دماء طهر الله يدي منها أفلا أظهر منها لساني؟ مثل أصحاب رسول الله ﷺ مثل العيون ودواء العيون ترك مسها».

مسألة

ويجب أن يعلم: أن الإمامة لا تصلح إلا لمن تجتمع فيه شرائط.

منها: أن يكون قرشياً؛ لقوله عليه السلام: «الأئمة من قریش».

والثاني: أن يكون مجتهداً من أهل الفتوى؛ لأن القاضي الذي يكون من قبله يفتر إلى ذلك، فالإمام أولى.

والثالث: أن يكون ذا نجدة وكفاية وتهدي لسياسة الأمور، ويكون حراً ورعاً في دينه. وهذه الشرائط كانت موجودة في خلفاء رسول الله ﷺ. وقال عليه السلام: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تصير ملكاً» وكانت أيام الخلفاء الأربعة هذا القدر، وفقنا الله للصواب، وعصمنا من الخطأ والزلل بمنه ورحمته.



فصل

اعلموا رحمنا الله وإياكم: أن أهل البدع والضلال من الخوارج، والروافض والمعتزلة قد اجتهدوا أن يدخلوا على أهل السنة والجماعة شيئاً من بدعهم وضلالهم فلم يقدروا على ذلك، لذبح أهل العلم ودفع الباطل، حتى ظفروا بقوم في آخر الوقت ممن تصدى للعلم ولا علم له ولا فهم، ويستنكف وينكبر أن يفهم وأن يتعلم؛ لأنه قد صار متصديراً معلماً بزعمه، فيرى بجهله أن عليه في ذلك عاراً وغضاضة، وكان ذلك منه سبباً إلى ضلاله وضلال جماعته من الأمة.

واعلم: أن أخبث من ذكرنا من المبتدعة، وأكثرهم شياً وأعظمهم استجلاباً لقلوب العوام: المعتزلة، فجعلوا يتطلبون أن يضلوا من ذكرنا في مسألة القدر، فلم يقدروا، وكذلك في مسألة الرؤية، فلم يقدروا، وكذلك في مسألة الشفاعة والصراط والميزان، وعذاب القبر، وجميع ما أنكروه مما صحت فيه الآثار فلم يقدروا عليهم في شيء من ذلك، ولم يظفروا به، فجاؤوا إلى مسألة القرآن وعقدتهم فيه أنه مخلوق محدث موصوف بصفات المخلوقين، فما قدروا أن يصرحوا بكونه مخلوقاً، فما زالوا يحسنوا لهم أموراً حتى قالوا: بأن القرآن يتصف بصفات الخلق، وذلك أكبر عمدة لهم في كونه مخلوقاً، فرضوا منهم بأن يقولوا بخلق القرآن معنى وإن لم يصرحوا به نطقاً. وكان أكبر غرض هؤلاء الجهلة ممن يتصدى للعلم وليس من أهل ذلك، أن ينفروا العوام من أهل التحقيق والذين يعرفون مغزاهم في ذلك، حتى لا يسمع

كلامهم ولا يتعلم منهم حتى ينقرضوا شيئاً فشيئاً ويتم لهم ما أرادوا في الجهال والعوام.

وأنا بحمد الله وعونه وحسن توفيقه أبين لك ذلك مسألة مسألة، وأذكر لك شبههم في كل مسألة، وهي أربع مسائل: مسألة القرآن وهي أهمها: (والثانية) مسألة القدر والجرح والتعديل (والثالثة) مسألة الرؤية (والرابعة) مسألة الشفاعة.

مسألة

اعلم: أن الله تعالى متكلم، له كلام عند أهل السنة والجماعة، وأن كلامه قديم وليس بمخلوق، ولا مجعول، ولا محدث، بل كلامه قديم صفة من صفات ذاته، كعلمه وقدرته وإرادته ونحو ذلك من صفات الذات. ولا يجوز أن يقال كلام الله عبارة ولا حكاية، ولا يوصف بشيء من صفات الخلق، ولا يجوز أن يقول أحد لفظي بالقرآن مخلوق، ولا غير مخلوق، ولا أنني أتكلم بكلام الله، هذه جملة أنا أفضلها واحداً واحداً إن شاء الله تعالى.

مسألة

فأما الدليل على كون كلام الله قديماً غير مخلوق، فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَلْحِقُ﴾ [الأعراف: ٥٤] فصل بين الخلق والأمر، فدل على أن الأمر غير مخلوق لأن كلامه أمر ونهي وخبر. وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤] ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التحل: ٤٠] ولو أن كلامه مخلوق لاحتاج في خلقه إلى قول يقول به «كن» واحتاج القول إلى قول ثالث، والثالث إلى رابع، إلى ما لا نهاية له، وهذا محال باطل، فثبت أن القول الذي تكون به الأشياء المخلوقة غير مخلوق، وهو كلامه القديم.

ويدل عليه من السنة: قوله ﷺ: «فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه». فلما كان فضل الله على خلقه بقدمه ودوامه؛ لأنه غير مخلوق وهم مخلوقون، فكذلك القول في كلامه، فوجب أن يكون غير مخلوق، وكلامهم مخلوقاً.

ويدل عليه أيضاً: أن أبا الدرداء لما سأل رسول الله ﷺ عن القرآن فقال: «كلام الله غير مخلوق».

يدل عليه أيضاً: إجماع الصحابة، وهو أن علياً عليه السلام لما أنكر عليه التحكم وكفر الخوارج فقال بحضرة الصحابة: والله ما حكمت مخلوقاً، وإنما حكمت القرآن. ولم ينكر ذلك منكراً، فدل على أنه إجماع، ولأنه لو كان مخلوقاً: لم يخل أن يكون خلقه في نفسه أو في غيره أو في غير شيء، ولا يجوز أن يكون مخلوقاً في نفسه لأن ذاته لا تقوم بها المخلوقات والحوادث يتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

ولا يجوز أن يكون خلقه في غيره، لأنه لو كان خلقه في غيره لكان ذلك الغير إلهاً، أمراً، ناهياً قائلاً: ﴿يَتَوَخَّاهُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [التهمل: ٩] وهذا محال باطل، ولا يجوز أن يكون خلقه في غير شيء، لأنه يؤدي إلى وجود كلام من غير متكلم وهذا محال. فإذا ثبت بطلان هذه الثلاثة الأقسام لم يبق إلا أنه مخلوق، بل هو صفة من صفات ذاته، قديم بقدمه، موجود بوجوده، موصوف به، فيما لم يزل وفيما لا يزال. ولا يجوز أن يباينه، ولا يزايله، ولا يحل في مخلوق، ولا يتصف بالحوال رأساً، فاعلم ذلك وتحققه.

فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزهد: ١٦] وربما قرر عليك هذا السؤال والدليل، كما قرره بشر المريسي على عبد العزيز المكي وهو: أنه قال له: أتقول إن القرآن شيء أو ليس بشيء؟ فقال: بل هو شيء فقال: يا أمير المؤمنين سلم أن القرآن مخلوق، لأن الله تعالى قال: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزهد: ١٦].

والجواب أن يقال: في أول [الأمر أي] شيء أردت بقولك إنه شيء [فإن أردت] أنه موجود ثابت فنعم، وإن أردت بقولك إنه شيء كالأشياء من حيث خروجه من العدم إلى الوجود كالأشياء الموجودة بعد العدم فلا نقول ذلك.

والموجود الثابت لا يدل على أنه مخلوق محدث، فإن الله موجود ثابت دائم الوجود ليس بمخلوق. وأما الجواب على جملة ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فالمراد به الخصوص دون العموم فإنه^(١) بعضه [قطعاً] وأنه [غير] داخل في ذلك كما سمي نفسه، فقال: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢] ثم قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ولا تدخل نفسه في ذلك، وإنما المراد به كل نفس منقوسة مخلوقة كذلك قوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزهد: ١٦] يعني مما يصح فيه الخلق والحدث، وصفات ذاته قديمة بقدمه وموجودة بوجوده، فلم تدخل في ذلك. ومثل هذا في

(١) أي فإن المراد بعض الشيء (ز).

القرآن كثير، فإن الله تعالى قال فيما أخبر به عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿يَكَايُنَا الْإِنْسُ عَلَيْنَا مَطِيقُ الْعَذَابِ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ١٦] ولم يؤتيا سماء ولا أرضاً، ولا شمساً ولا قمرأً ولا جنة، ولا ناراً، ولا ملائكة، ولا عرشاً، ولا غير ذلك، وإنما أراد أوتينا من كل شيء ينبغي لمثلنا. وكذلك قوله في قصة بلقيس: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ومعلوم أنها لم تؤت النبوة، ولا تسخير طير، إلى غير ذلك؛ إنما أراد به الخصوص دون العموم، لأنها ما دمرت هوداً، ولا السماء، ولا الملائكة، ولا الجبال، إلى غير ذلك.

قال الشريف الأجل جمال الإسلام: ووقع لي جواب أخصر من هذا وأجود إن شاء الله وهو: أن يقول: الآية حجة عليكم، وأن القرآن ليس بمخلوق، وذلك أنه سبحانه وتعالى أفرد الخالق من المخلوق، فسوى نفسه خالقاً، وسوى كل شيء دونه مخلوقاً، فالخالق بجميع صفات الذات، غير مخلوق، لأن الاسم هو المسمى، على ما قررنا، وهذا صحيح، لأن الخالق هو الله العالم، القادر، المريد، المتكلم، وكلامه هو القرآن، فدل على أنه غير مخلوق، ولا داخل في الأشياء المخلوقة، والذي يفهم من ذلك؛ فإن كل عاقل يعلم أنه يصنع كل شيء غير ذاته بصفاتها من قدرته، وحياته، وعلمه، وكلامه. وكذلك إذا قيل [آخذ] الملك اليوم كل أحد، وصغر كل صفة وحقرها ومعلوم [أن ذاته ما دخلت] في المفعولين ولا دخلت صفاته في التحقير والتصغير فكذلك قوله: ﴿أَلَمْ يَخْلُقْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] يعني غير ذاته، وذاته قديمة غير مخلوقة بجميع صفاتها، فصح أن الآية حجة عليهم لا لهم.

فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْكَمٍ﴾ [الأنبياء: ٢] فوصفه بالحدث والحدث هو الخلق. الجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن الآية حجة عليهم، لأنها تدل على أن من الذكر ما ليس بمحدث، لأنه لم يقل ما يأتهم من ذكر إلا كان محدثاً. ثبت أن من الذكر ما هو قديم ليس بمحدث، فيجب أن يكون القرآن؛ لأن الإجماع قد وقع على أن كل ذكر غيره مخلوق، فلم يبق ذكر غير مخلوق. غير كلامه، سبحانه وتعالى.

الجواب الثاني: أن الذكر هاهنا يراد به وعظ الرسول ﷺ لهم وتوعده لهم وتخويفه، لأن وعظ الرسل عليهم السلام يسمى ذكراً. يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] ويقال: فلان في مجلس الذكر، يعني في مجلس الوعظ. الذي يحقق ذلك؛ أن قريشاً لم تلعب عند سماع القرآن، ولكنها

كانت تفحم عند سماعه، حتى قال عتبة: والله لقد سمعت كلاماً ما هو بالشعر، وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمشمر، وإن عليه لطلاوة، وإن له لحلاوة. وفزعوا أيضاً أن تفتن عند سماعه نساؤهم وأولادهم، حين كان يقرأ أبو بكر رضي الله عنه.

الجواب الثالث: أنه أراد ما يأتيهم من نهي محدث مجدد بعد نبي إلا استمعوه وهم يلعبون، هل هذا إلا بشر، وقد سمي الله تعالى رسوله ذكراً بقوله: ﴿رَسُولًا بَيِّنًا لَّكَ آيَاتِ اللَّهِ يُخْرِجُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَمْحُوَالِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْكُفْرِ وَمَنْ يَزِدَّهُمْ اللَّهُ شَيْئًا فَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ اللَّهُ شَيْئًا فَذَرْهُمْ حَتَّى يَفْعَلَهُمْ مَا يَشَاءُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَهُ عِلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [الطلاق: ١١].

فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧] ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُونًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] فالجواب: أنه تعالى أراد عقابه وانتقامه من الكافرين ونصره للمؤمنين، وما حكم به وقدره من أفعاله، وهذا بمنزلة قوله: ﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَ أَثَرُهَا﴾ [هود: ٤٠] يعني ما أمرنا به من زيادة الماء وإغراق الكافرين من قوم نوح عليه السلام، ولم يعن (قولنا) وكذلك أيضاً قال: ﴿وَمَا أَمْرٌ إِلَّا بِرِيشٍ﴾ [هود: ٩٧] يعني شأنه وأفعاله وطرائقه، ولم يرد (قوله) وهذا بمنزلة قول الغائل:

فقلت لها أمري إلى الله كله وإنني إليه في الإياب لراجع

يعني سري وأفعالي، ولم يرد بذلك الأمر من القول، وجمع هذا أمور، وجمع الأمر من القول والأمر، ولولا عجزهم وجهلهم لم يلجئوا إلى مثل هذا التلميح على العوام والجهال مثلهم. ولو نظروا إلى قوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ أَمْرٌ إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤] تعالى أنه أراد أفعالي وأموري، دون أمره الذي هو قوله: ﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] ورجعوا إليه.

فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] والمجموع مخلوق، بدليل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] أي خلقنا؛ فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن معنى ذلك: إنما سميناه قرآناً عربياً، والجعل يكون بمعنى التسمية، بدليل قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ جَاءُوا الْفُرْقَانِ عِزِينَ﴾ [الحجر: ٩١] يعني سموه؛ فبعضهم سماه شعراً، وبعضهم سحراً، وبعضهم كهانة، إلى غير ذلك. ولم يرد أنهم خلقوه. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَلْسِنَهُمُ اللَّيْلَ هُمْ يَتَدَارَكُنِ إِنْتِ أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَكَنَهُمْ وَنَسَّوْهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩] يعني سموهم وحكموا عليهم

بذلك، ولم يرد أنهم خلقوهم. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا يَهُ أَندَادًا﴾ [إبراهيم: ٢٠] يعني سماء. وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيِّنَةٍ وَلَا سَلْبَةٍ وَلَا مِثْلٍ وَلَا حَافٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتَدُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذِبُهُمْ لَا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣] وفي القرآن مثل هذا كثير.

الجواب الثاني: أنه أراد: إنا جعلنا قراءته وتلاوته بلسان العرب، وأفهمنا أحكامه. والمراد به باللسان العربي، وتكون الفائدة في ذلك الفرق بينه وبين التوراة والإنجيل، لأنه جعل تلاوة الكتابين المذكورين وإفهام أحكامهما باللسان العبراني والسرياني، وجعل تلاوة هذا الكتاب وإفهام أحكامه والمراد به بلسان العرب، ولو عرفوا الفرق بين التلاوة والمثل لم يمهوا بمثل هذا التمهيه.

والجواب الثالث: أن الجعل إذا عُدي إلى مفعول واحد كان ظاهره الخلق، وإذا عُدي إلى مفعولين كان ظاهره الحكم والتسمية، في أكثر الاستعمال. ولذلك لا يجوز أن يقول القائل: جعلت النجم والرجل، ويسكت حتى يصله بقوله: جعلت النجم هادياً ودليلاً، وجعلت الرجل صديقاً وصاحباً. فلما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] نعدى إلى مفعولين، فيكون بمعنى الحكم والتسمية. فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا بَدَّلْنَاهُ هَآئِهِ نَكَاةً هَآئِي﴾ [النحل: ١٠١] وقالوا: ما يغير ويبدل فهو مخلوق لا محالة، قلنا: هذا جهل منكم أيضاً، وذلك أن التبديل والنسخ إنما يكون ويتصور في الرسم من خط أو تلاوة؛ أو في حكم، فيكون تقدير الكلام: وإذا بدلنا حكم آية أو تلاوة آية، دون المثل القديم الذي لا يتصور عليه تبديل ولا تغيير، وقد بين ذلك سبحانه وتعالى وأخبر أن كلامه القديم لا يغير ولا يبدل.

دليل الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا بَدَّلْنَاهُ هَآئِهِ نَكَاةً هَآئِي﴾ [النحل: ١٠١] يعني حكم آية أو تلاوتها.

ودليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبَدِّلُ لِكَلِمَتِي اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٤] وقوله تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِي﴾ [الأنعام: ١١٥] فأخبر تعالى أن التبديل يتصور في أحكام كلامه وتلاوة كلامه، دون كلامه القديم الذي هو صفة من صفات ذاته، ولو حققوا الفرق بين التلاوة والمثل وسلموا وجميع من وافقهم من الجهال الذين سلموا لهم وفق مذهبهم من خلق القرآن معنى، ومنعوه نطقاً، نعوذ بالله من الجهل. وسنبين هذا الأمر إن شاء الله على الاستيفاء بالكمال، في مسألة الفرق بين التلاوة والمثل، والقراءة والمقروء.

فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] وقالوا: ما جاز عليه الذهاب والعدم فإنه مخلوق.

فالجواب عن هذا السؤال مثل الجواب المتقدم؛ لأن الذهاب والعدم إنما يكون في الحفظ والرسم، دون المحفوظ الذي هو كلام الله تعالى. ويدل على هذا: أن ابن مسعود رضي الله عنه لما قال: استكثروا من قراءة القرآن قبل أن يرفع. فقيل له: كيف يرفع وقد حفظناه في صدورنا وأثبتناه في مصاحفنا؟ فقال: يُسرَى عليه فيذهب حفظه من الصدور، ورسمه من المصاحف. وهذا صحيح، لأن حفظ المخلوق مخلوق مثله، وحفظه مخلوق مثله، فيتصور عليه الذهاب والعدم بالنسيان والمحو. وأما المحفوظ والمكتوب^(١) الذي هو كلامه القديم، فلا يتصور عليه ذلك. فاعلم ذلك وتحققه.

فإن احتجوا بقول النبي ﷺ: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن تناله أيديهم» قالوا: وما جاز أن ينتقل ويتحول ويسافر به فهو مخلوق. قلنا: كم هذا التمويه الذي تشبهون به على العوام وجهال الناس، لأن النبي ﷺ إنما أراد بهذا الكلام حمل المصحف الذي فيه كلام الله مكتوب، ولم يرد بذلك نفس كلامه القديم الذي هو صفة من صفات ذاته، وقد قرنه ﷺ بما يدل على أن المراد به المصحف دون غيره؛ ألا تراه قال: «مخالفة أن تناله أيديهم» ومعلوم أن الذي تناله أيديهم إنما هو المصحف دون غيره، وقد بين عليه السلام ذلك في حديث آخر، وهو قوله ﷺ لبعض أصحابه: «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر» يريد بذلك الصحف التي يكتب فيها القرآن، دون نفس القرآن الذي هو كلام الله تعالى، لأنه صفة من صفات ذاته، ولا يتصور على صفات ذاته اللمس ونيل الأذى.

فإن قالوا: أجمعنا على أن القرآن سور، والسور آيات، والآيات كلمات، والكلمات حروف وأصوات، وجميع ذلك يدل على كونه محدثاً مخلوقاً؛ لأن السور معدودة محسوبة؛ لها أول وآخر، وكذلك الآيات والحروف، وما دخله الحصر والعد وكان له أول وآخر فهو مخلوق، وهذه الشبهة التي سخمت وجوه من وافقهم في

(١) وصف القرآن القائم بالله سبحانه بالمكتوب، والمحفوظ والمتلو من قبيل وصف المدلول بوصف الدال مجازاً كما حققه الفخازاني في شرح المقاصد على ما سبق (ز).

مقاتلهم هذه من أهل السنة الجهال بطرق التحقيق؛ حيث سلموا لهم مع زعمهم أنه كلامه ليس بمخلوق، ما قرروه من هذه الشبهة، وقالوا مثل قولهم: إن كلامه حروف وأصوات، فإن الله وإنا إليه راجعون^(١).

والجواب عن هذه الشبهة: أن يقال لهم: أما ما ذكرتم من الحصر، والتحديد والتبعض، والحروف والأصوات، فجميع ذلك راجع إلى تلاوة المخلوقين دون كلام الله تعالى الذي هو صفة من صفات ذاته؛ لأن جميع ما ذكرتم يحتاج إلى مخارج من لسان، وشفتين، وحلق، والله يتعالى ويتزهر عن جميع ذلك. بل نقول إن كلامه صفة له قديمة لا يحتاج فيه إلى أداة من صوت. أو حرف أو مخرج. يتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

وكذلك ما ذكرتم من الحصر، والعد، والأول، والآخر، إنما ذلك راجع إلى تلاوة المخلوقين لكلامه وكتبتهم لكلامه دون كلامه الذي هو صفة، وقد بين ذلك سبحانه وتعالى بآظهر بيان لمن كان له فهم صحيح، لأنه تعالى قال: ﴿ثَلُوثٌ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكُنَّتْ رِيقًا لَتِيدَ الْبَحْرُ قَلِيلًا أَنْ تَفْزَظَ كَلِمَتٌ رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِفِيلٍ مَدًا ۖ﴾ [الكهف: ١٠٩] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُّ مِنْهُ بَعْلُوبَ سَبْعَةً مَبْجُورًا مَا تَزِدَّتْ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝﴾ [لقمان: ٢٧] ومعلوم أن الكاتب منا يكتب عدة مصاحف بمحبرة واحدة، ويتلو التالي منا عدة ختمات، فالمحصور والمعدود المحدود الذي يتصف بأول وآخر صفاتنا من تلاوتنا لكلامه،

(١) قال السعد في شرح المقاصد: (انتظم من المقدمات القطعية والمشهورة قياسان يتج أحدهما قدم كلام الله تعالى، وهو أنه من صفات الله وهي قديمة، والآخر حدوثه، وهو أنه من جنس الأصوات، وهي حادثة، فاضطر القوم إلى القدح في أحد القياسين ومنع بعض المقدمات ضرورة امتناع حجية التقيضين، فمعت المعتزلة كونه من صفات الله تعالى، والكرامية كونه كل صفة قديمة، والأشاعرة كونه من جنس الأصوات والحروف، والحشوية كونه المنتظم من الحروف حادثاً، ولا عبرة بكلام الكرامية والحشوية، فبقي النزاع بيننا وبين المعتزلة، وهو في التحقيق عائد إلى إثبات الكلام النفسي وتفيده، وأن القرآن هو أو هذا المؤلف من الحروف الذي هو كلام حسي أولاً. فلا نزاع لنا في حدوث الكلام الحسي ولا لهم في قدم النفسي لو ثبت) ثم قال السعد: (وعلى البحث والمناظرة في ثبوت الكلام النفسي وكونه هو القرآن ينبغي أن يحمل ما نقل من مناظرة أبي حنيفة وأبي يوسف ستة أشهر ثم استقر رأيهما على أن من قال بخلق القرآن فهو كافر) وهما التحقيق هو مفتاح هذا البحث الطويل العريض. وقد أثبت المصنف الكلام النفسي بكل ما جلاه في موضعه، وحدث ما سواه مما في الأذهان والألسنة والخطوط جلبي واضح عند أرباب العقول فوق الحق ويطل ما كانوا يعملون (ز).

وخطنا لكلامه، وحفظنا لكلامه. فأما صفته التي هي كلامه على الحقيقة فلا تنصف بالزوال، والحصر، والعد، والأول والآخر على ما أخبر سبحانه وتعالى على مقتضى التحقيق. لأن كل ما اتصف بالبداية والغاية والحصر والعد فإنما هي صفة المخلوق لا صفة الخالق القديمة بقدمه الموجودة بوجوده، التي لا يجوز أن تتقدم عليه ولا تتأخر عنه. فاعلم هذه الجملة وتحققها تسلم من ضلالة الفريقين وتخلص من جهل الطائفتين.

مسألة

ويجب أن يعلم أن القراءة غير المقروء. والتلاوة غير المنلو^(١) والكتابة غير المكتوب، وهذا إنما خالف فيه من لا حس له، ولا فهم، ولا عقل ولا تصور، ونحن بحمد الله نبين الفرق بين الأمرين من الكتاب والسنة ودليل العقول.

فأما الدليل من الكتاب فكثير جداً. أحدها: قوله: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَ عَلَى النَّاسِ عَلَيْهِ تَكْوِينٌ﴾ [الإسراء: ١٠٦] فأخبر تعالى أن القرآن منه منزل موحى، وأن الرسول يقرؤه ويعلمه، فالمَوْحِيّ المنزل المقروء هو كلام الله تعالى القديم وصفة ذاته، والقراءة له فعل الرسول التي هي صفته. وأيضاً قوله تعالى: ﴿يُنَادِيكَ الرَّسُولُ بِالْبَلَاغِ﴾ [المائدة: ٦٧] ففعل الرسول البلاغ الذي هو القراءة. وقوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ [القيناة: ١٦] وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْقَالَ السَّاطِنُ فِي أُنْيَتِهِ فَيَسْخَرُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُجْحِكُمُ اللَّهُ وَيَخْلِقُ مَا يَشَاءُ اللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢] وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوهُ حَتَّى يَلَازِيهِ﴾ [البقرة: ١٢١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ هَبْدَ رَبِّكَ هَكَذَا الْبَلَدُ الَّذِي حَرَمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١] ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩٢] فمعلوم أن هاهنا أمر أمر بشئين، وهو الله تعالى، وأمور وهو الرسول، فأمره بالعبادة له، فحصل هاهنا أمر، وأمور، وأمور به، فالأمر هو

(١) اعلم أن المتلو في الحقيقة هو اللفظ، والمكتوب هو أشكال الحروف، والمحفوظ هو الحروف المتخيلة، والمسموع هو الصوت، وأما التلاوة، والكتابة والحفظ، والسماع بالمعاني المصدرة فإنما هي نسب بين التالي والمتلو، والكاظم والمكتوب، والحافظ والمحفوظ، والسماع والمسموع، فطرفاً كل من هذه النسب مخلوقان، وإنما القديم هو ما قام به سبحانه. وإطلاقنا المتلو والمحفوظ والمكتوب والمسموع ونحو ذلك على ما قام به سبحانه من قبيل وصف المدلول بصفة الدال، كما ذكرت فيما علفت على الأسماء والصفات نص قول السعد في شرح المقاصد في ذلك (ز).

الله تعالى، والمأمور الرسول، والمأمور به العبادة، فالمعبود غير العبادة التي هي فعل الرسول، فكذلك التلاوة^(١) غير المتلو، لأن التلاوة فعل الرسول وهو المأمور بها، والمتلو كلامه القديم، ولم يأمره أن يأتي بكلامه القديم؛ لأن ذلك لا يتصور الأمر به ولا يدخل تحت قدرة مخلوق، إنما أمر بتلاوة^(٢) كلامه، كما أمر بعبادته، وعبادته غيره، فكذلك تلاوة كلامه غير كلامه، فحصل من هذا: نال. وهو الرسول عليه السلام وتلاوته صفة له. ومتلو: وهو كلام الله القديم الذي هو صفة له. ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [النحل: ٩٨]. ففرق بين القراءة والمقروء: وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ مَا أُرْسِيَ إِلَيْكَ مِنَ كِتَابٍ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧] فذكر قراءة ومقروءاً، وتلاوة، ومتلوّاً، وعند الجاهل أن ذلك شيء واحد.

وأيضاً فإنه أمر بالتلاوة والقراءة، والأمر هو استدعاء الفعل، والفعل صفة المأمور لا صفة الأمر؛ ألا يرى أنه أمر بالعبادة، والعبادة صفة العابد لا المعبود. ويدل عليه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحُطُّ بِسَمِيكٍ﴾ [الفنكبوت: ٤٨] فأخبر تعالى أنه لم يكن تالياً، ثم جعله تالياً ولم يكن كاتباً، ولم يجعله أيضاً في الثاني كاتباً، وقد جعل غيره تالياً لكلامه كاتباً له، ومعلوم عند كل عاقل أن ما لم يكن ثم كان وهي التلاوة؛ صفة للرسول لم يكن موصوفاً بها ثم صار موصوفاً بها، غير كلام الله الذي هو صفة له لا يستحق غيره الوصف بها ولا ينصف بأنه لم يكن ثم كان، ومعلوم أن الرسول كان تالياً قبل أن تكون أمته تالية، وحافظاً قبل أن تكون أمته حافظة، ثم صارت أمته تالية حافظة لما أقرأها وحفظها، فتلاوته غير تلاوة أمته لتقدمها عليها وتلاوة أمته غير تلاوته لتأخرها عنها والذي تلاه بتلاوته فهو كلام الله القديم [كذا] الذي تلتته أمته بتلاوتها. فلا يخفى على عاقل أن التلاوة غير المتلو، كما أن العبادة غير المعبود، والذكر غير المذكور، والشكر غير المشكور، والتسبيح غير المسبح، والدعاء غير المدعو إلى غير ذلك.

(١) ومما يجب الانتباه إليه هنا: أن التلاوة بالمعنى المصدرى لها طرفان كما سبق؛ جانب الفاعل وجانب الأثر المترتب عليه، الذي يقال له الحاصل بالمصدر المبني للمفعول، وهذا هو المتلو حقيقة. فالتالي والمتلو بهذا المعنى مخلوقان، وأما ما دل عليه هذا الصوت المكبف فهو صفة لله قائمة به وقديمة قدم باقي صفاته الذاتية الثبوتية، فليس مراد المصنف بالمتلو والمحفوظ والمكتوب ما هو أثر مترتب على المعنى المصدرى للتلاوة والحفظ، والكتابة بل مراده بها الصفة القائمة بالله التي لا ترتب ولا تقدم ولا تأخر فيها. وفي شرح المقاصد تفصيل ذلك (ز).

ويدل على صحة ذلك من السنة وأن القراءة والتلاوة صفة القارىء، والمقروء المتلو صفة الباري قوله ﷺ: «من أراد أن يقرأ القرآن غصاً فليقرأ على قراءة ابن أم عبد» يعني ابن مسعود، فأضاف القراءة إلى ابن مسعود، والمقروء صفة الله تعالى، والذي يدل على صحة هذا القول أنه يجوز أن يقال هذا الحرف قراءة ابن مسعود وليس قراءة أبي وغيره من القراء ولا يجوز أن يقال إن المقروء الذي يقرأه ابن مسعود غير المقروء الذي يقرأه أبي، لأن القراءة تكون غير القراءة والقرآن الذي يقرأه هذا بقراءته هو القرآن الذي يقرأه هذا أنه شيء واحد لا يختلف ولا يتغير، وإن تغيرت القراءة له واختلفت. والذي يوضح لك هذا ويبين تبييناً مستوفياً أن عمر رضي الله عنه لما مر على بعض الصحابة وهو يقرأ سورة الفرقان على خلاف قراءة عمر فأنكر ذلك عليه وقال: قد قرأتها على رسول الله ﷺ على خلاف هذه القراءة ولبيته حتى أتى به إلى رسول الله ﷺ حتى قال: «خُلِّ عنه» اقرأ يا عمر، فقرأ فقال: هكذا أنزل، ثم قال للآخر: اقرأ، فقرأ بالقراءة التي سمعها عمر منه فقال: هكذا أنزل. إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقروا ما تيسر منه». فأخبر ﷺ باختلاف القراءتين وأن كل واحدة منهما تؤدي إلى ما تؤدي إليه الأخرى، وهو المتلو المقروء القديم الذي لا يختلف ولا يتغير. وأيضاً ما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه من عدة طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن هذا القرآن مآدبة الله فاقبلوا مآدبته ما استطعتم واتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إنني لا أقول الم حرف، ولكن بالآلف عشر - الحديث...».

وروي عنه ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله» فأضاف القرآن إلى الله تعالى لأنه صفة من صفات ذاته، وأضاف التلاوة إلى التالي لأنها صفة يوجب عليها كما يوجب على جميع أفعال طاعته. وأيضاً قوله ﷺ: «استقروا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل» وهذا يدل على الفرق بين القراءة والمقروء، والتلاوة والمتلو، لأنه ﷺ حضهم على أخذ القراءة للقرآن عن هؤلاء الأربعة لأنهم قد باينوا غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم في جودة القراءة وصحتها والعلم بها، وهذا المعنى صحيح لأن الغلط، واللحن، والتحريف، والتصحيف إنما يقع في القراءة والتلاوة التي هي صفة القارىء؛ فأما القرآن المقروء فهو كلام الله تعالى الذي قد أخبر أنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولأن القراءة تتعوج فيقومها القارىء الماهر، لأنها يجوز عليها التعويج والتغير؛ فأما كلام الله القديم فليس يوصف بالتعويج. دليله: قوله

تعالى: ﴿وَلَوْ يَسْمَلُ لَمْ يَمْلِكْ﴾ [الكهف: ١، ٢] وأيضاً ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: مرّ رسول الله ﷺ وأنا معه، وأبو بكر؛ وعبد الله بن مسعود يقرأ؛ فاستمع لقراءته، فلما ركع - أو سجد - قال ﷺ: «سل تعطه، من سرّه أن يقرأ القرآن غصّاً كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبد». فأضاف القراءة إلى عبد الله، لأنها صفته وعبادته عليها يُثاب ويؤجر؛ والمقروء بها كلام الله القديم الأزلي، وقد روي: «من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً» وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: مرّ رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر، وعمر وإني أقرأ سورة النساء، فكنت أسجلها سجلاً، فقال النبي ﷺ: «سل تعطه»، ومعلوم عند كل عاقل أن الرسول ﷺ إنما وصف بالفضاضة والطراوة والتسجيل قراءة ابن مسعود دون كلام الله تعالى المتلو المقروء، لأنه لا يوصف بالشيء وضده، فاعلم ذلك وتحققه؛ ولأن صفة القراءة تارة تكون غضة رطبة من قارئ دون قارئ، إنما ذلك راجع إلى صفات المحدثين الذين يتفاضلون في قراءتهم وأصواتهم فتكون قراءة بعضهم غضة رطبة، وقراءة بعضهم فجة سمجة، ويكون صوت أحدهم حاداً حسناً، وصوت آخر فجاً جهوراً عالياً، فأما القرآن المقروء المتلو فلا يختلف في ذاته بأي قراءة قرئ، وبأي تلاوة تلي، وبأي صوت سمع. بل الأدوات، والأصوات واللغات تختلف في الجودة والرداءة والخفاء والجهارة.

فصل

وقد روي من الأخبار والآثار عن سيد الأولين والآخرين وصحابته رضي الله عنهم في الفرق بين التلاوة والمتلو، والقراءة والمقروء ما لا يحصى عدداً ونحن نذكر شيئاً من ذلك يقوي جميع ما تقدم.

فمن ذلك ما روي عن جابر بن عبد الله قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقرأ القرآن وفيما الأعجمي، والأعرابي. قال: فاستمع وقال: «اقرووه فكل حسن، سيأتي قوم يقومونه كما يقومون القدح، يتعجلونه ولا يتأملونه».

وعن سهل بن سعد الساعدي قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نقترءه يقرء بعضنا بعضاً فقال: «الحمد لله كتاب الله واحد فيه الأحمر والأسود اقرؤوا اقرؤوا قبل أن يجيء قوم يقومونه كما يقومون القدح، ولا يجاوز تراقيهم يتعجلون أجره ولا يتأملونه»، ففصل ﷺ في هذين الحديثين بين التلاوة والمتلو، والقراءة

والمقروء، لأنه ﷺ عنى بالأحمر العربي الفصيح، وبالأسود الأعجمي، فالعجمي يقع في قراءته اللكنة والتمتمة ويسلم من ذلك العربي الفصيح فاستمع ﷺ قراءتهم المختلفة وحفظهم ورغبهم في القراءة وأخبر أن كتاب الله واحد ليس بمختلف ولا متغاير، ثم أعلمهم بمجيء قوم من بعدهم ممن يقوم القراءة تقويم القدح، فعلم كل عاقل أن كلام الله القديم الأزلي ليس مما يعوج فيقوم، وإنما العوج يقع في قراءة القارئ فيقوم.

ويدل عليه أيضاً قول ابن مسعود رضي الله عنه: عجبت للناس وتركهم لقراءتي وأخذهم قراءة زيد بن ثابت، وقد أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة وزيد بن ثابت غلام صاحب ذؤابة. فأضاف ابن مسعود قراءته إلى نفسه، وأضاف قراءة زيد إلى نفسه، وأخبر أن قراءته أكمل من قراءة زيد؛ لأخذه لها من في رسول الله ﷺ، فغاير بين القراءتين، ومعلوم عند كل عاقل أن المقروء والمثلو الذي يقرأه عبد الله هو المقروء المثلو الذي يقرأه زيد، وإن كانت قراءة أحدهما غير قراءة الآخر.

ويدل عليه ما روي عن عمرو بن مرة قال: سمعت أبا وائل يحدث: أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود فقال: إني قرأت المفصل كله في ركعة فقال عبد الله: هذا كهذا الشعر، لقد عرفت النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرن بينهما. وعنه أيضاً أنه قال له رجل: إني أقرأ المفصل في ركعة، فقال عبد الله: هذا كهذا الشعر، إن أقواماً يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ نفع. ومعلوم أن ابن مسعود رضي الله عنه لم يشبه كلام الله تعالى بهذا الشعر، وإنما شبه قراءة القارئ دون كلام الباري. وأيضاً قوله ﷺ: «من قرأ القرآن بإعراب فله أجر شهيد». وأيضاً ما روى أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ القرآن مثبّتاً أو بإعراب كان له بكل حرف فضل أربعين حسنة». فكل عاقل يعلم ويتحقق أن القراءة المعربة غير القراءة الملحونة؛ لأن من صحح قراءة الفاتحة صحت صلاته، ومن ترك ذلك مع قدرته عليه بطلت صلاته. فأما كلام الله تعالى القديم فلا يتصف بالصحة وضدها بل هو صحيح على كل حال، وإن وقع الفساد في القراءة.

وأيضاً ما روي قتادة قال: قلت لأنس بن مالك كيف كانت قراءة النبي ﷺ؟ قال: يمد صوته مدّاً. وأيضاً ما روى عبد الله بن مغفل قال: رأيت النبي ﷺ يوم الفتح وهو على ناقته أو جملة وهو يسير وهو يقرأ سورة الفتح أو من سورة الفتح قراءة لينة. فمعلوم عند كل عاقل عارف أن الترجيع والمد، واللين، إنما تقع في القراءة التي هي صفة القارئ دون كلام الله القديم الأزلي، ومن اعتقد أن الترجيع،

والمد، واللين الذي هو صفة القارئ، ومد صوته ولينه راجع إلى الكلام القديم الأزلي فقد جهل الله تعالى وصفات ذاته، وصرح بحدوث القرآن وخلقه. وأيضاً ما روى النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضل عبادة أمتي قراءة القرآن» وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «النظر في كتاب الله عبادة» وروى أبو سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطوا أعينكم حفظها من العبادة، قالوا: يا رسول الله وما حفظها من العبادة؟ قال: قراءة القرآن نظراً، والاعتبار والتفكير فيه» وقال ابن مسعود: «النظر في المصحف عبادة» فقد اتضح بهذه الأخبار الفرق بين القراءة والمقروء، لأن الرسول ﷺ جعل قراءتنا عبادة منا، والعبادة مناصفتنا التي ثاب عليها ونوَجِر، وذلك أن الله تعالى وصف عبادته على الأعضاء، وكل عضو من ابن آدم مخصوص بنوع من العبادة، فالقلب مخصوص بالعلم بالله تعالى وبمعرفة ويحفظ كلامه، والإيمان به وكلامه، ثم المعرفة غير المعروف، والعلم غير المعلوم، والإيمان غير المؤمن به، والحفظ غير المحفوظ، لأن العلم صفة العبد، والمعلوم الرب تعالى، وكذلك الإيمان صفة للعبد، والمؤمن به هو الله تعالى. وكذلك الحفظ صفة العبد لم يكن يحفظ ثم صار حافظاً، والمحفوظ كلام الله القديم الذي لا يتصف بأنه لم يكن ثم كان بل قديم موجود بوجود الحق سبحانه وتعالى، موجود قبل الحفظ وبعده، واللسان مخصوص من العبادة بالذكر لله تعالى والتسبيح له والدعاء له، وقراءة كلامه، ثم الذكر صفة الذاكر، والمذكور هو الله تعالى، والتسبيح صفة المسيِّح، والمسيِّح هو الله تعالى، والدعاء صفة الداعي والمدعو هو الله تعالى. كذلك القراءة صفة القارئ التي هي له عبادة وطاعة، والمقروء كلام الله القديم الموجود قبل القارئ وقبل قراءته. فافهم إن كان لك فهم.

وعبادة العين: النظر في المصحف، والتفكير في الآيات من كلام الله تعالى، فالناظر إنما يثاب على نظره الذي هو صفة لا على المنظور فيه الذي هو صفة الله تعالى. ولهذا المعنى: أن من كان أكثر قراءة ونظراً وتفكيراً كان أكثر ثواباً ممن نظر أقل من نظره، وقرأ أقل من قراءته؛ فالزيادة والنقصان إنما يكونان في أفعال العباد التي تتصف بالشيء وضده فأما القديم الذي هو كلام الله فلا يتصف بالشيء وضده. فاعلم ذلك وتأمله فهذا إن شاء الله.

ويدل على الفرق بين القراءة والمقروء، ما روي عنه ﷺ من طرق عدة: أنه قال: «خذوا القرآن من أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل» ثم خصَّ عبد الله بن مسعود فقال: «من سرَّه أن يقرأ القرآن

غضاً رطباً كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن أم عبد، يعني ابن مسعود. فالدليل من وجهين:

أحدهما: أنه ﷺ خصّ هؤلاء الأربعة بجودة القراءة دون غيرهم من الصحابة، وإن كان المقروء بقراءة هؤلاء هو المقروء بقراءة غيرهم، ففاضل ﷺ بين القراءة وقَدَم بعضها على بعض، وكلام الله القديم لا يجوز عليه الجودة والرداءة بل كله شيء واحد جيد لا يختلف، وإن اختلفت القراءة له.

الثاني من الدليلين: أن الرسول ﷺ أضاف القراءة إلى ابن مسعود دون القرآن الذي هو كلام الله تعالى فقال: «من سزّه أن يقرأ القرآن كما أنزل فليقرأ على قراءة ابن مسعود». فقراءة ابن مسعود صفة له، والمقروء كلام الله صفة له لا لابن مسعود. وأيضاً فإنه وصف قراءة ابن مسعود بأنها غضة رطبة وهذه صفة لا تقع إلا على صفة المحدثين؛ لأن قراءة بعضهم تكون غضة رطبة، مستحسنة تميل إليها القلوب، وقراءة بعضهم فجة غليظة تنفر عنها الطبايع، والمقروء بهذه هو المقروء بهذه، وكذلك بعض القراءات مصححة معربة، وبعضها ملحونة معوجة مفسدة، والمقروء بهذه، هو المقروء بهذه لأن القديم لا يتصف بالصحة تارة وبالفساد تارة أخرى، إنما يتصف بالفساد تارة وبالصحة تارة أخرى صفة المخلوقين، وهي قراءتهم دون المقروء والمتلو الذي هو كلام الله القديم.

* * *

فصل

وأما الدليل على أن الحروف والأصوات من صفات قراءة القارئ، لا أنها من كلام الباري سبحانه وتعالى من الأخبار فكثير جداً، لكن إن شاء الله أذكر من ذلك ما يقع به الكفاية لكل عاقل محصل.

فمن ذلك: ما روى أبو هريرة أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل فقرأ يخفض طوراً ويرفع طوراً. وعن أم سلمة رضي الله عنها أنها نعتت قراءة رسول الله ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً، فموضع الدليل من هذين الخبرين أنهما أضافا القراءة إليه ﷺ، وأضافا الخفض والرفع بتفسير الحروف حرفاً حرفاً إلى قراءة القارئ لا إلى كلام الباري، وكل حديث أذكره لك بعد هذين الحديثين فأنامله؛ فإني أذكرها سرّاً إن شاء الله، فتجد في كل حديث ما يدل على صحة ما أقول، وهو: إضافة الصوت، والحرّف إلى قراءة القارئ، لا إلى كلام الباري القديم الأزلي.

فيدل على صحة ذلك ما روي عن أم سلمة رضي الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته آية آية، ولو شاء العاد أن يعدها أحصاها. وهذا يدل على أن القراءة تنعد وتنحصر، والمقروء القديم لا ينعد ولا ينحصر فافهم ذلك.

ويدل على ذلك أيضاً ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها سئلت: أكان النبي ﷺ يرفع صوته بالقرآن؟ قالت: ربما رفع وربما خفض. ويدل عليه أيضاً ما روي عن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في العشاء باليتين والزيتون، فما سمعت أحداً أحسن صوتاً منه.

ويدل عليه أيضاً ما روي عن أنس أنه قال: ما بعث الله نبياً إلا حسن الوجه، وحسن الصوت وكان نبيكم ﷺ حسن الوجه وحسن الصوت إلا أنه كان لا يُزَجُّج. وأيضاً ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: «ما لك إذا قرأت لا ترفع صوتك» قال: إني أسمع من أناجي. وقال لعمرو: «ما لك إذا قرأت ترفع صوتك جداً» قال: أوقف الوسنان وأنفر الشيطان. وقال لعمار: «ما لك إذا قرأت تأخذ من هذه السورة ومن هذه السورة؟ فقال: سمعنتي أخلط به ما ليس منه، قال رسول الله ﷺ: فكله طيب» فموضع الدليل: أن الرسول عليه السلام أضاف قراءة كل واحد وصوته إليه، وذكر أنها قراءة مختلفة، وأضاف إلى كل واحد صنفه من القراءة والصوت، ولم يصف إلى كلام الله تعالى شيئاً من ذلك فافهم.

وأيضاً ما روي عن أم هانئ رضي الله عنها قالت: كنت أسمع قراءة رسول الله ﷺ وأنا علي عريشي. وأيضاً ما روى جبير بن مطعم قال: أتيت النبي ﷺ وهو يصلي بأصحابه المغرب، فسمعت وهو يقرأ، وقد خرج صوته من المسجد: ﴿إِنَّ هَذَا رَبِّيَ رَبِّيَ رَبِّيَ﴾ ﴿١﴾ مَا لَمْ يَنْ دَافِعْ ﴿٢﴾ [الطور: ٧، ٨] فكانما صدع قلبي، ويقال إن هنا كان سبب إسلامه، لأنه جاء يكلم الرسول ﷺ في أسارى بدر، فلما سمع قراءة رسول الله ﷺ وحسن صوته قال: فكانما صدع قلبي، وكأنني بالعذاب قد أحاط بي، فصدقت وآمنت من ساعتني. وهذا الحديث أدل دليل على الفرق بين القراءة والمقروء، وأن الصوت صفة الصائت والقارئ دون كلام الباري، لأن الذي صدع قلبه وهدهد إنما هو الذي فهمه من كلام الله تعالى الذي أوعده به المستكبرين؛ فعلموا الصوت من قراءة رسول الله ﷺ صفة للرسول عليه السلام، والذي صدق به قلبه هو ما فهمه من كلام الله تعالى الذي سمعه بواسطة قراءة رسول الله ﷺ، وعلو صوته،

لأن الأصوات والحروف لا تهدي ولا تشقى، إذ لا تأثير لها في إحياء القلوب وإقبالها، إنما الذي يحيي القلوب ويهديها كلام الله القديم الأزلي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ جَلَلَهُ يُورِثُ الْهُدَىٰ مِنْ شَأْنِهِ مِنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الشورى: ٥٢] فاللهادي الشافي المقروء لا القراءة، والمفهوم من الصوت لا الصوت.

يدل على ذلك أيضاً ما روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد قط إذا أصابه هم أو حزن: اللهم إني عبدك وابن عبدك ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله عزي وجل همه وأبدله مكان حزنه فرحاً» قالوا: يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟ قال: «أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن» فبين لك ﷺ أن كلام الله الذي هو القرآن هو الذي يهدي ويشفي لا قراءة القارىء.

وأيضاً ما روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا في الجنة إذ سمعت صوت رجل بالقرآن فقلت من هذا؟ فقالوا: حارثة بن النعمان. كذلك البر. كذلك البر». وكان حارثة من أبر الناس بأمه، وأضاف ﷺ الصوت إلى الرجل الصايت دون القرآن. ولو أنني أنقصي الأخبار والآثار في الفرق بين التلاوة والمتلو، والقراءة والمقروء لاحتاج إلى مجلدات عدة؛ لكن ذكرت من ذلك ما فيه كفاية بحمد الله لمن له عقل سليم وفهم صحيح، فإذا تقرر هذا صَحَّ لك أن القراءة صفة القارىء، والمقروء على الحقيقة كلام الباري، وكذلك الحفظ صفة الحافظ، والمحفوظ كلام الله تعالى، وكذلك الكتابة صفة الكاتب وصنعه، والمكتوب كلام الله تعالى، كما أن الذكر صفة الذاكر، والمذكور هو الله تعالى. وكذلك العبادة من الصلاة، والصوم، والحج صفة للمعابد وهي في أنفسها مختلفة الصفات متغايرة، والمعبود بها واحد أحد ليس بمختلف ولا متغاير وهو الله تعالى. وفي هذا كفاية لمن سلم له التصور والفهم.

وأما الدليل من جهة العقل هو: أن يعلم أن القراءة تارة تكون طيبة مستلذة، وتارة فجة تنفر منها الطبايع، وتارة رفيعة عالية، وتارة متخفضة خفية، وتارة بلحها اللحن والخطأ، وتارة تصح وتقوم، وما جازت عليه الأشياء فلا يجوز أن يكون إلا صفة الخلق دون صفة الحق. وكذلك أيضاً الكتابة تارة تكون مرتبة جيدة حنة يمدح كاتبها. وتارة وحشية يذم كاتبها، والإنسان إنما يمدح ويُذم على فعله، فصَحَّ أن

الكتابة صفة الكاتب، والمكتوب بها كلام الله تعالى، وأيضاً فإن الكتابة يلحقها المحر يتصور عليها الفرق، والحرق، والتواء، والتلف، وكلام الله القديم لا يتصور عليه شيء من ذلك. وكذلك الحفظ، والسمع تارة يوجد، وتارة يعدم، وما يجوز عليه الوجود بعد العدم والعدم بعد الوجود فليس بصفة لله تعالى، وإنما هو صفة المخلوق المربوب، لكن المسموع من القرآن، والمحفوظ منه، والمقروء منه، والمكتوب منه كلام الله القديم الذي ليس بمخلوق ولا مربوب. فافهم تصب إن شاء الله.

وأيضاً فإن من حلف بالطلاق الثلاث أن لا يقوم من مقامه حتى يفعل فعلاً يكون عبادة وطاعة لله تعالى؛ فقرأ عشر آيات من القرآن ثم قام ولم يفعل شيئاً غير ذلك لم يحث في يمينه بإجماع المسلمين، فصح أن قراءته فعله وعمله الذي صار به فاعلاً، عابداً، طائعاً. وأن المقروء بقراءته كلام الله تعالى القديم الذي ليس بفعل لأحد فافهم.

وأيضاً: فإن قراءة القاري تارة تكون طاعة وقرية، وتارة تكون معصية وذنباً. فأما الطاعة فهي إذا قرأها وهو طاهر غير جنب وغير مرأى بها أحداً من الخلق، ويكون معصية إذا قرأها وهو جنب مرأى، وما يكون تارة طاعة وأخرى معصية كيف يكون صفة الحق؟ - تعالى عن ذلك - بل هو صفة الخلق، لكن المقروء في الحالتين شيء واحد، وهو كلام الله تعالى القديم لا يتصف بالشيء وضده. فافهم، وفي بعض هذا مقنع لمن لم يكن يكابر الضرورات.

مسألة

ويجب أن يعلم أن كلام الله تعالى مكتوب في المصاحف على الحقيقة^(١) كما قال: ﴿إِنَّهُمْ لَكَاِبِرٌ لِّئَمْ كَيْفَ فِي كِتَابٍ مُّكْتَوٍ ۖ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨] وهو في مصاحفنا مكتوب على الوجه الذي هو مكتوب في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ نَّجِيدٌ ۖ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۚ﴾ [البُورُج: ٢١، ٢٢] لكن نحن نعلم وكل عاقل أن كلام الله الذي هو مكتوب في اللوح المحفوظ هو القرآن المكتوب في مصاحفنا شيء واحد لا يختلف ولا يتغير، وأن اللوح غير أوراق مصاحفنا، وأن الخط الذي فيه غير الخطوط التي في مصاحفنا، وأن القلم الذي كتب في اللوح المحفوظ غير أقلامنا،

(١) عند من يرى وجود الشيء في الأعيان والأذهان واللسان والكتابة ونحوها حقائق يشترك بينها لفظ الوجود اشتراكاً لفظياً (ز).

وكذلك ما اختلف وغاير غيره واختص بمكان دون مكان وزمان دون زمان، فهو مخلوق مربوب، وكل ما هو على صفة واحدة لا يختلف ولا يتغير ولا يجوز عليه شيء من صفات الخلق، فكذا هو كلام الله تعالى القديم وجميع صفات ذاته [قديمة] وكذلك القرآن محفوظ بالقلوب على الحقيقة. كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي سُورٍ كَثِيرَةٍ أَوْثَرًا إِلَافَةً﴾ [الغنكبوت: ٤٩] لكن نعلم قطعاً أن زيدا الحافظ غير عمرو الحافظ، وأن قلب هذا غير قلب هذا، وأن حفظ هذا غير حفظ هذا. لكن المحفوظ لهذا يحفظه هو المحفوظ للآخر بحفظه، وهو شيء واحد لا يختلف ولا يتغير، إذ هو صفة الله تعالى قديم غير مخلوق، وكذلك نقول إنه مقروء بالسنتنا نلتوا بها على الحقيقة لكن نعلم أن زيدا القاري غير عمرو القاري، وأن لسان زيد غير لسان عمرو، وأن قراءة زيد غير قراءة عمرو، ولكن المقروء لزيد هو المقروء لعمرو شيء واحد لا يختلف ولا يتغير، بل هو كلام الله القديم الذي ليس بمخلوق ولا يجوز عليه صفات الخلق وهذا كما قال تعالى: ﴿أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤] يعلمه زيد بعلمه ويعلمه عمرو بعلمه، ويعبده زيد بعبادته، ويعبده عمرو بعبادته، ويدعوه زيد بدعائه، ويدعوه عمرو بدعائه ويذكره زيد بذكره، ويذكره عمرو بذكره، ويسبحه زيد بتسبيحه، ويسبحه عمرو بتسبيحه، فزيد غير عمرو، وذكره غير ذكر عمرو، وعبادته غير عبادة عمرو، ولكن المعبود لهذا هو المعبود لهذا، والمذكور لهذا هو المذكور لهذا، والمسيح لهذا هو المسيح لهذا، والله تعالى القديم الواحد الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

مسألة

ويجب أن يعلم أن كلام الله تعالى مسموع لنا على الحقيقة^(١) لكن بواسطة وهو القاري.

دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الثوبة: ٦] واعلم: أن المسموع فهو كلام الله القديم صفة لله تعالى قديمة موجودة بوجود قبل سماع السامع لها، وإنما الموجود بعد أن لم يكن هو سمع

(١) على القول بالاشتراك بين الوجودات السابق ذكرها، وأما على القول بأن القرآن اسم للنظم الدال لا من حيث تعين من قام به فيكون واحداً بالنوع، كما هو قولهم في أسماء الكتب، فيكون المقروء هو بدون إشكال الحدوث والقدم، فما قام بالقديم قديم، وما قام بالحادث حادث (ز).

السامع وفهم الفاهم لكلام الله تعالى يحدث الله تعالى له سمعاً إذا أراد أن يسمعه كلامه، وفهماً إذا أراد أن يفهمه كلامه، لأن المسموع لم يكن ثم كان عند السمع والفهم، وهذا كما أن الله موجود قديم بوجود قديم، وإذا خلق رجلاً أو امرأة لعبادته وسهل له العبادة التي لم تكن ثم كانت فإنه يصير عبداً لله تعالى، الذي هو موجود قديم دائم قبل العبادة وبعدها، وإنما الذي لم يكن ثم كان هو العابد والعبادة، فافهم الحق وحدوده.

مسألة

فحصل من هذا: أن الله تعالى يسمع كلامه لخلقه على ثلاث مراتب: تارة يسمع من شاء كلامه بغير واسطة لكن من وراء حجاب، ونعني بالحجاب للمخلوق لا للحق كموسى عليه السلام أسمع كلامه بلا واسطة^(١) لكن حجبته عن النظر إليه، وتارة يسمع كلامه من شاء بواسطة مع عدم النظر والرؤية أيضاً من ملك أو رسول أو قارئ، وهو استماع الخلق من الرسول عند قراءته للمصحبة وقراءة الصحابة على التابعين، وكذلك هلم جراً إلى يومنا هذا؛ يسمع كلام الله تعالى على الحقيقة لكن

(١) وفي شرح المقاصد: اختصاص موسى عليه السلام بأنه كلم الله تعالى، فيه أوجه، أحدها - وهو اختيار الغزالي - أنه سمع كلامه الأزلي بلا صوت ولا حرف، كما نرى ذاته في الآخرة بلا كم ولا كيف، وهذا على مله من يجوز تعلق الرؤية والسمع بكل موجود حتى الذات والصفات، ولكن سماع غير الصوت والحرف، لا يكون إلا بطريق خرق العادة، وثانيها: أنه سمعه بصوت من جميع الجهات على خلاف ما هو العادة، وثالثها: أنه سمع من جهة لكن بصوت غير مكتسب للعباد على ما هو شأن سماعتنا. وحاصله أنه أكرم موسى عليه السلام فأفهمه كلامه بصوت تولى بخلقه من غير كسب لأحد من خلقه، وإلى هذا ذهب أبو منصور العاتريدي، وأبو إسحاق الإسفراييني، وقال الإسفراييني: اتفقوا على أنه لا يمكن سماع غير الصوت إلا أن منهم من بث القول بذلك، ومنهم من قال لما كان المعنى القائم بالنفس معلوماً بواسطة سماع الصوت كان مسموعاً، فالاختلاف لفظي لا معنوي (أ.هـ) والصوت سواء كان من جهة أو الجهات كلها حادث مخلوق لا يقوم بالله سبحانه، وفي طبقات الحنابلة لأبي الحسين بن أبي يعلى عند ترجمة الإصطخري في صدد ذكر عقيدة أحمد: (روكلم الله موسى تكليماً من فيه، وناولوه التوراة من يده إلى يده) ومن هذا يعلم مبلغ ضلال هؤلاء المجسمة المستترين بالانتساب إلى أحمد زوراً وحاش لله أن يكون الإمام أحمد يثبت لله فعلاً، وما إلى ذلك من وجوه الضلال في العقيدة المعزوة إليه هناك، كما ذكرت فيما علقت على الأسماء والصفات (ص ١٩٣) ولي إفاضة في ذلك في كثير من المواضع والله سبحانه هو الهادي (ز).

بواسطة، فتارة يسمع كلامه من شاء من الخلق بغير واسطة ولا حجاب، كتكليمه لنيبا عليه السلام ليلة المعراج. دليل الثلاثة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١] وهو نبينا ﷺ أسمع الله تعالى كلامه ليلة المعراج من غير واسطة ولا حجاب، لأنه تعالى في تلك الليلة قال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدِي مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] ولا يحمل الرحي هاهنا على الإلهام بل على السماع والإفهام؛ أو من وراء حجاب، كموسى عليه السلام أسمع كلامه بلا واسطة لكن حجه عن الرؤية، أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء فيسمع من يشاء كلامه بواسطة تبليغ الرسول أو قراءة القارىء. وهذه جملة بليغة في هذا المعنى إن شاء الله تعالى.

مسألة

ويجب أن يعلم أن كلام الله تعالى منزل على قلب النبي ﷺ نزول إعلام وإفهام لا نزول حركة وانتقال.

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [١٧] نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ [١٨] عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ [١٩] بِلِسَانٍ مَّوَدُّعٍ [٢٠] ﴿[الشُّعْرَاءُ: ١٩٢ - ١٩٥] فيجب أن تعتقدها هنا أربعة أشياء هنا: منزل، ومنزل، ومنزل عليه، ومنزل به. فالمنزل هو الله تعالى لقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ [الحجر: ٩] وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [النحل: ٤٤] والمنزل على الوجه الذي يتناه من كونه نزول إعلام وإفهام لا نزول حركة وانتقال كلام الله تعالى القديم الأزلي القديم بذاته، لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ لَنَزِيلٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [٢١] [الشُّعْرَاءُ: ١٩٢] والمنزل عليه قلب النبي ﷺ، لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [٢٢] [الشُّعْرَاءُ: ١٩٤] والمنزل به هو اللغة العربية التي تلا بها جبريل، ونحن ننزل بها إلى يوم القيامة، لقوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ مَّوَدُّعٍ﴾ [٢٣] [الشُّعْرَاءُ: ١٩٥] والنازل على الحقيقة المنتقل من فطر إلى قطر، قول جبريل عليه السلام. يدل على هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَقِمْنَا بِمَا تُبَيِّنُونَ﴾ [٢٤] وَمَا لَا تُبَيِّنُونَ [٢٥] إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [٢٦] وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ [٢٧] وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ [٢٨] نَزِيلٌ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ [٢٩] ﴿[الحاقة: ٣٨ - ٤٣] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَقِمْنَا بِالْحَقِّ﴾ [٣٠] الْكِتَابِ [٣١] وَالْبَلِٰغِ إِذَا حُمَسَ [٣٢] وَالْمُنَجِّ إِذَا نَقَسَ [٣٣] إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ [٣٤] ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ [٣٥] شُلَعٌ نَّمَّ أَمِينٍ [٣٦] وَمَا سَاجِدٌ يُسَبِّحُونَ [٣٧] وَلَقَدْ رَمَاهُ بِالْأَفْئِ تَلْهِينَ [٣٨] وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَلِيلٍ [٣٩] وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيزٍ [٤٠] تَأْتِنَ تَذْهَبُونَ [٤١] لَنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ [٤٢] لَمَنْ مَّثَلَتْ يَنْكُمُ أَنْ تَسْتَفِيزَ [٤٣] وَمَا تَشَاكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [٤٤]﴾

[التكوير: ١٥ - ٢٩] وهذا إخبار من الله تعالى بأن النظم العربي الذي هو قراءة كلام الله تعالى قول جبريل لا قول شاعر ولا قول كاهن. وقالوا: ما هذا إلا قول البشر، فرد عليهم بهاتين الآيتين وكذلك رد عليهم أيضاً لما قالوا: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ لِّمَسَاتِ الْأَيِّ يَلْحَدُونَ إِلَيْهِ أَفَعْلَمُ أَغْيَبُكُمْ وَهَذَا لِسَانُ عَزْرَقِثَ ثِيثٍ﴾ [النحل: ١٠٣] فحصل من هذا أن الله تعالى علّم جبريل عليه السلام القرآن. دليله قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢﴾ [الرحمن: ١، ٢] وجبريل عليه السلام علّم نبينا ﷺ دليله قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝٥﴾ [النجم: ٥] وكان ﷺ يقرأ مع جبريل حال قراءته فزعاً منه أن يذهب عنه حفظه حتى نهاه الله تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] ويقول: ﴿لَا تُخَذِّلْ يَوْمَئِذٍ إِلَآئِكَ لِيَعْمَلُ بِهِ﴾ [الفيّاتة: ١٦] معناه لا تعجل بقراءتك حتى يفرغ جبريل عليه السلام. ثم طمّن قلبه ﷺ بأنه يحفظه إياه ويثبت حفظه في قلبه، فقال: ﴿إِنَّا عَيْنَا جَمْعُهُمْ وَقُرْآنَهُمْ ۝١٧﴾ [الفيّاتة: ١٧] يعني في صدرك حفظه. ووعده أن لسانه يقرؤه قراءة لا يحصل معها نسيان فقال: ﴿سَتَقْرَأُهُ وَلَا تَنْسَىٰ ۝١٨﴾ [الأعلى: ٦] يعني قراءة لا نسيان معها، فحاصل هذا الكلام أن الصفة القديمة كالعلم والكلام ونحو ذلك من صفات الذات لا يجوز أن تفارق الموصوف، لأن الصفة إذا فارت الموصوف انصفت بضدها، والله تعالى منزّه عن الصفة وضدها. فافهم ذلك. فجاء من ذلك أن جبريل عليه السلام علّم كلام الله وفهمه، وعلمه الله النظم العربي الذي هو قراءته، وعلم هو القراءة نبينا ﷺ، وعلم النبي ﷺ أصحابه، ولم يزل ينقل الخلف عن السلف ذلك إلى أن اتصل بنا فصرنا نقرأ بعد أن لم نكن نقرأ، فالقراءة أغيار لأن قراءة جبريل عليه السلام غير قراءة نبينا عليه السلام، وقراءة نبينا عليه السلام غير قراءة أصحابه، وقراءة أصحابه غير قراءة من بعدهم، ثم كذلك هلم جراً إلى يومنا هذا، يعلم كل عاقل أن الرسول ﷺ قرأ قبل الصحابة، ثم قرأت الصحابة، ثم قرأ التابعون ثم كذلك إلى اليوم، لكن المقروء والمتلو هو كلام الله القديم الذي ليس بمخلوق ولا يشبه كلام الخلق هو المقروء بقراءة الرسول عليه السلام وقراءة الجميع. وهذا أمر واضح إن شاء الله تعالى.

مسألة

ويجب أن يعلم أن الله تعالى لا يتصف كلامه القديم بالحروف والأصوات ولا شيء من صفات الخلق، وأنه تعالى لا يفتقر في كلامه إلى مخارج، وأدوات، بل يتقدس عن جميع ذلك، وأن كلامه القديم لا يحل في شيء من المخلوقات.

والدليل على ذلك: أنه قد صيغ وثبت أن من شرط الصفة قيامها بالموصوف، والدليل على صحة ذلك أولاً: أن حد القديم ما لا أول لوجوده ولا آخر لدوامه، وأن القديم لا يدخله الحصر والعد، ونحن نعلم وكل عاقل أن هذه الأشكال من الحروف لم تكن قبل حركة الكاتب وإنما يحدثها الله مع حركة الكاتب شيئاً فشيئاً. ثم هي مختلفة الصور والأشكال، ويدخلها الحصر والحد، وتعدم بعد أن توجد، وكل ذلك صفة المحدث المخلوق لمن كان له عقل سليم. وأيضاً فإن حروف الكلمة يقع بعضها سابقاً لبعض فعند خط الكاتب «ها» قد حصلت وثبتت قبل خطه «سيناً» وكذلك السين حصلت وثبتت قبل خطه «ميماً» وكذلك النطق إذا تلفظ بالباء حصلت قبل السين وما تقدم بعضه على بعض وتأخر بعضه عن بعض فهو صفة الخلق لا صفة الحق^(١): وكذلك الأصوات يتقدم بعضها على بعض ويتأخر بعضها عن بعض ويخالف بعضها بعضاً وكل ذلك صفة كلام الخلق لا صفة كلام الحق الذي هو قديم ليس بمخلوق. وأيضاً فإن القول بقدوم الأصوات والحروف يوجب القدم لجميع كلام الخلق، وأصوات الناطق والصامت، وهذا قول يؤدي إلى قدم جميع العالم أجمع، وأيضاً فإن الحروف التي يزعمون أنها قديمة وأنها صفة لكلامه تعالى لا يخلو إما أن تكون هذه الحروف التي تجري في كلام الخلق أو مثلها أو ضدها. فإن قالوا: إنها هي وجب قدم كلام الخلق، وكذلك إن قالوا مثلها وجب ذلك أيضاً، لأن حد المثليين ما سُدَّ أحدهما مسد الآخر وناب منابه وساقه من جميع الوجوه.

وإن قالوا: بل هي مضادة لهذه الحروف فقد يقولون القول [من غير] أن يكون [له] معنى وهذا بين الفساد.

ويدل على أن كلام الله القديم لا يجوز أن يكون حروفاً وأصواتاً؛ ما روي عن ابن عباس أنه قال: لما سلط الله بختنصر على اليهود لما قتلوا يحيى عليه السلام سلطه عليهم فقتلهم وخرّب بيت المقدس وحرّق التوراة. قال عزير عليه السلام في جملة مناجاته: (يا رب سلّط عليهم عدواً من أعدائك، بطر رحمتك، وأمن مكرك، وهدم بيتك، وحرّق كتابك) فأوحى الله تعالى إليه من جملة ما أوحى أن بختنصر إنما أحرّق

(١) قال المصنف في النقض الكبير - كما في الشامل لإمام الحرمين -: (من زعم أن السين من بسم الله بعد الباء، والميم بعد السين الواقعة بعد الباء لا أول له فقد خرج عن العقول وجحد الضرورة وأنكر البديهة. فإن اعترف بوقوع شيء بعد شيء فقد اعترف بأوليته، فإذا ادعى أنه لا أول له فقد سقطت محاجته وتعين لحوقه بالسفسطة، وكيف يرجى أن يرشد بالدليل من يتوابع في جحد الضروري اه) راجع ما علقناه على السيف الصغير (ص ٤٦٢) (ز).

من التوراة الخط، والحروف، والورق، والدفتري ولم يحرق كلامي، فأخبر تعالى أن كلامه ليس هو الحروف التي حرقت ولا أنه مما تناله الأيدي ولا تعنتيه ولا يبلى ولا يتعدى، ويؤكد هذا قول النبي ﷺ: «لو جعل هذا القرآن في إهاب وألقي في النار لم يحترق» ولم يرد ﷺ أن الجلد، والمداد والحروف المصورة لا تحترق، وإنما أراد أن كلام الله تعالى هو القرآن لا يحترق في النار ولا يتصور عليه الحرق والعدم، إنما يتصور ذلك على الأجسام والأشكال. فأما الكلام القديم فلا. والذي يدل على صحة هذا أنه - ونعوذ بالله تعالى - لو أخذ اليوم جبار عاص لله مصحفاً فحرقه بالنار حتى صار رماداً، أنقول إن كلام الله القديم احترق وانعدم؟ أم نقول إن كلامه باقٍ ثابت لم يحترق ولم يتعدى، وإنما احترق الورق، والحروف المصورة بلا خلاف بين كل عاقل.

دليل آخر على حدث الحروف: وهو أن الأمة مجمعة على أن من قرأ كلام الله تعالى في صلاته لم تبطل صلاته، ولا خلاف أن من قرأ حروف التهجي في صلاته بطلت صلاته، فعلم بذلك أنها ليست بكلام الله تعالى.

دليل آخر على ذلك: وهو أن من قرأ القرآن وهو جنب أو امرأة حائض مع علمها بتحريم ذلك أنهما قد عصيا وفعلتا ما لا يجوز لهما، ولو تهجى الجنب والحائض حروف الهجاء من أولها إلى آخرها لم يعصيا بذلك، فعلم بذلك أن الحروف غير كلام الله تعالى. وإنما هي آلة يكتب بها كلام الله تعالى ويتلى بها كلامه، وليست نفس كلامه. ويدل على ذلك أيضاً ما روى علي رضي الله عنه أنه قال في جواب مسائل سأله عنها اليهود فقال: إن الله تعالى كلم موسى عليه السلام بلا جوارح، ولا أدوات، ولا حروف، ولا شفة، ولا لهوات، سبحانه عن تكيف الصفات. وأيضاً ما روي عن علي عليه السلام أنه سئل هل رأيت ربك؟ وكان السائل له دعبيل فقال في جوابه: لم أعبد رباً لم أره. فقال له: كيف رأيت؟ قال: لم تره العيون بمشاهدة الأبصار، بل رأته القلوب بحقائق الإيمان، ويحك يا دعبيل! إن ربي لا يوصف بالبعد وهو [قريب] ولا بالحركة، ولا بقيام، ولا انتصاب، ولا مجيء، ولا ذهاب، كبير الكبرياء لا يوصف بالكبر، جليل الأجل لا يوصف بالغلظ، رؤوف رحيم لا يوصف بالرقّة، أمر لا بحروف، قائل لا بألفاظ، فوق كل شيء ولا يقال شيء تحته، وخلف كل شيء، ولا يقال شيء قدامه، وأمام كل شيء، ولا يقال له أمام، وهو في الأشياء غير ممازج ولا خارج منها كشيء من شيء خارج، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ أَلَكَلَيْنَ﴾ [الأعراف: ٥٤] لو كان على شيء لكان محمولاً، ولو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً.

ويدل عليه قول شيخ طبقة التصوف الجنيد رحمه الله؛ فإنه قال: جلّت ذاته عن الحدود، وجلّ كلامه عن الحروف، فلا حد لذاته، ولا حروف لكلامه. ويدل عليه أيضاً ما حدّث به أبو بكر^(١) النقاش في تفسيره عن آدم بن أبي إياس قال: رأيت في يد بكر بن خنيس كتاباً فزدت فيه حرفاً أو نقصت منه حرفاً: فقال لي بكر بن خنيس: يا آدم من أمرك أن تفعل هذا؟ أما علمت أن الله تعالى لما خلق الألف انتصب قائمة، فلما خلق الباء أضجعت، وقيل للألف لم انتصب قائمة؟ قالت: أنتظر ما أؤمر. وقيل للباء لم أضجعت؟ قالت: سجدت لربي. فقال بكر: فأيهما أجل؟ الذي فعل ما لم يؤمر به - يعني الباء سجدت ولم تؤمر بالسجود - أو الذي انتظر ما يؤمر - يعني الألف - قال آدم بن أبي إياس: فكانه فضل الألف على الباء ودلالة هذا على وجهين:

أحدهما: أنه صرح في هذا بخلق الألف والباء.

والثاني: أنه فضل الألف على الباء، والقديم لا يجوز أن يفضل بعضه على بعض، ولا يوصف بالأبعاد وإنما الذي يعض ويحد تلاوة القديم لا نفس الكلام القديم: وأيضاً ما ذكره في تفسيره بإسناد رفعه إلي كعب الأحبار أنه قال: إن أول ما خلق الله تعالى من الحروف الباء، ويقال: كانت الألف والسين حرفين كاملين فرُفعت السين فرقع الله الألف عليها.

وأيضاً ما روي عن عبد الله بن سعيد أنه قال: عرضت حروف المعجم على الرحمن تعالى وتقدّس وهي تسعة وعشرون حرفاً فتواضع الألف من بينها فشكر الله تعالى له فجعله قائماً، وجعله أمام اسمه الأعظم - يعني الله - فإنه لم يسم به غيره.

ويدل عليه أيضاً: أن حروف التوراة مخالفة لحروف الفرقان في الهيئة والصورة والعدد، لأن حروف التوراة حروف عبرانية، وكذلك القول في حروب الإنجيل والمقروء بالكل منهما وإن اختلفت الحروف شيء واحد، لا يختلف ولا يتغير.

وأيضاً فإن الحروف تحتاج إلى مخارج، فحرف الشفة غير حرف اللسان، وحرف الحلق غيرهما، فلو كان تعالى يحتاج في كلامه إلى الحروف لاحتاج إلى المخارج وهو منزّه عن جميع ذلك سبحانه وتعالى عما يشركون.

(١) محمد بن الحسن صاحب شفاء الصدور الكذاب المشهور (ز).

وأيضاً فإن الحروف متناهية معدودة، وكلام الله تعالى قديم لا مفتتح لوجوده ولا نهاية لدوامه كعلمه، وقدرته، ونحو ذلك من صفات ذاته. وقد أكد تعالى ذلك بغاية التأكيد، وأن كلامه لا يدخله العد والحصر والحد، بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِي رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتِي رَبِّي وَلَوْ جِثَا بِحْيُلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَنَ وَالْبَحْرُ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ آبْحُرٍ مَا يَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] فأخبر تعالى في هاتين الآيتين أنه لا نهاية لكلامه. إذ كل ما له نهاية له بداية، وإنما تتصور النهاية في حق من يتصور في حقه البداية. وبالجملـة أن من خالف في هذا فلا أراه أهلاً للكلام معه، لأنه ينكر ما قد علم ضرورة ويكابـر الحس ويعاند الحق، وفي هذا القدر كفاية ومقنع.

مسألة

ويجب أن يعلم أن القراءة^(١) غير المقروء، وأنها صفة للقارئ، والمقروء بها غير مخلوق بل هو من كلام الباري وكذلك الحفظ صفة القلب والمحفوظ غير مخلوق، بل هو كلام الرب، وكذلك السمع صفة السامع والمسموع به غير مخلوق بل هو كلام الله تعالى؛ وكذلك الكتابة صفة الكاتب والمكتوب بها من القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ولا صفة مخلوق، وهذا كما تقول: إن الذكر غير المذكور، لأن الذكر صفة الذاكر، والمذكور بذكره هو الله تعالى، وكذلك العبادة صفة العابد من المخلوقين، والمعبود غير العبادة بل هو الله تعالى؛ وكذلك التسبيح صفة العبد المسيح، والمسيح هو الله تعالى، والذي يحقق هذه الجملة النقي، والإثبات، والوجود، والعدم. فإنك تقول: قرأ زيد أمس. فقراءته أمس معدومة اليوم، وقراءته اليوم غير قراءته أمس، والمقروء أمس بقراءته أمس هو المقروء بقراءته اليوم. ثم تنفي تارة أخرى فتقول: لم يقرأ زيد يوماً ولم يوجد منه قراءة، والمقروء موجود ثابت لا يتصور عليه العدم، بل هو ثابت قبل وجود زيد وقبل وجود قراءته، وموجود ثابت في حال قراءته وبعد قراءته على وجه واحد لا يتصور عليه الشيء وضده وهذا كما تقول: عبد زيد ربه اليوم ولم يعبده أمس، فعبادته اليوم غير عبادته أمس، وعبادته أمس

(١) ليكن على ذكر منك ما علقناه على مواضع من هذا الكتاب وغيره من أن وصف القرآن القائم بالله المقروء والمكتوب، والمخطوط، والمسموع من فيل وصف المدلول بوصف الدال عند السعد وغيره من المحققين (ز).

ليست موجودة اليوم، لكن المعبود موجود قبل أمس وفي اليوم لا يجوز أن يوصف بالشيء وضده. وعلى هذا نفس المحفوظ، والمسموع، والمكتوب، فإن الكتابة توجد بعد أن لم تكن، والحفظ يوجد بعد أن لم يكن، والسمع يوجد بعد أن لم يكن؛ ويتصور على الحفظ العدم بالنسيان. ويتصور على السمع العدم بالصمم؛ ويتصور على الكتابة العدم بالغسل بالماء وطول الزمان والحرق بالنار، لكن المحفوظ من كلام الله تعالى، والمكتوب، والمسموع لا يتصور عليه العدم بوجه من الوجوه، لأنه قديم كذاته تعالى في القدم، ولا تقول كذاته تعالى من جميع الوجوه، لأنه لو كان كذاته تعالى من جميع الوجوه لوجب أن يكون خالفاً رازقاً محياً مميتاً.

* * *

فصل

[ويعلم من] جميع ما تقدم: أن القراءة تارة توصف بالصحة والحسن، وتارة بالفساد والقبح. فيقال: قراءة فلان حسنة صحيحة جيدة، ويقال: قراءة فلان قبيحة فاسدة، فالقراءة تنصف بالشيء وضده، لأنها صفة القاري، والمقروء بها لا ينصف بالشيء وضده، لأنه صفة الباري. وكذلك أيضاً القراءة تكون تارة طيبة مستلذة، وتارة تأباها الطباع وتنفر عنها الأنفس، لكن المقروء والمنلو من كلام الله تعالى لا يختلف ولا يتغير بتغير غيره. وكذلك الكتابة تكون تارة بالذهب، وتارة بالفضة، وتارة بالمسك والعنبر، وتارة تنحت في الخشب، وتارة تكون بقطع الحجر، فكتابة الذهب غير كتابة الفضة، وكذلك كتابة المسك غير كتابة العنبر، لكن المكتوب وهو القرآن كلام الله بالذهب هو المكتوب بالفضة، وكذلك المكتوب بالمسك هو المكتوب بالعنبر، وما أعلم أحداً يخالف في هذا إلا أحد رجلين: إما جاهل غبي ليس له حس ولا تصور، وإما منافق مداهن، نعوذ بالله من الجميع ونسأله حسن التوفيق في الدنيا والآخرة.

فتحقق [من] جميع ما ذكرنا أن القراءة فعل من أفعال العباد، والمقروء والمنلو لا يجوز أن يكون فعلاً من أفعال العباد، ولا نقول أيضاً إنه من صفات الفعل لله تعالى بل هو من صفات الذات. يدل على صحة هذا القول أن رجلاً لو حلف بالطلاق لأقمت من موضعي هذا حتى أفعل فعلاً يكون طاعة من طاعات الله فقرأ آيات من القرآن ثم قام قبل أن يفعل شيئاً آخر أنه قد برّ في يمينه ولم يحنث، فعلم أن القراءة فعل القاري الذي يثاب عليها تارة ويُعاقب عليها أخرى، والمقروء في حال

الطاعة هو المقروء في حال المعصية، وهذا أمر قد اتضح بحمد الله تعالى لمن له أدنى عقل وتصور.

مسألة

ويجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يقول أحد إنني أتكلم بكلام الله، ولا أحكي كلام الله ولا أعبر كلام الله ولا أتلفظ بكلام الله، ولا أن لفظي بكلام الله مخلوق ولا غير مخلوق، بل الذي يجوز أن يقول: إنني أقرأ كلام الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ [الاحل: ٩٨] وكما قال: ﴿تَقْرَأُوا مَا يَتَرَىٰ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠] ويجوز أن يقول: إنني أتلو كلام الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ﴾ [الثل: ٩٢] ويجوز أن يقول إنني أحفظ القرآن كما قال ﷺ: «من حفظ القرآن ثم نسيه... الخير». فكل ما نطق به الكتاب والسنة في القرآن جاز لنا أن نطلقه، وما لا ينطق به كتاب ولا سنة فلا نطلقه في الله تعالى، ولا في صفاته. فاعلم ذلك وتحققه.

وأيضاً فإن زيدا إنما يكون متكلماً بكلامه، ولا يجوز أن يكون زيد متكلماً بكلام عمرو، وكذلك لا يكون زيد أسود سواداً من عمرو، ومن عجيب الأمر أن المجسمة الحشوية لا يجوزون أن يتكلم زيد بكلام عمرو وعمرو مخلوق، وكلامه مخلوق، والمخلوق إلى المخلوق أقرب في الشبه والذات والصورة والحكم، ويجوزون أن يقولوا: نتكلم بكلام الله تعالى وكلام الله غير مخلوق ولا يشبه كلام الخلق في الذات والحكم.

مسألة

ويجب أن يعلم أن الكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس لكن جعل عليه أمارات تدل عليه، فتارة تكون قولاً بلسان على حكم أهل ذلك اللسان وما اصطالحوا عليه وجرى عرفهم به وجعل لغة لهم، وقد بين تعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ. لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فأخبر تعالى أنه أرسل موسى عليه السلام إلى بني إسرائيل بلسان عبراني، فأفهم كلام الله القديم القائم بالنفس بالعبرانية، وبعث عيسى عليه السلام بلسان سرياني، فأفهم قومه كلام الله القديم بلسانهم، وبعث نبينا ﷺ بلسان العرب، فأفهم قومه كلام الله القديم القائم

بالنفس بكلامهم؛ فلغة العرب غير لغة العبرانية ولغة السريانية غيرهما، لكن الكلام القديم القائم بالنفس شيء واحد لا يختلف ولا يتغير، وقد يدل على الكلام القائم بالنفس الخطوط المصطلح عليها بين كل أهل خط، فيقوم الخط في الدلالة مقام النطق باللسان، وقد بين تعالى ذلك فقال: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُقِطُّ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْبِئُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٢٩] فقام الخط مقام النطق، لما كان يدل على الكلام دلالة النطق، لكن الخطوط تختلف بحكم الاصطلاح والمواضع وقلة الحروف وكثرتها، فحرف الإنجيل والتوراة كل واحد منها خلاف الآخر، وكذلك حروف العرب وخطوطهم تخالف غيرها، وكذلك حروف الهند وخطوطهم تخالف الجميع، لكن لكل خط وحرف بين أهله يقوم لهم في الدلالة على الكلام القائم بأنفسهم مقام دلالة نطق ألسنتهم، ويختصون بذلك في الفهم والاصطلاح عند كلام اللسان، وعند رسم الحروف الخطوط، حتى لا يفهم غيرهم ذلك إلا أن يتعلم لغتهم وخطوطهم، فصح أن الكلام الحقيقي هو المعنى القائم بالنفس دون غيره، وإنما الغير دليل عليه بحكم التواضع والاصطلاح ويجوز أن يسمى كلاماً إذ هو دليل على الكلام، لا أنه نفس الكلام، الحقيقي. وكذلك قد يدل على الكلام الحقيقي القائم بالنفس الرموز والإشارات، وقد بين ذلك تعالى بقوله في قصة زكريا عليه السلام: ﴿إِنِّيئُكَ إِلَّا تَكَلَّمُ لَأَنفَاسَ ثَلَاثَةِ آيَاتٍ إِلَّا وَرَءُكَ﴾ [آل عمران: ٤١] يعني أن لا تفهم الكلام القائم بنفسك باللسان، وإنما أفهمه بالرمز والإشارة ففعل كما أمره تعالى، فأخبر عنه فقال: ﴿لَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] فأنهم أمره الذي هو الأمر بالنسبيح القائم في نفسه بالإشارة دون نطق اللسان، وكذلك الأخرس الذي لا ينطق باللسان ولا يسمع الصوت، إنما يفهما كلامه القائم بنفسه، ونفهمه كلامنا القائم بأنفسنا بالإشارة دون نطق اللسان، فحصل من هذه الجملة أن حقيقة الكلام على الإطلاق في حق الخالق والمخلوق إنما هو المعنى القائم بالنفس لكن جعل لنا دلالة عليه تارة بالصوت والحروف نطقاً، وتارة بجمع الحروف بعضها إلى بعض كتابة دون الصوت ووجوده وتارة إشارة ورمزاً دون الحرف والأصوات ووجودهما، فحقيق الكلام القائم بالنفس موجود عند الحرف والصوت، لكن الخلق بكلامهم مخلوق بهم وكلام الله ليس بمخلوق كهو، سبحانه وتعالى. ونريد بقولنا كهو أن صفات ذاته لا توصف بالخلق والحدث ولا بشيء من الخلق والحدث، كما أنه تعالى لا يوصف بالخلق والحدث. ولا بشيء من صفات الخلق

والحدث، ولا نريد بقولنا كهو أنها خالقة رازقة. فافهم هذا التحقيق، لأن المعتزلة تشنع وتقول: إذا كان الباري عالماً يعلم ومتكلاً بكلام والكل قديم^(١) يجب أن يكون معه قدماء كثيرة في الأزل، وإذا كانت كهو فيجب أن تكون خالقة رازقة ألها كهو، وهذا تمويه منهم على عقول العوام، حتى ينفروهم عن أهل التحقيق والسنة والجماعة، ويميلوا إلى باطلهم من نفي صفات الله التي وصف بها نفسه في كتابه وسنة رسوله ﷺ حتى يوافقوهم في القول بخلق القرآن معنى، وإن لم ينطقوا به، وكذلك أن المعتزلة أكثر حجتهم على أن كلام الله تعالى مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن أنه بزعمهم حروف وأصوات فرضوا من هؤلاء العوام أن يصرحوا في كلام الله تعالى بما يوجب كونه مخلوقاً ضرورياً، وإن لم يقولوا إنه مخلوق نطقاً. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومما يدل على أن حقيقة الكلام هو المعنى القائم بالنفس من الكتاب والسنة والأثر وكلام العرب؛ ما نذكر^(٢) فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ السُّفُفُونَ قَالُوا نَحْنُ إِنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ وَأَلَّهِ يَمْلِكُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ السُّفُفِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] ونحن نعلم وكل عاقل أنه تعالى ما كذب المنافقين في ألفاظهم، إنما كذبهم فيما تكنه ضمائرهم وتكنه سرائرهم. وأيضاً قوله تعالى مخبراً عن الكفار: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [المجادلة: ٨] فأخبر تعالى: أن القول بالنفس قائم وإن لم ينطق به اللسان، والقول هو الكلام، والكلام هو القول. وأيضاً قوله تعالى: ﴿يَمْلِكُ الْوَيْرَ وَالْخَفَى﴾ [طه: ٧] قيل ما حدث به المرء نفسه مما يضمير فيها من قول أو فعل. وأيضاً قوله تعالى: ﴿يَمْلِكُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاخْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وأيضاً قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأَيْمَنِ﴾ [النحل: ١٠٦] فأسقط تعالى تلفظ المنافقين بالشهادة لرسوله، وجعل حكم الكذب للقول الذي في النفس والكلام الذي في النفس دون نطق اللسان، وأسقط حكم الكفر عن المكروه على كلمة الكفر وجعل الحكم لصدق الكلام القائم في القلب؛ فدل بهذه الآيات وما جرى

(١) وقول القاضي عضد الدين في الواقع: (لا ثبت في غير الإضافة) حاسم للنزاع بين الفريقين عند من أحاط خبراً بما يقوله، وراجع حاشية الخيالي وعبد الحكيم على النسخة (ز).

(٢) لقد أحسن المصنف كل الإحسان في التدليل على الكلام النفسي بتوسع لا تجده في غير هذا الكتاب؛ والنزاع بين الفريقين في إثبات ذلك ونفيه كما سبق (ز).

مجراها أن حقيقة الكلام هو المعنى القائم بالنفس. وله الحكم في الصدق والكذب دون الحروف والأصوات التي هي أمارات ودلالات^(١) على الكلام الحقيقي.

ويدل على ذلك من جهة السنة قوله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه». وهذا في حق المتأقين، فأخبر ﷺ أن الكلام الحقيقي هو الذي في القلب دون نطق اللسان، وأن الحكم للكلام الذي في القلب على الحقيقة وأن قول اللسان مجاز قد يوافق قول القلب وقد يخالفه. وأيضاً قوله ﷺ: «الندم توبة» فأخبر ﷺ: أن العاصي إذا نوى بقلبه الندم على المعصية منها أن ذلك حقيقة التوبة، وأن استغفار اللسان تبع لذلك، فصح أن الكلام الأصلي الحقيقي المعنى القائم بالنفس.

وأيضاً قوله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: إذا ذكرني عبدي في نفسه» فأثبت الذكر للنفس، فالذكر والقول، والكلام، واحد، فعلم أن حقيقة الكلام المعنى القائم في النفس.

ويدل على ذلك أيضاً قول عمر رضي الله عنه: زورت في نفسي كلاماً فأتى أبو بكر فزاد عليه. فأثبت الكلام في النفس من غير نطق لسان، وعمر كان من أجل هذا اللسان والفصاحة وهو أحد الفصحاء السبعة، والعربي الفصيح يقول كان في نفسي كلام، وكان في نفسي قول، وكان في نفسي حديث، إلى غير ذلك. وأنشد الأخطل:

لا تعجبنك من أثير خطبةً حتى يكون مع الكلام أصيلاً
إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

واعلم أن مذهب أهل الحق والسنة والجماعة أن كلام الله القديم ليس بمخلوق، ولا محدث، ولا حادث، ولا خلق، ولا مخلوق، ولا جعل، ولا مجعول، ولا فعل، ولا مفعول. بل هو كلام أزلي أبدي هو متكلم به في الأزل، كما هو متكلم به فيما لا يزال. لا أول لوجوده، ولا آخر له، وأنه لا يقال إن كلامه حكاية ولا عبارة ولا إني أحكي كلام الله، ولا إني أعبر كلام الله، بل نقول: نتلو كلام الله، ونقرأ كلام الله، ونكتب كلام الله، ونحفظ كلام الله، وأنه يجب التفرقة بين القراءة والمقروء، والتلاوة والمتلو، والكتاب والمكتوب، والحفظ، والمحفوظ، ولا يجوز

(١) وهذا يعود إلى ما حققه السعد كما سبق (ز).

أن يطلق على كلامه شيء من أمارات الحدث من حرف ولا صوت، ولا يقال إن القديم يجوز حلوله في المحدث كحلول الشيء في الشيء. وقد قدّمنا الأدلة على جميع ذلك وحققناه، ومنعّب المشبهة الحلولية المجسمة؛ أن كلام الباري حروف وأصوات وأنه قديم، وأن الحروف والأصوات التي توجد في كلام الخلق كلها قديمة، لا أخصص بعضهما على بعض، وهذا قول يفضي إلى قدم العالم عند كل محقق، ومنهم من قال: بل الأصوات والحروف إذا ذكرنا الله تعالى بها أو تلونا به كلامه قديمة، فإذا ذكرنا بها غير الله وأنشدنا بها شعراً كانت محدثة، وهذا جهل عظيم وتخطأ ظاهر، لأن الشيء عندهم على هذا القول تارة يكون محدثاً ثم يصير قديماً، وتارة قديماً ثم يصير محدثاً، وليس في الجهل أعظم من هذا وكفى به رداً لقولهم. ومنهم من يقول: أصواتنا وحروفنا بالقرآن قديمة وبغير القرآن محدثة، وهذا مثل القول الأول على الحقيقة وإن اختلفت العبادة، وقد بينّا فساد، ومنهم من حدث في هذا الوقت وبان له فساد الأقوال المقدم ذكرها فقال بجهله: أقول إن القرآن بأصوات وحروف تكلم بها الله، وإن كلامه حروف وأصوات، لكن حروف قديمة وأصوات قديمة. لا تشبه هذه الحروف والأصوات المخلوقة التي تجري في كلام الخلق، وهذا أيضاً جهل من قائله، ويؤدي أن لا يكون في المصاحف القرآن. لأن الحروف التي تكتب بها المصاحف هي هذه الحروف التي تجري في سائر ما يكتب ويؤدي إلى أن القرآن الذي نقرؤه ليس بقرآن، لأن القرآن بحروف وأصوات قديمة، ولا تشبه هذه الحروف والأصوات، ونحن لا نسمع إلا صوتاً مثل هذه الأصوات، ولا نرى حرفاً ولا نسمعه إلا مثل هذه الحروف؛ وهذا القول يوجب أن لا يكون عندنا قرآن بالجملة أو يؤدي إلى أن يكون هذا القرآن بهذه الحروف والأصوات المعروفة غير ذلك القرآن الذي هو بحروف وأصوات قديمة، لا تشبه هذه الحروف والأصوات، والجميع فاسد باطل، وسيأتي بطلان مقالاتهم في هذا وغيره في جواب ما يزعمون أنه حجة لهم في هذا وغيره، إن شاء الله تعالى.

وزعمت المشبهة أن القراءة هي المقروء، والتلاوة هي المتلو، وزعموا أن القديم يحل في المحدث^(١) ويختلط به، وتمسكوا في جميع ذلك بآيات وآثار زعموا أنها حجة لهم فيما صاروا إليه من هذه البدعة العظيمة التي جميعها يدل على أن كلام الله مخلوق محدث، فاحتجوا في التلاوة هي المتلو، وأن الله يسمى تالياً، ولا فرق

(١) كما هو رأي السالبة (ز).

عندهم في أن يقال نال أو متكلم. قالوا: والدليل على ذلك من القرآن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَتْلُوا كِتَابَ اللَّهِ فَذُكِّرُوا بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢] ويقول تعالى: ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِ﴾ [النجم: ٣]. قالوا: فسمى نفسه نالاً كما سمي نفسه متكلماً وقالاً، والجواب عن هذا وما جرى مجراه من وجهين:

أحدهما: أنا نقول ما أنكرتم أن ما ذكرتم هو حجة عليكم، وأن هاتين الآيتين قد دلتا على الفرق بين التلاوة والمنلو، وأن التلاوة غير المتلو وذلك أنه قال: ﴿تَتْلُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٥٢] والحق هاهنا هو كلامه القديم الموجود بوجوده القديم بقدومه، والتلاوة لم تكن موجودة ثم أوجدها؛ والدليل على أن الحق هو كلامه القديم الموجود بوجوده قوله تعالى: ﴿أَمَرَ يَقُولُونَ أَقْرَبَهُ بَلْ هُوَ الْخُبْرُ مِنْ رَبِّكَ يُتِلَاؤُا فَوْقَ مَا أَنْتُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الشجدة: ٣] وأيضاً قوله تعالى: ﴿حَقٌّ إِنْ فَرَجَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ﴾ [سبأ: ٢٣] فدل على أن الحق هو المتلو القديم، وأن التلاوة صفة لا فعل ذات. والذي يحقق ذلك قوله تعالى، قال: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا﴾ [الغنكبوت: ٤٨] فنفى قبل أن يكون نالاً، ثم أحدث له تلاوة ولم تكن ثم كانت، فالحق الذي هو المتلو موجود ثابت لا يتصف بأنه لم يكن ثم كان.

والجواب الثاني: أن قوله «تتلوا» يريد به بأمر من يتلو عليك، وهو جبريل عليه السلام. إلا أن التلاوة لما كانت بأمره أضافها إلى نفسه، وهذا صحيح، يدل عليه الكتاب والمعنى الصحيح. فأما الكتاب، فالدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ تُكَلِّمُونَ وَآتَيْنَاكُمْ مَائِدَتُكَ اللَّهُ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ [آل عمران: ١٠١] وقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشورى: ١٧] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿يَلْقَاهُ رُوحُ رَبِّهِ﴾ [الشورى: ١٧] [الشورى: ١٧٣-١٩٥] وصار هذا كقوله في قوم نوح: ﴿إِنَّا لَنَا كَلِمَاتُ الْكَلَامِ حَتَّىٰ نُنْزِلَ الْوَيْلَ﴾ [الحاقة: ١١] يعني السفينة، فأضاف الحمل في السفينة إلى نفسه، والحامل فيها نوح عليه السلام، إلا أنه لما كان بأمره أضاف الحمل إليه، والدليل على الحامل أنه كان نوحاً عليه السلام، قوله تعالى: ﴿قُلْنَا امْكُثْ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذِي يَخْلٍ﴾ [هود: ٤٠] وهذا أيضاً كقوله تعالى في قصة مريم عليها السلام: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الانبيا: ٩١] والنافخ كان جبريل عليه السلام إلا أنه لما كان نفخه بأمره أضاف ذلك إلى نفسه فلذلك أضاف التلاوة إلى نفسه لما فعلت بأمره. وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَنفَخَ اللَّهُ فِي يَتْلِيهِمْ مِنْ أَلْفَايِدٍ فَفَرَّ عَنْهُمْ الشَّقَقُ﴾ [النحل: ٢٦] وجبريل عليه السلام الذي كان أتى البنيان، لكن لما كان بأمره أضافه إلى نفسه

وكذلك قوله تعالى: ﴿رَلَقَدِ جَنَّتَهُمْ بِكُتُبٍ فَعَلَّتُهُ عَلَيَّ﴾ [الأعراف: ٥٢] والذي جاءهم بالكتاب هو النبي ﷺ، لكن لما كان مجيئه بالكتاب إليهم بأمره تعالى أضاف ذلك إلى نفسه، والقرآن من هذا مملوء إذا تتبع. إنه يضيف الفعل إلى نفسه وإن كان الفاعل له غيره، لما كان بأمره.

وأما الدليل من كلام العرب، فإنه يقال: نادى الأمير في البلد، فيضاف النداء إليه لما كان بأمره، وإن كان المنادي غيره، فصح ما قلناه.

ثم نقول لهم: أليس الله تعالى قال: ﴿فَقَدْ نَفَضَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] أتقولون: إن الله تعالى قاص؟ هذا قول لا يجوزُه أحد من المسلمين؛ لكن لما قص عليه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى أضاف القصص إلى نفسه، لما كان بأمره، وقد بين ذلك بقوله: ﴿يَمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣] فالقرآن كلامه وصفته، وقص جبريل عليه السلام على الرسول ﷺ بالقرآن الذي تضمن قصص الأولين وأخبارهم. فإن احتجوا على أن القراءة هي المقروء بما روي عنه ﷺ أنه قال: «قرأ الله ﷻ طه» [طه: ١] و«يس ﷻ» [يس: ١] قبل أن يخلق الخلق بالفي عام، فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل هذا عليها قالوا: فأضاف القراءة إلى الله تعالى. فالجواب عن هذا من وجهين:

أحدهما: أنه ذكر أن القراءة وجدت قبل السموات والأرض بالفي عام، ودل على أنها لم تكن موجودة ثم وجدت، والمقروء القديم ليس لوجوده أولية، بل هو موجود بوجوده تعالى، فدل على الفرق بين القراءة والمقروء، لأن المقروء موجود بوجوده تعالى.

والجواب الثاني: أنه أمر بعض الملائكة أن يقرأ ﴿طه ﷻ﴾ [طه: ١] و«يس ﷻ» [يس: ١] قبل أن يخلق السموات والأرض بالفي عام، فلما سمعت الملائكة ذلك قالوا: وأضاف القراءة إلى نفسه. لما كانت بأمره، فصار هذا كقوله تعالى: ﴿أَنَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى الْآلِهَةِ جِئَ مَوْتُهَا﴾ [الزمر: ٤٢] والمتوفى هو ملك الموت، بدليل قوله تعالى: ﴿قَدْ يَتَوَكَّلُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] لكن لما كان توقيه لهم بأمره أضاف ذلك إلى نفسه.

فصل

ومما يقوي جميع ذلك من السنة: أن الفعل يضاف إلى الأمر به، وإن كان لم يفعل به بنفسه، وإنما أمر بفعله؛ ما روي أن النبي ﷺ رجم ماعزاً؛ والنبي ﷺ لم يباشر الرجم بنفسه، لكن لما أمر الصحابة جاز أن يضاف إليه.

وأيضاً ما روي عنه ﷺ أنه قطع يد سارق ثوب صفوان ومعلوم أنه ﷺ ما باشر القطع، لكن أمر به، فأضيف الفعل إليه لما صدر عن أمره. وكذلك روي عنه ﷺ أنه جلد شارب الخمر أربعين، ولم يباشر الجلد بنفسه، لكن لما كان عن أمره جاز إضافة الفعل إليه. والأخبار في هذا المعنى كثيرة جداً. وأيضاً يقال: جبي عمر رضي الله عنه خراج العراق، ولم يباشر الجباية بنفسه، لكن لما جبي بأمره جاز إضافة الفعل إليه. وكذلك يقال: افتتح عمر رضي الله عنه الشام والأمصا، وهو لم يباشر ذلك بنفسه، لكن الصحابة والجند بأمره، فصح بهذه الجملة أن التلاوة فعل التالي، لكن هي بأمر الله تعالى وإيجاده، فصح أن يضاف إليه القراءة والتلاوة على هذا الوجه، فاما المتلو والمقروء فليس بفعل لأحد بل هو كلامه القديم الذي هو صفة من صفات ذاته الذي ليس بمخلوق ولا يتصف بشيء من صفات الخلق.

فصل

ثم نقول لهؤلاء الجهلة الضالّاء: كيف يجوز لكم أن تقولوا إن القراءة هي المقروء، والتلاوة هي المتلو، والله تعالى قد فصل بينهما، وجعل القراءة فعل القارئ، والمقروء هو القرآن الذي هو كلام الباري، في غير موضع من كتابه.

أحدها: قوله تعالى: ﴿لَمَّا قُرْئَ الْقُرْآنُ﴾ [النحل: ٩٨] فأفرد القراءة عن القرآن، وأن القراءة فعل الرسول، والمقروء ليس بفعل لأحد، بل هو كلام الله القديم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ﴾ [آل عمران: ٤١] فأفرد الذكر عن المذكور، فالذكر فعل الذاكر، والمذكور هو الله تعالى القديم الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وأيضاً قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا يَنْشُرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠] وقوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [النكيت: ٤٥] وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩٢] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩] وفي القرآن أكثر من ألف موضع يدل على الفرق بين التلاوة والمتلو، والقراءة والمقروء، لمن له حس سالم، وعقل ثابت. ومن القدر الذي قدمناه دليلاً:

أحدهما: أنه تعالى ذكر تلاوة، ومتلوا، وقراءة، ومقروء، فبطل بذلك زعمهم أنه شيء واحد.

الثاني: أنه أمر بالقراءة، والتلاوة، والأمر هو استدعاء الفعل بالقول ممن هو دونه. والصفة القديمة التي هي المقروء، والمتلو لا يصح فيه الفعل ولا استدعاء الفعل، فصح أن المأمور به استدعى غير المقروء، والمتلو هي القراءة والتلاوة. فافهم هذا التقرير فإنه يوجب الفرق بين الأمرين، ضرورة الإشكال فيه. ثم نقول لهم: القراءة قد اختلفت وتنوعت أنواعاً، أفقولون إن المقروء الذي هو القرآن مختلف متنوع؟ فإن قالوا: نعم كفروا، وإن قالوا: لا فقد ثبت أن الذي جاز عليه الاختلاف والتنوع غير الذي لم يجز عليه ذلك، وأيضاً فإن كل قراءة منسوبة إلى قارئها، فيقال هذه قراءة أبي، وهذه قراءة ابن مسعود، وكذلك في سائر القراءات، ولا يجوز أن ينسب المقروء الذي هو القرآن إلى أحد من الخلق، فيقال هذا قرآن أبي ولا قرآن ابن مسعود، فصح أن القراءة فعل القارئ، فصح أن تنسب قراءة كل واحد إليه، لأنها فعله الذي يثاب ويمدح عليها تارة ويعاقب ويندم عليها أخرى، والمقروء بسائر القراءات كلام الله تعالى الذي ليس بفعل لأحد، فصح الفرق بين الأمرين.

فصل

ثم نقول لهم: ما تقولون فيمن قال: إن قرأت بقراءة أبي جعفر يزيد القعقاع - شيخ نافع - فعبدني حر، فقرأ بقراءة الجحدري عاصم، أيعتق عبده أم لا؟ ليس فيه خلاف بين المسلمين. ولو قال إن قرأت مقروء ابن كثير فعبدني حر، فقرأ بقراءة ابن عامر عتق عبده، لأن المقروء شيء واحد، وإن اختلفت القراءات.

فصل

ثم نقول: لو اجتمع مائة قارئ فقرأوا القرآن أليس عدة القراء مائة، كل واحد منهم يثاب على قراءته، فالثواب مائة ثواب على مائة قراءة، أفقولون: إن القرآن الذي قرؤوه بقراءتهم مائة قرآن أم قرآن واحد، فلا يقول عاقل إلا أنه قرآن واحد، لكن القراءات متعددة، فصح الفروق بين القراءة والمقروء.

فصل

ثم نقول لهم: إذا قرأ القارئ القرآن وحصل له الثواب، أحصل له الثواب على فعل فعله أو على غير فعل؟ فإن قالوا: على غير فعل فعله وجب أن يكون هذا الثواب يحصل للساكت كما حصل للقارئ، وهذا لا يقوله عاقل. وإن قالوا: على فعل فعله، صَحَّ أن الذي فعل القراءة، أو السماع إلى القراءة، والمقروء المتلو الذي هو كلام الله ليس بفعل لأحد، وكذلك المسموع ليس بفعل لأحد؛ فصَحَّ الفرق بين الأمرين. فافهم.

وأيضاً فإنه يجوز إذا أهرّب القارئ القراءة، ومكن ما يجب تمكينه، ووقف فيما يجب الوقوف عليه، وبدأ بما يجوز البداء به، وقطع ما يجوز القطع عليه، ووصل ما يجوز وصله، فجائز أن يقال فلان حسن القراءة، جيد القراءة، وإذا كان بالعكس من ذلك جاز أن يقال: فلان ليس بحسن القراءة ولا جيد القراءة، ولا يجوز أن يقال لمقروء غير حسن ولا جيد، بل المقروء حسن، سواء كانت القراءة حسنة أو غير حسنة. فافهم الفرق بين الأمرين.

ثم نقول لهم خبرونا: أليس الله تعالى فرض علينا القراءة في الصلاة؟ فإذا قالوا: بلى. قلنا: أفرض علينا شيئاً نفعله أو غير شيء نفعله؟ فإن قالوا: فرض علينا شيئاً نفعله. قلنا: وما هو هذا الشيء؟ فلا بد أن يقولوا: القراءة. قلنا: فقد صَحَّ أن القرآن موجود قبل القارئ له وقراءته في الصلاة، ثم أمره تعالى بأن يقرأ: أي يفعل فعلاً يسمى قراءة ففعل العبد صفة العبد لا صفة الرب، هذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٤١] أليس المذكور غير الذكر الذي هو فعل الذائر المأمور بفعله، فكذلك القراءة فعل القارئ والمقروء القرآن، ثم نقول لهم أليس كلام الله تعالى موجود بوجوده، قديم بقدمه قبل أن يخلق خلقاً، فلا بد من نعم. فنقول: فهل يصح وجود القراءة من القارئ قبل وجوده؟ فلا بد من لا. فنقول: ما كان موجوداً قبل القارئ فهو القرآن الذي هو كلام الله، وما وجد من القارئ بعد أمره بالقراءة فهو فعله لا محالة، وهذا قدر لا يخفى على بشر سليم العقل.

فإن احتجوا على أن الكلام القديم يوصف بالصوت والحرف، بقوله تعالى: ﴿حَقَّ يَسْمَعُ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [الثورة: ٦] قالوا: والذي يسمع إنما هو صوت وحرف، وقد نسب إليه، فدل على أنه متكلم بصوت وحرف. فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن يقال لهم: ما أنكرتم أن تكون هذه الآية حجة عليكم، وذلك أن كل عاقل يقول: إن المشرك لا يسمع كلام الله بلا واسطة، وهي قراءة القارىء، فلا بد من وجود القراءة التي هي حروف وأصوات، فيحصل لهذا المشرك السماع حينئذ لكلامه تعالى، فحصل معنا عند ذلك مسمع أسمع كلام الله بإسماع أوجده، وهي قراءته التي هي حروف وأصوات، ومسموع وهو كلام الله تعالى الذي لا يجوز أن يكون حروفاً وأصواتاً، لأن الحروف والأصوات يتقدم بعضها على بعض، وصار هذا بمنزلة من أسمنا الله بذكره، بأن قال: يا الله. قلنا: حصل معنا مسمع وهو الذاكر، وإسماع أسمنا به المسموع، وهو المذكور، فالإسماع يقع بحروف وأصوات، فيجوز لكل أن يقول: إن الله المذكور هو حروف وأصوات^(١).

الجواب الثاني: أن المراد بهذه الآية ما هو سماع الحروف والأصوات إنما المراد بهذه الآية: حتى يتدبر كلام الله ويفهم ما فيه. لعله يرجع عن شركه ويهتدي، فالحروف والأصوات لا تهدي، إنما الذي يهدي هو القرآن الذي هو كلام الله تعالى. دليله: قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

جواب ثالث: وهو أن يقال لهم: إذا كان الكلام القديم أصواتاً وحروفاً.

والكلام المخلوق الذي من الشعر والخطب أصواتاً وحروفاً، فقد صار الكلام القديم كالكلام المخلوق، وهذا القول بوجب أن يكون كل كلام قديم أو محدث [سواء] لأن الحرف والصوت في قول القائل إذ أخبر عن قول اللعين فرعون: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ أَتَعْلَمُونَ﴾ [الشّارعات: ٢٤] فاعبدون، فصورة الحروف في قول فرعون أنا ربكم، كصورتها في قراءة القارىء ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، فصح أن الحروف والأصوات ليست [كلام] فرعون، ولا الرب تعالى، فالحرف والصوت يعبر به عن كلام فرعون، ويقرأ به كلام الله تعالى، فصح، أن الحرف والصوت أداة يقرأ بها الكلام القديم، لا أن الحرف والصوت نفس الكلام القديم.

جواب رابع: وهو أن يقال لهم: خبرونا عن قولكم إن الله تعالى متكلم بأصوات وحروف، أي هذه الحروف والأصوات الجارية الدائرة في سائر كلام الخلق، أو غيرها؟ فإن قالوا: هي هذه فقد جعلوا جميع كلام الخلق قديماً كله؛ وإن قالوا: بل هي غير هذه الحروف والأصوات الجارية في كلام الخلق. قلنا: فصح

(١) يعني الاسم لا المسمى (ز).

حينئذ أن قراءة القراء للقرآن بحروف وأصوات غير الحروف والأصوات التي تعنون؛ فإذن ليس عندنا كلام الله تعالى، بل هو غائب عنا، لأن أصوات القراء وحروفهم هذه هي المعهودة الجارية في كلام الخلق. وكذلك أيضاً يجب أن لا يكون في المصحف قرآن؛ لأن الحروف التي فيه هي الحروف المعهودة الجارية في خطوط الخلق، وكل هذين القولين باطل؛ فثبت أن الحروف والأصوات يقرأ بها الكلام القديم ويكتب بها الكلام القديم، لا أنها نفس الكلام. ثم يقال لهم: خبرونا: أصبح خروج حرف من غير مخارج؟ فإن قالوا: لا. قلنا: فتقولون إن الباري - تعالى عن قولكم - ذو مخارج من شفة للفاء؛ وحلق للمحاء؛ ولسان للثاء؛ وإن قالوا: نعم جسموا بإجماع المسلمين^(١)؛ وإن قالوا: لا تحتاج الحروف إلى مخارج؛ فقد كابرُوا الحس والعيان مع قولهم بصحة الخبر المروي بزعمهم، وذلك أن كلامه منه خرج، وكلامه عندهم حروف، فيجب على قولهم أن يكون خروجها من مخارج؛ وكل هذا القول كفر وضلال، وسفه وحمق وجهل عظيم.

فصل

فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿حَمَّ﴾ [غافر: ١، فصلت: ١، الشورى: ١، الزخرف: ١، الدخان: ١، الجاثية: ١، الأحقاف: ١] و﴿المر﴾ [البقرة: ١، آل عمران: ١، العنكبوت: ١، الروم: ١، لقمان: ١، السجدة: ١] ونحو ذلك من الحروف المقطعة في أوائل السور، وقالوا بالإجماع إن هذا كلام الله، فصَحَّ أن كلامه حروف، قلنا: الجواب عن هذا من وجوه:

أحدها: إن أردتم بقولكم إنها كلام الله تعالى، بما تزعمون من الإجماع أن نفس صورة الألف، ولام، وميم نفس الكلام القديم، فلا قائل بهذا غير جهالكُم الذين لا فهم لهم ولا عقل، لأن هذا القول منهم يؤدي إلى أن الكافر المشرك يقدر أن يوجد القديم ويفعل القديم، لأن كل كافر كاتب يقدر أن يكتب صورة ألف ويلفظ بألف، ومن عظيم الجهل أن يكون عبد مخلوق مربوب يقدر أن يوجد القديم ويفعل

(١) فتعساً لمن عزا إلى أحمد - كما سبق - سماع موسى التوراة من الله من فيه، كما في طبقات الحنابلة لأبي الحسين بن أبي يعلى في ترجمة الإصطخري؛ وذكره ابن بدران أيضاً في المدخل. نعوذ بالله من الخللان (ز).

قديمًا، هذا جهل ظاهر. وإن قلتم المفهوم من ﴿الْعَمَّ﴾ [البقرة: ١] و﴿حَدَّ﴾ [غافر: ١، فصلت: ١، الشورى: ١، الزخرف: ١، الدخان: ١، الجاثية: ١، الأحقاف: ١] ونحو ذلك هو كلام الله تعالى عند نظر الناظر إليها، وأن المسموع عند قراءة القاريء ﴿الْعَمَّ﴾ [البقرة: ١] و﴿حَدَّ﴾ [الشورى: ١] ونحو ذلك هو كلامه تعالى وهذا صحيح، وصح بذلك أن الكلام القديم يفهم بالحروف المنظومة، على اختلاف نظمها بين أرباب تلك الخطوط والأشكال كلام الله تعالى، فكذلك صح أن القراءة هي حروف وأصوات بها يسمع كلام الله القديم على حسب اختلاف اللغات بين أربابها، لا أنها نفس كلامه القديم. وقد اختلف المفسرون في هذه الحروف المقطعة في أوائل السور على ثمانية أقوال:

أحدھا: أنها أسماء من أسماء القرآن، كالذكر والفرقان، وهذا قول قتادة وابن جريج.

الثاني: أنها اسم لكل سورة ذكرت في أولها، وهذا قول زيد بن أسلم.

الثالث: أنها يعبر بها عن اسم الله الأعظم، وهذا قول السدي، والشعبي.

والرابع: أنها أقام أقسم بها الله تعالى، وبه قال ابن عباس، وعكرمة.

والخامس: أنها حروف مقطعة من أسماء وأفعال، فالألف من أنا، واللام من الله، والميم من أعلم. فكان معنى ذلك أنا الله أعلم. وهذا قول ابن مسعود، وسعيد بن جبير ونحوه عن ابن عباس أيضاً؛ والعرب قد تعبر عن الكلمة بحرف منها، كقول القائل: قلت لها قفي. قالت: قاف. أي وقفت، ومثله في كلام العرب كثير. وقد قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿كَهَيِّضَ﴾ [مریم: ١] الكاف من كافي، والهاء من هاد، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق.

السادس: أن كل حرف منها يدل على معان مختلفة، فالألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاح اسمه مجيد، والألف آلاء الله، يعني نعمه، واللام ملكه، والميم مجده، والألف سنة، واللام ثلاثون سنة، والميم أربعون سنة، آجال ذكرها.

والسابع: أنها حروف من حباب الجمل، لما روي عن ابن عباس، عن جابر بن عبد الله قال: مر أبو ياسر [ابن أخطب] ورسول الله يتلو فاتحة الكتاب وسورة البقرة ﴿الْمَرْءُ لِلَّذِي أَلْكَنُ﴾ [البقرة: ١٧٠] فأنه أخوه حيي بن أخطب، فأخبره، فقال حيي بن أخطب: وأقبل على اليهود، فقال لهم: الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم

أربعون، وهذه أحد وسبعون سنة، ثم ذهب حيي مع هؤلاء النفر إلى رسول الله ﷺ و[قال رسول الله ﷺ] فهل معك غير هذه؟ قال نعم ﴿التَّصَرُّفُ﴾ [الأعراف: ١] قال: أثقل وأطول، والألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذه أحد وستون ومائة سنة، ثم قال: هل معك غير هذه يا محمد؟ قال: نعم، قال: ماذا؟ قال: ﴿الترُّبُ﴾ [يونس: ١، هود: ١، يوسف: ١، إبراهيم: ١، الحجر: ١] فقال: هذا أثقل وأطول، الألف واحد، واللام ثلاثون، والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة، فهل مع هذا غيره؟ قال: نعم ﴿الزَّعْدُ﴾ [الزَّعْدُ: ١] قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحد، واللام ثلاثون، والميم أربعون، والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة. قال: لقد التبس علينا أمرك حتى ما ندري أقليل أعطيت أم كثير. ثم قاموا من عند النبي ﷺ، فقال أبو يسار لأخيه حيي ولمن معه من اليهود: وما يدريكم لعله قد جمع هذا كله لمحمد إحدى وسبعون، وإحدى وستون ومائة، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة سنة وأربع وثلاثون سنة. قالوا: والله لقد تشابه علينا أمره، قيل فنزلت فيهم^(١): ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُخَيِّرُكَ مِنْ أَمْرِ الْكِتَابِ وَأُخْرَى مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَحْتُمُّ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

والثامن: أنها حروف هجاء، أعلم الله بها العرب حين نحداهم، أن تلاوة القرآن بحروف كلامهم هذه التي عليها بناء كلامهم، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم، إذ لم يخرج تلاوته عن مباني كلامهم.

جواب ثاني: وهو أنك تقول: إذا قلتم أن الحرف المفرد إذا أتى به في تلاوة كلام الله هو نفس كلام الله، فما تقولون فيمن أسقط شيئاً من كلام الله، أيجوز ذلك أم لا؟ فلا بد من أن يقولوا لا يجوز. فيقال لهم: خبرونا عن جماعة من القراء من الصحابة والتابعين ومن اتبعهم بإحسان الذين قرؤوا ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ﴿١﴾ [الفاتحة: ٤] وهم الأكثر، قد أسقطوا ألفاً هي في قراءة غيرهم. لأن غيرهم يقرؤون مالك بالالف. فإن قالوا: أخطؤوا فلا يجوز لهم ذلك. وهو القول الصحيح الصواب. قلنا: فصَحَّ أن الألف ليس نفس كلام الله القديم، لأنه لا يجوز لأحد أن

(١) والخبر ضعيف (ز).

يسقط منه شيئاً^(١)، وإنما الألف صفة قراءة دون قراءة، فالمقروء مع إثبات الألف هو المقروء مع إسقاط الألف شيء واحد، لا يزيد بزيادة الحروف ولا ينقص بإسقاط الحروف، والقراءة تزيد بزيادة الحروف وتنقص بإسقاط الحروف، وقد قيل: إن من قرأ القرآن بقراءة ابن كثير كتب له أجر ختمه وثلاث، لأنه يزيد في الحروف أكثر من سائر القراء لأنه يقرأ لديه وإليه وعليه، والكسرة عندهم تقوم مقام حرف، وقرأ في التوبة ﴿يَجْتَرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: ٢٥ و٢٦٦، آل عمران: ١٥، ١٣٦، ١٩٥، ١٩٨] وهذا يوضح لك أن قوله ﷺ: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات» أن الحروف عائدة إلى القراءة. وطول حروفها دون المقروء الذي هو كلام الله تعالى لا يزيد ولا ينقص. وسنذكر ذلك في الجواب عن هذا الخبر إذا احتجوا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

جواب آخر: وهو أنك تقول: خبرونا عن حروف كلام الله على زعمهم، أي ثمانية وعشرون حرفاً أو أكثر أو أقل؟ فإن قالوا هي ثمانية وعشرون حرفاً فقد جعلوا القديم مما يحله الحصر والعد والافتتاح والانتهاج [وهي] صفة المخلوقات لا صفة القديم. وإن قالوا: أكثر. قلنا: أكثر إلى ما له حد أو إلى ما لا حد له؟ فأبي القولين قالوا كان باطلاً، لأن القرآن لا يخرج في الكتابة والتلاوة على أكثر من هذه الثمانية وعشرين حرفاً، فعلى قولهم يجب أن يكون معنا بعض القرآن لا كله، لأن القرآن عندهم حروف يزيد على هذه الحروف، ولعل الذي يكون معنا من القرآن أقله، لا سيما إن قالوا إن الحروف القديمة لا يدخلها حصر ولا عد، وهذا قول سافط وإيه عند كل عاقل محصل، فلم يبق إلا أن الحروف والأصوات أدوات نكتب بها ونتلو بها الكلام القديم، وغير الكلام القديم، لا أنها نفس الكلام. فافهم ذلك.

وجواب آخر: وهو أن تقول لهم: خبرونا أليس قد قرأ سائر القراء غير نافع وابن عامر في سورة الحديد في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْفَائِزُ الْمُبِيتُ﴾ [الحديد: ٢٤] بإثبات الهاء والواو، وقرأ نافع وابن عامر بإسقاط الهاء والواو، فالذي أسقط من الهاء والواو كلام الله تعالى أو قراءة كلام الله تعالى، فلا يجوز لعاقل أن

(١) وإسقاط الألف وإثباتها متواتران، فيكونان كآيتين، ولم يسقطها قارئه بنفسه ولا أثبتها قارئه آخر بنفسه، فلا تكون في الجواب وجاعة كما سيأتي (ز).

يقول الهاء والواو كلام الله؛ لأن من أسقط شيئاً من كلام الله كفر^(١) ولا خلاف بين المسلمين أنهما على الحق، وربما رجحوا قراءتهما على غيرهما، فلم يبقَ إلا أن الحروف آلة للقراءة تسقط تارة وتثبت أخرى، والمقروء المتلو ثابت لا يحتمل النقصان ولا الزيادة، لأنه قديم لكن المخلوق يجوز ثبوته تارة وإسقاطه أخرى.

* * *

فصل

فإن احتجوا على إثبات قدم الحروف، وأن كلام الله القديم يتصف بالحروف، بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أنزل القرآن على سبعة أحرف».

فالجواب: أنه لا حجة في هذا الحديث من وجوه عدة، لأنكم تخالفون هذا الحديث. لأن الرسول قال على سبعة أحرف، وأنتم على ثمانية وعشرين حرفاً، فقد أسقطتم متن هذا الحديث، ولم تقولوا به، فلا حجة لكم فيه.

جواب آخر: وهو أنه ﷺ قال: «أنزل على سبعة أحرف» ولم يقل تكلم الله بحرف، وأنتم إنما تريدون إثبات الحرف لكلامه، لا نزول كلامه فلا حجة لكم فيه.

جواب آخر: وهو أن قوله عليه السلام على سبعة أحرف، لم يرد بها حروف التهجي، وإنما أراد بها غير ذلك، بإجماع أهل العلم من الصحابة والتابعين، ولأنه روي عنه ﷺ أنه فسر ذلك بغير حروف التهجي، لأنه قال: «على سبعة أحرف» ثم فسرها فقال: «أمر، ونهي، وترغيب، وترهيب، وجدل، ومثل، وقصص» وقال بعض الصحابة والتابعين يعني على سبع لغات، مما لا يغير حكماً من تحليل ولا تحريم، مثل قوله تعالى: ﴿يَتَمَوَّعُ أَقْبَلُ وَلَا تَخَفُ﴾ [القصص: ٣١] فكانوا لا يفرقون بين قول التالي أقبل أو هلم، أو يقال: لأن معانيها متفقة وإن اختلفت اللغات فيها، وما جرى هذا المجرى، وكانوا في صدر الإسلام مخيرين فيها، فلما اجتمعت الصحابة رضي الله عنهم عند جمع القرآن على أحدها، وهو قوله ﴿أَقْبَلُ وَلَا تَخَفُ﴾ منع هذا الإجماع من غير أقبل إلى هلم وتعال. ونحو ذلك، وقيل عن بعض الصحابة والتابعين: إن قوله على سبعة أحرف أراد بذلك على سبع لغات للعرب، في صيغة

(١) والإسقاط والزيادة في مثل هذه المواضع متواتران؛ فيكونان في حكم آيتين فلا وجاهة في هذا الجواب. وكفى باقي الأجوبة (ز).

الألفاظ في التلاوة وكيفية مخارجها ونقص حروفها وزيادتها ووجوه إعرابها، كالذي اختلف فيه القراءات، فقرأ بعضهم: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَقَرِّوٓرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] بغير الواو، وقرأ آخرون بواو، وقرأ بعضهم «فيكون» بالنصب في مواضع، وقرأ آخرون فيكون بالرفع فيما نصبه الأولون، وقرأ بعضهم: ﴿قُلْ لَّيْسَ بِي ذَنْبٌ مِّن رَّبِّي﴾ [البقرة: ٣٧] فنصب آدم ورفع كلمات وهو ابن كثير، وقرأ آخرون برفع آدم ونصب كلمات، إلى نحو هذا مما لا يحصى عدداً، فبطل احتجاجهم بالإجماع مما نقل عن الرسول والصحابة والتابعين أن أحداً منهم قال إنه أريد بالسبع حروف التهجي، وإنما المراد به اختلاف القراءات دون غيرها ما روي أن عمر رضي الله عنه مر ببعض الصحابة وهو يقرأ سورة الفرقان على خلاف القراءة التي أقرأها رسول الله ﷺ، قال عمر: فكدت أن أساوره، يعني أهجل عليه. فابطش به، ثم قال: لبيتته حتى أتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على خلاف القراءة التي أقرأتها فقال: خلّ عنه. ثم قال: اقرأ، فقرأ عليه القراءة التي سمعتها فقال: هكذا أنزل. ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأت عليه القراءة التي أقرأتها فقال: هكذا أنزل. ثم قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، الكل شافٍ كافٍ فافروا ما تيسر منه» فاد هذا الحديث وجوهاً:

أحدها: أن الحروف واختلافه صفة القراءة التي يجوز فيها الاختلاف، لا كلام الله القديم الذي لا يجوز فيه الاختلاف^(١).

الثاني: أن عمر ما أنكر عليه أن انقرآن المقروء بقراءته كلام الله، إنما أنكر عليه القراءة التي هي صفة القارئ وظن أن هذه القراءة فاسدة وقراءته أعلمه الرسول عليه السلام أن كل واحدة من القراءتين جائزة، وإن اختلفا، لأن المقروء بها لا يختلف لاختلافها.

الثالث: أن الرسول أخبر أن القرآن يقرأ على سبع قراءات، وأن تعدد القراءات لا يدل على تعدد القرآن؛ لأن السبع المقروء بها واحد، وهو كلام الله القديم، الذي لا يشبه كلام الخلق، ولا يختلف في حال من الأحوال، وإن اختلفت القراءات. فافهم التحقيق ترشد إن شاء الله تعالى.

(١) كان أحمد يقول: القرآن من علم الله وعلم الله غير مخلوق: فما نواتر من زيادة ونقص كلاهما أبعاض القرآن باعتبار الوجود العلمي، فلا وجاعة في هذا الجواب (ز).

فصل

فإن احتجوا على أن الله تعالى متكلم بحروف، بما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات، أما إني لا أقول ألم حرف، لكن الألف حرف، واللام حرف، والميم حرف» قالوا: فدل على [أنه] تكلم بحروف، فالجواب من وجوه:

أحدها: أن الحديث لا حجة فيه على ما تريدون، لأنه لم يقل تكلم الله بحروف، وإنما قال: من قرأ فله؛ وهذا لا حجة فيه.

جواب آخر: وهو أن الأجر إنما يقع على الطاعة التي هي القراءة، لا على القديم الذي هو كلام الله، ونحن نقول: إن الحرف عائد إلى القراءة لا إلى المقروء، والذي يحقق ذلك أنه إذا جلس اثنان حافظان لكلام الله تعالى وهما ساكنان؛ أليس كل واحد منهما معه كلام الله في صدره، كما أخبر تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْتَثُّ فِي سُدُورٍ اللَّيْلِ أَوْثُوا الْقُرْآنَ﴾ [الغنكبوت: ٤٩] ولا يحكم بأن لكل واحد منهما حسنة، وإن كان كلام الله موجوداً معهما؛ فإذا قرأ أحدهما وسكت الآخر، أليس يحصل للقارئ بكل حرف عشر حسنات، لوجود القراءة منه، وليس للمساكت منهما هذه الحسنيات، وإن كان معه كلام الله القديم على الوجه الذي ذكرنا، وإنما زاد عليه هذا بأن وجدت منه القراءة التي هي حروف وفعل منه يسمى طاعة، لقوله ﷺ: «أفضل عبادات أمتي قراءة القرآن» فصح أن الثواب على الفعل الذي هو طاعة، لا على الكلام القديم، فكان الحرف صفة التلاوة لا صفة المتلو.

جواب آخر: وهو أنه قد روي عنه ﷺ أنه أضاف الحرف إلى التلاوة، لا إلى كلام الله القديم، وهو ما روى عبد الله بن مسعود أن الرسول قال: «تعلموا القرآن فإنه مآدبة الله فتعلموه واتلوه فإنكم تزجرون على تلاوته بكل حرف عشر حسنات». فأضاف الحرف إلى التلاوة لا إلى المتلو، فصح ما قلناه، وبطل ما توهم الجاهل أنه حجة له.

فصل

فإن احتجوا في إثبات الصوت لكلام الله تعالى، وأنه متكلم بأصوات، بما روي في الحديث: «إذا كان يوم القيامة نادى الله تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه

من قرب،^(١) الخبر... قالوا: فقد أضاف الرسول عليه السلام الصوت إلى الله تعالى، فصح ما قلناه، الجواب من أوجه:

أحدها: أنك تقول أولاً لا حجة لكم فيه، لأنه ﷺ ما قال تكلم الله بصوت، ولا قال بصوت، ولا قال كلام الله أصوات، كما تزعمون بجهلكم؛ وإنما قال نادى الله بصوت، وليس الخلاف إلا أن كلامه أصوات، فلا حجة لكم فيه.

جواب آخر: وهو أن هذا الحديث قد روي فيه ما يدل على [أن] الصوت من غير الله بأمره، لأنه روي إذا كان يوم القيامة جمع الله الخلائق في صعيد واحد، ينفذهم البصر، ويسمعهم الداعي، يأمر منادياً فينادي، فصح أن النداء من غيره، لكن لما كان بأمره أضيف النداء إليه، كما يقال: نادى الخليفة في بغداد بكذا وكذا. ويقال: أمر الخليفة منادياً فتنادى بأمره في بغداد بكذا وكذا، ولا فرق بين الموضعين، فإن كل عاقل يعلم أن الخليفة لم يباشر النداء بنفسه، لكن لما كان بأمره جاز أن يضيفه إلى نفسه، وأن يضاف إليه، وإن لم يكن هو المنادي بنفسه، ويصح جميع ذلك القرآن، قال الله: ﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادُوا لِلَّهِ إِنَّهُ يَبْدُو لَكَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْكَ فَأَنْتَ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ تَكُونُ الْقِيَامَةَ﴾ [ق: ٤١، ٤٢] فأضاف النداء إلى المنادي، فصح أن الصوت صفة المنادي لا صفة الأمر بالنداء؛ ومن عجيب الأمر أن الجهال لا يجوزون أن يكون النداء صفة المخلوق إذا كان رفيع القدر في الدنيا، كالخليفة والأمير، وينفون عنه ذلك ثم يجوزونه في حق رب العالمين.

جواب ثالث: وذلك أنا وكل محقق يقول: إن هذا الصوت ليس بموجود اليوم، وإنما يكون يوم القيامة، وكلام الله قديم بقدمه، موجود بوجوده، فصح أن هذا شيء لم يكن بعد، وإنما يكون يوم القيامة، ومن زعم أن صفة الله تعالى ليست بموجودة اليوم، وإنما توجد يوم القيامة فقد جعل كلام الله تعالى مخلوقاً لا محالة، فصح بهذه الجملة أن الصوت ليس بصفة لكلام الله تعالى، وإنما هو صفة للمنادي الذي يأمره الله تعالى بالنداء في ذلك اليوم.

(١) يريد به حديث جابر، وفي سنده عبد الله بن محمد بن عقيل، وهو ضعيف. وقد انفرد عنه القاسم بن عبد الواحد، وهو ممن لا يحتج بهم عند بعضهم، ولذا علقه البخاري بقوله «ويذكر» على أن كون الأستاذ مجازياً متعين بحديث الدارقطني «بيعت الله يوم القيامة منادياً بصوت يسمعه أولهم وآخرهم». الحديث. راجع ما علقناه على السيف الصفي (٤٥٣) (ز).

جواب آخر: وهو أن كل ما أضيف إلى الله تعالى لا يجب أن يكون صفة له، فمن زعم هذا فقد كفر وأشرك لا محالة، لأن الخبر قد جاء بقول الله تعالى: «يا ابن آدم مرضت فلم تعدني، جعت فلم تطعمني، عطشت فلم تسقني، عريت فلم تكسني» فأضاف هذه الأشياء إليه في الخبر، ومن زعم أنه يجوع ويعطش، ويمرض ويعرى، فقد كفر وأشرك لا محالة. وكذلك قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي السُّورِ﴾ [الأنعام: ٧٣] على قراءة من قرأ بالتون [المفتوحة] والنافخ إسرافيل. وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنِ يُدْزَوْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] فأضاف الأذية إليه، ومن زعم أن الأذية من صفته فقد كفر لا محالة، فلم يبق إلا أن النداء والصوت حصل من الصائت المأمور، لا من الأمر، لكن لما كان بأمره جاز أن يضاف إليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَمْنُنُ بِكَتَبِ﴾ [الأعراف: ٥٢] وإنما جاء به محمد عليه السلام بأمره. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَاهُ﴾ [القمر: ٣٧] والطامس جبريل، وميكائيل طمسا أعين قوم لوط، لكن لما كان بأمره أضافه إلى نفسه وكذلك يقال: رجم وجلد رسول الله ﷺ، وإنما الراجم والجلال غيره، لكن لما كان بأمره حسن أن يضاف إليه. فافهم الحق لتبطل به الباطل.

فإن احتجوا بما روي: أن الله تعالى إذا تكلم الله بالوحي، وروي بالأمر من الوحي جاء له صوت كجر السلسلة على الصفا^(١). فالجواب عن هذا من وجوه عدة:

أحدها: أن هذا هو الحجة عليكم، لأن هذا الصوت خلاف ذلك الصوت الذي في الخبر الأول، لأن ذلك قال فيه «يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب» وهذا الصوت إنما يسمعه بعض الملائكة، فصح أن هذا الصوت خلاف ذلك الصوت، ولو كان الصوت صفة قديمة لما اختلف ولا تغير لأن القديم لا يجوز عليه الاختلاف، ولا التغير، فلما اختلف وتغير دل أن ذلك صفة الخلق لا صفة الحق. فافهم.

جواب آخر: وذلك أنه قال: إذا تكلم الله بالوحي، جاء له صوت، ولم يقل إذا تكلم الله بصوت فالوحي غير الموحي، لأن الموحي كلام الله تعالى، والوحي إنزال كلام الله، وإعلام كلام الله، والذي يدل على صحة ذلك القرآن. وذلك أن الله تعالى فصل بينهما فقال: ﴿وَكُنَّا إِلَيْنَا مَرْفُوعًا﴾ [الشورى: ٧] فالوحي إنزال القرآن،

(١) والمحفوظ هو الموقوف، كما ذكره الدارقطني في الملل، ولا يحتج بالموقوف في باب الصفات، والسكري في (خلق الأفعال) مختلط لا يحتج به عند ابن أبي حاتم، وفي سند خبر الصوت عن عنته الأعمش وهو مدلس. واجمع ما ذكرناه فيما علقناه على الأسماء والصفات (ز).

وإعلام القرآن، وإفهام القرآن الذي هو كلام الله تعالى، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَلَامًا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ نُوحٍ وَالْيُسُفَ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ﴾ [النساء: ١٦٣] أي أنزلنا إليك وأفهمناك كلامنا القديم، كما أنزلنا وأفهمنا من قبلك كلامنا القديم فالإفهام لم يكن ثم كان. وأما المفهوم الذي هو كلام الله القديم فهو موجود ثابت قبل الإفهام وبعده على صفة واحدة، لا يختلف ولا يتغير.

جواب آخر: وهو أن هذا الحديث قد روي من طرق عدة، وأضيف إليه الصوت المشبه بجر السلسلة إلى الخلق، لا إلى كلام الحق، فمن ذلك ما روى النواس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تكلم الله بالوحي أخذت السموات منه رجفة شديدة من خوف الله تعالى، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا وخزوا سجدوا، وأول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام؛ فتكلم الله من وحيه بما أراد، فيتهي به جبريل عليه السلام على الملائكة، كلما مر بسماء سأل أهلها ماذا قال ربنا؟ فيقول جبريل الحق، وهو العلي الكبير» فثبت أن الصوت المشبه بالسلسلة صوت رجفة السموات، لأنهم سمعوا صوت رجفة السموات لا كلام الله تعالى، ولهذا سألوا جبريل الله تعالى ماذا قال ربنا، فدل على أنهم لم يسمعوا كلامه، وإنما سمعوا صوت رجفة ^{السموات} المسكوات، التي شبهت بجر السلسلة، لأنهم لو سمعوا ما سمع جبريل لفهموا كما فهم جبريل.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان» فأضاف الرسول عليه السلام هذا الصوت المشبه إلى صوت أجنحة الملائكة، لا إلى كلام الله تعالى وحديث أبي هريرة هذا صحيح. أخرجه البخاري، وحديث النواس أخرجه مسلم في كتابه، وروى أبو الضحى مسروق، عن عبد الله أنه قال: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كصلصلة السلسلة على الصفوان» وفي رواية: «سمع أهل السماء للسماء صلصلة» وليس في شيء من هذه الروايات إذا تكلم الله سمعوا من الله صلصلة، وإنما سمعوا من السماء إذا أحدث الله فيها رجفة، وجعل ذلك علامة لأهل السموات. يعلمون بها أن الله تعالى تكلم بالأمر، وأن المخصوص بسماع كلامه جبريل عليه السلام، ولهذا سألوه ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق. فيقولون: قال الحق. فيصفون الله تعالى بقول الحق، لا بالصلصلة والصوت، فصار هذا الحديث حجة عليهم لا لهم.

جواب آخر: وهو أنه قد روي من الأخبار والآثار ما لا يحصى عدداً أن الصوت مخلوق، وأنه صفة القاريء لا صفة الباري، فمن ذلك ما روى ابن جريج عن الزهري أنه قرأ بين يديه ﴿بَرِّدْ فِي كَلْقَى مَا يَنْشَأُ﴾ [فاطر: ١] فقال: هو الصوت الحسن. فقال الأوزاعي رحمه الله أنه قال: ليس أحد من خلق الله أحسن صوتاً من إسرافيل، قيل: فإذا أخذ في السماع قطع على أهل سبع سموات تبيحهم وصلاتهم. وقال أبو العالية: قال موسى ﷺ لقومه: قدسوا بأصوات حسنة، فإنه أسمع له، فأضاف الصوت إلى المقدسين لا إلى المقدس. وقال مالك^(١) بن دينار في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ لَعِنتَنَا لَكُنْ لَكُمْ وَحْشٌ مَّتَابٍ﴾ [ص: ٢٥] قال: يقيم الله داود عليه السلام عند ساق العرش، فيقول: يا داود مجدني بذلك الصوت الحسن الرخيم، فيقول: كيف أمجدك به وقد سلبتني في دار الدنيا؟ قال: فيقول جلّ وعز: إني أردت عليك. قال: فبرده عليه، فيزداد صوته حسناً، فيأخذ في التمجيد، فيستفرغ داود نعيم الجنان؛ يعني يشغل أهل الجنة بحسن صوته عن نعيمهم.

فالصوت الحسن المردود المملوك الرخيم صفة داود عليه السلام التي يمجّد بها ويقدّس بها، والممجد المقدّس هو الله تعالى الخالق لداود ولصوته ولسائر الأصوات.

وروي أن عمر رضي الله عنه كان يقدم الشاب الحسن الصوت لحسن صوته بين يدي المهاجرين والأنصار. وقال أبو عثمان النهدي رضي الله عنه: صلى بنا أبو موسى صلاة الصبح فما سمعت بصوت ولا برنط أحسن صوتاً منه. وتبين من هذه الآثار المروية عن رسول الله ﷺ أنه جعل الصوت صفة للقاريء لا لله تعالى، فقد روي عنه في هذا المعنى ما لا يحصى عدداً، فمن ذلك: ما روت عائشة رضي الله عنها قالت: قام رجل من الليل فرفع صوته بالقرآن، فقال النبي ﷺ: «لقد أذكرني كذا. وكذا آية» قال أبو ذر: كان لي جبار وكان يرفع صوته بالقرآن فشكوته إلى رسول الله ﷺ وكان يقال له ذو البجادين فقال: «دعه فإنه أواه» وكان أسيد بن حضير من أحسن الناس صوتاً بالقرآن، فقرأ ليلة وفرسه مربوط عند رأسه، وابنه نائم إلى جنبه، فدار الفرس في رباطه، فقرأ فدار الفرس في رباطه، فانصرف وأخذ ابنه وخشي أن يطأه الفرس، فأصبح فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأ أسيد فإن الملائكة لم تنزل تسمع صوتك» وروي ابن سابط قال: أبطأت عائشة رضي الله عنها على

(١) لم يرفعه إلى المعصوم (ز).

رسول الله ﷺ فقال: «ما حبسك يا عائشة؟» قالت: يا رسول الله، سمعت رجلاً يقرأ ما سمعت من رجل يقرأ قراءة أحسن منها، فذهب رسول الله ﷺ لسمع صوته، فإذا هو سالم مولى أبي حذيفة، فقال النبي ﷺ: «الحمد لله الذي جعل في أمتي مثلك». روي عنه ﷺ أنه سمع قراءة أبي موسى ذات ليلة فقال: «أبو موسى مزمار من مزامير داود» ومعلوم أنه شبه حسن صوته بالقراءة بالمزمار، لا كلام الله القديم الذي لا يشبهه شيء من أصوات الخلق ولا نعماتهم. وروي أن النبي ﷺ مرّ في ليلة هو وعائشة رضي الله عنها، وأبو موسى يقرأ، فقاما فاستمعا لقراءته، ثم إنهما مضيا، فلما أصبح لقي رسول الله ﷺ، فقال لأبي موسى: «يا أبا موسى مررت بك البارحة ومعني عائشة فاستمعنا لقراءتك» فقال أبو موسى: يا نبي الله، أما إني لو علمت بمكانك لحبرته لك تحبيراً. قال: «لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود». وقال النبي ﷺ: «إني لأعرف أصوات رفقة الأشعرين بالقرآن وإن كنت لم أر منازلهم حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار». وهذا حديث صحيح أخرجه مسلم بن الحجاج في صحيحه، وهو أكبر حجة في نفي الصوت عن كلام الله القديم، لأنه فصل الأصوات من القرآن، فأضاف الأصوات إلى الأشعرين ولم يضيفها إلى كلام الله الذي هو القرآن.

وقال شهر بن حوشب: قدم أبو عامر الأشعري على رسول الله ﷺ في رهط من قومه، فقال ﷺ: «إنه ليدلني على حسن إيمان الأشعرين حسن أصواتهم بالقرآن» وفي هذه الأحاديث التي ذكرنا وأمثالها مما لا يحصى عدداً: أن الأصوات صفة الصائتين لا صفة كلام رب العالمين، وفي بعض ذلك مقنع وكفاية لمن أراد الله له الهداية.



فصل

فإن قالوا: ليس تقولون إن كلام الله مسموع بحاسة الأذان على الحقيقة؟ قلنا: بلى. فإن قالوا: فليس يجوز أن يكون مسموعاً على الحقيقة إلا ما كان صوتاً أو حرفاً.

فالجواب: أن هذا جهل عظيم، وذلك أن أهل السنة والجماعة قد أجمعوا على أن الله تعالى يرى بالأبصار على الحقيقة، ولا يجوز أن يرى على الحقيقة إلا ما كان جسماً وجوهرأ وعرضاً. أفقولون: إن الله تعالى جسم، وجوهر، وعرض؟ فإن قالوا:

نعم. فقد أقرروا بصريح الكفر للتشبيه، وإن قالوا: يرى وليس بجسم، ولا جوهر ولا عرض ولا يشبه شيئاً من المراتب. قلنا: فكذلك كلامه قديم ليس بمخلوق ومسموع على الحقيقة، وليس بحروف ولا أصوات، ولا يشبه بشيء من المسموعات، فكما أنه يرى على الحقيقة ولا تكيف لكلماته. فاتقوا الله وقفوا عند حدوده، ولا تكونوا ممن قال فيهم: ﴿وَمَنْ يَعْذُ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثم نقول لهم: أليس الله تعالى قد سَمِيَ نفسه بانياً، وهو بان على الحقيقة، لأنه قال: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِلَٰهَكُمْ ۖ رَبَّ سَكَنًا مَّسْكُونًا﴾ [التأذيات: ٢٧، ٢٨] ولم نرَ بانياً على الحقيقة، إلا بألة من عدة وأجر، وحجر وخشب وغير ذلك: أفقولون إنه مفتقر في بناء السماء إلى ذلك، حتى يكون قد بنى على الحقيقة. فإن قالوا: نعم، كفروا لا محالة، وإن قالوا: هو بناء منه على الحقيقة ولا يفتقر فيه إلى آلة وعدة. قلنا: وكذلك كلامه مسموع منه على الحقيقة بواسطة وغير واسطة، ولا يفتقر في إسماعه إلينا إلى آلة من حروف وأصوات وغير ذلك.

فصل

فإن احتجوا بجهلهم أن الصفة القديمة تحل في الظروف والأرعية كحلول الشيء المخلوق في الشيء المخلوق. فتفسير هذا القول منهم - لو عقلوا - كان إقراراً منهم بخلق الله تعالى، لأن القديم لا يتصور عليه النقلة، والتحويل، وتفرغ مكان، وإشغال مكان، وأمكنة، وحصر، وعد، وإفصاح، وفراغ، فإن أصروا على الجهل والضلال واستدلوا على حلول كلام الله القديم في المخلوقين بما يظنون حجة لهم، وهو جراءة، وحجة عليهم، أقرروا بقول إخوانهم من النصارى، بل زادوا عليهم في سوء الاعتقاد، وخبث المذاهب والمقال على ما سنيته في ثاني الحال، إن شاء الله.

فإن احتجوا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تسافروا بالقرآن إلى أرض العدو» قالوا: فصّح أن الكلام القديم يصح عليه الحلول والنقلة والتحول، فالجواب من وجوه عدة:

أحدها: أنه ﷺ أراد بذلك المصحف، لأنه قد بين ذلك فقال «مخافة أن تناله أيديهم» ولم يرد أن كلام الله القديم انتقل ولا تحول من بلاد الإسلام إلى بلاد العدو،

والمصحف قد يسمى قرآنًا، لأن فيه كتابة القرآن، وقد روي ذلك صريحاً عنه ﷺ، فإنه كتب إلى عمرو بن حزم: «ولا يمس القرآن إلا على طهارة» فأراد بذلك: المصحف الذي حلّ فيه كتابة كلام الله القديم لا يجوز عليه المس بالأيدي.

جواب آخر: وهو أنه أراد لا تسافروا بكتابة القرآن، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، كما قال تعالى: ﴿وَنَقُلِ الْقُرْآنَ أَلَنِي كُنَّا بِهَا﴾ [يوسف: ٨٢] يعني أهل القرية ﴿وَالْبُيُوتَ﴾ [يوسف: ٨٢] يعني أهل العير. وقوله تعالى: ﴿لَا تَقْرَأُوا الْكُتُوبَ وَأَنْتُمْ مُكَذِّبُونَ﴾ [النساء: ٤٣] قال أكثر أهل العلم موضع الصلاة. وقد قال تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠] أراد الملعون أهلها في القرآن. وكذلك قال: ﴿وَالطُّورِ﴾ [الطور: ١] ﴿وَالشُّعْنِ﴾ [الضحى: ١] وجميع الأقسام إنما معناها رب الطور ورب الضحى، وهذا كثير جداً في كلام العرب، يحذفون لعلمهم بفهم أهل اللسان والبيان ذلك، وأنهم ليسوا كأهل الجهل والهذيان، والعرب تقول: بنو فلان تطوهم الطريق، يريدون بطوهم أهل الطريق، وأبين من هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] يريد أنبياء الله وأولياء الله.

وجواب آخر وهو: أنا نعلم - وكل عاقل يعلم - أن الرسول عليه السلام إنما أراد بالقرآن هاهنا شيئاً محترماً يتصور عليه من الأيدي، ولم يرد نفس كلام الله القديم، والذي يدل على صحة ذلك: أن الحافظ للقرآن: القرآن في صدره عندنا حفظاً، لا أن كلام الله القديم يحل في صدر الحافظ حلول الجسم في الجسم، وعندهم - على حسب عقدهم - أنه حال في صدور الحفاظ كحلول الشيء في الشيء، ومع ذلك فإن الرسول ما نهى أحداً من الحفاظ أن يدخل بلاد العدو، فلم يبق إلا أنه ﷺ أراد مصاحف القرآن التي يتصور عليها نيل أيدي العدو، ولم يرد أن القديم يحل في المخلوق حلول الجسم في الجسم - حاشاء من ذلك ﷺ.

فصل

فإن احتجوا بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لو جعل هذا القرآن في إهاب ثم ألقى في النار ما احترق» قالوا: وقد أطلق عليه ﷺ أن القرآن يجعل في الإهاب، فدلّ على أنه حال. فالجواب أن أهل العلم رضي الله عنهم ذكروا في ذلك ثلاثة أقوال:

أحدهما: أن هذا كان في زمانه ﷺ دليلاً على صدقه، وكان معجزة له، وكان إذا كتب في جلد أو رق أو غير ذلك ثم ألقى في النار لم يحترق. ذلك الجلد أو الرق، فيكون معجزة له ﷺ؛ كانشقاق القمر وغير ذلك من المعجزات، ثم انقضى ذلك بعد موته: بدليل أن الرق التي كتب فيها القرآن قد احترقت في زمن الصحابة وغيرهم.

الثاني: أن قوله ﷺ: «لو جعل القرآن في إهاب ثم ألقى في النار لم يحترق» أراد بذلك فضل حفظه القرآن، وأنهم لأجل ما حفظوا من كلام الله تعالى وصار حفظه في صدورهم تصير عليهم النار برداً وسلاماً، فلا تحرقهم، كما كانت على الخليل عليه السلام بإذن الله تعالى. وقد قال ﷺ: «نعم الشفع لصاحبه يوم القيامة» فيكون ببركة شفاعته القرآن لصاحبه وعمله به لا تتسلط النار على إهابه فتحرقه، وهذا صحيح؛ لأن الإهاب هو الجلد قبل الذبح، أو قبل الدباغة.

دليل الأول: قول عائشة رضي الله تعالى عنها في مدح أبيها الصديق رضي الله عنه: «وحنّ الدماء في أهباء».

ودليل الثاني: قوله عليه السلام: «أيا إهاب دبح فقد طهر» فأما بعد الدباغ فلا يقال له إهاب، وإنما يقال له أديم أو رق، أو نحو ذلك.

الثالث: وهو الأصح والأجود: أن القرآن إذا كتب في إهاب أو غير ذلك، وألقى في النار، فإن القرآن لا يحرق ولا يتصور عليه الحرق ولا الفرق ولا العدم، وإن تصور ذلك على الرق والجلد. والورق والخط والمداد. وهذا يوضح أنه مكتوب على الحقيقة. وليس بحال حلول الأجسام في الأجسام؛ لأن المداد لما حلّ حلول الأجسام في الأجسام احترق مع الرق والورق، والقرآن لما لم يكن حالاً لم يتصور عليه العدم بحرق ولا فرق ولا غير ذلك، وهذا واضح صحيح. يؤكد ذلك أنا إذا كتبنا اسماً من أسماء الله تعالى في محل يتصور عليه الحرق والفرق والبلى والتمزق، فإن عدم ببعض ما ذكر فإنما يعدم ويذهب المحل المكتوب فيه واللون المكتوب به. وأما المكتوب على الحقيقة وهو الرب تعالى فلا يتصور عليه شيء من العدم والذهاب، كما أخبر تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القَصَص: ٨٨].

فصل

فإن احتجوا بخبر روي؛ وهو قوله ﷺ: «من حفظ القرآن فاختلف بلحمه ودمه...» قالوا: وهذا يدل على حلوله واختلاطه بلحوم الحفاظ ودمائهم في حال صغرهم. فالجواب عن هذا من أوجه:

أحدها: أن هذا الحديث يرويه إسماعيل^(١) بن رافع، وعمر^(٢) بن طلحة، وهما ضعيفان جداً، لا يؤخذ بقولهما في هذا ولا غيره.

الثاني: أن الصبيان الحفاظ للقرآن كثير، وكلام الله تعالى قديم، وشيء واحد، فإذا اختلف بدم صبي ولحمه على زعمهم وامتزج واختلط فكيف يمتزج بلحم آخر ودمه؛ إذ الشيء الواحد إذا اختلف وامتزج بشيء استحال امتزاجه بغيره، نعوذ بالله من هذا المذهب الذي يؤدي القول به إلى اختلاط الصفة القديمة وامتزاجها بدم المخلوقين ولحومهم، ولعمري أن قول النصاري دون هذا، لأن النصاري؛ إنما تقول كلمة واحدة قديمة اختلفت بجسم واحد وهو جسم المسيح عليه السلام، حتى صار الجسم لاهوتياً من أجل الكلمة، ناسوتياً من جهة مريم عليها السلام، فاختلف عندهم القديم بالمحدث اختلاط الماء باللبن، فوافقتهم هذه المقالة الخبيثة، وزادوا عليهم، لأنهم قالوا: جسم واحد اختلف به القديم، وهؤلاء يقولون اختلف القديم بألف جسم وأكثر، نعوذ بالله من هذا القول الذي لا يقوله من له مسكة من حس وعقل.

الجواب الثالث: أن هذا الحديث إن صح، فمراد النبي ﷺ أن الحفظ في الصغر أجود وأثبت من الحفظ في حال الكبر، ويعني باختلاطه باللحم والدم جودة الحفظ، لا اختلاط المحفوظ الذي هو كلام الله القديم. وصار هذا كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمْ آلِهَةً بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣] يعني حب العجل، لأن العجل لا يدخل ولا يحل في القلوب، وإنما يدخل ويحل حبه. هذا أيضاً كما يقال: التعليم في الصغر كالنقش في الحجر. والتعليم في الكبر كالنقش في المدر، يريدون بذلك أن الحفظ في الصغر أثبت وأبقى منه في حال الكبر.

(١) قال النسائي: متروك (ز).

(٢) قال الذهبي: لا يكاد يعرف (ز).

فصل

فإن قيل: إذا كان القديم لا يحل في المصحف؛ فما معنى تعظيمه وتوقيره عن الأنداس والأنجاس وأن لا يحمل إلا على طهارة.

فالجواب: أن هذا جهل وتخط لأن توقير المحل والمكان لا يدل على حلول القديم الذي لا يتصور عليه الحلول فيه، كما أنا نحرم المسجد ولا ندخله إلا على طهارة من غير جنابة، ولا ندخل إليه شيئاً نجساً ولا قذراً، وننزله عن البصقة والنخامة، وإن كانت طاهرة توقيراً له وتعظيماً. وإن كانت أرضه وترثه وأحجاره مخلوقة، وخشبه وطينه مخلوقان، لا أنه قديم، ولا أنه حل فيه قديم، وكذلك الطواف بالبيت لا يدخل بنجاسة إليه، ولا يصح الطواف، حتى يكون الطائف متطهراً من النجس والحدث، ولا يدل هذا على أن البيت قديم، ولا أنه حل القديم فيه، كذلك الخطوط التي يكتب بها القرآن، والمصحف التي يكتب فيها نوقره وتعظمه وننزله أن يمس إلا على طهارة، ولا يقرب إليه شيء من الأنجاس، بل نعظمه ونشرفه، ولا يوجب ذلك كون الممداد الأسود والصفرة والحمرة قديمة أو حل القديم فيها، وهذا أمر واضح لمن له عقل وتحصيل. إذا تأمله ونظر فيه.

فصل

ثم يقال لهذه العصاية - هدامهم الله من الضلال - ما تقولون فيمن أخذ قلماً وورقة ومداد حبر، وكتب ألف. لام. لام. ها. أتقولون إن المكتوب على الحقيقة هو الله تعالى أم لا؟ فإن قالوا: ما هو المكتوب على الحقيقة. فقد خالفوا إجماع أهل السنة والجماعة. وإن قالوا: هو المكتوب على الحقيقة. قلنا: أتقولون إن الله تعالى انتقل من العرش^(١) وحل في هذه الورقة؟ فإن قالوا: نعم. كفروا بإجماع الأمة، وجعلوا الباري تعالى يحويه أصغر الأماكن، وإن قالوا: ليس بحال وهو الصحيح الذي لا يجوز غيره. قلنا: فكذلك كلامه تعالى مكتوب في مصاحفنا محفوظ في صدورنا مقروء بالسنتنا متلو في محاربنا غير حال في شيء من المخلوقات.

(١) على قولهم بالاستقرار السكاني على العرش (ز).

فصل

ثم يقال لهم: خبرونا إذا كتب كاتب في ورقة ﴿كَذَّبَ وَعَصَى﴾ ﴿ثُمَّ أَكْبَرَ يَسْعَى﴾ ﴿فَحَسَرَ فَتَادَى﴾ ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ ﴿الْأَنزَاجَاتِ: ٢١ - ٢٤﴾ أفنقولون: إن الكاتب قديم، أم كتابته قديمة، أم الورق الذي كتب فيه قديم، أم اللعين فرعون، وقوله قديم، فلا يجوز لعاقل أن يقول شيئاً من هذه الأشياء قديم، بل الكاتب مخلوق، وكتابته مخلوقة، والورقة مخلوقة، والقلم مخلوق، والحبر مخلوق، وفرعون اللعين مخلوق، وما ادعاء من الربوبية كذب مخلوق، وإنما الذي هو ليس بمخلوق كلام الله تعالى القديم الذي هو خير يشمل جميع المخبرات التي أخبرنا عن فرعون اللعين وقوله الكذب. فصح أن كلام الله القديم ليس بالخط ولا بالورق ولا بقول فرعون اللعين، لأن قول فرعون اللعين كذب، وكلام الله حق وصدق، وكذلك إذا كتب الكاتب في ورقة ﴿وَلَا تَقْرُؤُوا مَالَ آلِ يَسْرَ﴾ ﴿الْأَنفَامِ: ١٥٢﴾ اتقولون: إن الينيم وماله قديم، والخط الذي كتب ذلك قديم، والكاتب له قديم. لا. بل الجميع مخلوق، وإنما القديم كلام الله الذي هو نبيه الذي يشمل جميع المنهيات، وهو غير الينيم والمال والكاتب والكتابة، وإذا كتب كاتب: ﴿صَلُّوا وَقَرُّوْا﴾ ﴿الْبَقَرَةِ: ٦٠﴾ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ ﴿الْبَقَرَةِ: ٤٣﴾ أترى [أن] الكاتب قديم أو الكتابة قديمة، أو الأكل والأكل، والشارب والشرب، والمصلي والصلاة، والمزكي. والزكاة قديمة. لا والله! ليس شيء من ذلك قديماً، وإنما القديم كلام الله تعالى، الذي هو أمره الشامل لجميع المأمورات. فصح بهذه الجملة الفرق بين كلام الحق وكلام الخلق، وإن كلامه تعالى قديم غير مخلوق، ولا يتصف بشيء من صفات الخلق، ولا يفتقر تعالى في كون كلامه صفة له قديمة غير مخلوقة، إلى شيء من أدوات الخلق من لسان، وشفة، وحلق، وحرف، وصوت، بل هو متكلم، وله كلام، صفة له قديمة غير مخلوقة، ولا يجوز عليها شيء من صفات الخلق. فاعلم ذلك وتحققه ولا توفيق إلا بهدي من الله وفضل ورحمة، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

فصل

يتعلق بمسائل ثلاثة وفروعها هي:

مسألة الخلق والإرادة، وأنه [لا] يكون من العباد شيء إلا وهو خلق الله تعالى ومراد له، لا يجوز أن يخلق أحد غيره، ولا يكون في ملكه إلا ما أَرَادَهُ.

الثانية: مسألة الشفاعة، وأنها حق وصدق، وأعلى الشفاعة عند الله شفاعة نبينا محمد ﷺ، ويشفع أيضاً من أذن له في الشفاعة في العصاة؛ من ملك، ونبي، ومؤمن.

الثالثة: مسألة الرؤية، وأنها جائزة، وأن المؤمنين يرون ربهم في الجنة بلا كيف ولا تشبيه ولا تحديد، كما جاء في الكتاب والسنة، ودل عليه العقل أيضاً، وإنما ختمنا الكتاب بمسألة الرؤية، لأنها أعلى العطايا وأسمى الكرامة من الله تعالى لعباده المؤمنين، وليس فوقها مزيد، بل هي الزيادة المذكورة في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُتَّعًا وَلِزِيَادَةٍ﴾ [يونس: ٢٦].

مسألة

اعلم أن مذهب أهل السنة والجماعة أن الله تعالى هو الخالق وحده، لا يجوز أن يكون خالق سواه، فإن جميع الموجودات من أشخاص العباد وأفعالهم وحركات الحيوانات قليلها وكثيرها حسنها وقبيحها خلق له تعالى لا خالق لها غيره؛ فهي منه خلق وللعباد كسب، على ما قدمنا بيانه بقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وأمثال هذه الآية من الأدلة على الفرق بين الخلق والاختراع والكسب، فالواحد منا إذا سمي فاعلاً فإنما يسمى فاعلاً بمعنى أنه مكتسب، لا بمعنى أنه خالق لشيء. وقالت المعتزلة، والنجارية^(١)، والجهمية، والروافض: إن أفعال العباد مخلوقة للعباد بقدرة العباد، وإن كل واحد منا ينشئ ما ينشئ ويخلق ما يفعل، وليس لله تعالى على أفعالنا قدرة جملة، ونعوذ بالله من الاعتقاد وسوء المقال.

والدليل على صحة مذهب أهل السنة والجماعة وبطلان قول من خالفهم من أهل الزيغ والبدع الكتاب والسنة وإجماع الأمة وأدلة العقل؛ فالدليل من الكتاب أكثر مما يحصى، لكن أذكر منه ثلاثة تنبه لليب على بقيتها إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك قوله تعالى^(٢): ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: ٩٦] فأخبر تعالى أنه خالق لأعمالنا على العموم، كما أخبر أنه خالق لصورنا وذواتنا على العموم، وهذا من أوضح الأدلة من الكتاب.

(١) لعل النجارية والجهمية مقحمتان في هذا الموضع بقلم الناسخ، بل لا يعرف هذا في المعتزلة إلا من عهد الجبالي، كما هو مشروح في موضعه (ز).

(٢) والكلام في هذا طويل في إثبات الحق (ز).

الثاني: قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُكُمْ كُلِّي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ومعلوم أن أفعالنا مخلوقة إجماعاً، وإن اختلفنا في خالقها، وهو تعالى قد أدخل في خلقه كل شيء مخلوق، فدل على أنه لا خالق لشيء مخلوق غيره سبحانه وتعالى. فإن قيل فكلامه شيء فيجب أن يكون مخلوقاً. قلنا: قد احتزنا بحمد الله تعالى عن هذا السؤال بقولنا: إنه أخير أنه خلق كل شيء مخلوق، وكلامه وصفاته ذاته تعالى قد أثبتنا أنها غير مخلوقة ولا خالقة؛ بل هي صفة الخالق - تعالى - قديمة بقدمه موجودة بوجوده قبل جميع المخلوقات. فبطل هذا السؤال.

وجواب آخر يبطل هذا السؤال وهو: أنك تقول: إن الله تعالى مخاطب، والمخاطب لا يدخل تحت الخطاب، ألا ترى أن الواحد منا إذا قال دخلت الدار فضربت من فيها، أو أخرجت من فيها، أو أعطيت من فيها لا يدل ذلك على أنه دخل تحت الخطاب، بأن يكون ضرب نفسه، ولا أخرج نفسه ولا أعطى نفسه، لأنه مخاطب، والمخاطب لا يدخل تحت الخطاب وكذلك قوله تعالى: ﴿خَلَقْتُكُمْ كُلِّي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] هو مخاطب، فلا يدخل تحت الخطاب بذاته ولا بصفاته جل عن ذلك وتعالى، كما قال: ﴿الْوَيْدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] قهر الكل ولم يدخل في القهر ذاته وصفاته. فافهم التحقيق لتدفع به كل بدعة وتمويه من أهل البدع إن شاء الله.

الثالث: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُبْسِكُمْ ثُمَّ يُجْبِكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً مِثْلَ شِعْنِنا وَسُبْحَنَهُ وَقَعْلُنا عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الرؤم: ٤٠] والدلالة من هذه الآية من أوجه:

أحدها: أنه قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [الرؤم: ٤٠] وهذا عام في ذواتنا وصفاتنا، ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُبْسِكُمْ ثُمَّ يُجْبِكُمْ﴾ [الرؤم: ٤٠] يعني ثم خلق أرزاقكم، وعند المخالف أن العبد يخلق أفعاله ورزقه، فهو خلاف ما أخبر الله تعالى به من كونه خالقاً لنا ولأرزاقنا.

الوجه الثاني: من الدلالة: أنه قال: ﴿ثُمَّ يُبْسِكُمْ ثُمَّ يُجْبِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨] فكما لا يقدر أحد أن يخلق موته ولا حياته، فكذلك لا يقدر أن يخلق فعله ورزقه؛ من حركة ولا سكون ولا غير ذلك.

الثالث: سبحانه وتعالى نزه نفسه عن عقدهم وخبثهم إذ أضافوا فعل شيء وخلقه إلى غيره، فقال: ﴿سُبْحَنَهُ وَقَعْلُنا عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] ثم أكد ذلك

بعده بمواضع فقال: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] سبحانه وتعالى. وقال: ﴿أَمْ مَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [التعل: ١٧].

وأما الدليل من السنة فكثير أيضاً، غير أنني أذكر منه خبرين ننبه العاقل الفطن على الاستدلال بأمثالهما من السنة:

الأول: ما روي عنه ﷺ أنه قال: «إن الله خلق كل صنعة وصانعها»^(١) وصنعة الصانع إنما هي بحركاته وأفعاله، سواء كان في صنعة مباحة وطاعة، ككتابة القرآن، والحديث، والفقه، أو محظورة؛ من تصوير صور الحيوان، أو عمل السلاح ليقتل به المسلمين. فصح بهذا الخبر أن الله جلّ وعلا خالق للفاعل منا ولفعله.

الخبر الثاني: قوله ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما: «فرغ ربك من أربع: من الخلق، والخلق، والرزق، والأجل فلو جهد الخلق على أن يؤتوك ما لم يقدره الله لم يقدروا على ذلك» وروي: «لو جهد الخلق على أن ينفعوك أو يضروك لم يقدروا على ذلك» والمخلوقات منها الضار والنافع، في العاجل والآجل، وقد جعل ﷺ كل ذلك إلى تقدير الله تعالى وخلق له، ولم يجعل إلى العباد شيئاً من ذلك. فاعلمه وتحققه.



فصل

ويدل على صحة ما قلناه: إجماع المسلمين، وأنهم يقولون: لا خالق إلا الله، كما يقولون: لا رازق، ولا محيي، ولا مميت إلا الله تعالى. فنقول: فلا يكون الخلق من غيره، وأثبتوه خالقاً.



فصل

ويدل على صحة ما قلناه من جهة العقل. وأنه لا خالق إلا الله تعالى، وهو كثير جداً، لكن نختر على قدر فيه الكفاية إن شاء الله تعالى.

فمن ذلك: أن نقول لهم: إن قلتم إن الواحد منا يخلق أفعاله، من طاعة، أو معصية، أو إيمان، أو كفر فقد شركتم بيننا وبين الله تعالى في الخلق، وأنه لا يتم خلقه

(١) أخرجه البخاري في خلق الأفعال (ز).

الفعل على قاعله، وما يجب كونه عليه من صفاته. نحو حياته، وعلمه، وقدرته، وإرادته. وسمعي شرعي: دال من طريق النطق بعد المواضعة، ومن جهة معنى مستخرج من النطق، ولغوي: دال من جهة المواطأة والمواضعة على معاني الكلام، ودلالات الأسماء والصفات وسائر الألفاظ، وقد لحق بهذا الباب: دلالات الكتابات والرموز، والإشارات والعقود، الدالة على مقادير الأعداد، وكل ما لا يدل إلا بالمواطأة والاتفاق. والدال هو ناصب الدليل: فالمدلول هو ما نصب له الدليل. والمستدل الناظر في الدليل، واستدلالة نظره في الدليل وطلبه به علم ما غاب عنه.

٤ - وأن يعلم أن المعلومات على ضربين: معدوم وموجود، لا ثالث لهما ولا واسطة بينهما. فالمعدوم: هو المتقضى الذي ليس بشيء. قال الله عز وجل: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُنْ شَيْئًا﴾ [مریم: ٩] وقال تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِّنَ الْذَّهَبِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] فأخبر أن المعدوم منتفٍ ليس بشيء، والموجود هو الشيء الكائن الثابت. وقلنا «شيء» إثبات، وقلنا «ليس بشيء» نفي. قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنتَ تَرَى شَيْئًا مَّكِينًا فَهَدَىٰ رَبُّكَ يَدَهُ إِلَىٰ نَافِثَةٍ تُبْصِرُ﴾ [الأنعام: ١٩] وهو سبحانه موجود غير معدوم.

وقول أهل اللغة: علمت شيئاً، ورأيت شيئاً، وسمعت شيئاً، إشارة إلى كائن موجود، وقلوبهم: ليس بشيء هو واقع على نفي المعدوم، ولو كان المعدوم شيئاً كان القول ليس بشيء نفيّاً لا يقع أبداً إلا كذباً، وذلك باطل بالاتفاق.

٥ - وأن يعلم أن الموجودات كلها على قسمين. منها: قديم لم يزل وهو الله تعالى، وصفات ذاته التي لم يزل موصوفاً بها ولا يزال كذلك. وقلوبهم: «أقدم، وقديم» موضع للمبالغة في الوصف بالتقدم وكذلك أعلم وعليم، وأسمع وسميع.

والقسم الثاني: محدث، لوجوده أول، ومعنى المحدث ما لم يكن ثم كان، مأخوذ ذلك من قولهم: حدث بفلان حادث. من مرض، أو صداع؛ وأحدث بدعة في الدين، وأحدث روشناً، وأحدث في العرصة بناء، أي فعل ما لم يكن من قبل موجوداً.

٦ - وأن يعلم أن المحدثات كلها على ثلاثة أقسام: جسم، وجوهر، وعرض. فالجسم في اللغة هو: المؤلف المركب. يدل على ذلك قولهم: رجل جسيم وزيد أجسم من عمرو، وهذا اللفظ من أبنية المبالغة، وقد اتفقوا على أن معنى المبالغة في الاسم مأخوذ من معنى الاسم؛ يبين ذلك أن قولهم: «أضرب» إذا أفاد كثرة الضرب

كان قولهم: ضارب مفيداً للضرب، وكذلك إذا كان قولهم: المؤلف المركب مفيداً كثرة الاجتماع والتأليف، وجب أن يكون قولهم جسم مفيداً كذلك.

والجوهر: الذي له حيز. والحيز هو المكان أو ما يقدر تقدير المكان عن أنه يوجه فيه غيره.

والعرض: هو الذي يعرض في الجوهر، ولا يصح بقاؤه وحين، يدل على ذلك قولهم: «عرض لفلان عارض من مرض، وصداع» إذا قرب زواله، ولم يعتقد دوامه. ومنه قوله عز وجل: ﴿تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَالَّذِي دُونَهَا يَبِيدُ﴾ [الأنفال: ٦٧] وقوله: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌّ﴾ [الأحقاف: ٢٤] فكل شيء قرب عدمه وزواله، موصوف بذلك، وهذه صفة المعاني القائمة بالأجسام، فوجب وصفها في قضية العقل بأنها أعراض.

٧ - وأن يعلم أن العالم محدث، وأنه لا ينفك علويه وسفليه من أن يكون جسماً مولفاً، أو جوهرأ منفرداً، أو عرضاً محمولاً. وهو محدث بأسره. وطريق العلم بحدوث أجسامه وحدث أعراضه. والدليل على ثبوت أعراضه: تحرك الجسم بعد سكونه، وتفرقه بعد اجتماعه، وتغير حالته، وانتقال صفاته، فلو كان متحركاً لنفسه، ومتغيراً لذاته لوجب تركه في حال سكونه، وتغيره واستحالته في حال اعتداله، وفي بطلان ذلك دليل على إثبات حركته، وسكونه، وألوانه، وأكوانه، وغير ذلك من صفاته، لأنه إذا لم يكن كذلك لنفسه وجب أن يكون لمعنى ما تغير عن حاله واستحال عن وصفه.

والدليل على حدوث هذه الأعراض: ما هي عليه من التنافي والتضاد، فلو كانت قديمة كلها لكانت لم تزل موجودة، ولا تزال كذلك، ولوجب متى كانت الحركة في الجسم أن يكون السكون فيه، وذلك يوجب كونه متحركاً في حال سكونه، وميتاً في حال حياته، وفي بطلان ذلك دليل على طروق السكون بعد أن لم يكن، وبطلان الحركة عند مجيء السكون، والطارىء بعد عدمه، والمعدوم بعد وجوده محدث باتفاق؛ لأن القديم لا يحدث ولا يعدم، ولا يبطل.

والدليل على حدوث الأجسام: أنها لم تسبق الحوادث، ولم تخل منها، لأننا باضطرار نعلم: أن الجسم لا ينفك من الألوان، ومعاني الألوان من الاجتماع والافتراق، وما لا ينفك من المحدثات، ولم يسبقه كان محدثاً. لأنه إذا لم يسبقه كان موجوداً معه في وقته أو بعده، وأي ذلك وجد وجب القضاء على حدوثه، وأنه معدوم قبل وجوده.

٨ - وأن يعلم أن للعالم محدثاً أحدثه. والدليل على ذلك وجود الحوادث متقدمة ومتأخرة مع صحة تأخر المتقدم وتقدم المتأخر، ولا يجوز أن يكون ما تقدم منها وتأخر متقدماً ومتأخراً لنفسه، لأنه ليس التقدم بصحة تقدمه أولى من التأخر بصحة تأخره، فوجب أن يدل على فاعل فعله، وصرفه في الوجود على إرادته وجعله مقصوراً على مشيئته، يقدم منها ما شاء ويؤخر ما شاء. قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [فُورِد: ١٠٧] قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ⑩ [النحل: ٤٠] ويدل على علمنا بتعلق الفعل بالفاعل في كونه فعلاً كتعلق الفاعل في كونه فاعلاً بالفعل، فإن تعلق الكتابة، والصناعة بالكتاب والصانع كتعلق الكاتب في كونه كاتباً بالكتابة؛ فلو جاز وجود فعل لا من فاعل، وكتابة لا من كاتب وصورة وبنية محدثة لا من مصور، لجاز وجود كاتب لا كتابة له، وصانع لا صنعة له، فلما استحال ذلك وجب أن يكون اقتضاء الفعل للفاعل ودلالته عليه كاقضاء الفاعل في كونه فاعلاً. لوجود الفعل وحصوله منه، ومن صفات هذا الصانع تعالى أنه: موجود، قديم، واحد، أحد، حي، عالم، قادر، مرید، متكلم، سمیع، بصیر، باقی ⑪ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وسندل على ذلك فيما بعد إن شاء الله بعد البداية بفرائض المكلفين، وشرائع المسلمين مما يقرب فهمه ولا ينبغي جهله، ولا بد للمكلف من علمه والعمل [به] فإذا أتينا على هذه الجملة رجعنا إلى القول في التوحيد، وإثبات أسماء الله تعالى وصفاته، وذكر ما يجوز عليه وما يستحيل في صفته، وما توفيقني إلا بالله.

٩ - وأن يعلم: أن أول نعم الله تعالى على خلقه الحي الدراك خلقه فيهم إدراك اللذات، وسلامة الحواس، ونيل ما ينتفعون به من الشهوات التي تميل إليها طباعهم، وتصلح عليها أجسامهم، ولو أحياءهم، وأكلمهم ومنعهم إدراك اللذات لكانوا مستضرين بالآلام، وبمثابة الأحياء المعذبين من أهل النار، وهذه نعمة الله سبحانه على جميع الحيوان الحاس، العاقل منهم والناقص، والمؤمن والكافر.

١٠ - وأن يعلم أن أفضل وأعظم نعمة الله على خلقه الطائعين وعباده المؤمنين خلقه الإيمان في قلوبهم، وإجراؤه على ألسنتهم، وتوفيقهم لفعله، وتمكينهم بالنسك به. وخلق الإيمان، والتوفيق له نعمة خص الله تعالى بها المؤمنين دون الكافرين، ولذلك قال عز وجل: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]

(١) والبقاء ليس صفة حقيقة عند الباقلاني بل هو دوام الوجود (ز).

[٦٤] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاجْتَنَمَنَّ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ لَمَدٍ أَبَدًا﴾ [الشورى: ٢١] وقال عز وجل: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿بَلَى اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] فلو كانت هذه النعمة له على الكافرين لم يكن لتخصيصه بها المؤمنين وامتنانه على المؤمنين وجه، إذ كان قد أنعم بها على المردة والكفرة الضالين.

١١ - وأن يعلم: أن طرق المبين عن الأدلة التي يدرك بها الحق والباطل خمسة أوجه: (١) كتاب الله عز وجل و(٢) سنة رسوله ﷺ و(٣) إجماع الأمة و(٤) ما استخرج من هذه النصوص وبنى عليها بطريق القياس والاجتهاد، و(٥) حجج العقول. قال الله تعالى أمراً باتباع كتابه والرجوع إلى بيانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي يَرْتَمِكُمْ أَوَّلَ بَأْسٍ وَنَبِّئَنَّكُمْ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] و﴿مَا قَرَأْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال عز وجل في الأمر باتباع رسوله ﷺ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الخشر: ٧] وقال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤٠٣] وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التور: ٦٣].

وقال سبحانه في وصف عدالة أمة نبيه ﷺ والأمر باتباعها، والتحذير من مخالفتها: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَكَونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] وقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] وقال: ﴿وَمَنْ يُضَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَرَتَّبَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا تَرْجُوا لَهُمْ نَصْرًا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال في الأمر بالقياس والحكم بالنظائر والأمثال: ﴿فَأَقْصِرْوا بِأُولَى الْأَيْصَرِ﴾ [الخشر: ٢] وقال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَطِيعُونَ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] وقال النبي ﷺ لقاضيه معاذ بن جبل رضي الله عنه حين أنفذه إلى اليمن لإقامة الحدود واستيفاء الحقوق: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله عز وجل. قال:

فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله ﷺ. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي وأحكم. فقال: الحمد لله الذي وفق رسول الله لما يرضي الله ورسوله. فأقره على الحكم والاجتهاد وجعله أحد طرق الأحكام.

وقال عز وجل في الأمر باتباع حجة العقل: ﴿وَقَدْ أَفْضَاكَ أَتْلَا بَصِيرَةً ۝﴾ [الذاريات: ٢١] وقال: ﴿أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ ۝ مَا أَشَدُّ خَطْفُونَهُ ۚ إِنْ تَرَوْهُ فَقُلُّوا قَوْلًا يَكْفِي ۝﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩] وقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكِينَ وَالْأَرْضِ وَآخِزَاتِ الْبَلَدِ وَالْجِبَالِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝﴾ [آل عمران: ١٩٠] وقال: ﴿وَصَرَّفْنَا لَكَ مَثَلًا وَرَبَّنَا خَلَقْنَا مَنْ يُنِيبُ ۝ أَلَمْ نَقْلَقْهُمْ فِي أَخْطَأَ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُمْ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [يس: ٧٨، ٧٩] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَقْوَمُ عَلَيْهِ ۝﴾ [الزُّمَر: ٢٧] فأمرنا بالاعتبار والاستبصار ورد الشيء إلى مثله أو الحكم له بحسب نظيره، وهذا هو الحكم، المعقول والتفاسي إلى أدلة العقول.

١٢ - وأن يعلم: أن فرائض الدين وشرائع المسلمين، وجميع فرائض المسلمين وسائر المكلفين على ثلاثة أقسام: قسم منها: يلزم جميع الأعيان وكل من بلغ الحلم وهو: الإيمان بالله عز وجل، والتصديق له، ولرسوله، وكتبه، وما جاء من عنده، والعبادات على كل مكلف بعينه، من نحو الصلاة، والصيام، وما سنذكره ونفصله فيما بعد إن شاء الله.

والقسم الثاني: واجب على العلماء دون العامة، وهو القيام بالفتيا في أحكام الدين، والاجتهاد، والبحث عن طرق الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، وهذا فرض على الكفاية دون الأعيان، فإذا قام به البعض سقط عن باقي الأمة وكذلك القول في حفظ جميع القرآن، وما تنفذ به الأحكام من سنن الرسول عليه السلام، وغسل الميت، ومواراته، والصلاة عليه، والجهاد، ودفع العدو، وحماية البيضة وما جرى مجرى ذلك مما هو فرض على الكفاية. فإذا قام به البعض سقط عن باقي الأمة.

والقسم الثالث: من الواجبات من فرائض السلطان دون سائر الرعية: نحو إقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وقبض الصدقات، وتولية الأمراء، والقضاة، والسعاة، والفصل بين المتخاصمين، وهذا وما يتصل به من فرائض الإمام وخلفائه على هذه الأعمال دون سائر الرعية والعوام وليس في فرائض الدين ما يخرج عما وصفناه ويزيد على ما قلناه.

١٣ - وأن يعلم: أن أول ما فرض الله عز وجل على جميع العباد. النظر في آياته، والاعتبار بمقدوراته، والاستدلال عليه بآثار قدرته وشواهد ربوبيته؛ لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار، ولا مشاهد بالحواس، وإنما يعلم وجوده وكونه على ما تقتضيه أفعاله بالأدلة القاهرة، والبراهين الباهرة.

والثاني: من فرائض الله عز وجل على جميع العباد الإيمان به والإقرار بكتبه ورسله، وما جاء من عنده، والتصديق بجميع ذلك بالقلب والإقرار به باللسان.

١٤ - وأن يعلم: أن الإيمان بالله عز وجل هو: التصديق بالقلب، بأن الله الواحد، الفرد، الصمد، القديم، الخالق، العليم، الذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

والدليل على أن الإيمان هو الإقرار بالقلب والتصديق؛ قوله عز وجل: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] يريد بمصدق لنا. ومنه قوله عز وجل: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَلِنْ يَسْأَلْكُم بِهِ قَوْمُكُمُ﴾ [غافر: ١٢] أي تصدقوا. ويقال فلان يؤمن بالله وبالبعث؛ أي يصدق بذلك. وكذلك قولهم: فلان يؤمن بالشفاعة والقدر، وفلان لا يؤمن بذلك، يعني به التصديق، وينفي الإيمان به التكذيب. وقد اتفق أهل اللغة قبل نزول القرآن وبعث الرسول عليه السلام على أن الإيمان في اللغة هو التصديق دون سائر أفعال الجوارح والقلوب.

والإيمان بالله تعالى يتضمن التوحيد له سبحانه، والوصف له بصفاته، ونفي النقائص عنه الدالة على حدوث من جازت عليه.

والتوحيد له هو: الإقرار بأنه ثابت موجود، وإله واحد فرد معبود ليس كمثله شيء؛ على ما قرر به قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْإِلَهَ وَبِدَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وأنه الأول قبل جميع المحدثات. الباقي بعد المخلوقات، على ما أخبر به تعالى من قوله: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] والعالم الذي لا يخفى عليه شيء والقادر على اختراع كل مصنوع، وإبداع كل جنس مفعول، على ما أخبر به في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

وأنه الحي الذي لا يموت، والدائم الذي لا يزول، وأنه إله كل مخلوق، ومبدعه ومنشئه، ومخترعه، وأنه لم يزل [مسياً] لنفسه [بأ]سمائه، وواصفاً لها بصفاته، قبل

إيجاد خلقه، وأنه قديم بأسمائه وصفات ذاته، التي منها: الحياة التي بها بان من الموت والأموات، والقدرة التي أبدع بها الأجناس والذوات، والعلم الذي أحكم به جميع المصنوعات، وأحاط بجميع المعلومات، والإرادة التي صرف بها أصناف المخلوقات. والسمع والبصر اللذان أدرك بهما جميع المسموعات والمبصرات، والكلام الذي به فارق الخرس والسكوت وذوي الآفات، والبقاء الذي به سبق المكونات، وبقي به بعد جميع الفانيات، كما أخبر سبحانه في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَلْهَمْنَا لِسَانَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَوْفَرَ آلِهَ الْأَوَّلِينَ بِأَلْوَانٍ مِّنْ لَّيْسَ بِمَعْلُومٍ﴾ [النساء: ١٦٦] ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِنَا﴾ [فاطر: ١١] وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ يَتِيمًا لَهُمْ قُوَّةً﴾ [الفصل: ١٥] وقوله: ﴿ذُرِّ الْقُوَّةِ الَّذِينَ﴾ [الذاريات: ٥٨] فنص تعالى على إثبات أسمائه وصفات ذاته، وأخبره أنه ذو الوجه الباقي بعد تقضي الماضيات، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٢٨] وقال: ﴿وَيَسِّرْ لَهُ يَوْمَ نَبِّكَ ذُو الْبَلَدِ وَالْأَكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] واليدين اللتين نطق بإثباتهما له القرآن، في قوله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] وقوله: ﴿مَا تَنَكَّرَ أَنْ تَنْجِدَ لَنَا فَخَلَقْتَ يَدَيْنَا﴾ [ص: ٧٥] وأنها ليستا بجارحتين، ولا ذوي صورة وهيئة، والعينين^(١) اللتين أفصح بإثباتهما من صفاته القرآن ونوالت بذلك أخبار الرسول عليه السلام، فقال عز وجل: ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ عَلَىٰ عِيقٍ﴾ [طه: ٣٩] و﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القدر: ١٤] وأن عينه ليست بحاسة من الحواس، ولا تشبه الجوارح والأجناس، وأنه سبحانه لم يزل مريداً وشائياً، ومحباً ومبغضاً، وراضياً، وساخطاً، وموالياً، ومعادياً، ورحيماً، ورحماناً. ولأن جميع هذه الصفات راجعة إلى إرادته في عباده ومشيتته، لا إلى غضب بغيره. ورضى يسكنه طبعاً له، وحنق وغيظ يلحقه، وحقد يجده، إذا كان سبحانه متعالياً عن الميل والنفور.

وأنه سبحانه راض في أزله عن علم أنه بالإيمان يختم عمله ويوافي به. وغضبان على من علم أنه بالكفر يختم عمله ويكون عاقبة أمره، وقد قال تعالى: ﴿قَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [مُؤَسَّد: ١٠٧] و﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْفَسَادَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْمُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [التل: ٢٨].

(١) وتنبيه العين لم ترد في الكتاب، وحديث الدجال ليس فيه إلا نفي النقص من الله سبحانه لا إثبات العينين له مع كونه خبر آحاد فتبين الاختصار على ما ورد في الكتاب وهو ما في الآيتين ولا يكون في الأمر فتح باب التشبيه (ز).

[٤٠] وقال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩] ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] في أمثال هذه الآيات الدالة على أنه شاء مريد، وأن الله جلّ شأنه مستور على العرش، ومستور على جميع خلقه كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] بغير مماسة وكيفية، ولا مجاورة، وأنه في السماء إله وفي الأرض إله كما أخبر بذلك.

وأنه سبحانه يتجلى لعباده المؤمنين في المعاد، فيرويه بالأبصار، على ما نطق به القرآن في قوله: ﴿يَوْمَ يُمَيِّزُ اللَّهُ الْبَاطِلَ مِنَ الْبَاطِلِ﴾ [البينة: ٢٢، ٢٣] وتأكيده كذلك بقوله في الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥] تخصيصاً منه برويته للمؤمنين، والفرقة فيما بينهم وبين الكافرين، وعلى ما وردت به السنن الصحيحة في ذلك عن رسول الله ﷺ، وما أخبر به عن موسى عليه السلام، في قوله: ﴿رَبِّ أَوْفَيْتُكَ لِإِبْلِكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ولولا علمه بجواز الرؤية بالأبصار لما أقدم على هذا السؤال.

١٥ - وأن يعلم: مع كونه تعالى سمياً بصيراً: أنه مدرك لجميع المدركات التي يدركها الخلق: من الطعوم، والروائح، واللين، والخشونة، والحرارة، والبرودة؛ بإدراك معين، وأنه مع ذلك ليس بذئ جوارح وحواس توجد بها هذه الإدراكات. فتعالى [الله] عن التصوير والجوارح، والآلات.

١٦ - وأن يعلم: أنه مع إدراك سائر الأجناس [من] المدركات وجميع الموجودات، غير ملتذ ولا متألم بإدراك شيء منها، ولا مشقة [له منها] ولا نافر عنها، ولا متفجع بإدراكها [ولا متضرر] بها. ولا يجانس شيئاً منها، ولا يضادها، وإن كان مخالفاً لها.

١٧ - وأن يعلم: أنه سبحانه ليس بمغاير لصفات ذاته، وأنها في أنفسها غير متغايرات؛ إذ كان حقيقة الغيرين ما يجوز مفارقة أحدهما الآخر بالزمان، والمكان والوجود والعدم. وأنه سبحانه يتعالى عن المفارقة لصفات ذاته، وأن توجد الواحدة منها مع عدم الأخرى.

١٨ - وأن يعلم: أن صفات ذاته [هي التي] لم تزل، ولا يزال موصوفاً بها. وأن صفات أفعاله هي التي سبقها، وكان تعالى موجوداً في الأزل قبلها.

ونعتقد أن مشيئة الله تعالى ومحبه ورضاه ورحمته وكرامته وغضبه وسخطه وولايته وعداوته [كلها] راجع إلى إرادته، وأن الإرادة صفة لذاته غير مخلوقة، لا على

ما يقوله القدرة، وأنه يريد بها لكل حادث في سمائه وأرضه مما يتفرد سبحانه بالقدرة على إيجاده، وما يجعله منه كسباً لعباده، من خير، وشر، ونفع، وضر، وهدى، وضلال، وطاعة، وعصيان، لا يخرج حادث عن مشيئته. ولا يكون إلا بقضائه وإرادته.

١٩ - وأن يعلم: أن كلام الله تعالى صفة لذاته لم يزل ولا يزال موصوفاً به وأنه قائم به ومختص بذاته، ولا يصح وجوده بغيره، وإن كان محفوظاً بالقلوب ومتلوّاً بالألسن، ومكتوباً في المصاحف، ومقروءاً في المحارب، على الحقيقة لا على المجاز^(١) وغير حال في شيء من ذلك، وأنه لو حل في غيره لكان ذلك الغير متكلماً به، وأمرأ ونهاياً.

ومخبراً وقائلاً: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] وذلك خلاف دين المسلمين، وأن كلامه سبحانه لا يجوز أن يكون جسماً من الأجسام، ولا جوهرأ، ولا عرضأ، وأنه لو كان كذلك لكان من جنس كلام البشر، ومحدثأ كهو: يتعالى الله سبحانه أن يتكلم بكلام المخلوقين.

٢٠ - [وأن] يعلم: أن كلامه مسموع بالأذان، وإن كان مخالفاً لسائر اللغات، وجميع الأصوات، وأنه ليس من جنس المسموعات، كما أنه [مرئي] بالأبصار، وإن كان مخالفاً لأجناس المرئيات، وكما أنه موجود مخالف لسائر الحوادث الموجودة، وأن سامع كلامه منه تعالى بغير واسطة ولا ترجمان. كجبريل، وموسى، ومحمد عليهم السلام حق، سمعه من ذاته غير متلو ولا مقروء، ومن عداهم ممن يتولى الله خطابه بنفسه إنما يسمع كلامه متلوّاً ومقروءاً، وكذلك قال الله عز وجل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وقال: ﴿فِيْنَهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وأن قراءتنا القرآن كسب لنا ثواب عليها، ونلام على تركها إذ وجبت علينا في الصلوات. وأنه لا

(١) لأن القرآن يطلق على ما قام بالله من الألفاظ العلبية الغيبية - وهو غير مخلوق وغير حال في مخلوق - وعلى المكتوب بين الدفتين وعلى المحفوظ في القلوب من الألفاظ الذهنية، وعلى الملفوظ بالألسن على سبيل الاشتراك اللفظي عنده، والقرينة هي التي تعين المراد منها في كل موضع، وما سوى الأول مخلوق، وهذا البحث أنضج عند المتأخرين من أئمة الأشاعرة، والتحقق: أن وصف القرآن بما سوى الأول وصف للملئول بصفة الدال، كما في شرح المقاصد (ز).

يجوز أن يحكى كلام الله عز وجل ولا أن يُلفظ به^(١) لأن حكاية الشيء مثله وما يقاربه وكلام الله تعالى لا مثل له من كلام البشر، ولا يجوز أن يلفظ به بتكلم الخلق لأن ذلك يوجب كون كلام الله تعالى قائماً بذاته قديم ومحدث وذلك خلاف الإجماع والمعقول، وأن كلام الله تعالى غير متبعض ولا متغاير، وأن الصفة هي ما قامت بالشيء وأن الوصف قول الواصف الدال على الصفة خلاف ما يذهب إليه القدرية.

وأنه مقدر لأرزاق جميع الخلق، وموقت لآجالهم، وخالق لأفعالهم، وقادر على مقدوراتهم، وإله ورب لها. لا خالق غيره، ولا رزاق سواه، كما أخبر تعالى في قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠] وقال تعالى: ﴿لَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفْتُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] وقال: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ﴾ [نابطر: ٣] وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [التحل: ٢٠].

وأن بيده الخير، والشر، والنفع، والضرر، وأنه مقدر جميع الأفعال، لا يكون حادث إلا بإرادته، ولا يخرج مخلوق عن مشيئته، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

وأنه فعال لما يريد، وأنه يهدي من يشاء ويضل من يشاء، لا هادي لمن أضله ولا مضل لمن هداه، كما قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ [الأعراف: ١٧٨] مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَكَأَيُّ هَادٍ لَمٌ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وأنه موفق أهل محبته وولايته لطاعته، وخاذل لأهل معصيته، فذل ذلك كله [على] تدبيره وحكمته، وأنه عادل [في] خلقه بجميع ما يبتليهم به ويقضيه عليهم من خير، وشر، ونفع، وضرر، وغنى، وفقر، ولذة، وألم، وصحة، وسقم، وهداية، وضلال: ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُمْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُكْمُ الْبَاقِيَّةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وأنه سبحانه يعيد العباد، ويحيي الأموات، وأنه يقصد يوم القيامة لفصل القضاء، ويحيي الملائكة صفاً صفاً، و[يمد] الصراط، ويزن الأعمال، وأنه سبحانه قد خلق الجنة والنار.

(١) يعني لا يجوز أن يقال حكى كلام الله أو لفظ به في صدد الإنفاذ عن قراءته وتلاوته، لأن الحكاية توهم المحاكاة وفيها شائبة المماثلة وهو سبحانه منزّه عنها، وكذا اللفظ والتكلم بكلام الله لإيهام ذلك المشاركة، تعالى الله عن ذلك، على أن تلك العبارات مما لم يرد إذن من الشارع في إطلاقها على كلام الله (ز).

وما لا يتأتى الواجب إلا بفعله صار واجباً؛ كالطهارة مع الصلاة، والقراءة في الصلاة، وإمساك جزء من الليل في الصيام، وإدخال جزء من الرأس في غسل الوجه، إلى غير ذلك مما لا يمكن تحصيل الواجب إلا به صار واجباً.

مسألة

وإذا صح وجوب النظر فالواجب على المكلف النظر والتفكر في مخلوقات الله، لا في ذات الله، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿رَتَقْنَا بُرُوجَهُ فِي سُحُورٍ وَلَآئِذٍ قَالَ لَهُ أُولُو الْقُلُوبِ الْغَافِلُونَ أَتَتَذَكَّرُ أَمْ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] والنظر، والتفكر، والتكليف يكون في المخلوقات، لا في الخالق، وأيضاً قوله ﷺ: «تفكروا في الله»^(١) وأيضاً قوله عليه السلام: «مثل الناظر في [قدر]»^(٢) الله كالناظر في عين الشمس، فمهما ازداد نظراً ازداد حيرة. وأيضاً: فإن موسى عليه السلام لما سأله اللعين فرعون عن ذات الله، أجابه بأن مصنوعاته تدل على أنه إله ورب قادر، لا إله سواه. إذا نظر فيها وتأمل ولم يحدد له الذات فلا يكفيها؛ لأنه لما قال له: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] قال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مریم: ٦٥] إلى أن كرر عليه السؤال وأجابه بمثل الأول، إلى آخر الآيات (٢٥ - ٢٦ و ٢٨) كلها، فمهما سأله عن الذات أجابه بالنظر في المصنوعات التي تدل على معرفته.

وقيل: سئل بعض أهل التحقيق عن الله عز وجل ما هو؟ فقال: إله واحد. ف قيل له: كيف هو؟ فقال: ملك قادر، ف قيل له: أين هو؟ فقال: بالمرصاد. فقال السائل: ليس عن هذا أسألك؟ فقال: الذي أجبتك به هو صفة الحق، فأما غيره فصفة الخلق. وأراد بذلك أن يسأله عن التكليف، والتحديد، والتمثيل، وذلك صفة المخلوق لا صفة الخالق، ولأن المتفكر إذا تفكر في خلق السموات والأرض وخلق نفسه وعجائب صنع ربه، أداه ذلك إلى صريح التوحيد؛ لأنه يعلم بذلك أنه لا بد لهذه المصنوعات من صانع، قادر، عليم، حكيم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية واللائكاني في شرح السنة بألفاظ متقاربة في المعنى (ز).

(٢) هكذا في الأثر ولم نجد مرفوعاً فإذا كان النظر في قدر الله موجباً للحيرة فبالحرى كون النظر في الله موجباً للحيرة متنعاً (ز).

مسألة

ويجب أن يعلم: أن العالم محدث؛ وهو عبارة عن كل موجود سوى الله تعالى، والدليل على حدوثه: تغيره من حال إلى حال، ومن صفة إلى صفة، وما كان هذا سبيله ووصفه كان محدثاً، وقد بين نبينا ﷺ هذا بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة، لما قالوا له: يا رسول الله: أخبرنا عن بدء هذا الأمر؟ فقال: «نعم. كان الله تعالى ولم يكن شيء، ثم خلق الله الأشياء» فثبت أن كل موجود سواء محدث مخلوق. وكذلك الخليل عليه السلام، إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلى حالة؛ لأنه لما رأى الكوكب قال: هذا ربي، إلى آخر الآيات (٦ - ٧٦ - ٧٩) فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت [على أنها] محدثة مفضولة مخلوقة، وأن لها خالقاً، فقال عند ذلك: ﴿وَجِئْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

مسألة

وإذا صبح حدوث العالم؛ فلا بد له من محدث أحدثه، ومصور صورته، والدليل على ذلك: أن الكتابة لا بد لها من كاتب كتبها، والصورة لا بد لها من مصور صورها، والبناء لا بد له من باني بناءه. فإنا لا نشك في جهل من أخبرنا بكتابة حصلت بنفسها لا من كاتب، وصناعة لا من صانع، وحياسة لا من ناسج. وإذا صبح هذا وجب أن تكون صور العالم وحركات الفلك متعلقة بصانع صنعها، ومحدث أحدثها، إذ كانت اللفظ وأعجب صنفاً من سائر ما يعتذر وجوده إلا من صانع.

دليل ثان: ويدل على ذلك أيضاً: علمنا بتقدم الحوادث بعضها على بعض، وتأخر بعضها عن بعض، مع علمنا بتجانسها وتشاكلها، فلا يجوز أن يكون المتقدم منها متقدماً لنفسه؛ لأنه لو تقدم لنفسه لوجب تقديم كل ما هو من جنسه معه، وكذلك المتأخر منها، لو تأخر لنفسه وجنسه لم يكن المتقدم منها بالتقدم أولى منه بالتأخر، وفي علمنا بأن المتقدم من المنماتلات بالتقدم أولى منه بالتأخر، دليل على أن له مقدماً قدماً، وعاجلاً عجله في الوجود، مقصوراً على مشيئته.

ويدل على صحة ذلك أيضاً: علمنا بأن الصور الموجودة؛ منها ما هو مربع، ومنها ما هو مدور، ومنها شخص أطول من شخص، وآخر أعرض من آخر؛ مع تجانسها، ولا يجوز أن يكون المربع منها ربع نفسه، ولا المطول منها طول نفسه،

ولا القبيح منها قبيح نفسه، ولا الحسن منها حسن نفسه، فلم يبق إلا أن لها مصوراً صوّرها؛ طويلة، وقصيرة، وقبيحة، وحسنة، على حسب إرادته ومشيته.

ويدل على صحة ما ذكرناه: أن الموجودات لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها، أنا وجدنا منها الموات والأعراض، أعني الجمادات التي لا حياة فيها، لا يجوز أن تكون فاعلة لنفسها ولا لغيرها، لأن من شرط الفاعل أن يكون حياً، قادراً، فبطل كونها محدثة لنفسها بل لها محدث أحدثها.

ويدل على صحة ذلك أيضاً: أنا وجدنا أنفس الموجودات في العالم، الحيّ القادر العاقل المحصل، وهو الآدمي، ثم أكمل ما تكون. تعلم وتحقق أنه كان في ابتداء أمره نطفة ميتة، لا حياة فيها ولا قدرة، ثم نقل إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم من حال إلى حال، ثم بعد خروجه حياً من الأحشاء إلى الدنيا. تعلم وتحقق أنه كان في تلك الحالة جاهلاً بنفسه وتكليفه، وتركيبه، ثم بعد كمال عقله ونصوره وحذقه وفهمه لا يقدر في حال كماله أن يحدث في بدنه شعرة ولا شيئاً، ولا عرقاً فكيف يكون محدثاً لنفسه ومتغلاً^(١) لها في حال نقصه من صورة إلى صورة ومن حالة إلى حالة وإذا بطل ذلك منه في حال كماله كان أولى أن يبطل ذلك منه في حال نقصه، ولم يبق إلا أن له محدثاً أحدثه، ومصوراً صوّره ومُنقلاً نقله؛ وهو الله سبحانه وتعالى.

مسألة

وإذا ثبت أن للعالم صانعاً صنعه، ومحدثاً أحدثه، فيجب أن يعلم أنه لا يجوز أن يكون مشبهاً للعالم المصنوع المحدث؛ لأنه لو جاز ذلك لم يخل: إما أن يشبهه في الجنس، أو في الصورة، ولا يجوز أن يكون مشبهاً له في الجنس؛ لأنه لو أشبهه في الجنس لجاز أن يكون محدثاً كالعالم المحدث، أو يكون العالم قديماً كهو. لأنه حقيقة المشبهين المتجانسين: ما سذ أحدهما سذ الآخر وناب منابه، وجاز عليه ما يجوز عليه، ولا يجوز أن يكون يشبه العالم في الصورة لأن حقيقة الصورة هي الجسم المؤلف، والتأليف لا يكون إلا من شيئين فصاعد؛ ولأنه لو كان صورة لا تحتاج إلى مصور صوّره، لأن الصورة لا تكون إلا من مصور على ما قدّمنا بيانه،

(١) هكذا في الأصل وهو بصيغة اسم الفاعل من التفعيل أي ناقلها ومصلحاً من حال إلى حال

وقد بين ذلك تعالى بأحسن بيان فقال تعالى: ﴿أَتَنْتَبَهُنَّ لَمْ يَخْلُقْ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]
وقد سئل بعض أهل التحقيق عن التوحيد ما هو؟ فقال: هو أن تعلم أنه ما بينهم
بقدمه كما بينهم بحدوثهم.

وقال الجنيد رضي الله عنه: التوحيد إفراز القوم عن الحدوث، فاحكموا أصول
العقائد بواضح الدليل ولانح الشواهد.

وقال أبو محمد الحريري رضي الله عنه: من لم يقف على علم التوحيد يشاهده
من شواهد، زلت به قدم الغرور في مهواة التلف.

وقال الجنيد: أول ما يحتاج إليه المكلف من عقد الحكمة: أن يعرف الصانع
من المصنوع، فيعرف صفة الخالق من المخلوق، وصفة القديم من المحدث.

وسئل أبو بكر الزاهد رضي الله عنه عن المعرفة ما هي؟ فقال: المعرفة اسم
ومعناه: وجود تعظيم في القلب، يمنعك عن التعطيل والتشبيه.

وقيل لأبي الحسن البوشنجي: ما التوحيد؟ فقال: أن تعلم أنه غير مشبه
بالذوات ولا بنفي الصفات.

مسألة

وإذا ثبت أن صانع الموجودات ومحدثها لا يجوز أن يكون يشبهها، فيجب أن
تعلم أن محدث العالم قديم، أزلي لا أول لوجوده. ولا آخر لدوامه. والدليل على
صحة ذلك: أنه لو لم يكن قديماً كما ذكرنا لكان محدثاً، ولو كان محدثاً لاحتاج إلى
محدث أحدثه؛ لأن غيره من الحوادث إنما احتاجت إلى محدث لأنها محدثة. ولو
كان ذلك كذلك لاحتاج كل محدث إلى محدث آخر، إلى ما لا نهاية له ولا غاية،
ولنا بطل ذلك صخ كونه قديماً أزلياً.

وبمثل هذا الدليل: يستدل على بطلان قول من زعم من أهل الدرر أن
الحوادث لا أول لوجودها، فافهمه ترشد، إن شاء الله تعالى.

مسألة

ويجب أن يعلم: أن صانع العلم جلت قدرته واحد أحد؛ ومعنى ذلك: أنه
ليس معه إله سواه، ولا من يستحق العبادة إلا إياه، ولا نريد بذلك أنه واحد من
[جهة العدد] وكذلك قولنا أحد، وفرد وجود ذلك إنما نريد به أنه لا شبيه له ولا

الجواب الثاني: أن الرضا بالشئ هو المدح له والثناء عليه والإثابة عليه وكونه ديناً وشرعاً، والله تعالى لا يرضى الكفر بمعنى أنه لا يمدحه ولا يثيب عليه ولا يرضى كونه ديناً وشرعاً، دون إرادة وجوده وخلقه. فاعلم ذلك.

فإن قيل: أتقولون أن الله تعالى قضى المعاصي وقدرها، كما أنه خلقها، قلنا له: أجل: نقول ذلك بمعنى أنه خلقه وأوجده على حسب قصده وإرادته، ولا نقول إنه قضاه بمعنى أنه أمر به، ولا رضىه ديناً وشرعاً، وأنه يمدحه ويثيب عليه.

فإن قيل: فعلى كم وجه ينقسم القضاء؟ قيل له على وجوه كثيرة...

منها: قضاء يكون بمعنى الخلق، وذلك قوله تعالى: ﴿فَقَضَّاهُ سَبْعَ سَعَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] يعني خلقهن، ويكون القضاء بمعنى التسليط. والخلق، وهو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ [نبا: ١٤] يعني خلقنا وسلطنا عليه الموت، ويكون بمعنى الإخبار والإعلام، وهو قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْكَ بَيِّنَاتٍ لِّمَن كَانَ فِي الشُّكِّ لِنُفِذَ فِي الْأَرْضِ مَرْثِيَيْنِ﴾ [الإسراء: ٤] يعني أعلمناهم وأخبرناهم، ويكون القضاء بمعنى الأمر، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، ويكون القضاء بمعنى الحكم والإلزام، يقال: قضى القاضي على فلان بكذا، أي أوجبه عليه وألزمه إياه وحكم به عليه، فإن الله تعالى قضى بالمعاصي والكفر، بمعنى أنه أرادته وخلقه، وقدره، ولا يجوز أن يكون بمعنى أمر به واختاره ديناً وشرعاً، ولا مدحه، ولا يثيب عليه، ولا فرضه فرضاً على أحد، بمعنى أنه أوجبه عليه، فاعلم هذه الجملة وتحققها تسلم من شبه المبتدعة وتلييهم على العوام ومن لا فهم له إن شاء الله.

فإن قيل: أفترضون بقضاء الله وقدره؟ قلنا: هذا يحتاج إلى تفصيل، فنحن نطلق الرضا بقضاء الله وقدره على الإطلاق، بمعنى أنه لا يعترض على حكمه السابق وإرادته الأزلية، ولا يتقدم بين يديه بالاعتراض بل تسلم لما أراد فينا وفي غيرنا، ولا نعترض بما يفعل، فنقول: نحن نوصي بقضاء الله الذي هو خلقه، كما أخبرنا به ومدحنا على فعله، ووعد عليه الثواب، فنرضى بذلك ونريده لنا ولجميع إخواننا من المسلمين، ولا نقول: إن قضاءه الذي هو بمعنى خلقه، وإيجاده الذي هو خلقه مذموماً جيداً، ذنباً معصية كفرة، إنا نرضى بذلك ديناً وشرعاً ولا نحبه ولا نرضاه ولا نريده لنا ولا لأحد من إخواننا المسلمين، فاعلم هذا التفصيل تسلم من شبه الأباطيل ومن خدع أهل التعطيل. يؤكد هذا أو يقرره أنا نقول وكل مسلم عند الإطلاق: إن

جميع الأشياء لله تعالى، إنه خلقها وهي ملك له، لا خالق ولا مالك لها غيره، من والد، وولد، وزوجة، وصاحبة، فتعلق ذلك عند الإجمال. فأما عند التفصيل فنقول: إن لله الأسماء الحسنی. ونقول: إن له الجلال، والجمال، والقدرة، والكمال، ولا نقول: إن له الولد، والوالد، والصاحبة، والزوجة، والشريك. فاعلم ذلك. وكما نقول عند الإطلاق: إن كل مخلوق يبيد ويفنى ويزول ويضمحل، ولا نقول عند التفصيل: إن حجة الله على خلقه والأعمال من الصلاة، والصيام، والحج، إن ذلك يبيد ويفنى ويضمحل، ونحو ذلك.

ثم نقول لهم يا جهلة: أليس الله تعالى قضى بموت نبيه ﷺ، وكذلك موت جميع الأنبياء عليهم السلام، فلا بد أن يقولوا: بلى. فنقول لهم: أفترضون بذلك وأشباهه؟ إن قالوا: نعم. وكلنا نقول: إنه قضى ذلك، قلنا: وكذلك نقول نحن أيضاً: قضى كل موجود وخلق وأراد عند الإطلاق، وعند التفصيل لا نقول: إنا رضينا موت النبي ﷺ، بمعنى إنا أحببنا ذلك، وأنه سرنا، فاعلم ذلك.

فإن قيل: أليس الله تعالى قد نهى عن الكفر والمعصية؟ قلنا: بلى قد نهى عن ذلك، فإن قالوا: فلا يحسن أن يريد شيئاً ويريد وجوده ثم ينهى عنه، قلنا: الجواب من وجهين:

أحدهما: أن يقال لهم: أليس الله تعالى قد علم أن الكافر يكفر، وأنه يوجد منه الكفر لا محالة، فلا بد لهم من [أن يقولوا] نعم. فيقال لهم: فكيف نهاه عن أمر قد علم أنه يكون منه ولا بد من وجوده، فلما جاز أن ينهى مع علمه أنه لا بد منه جاز أن ينهى عنه وإن أَرَادَهُ. فاعلم ذلك.

جواب آخر: وهو أن يقال لهم: أليس الله تعالى نهى عن إيلاام الرسل والمؤمنين، فلا بد من [أن يقولوا] نعم؛ فيقال لهم: فيوجد فيهم الألم من الأمراض والموت أم لا؟ فلا بد من [أن يقولوا] نعم. فيقال لهم: فإذا جاز أن ينهى عن إيلاامهم، ثم يريد ذلك ويحسن منه. فكذلك في مسألتنا يريد وينهى حتى يثبت لنفسه كمال القدرة ونفاذ الأمر والمشیئة ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُنْكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. والجملة أن الأمر منا، والنهي منا، والفعل منا، والإرادة منا إنما توصف تارة بكونها حسنة، وتارة بكونها قبيحة، إنما ذلك لمعنى، وهو أن كل ما كان منا مخالفاً لأمر الرب تعالى فهو قبيح، وإن كانت صورته حسنة من حيث الحس والنظر والسمع، ونحو ذلك؛ وأن كل ما كان منا حسناً إنما كان ذلك لأنه موافق لأمر الرب

تعالى، لا من حيث الصورة والحسن. فإذا صَحَّ هذا جئنا إلى أفعاله تعالى وإرادته وأمره ونهيه، فوجدناه ليس فوقه تعالى أمر يأمره ولا ناهٍ ينهيه، فصَحَّ أن جميع أفعاله وأمره ونهيه حسن على كل حال لا يتصف بغير ذلك، فاعلم هذه الجملة توفَّق إن شاء الله تعالى وفَّقنا الله وإياكم وجميع المسلمين.

الشفاعة

اعلم أن أهل السنة والجماعة أجمعوا على صحة الشفاعة منه ﷺ لأهل الكبائر من هذه الأمة، وقد قدّمنا المسألة وذكرنا الأخبار الواردة في الشفاعة أصلاً ورأساً.

واعلم أن المعتزلة افتترقت فرقتين؛ فقوم منهم أنكروا الشفاعة أصلاً ورأساً، وردُّوا الأخبار الصحيحة الواردة فيها وما دلَّ عليه القرآن من ذلك. وقالت الفرقة الثانية: إن للأنبياء شفاعة، وللملائكة، لكن لثلاث فرق من المؤمنين.

فرقة منهم: أصحاب صفائر وليست لهم كبيرة من الذنوب. والفرقة الثانية: قوم عملوا الكبائر وتابوا منها وندموا عليها. والفرقة الثالثة: قوم من المؤمنين لم يعملوا ذنباً أصلاً. فأما صاحب الكبيرة الذي مات من غير توبة فلا شفاعة له عندهم، وكلا القولين باطل.

أما الفرقة الأولى: فجحدت صحة الأخبار الصحاح؛ وأما الفرقة الثانية: فذهبت إلى محال من القول، لأن الشفاعة عندهم فيمن لم يعمل كبيرة أو عمل وتاب لا معنى لها، لأنها تكون بمعنى أن الشافع يقول: يا رب لا تظلم عبادك. فإنك قد وعدت أنك تغفر الصفائر مع اجتناب الكبائر؛ وكذلك التائب من الكبيرة لا تظلمه، فإنك قد وعدت بقبول التوبة، والله أجل وأعلى من أن يسأل ويشفع إليه إلا بظلم، فبطل قولهم.

وأما من لم يذنب أصلاً فعلى خبث عقدهم أنه قد وجب له على الله الثواب، والجنة، والنعيم المقيم، فما معنى هذه الشفاعة له. فلم يبق إلا أنهم عاندوا الحق وضلُّوا السبيل واستحوذ عليهم وسوسة المردة والشياطين، حتى ردُّوا القرآن والسنة وإجماع الأمة، فنعمذ بالله منهم ومن خبث عقدهم.

فإن قالت هذه الفرقة الأخيرة منهم: تكون الشفاعة لمن ذكرنا من الثلاث فرق شفاعة في الثواب، قلنا: وهذا ضلال أيضاً، لأن القرآن إنما نطق بشفاعة الملائكة في

وقاية المؤمنين شر ذنوبهم يوم القيامة، ولم يذكر فيها زيادة الثواب، وإنما أخبر عنهم يقولون: ﴿وَقِهِمُ السَّخَاتِ﴾ [غافر: ٩] فصح أن الشفاعة في الذنوب والسيئات أن يغفر لها ويتجاوز عنها، لا ما ذكرتم يا فرقة الضلال.

فأما الأدلة على صحة الشفاعة، فقد ذكرناها من الكتاب والسنة، لكن نجدد هاهنا طرفاً منها. أما من القرآن فقوله تعالى: ﴿صَلِّ أَنْ يَعْنَكَ رَبُّكَ مَقَامًا تَحْمَدُ﴾ [الإسراء: ٧٩] روي [عن] أنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري وجماعة من الصحابة لا يحصون عدداً: أن ذلك في الشفاعة، ثم ذكروا ذلك عن النبي ﷺ في أخبار يطول ذكرها وشرحها. وقد ثبت عنه ﷺ قوله: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» وهذا فيه الحجة على الفريقين ممن أنكر الشفاعة أصلاً، ومن قال إنها لغير أهل الكبائر. وقال ﷺ: «أشفع إلى ربي فيحد لي حداً فأخرجهم من النار، ثم أشفع فيحد لي حداً فأخرجهم من النار» ثم ذكر الحديث إلى أن قال: «حتى لا يبقى أحد من أهل الإيمان في النار، ولو كان في قلبه مثقال فرة من إيمان» وهذا الحديث صريح في الحجة على كل من الفريقين من المعتزلة. وأخبار الشفاعة كثيرة جداً، وقد قَدَّمْنَا منها ما فيه الكفاية وزيادة، ولأن الشفاعة في أقل الدارين من أقل الشفعاء تكون في الذنوب وغيرها، فما ظنك بالشفاعة في أعلى الدارين من أعلى الشفعاء عند الله عز وجل، حتى ذكر في بعض الأخبار أنه ﷺ يغط بذلك المقام، يغط به الأولون والآخرون، ثم تكون الشفاعة فيمن لا كبيرة له، وإنكار هذا جهل وعناد وطلعن في القرآن وصحيح الأخبار.

فصل

نذكر فيه شياً لهم يرومون بذلك دفع الأخبار الصحاح المجمع على صحتها في صحة الشفاعة، ونحن نجيب عنها بعمون الله وحسن توقيفه. فإن قالوا: هذه الأخبار تعارض بمثلها، فإنه قد روى الحسن البصري وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تنال شفاعتي أهل الكبائر من أمتي» فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا عن الحسن لم يصح، ولم يرد في [خبر] صحيح ولا في سقيم، وإنما هو اختلاق وكذب، ولا يعارض الآثار الصحاح المتفق على صحتها، ثم لو جاز أن يكون قد روي فلم يسقط الصحيح المجمع على صحته بالضعيف السقيم الذي لا أصل له. مع إمكان الجمع بين الكل، واستعمال الجميع، فتحمل صحاح

الأخبار على ما قلنا، ويحمل هذا الخبر على أنه أراد به الكبائر التي تخرج من الإسلام، نحو الكفر بعد الإيمان، أو استحلال ما حرم الله، أو تكذيب بعض الرسل أو بعض الكتب، وبصير هذا كما قلنا إنا نجمع بين كل ما ذكر في القرآن، وإن كان ظاهره يتناقض بعضها بعضاً عند الجهال مثلكم، فإنه تعالى قال: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المُرْسَلَات: ٢٥] ثم قال في موضع آخر: ﴿وَأَقِيلَ يَتَعَفَّمُ عَلَى بَعْضِ نَسْأَلُونَ﴾ [الصَّافَات: ٢٧] فيحمل هذا على أنهم لا ينطقون عند الصراط، والميزان، والكتب، ويسأل بعضهم بعضاً بعد ذلك، حتى لا تسقط شيئاً من كتاب الله ولا ينقض بعضه بعض فكذاك يحمل قوله: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» في حق من يبقى على الإيمان حتى يخرج من دار الدنيا، ويحمل ما ذكروا - لو كان صحيحاً - على من خرج من الدنيا على غير إيمان، ونكون أسعد وأولى، لأننا ثبت الصحيح بتأويل لشيء باطل لا أصل له أن لو صح، وهم يسقطون الصحيح المتفق على صحته بشيء باطل لم يصح.

فإن قيل: هذا لا يصح مع قوله عليه السلام: «لا ينال شفاعتي أهل الكبائر من أمتي» والكافر بما ذكر به ثم ليس من أمته، قلنا: بل يصح ذلك من وجهين:

أحدهما: أنه أراد بذلك من كان من أمتي ثم ارتد، أو نحو ذلك، فقد يجوز أن يسمى الشيء بما كان عليه أولاً، وإن كان في الحال لا يسمى به، ألا ترى إلى ما قال ﷺ في النبيذ: «ثمرة طيبة وماء طهور» يعني كان ثمرة طيبة وماء طهوراً، لا يريد أنه في الحال ثمرة، وكذلك أمر ﷺ بلالاً: «ارجع فناد ألا إن العبد نام» ولم يرد أنه الآن عبد، بل أراد أنه كان عبداً، لأن الصديق اعتق بلالاً قبل ذلك. يقال لعتيق الرجل: عبد بني فلان، أي كان عبداً لهم، ونحو ذلك كثير. ويحتمل أن يكون سماهم من أمته، لأنهم كانوا في عصره ووقته وقرنه، وكل قرن يسمى أمة، ويكون ذلك فيمن كان آمن به في وقته ثم ارتد، فمن ذكر من أهل الردة، أو كان في وقته ولم يؤمن، وسماه من أمته لأنه في قرنه وعصره. فصح ما قلناه ويطل تعلقهم بما لا أصل له.

فإن قيل: ليس قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من تحنى سماً وقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالداً فيها أبداً»، وروي مثله فيمن قتل نفسه بحديدة، ومن تردى من جبل. وروي عنه ﷺ أنه قال: «لا يدخل الجنة مدمن خمر، وعاق والديه» فهذه الأخبار معارضة لأخبار الشفاعة.

فالجواب عن هذه الأخبار: أن [منها] ما صح [و] [منها] [ما لم يصح] ويجمع بين الكل، فتحمل هذه الأخبار على من فعل ذلك مستحلاً لفعله، أو فعله على وجه التكذيب للصادق فيما أخبر به أن هذا الفعل كبيرة حرام، ونحو ذلك، وهذا صحيح لأن الرسول ﷺ قال: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة». فقال أبو ذر: وإن زنا، وإن سرق؟ فقال: «وإن زنا، وسرق، وقتل، وشرب الخمر، وإن رغم أنف أبي ذر» فصح ما قلناه، وقبلنا جميع الأخبار الصحاح ولم نضرب بعضها ببعض، ولا أسقطنا بعضها ببعض، كما يفعل أهل البدع الذين ضاهوا اليهود في قولهم: «تَوَيْتُ بِبَعْضٍ وَنَكَرْتُ بِبَعْضٍ» [النساء: ١٥٠].

فإن قيل: أليس عندكم أن الرسول ﷺ لا يشفع إلا في مؤمن، وقد وردت الروايات «لا يزني الزاني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق وهو مؤمن» وكذلك روي أنه قال: «ليس منا من يأتينا بطيئاً ويأتي جاره خميصاً» و«من غشنا فليس منا» ولا إيمان لمن لا أمانة له، إلى غير ذلك، فكيف يشفع الرسول عليه السلام فيمن ليس بمؤمن؟

فالجواب: أن يقال لهم: هذه الأخبار لا حجة فيها ولا تعارض أخبار الشفاعة، فإنها محتملة لوجوه إذا صرفت إليها صحت، ولم تكن معارضة لأخبار الشفاعة.

أحدها: أن يكون المراد لا يزني ولا يسرق حين يفعل ذلك، وهو مؤمن: أي مستحل لذلك، حتى يصح الجمع بين هذه الأخبار وبين قوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن سرق وإن زنا وشرب الخمر»، أو يكون أراد بذلك إذا فعله على وجه التكذيب لتحريم هذه الأشياء، والله تعالى لم يحرمها، أو يكون المراد ليس بمؤمن كإيمان المؤمن الذي لم يكن منه سرقة، ولا زنا، ولا شرب خمر أي في البر، والطهارة، والعفة ونحو ذلك، ويصير هذا كقوله: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد» أراد الكمال. وهذا الفصل أفسد الحجج وأدحضها بحمد الله تعالى.

فإن قيل: فما معنى قوله تعالى: «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» [الأنبياء: ٢٨] قيل: معناه الرد على من أنكر أصل الشفاعة، فأخبر تعالى أن ثم شفاعة، لكن لمن أراد تعالى أن يشفع له وأذن في ذلك، ولم يرد إلا لمن رضي سائر عمله، لأن من رضي سائر عمله لا يحتاج إلى شفاعة، ويحتمل أن يكون «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى» [الأنبياء: ٢٨] يعني لمن كان معه عمل مرتضى. والمؤمن معه أفضل الأعمال التي ترضى، وإن كان عاصياً فاسقاً، وهو التوحيد والتصديق، وقوله: لا إله إلا الله. والذي لا يرضى عمله أجمع هو الكافر، فصح ما قلناه.

فإن قيل: ما تقولون فيمن حلف بالطلاق الثلاث أنه يفعل فعلاً ينال به شفاعه الرسول عليه السلام، ويستحق به شفاعه الرسول، أو قال: أنفعل فعلاً يجوز أن يشفع لي فيه الرسول مما أستحق من العقاب بماذا تأمرونه؟ تأمرونه بالمعصية أم بالطاعة؟ قلنا: الجواب من وجهين:

أحدهما: أنا نقول نأمره بالتمسك بالتوحيد والإيمان دون فعل الذنوب، لأن الشفاعة لا تُنال بالذنوب، وإنما تُنال بالإيمان دون الذنوب، وهذا كما أن زيدا يشفع في ذنب صديقه، أو قريبه، أو حبيه في دار الدنيا إلى من ملك إسقاط ذلك، لا يقال إنه نال ذلك بالذنب الذي أذنب أو الخطأ الذي أخطأ، وإنما ناله بالصدقة المتقدمة أو القرابة المتقدمة أو السؤال المتقدم، لا نفس الذنب، ونأمره أيضاً بفعل الطاعات حتى ينال بذلك شفاعَةَ الرسول عليه السلام في الزيادة له من البر والنعم ونحو ذلك.

الجواب الثاني: أنا نعارضكم بمثل هذا: لا تجدون أنتم عنه محيصاً، فنقول لكم: ما تقولون فيمن سمع قوله تعالى: ﴿يُحْيِي الْقُتُوبَ وَيُحْيِي السُّكُوتَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] فحلف رجل بالطلاق الثلاث ليفعلن فعلاً يجب عليه فيه التوبة أو الاستغفار حتى يتوب منه ويستغفر، ما تأمرونه؟ فإن قالوا: نأمره بالطاعة، وفعل الخير. قلنا لهم: هذا لا يصح؛ لأن الإنسان لا يجب عليه التوبة أو الاستغفار من فعل الطاعة والخير بإجماع المسلمين. وإن قلتم: نأمره بفعل المعاصي والذنوب حتى تجب عليه التوبة والاستغفار فيتوب ويستغفر حتى يتخلص من يمينه فقد استحلتتم ما حرم الله وأمرتم بما لا يجوز لمسلم أن يأمر به. وإن قلتم: لا نأمره بفعل المعصية ولكن إن ابتلي بشيء من ذلك قلنا له قد فعلت ما وجب به عليك التوبة والاستغفار وزوال حكم اليمين. قلنا لكم: نحن أيضاً نقول لمن حلف ليفعلن فعلاً، يجوز أن يشفع فيما يستحق عليه من العقاب شفاعَةَ الرسول عليه السلام، نقول له تمسك بالطاعة والإيمان، فإن ابتليت بشيء من المعاصي فقد خرجت من اليمين، ويجوز أن يشفع لك الرسول، لا أنا نأمره بالمعصية بوجه من الوجوه.



رؤية الله تعالى

اعلم أن رؤية الله تعالى جائزة من جهة العقل، وهي واجبة للمؤمنين في الآخرة من طريق الشرع، وبها نختم الكتاب إن شاء الله تعالى بعونه وتوقيفه، وإنما ختمنا بها لأنها أعلى الأشياء وأجلها، وبها يختم للمؤمنين المصدقين لها حتى يستحقروا كل نعيم في جنبها، جعلنا الله من أهلها بمنه وفضله، إنه جواد كريم.

اعلم أن أهل السنة والجماعة قد جوزوا الرؤية على الله تعالى شرعاً وعقلاً بلا خلاف بينهم على الجملة، وإنما وقع الخلاف بينهم هل يكون ذلك ويجوز في الدنيا أم ذلك في الآخرة خاصة.

فكل الصحابة أجمعوا ومن بعدهم من أهل السنة والجماعة أن الله تعالى يُرى في الجنة، يراه المؤمنون بلا خلاف في ذلك. واختلفت الصحابة في الرسول عليه السلام هل رآه ليلة المعراج بالقلب أو بعيني الرأس على قولين: فكانت الصديقة عائشة رضي الله عنها في جماعة من الصحابة يقولون: رآه بقلبه دون عيني رأسه، وكان ابن عباس رضي الله عنهما في جماعة من الصحابة رضي الله عنهم يقولون: إنه ﷺ رآه ليلة المعراج بعيني رأسه. ونحن نقول بقول ابن عباس رضي الله عنهما، فإذا تقرر هذا: فإن المعتزلة، والنجارية، والجهمية، والروافض، والخوارج: الكل منهم ينكرون الرؤية ولا يجوزونها بوجه، حتى قالوا: ولا يرى ولا يرى هو نفسه. وقد قدمنا الأدلة على صحة الرؤية وجوازها فيما تقدم، ولا بد أن نذكر هاهنا طرفاً من الأدلة أيضاً يؤكد ما تقدم ويقويه إن شاء الله.

ودليل ذلك من الكتاب والسنة والإجماع ممن يعد إجماعه إجماعاً، ودليل العقل.

فمن أدلة الكتاب قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْفِّي نُظْرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهذا السؤال إنما كان من موسى بعد النبوة، والبصحة، والرسالة، لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَوْفِّي نُظْرَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] ولا يخلو سؤال موسى عليه السلام هذا السؤال بعد النبوة والكمال من أحد أربعة أوجه: إما أن يكون سأل الرؤية بعد علمه بجوازها على ربه، أو مع علمه باستحالتها على ربه، أو سألها وهو شاك في ذلك، أو سألها وهو ذاهل العقل لا يتفهم شيئاً. فلا يجوز أن يكون سأل ذلك مع علمه بأنه يستحيل على ربه، لأن من المحال أن يسأل النبي الكريم ربه ما يستحيل في حقه، ولا يجوز عليه كما يستحيل في حقه سبحانه وتعالى، ولا يجوز أن يكون سأل ذلك وهو شاك جاهل بحكم هذه المسألة أو ذاهل لا يدري، لأن هذه المسألة من مسائل أصول الدين، وكيف يجوز على النبي الكريم عليه السلام الشك فيها أو الذهول، أو غفلة القلب عنها. وإذا بطل جميع ذلك لم يبق إلا أنه عليه السلام سأل وهو معتقد جواز الرؤية عليه سبحانه وتعالى. فإذا اعتقد النبي الكريم جواز الرؤية لم يخلُ من أن يكون مصيباً أو مخطئاً، ولا يجوز أن يخطئ النبي الكريم في اعتقاده، فلم يبق إلا أنه أصاب، وهذا التقرير لا مخرج للمخالف عنه بوجه ولا سبب. فافهمه.

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون موسى لم يسأل الرؤية، وإنما سألها قومه وسألوه أن يسألها لهم، أما أن يكون هو سألها لنفسه فلا.

فالجواب: أن هذا تعلل لا ينفعكم ولا ينجيكم مما قررنا وحققنا في اعتقاد موسى عليه السلام جواز الرؤية؛ وذلك: أن موسى عليه السلام لو كان يعتقد استحالة جواز الرؤية لكان قد أنكر عليهم ذلك أشد الإنكار وجهلهم بذلك غاية الجهل. ولم يساعدهم على ذلك. ولا سأل ما جهلهم عليه، ولما ساعدهم كما فعل لما قالوا: ﴿يَتُومَىٰ أَجَلٌ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءِلَٰهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] ولم يسأل ربه أن يجعل لهم إلهاً، لأنه علم عليه السلام استحالة ذلك. فكيف يسأل له أو لهم الرؤية مع اعتقاده استحالة ذلك عليه سبحانه وتعالى، فلم يبق إلا ما قلناه.

جواب آخر: وذلك أن هذا عدول عن الظاهر إلى غيره بغير دليل، لأنه قال: ﴿أَوَلَيْدٌ أَنْظَرُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] فلا يحمل أرني أنظر، على قومي ينظرون إليك، فبطل ما قالوه، وصار هذه بمنزلة قول من قول: قوله أي ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] أي اعبد غيري، وهذا لا يجوز، فبطل قولهم.

فإن قيل: اليس قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٤٣] فنص على أنه لا سبيل إلى ما سأله فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن هذا لا يمنع من جواز الرؤية، لأن قوله لن تراني إنما تضمن عدم وجود الرؤية عند السؤال، لا استحالة الرؤية على ما قررنا، ولو أراد استحالة الرؤية لقال: لن يجوز أن تراني. وقد لا يوجد الشيء ولا يدل على استحالته، ألا ترى أن أحداً لو سأل نبي زمانه أن يسأل ربه أن يرزقه ولداً، فسأل نبي ذلك الزمان، فأوحى الله تعالى لن يرزق هذا السائل ولداً، هل يدل ذلك على أنه لا يجوز وجود الولد في حق هذا السائل، ويستحيل، بل هو جائز وإن منع من وجوده عقب السؤال، على أن حرف لن لا يقتضي عدم جواز الرؤية في الدنيا والآخرة. ولو قرن بأبد. ألا ترى أنه تعالى قال في حق اليهود: ﴿وَلَنْ يَسْتَوْفُوا أَبَدًا بِمَا قَلَعْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٥] يعني الموت ولم يقتضِ ذلك [أن لا يتمنوه] في الدنيا والآخرة، لأنه أخبر تعالى أنهم يتمنون الموت في النار بقوله: ﴿وَتَأْتُوا فِي النَّارِ لَيْقِينَ يَكْنُفُ مِنَّا رُحْمًا﴾ [الزخرف: ٧٧] يعنون الموت، فإذا كان حرف لن مع اقتران أبد به لا يقتضي نفي ذلك في الدنيا والآخرة، فكيف به إذا لم يقرن به أبد، وأيضاً الجواب يجوز فيه الاستثناء، بأن كان يقول: لن تراني في الدنيا ولن تراني إلى وقت كذا وكذا، كما قال أخو يوسف عليه السلام: ﴿قُلْنَ أَبْنِجَ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٨٠] ثم استثنى ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ إِلَٰهَ أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠] فصح أن حرف لن لا يحيل عليه جواز الرؤية، وإنما توجب أن لا توجد الرؤية في هذا الوقت دون جوازها فصح ما قلناه.

والجواب الثاني: أن الله تعالى علّق جواز الرؤية على أمر جائز، ولو كانت مستحيلة لما علقها على أمر يجوز أن يوجد، وهو استقرار الجبل، فلما كان استقرار الجبل من الجائز دلّ على أن الرؤية جائزة.

فإن قيل: أليس قد قال موسى عليه السلام: ﴿بَيِّنْتُ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قالوا: والتوبة إنما تكون من الخطأ، فلما علم عليه السلام أنه أخطأ تاب، فالجواب من أوجه:

أحدها: أن موسى عليه السلام لما رأى الآية من جعل الجبل دكاً، وصعوقه، قال على جاري العادة من القول عند الفزع ﴿بَيِّنْتُ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وإن لم يكن سؤاله مستحيلاً، وهذا كما أن الواحد منا إذا سمع صوت الرعد العظيم، أو رأى الظلمة العظيمة، أو أمراً هائلاً فزع عند ذلك إلى التوبة والاستغفار، وإن لم يكن منه قبل ذلك معصية. أو سؤال مستحيل.

وجواب آخر: وهو أنه يحتمل أن موسى عليه السلام ذكر عند هول ما رأى فيه النفس، فجدّد التوبة منها وأكدّها، وإن لم يكن منه في هذه الحالة ذنب يتاب منه.

جواب آخر: يحتمل أن يكون قال: تبّت إليك للشدة التي أصابته عند سؤال الرؤية، وإن كانت الرؤية جائزة. كما أن الواحد منا إذا ركب البحر وناله شدة وخوف من هوله وأمواجه، أو سافر فلفي في سفره ما أتعبه وشقّ عليه يقول: أنا تائب من ركوب البحر ومن السفر، وإن كان ركوب البحر والسفر جائزاً غير محرم. ولا مستحيل، وكذلك مألّفنا مثله.

جواب آخر: يحتمل أن يكون قال: ﴿بَيِّنْتُ لَكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] من أن أسأل مثل هذا الأمر العظيم الجليل قبل الاستئذان فيه، حتى يؤذن لي في السؤال، ولهذا قيل عن موسى عليه السلام: إنه تأدّب بعد ذلك، فقال: يا رب أسألك في جميع أموري؟ قال: نعم يا موسى أسألتني في جميع أمورك حتى ملح عجيب أهلك.

جواب آخر: وهو أن موسى عليه السلام كانت إرادته وهمته تعجيل الرؤية له في الدنيا قبل الآخرة، وكان مراد الله تعالى تأخير الرؤية له إلى الآخرة، وأن لا يتقدم على نبينا ﷺ في الرؤية، فكانه قال: تبّت عن مرادي وهمتي إلى مرادك. وهذا صحيح، لأن التوبة هي الرجوع، فكانه رجع عن مراده إلى مراد ربه. فاعلم ذلك.

ويدل على صحة ما قدّمناه من قوله تعالى: ﴿وَيُؤَيِّدُ بَيْنَهُمْ لَأَيْدِيَهُمْ﴾ [آلِ رِبِّكَ كَالْيَدِ] ﴿١٥٥﴾ [الْقَبِيَّاتِ: ٢٢، ٢٣] وقوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ آمَنُوا لَلْثَقَاتُ وَزِيَادَةُ﴾ [يونس: ٢٦] وقوله:

﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُودُونَ﴾ [المطففين: ١٥] والحجب للكفار عن رؤيته عذاب. فدلّ على أن المؤمنين غير محجوبين، ولا يعذبون بعذاب الحجاب. فاعلم ذلك.

ويدل على ذلك أيضاً الأخبار التي قدّمنا ذكرها عند سؤال الصحابة مع قوله عليه السلام في دعائه إنه قال: «اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك من غير ضرر - أو مضر - ولا فتنة مضلة» وهذا أيضاً تصريح من الرسول عليه السلام في جواز الرؤية، وأنها غير مستحيلة، لأنه لا يسأل ﷺ في أمر مستحيل، لا سيما بعد تقدم موسى عليه السلام في سؤال الرؤية، وما كان منه، فلو كانت غير جائزة أو مستحيلة لما سألتها ﷺ، فلما سألتها دل على الجواز، وبطل ما قال أهل العناد. وبالله التوفيق.

ويدل على صحة جواز الرؤية إجماع الصحابة على جوازها في الجملة، وإنما اختلفوا هل عجلها لنبيه ﷺ ليلة المعراج أم لا؟ على قولين، ولو لم يقع الاتفاق منهم على جوازها، لما صُح هذا الاختلاف، فلما وقع هذا الاختلاف فقال بعضهم: عجل ذلك له في الدنيا قبل الآخرة. وقال البعض: لم يرد دليل على الجواز في الجملة وأنه متفق عليه، وإلا كان يقول لمن قال بأنها لم تعجل: فكيف تجوز الرؤية وهي مستحيلة عليه، فلما لم يقل ذلك أحد منهم دلّ على إجماعهم على جوازها. فاعلم ذلك.

ويدل على ذلك من جهة العقل: أنه تعالى موجود، والموجود لا يستحيل رؤيته، وإنما يستحيل رؤية المعدوم. وأيضاً فإنه تعالى يرى جميع المراتب، وقد قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاهُ أُنْثَىٰ بَرَأً مِنْ آفَةٍ يَمْنَنَ فَعَسَىٰ أَتَىٰ عَلَىٰ آفَةٍ يُهْبَئُهَا﴾ [العلق: ١٤] وقال: ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ﴾ [الشعراء: ٢١٨] وكل راء يجوز أن يرى؛ ولا يجوز أن تحمل الرؤية منه تعالى على العلم، لأنه تعالى فصل بين الأمرين، فلا حاجة بنا أن نحمل أحدهما على الآخر، ألا ترى أنه سمي نفسه عالماً، وسمى نفسه مريداً، ولا أن نحمل الإرادة على العلم، كذلك لا نحمل الرؤية على العلم. فاعلمه.

جواب آخر: وهو أن الصحابة سألوا الرسول عليه السلام: هل نرى ربنا؟ فقال: «نعم» ولا يجوز أن يكون سؤالهم: هل نعلم ربنا أو يعلمنا ربنا؛ فبطل قول من يحمل الرؤية على العلم، ولهذا أجاب ﷺ: «سترونه كما يرى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب وكما ترى الشمس ليس دونها سحاب» يعني لا تشكون في رؤيته كما لا يشك [من] رأى القمر والشمس فيها، فشبه الرؤية بالرؤية في نفي الشك عن الرائي، ولم يشبه المرئي بالمرئي. فاعلم ذلك.

فصل

في ذكر الأجوبة عن آيات يحتجون بها، وأخبار، وشبه في نفي الرؤية.

فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] قالوا: فأخرج ذلك مخرج التمدح، كما تمدح بقوله تعالى: ﴿يَدْعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنَّهُ يَكُونُ لَهُمْ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] فكيف يجوز أن يزول عن مدحته، فالجواب عن هذه الآية من وجوه عدة:

أحدها: أن يقال لهم: ما أنكرتم على قائل بقول لكم، لا حجة لكم في ذلك، لأن التمدح إنما وقع في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لأن كون الشيء لا يدرك بالأبصار لا يدل على مدحه، ألا ترى المعدوم لا تدركه الأبصار، ولا يوجب كون ذلك مدحة له، وكذلك عندكم المعطوف والروائح وأكثر الأعراض لا تدرك بالأبصار، وليست بمدوحة، لأنها لا تدرکہا الأبصار.

فإن قيل: ما أنكرتم أن يكون متمدحاً بأنه يدرك الأبصار وأنها لا تدرکه؟ قيل لهم: لأن للوصفين الذين يتمدح بهما لا بد أن يكون في كل واحد منهما مدح بمجرد نحو قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩، ٢٢٠، ٢٢٨، ٢٤٠، ٢٦٠، الأنفال: ١٠، ٤٩، التوبة: ٧١] و﴿عَلِيمٌ قَبِيرٌ﴾ [النحل: ٧٠] فكل واحد من الوصفين مدح في نفسه، تجدد أو انضم إلى غيره، ولما لم يكن كون المعدوم غير مدرك بالبصر مدحاً له عندنا وعندكم بطل ما قلتم.

جواب آخر: وهو أن نقول الآية حجة عليكم وذلك قوله: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فحسب، وإنما أراد أنه يدرك جميع المرئيات، فثبت تعالى أنه يرى الأشياء لأنه موجود، قادر على الرؤية، وسائر الأشياء الموجودة التي يجوز أن تُرى، لكن تمدح تعالى بأن كل راء يجوز أن يُرى، لكن هو تعالى مع جواز رؤيته منعنا من الإدراك له، بأن يحدث في أبصارنا مانعاً يمنعنا من رؤيته؛ فالمدح وقع بكونه قادراً على ذلك دون غيره من الخلق، فصار هذا بمنزلة تمدحه تعالى بكونه محياً مميتاً، أي لا يقدر على ذلك غيره، وإن جاز أن يميت الحي ويحيي الميت، فكذلك لا يمدح تعالى بأن يحدث مانعاً في البصر من الإدراك، وإن جاز أن يزول ذلك المانع حتى نراه تعالى بلا كيف، ولا شبه، ولا تحديد. فاعلم ذلك.

جواب آخر: وهو أن المعتزلة لا يصح لهم الاحتجاج بهذه الآية؛ لأن عند البصريين منهم أنه لم يعن بالإدراك الرؤية، لأن البصر عندهم عرض؛ فلا يدرك عند

البغداديين منهم: أنه تعالى لا يرى شيئاً، إنما المراد بالإدراك العلم، فهو يعلم الأبصار عندهم، والأبصار لا تعلمه، فبطل احتجاج الجميع منهم بهذه الآية، لأن عندهم لا يراد بالإدراك الرؤية، فلا يصح لهم الاحتجاج بها في نفي الرؤية.

جواب آخر: وهو أن الآية لا حجة فيها، لأنه قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولم يقل لا تراه الأبصار، والإدراك بمعنى يزيد على الرؤية، لأن الإدراك: الإحاطة بالشيء من جميع الجهات، والله تعالى يوصف بالجهات، ولا أنه في جهة، فجاز أن يرى وإن لم يدرك، وهذا كما قال تعالى في قصة اللعين فرعون: ﴿حَقَّ إِذَا دَرَكَهُ الْقَرْقُ﴾ [يونس: ٩٠] يعني أحاط به من جميع جوانبه، فالفرق لا يوصف بأنه يرى، وإنما يوصف بأنه أحاط بالشيء. كذلك المؤمن يوصف بأنه يرى ربه ولا يدركه بالإحاطة، وهذا كما نقول: إنا نعلم ربنا، ولا نقول إنا نحيط بربنا، فكما كانت الإحاطة معنى يزيد على العلم كذلك الإدراك معنى يزيد على الرؤية، وهذا صحيح. لانا نجتمع بين قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمّد: ١٩] وبين قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [طه: ١١٠] ونجمع بين قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّدُ بِنُورِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ﴿إِلَهِكُمْ نَارُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢، ٢٣] وبين قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فنقول: معلوم ولا يحاط به، ومرئي ولا يدرك. فصح ما قلناه، وبطل قول الغير.

جواب آخر: أن معنى الآية لا تدركه الأبصار في الدنيا، وإن جاز أن تدركه في الآخرة، ليجمع بين قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وبين قوله تعالى: ﴿إِلَهِكُمْ نَارُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢، ٢٣].

جواب آخر: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يعني أبصار الكفار دون المؤمنين، ليجمع بين قوله تعالى: ﴿يُؤَيِّدُ بِنُورِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] ﴿إِلَهِكُمْ نَارُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢، ٢٣] وبين قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُورُونَ﴾ [المطففين: ١٥] وهذا صحيح؛ لأن الحجاب لما كان للكفار دون المؤمنين، كذلك الرؤية للمؤمنين دون الكفار.

جواب آخر: وهو أن أبصار الخلق لا تدركه في الدنيا والآخرة؛ لأن هذه الأبصار جعلت للفناء، وإنما يحدث لهم بصرأ غير هذا البصر، ويكون باقياً غير فان فيرى الباقي بالباقي، وقد قيل: إنه تعالى يحدث لأوليائه حاسة سادسة غير هذه الحواس الخمس يرونها بها. وقال هذا القائل: الله أخبر في كتابه العزيز: أنه من أهل

الجنة، وخبره حق لا يدفع بالشبهة، ولا يمكن الجمع إلا بما قلناه من وجود حاسة يرى بها الله تعالى، دون هذه الحواس. والله أعلم بالصواب.

جواب آخر: وهو أن يحمل ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] على أنها لا تدركه في جهة، ولا تدركه جسماً ولا صورة ولا متحيزاً ولا حالاً في شيء ﴿وَقَوْهُ يُدْرِكُ الْبَصَرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] على جميع هذه الصفات، وتكون الحكمة فيه الرد على النصارى وأهل التشبيه ومن يقول بالجهة والحيز والصورة، وغير ذلك مما لا يليق به سبحانه وتعالى.

فإن احتجوا بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُلْقِيَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنْ أَسْمَاءُ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهَنَّمُ﴾ [النساء: ١٥٣] فأكبر الله هذا السؤال فأنكره.

قيل لهم: لا حجة لكم في ذلك، لأن الله تعالى ما أكبر ذلك لكونه مستحيلاً، وإنما أنكره لأنهم سألوه ذلك على وجه التعنت، ألا ترى أنه أنكر عليهم سؤالهم تنزيل الكتاب من السماء، وليس ذلك بمستحيل، وإنما أنكروا استكباراً وتعنتاً منهم لمحمد ﷺ وتشكيكاً للناس في نبوته؛ لأن عندهم التوراة، والإنجيل، والفرقان، وكل ذلك منزل من عند الله، وإنما أرادوا بذلك التلبيس على العوام، حتى لا يصدقوا بنبوته ﷺ، وتركوا ما أوجب الله عليهم من الإيمان به في التوراة والإنجيل، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُمِذِّبُونَ مَكَتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧] فأكابره تعالى سؤالهم ذلك لأجل هذه المعاني لا يكون ذلك مستحيلاً. وهذا كما أنكر تعالى سؤال قريش لما قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ تَفْجُرُ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَأْتِيهَا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعِصْبٌ﴾ [الاسراء: ٩٠، ٩١] ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾ [الاسراء: ٩٣] وكل ذلك جائز غير مستحيل، لكن أنكره عليهم وأكبره لما كان [ذلك] على وجه التعنت والتكذيب، لما قد وضع من آياته وحججه، وكذلك أنكر سؤالهم الرؤية لموسى عليه السلام على وجه التعنت، لا لكونها مستحيلة.

فإن احتجوا بالخبر المروي عن عائشة رضي الله عنها لما قال لها ابن الزبير - وهو ابن أختها - يا أماء: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: يا ابن أختي لقد قففتُ شعر بدني، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وِتِيًّا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ جُورِيٍّ رَمُولًا فَتُؤْتِي بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١] قالوا: فموضع الدليل من الخبر أنها أكبرت ذلك ونفت الرؤية عن الله تعالى؛ فدل أن ذلك مستحيل في حقه سبحانه وتعالى. الجواب من أوجه:

أحدهما: أن ابن عباس رضي الله عنه وغيره من الصحابة قد صرحوا بأن محمداً رأى ربه ليلة أسري به بعيني رأسه، ولو كان ذلك مستحيلاً لم يقع الخلاف فيه بين الصحابة، كما لم يقع بينهم الخلاف في ما هو مستحيل على الله تعالى من الولد والزوجة والشريك ونحو ذلك. فلما وقع بينهم الخلاف في ذلك وانقرض عصرهم على ذلك، دلّ على أن الرؤية جائزة غير مستحيلة. فبطل ما ذكر.

وجواب آخر: وهو أن عائشة رضي الله عنها إنما خالفت فيما رأى به محمد ربه، فعندها رآه بالقلب دون العين، وعند غيرها من الصحابة رآه بالقلب والعين معاً، فقد وقع الإجماع منهم على جواز الرؤية عليه تعالى، وإنما اختلفوا فيما به رآه، لا أصل لجواز الرؤية عليه، لأن رؤية النبي ﷺ رؤية حقيقية لا رؤية مجاز، بخلاف الواحد منا، لأن رؤيته بالقلب قد تكون حقيقة وقد تكون تخيلاً ومجازاً، ولهذا قال ﷺ: «تنام عيناى، ولا ينام قلبي» وقال عليه السلام: «إني أراكم من وراء ظهري» ورؤية الأنبياء عليهم السلام حقيقة بالقلب والعين.

دليله: قصة إبراهيم عليه السلام: «إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَارِ آيَةً أُذْهِبَ» قَالَ يَحْيَى أَقْبَلْ مَا تَوْحَّشْتُ [الصفافات: ١٠٢] فصَحَّ أن الإجماع قد وقع من الصحابة رضي الله عنهم في جواز الرؤية على الله تعالى، وإن وقع الخلاف بما رآه الرسول الله تعالى ليلة الإسراء، فصار ذلك حجة على المخالف لا له.

جواب آخر: وهو أن عائشة رضي الله عنها إنما أنكرت رؤية الباري بأبصار العيون في دار الدنيا، لا على الإطلاق، ولهذا روي عن أبيها وعنهما رضي الله عنهما وعن جميع الصحابة أنهم فسروا قوله تعالى: «الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَّي رَزَقْنَاهُمْ» [يونس: ٢٦] قالوا: الزيادة النظر إلى الله تعالى في الجنة، وقد روي هذا مرفوعاً عن الرسول ﷺ، فصَحَّ مذهب أهل السنة والجماعة بحمد الله تعالى، وبطل شبه المخالف واندحض مكره. والله المنة والحجة البالغة^(١).

(١) رؤية أهل الجنة لله سبحانه مجردة عند أهل الحق من المقابلة والمسافة ونحوهما من لوازم الجسمية، على خلاف الرؤية في الشاهد، بأدلة تنزه الله سبحانه من أن يكون جسماً أو جسمانياً، وهذا موضع اتفاق بين الفريقين سوى الحشوية، فيجب أن يكونا متفقين أيضاً على حصول معرفة ضرورية بالله سبحانه لهم في الجنة فوق معرفتهم الاستدلالية الغيبية به تعالى في دار الدنيا، كما هو الفرق بين الإيمان بالغيب والإيمان بالشهود. وما عدا ذلك شغب يابأه المحصلون. نسأل الله الصون من معاندة الحق ونسأله التوفيق وجمع الكلمة حول الصدق (ز).

فإن احتجوا فقالوا: لو جاز عليه سبحانه وتعالى الرؤية بالأبصار لوجب أن يكون جسماً، أو جوهرأ، أو عرضأ، أو محدودأ، أو حالأ في مكان، أو مقابلاً أو خلفأ، أو عن يمين، أو عن شمال، أو يكون من جنس المراتب؛ لأننا لم نعقل مرئياً بالبصر إلا كذلك، فلما استحال عليه جميع هذه الوجوه بطل أن يكون مرئياً، أو يجوز عليه الرؤية، وهذا في تصورهم الفاسد من أعظم الحجج عندهم في نفي الرؤية عنه سبحانه وتعالى، وهي عند أهل السنة والجماعة [من أسقط الحجج] فليس هو اليوم مرئياً لخلقه ومدركاً لهم، ولا تجوز الإشارة في وصفه تعالى.

فالجواب أن نقول لهم: هذه الحجة الباطلة تؤدي إلى إبطال الربوبية أصلاً ورأساً، أو تؤدي إلى إيجاب كون ربنا تعالى يشبه المخلوقات، لأن من أنكر الصانع القديم يقول لنا: لو كان لنا صانعاً لوجب أن يكون جسماً، أو جوهرأ، أو عرضأ، أو ذا علة وطبع وآلة، وغير ذلك؛ لأننا لم نعقل صانعاً إلا على هذه الأوصاف، وأنتم تنفون عنه جميع هذه الأوصاف، فبطل أن يكون ثم صانع، بل تصنع نفسها أو يصنعها من هو على هذه الأوصاف، وكذلك نقول: في العلم والحياة، لأن العالم، والحي، لا يعقل إلا جسماً، أو جوهرأ، أو عرضأ، أو ذا علة أو فكر، أو روية وغير ذلك. وقد وقع الإجماع منا ومنكم أنه عالم، وأنه حي، وأنه معلوم بالقلب، وأنه موجود؛ ثم كونه عالماً ومعلومأ، وموجودأ يصح وصفه بجميع ذلك، وإن لم يكن جسماً، ولا جوهرأ، ولا عرضأ، ولا ذا علة، ولا محدودأ ولا حالأ في مكان، بخلاف العالم منا، والمعلوم منا، والموجود منا، فذلك لا يستحيل أن يكون مرئياً وليس ذا جسم ولا جوهر ولا عرض، فبطل زعمكم وصح الحق وظهر أمر الله وأنتم كارهون.

فإن احتجوا فقالوا: لو كان تعالى مرئياً، أو تجوز عليه الرؤية لرأيناه الساعة لأن الموانع من الرؤية يستحيل وصفه بها؛ لأنه لا يوصف بالدقة والرقّة، والحجاب والبعد، وكل مانع من الرؤية، فلو جاز أن يكون مرئياً لرأيناه الساعة لانعدام هذه الموانع في حقه.

فالجواب: أن جميع ما ذكرتم لا يمنع من الرؤية، لأن الملائكة فيهم من الدقة، واللطفة، ما ليس في غيرهم، وبعضهم يرى بعضأ، والميت يراهم عند النزع، والرسول كان يرى جبريل عليه السلام، فبطل أن تكون الدقة، والرقّة، واللطفة،

مانعة من الرؤية. وكذلك البُعد لا يمنع الرؤية، لأن السماء أبعد الأشياء منا والكواكب فيها، لأن بيننا وبينها خمسمائة عام، ونحن نراها، ولم يمنعنا بعدها من رؤيتها، وكذلك الحجاب لا يمنع من الرؤية؛ لأن الله تعالى يرى ما تحت التحت، ودونه ألف ألف حجاب [عند الخلق] وكذلك الهدهد يرى الماء من تحت الأرض ودونه حجاب وحجاب، فبطل أن يكون جميع ما ذكرتم هو المانع من الرؤية، حتى يجب أن نراه الساعة.

فإن قيل: فما المانع من الرؤية الساعة له تعالى؟ قلنا: إن المانع هو ما خلقه في أبصارنا من قلة الإدراك لبعض المراتب دون بعض، فإذا خلق فينا إدراكاً رأينا مرئياً لم نكن نراه من قبل؛ ألا ترى أن الواحد منا لا يرى اليوم ملك الموت إذا نزل بأخيه وأبيه، ويراه إذا نزل به، وليس ذلك إلا لأنه لم يخلق الله في بصره إدراكاً له عند موت غيره، وخلق في بصره إدراكاً له عند موته. وكذلك الفرس، والهر وكثير من الحيوان يرون الصورة والشخص في ظلام الليل وسواده، ونحن لا نرى ذلك؛ وما ذلك إلا لأن الله تعالى خلق في بصرها إدراكاً حتى رأت، ولم يخلق في أبصارنا إدراكاً حتى نرى، كما ترى؛ فكذلك لم يخلق في أبصارنا إدراكاً له في الدنيا حتى نراه، ويخلق لنا إن شاء الله في جنته إدراكاً حتى نراه، كما وعدنا ووعدته الحق الصدق الذي لا يخلف.

فإن قالوا: وإذا كان الأمر كذلك، فجوزوا أن يخلق الله لكم إدراكاً ترون به ذرة، ويخلق فيكم عدم إدراك فبل إلى جنبها. قلنا: هذا جائز في قدرته سبحانه وتعالى، ولهذا كان أصحاب رسول الله ﷺ خلفه في الصلاة لما عرضت عليه الجنة، والنار، ونظر إلى كل واحدة منهما في عرض الحائط، وهما من أعظم المخلوقات، وأصحابه كانوا يدركون الذرة على ثوبه ﷺ، ولون ثوبه مع صغر ذلك، ولم يدركوا ما أدرك. ولم يروا ما رأى، ولا يقدح في هذا إنكار من أنكر من المعتزلة، أن الجنة والنار لم تخلقا بعد، لأن الكل منهم سلم إلى الرسول عليه السلام أنه قد رأى في هذه الحالة شيئاً من الجنة والنار، أو ما هو على صورهما، يخلق منهما إذا خلقتا، واختص هو ﷺ برؤية ما لم يره أصحابه، وإن كانوا يرون الذرة لو دبت على قميصه ﷺ، وإن لم يروا ما هو أكبر منها وأعظم. وأبين من هذا: أن بعض الخلق يدرك صوتاً خفياً جداً، ولا يدرك صوتاً عالياً جداً، وإن وجد الصوتان في وقت واحد، ومسافة واحدة، وقد رأينا ذلك عياناً؛ فإن بعض الطرش إذا تكلم عنده رجل

فأخفى صوته غاية الإخفاء، وتكلم آخر عنده بصوت من أعلى الأصوات أدرك الصوت الخفي، ولم يدرك الصوت العالي؛ وليس ذلك إلا لما ذكرناه، وهو أن الله تعالى خلق في سمعه إدراك الصوت الخفي، ولم يخلق في سمعه إدراك الصوت العالي، فكَذلك يجوز أن يخلق في بصرنا إدراك الذرة الصغيرة، ويخلق فيه مانعاً من إدراك القيل الكبير ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

فإن قيل: فإذا كان كذلك فيجب أن يجوز أن يكون بحضرتنا ذرة ننظر إليها وندرکہا، ويجوز أن يكون إلى جنبها فيلة وأجمال وأنهار جارية، لأن ذلك جائز في المقدور، أو نشك في ذلك، ولعله يكون بحضرتنا ونحن لا نراه.

الجواب: أن هذا تخبط وجهل وقلة فهم؛ لأنه لا يلزمنا أن يجوز أن يكون بحضرتنا كل ما هو جائز في مقدور الله تعالى، ولا نشك فيه، لأن ذلك لو لزم للزمنا أن نجوز أن يكون بحضرتنا وعندنا في الدنيا جنة ونار، ونشك في ذلك؛ لأن الله تعالى قادر على ذلك، ولما لم يلزم ذلك لم يلزم ما ذكرتم، وكذلك أيضاً من الجائز في قدرته تعالى أن يخلق اليوم رجلاً لا من ذكر ولا من أنثى، ثم لا يجب علينا أن نجوز أنه الآن عندنا موجود أو نشك فيه، فكذلك ما قلتم، وكذلك أيضاً يجوز في مقدوره تعالى أن يميت أهل بلدة نحن فيها كلهم، ثم لا يلزم أن يجوز ذلك الآن أو نشك فيه، فكذلك ما قلتم؛ فليس كل جائز يجب أن يكون بحضرتنا، أو نشك فيه؛ فبطل ما قلتم، وصح الحق.

فإن احتجوا فقالوا: لو جاز أن يكون مرثياً لجاز أن يقال: يرى كله أو بعضه.

فالجواب: أن هذا محال من القول؛ لأن إطلاق الكل والبعض إنما يجوز على من كان ذا كل أو بعض، والله تعالى منزّه عن الوصف بالكل والبعض، وهذا بمنزلة قائل يقول لنا: لو كان معلوماً لجاز أن نقول: نعلم كله أو بعضه، فنقول له: لا نقول نعلم كلاً ولا بعضاً، بل نقول نعلم واحداً واحداً فرداً صمداً: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فكذلك نقول: نرى واحداً واحداً فرداً صمداً ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وهو أَسْمِعُ الْبَصِيرُ [الشورى: ١١].

فإن قيل: لو كان أهل الجنة يرون ربهم تعالى ثم لا يروونه لكانت أحوالهم قد تناقصت وعادت من منزلة أعظم إلى منزلة أدون، ولا يجوز أن تتناقص أحوال أهل الجنة.

فالجواب: أن الأمر ليس على ما يقع لكم، لأن تناقص الأحوال أن يريد المرء حالة عالية فيبقى في حالة ناقصة، أو يريد ملاذاً فلا يصل إليها، عالية كانت أو دون ذلك، فأهل الجنة - بحمد الله تعالى - قد تكاملت حالتهم، إذ كانوا بحيث إذا شأوا رأوا ربهم، وإذا شأوا اشتغلوا بملاذهم، ولا يكون ذلك نقصاً في أحوالهم ولا يلزم على هذا التقرير أن يقال: فهذا نقص في حق أهل الجنة إذا شأوا الخلوة بالتلذذ عن رؤية ربهم تعالى. قيل هذا يلزمكم أنتم دوننا، لأننا نحن نقول: هم (لا يشأون إلا ما شاء الله لهم) فهم به وله في كل أحوالهم، فإذا شاء لهم الرؤية شأوها وتلذذوا بها، وإذا شاء لهم الخلوة شأوها وتلذذوا بها، ولا نقص عليهم في ذلك، ولا يلزم ما قلتم.

جواب آخر: وهو أن أهل الجنة يجتمعون بالنبي ﷺ، وينظرون إليه، والاجتماع به والنظر إليه أعلى من الاجتماع بالهور والقصور، والنظر إلى الحور والقصور، ثم يشتغلون بالهور والقصور بعد نظره ﷺ، وإن عادوا إلى قصورهم ونعيمهم، وإن كان نظره أعظم وأعلى من ذلك، فجاز مثل ذلك أيضاً في جواز رؤية الباري، وإن كانت أعلى الأشياء وأجلها، ثبت ما قلناه، وبطل التمويه بحمد الله.

فإن قيل: إذا كان مرئياً فخيرونا ما هو؟ قيل لهم إن أردتم بقولكم: ما هو: أي ما صورته، وجنسه، وطوله، وعرضه إلى غير ذلك مما لا يجوز عليه، فليس بذئ صورة ولا جنس ولا طول ولا عرض، وقد قدمنا الأدلة على أنه لا يشبه خلقه ولا يشبهونه. وإن أردتم بقولكم ما هو؟ ما اسمه؟ فاسمه: الله، الرحمن، الرحيم، الحي، القيوم، وإن أردتم بقولكم ما هو صنع؟ فصنعه: العدل، الإحسان، والإنعام، والسموات والأرض وجميع ما بينهما، وإن أردتم بقولكم ما هو؟ ما الدلالة على وجوده؟ فالدلالة على وجوده جميع ما نراه ونشاهده من محكم فعله وعجيب تدبيره، وإن أردتم بقولكم ما هو؟ أي أشيروا لنا إليه حتى نراه، ولم أنها لا تصح إلا في المسجد؟.....؟

جواب آخر: وهو أن هذه الأخبار تحمل عليه على وجه التخليط والمبالغة في الزجر، حتى يقف الناس عن هذه الأمور ولا يقدموا عليها، وهذا كقول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: من أراد أن يقتحم جرائم جهنم فليقتض بين الجد والإخوة. ولم يرد عليه السلام الإعراض عن الحكم أصلاً بين الجد والإخوة، فإنه قد حكم عدة نوب بقضايا مختلفة بين الجد والإخوة.

فإن قيل: فإذا كان مرثياً فكيف هو؟ قيل لهم: إن أردتم بقولكم كيف هو؟ على أي تركيب، أو على أي صورة هو، أو على أي جنس هو؟ فلا تركيب له، ولا صورة ولا جنس فنخبركم عن ذلك، وإن أردتم بقولكم كيف هو وعلى أي صفة هو؟ فهو قديم، حي، علام قادر، متكلم، سميع بصير، مريد، وإن أردتم بقولكم كيف هو؟ كيف صنعه إلى خلقه؟ فصنعه إليهم الإحسان، والعدل، والتفضل، والامتنان، فإن قيل إذا كان مرثياً فأين هو؟ قيل لهم: إن أردتم أين هو في وصف المنزلة والرفعة والجلال فهو كما وصف نفسه بقوله تعالى: ﴿وَمَعَهُ الْكَافِرُ تَوَفُّقًا﴾ [الأنعام: ١٨] ويقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى السَّمَوَاتِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ويقول تعالى: ﴿وَمَرْءٌ أَلَدَى فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤] ويقول تعالى: ﴿إِنَّا رَبُّكَ لِأَلِيسَاوُءٌ﴾ [الفجر: ١٤] قيل لهم: الأين سؤال عن مكان وليس هو مما يحويه مكان، لما قدمنا من الحجج والبراهين بحمد الله الملك المئان. وحسبي الله ونعم الوكيل.

تم الكتاب بعون الله

دفع شبهة التشبيه

للإمام عبد الرحمن بن علي الجوزي

المتوفى ٥٩٧ هـ

تحقيقه

الإمام العلامة الشيخ محمد زاهد بن حسنة بن علي الكوثري

المتوفى ١٣٧١ هـ

إِسْمُ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الشيخ الإمام الحافظ العلامة أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي الصديقي البكري:

اعلم وفقك الله تعالى أنني لما تتبعت مذهب الإمام أحمد رحمه الله تعالى رأيت الرجل كبير القدر في العلوم، قد بالغ في النظر في علوم الفقه ومذاهب القدماء حتى لا تأتي مسألة إلا وله فيها نص أو تنبيه، لكنه على طريق السلف فلم يصنف إلا المنقول فرأيت مذهبه خالياً من التصانيف التي كثر جنسها عند الخصوم، فصنفت تفاسير مطولة: منها «المعني» مجلدات و«زاد المسير» وتذكرة الأريب وغير ذلك.

وفي الحديث كتباً: منها «جامع المسانيد» و«الحدائق» و«نقي النفل» وكتباً كثيرة في الجرح والتعديل.

وما رأيت لهم تعليقة في الخلاف، إلا أن القاضي (أبا يعلى) قال: كنت أقول ما لأهل المذاهب يذكرون الخلاف مع خصومهم ولا يذكرون أحمد^(١) ثم عذرتهم إذ ليس لنا تعليقة

(١) كان الإمام أحمد رضي الله عنه قد لزم الإمام أبا يوسف في بده أمره، كما حكى ذلك عنه يحيى بن معين حيث يقول في كتابه - معرفة التاريخ والملل (رواية أبي العباس الأصم عن أبي الفضل العباس بن محمد الدوري عنه) -: سمعت أحمد بن حنبل يقول: اختلفت إلى أبي يوسف ثم اختلفت إلى الناس بعده اهـ. وكان يشتغل بكتب محمد بن الحسن ويستفيد منها أجوبة دقيقة، على ما رواه الخطيب بإسناده إلى الحربي عنه، وصحب كثيراً من فقهاء العراق، وجالس الشافعي في قدمته الثانية ببغداد بعد وفاة محمد، فصار له من الفقه حظ وافر، ومع هذا كله كان الغالب عليه وعلى أصحابه رواية الحديث، ولم يكن يجري على طريقة الفقهاء في التفريع - والتأصيل وتبيين مناهج الأحكام والتعليل، حتى قُلت انفراداته في الفروع عن تقدمه من الفقهاء، فإن خالف الشافعي مثلاً في شيء من قوله الجديد ثراه يوافق فيه أبا حنيفة أو أحد أصحابه أو مالكا رضي الله عنهم، فكان يستغني أصحاب كتب الخلاف عن ذكر أقوال أحمد بذكر خلاف من تقدمه من الفقهاء، ولم يذع تدوين أقواله مع أقوال بقية الفقهاء في كتب الخلاف إلا في عهد ابن هبيرة الوزير فإنه لما ألف إيفصاحه وخص من بين مجلداته مجلداً ضخماً باختلاف الأئمة الأربعة، واعتنى به عناية تامة وسعى في نشره بصرف مبالغ طائلة، أخذ من يكتب في الخلاف يذكر أقوال أحمد من أقوال غيره من الأئمة، وكان ابن جرير أدركه سنأ وأدرك أصحابه لقاء ومع ذلك لم يذكر أقواله فيما كتبه في اختلاف الفقهاء مع ذكره من هو على شاكلة أبي بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم، فسأله الحنابلة عن ذلك فقال ما معناه: لم يكن أحمد من الفقهاء وإنما كان من أهل الحديث وما كنت لقيته حتى آخذ منه ولا لقيت أصحاباً له يحق أن يولخ منهم فنارت نائرة الحنابلة عليه وجرى ما ينقله ياقوت في معجم الأدياب وابن الأثير في كامله. (ز).

في الفقه، قال فصنت لهم تعليقة.

قلت وتعليقته لم يحقق فيها بيان الصحة والظمن في المردود وذكر فيها أقيصة طردية، ورأيت من يلقي الدرس من أصحابنا يفرع إلى تعليقة الاصطلاح أو تعليقة أسعد أو تعليقة العاملي أو تعليقة الشريف، ويستعير منها استعارات، فصنت لهم تعاليق: منها كتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف» ومنها «جنة النظر وجنة الفطر» ومنها «عمدة الدلائل في مشهور المسائل».

ثم رأيت جمع أحاديث التعليق التي يحتج بها أهل المذاهب وبينت تصحيح الصحيح وظمن المطعون فيه، وعملت كتاباً في المذهب أدخلتها فيه وسميته «البازي الأشهب المتقنض على مخالفتي المذهب».

وصنت في الفروع: كتاب «المقرب في المذهب» وكتاب «مسبوك الذهب» وكتاب «البلفة» وفي أصول الدين كتاب «منهاج الوصول إلى علم الأصول»، وقد بلغت مصنفاتي مائتي مصنف وخمسين مصنفًا.

ورأيت من أصحابنا من تكلم في الأصول بما لا يصلح، وانتدب للتصنيف ثلاثة: أبو عبد الله بن حامد^(١) وصاحبه القاضي «أبو يعلى»^(٢)، وابن الزاغوني^(٣) فصنفوا كتاباً شأنوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات على مقتضى الحس، فسمعو أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم عليه الصلاة والسلام على صورته فأثبتوا له صورة ووجهاً زائداً على الذات، وهينين، وفماً، ولهوات، وأضراساً، وأضواء، لوجهه هي السبحات، ويدين، وأصابع، وكفأ، وخنصرأ، وإبهامأ، وصدراً، وفخذأ، وساقين، ورجلين، وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس.

وقالوا يجوز أن يمس ويُمس ويدني العبد من ذاته، وقال بعضهم: ويشنفس، ثم إنهم يرضون العوام بقولهم (لا كما يُعقل).

وقد أخذوا بالظاهر في الأسماء والصفات فسموها بالصفات تسمية مبتدعة لا دليل لهم

(١) هو شيخ الحنابلة أبو عبد الله الحسن بن حامد بن علي البغدادي الوراق المتوفى سنة ثلاث وأربعمئة، كان من أكبر مصنفهم، له شرح أصول الدين، فيه طامات سيورد المصنف بعضها، ولديه تخرج القاضي أبو يعلى الحنبلي. (ز).

(٢) هو القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن الفراء الحنبلي المتوفى سنة ثمان وخمسين وأربعمئة، وفيه يقول أبو محمد التميمي ما معناه: لقد شأن أبو يعلى الحنابلة شيئاً لا يفله ماء البحار، على ما نقله ابن الأثير وأبو الفداء، وهزا في طبقاته إلى الإمام أحمد ما يبعد أن يصح عنه كل البعد، ونقل ابن بدران الدشقي في جزء إثبات الحد عن كتب الأصول لأبي يعلى هذا ما هو أظلم مما سيتقله المصنف عنه في التشبيه، على تضارب في أقواله بين تنزيه وتشبيه، ولا يخفى على الناظر أن غير الحافظ أبي يعلى أحمد بن علي الموصلي صاحب المسند وراوي كتب أبي يوسف عن بشر بن الوليد. (ز).

(٣) هو أبو الحسن علي بن عبيد الله بن نصر الزاغوني الحنبلي المتوفى سنة سبع وعشرين وخمسمئة، وهو من مشايخ المصنف، وله في كتاب الإيضاح من غرائب التشبيه ما يحار فيه النبيه. (ز).

في ذلك من النقل ولا من العقل، ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارفة عن الظواهر إلى المعاني الواجبة لله تعالى: ولا إلى إلغاء ما توجبه الظواهر من سمات الحدث، ولم يقتنعوا بأن يقولوا: صفة فعل، حتى قالوا: صفة ذات.

ثم لما أثبتوا أنها صفات قالوا: لا نحملها على توجيه اللغة مثل يد على نعمة وقدرة، ولا مجيء وإتيان على معنى برّ ولطف، ولا ساق على شدة، بل قالوا: نحملها على ظواهرها المتعارفة، والظاهر هو الممهود من نموت الآدميين والشيء إنما يحمل على حقيقته إذا أمكن، فإن صرف صارف حمل على المجاز، ثم يتخرجون من التشبيه ويأنفون من إضافته إليهم ويقولون: نحن أهل السنة، وكلامهم صريح في التشبيه.

وقد تبعهم خلق من العوام، وقد نصحت التابع والمتبوع فقلت لهم: يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل واتباع، وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى يقول وهو تحت السياط: كيف أقول ما لم يقل^(١). فإياكم أن تبدعوا في مذهبه ما ليس منه؛ ثم قلت في الأحاديث (تحمل على ظواهرها) فظاهر القدم الجارحة، فإنه لما قيل في عيسى عليه الصلاة والسلام (روح الله) اعتقدت التصاري لعنهم الله تعالى أن الله سبحانه وتعالى صفة هي روح ولجت في مريم.

ومن قال استوى بذاته المقدسة فقد أجراه سبحانه وتعالى مجرى الحسيات، وينبغي أن لا يهمل ما يثبت به الأصل وهو العقل فإننا به عرفنا الله تعالى وحكمنا له بالقدم، فلو أنكم قلتم نقرأ الأحاديث ونسكت لما أنكر أحد عليهم، إنما حملكم إياها على الظاهر قبيح^(٢).

(١) ولما سئل الإمام أحمد عن أحاديث النزول والرؤية ووضع القدم ونحوها قال: فنؤمن بها ونصدق بها ولا كيف ولا معنى، وقال أيضاً يوم سأله عن الاستواء: استوى على العرش كيف شاء وكما شاء بلا حد ولا صفة يلفظها واصف، على ما ذكره الخلال في السنة بسنده إلى حنبل عن عمه الإمام أحمد، وهذا تفويض وتنزيه كما هو مذهب السلف، وربما أؤل في بعض المواضع كما حكى حنبل أيضاً عن الإمام أحمد أنه سمعه يقول: احتجوا على يوم المناظرة فقالوا: تحيي يوم القيامة سورة البقرة وتحيي سورة تبارك، قال فقلت لهم: إنما هو الثواب قال الله جلّ ذكره: ﴿وَيَبَّاهُ رَبُّكَ وَاللَّيْلُ مَكَّنًا﴾ (٣) وإنما تأتي قدرته. وقال ابن حزم الظاهري في فصله: وقد روينا عن أحمد بن حنبل رحمه الله أنه قال: «وجاه ربك» إنما معناه: جله أمر ربك اهـ. وهذا تأويل وتنزيه كما هو مذهب الخلف، وأما ما ينقل عن الإمام أحمد مما يخالف ما تقدم فهو نخرص صديق جاهل وسوء فهم لمذهب ههنا الإمام. (ز).

(٢) يقول الأستاذ الشيخ محمد عبده رحمه الله فيما كتبه على العضدية عند الكلام على حديث التراق الأمة: فإن قلت: إن كلام الله وكلام النبي ﷺ مؤلف من الألفاظ العربية ومدلولاتها معلومة لدى أهل اللغة فيجب الأخذ بحاق مدلول اللفظ كان ما كان. قلت: حينئذ لم يكن ناجياً إلا طائفة المجسمة الظاهريون القائلون بوجود الأخذ بجميع النصوص وترك طريق الاستدلال رأساً، مع أنه لا يخفى ما في آراء ههنا الطائفة من الاختلال، مع سلوكهم طريقاً ليس يفيد اليقين بوجه، فإن للشخاطيات مناسبات ترد بمطابقتها فلا سبيل إلا إلى الاستدلال وتأويل ما يبيد بظاهره نقصاً إلى ما يفيد الكمال، وإذا صح التأويل للبرهان في شيء صح في بقية الأشياء حيث لا فرق بين برهان وبرهان ولا لفظ ولفظ. (ز).

فلا تدخلوا في مذهب هذا الرجل الصالح السلفي ما ليس منه، فلقد كتبتم هذا المذهب شيئاً قبيحاً، حتى صار لا يقال عن حنبلي إلا مجسم، ثم زينتكم مذهبكم أيضاً بالعصية ليزيد بن معاوية وقد علمتم أن صاحب المذهب أجاز لعنته. وقد كان أبو محمد التميمي يقول في بعض أنتمكم^(١). لقد شأن المذهب شيئاً قبيحاً لا يغسل إلى يوم القيامة.

فصل: وقد وقع غلط المصنفين الذين ذكرتهم في سبعة أوجه:

أولها: أنهم سموا الأخبار أخبار صفات وإنما هي إضافات وليس كل مضاف صفة، فإنه قال تعالى: ﴿وَنَقَّصْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ وليس لله صفة تسمى روحاً، فقد ابتدع من سمي المضاف صفة.

والثاني: أنهم قالوا: هذه الأحاديث من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، ثم قالوا: نحملها على ظواهرها، فواعجباً ما لا يعلمه إلا الله تعالى أي ظاهر له؛ وهل ظاهر الاستواء إلا القمود وظاهر النزول إلا الانتقال!

والثالث: أنهم أثبتوا لله سبحانه وتعالى صفات، وصفات الحق جلّ جلاله لا تثبت إلا بما تثبت به الذات من الأدلة القطعية.

والرابع: أنهم لم يفرقوا في الإثبات بين خبر مشهور كقوله ﷺ: «ينزل تعالى إلى سماء الدنيا» وبين حديث لا يصح كقوله: «رأيت ربي في أحسن صورة» بل أثبتوا بهذا صفة وبهذا صفة.

الخامس: أنهم لم يفرقوا بين حديث مرفوع إلى النبي ﷺ وبين حديث موقوف على صحابي أو تابعي، فاثبتوا بهذا ما أثبتوا بهذا.

والسادس: أنهم تناولوا بعض ألفاظ في موضع ولم يتأولوها في موضع كقوله: «ومن أتانني يمشي أثبته هرولة» قالوا: ضرب مثلاً للإنعام.

والسابع: أنهم حملوا الأحاديث على مقتضى الحس فقالوا: ينزل بذاته ويستقل ويتحول، ثم قالوا: لا كما نعقل، فغالطوا من يسمع وكابروا الحس والعقل فحملوا الأحاديث على الحيات.

فرايت الرد عليهم لازماً لثلاث ينسب الإمام أحمد رحمه الله إلى ذلك، وإذا سكّ نسبُ إلى اعتقادي ذلك ولا يهولني أمر يعظم في النفوس لأن العمل على الدليل وخصوصاً في معرفة الحق تعالى لا يجوز فيها التقليد، وقد سئل الإمام أحمد رحمه الله عن مسألة فأفتى فيها فقليل: هذا لا يقول به ابن المبارك فقال: ابن المبارك لم ينزل من السماء، وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: استخرت الله تعالى في الرد على الإمام مالك رحمه الله.

ولما صنف هؤلاء الثلاثة كتباً، وانفرد القاضي «أبو يعلى» فصنف الأحاديث ذكرتها على ترتيبه، وقدمت عليها الآيات الشريفة التي وردت في ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باب ما جاء في القرآن العظيم من ذلك

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَرَبَّكَ رَبِّكَ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٢٧] (١). قال المفسرون: يفي ريك، وكذا قالوا في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام: ٥٢] أي يريدونه، وقال الضحاك وأبو عبيدة: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الْقَصَصُ: ٨٨] أي إلا هو.

وقد ذهب الذين أنكروا عليهم إلى أن الوجه صفة يختص باسم زائد على الذات. فمن أين قالوا هذا وليس لهم دليل إلا ما عرفوه من الحيات، وذلك يوجب التبعض، ولو كان كما قالوا كان المعنى أن ذاته تهلك إلا وجهه، وقال ابن حامد: أثبتنا الله تعالى وجهاً ولا يجوز إثبات رأس. قال: ولقد اقشعر بدني من جراته على ذكر هذا، فما أعوزته في التشبيه غير الرأس.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكَ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [طه: ٣٩]، ﴿وَأَصْحَ الْفَلَكِ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هُود: ٣٧] (٢). أي برأى منا، وإنما جمع لأن عادة الملك أن يقول أمرنا ونهينا.

وقد ذهب القاضي (أبو يعلى) إلى أن العين صفة زائدة على الذات وقد سبقه أبو بكر بن خزيمة (٣). فقال في الآية: لرينا عينان ينظر بهما، وقال ابن حامد: يجب الإيمان أن له عينين.

(١) قال الزمخشري في الكشاف: ﴿وَرَبَّكَ رَبِّكَ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٢٧] ذاته، والوجه يعبر به عن الجملة والذات، وماكين مكة يقولون: أين وجه عربي كريم ينقذني من الهوان.

(٢) يقول الزمخشري: ﴿وَأَعْيُنِنَا﴾ [هُود: ٣٧] في موضع الحال بمعنى اصنمها محفوظاً وحقيقته ملتبساً بأعيننا كان الله معه أعيناً تكلوه أن يزيع في صنعة من الصواب وأن لا يحول بينه وبين عمله أحد من أعدائه. ويقول الرازي في أساس التفسير عند الكلام على العين: لا بد من المعبر إلى التأويل وذلك هو أن يحمل هذه الألفاظ على شدة العناية والحراسة، والوجه في حسن هذا المجاز أن من عظمت عنايته بشيء وميله إليه ورغبته فيه كان كثير النظر إليه فجعل لفظ العين التي هي آلة لذلك النظر كتابة عن شدة العناية.

(٣) هو محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري توفي عام أحد عشر وثلاثمائة، بعد في أكابر المحدثين، كان يورع نفسه عن الخوض في مسائل الكلام وينهي أصحابه عنه، ثم اضطره بعض أهل النظر إلى الدخول في هذه المأزم فزلت قدمه وخرج إلى وجهه غير معقولة سامحه الله (ز).

وهذا ابتداء لا دليل لهم عليه، وإنما أثبوا عينين من دليل الخطاب في قوله ﷺ: «ليس بأعور»^(١) وإنما أريد نفي النقص عنه تعالى، ومتى ثبت أنه لا يتجزأ لم يكن لما يتخايل من الصفات وجه.

ومنها قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيْكَ﴾ [ص: ٧٥]^(٢) اليد في اللغة بمعنى النعمة والإحسان، ومعنى قول اليهود لعنهم الله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ مَقْلُودَةٌ﴾ [الزائدة: ٦٤] أي محبوسة عن النفقة؛ واليد القوة يقولون: له بهذا الأمر يد.

وقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [الزائدة: ٦٤] أي نعمته وقدرته^(٣). وقوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيْكَ﴾ [ص: ٧٥] أي بقدرتي ونعمتي. وقال الحسن: ﴿يَدُ اللَّهِ قَوْوٌ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] أي مته وإحسانه، هذا كلام المحققين.

وقال القاضي (أبو يعلى) اليدان صفتان ذاتيتان تسميان باليدين. وهذا تصرف بالرأي لا دليل عليه، وقال: لو لم يكن لآدم عليه الصلاة والسلام مزية على سائر الحيوانات بخلقه باليد التي هي صفة لما عظمه بذكرها وأجله فقال: ﴿يَدَيْكَ﴾ [ص: ٧٥] ولو كانت القدرة لما كانت له مزية، ولو كانت القدرة لم تكن.

قلنا: بلى قالت العرب ليس لي بهذا الأمر يدان أي ليس لي به قدرة، قال عروة بن حزام:

فقالا شفاك الله والله ما لنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

(١) طالع الحديث الخمين الآتي ترى مزيد تفصيل عن هذا الخبر.

(٢) يقول الزمخشري: أن ذا اليدين بهما أكثر أعماله بيديه، فقلب العمل باليدين على سائر الأعمال التي تباشر بهما، حتى قيل في عمل القلب: هو مما عملت يداك، وحتى قيل لمن لا يدي له: يداك أوكنا وفوك نفخ، وحتى لم يبق فرق بين قولك: هذا مما عملته وهذا مما عملته يداك. وقال الراغب الأصبهاني في مفرداته: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا هَمَلْتَ أَيْدِيًا﴾ [يس: ٧١] وقوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيْكَ﴾ [ص: ٧٥] عبارة عن توليه لخلقه باختراعه الذي ليس إلا له عز وجل، وخص لفظ اليد لتصور لنا المعنى إذ هو أجل الجوارح التي يتولى بها الفعل فيما يتنا لتصور لنا اختصاص المعنى لا لتصور منه تشبيهاً، وقيل معناه بنعمتي التي رشحتها لهم، والباء فيه ليس كالباء في قولهم: قطعته بالسكين بل هو كقولهم: خرج بسيفه أي معه سيفه، معناه خلفته ومعه نعمتي الدينية والأخروية اللتان إذا رعاها بلغ بهما السعادة الكبرى.

وقال العلامة الشيخ جمال الدين القاسمي في تفسيره محاسن التأويل: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ يَدَيْكَ﴾ [ص: ٧٥] أي بنفسي من غير توسط كآب وأم.

(٣) في أساس التفسير لمجدد القرن السادس الفخر الرازي: والسبب في حسن هذا المجاز أن كمال حال هذا المعصوم إنما يظهر بالصفة المسماة بالقدرة فلما كان المقصود من اليد حصول القدرة أطلق اسم القدرة على اليد، ولأن آلة إعطاء النعمة اليد فإطلاق اسم اليد على النعمة إطلاق لا سم السبب على السبب.

وقولهم: **مِيزَهُ بِذَلِكَ عَنِ الْحَيَوَانِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلًا يُبَيِّنُ أَتَمَّكُمْ﴾** [يس: ٧١] ولم يدل على تمييز الأنعام على بقية الحيوان.

قال تعالى: **﴿وَاللَّحْمَاءُ بَنَيْنَاهَا بِأَيْبَرٍ﴾** [الذاريات: ٤٧] أي بقوة ثم قد أخبر أنه قد نفخ فيه من روحه ولم يرد الوضع بالفعل والتكوين، والمعنى نفخت أنا، ويكفي شرف الإضافة إذ لا يليق بالخالق جلّ جلاله سوى ذلك لأنه لا يحتاج أن يفعل بواسطة، ولا له أعضاء وجوارح يفعل بها لأنه تعالى الغني بذاته؛ فلا ينبغي أن يتشاغل بطلب تعظيم آدم عليه الصلاة والسلام مع الغفلة عما يستحقه الباري سبحانه من التعظيم بنفي الأبعاد والآلات في الأفعال، لأن هذه الأشياء صفة الأجسام.

وقد ظن بعض الثلاثة أن الله تعالى يمسّ حتى توهموا أنه مس طينة آدم بيد هي بعض ذاته، وما فطنوا أن من جملة مخلوقاته جسماً يقابل جسماً فيتحده به ويفعل فيه، أفتراه سبحانه وتعالى جعل أفعال الأشخاص والأجسام تتعدى إلى أجسام بعيدة ثم يحتاج هو في أفعاله إلى معانة الطين؟ وقد ردّ قول من قال هذا بقوله تعالى: **﴿لَوْ كَانَ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ أَهْوٍ كَشَلِّ مَادَّمْ خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَوْ كُنْ كَيْفَ كُنْتُ﴾** [آل عمران: ٥٩].

ومنها قوله تعالى: **﴿وَيَسْأَلُكُمْ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿آل عمران: ٢٨﴾ وقوله تعالى: ﴿تَمَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾** [المائدة: ١١٦] قال المفسرون: ويحذركم الله إياه، وقالوا: تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك، وقال المحققون: المراد بالنفس هاهنا الذات، ونفس الشيء ذاته.

وقد ذهب القاضي (أبو يعلى) إلى أن الله تعالى نفساً وهي صفة زائدة على ذاته، وهذا قول لا يستند إلا إلى التشبيه لأنه يوجب أن الذات شيء والنفس غيرها.

ومنها قوله تعالى: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** [الشورى: ١١]^(١). ظاهر الكلام أن

(١) يقول الزمخشري في الكشاف: قالوا مثلك لا يخل ففوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عن ذاته قصدوا المبالغة في ذلك فسلوكوا به طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عن يذمّ مدّه وعن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه، ونظيره: قولك للعربي العرب لا تخفر اللحم كان أبلغ من قولك: أنت لا تخفر ومثله قولهم: قد أبغضت لذاته وبلغت أثرابه يريدون إيفاءه وبلوغه اهـ.

وقال الراغب: إن النذ يقال فيما يشارك في الجوهر فقط والتشبه يقال فيما يشارك في الكيفية فقط والمساوي يقال فيما يشارك في الكمية فقط والشكل يقال فيما يشاركه في القدر والمساحة فقط والمثل عام في جميع ذلك ولهذا لما أراد الله نفي التشبيه من كل وجه خصه بالذكر فقال: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾** [الشورى: ١١] وأما الجمع بين الكاف والمثل فقد قيل ذلك لتأكيد النفي تنبيهاً على أنه لا يصح استعمال المثل ولا الكاف فنفي بليس الأمرين جميعاً وقيل المثل هاهنا بمعنى الصفة ومعناه: ليس كصفته صفة تنبيهاً على أنه وإن وصف بكثير مما يوصف به البشر فليس تلك الصفات له على حسب ما يستعمل في البشر.

له مثلاً فليس كمثل شيء وليس كذلك، إنما معناه عند أهل اللغة أن يقام المثل مقام الشيء نفسه يقول الرجل مثلي لا يكلم مثلك، وإنما المعنى ليس كهو شيء.

ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْتَفَىٰ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢]^(١). قال جمهور العلماء: يكشف عن شدة وأنشدوا: وقامت الحرب على ساق^(٢). وقال آخر: وإن شمعت عن ساقها الحرب شمراً، قال ابن قتيبة: وأصل هذا أن الرجل إذا وقع في أمر عظيم يحتاج إلى معاناة الجد فيه شمر عن ساقه فاستعيرت الساق في موضع الشدة وهذا قول الفراء وأبي عبيدة وثعلب واللفويين، وروى البخاري ومسلم في الصحيحين عن النبي ﷺ «أن الله عز وجل يكشف عن ساقه»^(٣). وهذه إضافة إليه معناها يكشف عن شدته وأفعاله المضافة إليه، ومعنى يكشف عنها يزيلها، وقال عاصم بن كليب: رأيت سعيد بن جبير غضب وقال: يقولون يكشف عن ساقه وإنما ذلك من أمر شديد.

وقد ذكر أبو عمر الزاهد: أن الساق بمعنى النفس، قال: ومنه قول علي رضي الله عنه لما قالت الشراة لا حكم إلا لله تعالى فقال: لا بد من محاربتهم ولو

(١) وما قاله الرازي في تفسير هذه الآية: يوم يكشف عن ساق جهنم أو عن ساق العرش أو عن ساق ملك مهيب عظيم واللفظ لا يدل إلا على ساق فأما إن ذلك الساق ساق أي شيء هو فليس في اللفظ ما يدل عليه.

وفي محاسن التأويل للعلامة جمال القاسمي رحمه الله: وقال أبو سعيد الضرير: أي يوم يكشف عن أصل الأمر، وساق الشيء أصله الذي به قوامه كساق الشجر وساق الإنسان، أي تظهر يوم القيامة حقائق الأشياء وأصولها فالساق بمعنى أصل الأمر وحقيقته استعارة من ساق الشجر.

(٢) قال البيهقي في كتابه (الأسماء والصفات) عند الاستشهاد بهذا الكلام من الشعر: عن ابن عباس أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْتَفَىٰ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] فقال: إذا خفي عليكم شيء من القرآن فابتغوه من الشعر فإنه ديوان العرب.

(٣) في صحيح البخاري: ثنا آدم ثنا الليث عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة» الحديث، وقال الحافظ ابن حجر: ووقع في هذا الموضع «يكشف ربنا عن ساقه» وهو من رواية سعيد بن أبي هلال عن زيد بن أسلم فأخرجها الإسماعيلي كذلك ثم قال: في قوله عن ساقه نكرة، ثم أخرجه من طريق حفص بن مبرة بن زيد بن أسلم بلفظ ﴿يَوْمَ يُكْتَفَىٰ عَنْ سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] قال الإسماعيلي: هذه أصح لموافقتها لفظ القرآن في الجملة اهـ.

وقد أخذ ابن شاقلاً على البخاري إخراج حديث الساق في صحيحه لأنه من رواية ابن أبي هلال وبراء ليس من شرطه لضعفه. وقال ابن حزم أيضاً: ابن أبي هلال ليس بالقوي قد ذكره بالتخليط بحى وأحمد بن حنبل (ز).

تلفت ساقى، فعلى هذا يكون المعنى يتجلى لهم. وفي حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «يكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله عز وجل فيخرون لله سجداً ويبقى أقوام في ظهورهم مثل صياصي البقر يريدون السجود فلا يستطيعون فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الْقَلَم: ٤٢]».

وقد ذهب القاضي (أبو يعلى) إلى أن الساق صفة ذاتية وقال: مثله يضع قدمه في النار. وحكي عن ابن مسعود قال: يكشف عن ساقه اليمنى فتضيء من نور ساقه الأرض، قلت: وذكره الساق مع القدم تشبيه محض، وما ذكره عن ابن مسعود محال ولا يثبت لله تعالى صفة بمثل هذه الخرافات، ولا توصف ذاته بنور شعاعي تضيء به الأرض، واحتجاجة بالإضافة ليس بشيء لأنه إذا كشف عن شدته فقد كشف عن ساقه، وهؤلاء وقع لهم أن معنى يكشف يظهر وإنما المعنى يزيل ويرفع.

وقال ابن حامد: يجب الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى ساقاً صفة لذاته فمن جحد ذلك كفر. قلت: لو تكلم بهذا عامي جلف كان قبيحاً فكيف من ينسب إلى العلم فإن المتأولين أعذر منهم لأنهم يردون الأمر إلى اللغة وهؤلاء أثبتوا ساقاً للذات وقدماً حتى يتحقق التجسيم والصورة.

ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى السَّمَوَاتِ﴾ [الحديد: ٤] ^(١). قال الخليل بن

(١) يقول الآلوسي في تفسيره: والناس في الكلام على هذه الآية ونحوها مختلفون، فمنهم من فسر العرش بالمعنى المشهور وفسر الاستواء بالاستقرار وروي ذلك عن الكلبي ومقاتل ورواه البيهقي في (الاسماء والصفات) بروايات كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها، وما روي عن مالك رضي الله عنه أنه مثل كيف استوى فأطرق رأسه ملياً حتى علت الرخضاء ثم رفع رأسه فقال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ثم قال للسائل: وما أظنك إلا ضالاً ثم أمر به فأخرج ليس نصاً في هذا المنصب لاحتمال أن يكون المراد من قوله: «غير مجهول» أنه ثابت معلوم الثبوت لا أن معناه الاستقرار وهو غير مجهول. وقال في موضع آخر: وإلى نحو هذا ذهب الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقال في بعض فتاويه: طريقة التأويل بشرطه وهو قرب التأويل أقرب إلى الحق لأن الله تعالى إنما خاطب العرب بما يعرفونه، وقد نصب الأدلة على مراده من آيات كتابه لأنه سبحانه قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى السَّمَوَاتِ﴾ [البقرة: ١٩] ولينبئ للناس ما نزل إليهم، وهذا عام في جميع آيات القرآن فمن وقف على الدليل أفهمه الله مراده من كتابه وهو أكمل ممن لم يقف على ذلك إذ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون اهـ. وفيه توسط في المسألة، وقد توسط ابن الهمام في (المسايرة) وقد بلغ رتبة الاجتهاد كما قال عصر بنا ابن عابدين الشامي في (رد المحتار) توسطاً أخص من هذا التوسط فذكر ما حاصله: وجواب الإيمان بأنه تعالى استوى على العرش مع نفي التشبيه، وأما كون المراد استولى فأمر جائز الإرادة لا واجبها إذ لا دليل عليه، وإذا خيف =

أحمد: العرش السرير وكل سرير لملك يسمى عرشاً، والعرش مشهور عند العرب في الجاهلية والإسلام، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقال تعالى: ﴿إِلَيْكُمْ يَأْتِيهِمْ رَيْبُهَا﴾ [الشم: ٣٨]، اعلم أن الاستواء في اللغة على وجوه: منها الاعتدال. قال بعض بني تميم: «فاستوى ظالم العنيرة والمظلوم» أي اعتدلاً، والاستواء تمام الشيء. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآَسَتْ﴾ [القصاص: ١٤]، والاستواء القصد إلى الشيء. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَىٰ أُنْحَاةٍ﴾ [البقرة: ٢٩] أي قصد خلقها، والاستواء الاستيلاء على الشيء. قال الشاعر:

إذا ما غزا قوماً أباح حريمهم وأضحى على ما ملكوه قد استوى

وروى إسماعيل بن أبي خالد الطائي قال: العرش ياقوتة حمراء، وجميع السلف على إيراد هذه الآية كما جاءت من غير تفسير ولا تأويل.

وقد حمل قوم من المتأخرين هذه الصفة على مقتضى الحس فقالوا: استوى على العرش بذاته. وهذه زيادة لم ينقلوها إنما فهموها من إحساسهم وهو أن المستوي على الشيء إنما يستوي عليه ذاته. قال ابن حامد: الاستواء معاملة وصفة لذاته والمراد به القعود^(١). قال: وقد ذهب طائفة من أصحابنا إلى أن الله تعالى على عرشه ما ملأه وأنه يُقعد نبيه معه على العرش، وقال: والنزول انتقال.

= على العامة عدم فهم الاستواء إذا لم يكن بمعنى الاستيلاء إلا بالاتصال ونحوه من لوازم الجسمية فلا بأس بصرف فهمهم إلى الاستيلاء فإنه قد بُت إطلاقه عليه لغة في قوله: فلما علونا واستوينا عليهم جعلناهم مرعى لنسر وطائر وقوله:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهوراق (ز)

(١) قال الجلال الدواني في شرح العضدية: وقد رأيت في بعض تصانيف (ابن تيمية) القول به (أي بالقدم النوعي) في العرش اه وقال الشيخ محمد عبده فيما علقه عليه: وذلك أن ابن تيمية كان من المتحابلة الآخذين بظواهر الآيات والأحاديث القائلين بأن الله استوى على العرش جلوساً، فلما أورد عليه أنه يلزم أن يكون العرش أزلياً لما أن الله أزلي لمكانه أزلي، وأزلية العرش خلاف مذهبه قال إنه قديم بالنوع أي أن الله لا يزال يعدم عرشاً ويحدث آخر من الأزل إلى الأبد حتى يكون له الاستواء أزلاً وأبداً ولننظر أين يكون الله بين الإعدام والإيجاد هل يزول عن الاستواء قليلاً بل أزلاً، فسبحان الله ما أجهل الإنسان وما أشنع ما يرضى لنفسه، ولست أعرف هل قال ابن تيمية بشيء من ذلك على التحقيق، وكثيراً ما نقل عنه ما لم يقله اه (ز).

وعلى ما حكى تكون ذاته أصغر من العرش، فالعجب من قول هذا ما نحن مجسمة.

وقيل لابن الزاغوني: هل تجددت له صفة لم تكن بعد خلق العرش؟ قال: لا، إنما خلق العالم بصفة التحت فصار العالم بالإضافة إليه أسفل، فإذا ثبت لإحدى الداتين صفة التحت ثبت للآخر استحقاق صفة الفوق، قال: وقد ثبت أن الأماكن ليست في ذاته ولا ذاته فيها فثبت انفصاله عنها ولا بد من بدء يحصل به الفصل فلما قال: ﴿أَسْتَوِي﴾ [البقرة: ٢٩] علمنا اختصاصه بتلك الجهة، قال: ولا بد أن يكون لذاته نهاية وغاية يعلمها.

قلت: هذا رجل لا يدري ما يقول، لأنه إذا قدر غاية وفصلاً بين الخالق والمخلوق فقد حده وأقر بأنه جسم، وهو يقول في كتابه: إنه ليس بجوهر لأن الجوهر ما تحيز، ثم يثبت له مكاناً يتحيز فيه، قلت: وهذا كلام جهل من قائله وتشبيه محض، فما عرف هذا الشيخ ما يجب للمخلوق تعالى وما يستحيل عليه.

فإن وجوده تعالى ليس كوجود الجواهر والأجسام التي لا بد لها من حيز، والتحت والفوق إنما يكون فيما يقابل ويحاذي، ومن ضرورة المحاذي أن يكون أكبر من المحاذي أو أصغر أو مثله، وأن هذا ومثله إنما يكون في الأجسام، وكل ما يحاذي الأجسام يجوز أن يمسه، وما جاز عليه مماسة الأجسام ومباينتها فهو حادث، إذ قد ثبت أن الدليل على حدوث الجواهر قبولها المماس والمباينة، فإن أجازوا هذا عليه قالوا بجواز حدثه، وإن منعوا جواز هذا عليه لم يبق لنا طريق لإثبات حدث الجواهر، ومتى قدرنا مستغنياً عن المحل والحيز ومحتاجاً إلى الحيز ثم قلنا: إما أن يكونا متجاورين أو متباينين كان ذلك محالاً فإن التجاور والتباين من لوازم التحيز في المتحيزات.

وقد ثبت أن الاجتماع والافتراق من لوازم التحيز، والحق سبحانه وتعالى لا يوصف بالتحيز لأنه لو كان متحيزاً لم يخلُ إما أن يكون ساكناً في حيزه أو متحركاً عنه، ولا يجوز أن يوصف بحركة ولا سكون ولا اجتماع ولا افتراق، ومن جاور أو باين فقد تنهى ذاتاً، والتناهي إذا اختص بمقدار استدعى مخصصاً، وكذا ينبغي أن يقال ليس بداخل في العالم وليس بخارج منه لأن الدخول والخروج من لوازم المتحيزات، فهما كالحركة والسكون وسائر الأعراض التي تحس بالأجرام.

وأما قولهم: «خلق الأماكن لا في ذاته فثبت انفصاله عنها» قلنا: ذاته المقدسة لا تقبل أن يخلق فيها شيء ولا أن يحل فيها شيء، وقد حملهم الحس على التشبيه والتخليط حتى قال بعضهم: إنما ذكر الاستواء على العرش لأنه أقرب الموجودات إليه، وهذا جهل أيضاً لأن قرب المسافة لا يتصور إلا في جسم، ويعز علينا كيف ينسب هذا القائل إلى مذهبه.

واحتج بعضهم بأنه على العرش بقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَسْعَدُ الْكَرُّ وَالْطَّيْبُ وَالْمَلُوءُ الصَّالِحُ بَرَقْمُتُ﴾ [فاطر: ١٠] ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] وجعلوا ذلك فوقية حية، ونسوا أن الفوقية الحسية إما أن تكون لجسم أو جوهر، وأن الفوقية قد تطلق لعلو المرتبة فيقال: فلان فوق فلان^(١). ثم إنه كما قال تعالى: ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤] فمن حملها على العلم حمل خصمه الاستواء على القهر^(٢).

ودعيت طائفة إلى أن الله تعالى على عرشه قد ملأه، والأشبه أنه مماس للعرش، والكروسي موضع قدميه. قلت: المماس إنما تقع بين جسمين، وما أبقى هذا في التجسيم بقية.



فصل: فإن قيل فقد أخرج في الصحيحين من حديث شريك بن أبي نمر عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أنه ذكر المعراج فقال فيه: فعلاً به إلى الجبار تعالى فقال وهو في مكانه: «يا رب خفف عنا».

الجواب: أن أبا سليمان الخطابي قال: هذه لفظة انفرد بها شريك ولم يذكرها غيره وهو كثير التفرد بمناكير الألفاظ والمكان لا يضاف إلى الله تعالى إنما هو مكان النبي ﷺ ومقامه الأول الذي أقيم فيه وفي هذا الحديث «فاستأذنت على ربي وهو في

(١) في التفسير الكبير للفخر الرازي: العالم كرة وإذا كان الأمر كذلك امتنع أن يكون إله العالم حاصلاً في جهة فوق، إذا فرضنا إنسانين وقف أحدهما على نقطة المشرق والآخر على نقطة المغرب صار أحدهما قداميهما متقابلين، والذي هو فوق بالنسبة لأحدهما يكون تحت بالنسبة إلى الثاني، وكونه تعالى تحت أهل الدنيا محال بالاتفاق فوجب أن لا يكون في حيز معين (ز).

(٢) يقول الفخر الرازي في أساس التقديس: إن ظاهر قوله تعالى: ﴿وَتَحْتَ آثَرِهِ إِلَهِ رَبِّ جَبَلِ الزُّبَيْدِ﴾ [ق: ١٦] وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] وقوله: ﴿وَهُوَ الْغَنِيُّ فِي السَّمَاءِ إِلَهُ رَبِّ الْأَرْضِ﴾ [الزخرف: ٨٤] ينفي كونه مستقراً على العرش، وليس تأويل هذه الآيات لتبقى الآيات التي تمسكوا بها على ظاهرها أولى من العكس اهـ (ز).

داره، يومهم مكاناً وإنما المعنى في داره التي دورها لأوليائه^(١)؛ وقد قال القاضي (أبو يعلى) في كتابه المعتمد: إن الله عز وجل لا يوصف بالمكان.

ومن الآيات قوله تعالى: ﴿مَّا يَنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [المُلْك: ١٦]^(٢). قد ثبت قطعاً أن الآية ليست على ظاهرها لأن لفظة (في) للظرفية، والحق سبحانه وتعالى غير مطروف وإذا منع الحس أن ينصرف إلى مثل هذا بقي وصف العظيم بما هو عظيم عند الخلق.

ومنها قوله تعالى: ﴿بَحَرَيْنِ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الرُّم: ٥٦]^(٣). أي في طاعته وأمره لأن التفریط لا يقع إلا في ذاته وأما الجنب المعهود من ذي الجوارح فلا يقع فيه تفریط.

(١) زاد البيهقي في كتابه الأسماء والصفات: (وهي الجنة).

(٢) قال الفخر الرازي في تفسير هذه الآية: إن هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين لأن كونه في السماء يقتضي كون السماء محيطاً به من جميع الجوانب فيكون أصغر من السماء والسماء أصغر من العرش بكثير فيلزم أن يكون الله تعالى شيئاً حقيراً بالنسبة إلى العرش، وذلك باتفاق أهل الإسلام محال. وقال الزمخشري ووافقه الفخر: (من في السماء) في وجهان أحدهما من ملكوته في السماء لأنها مكن ملائكته وشم حرشه وكبريه واللوح المحفوظ ومنها تنزل قضاياه وكبه وأوامره ونواهي، والثاني أنهم كانوا يعتقدون التشبيه وأنه في السماء وأن الرحمة والعذاب ينزلان منه وكانوا يدعونه من جهتها ف قيل لهم على حسب اعتقادهم: ألمنتم من تزعمون أنه في السماء وهو متعال عن المكان أن يعذبكم بخسف أو بحاصب كما تقول لبعض المشبهة: أما تخاف من فوق العرش أن يعاقبك بما تفعل إذا رأته يركب بعض المعاصي، وقال الرازي أيضاً: والفرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله وتعظيم قدرته كما قال: ﴿وَقَوْلُ اللَّهِ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] فإن الشيء الواحد لا يكون دفعة واحدة في مكانين، وقال أيضاً: لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله (من في السماء) هو الملك الموكل بالعذاب وهو جبريل عليه السلام (ز).

(٣) يقول الزمخشري في كشافه: والجنب الجانب، يقال: أنا في جنب فلان وجانبه وناحيته وفلان لين الجانب والجانب، ثم قالوا: فرط في جنبه وفي جانبه يريدون في حقه، قال سابق البربري: أما تشقيبن الله في جنب وامتن له كبد حزى عليك تفتطح وقال السيد محمود الآلوسي في تفسيره (روح المعاني): وبالجمل لا يمكن إبقاء الكلام على حقيقته لتزعمه عز وجل من الجنب بالمعنى الحقيقي، ولم أقف على عد أحد من السلف إياه من الصفات السمعية، ولا أعزل على ما في المواقف، وعلى فرض العد كلامهم فيها شهير وكلهم مجمعون على التزعم وسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وفي حرف عبد الله وحفصة (في ذكر الله) هـ. وقال العلامة القاسمي في تفسيرها: أي في جانب أمره ونهيه إذ لم أتبع أحسن ما أنزل.

رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام على صورته»^(١).

للناس في هذا مذهبان: أحدهما السكوت عن تفسيره، والثاني الكلام في معناه.

واختلف أرباب هذا المذهب في الهاء إلى من تعود على ثلاثة أقوال:

أحدها: تعود إلى بعض بني آدم، قال: وذلك أن النبي ﷺ مرُّ برجل يضرب رجلاً وهو يقول: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فقال ﷺ: «إذا ضرب أحدكم فليقلق الوجه فإن الله تعالى خلق آدم على صورته».

وإنما خص آدم بالذكر لأنه هو الذي ابتدئت خلقة وجهه على هذه الصورة التي احتذى عليها من بعده، وكأنه نبه على أنك سببت آدم وأنت من ولده، وذلك مبالغة في زجره، فعلى هذا تكون الهاء كناية عن المضروب^(٢). ومن الخطأ الفاحش أن نرجع إلى الله عز وجل لقوله: ووجه من أشبه وجهك فإنه إذا نسب إليه سبحانه كان تشبيهاً صريحاً.

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه فإن الله تعالى خلق آدم على صورته».

القول الثاني: أن الهاء كناية عن اسمين ظاهرين، فلا يصلح أن تصرف إلى الله عز وجل، لقيام الدليل أنه تعالى ليس بذي صورة، فعادت إلى آدم.

ومعنى الحديث أن الله تعالى خلق آدم على صورته التي خلقه عليها تاماً، لم

(١) يقول الراغب الأصفهاني: الصورة أراد بها ما خص الإنسان بها من الهيئة المدركة بالبصر والبصيرة، وبها فضله على كثير من خلقه، وإضافته إلى الله سبحانه على سبيل الملك لا على سبيل البعوضة والتشبيه تعالى عن ذلك، وذلك على سبيل التشريف له كقوله بيت الله وناق الله ونحو ذلك: ونفخت فيه من روحي.

(٢) مما أورده الرازي في تأويل هذا الخبر قوله: إن المراد منه إبطال قول من يقول إن آدم كان على صورة أخرى، مثل ما يقال إنه كان عظيم الجثة طویل القامة بحيث يكون رأسه قريباً من السماء فالتبني عليه السلام أشار إلى إنسان معين (وهو المضروب) وقال: «إن الله خلق آدم على صورته» أي كان شكل آدم مثل شكل هذا الإنسان من غير تفاوت البتة (ز).

ينقله من نقطة إلى علفة كبنه^(١). هذا مذهب أبي سليمان الخطابي، وقد ذكره ثعلب في أماليه.

القول الثالث: أنها تعود إلى الله تعالى، وفي معنى ذلك قولان: أحدهما أن تكون صورة ملك، لأنها فعله وخلقه فتكون إضافتها إليه من وجهين: أحدهما التشريف بالإضافة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَتَنَّىٰ لِلْقُلُوبَيْنِ﴾ [الحج: ٢٦] والثاني ابتدعها لا على مثال سبق. والقول الثاني أن تكون الصورة بمعنى الصفة تقول «هذا صورة هذا الأمر» أي صفته، ويكون خلق آدم على صفته من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والإرادة، فميزه بذلك عن جميع الحيوانات، ثم ميزه على الملائكة بصفة التعالي حين أسجدهم له، والصورة هاهنا معنوية لا صورة تخاطيط.

وقد ذهب أبو محمد بن قتيبة^(٢) في هذا الحديث إلى مذهب قبيح فقال: «الله تعالى صورة لا كالصور فخلق آدم عليها» وهذا تخليط وتهافت، لأن معنى كلامه أن صورة آدم كصورة الحق تعالى.

وقال القاضي (أبو يعلى) يطلق على الحق تعالى تسمية الصورة لا كالصور كما أطلقنا اسم ذاته.

وهذا تخليط لأن الذات بمعنى شيء، وأما الصورة فهي هيئة وتخاطيط وتأليف، ويفتقر إلى مصور ومؤلف.

وقول القائل «لا كالصور» نقض لما قاله، وصار بمثابة من يقول «جسم لا كالأجسام» فإن الجسم ما كان مؤلفاً فإذا قال «لا كالأجسام» نقض ما قال.



(١) ومن الوجوه التي سردها الفخر في هذا المقام قوله: أنه تعالى لما عظم أمر آدم بجعله مسجود الملائكة، ثم إنه أتى بتلك الزلة فآله تعالى لم يعاقبه بمثل ما عاقب به غيره فإن نقل إن الله تعالى أخرجه من الجنة وأخرج معه الحية والطاوس وغير تعالى خلقهما، مع أنه لم يغير خلقه آدم بل تركه على الخلقة الأولى إكراماً له وصوناً عن عذاب المسخ هـ. وذهب البيهقي هذا المذهب (ز).

(٢) هو صاحب التصانيف أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة أحد أئمة الأدب، إخباري، قليل الرواية، قد يعتمد في التشبيه على ما يرويه من كتب أهل الكتاب، يتهم بالنصب، كذبه الحاكم وروقه غيره، مات عام ست وسبعين ومائتين (ز).

الحديث الثاني: روى عبد الرحمن بن عياش عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت ربي في أحسن صورة فقال لي: فيم يختصم الملا الأعلى يا محمد؟ قلت: أنت أعلم يا رب، فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعلمت ما في السماوات والأرض».

قال الإمام أحمد: أصل هذا الحديث وطرقه مضطربة وقد روي من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني آت في أحسن صورة فقال: فيم يختصم الملا الأعلى؟ فقلت: لا أدري، فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي فعرفت كل شيء يسألني عنه» وروي من حديث ثوبان قال: خرج علينا رسول الله ﷺ بعد صلاة الصبح فقال: «إن ربي أتاني الليلة في أحسن صورة فقال لي: يا محمد فيم يختصم الملا الأعلى؟ قلت: لا أعلم يا رب، فوضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله في صدري فتجلى لي ما بين السماء والأرض».

وهذه أحاديث مختلفة وأحسن طرقها يدل على أن ذلك كان في النوم ورؤيا المنام وهم والأوهام لا تكون حقائق^(١). وأن الإنسان يرى كأنه يطير أو كأنه قد صار بهيمة وقد رأى أقوام في منامهم الحق سبحانه على ما ذكرنا، وإن قلنا إنه رآه في اليقظة فالصورة إن قلنا ترجع إلى الله تعالى فالمعنى رأيت على أحسن صفاته من الإقبال عليّ والرضا عني، وإن قلنا: ترجع إلى رسول الله ﷺ فالمعنى رأيت وأنا على أحسن صورة^(٢). وروى ابن حامد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «لما أسري بي رأيت الرحمن تعالى في صورة شاب أمرد له نور يتلألأ وعن عن»^(٣). وصفه لكم فسألت ربي أن يكرمني برويته وإذا كأنه عروس حين كشف عنه

(١) يقول الحافظ ابن حجر في مثل هذا المقام: ولا التفات إلى من تعقب كلامه بقوله في الحديث الصحيح: «إن رؤيا الأنبياء وحي» فلا يحتاج إلى تعبير لأنه كلام من لم يمعن النظر في هذا المحل، فقد تقدم في كتاب التعبير أن بعض رؤى الأنبياء يقبل التعبير اهـ (ز).

(٢) بقي على المؤلف أن يشكلم على عجز الحديث، ونحن ننقل عن (أساس التدريس للشيخ الرازي) ما بقي بالعرض: وأما قوله: «وضع يده بين كتفي» ففي وجهان: الأول: المراد منه المبالغة في الاهتمام بحاله والاعتناء بشأنه. الثاني: أن يكون المراد من اليد النعمة، وأما قوله: «بين كتفي» فإن صح فالمراد منه أنه أوصل إلى قلبه من أنواع اللطف والرحمة، وأما قوله: «فوجدت بردها» فيحتمل أن المعنى برد النعمة وروحها وواحتها، من قولهم: عيش بارد إذا كان رعداً، والذي يدل على أن المراد منه كمال المعارف قوله عليه السلام في آخر الحديث «فعلمت ما بين المشرق والمغرب» اهـ (ز).

(٣) هكذا في الأصل المحفوظ لدينا.

حجابه مسترٍ على عرشه وهذا الحديث كذب قبيح ما روي قط لا في صحيح ولا في كذب فأبعد الله تعالى من عمله، فقد كنا نقول ذلك منام فيذكر هذا ليلة الإسراء كافأهم الله عز وجل وجزاهم النار، يشبهون الله سبحانه وتعالى بعروس ما كتب هذا مسلم، وأما حديث البرد في الحديث الماضي فإن البرد عرض لا يجوز أن ينسب إلى الله عز وجل.

وقد ذكر القاضي (أبو يعلى) في كتابه الكناية (رأيت ربي في أحسن صورة) أي في أحسن موضع.

الحديث الثالث: روت أم الطفيل امرأة أبي أنها سمعت رسول الله ﷺ يذكر أنه رأى ربه عز وجل في المنام في أحسن صورة شاباً منوراً في خضر، في رجله نعلان من ذهب وعلى وجهه فراش من ذهب. هذا الحديث يرويه نعيم بن حماد. قال ابن عدي: كان يضع الحديث، وسئل الإمام أحمد فأعرض بوجهه عنه وقال: حديث منكر مجهول. وعن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «رأيت ربي جعداً أمرد عليه حلة خضراء» وهذا مروى. من طريق حماد بن سلمة وكان ابن أبي العوجاء الزنديق ربيب حماد، وكان يدس في كتبه هذه الأحاديث لا ثبوت لها ولا يحسن أن يحتج بها.

وقد أثبت القاضي (أبو يعلى) صفات لله تعالى فقال: قوله شاب وأمرد وجعد وقطط والفراش والنعلان والتاج، قال: ثبت ذلك تسمية لا نعقل معناها. ومن ثبت بالمنام وما صخ نقله صفات وقد عرفنا معنى الشاب الأمرد، ثم يقول «ما هو كما نعلم» كمن يقول قام فلان وما هو بقائم، وقعد وما هو بقاعد، قال ابن عقيل: هذا الحديث نجزم بأنه كذب ثم لا تنفع ثقة الرواة إذا كان المتن مستحياً وصار هذا كما لو أخبرنا جماعة من المعدلين بأن جعل البراز دخل في خرم إبرة الخياط فإنه لا حكم لصدق الرواة مع استحالة خيرهم.

الحديث الرابع: روي عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «ليلة أسري بي رأيت كل شيء من ربي حتى رأيت تاجاً مخصوصاً من لؤلؤ» هذا يرويه أبو القاسم محمد بن اليسع عن قاسم بن إبراهيم، قال الأزهرى: كنت أقعد مع ابن اليسع ساعة فيقول: قد ختمت الختمة منذ قعدت وقاسم ليس بشيء، قال الدارقطني: هو كذاب كافأ الله تعالى من عمل هذا.

الحديث الخامس: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يجمع الله الناس فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه فيتبعون ما كانوا يعبدون وتبقى هذه الأمة بما فاقوها فيأتهم الله تعالى في غير الصورة التي يعرفون فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله تعالى منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتهم في الصورة التي يعرفونها فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا». رينا.

وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «فيأتهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة فيقول أنا ربكم، فيقولون أنت ربنا فلا يكلمه إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فيقال هل بينكم وبينه آية تعرفونها فيقولون الساق فيكشف عن ساقه فيسجد له كل مؤمن»^(١).

اعلم أنه يجب على كل مسلم أن يعتقد أن الله سبحانه وتعالى لا يجوز عليه الصورة التي هي هيئة وتأليف؛ قال أبو سليمان الخطابي: معنى فيأتهم الله تعالى أي يكشف الحجاب لهم حتى يرونه عياناً كما كانوا عرفوه في الدنيا استدلالاً فرويته بعد أن لم يكونوا رأوه بمنزلة إتيان الآتي لم يكن شهود قبل.

وقال بعض العلماء: يأتهم بأحوال القيامة وصور الملائكة^(٢). ولم يمهّدوا مثله في الدنيا فيستعيدون من تلك الحال ويقول: إذا جاء ربنا عرفناه أي إذا أتانا نعرفه من لطفه وهي الصورة التي يعرفون فيكشف عن ساق أي عن شدة كأنه يرفع تلك الشدائد الموهلة فيسجدون شكراً؛ وقال بعضهم: صورة محتجهم بها كما يبعث الدجال فيقولون نعوذ بالله تعالى منك. وفي حديث أبي موسى عن رسول الله ﷺ «أن الناس يقولون إن لنا رباً كنا نعبد في الدنيا فيقال: أو تعرفونه إذا رأيتموه؟ فيقولون: نعم، فيقال: كيف تعرفونه ولم تروه؟ فيقولون: إنه لا شيء له، فيكشف الحجاب فينظرون إلى الله عز وجل فيخرون سجداً» قال ابن عقيل: الصورة على الحقيقة تقع على التخاطيب والأشكال وذلك من صفات الأجسام، والذي صرفنا عن كونه جسماً من الأدلة القطعية قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ومن الأدلة العقلية

(١) لقدم الكلام على هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَكْبِ﴾ [الفلم: ٤٢].

(٢) باعتبار (في) بمعنى الباء، ونظيره قول ابن عباس في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢١٠] أي بظلل من الغمام على ما نقله الفخر الرازي في كتابه (أساس التدريس) (ز).

أنه لو كان جسماً كانت صورته عرضاً ولو كان حامل الأعراض جاز عليه ما يجوز على الأجسام واقتصر إلى صانع ولو كان جسماً مع قدمه جاز قدم أحدنا. فأحوجتنا الأدلة إلى تأويل صورة يليق إضافتها إليه وما ذلك إلا الحال الذي يوقع عليها أهل اللغة اسم صورة فيقولون: كيف صورتك مع فلان، وفلان على صورة من الفقر؛ والحال التي أنكروها العسف والتي يعرفونها اللطف فيكشف عن الشدة، والتغير إنما يليق بفعله فأما ذاته فتعالت عن التغير، نعوذ بالله أن يحمل الحديث على ما قالته المجسمة أن الصورة ترجع إلى ذاته وأن ذلك تجويز التغير على صفاته فخرجوه في صورة إن كانت حقيقة فذاك استحالة وإن كان تخيلاً فليس ذاك هو إنما يريهم غيره.



الحديث السادس: روى مسلم في صحيحه من حديث المغيرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا شخص أغير من الله ولذلك حرّم الفواحش ولا شخص أحب إليه المدحة من الله».

لفظة «الشخص» يروونها بعض الرواة ويروي بعضهم «لا شيء أغير من الله» والرواة يروون بما يظنونوه المعنى، وكذلك «شخص» من تغيير الرواة وقد يكون المعنى ليس منكم أيها الأشخاص أغير من الله لأنه لما اجتمع الكل بالذكر سُمي بأسمائهم والشخص لا يكون إلا جسماً مؤلفاً ومثل هذا قول ابن مسعود: وما خلق من جنة ولا نار أعظم من آية الكرسي؛ قال الإمام أحمد بن حنبل: الخلق يرجع إلى الجنة والنار لا إلى القرآن ويجوز أن يكون هذا من باب المستثنى من غير الجنس كقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ﴾ [الشاء: ١٥٧] وأما المغيرة فقد قالت العلماء: كل من غار من شيء أسندت كراهته له، فلما حرّم الفواحش ووعد عليها وصفه رسول الله ﷺ بالمغيرة.



الحديث السابع: روى أبو موسى عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض»^(١).

(١) يقول السيوطي في الجامع الكبير: أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والحاكم والبيهقي في السنن والطبراني في الكبير وابن سعد.

وإنما أضيفت القبضة لأن أفعال المملوك تُنسب إلى المالك وذلك أنه بعث من قبض كقوله تعالى: ﴿فَلَسْنَا أَفْيَهُمُ﴾ [الْقَمَر: ٣٧] وقد روى محمد بن سعد في كتاب الطبقات أن الله تعالى بعث إبليس فأخذ من أديم الأرض فخلق منه آدم فمن ثم قال: ﴿مَا سَجُدَ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإِسْرَاء: ٦١].

* * *

الحديث الثامن: روى سلمان قال: إن الله لما خمر طينة آدم وضرب بيديه فيه فخرج كل طيب في يمينه وكل خبيث في يده الأخرى ثم خلط بينهما فمن ثم يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي.

وهذا مرسل، وقد ثبت بالدليل أن الحق سبحانه وتعالى لا يوصف بمس شيء، وإن صح فيضرب مثلاً لما جرت به الأقدار، وقال القاضي (أبو يعلى): تخمير الطين وخلط بعضه ببعض مضاف إلى اليد التي خلق بها آدم وهذا التشبيه المحض.

* * *

الحديث التاسع: روى عبيد بن حنين قال: بينا أنا جالس في المسجد إذ جاء قتادة بن النعمان فجلس فتحدث، ثم قال: انطلق بنا إلى أبي سعيد الخدري فإنه قد أخبرني أنه قد اشتكى، فانطلقنا حتى دخلنا على أبي سعيد فوجدناه مستلقياً واضعاً رجله اليمنى على اليسرى، فسلمنا عليه وجلسنا، فرفع قتادة يده إلى رجل أبي سعيد الخدري وقرصها قرصة شديدة فقال أبو سعيد: سبحان الله يا ابن أم أوجعتني، قال ذلك أردت أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى لما قضى خلقه استلقى ثم وضع إحدى رجله على الأخرى ثم قال: لا ينبغي لأحد من خلقي أن يفعل هذا» قال أبو سعيد: لا جرم لا أفعله أبداً^(١).

قال عبد الله بن حنبل: ما رأيت هذا الحديث في دواوين الشريعة المعتمدة عليها؛ وأما عبيد بن حنين فقال البخاري: لا يصح حديثه في أهل المدينة. وفي

(١) روى الحافظ البيهقي هذا الخبر في (الأسماء والصفات) وقال: فهذا حديث منكر ولم أكتبه إلا من هذا الوجه وقلج بن سليمان - أحد رواة - مع كونه من شرط البخاري ومسلم فلم يخرجاه حديثه هذا في الصحيح وهو عند الحفاظ غير محتج به، عن يحيى بن معين يقول: فليح بن سليمان لا يحتج بحديثه، عنه يقول: فليح ضعيف، وعن النسائي أنه قال: فليح ليس بالقوي. قال الشيخ: فإذا كان فليح بن سليمان المدني مختلفاً في جواز الاحتجاج به عند الحفاظ لم يثبت بروايته مثل هذا الأمر العظيم اهـ. وذكر أيضاً علة عدم اجتماع عبيد بقتادة (ز).

الحديث علة أخرى وهي أن قتادة بن النعمان مات في خلافة عمر رضي الله تعالى عنه وعبيد بن حنين مات سنة خمس ومائة وله خمس وسبعون سنة في قول الواقدي، فتكون روايته عن قتادة بن النعمان منقطعة، قال الإمام أحمد: ثم لو صحَّ طريقه احتمل أن يكون رسول الله ﷺ حدث به عن بعض أهل الكتاب على طريق الإنكار عليهم فلم يفهم قتادة إنكاره.

ومن هذا الفن حديث رويناه أن الزبير سمع رجلاً يحدث عن رسول الله ﷺ فاستمع له الزبير حتى إذا قضى الرجل حديثه قال الزبير: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ فقال الرجل: نعم، قال: هذا وأشباهه مما يمتنع أن نحدث عن النبي ﷺ قد لعمرى سمعت هذا من رسول الله ﷺ وأنا يومئذ حاضر ولكن رسول الله ﷺ ابتدأ بهذا الحديث فحدثناه عن رجل من أهل الكتاب حدثه يومئذ فجيئت أنت بعد انقضاء صدر الحديث وذكر الرجل الذي هو من أهل الكتاب فظننت أنه من حديث رسول الله ﷺ قلت: وغالب الظن أن الإشارة في حديث الزبير إلى حديث قتادة فإن أهل الكتاب قالوا: إن الله تعالى لما خلق السماوات والأرض استراح فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُؤُوفٍ﴾ [ق: ٣٨] فيمكن أن يكون رسول الله ﷺ حكى ذلك عنهم ولم يسمع قتادة أول الكلام.

وقد روى عبد الرحمن بن أحمد في كتاب السنة قال: رأيت الحسن قد وضع رجله اليمنى على شماله وهو قاعد فقلت: يا أبا سعيد تكره هذه القعدة؟ فقال: قاتل الله اليهود، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُؤُوفٍ﴾ [ق: ٣٨] فعرفت ما عني به فأمسكت. قلت: وإنما أشار الحسن إلى ما ذكرناه عن اليهود.

وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما أنهم كانوا يستلقون ويضعون رجلاً على رجل، وإنما يكره هذا لمن لا سراويل له والله أعلم.

الحديث العاشر: روى القاضي (أبو يعلى) عن حسان بن عطية أن رجلاً من المشركين سبَّ رسول الله ﷺ، فحمل عليه رجل من المسلمين فقتله، وقتل الرجل، فقال رسول الله ﷺ: «ما تعجبون من نصر الله تعالى ورسوله لقي الله تعالى متكبِّراً فقد له».

هذا حديث مقطوع بعيد عن الصحة، ولو كان له وجه كان المعنى: فأقبل الله تعالى عليه وأنعم.

الحديث العادي عشر: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فيتزوي بعضها إلى بعض»^(١).

قلت: الواجب علينا أن نعتقد أن ذات الله عز وجل لا تبعض ولا يحويها مكان ولا توصف بالتغير ولا بالانتقال، وقد حكى أبو عبيد الهروي عن الحسن البصري أنه قال: القدم هم الذين قدمهم الله لها من شرار خلقه وأثبهم لها، وقال أبو منصور الأزهري: القدم الذين تقدم القول بتخليدهم في النار، يقال لما قدم قدم ولما هدم هدم، ويؤيد هذا قوله: «وأما الجنة فينشئ لها خلقاً».

وجه ثان أن كل قادم عليها يسمى قدماً فالقدم جمع قادم، ومن يرويه بلفظ (الرجل) فإنه يقال: (رجل من جراد) فيكون المراد يدخلها جماعة يشبهون في كثرتهم الجراد فيسرعون التهافت فيها.

وقال القاضي (أبو يعلى): القدم صفة ذاتية، قال ابن الزاغوني: يقول إنما وضع قدمه في النار ليخبرهم أن أصنامهم تحترق وأنا لا أحترق. وهذا إثبات تبعض وهو من أقبح الاعتقادات.

ورأيت أبا بكر بن خزيمة قد جمع كتاباً في الصفات^(٢). ويؤيده فقال: باب إثبات اليد، باب إمساك السماوات على أصابعه، باب إثبات الرجل وإن رغمت المعتزلة، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَزِيلْ يَمُوتُونَ يَهَّأْ أَرْهَمَ أَيْتُو يَطِيطُونَ يَهَّأْ﴾ [الأعراف: ١٩٥] فأعلمنا أن ما لا يد له ولا رجل فهو كالأنعام.

قال ابن عقيل: تعالى الله أن يكون له صفة تشغل الأمكنة، وليس الحق تعالى بذي أجزاء وأبغاض فيعالج بها، ثم إنه أليس يعمل في النار أمر وتكوينه حتى يستعين بشيء من ذاته ويعالجها بصفة من صفاته وهو القائل: ﴿كُونِي بِرُؤُوسِكُنَّ﴾ [الأنبياء: ٦٩] فما أسخف هذا الاعتقاد وأبعده عن مكنون الأملاك والأفلاك، وقد صرح

(١) يقول جابر الله الزمخشري في كتابه (الفائق في غريب الحديث): وضع القدم على الشيء مثل المردع والقمع، فكأنه قال: يأتيها أمر الله فيكفها عن طلب المزيد فترتدع هـ. وفي أساس البلاغة: من المجاز «يفض قدمه عليها» أي يسكنها ويكرس سورتها كما يضع الرجل قدمه على الشيء المضطرب فيسكنه.

(٢) وهو الكتاب الذي يسميه (كتاب التوحيد)، والإمام فخر الدين الرازي يقول عنه: (وهو في الحقيقة كتاب الشرك) (ز).

بتكذيبهم فقال تعالى: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُوكَ إِلهًا مَّا وَدَّوهُنَّ﴾ [الأنبياء: ٩٩] فكيف يظن بالخالق أن يردّها، تعالى الله عن تجاهل المجسّمة.

الحديث الثاني عشر: روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ضرس الكافر في النار مثل أحد وكثافة جلده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار»^(١).

قال أبو عمر الزاهد: الجبار هاهنا الطويل، يقال نخلة جبارة^(٢). قال القاضي (أبو يعلى) نحملها على ظاهرها، والجبار هو الله عز وجل. قلت: واعجباً أذهبت العقول إلى هذا الحد! أو يجوز أن يقال: إن الذراع اثنان وأربعون مرة حتى يبلغ جلد الكافر ويضاف إلى الذات القديمة! تعالى الله علواً كبيراً.

الحديث الثالث عشر: روى القاضي (أبو يعلى) عن مجاهد أنه قال: إذا كان يوم القيامة يذكر داود عليه الصلاة والسلام ذنبه فيقول الله تعالى كن أمامي فيقول يا رب ذنبي ذنبي، فيقول كن خلفي فيقول يا رب ذنبي فيقول له خذ بقدمي، وفي لفظ عن ابن سيرين قال: إن الله تعالى ليقرب داود حتى يضع يده على فخذه.

والمعجب من إثبات ذلك للحق سبحانه وتعالى بأقوال التابعين وما تصح عنهم ولو صححت فإنما يذكرونها عن أهل الكتاب كما يذكر وهب بن منبه؛ قال القاضي (أبو يعلى) نحمله على ظاهره لأننا لا نثبت قدماً وفخذاً هو جارحة.

واعجباً لقد كملوا هيئة البدن بإثبات فخذ وساق وقدم ووجه ويدين وأصابع وخنصر وإبهام وصعود ونزول، ويقولون تحمل على ظاهرها وليست جوارح.

(١) يقول الشيخ إسماعيل المجلوني في كتابه (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس): رواه مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً وأحمد والطبراني والبيهقي عن ابن عمر مرفوعاً، والترمذي عن أبي هريرة (بألفاظ متقاربة).

(٢) قال ابن تقيّة في كتابه (تأويل مختلف الحديث) في كلامه على هذا الحديث: ونحن نقول إن لهذا الحديث مخرجاً حسناً إن كان النبي ﷺ أراد به وهو أن يكون الجبار ههنا الملك. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِشَاوٍ﴾ [ق: ٤٥] أي بملك مسلط والجبارية الملوك، وهذا كما يقول الناس: هو كذا وكذا ذراعاً بذراع الملك يريدون: بالذراع الأكبر، وأحببه ملكاً من ملوك المعجم كان تام الذراع فنسب إليه.

وهل يجوز لعاقِل أن يثبت لله تعالى خلفاً وأماماً وفخذاً ما ينبغي أن نحدث هؤلاء لأننا قد عرفنا الفخذ فيقال: ليس بفخذ والخلف ليس بخلف، ومثل هؤلاء لا يحدثون فإنهم يكابرون العقول كأنهم يحدثون الأطفال.



الحديث الرابع عشر: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ «بضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة» وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود أن رسول الله ﷺ أخبر عن آخر من يدخل الجنة وضحك، فقيل: مم تضحك؟ فقال: «من ضحك رب العالمين».

اعلم أن الضحك له معان ترجع إلى معنى البيان والظهور وكل من أبدى عن أمر كان مستوراً قيل قد ضحك، يقال: «ضحكت الأرض بالنبات» إذا ظهر فيها وانفتحت عن زهره، كما يقال «بكت السماء» قال الشاعر:

كل يوم بأقحوان جديد تضحك الأرض من بكاء السماء

وكذلك الضحك الذي يعتري البشر إنما هو انفتاح الفم عن الأسنان، وهذا يستحيل على الله سبحانه وتعالى فوجب حمله على معنى أبدى الله تعالى كرمه وفضله. ومعنى «ضحكت لضحك ربي» أبديت عن أسناني بفتح فمي لإظهار ربي كرمه وفضله. وقد روي في حديث موقوف «ضحك حتى بدت لهواته وأضراسه» ذكره الخلال في كتاب السنة. وقال المروزي: قلت لأبي عبد الله: ما تقول في هذا الحديث؟ قال: «يشفع» ثم يقول: على تقدير الصحة يحتمل أمرين: أحدهما أن يكون ذلك راجعاً إلى النبي ﷺ كأنه ضحك حين أخبر بضحك الرب جلّ جلاله حتى بدت لهواته وأضراسه وهذا هو الصحيح لو ثبت الحديث؛ والثاني أن يكون تجوزاً عن كثرة الكرم وسعة الرضا كما جوّز بقوله: «ومن أتاني يمشي أتته هرولة».

قال القاضي (أبو يعلى) لا يمتنع الأخذ بظاهر الأحاديث وإمرارها على ظواهرها من غير تأويل.

قلت: وأعجباً قد أثبت لله تعالى صفات بأحاديث آحاد والفاظ لا تصح وقد أثبت الأضراس، فما عنده من الإسلام خير.



الحديث الخامس عشر: روى القاضي (أبو يعلى) عن عبد الله بن عمر موقفاً أنه قال: «خلق الله تعالى الملائكة من نور الذراعين والصدر». وقد أثبت به القاضي ذراعين وصدرأ لله عز وجل. وهذا قبيح لأنه حديث ليس بمرفوع ولا يصح، وهل يجوز أن يخلق مخلوق من ذات القديم! هذا أقبح مما ادعاه النصارى.

الحديث السادس عشر: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «يدنى المؤمن من ربه فيضع عليه كتفه فيقول تعرف ذنب كذا». قال العلماء: يدنيه من رحمته ولطفه، قال ابن الأنباري: كتفه حياطته وستره، يقال: قد كتف فلان فلاناً إذا حاطه وستره وكل شيء ستر شيئاً فقد كتفه، ويقال للترس كنيف لأن يستر صاحبه. قال القاضي (أبو يعلى) يدنيه من ذاته. وهذا قول من لم يعرف الله سبحانه وتعالى ولا يعلم أنه لا يجوز عليه الدنو الذي هو مسافة. وكذلك قوله: «إنه ليدنو يوم عرفة» أي يقرب بلطفه وعفوه.

الحديث السابع عشر: روى مسلم في أفراده من حديث معاوية بن الحكم قال: كانت لي جارية ترعى غنماً لي، فانطلقت ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة فصككتها صكة، فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليّ فقلت: ألا أعتقها؟ قال: انتبي بها، فقال لها: «أين الله تعالى؟» قالت: في السماء، قال: «من أنا؟» قالت: رسول الله، قال رسول الله ﷺ: «اعتقها فإنها مؤمنة».

قلت: قد ثبت عند العلماء أن الله تعالى لا تحويه السماء ولا الأرض ولا تضمه الأقطار، وإنما عرف بإشارتها تعظيم الخالق جلّ جلاله عندها.

الحديث الثامن عشر: رواه أبو رزين قال: قلت: يا رسول الله أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما تحته هواء ولا فوقه هواء ثم خلق عرشه على الماء»^(١).

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده وابن جرير في تهذيب الآثار والطبراني في الكبير وأبو الشيخ في العظمة (جمع الجوامع للسيوطي).

العماء السحاب، واعلم أن الفوق والتحت يرجعان إلى السحاب لا إلى الله تعالى و«في» بمعنى فوق، والمعنى: كان فوق السحاب بالتدبير والقهر. ولما كان القوم يأنسون بالمخلوقات سألوا عنها، والسحاب من جملة خلقه، ولو سئل عما قبل السحاب لأخبر أن الله تعالى كان ولا شيء معه، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كان الله سبحانه وتعالى ولا شيء معه» ولنا نختلف أن الجبار تعالى لا يعلوه شيء من خلقه بحال وأنه لا يحل في الأشياء بنفسه ولا يزول عنها، لأنه لو حل بها كان منها ولو زال عنها لنأى عنها..



الحديث التاسع عشر: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل رينا كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير يقول من يدعوني فاستجب له».

روى حديث النزول عشرون صحابياً، وقد سبق القول إنه يستحيل على الله عز وجل الحركة والنقلة والتغير، فيبقى الناس رجلين:

أحدهما: المتأول بمعنى أنه يقرب برحمته، وقد ذكر أشياء بالنزول فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا آلْفِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥] وإن كان معدنه في الأرض، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَشْجَارِ أَشْجَارًا شَدِيدَةً﴾ [الزمر: ٦] ومن لم يعرف نزول الجمل كيف يتكلم في الجمل.

والثاني: الساكت عن الكلام في ذلك مع اعتقاد التنزيه، والواجب على الخلق اعتقاد التنزيه وامتناع تجويز النقلة، وأن النزول الذي هو انتقال من مكان إلى مكان يفتر إلى ثلاثة أجسام: جسم عال هو مكان لساكنه، وجسم سافل، وجسم منتقل من علو إلى سفلى وهذا لا يجوز على الله عز وجل.

قال ابن حامد: هو على العرش بذاته محاس له وينزل من مكانه الذي هو فيه وينتقل. وهذا رجل لا يعرف ما يجوز على الله تعالى. وقال القاضي (أبو يعلى): النزول صفة ذاتية ولا نقول نزول انتقال. وهذا مغالط ومنهم من قال يتحرك إذا نزل. وما يدري أن الحركة لا تجوز على الله تعالى. وقد حكوا عن الإمام أحمد ذلك وهو

كذب عليه^(١). ولو كان النزول صفة ذاتية لذاته كانت صفته كل ليلة تتجدد^(٢). وصفاته قديمة كذاته.



الحديث العشرون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة أن رجلاً أتى النبي فقال: إني مجهود، فقال ﷺ: «من يضيفه هذه الليلة؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى امرأته فقال: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، فقال: فعليهم بشيء إذا أراد الصبية العشاء فتؤميهن فإذا دخل ضيفنا فأطغني السراج وأريه أنا نأكل، ففعدوا وأكل الضيف فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «لقد عجب الله تعالى من صنعكما بضيفكما الليلة».

وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «عجب الله من قوم جر بهم في السلاسل حتى يدخلهم الجنة».

قال العلماء: العجب إنما يكون من شيء يدهم الإنسان مما لا يعلمه فيستعظمه وهو لا يليق بالخالق جلّ جلاله، لكن معناه: عظم قدر ذلك الشيء عند الله لأن

(١) حكى ذلك أبو يعلى في طبقاته عن أحمد بطريق أبي العباس الإصطخري، وهو كما قال المصنف نقل مفترى. وعجيب من ابن تيمية كنيه في معقوله - غير منكر - ما يرويه حرب بن إسماعيل الكرماني صاحب محمد بن كرام في مسائله عن أحمد وغيره في حقه سبحانه... يتكلم ويتحرك.. اهـ. ونقل أيضاً عن نقض الدارمي - ساكتاً أو مقراً - الحي القيوم بفعل ما يشاء ويتحرك إذا شاء ويهبط ويرتفع إذا شاء ويقبض ويسط ويقوم ويجلس إذا شاء لأن أمارة ما بين الحي والحيث التحرك وكل حي متحرك لا محالة وكل ميت غير متحرك لا محالة اهـ (أي ابن تيمية) حديث النزول فنزل عن المنبر درجتين فقال (كنزولي هذا) فنسب إلى التجسيم هـ.

(٢) مما يقوله ابن حزم الظاهري في حديث النزول: هذا إما هو فعل يفعل الله تعالى في سماء الدنيا من الفتح لقبول الدعاء وأن تلك الساعة من مظان القبول والإجابة والمغفرة للمجتهدين والمستغفرين والتائبين، وهذا معهود في اللغة تقول: نزل فلان عن حقه لي بمعنى وهبه لي وتطوّل به علي، ومن البرهان على أنه صفة فعل لا صفة ذات أن رسول الله ﷺ علّق التنزل المذكور بوقت محدود وصحّ أنه فعل محدث في ذلك الوقت مفعول حيثنّ، وقد علمنا أن ما لم يزل فليس متعلقاً بزمان البتة وقد بين رسول الله ﷺ في بعض ألفاظ الحديث المذكور ما ذلك الفعل وهو أن ذكر عليه السلام أن الله يأمر ملكاً ينادي في ذلك الوقت بذلك، وأيضاً فإن ثلث الليل مختلف في البلاد باختلاف المطالع والمغرب يعلم ذلك ضرورة من بحث عنه فصّح ضرورة أنه فعل يفعل ربنا تعالى في ذلك الوقت لأهل كل أفق، وأما من جعل ذلك نقلة فقد قدّمنا بطلان قوله في إبطال القول بالجسم اهـ (ز).

المتعجب من الشيء يعظم قدره عنده، ومعنى السلاسل أكرهوا على الطاعة التي بها يدخلون، وقال ابن الأنباري: معنى عجب ريك: زادهم إنعاماً وإحساناً فعبّر في هذا الحديث بالعجب عن ذلك.

الحديث العادي والعشرون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «الله أشد فرحاً بتوبة أحدكم من أحدكم بضالته إذا وجدها».

قال المصنف: لما كان مسروراً بشيء راضياً قبل له فرح، والمراد الرضا بتوبة التائب، ولا يجوز أن يعتقد في الله سبحانه وتعالى التأثر الذي يوجد في المخلوقين، فإن صفات الحق تعالى قديمة لا تحدث له صفة.

الحديث الثاني والعشرون: روى مسلم في أفراد من حديث أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله تعالى لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، حجاب النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١).

قوله: «حجاب النور» ينبغي أن يعلم أن هذا الحجاب للخلق عنه لأنه لا يجوز أن يكون محجوباً، لأن الحجاب يكون أكبر مما يستره وكما أنه لا يجوز أن يكون لوجوده ابتداء ولا انتهاء لا يصح أن يكون لذاته نهاية وإنما المراد أن الخلق محجوبون عنه كما قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمُعْجِرُونَ ۝﴾ [المطففين: ١٥] وأما السبحات فجمع سبحة ويقال إن السبحة جلال وجهه ومنه قوله: «سبحان الله» إنما هو تعظيم له وتزيه.

وقال القاضي (أبو يعلى): لا يمنع إطلاق حجاب من دون الله تعالى لا على وجه الحد والمحاذاة. وهذا كلام مختلط يرضى به العوام.

(١) يقول النووي في شرح صحيح مسلم: والتقدير: لو أزال المانع من رؤيته وهو الحجاب المسمى نوراً أو ناراً وتجلّى لخلق لآحرق جلال ذاته جميع مخلوقاته (ز).

الحديث الثالث والعشرون: روى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن أهل الجنة يرون ربهم تعالى في كل جمعة في رمال الكافور وأقربهم منه مجلساً أسرعهم إليه يوم الجمعة».

قوله: «في رمال الكافور» إشارة إلى الحاضرين ثم في رمال الكافور وأقربهم منه أي أحظاهم عنده.

وفي حديث آخر: «المقسطون يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن». وقال بعضهم: «يمين العرش» وفي حديث سوق الجنة: «ولا يبقى في ذلك المجلس أحد إلا حاضره الله محاضرة» ويروى خاصره بالخاء المعجمة. وهذا يرويه يوسف بن عبد الله وهو خطأ والمخاصرة المصافحة. وقال القاضي (أبو يعلى): لا يمتنع أن يكون الحق تعالى في رمال الكافور. فقد أقر بالحصص، ثم قال: لا على وجه الانتقال. وهذا تلاعب، ثم قال: ولا يمتنع قربهم من الذات، وهذا يضيع معه الحديث، واستدل بقوله: «ما منكم من أحد إلا سيخلو به ربه تعالى» وقال: الخلوة عبارة عن القرب ويجوز القرب من الذات. وقد سبق ردُّ هذا.



الحديث الرابع والعشرون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: جاء خبر إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع والجيال والشجر على أصبع، وفي لفظ والماء والثرى على أصبع ثم يهزهن فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «رَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» [الأنعام: ٩١].

قلت: وظاهر ضحك النبي ﷺ الإنكار^(١)، واليهود مشبهة، ونزول الآية دليل على إنكار الرسول ﷺ عليهم، وفي معنى هذا الحديث قوله ﷺ: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» ولما كان القلب بين أصبعين ذليلاً مقهوراً دلَّ هذا على أن القلوب مقهورة لمقلبيها.

وقال القاضي (أبو يعلى): غير ممتنع حمل الخبر على ظاهره في إثبات الأصابع صفات راجعة إلى الذات لآثا لا نبت أصابع هي جارحة ولا أبعاد. وهذا كلام

(١) يستبعد ابن خزيمة - وهو ممن وقع في خطأ التشبيه - أن يكون ضحك الرسول ﷺ إنكاراً، وقد

نقض الحافظ ابن حجر زعمه هذا في الفتح (ز).

مخلط لأنه إما أن يثبت جوارح وإما أن يتأولها. وأما حملها على ظاهرها فظاهرها الجوارح ثم يقول: ليست أبعاضاً. فهذا كلام قائم قاعد ويضيق الخطاب لمن يقول هذا.



الحديث الخامس والعشرون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: «يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون...»^(١). هكذا رواه مسلم وهي أتم الروايات؛ وقد ثبت بالدليل القاطع أن يد الحق سبحانه وتعالى ليست جارحة وأن قبضته الأشياء ليست مباشرة ولا له كف، وإنما قربه رسول الله ﷺ إلى الأفهام بما يدركه الحس، وأما رواية الشمال فضعيفة بالمرة، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وكلتا يديه يمين مباركة»^(٢). وهذا يوهن ذكر الشمال.

الحديث السادس والعشرون: رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده من حديث أنس عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال: قال هكذا يعني أنه أخرج طرف الخنصر، وفي لفظ فأولاً بخنصره فساخ. وروى ابن حامد ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ١٤٣] قال: خرج منه أول مفصل من خنصره.

هذا الحديث تكلم فيه علماء الحديث وقالوا: لم يروه عن ثابت غير حماد بن سلمة، وكان ابن العوجاء الزنديق قد أدخل على حماد أشياء فرواها في آخر عمره، ولذلك تجافى بعض أصحاب الصحيح الإخراج عنه، ومخرج الحديث سهل وذلك أن النبي ﷺ كان يقربه إلى الأفهام بذكر الحسيات فوضع يده على خنصره إشارة إلى أن الله تعالى أظهر اليسر من آياته.



-
- (١) في الذي بين أيدينا من نسخ صحيح مسلم زيادة «ثم يطوي الأرضين بشماله» (ز).
- (٢) يقول القتيبي عند الكلام على هذا الحديث: إنما أراد بذلك معنى التمام والكمال لأن كل شيء فمياسره تنقص عن ميامنه في القوة والبطش والتمام، وكانت العرب تحب التيامن وتكره التياسر لما في اليمين من التمام وفي اليسار من النقص، ويجوز أن يريد العطاء باليدين جميعاً لأن اليمنى هي المعطية فإذا كانت اليدان يعينان كان العطاء بهما وإلى هذا ذهب المرار حين قال: وأن على الإوانة من عقيل فتى كلنا البيدين له يمين (ز).

الحديث السابع والعشرون: روى القاضي (أبو يعلى) عن عكرمة أنه قال: إذا أراد الله عز وجل أن يخوف عباده أبدى عن بعضه إلى الأرض فعند ذلك تنزل وإذا أراد الله أن يدمدم على قوم تجلى لهم.

قال القاضي (أبو يعلى): «أبدى عن بعضه» هو على ظاهره وهو راجع إلى الذات على وجه لا يفضي إلى التبعض.

قلت: ومن يقول أبدى عن بعض ذاته وما هو بعض لا يكلم وإنما المراد أبدى عن آياته.

الحديث الثامن والعشرون: روى أبو الأخص الجهمي عن رسول الله ﷺ قال له: لعلك تأخذ موساك فتقطع أذن بعضها فتقول هذه نحر، وتشق أذن الأخرى وتقول صرم؟ قال: نعم، قال: «فلا تفعل فإن موسى الله تعالى أحد من موساك وساعد الله تعالى أشد من ساعدك».

قال القاضي (أبو يعلى): لا يمتنع حمل الخبر على ظاهره في إثباته الساعد صفة لذاته. قلت: المراد بالساعد القوة لأن قوة الإنسان في ساعده وكان ينبغي أن يثبت موسى أيضاً.

الحديث التاسع والعشرون: روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا قام إلى الصلاة فإنه بين عيني الرحمن».

قد ذكرنا صفة العين في الآيات المذكورة قبل الأحاديث، والمراد بالحديث أن الله تعالى يشاهد المصلي فليتأدب وكذلك قوله: «فإن الله تعالى قبل وجهه» أي يراه.

الحديث الثلاثون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة فقال ﷺ: «مَن هذه؟» قالت: فلانة تذكر من صلاتها فقال ﷺ: «مه عليكم ما تطيقون فالله لا يعمل الله تعالى حتى تملؤا» وفي لفظ «لا يسأم الله تعالى حتى تسأموا».

قال العلماء: معنى الحديث لا يعمل الله تعالى وإن مللتم كما قال الشاعر:

صليت مني هذيل بخرق لا يمل الشر حتى يملوا

المعنى لا يعمل وإن ملؤا وإلا لم يكن له فضل عليهم. وقال قوم: من مل من شيء تركه، والمعنى لا يترك الثواب ما لم يتركوا العمل، وأما الملل الذي هو كراهة الشيء والاستئقال له ونفور النفس عنه والسآمة منه فمحال في حقه تعالى لأنه يقتضي تغيره وحلول الحوادث في حقه.

الحديث الحادي والثلاثون: روت خولة بنت حكيم عن النبي ﷺ أنه قال: «إن آخر وطأة وطنها الرحمن بوجع».

وج: واد بالطائف وهي آخر وقعة أوقعها الله تعالى بالمشركين على يد رسول الله ﷺ. ومنه قوله ﷺ: «اللهم اشد وطأتك على مضر» مأخوذ من القدم وإلى هذا ذهب ابن قتيبة وغيره، قال القاضي (أبو يعلى) غير ممتنع على أصولنا حمل هذا الخبر على ظاهره وأن ذلك معنى بالذات دون الفعل لأننا حملنا قوله ينزل ويضع قدمه في النار على الذات. وهذا الرجل يشير بأصولهم إلى ما يوجب التجسيم والانتقال والحركة وهذا مع التشبيه بعيد عن اللغة ومعرفة التواريخ وأدلة المعقول وإنما اغترز بحديث روي عن كعب أنه قال: «وج مقدس منه عرج الرب إلى السماء ثم قضى خلق الأرض» وهذا لو صح عن كعب احتمل أن يكون حاكياً عن أهل الكتاب وكان يحكى عنهم كثيراً ولو قدرناه من قوله كان معناه أن ذلك المكان آخر ما استوى من الأرض لما خلقت ثم عرج الرب أي عمد إلى خلق السماء وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْرَجَ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [تُصَلَّت: ١١] ويروى عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «لما أسري بي مر بي جبريل عليه الصلاة والسلام حتى أتى الصخرة فقال: يا محمد من هاهنا عرج ربك إلى السماء» وهذا يرويه بكر بن زياد وكان يضع الحديث على الثقات. فإن قيل قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَسْرَجَ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] صعد، قلنا: صعد أمره إذا لا يجوز عليه الانتقال والتغير.

واعلم أن الناس في أخبار الصفات على ثلاث مراتب:

أحدها: إمرارها على ما جاءت من غير تفسير ولا تأويل إلا أن تقع ضرورة كقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] أي جاء أمره وهذا مذهب السلف.

المرتبة الثانية: التأويل، وهو مقام خطر^(١).

(١) يقول في شرح المشكاة: قال النووي في شرح مسلم: في هذا الحديث (حديث النزول) وشبهه من أحاديث الصفات وآياتها مذهبان مشهوران: فمذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين الإيمان بحقيقتها على ما يليق به تعالى وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد ولا تتكلم في تأويلها مع اعتقادنا تنزيه الله سبحانه عن سائر سمات الحدوث، والثاني مذهب أكثر المتكلمين وجماعة من السلف وهو محكي عن مالك والأوزاعي إنما يتأول على ما يليق بها بحسب بواطنها فعليه الخبر مؤول بتأويلين أي المذكورين. ويكلامه ويكلام الشيخ الرباني أبي إسحاق الشيرازي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم من المتأخرين يعلم أن الملعبين متفقان على صرف تلك الظواهر كالمجيه والصورة والشخص والرجل والقدم واليد والوجه والغضب والرحمة والاستواء على العرش والكون في السماء وغير ذلك مما يفهم ظاهرها لما يلزم عليه من محالات قطعية البطالان تستلزم أشياء يحكم بكفرها بالإجماع، فاضطر جميع الخلف والسلف إلى صرف اللفظ عن ظاهره، وإنما اختلفوا هل نصرفه عن ظاهره معتقدين اتصافه سبحانه بما يليق بجلاله وعظمت من غير أن نؤوله بشيء آخر وهو ملعب أكثر أهل الخلف وهو تأويل تفصيل ولم يريدوا بذلك مخالفة السلف الصالح معاذ الله أن يظن بهم ذلك وإنما دعت الضرورة في أزمته لذلك لكثرة المجسمة والجهمية وغيرهما من فرق الضلال واستيلائهم على عقول العامة، فقصودوا بذلك ردهم وبطالان قولهم ومن ثمة اعتذر كثير منهم وقالوا: لو كنا على ما كان عليه السلف الصالح من صفاء العقائد وعدم الميول في زمنهم لم نخش في تأويل شيء من ذلك وقد علمت أن مالكا والأوزاعي وهما من كبار السلف أولا الحديث تأويلاً تفصيلاً وكذلك سفيان الثوري أول الاستواء على العرش بقصد أمره ونظيره: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] أي قصد إليها ومنهم الإمام جعفر الصادق، بل قال جمع منهم ومن الخلف: أن معتقد الجبهة كافر كما صرح به العراقي وقال إنه قول لأبي حنيفة ومالك والشافعي والأشعري والباقلاني، وقد اتفق سائر الفرق على تأويل نحو ﴿وَمَوْمِنًا كُنتُم﴾ [الحديد: ٤] ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْرٍ لَّنَا إِلَّا هُوَ أَلَيْسَ لَنَا بِمَلِكٍ﴾ [المجادلة: ٧] الآية ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ بَلَدٌ مُّحَرَّمٌ مِنْهُ﴾ [البقرة: ١١٥] ﴿وَنُفِثَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [آ: ١٦] وقلب المؤمن بين إصبعين من أصبع الرحمن، والحجر الأسود يمين الله في الأرض، وهذا الاتفاق يبين لك صحة ما اختاره المحققون أن الوقف على (الراسخون في العلم) لا الجلالة. قلت: الجمهور على أن الوقف على (إلا الله) وعدوا وقفه وفقاً لازماً وهو الظاهر لأن المراد بالتأويل معناه الذي أرادته تعالى وهو في الحقيقة لا يعلمه إلا الله جل جلاله ولا إله غيره، وكل من تكلم فيه تكلم بحسب ما ظهر له ولم يقدر أحد أن يقول إن هذا التأويل هو مراد الله جزماً ففي التحقيق الخلاف لفظي ولهذا اختلف كثير من محققي المتأخرين عدم تعيين التأويل في شيء معين من الأشياء التي تليق باللفظ ويكفلون تعيين المراد بها إلى علمه تعالى، وهذا توسط بين الملعبين وتلذذ بين المشربين واختار ابن دقيق العيد توسطاً آخر فقال: إن كان التأويل من المجاز البين الشائع سلوكه من غير توقف أو من المجاز البعيد الشاذ فالحق تركه وإن استوى الأمران فالاختلاف في جوازه وعدمه مسألة فقهية اجتهادية والأمر فيها ليس بالخطر بالنسبة للمفريقين. قلت: التوقف فيها لعدم ترجيح أحد الجانبين مع أن التوقف مؤيد بقول السلف ومنهم الإمام الأعظم اهـ.

والمرتبة الثالثة: القول فيها بمقتضى الحس، وقد عمّ جهلة الناقلين إذ ليس لهم حظ من علوم المعقولات التي يعرف بها ما يجوز على الله تعالى وما يستحيل، فإن علم المعقولات يصرف ظواهر المنقولات عن التشبيه، فإذا عدموها تصرفوا في النقل بمقتضى الحس، وإليه أشار القاضي (أبو يعلى) بقوله: لا يمتنع أن يحمل التي وطنها الحق تعالى على أصولنا وأنه معنى يتعلق بالذات. وأصولهم على زعمه ترجع إلى الحس.

ولو فهموا أن الله تعالى لا يوصف بحركة ولا انتقال ولا تغير ما بنوا على الحميات، والعجب أنه يقر بهذا القول ثم يقول: «من غير نقلة ولا حركة» فينقض ما بنى.

ومن أعجب ما رأيت لهم ما ذكروا عن ابن أبي شيبة أنه قال في كتاب العرش: إن الله تعالى قد أخبرنا أنه صار من الأرض إلى السماء ومن السماء إلى العرش فاستوى على العرش.

ويقول في شرح المنكاة أيضاً: والحاصل أن السلف والخلف مؤولون لإجماعهم على صرف اللفظ عن ظاهره، ولكن تأويل السلف إجمالي لتفويضهم إلى الله تعالى وتأويل الخلف تفصيلي لاضطرارهم إليه لكثرة المتدعين هـ.

وفي (إشارة النبي في كشف شبه أهل التشبيه إمامه الشيخ نجم الدين أبي الفتح نصر الله بن العز بن سعد الله بن نجم الكاتب البغدادي): وقد تأول العلماء والأدباء والشعراء قديماً وحديثاً ولذلك قول بعضهم:

أقول بالسخذ خال حين أذكره خوف الرقيب وما بالسخذ من خال

أبكي إلى الشرق إن كانت منازلهم بجانب الغرب خوف القيل والقال

ومن قال: (لا أقول بالتأويل ولا أشبه) فقد تأول لأنه إذا عدل عن معنى النزول عنده ومعنى اليمين في حديث «الحجر الأسود يمين الله في الأرض» إلى غير ذلك فقد تأول فلا محيص لكم عن التأويل بحال هـ.

ويقول العلامة الألويسي في تفسيره عند الكلام على الوجه: والتأويل القريب إلى الذهن الشائع نظيره في كلام العرب مما لا بأس به عندي، على أن بعض الآيات مما أجمع على تأويلها السلف والخلف والله تعالى أعلم بمراده هـ. وقال أيضاً: وأنا أميل إلى التأويل وعدم القول بالظواهر مع نفي اللوازم في بعض ما ينسب إلى الله مثل قوله تعالى: «سَخَّرَ لَكُمْ أَنَّهُ أَفْقَالًا» [الرحمن: ٣١]، وقوله ﷻ: «الحجر الأسود يمين الله في أرضه فمن قبله أو صافحه فكأنما صافح الله تعالى وقبل يمينه» فأجعل الكلام فيه خارجاً مخرج التشبيه لظهور القرينة، ولا أقول: الحجر الأسود من صفاته كما قال السلف في اليمين هـ.

وقد عقد ابن المعلم في كتابه (نجم المهتدي ورجم المحتدي) باباً سرده فيه جماهير المؤولين (فيما يظهر فيه وجه الكلام) من الصحابة والتابعين وغيرهم (ز).

قلت: ونحن نحمد الله إذ لم يبخس حفظنا من المنقولات ولا من المعقولات، ونبرأ من أقوام شائنا مذهبنا، فعابنا الناس بكلامهم.

الحديث الثاني والثلاثون: روى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما تقرب العباد إلى الله تعالى بمثل ما خرج منه»^(١). وهو القرآن وفي حديث عفان أن النبي ﷺ قال: «فضيلة القرآن على سائر الكلام كفضل الله تعالى على خلقه إن القرآن منه خرج وإليه يعود» والمعنى وصل إلينا من عنده وإليه يعود فيرفع.

الحديث الثالث والثلاثون: روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق آدم بألف سنة فلما سمعت الملائكة قالوا: طوبى لأمة ينزل عليهم، وطوبى لأجواف تحمل هذا، وطوبى لأكسن تتكلم به».

هذا حديث موضوع يرويه إبراهيم بن المهاجر عن عمر بن حفص وأما عمر بن حفص فقال الإمام أحمد بن حنبل: حرقت أحاديثه، وقال يحيى بن معين: ليس بشيء، وقال أبو حاتم بن حبان الحافظ: هذا متن موضوع.

الحديث الرابع والثلاثون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك»^(٢). وفي لفظ أخرجه البخاري أن النبي ﷺ قال: «إن الرحم شجنة من الرحمن».

(١) الذي في الجامع الكبير للسيوطي: «ما تقرب العباد إلى الله بشيء أحب إليه مما خرج منه» ابن السني عن زيد بن أرقم عن أبي أمامة.

(٢) في شرح صحيح مسلم للإمام النووي: قال القاضي عياض: الرحم التي توصل وتقطع ونبر إنما هي معنى من المعاني ليست بجسم وإنما هي قرابة ونسب تجمعهم رحم والده ويتصل بعضهم ببعض فستى ذلك الاتصال رحماً، والمعنى لا يتأتى منه القيام ولا الكلام، فيكون ذكر قيامها هنا وتعلقها ضرب مثل وحسن استعارة على عادة العرب في استعمال ذلك، والمراد تعظيم شأنها وفضيلة وأصلها وعظيم إثم قاطعها بعقوقهم (ز).

قال أبو عبيد: الشجنة كالغصن من الشجرة، ومعنى شجنة أي قرابة مشتبكة كاشتباك العروق ولا شجر تشجن إذا التف بعضها ببعض.

قلت: لا يخلو هذا الحديث من أحد أمرين: إما أن يراد أن الله تعالى يراعي الرحم فيصل من يصلها ويقطع من قطعها ويأخذ لها حقها كما يراعي القريب قرابته كأنه يزيد في المراعاة على الأجانب أو أن يراد أن الرحم حروف الرحم فكأنه عظم قدرها بهذا الاسم ويؤكد هذا حديث عبد الرحمن بن عوف عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» وقد ورد هذا الحديث بلفظ لم يخرج في الصحاح «الرحم شجنة من الرحمن تعلق بحقوي الرحمن تقول اللهم صل من وصلني واقطع من قطعني» وفي لفظ «الرحم شجنة أخذة بحق الرحمن» وفي لفظ «لما خلق الله تعالى الخلق قامت الرحم فأخذت بحق الرحمن فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة». وهذه كلها أمثال ترجع إلى ما بينا، ومعنى تعلقها بحق الرحمن الاستجارة والاعتصام^(١).

قال أبو بكر البيهقي: الحقو الإزار، والمعنى تعلق بعزه.

قال ابن حامد: يجب التصديق بأن الله حقواً فتأخذ الرحم بحقوقه، قال: وكذلك نؤمن بأن الله تعالى جنباً لقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا قَرَّبْتُ فِي جَنِّ آفُو﴾ [الرؤم: ٥٦].

وهذا لا فهم له أصلاً، كيف يقع التفريط في جنب الذات، نعوذ بالله من سوء الفهم.

الحديث الخامس والثلاثون: روى البخاري في صحيحه^(٢) أن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما عذبه».

قال أبو سليمان الخطابي: وفي الكلام أن الكبرياء والعظمة صفتان لله تعالى اختص فيهما، لا يشركه فيهما أحد ولا ينبغي لمخلوق أن يتعاطاهما، لأن صفة

(١) قال في النهاية: والحقو فيه مجاز وتمثيل ومنه قولهم: عزت بحقو فلان إذا استجرت به واعتصمت اه وفي أساس البلاغة: لاذ بحقوبه إذا فزع إليه.

(٢) يقول المعجلوني في كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: رواه مسلم وابن حبان وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة والحاكم (بألفاظ متقاربة)، ومن أخرجه بلفظ الترجمة القضاعي عن أبي هريرة والحكيم الترمذي عن أنس هـ. ولم يذكر البخاري فليحذر.

المخلوق التواضع والتذلل، وضرب الإزار والرداء مثلاً، يقول والله تعالى أعلم: كما لا يشرك الإنسان في رده وإزاره أحد كذلك لا يشركه في الكبرياء والعظمة مخلوق.

الحديث السادس والثلاثون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

فذهب القاضي (أبو يعلى) إلى أن الله تعالى نفساً هي صفة زائدة عن الذات.

وهذا قول مبتدع ينوع به التشبيه، لا يفرق بين الذات والنفس وما المانع أن يكون المعنى: ذكرته أنا، وقد سبق هذا في الكلام على الآيات. والتقريب والهرولة توسع في الكلام^(١). كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا لِآيَاتِنَا﴾ [النجم: ٥١] لا يراد به المشي.

الحديث السابع والثلاثون: روى أبو سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى جميل يحب الجمال»^(٢).

قال العلماء: الجميل: المجلل بتحسين الصور والأخلاق والإحسان والذي أراه أن الجميل الذي أوصافه تامة مستحسنة. وقد فسّر القاضي (أبو يعلى) بما لا يليق بالحق سبحانه وتعالى فقال: غير ممتنع وصفه بالجمال، فإن ذلك راجع إلى الذات، لأن الجمال في معنى الحسن قال: وقد تقدم قوله ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة».

(١) في تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة عند الكلام على التقرب والهرولة: ونحن نقول: إن هذا تمثيل وتشبيه وإنما أراد: من أتاني مسرعاً بالطاعة أتته بالثواب أسرع من إتيانه.

(٢) أثبت العجلوني في كشف الخفاء ومزيل الإلباس هذا الحديث وقال رواه أحمد عن أبي ربحانة، ومسلم والترمذي عن ابن مسعود، وأبو يعلى والبيهقي عن أبي سعيد، والطبراني عن أبي أمامة وابن عمر وجابر، وابن عدي في الكامل عن ابن عمر.

الحديث الثامن والثلاثون: روى القاضي (أبو يعلى) عن عمر بن عبد العزيز قال: إذا فرغ الله تعالى من أهل الجنة والنار أقبل يمشي في ظلل من الغمام والملائكة، فيقف على أول درجة فيسلم عليهم فيردون عليه السلام فيقول: سلوني، فيقولون: ماذا نسأل، وعزتك وجلالك وارتفاعك في علو مكانك لو أنك قسمت علينا رزق الثقلين لأطعمناهم وسقيناهم ولم ينقص ما عندنا، فيقول تعالى يلى سلوني فيقولون: نسألك رضاك، قال تعالى: رضائي أحلكم دار كرامتي، فيفعل هذا بأهل كل درجة حتى ينتهي إلى مجلسه.

هذا حديث مكذوب به على عمر. وبعد فكيف يثبت لله تعالى صفة بقول عمر! قال القاضي (أبو يعلى): يشهد لحديث عمر قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْكَوَاكِبِ﴾ [البقرة: ٢١٠] ولم يدِرْ أن المعنى يأتيهم الله بظلل من الغمام.

الحديث التاسع والثلاثون: روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: سئل رسول الله ﷺ عن المقام المحمود، قال ﷺ: «وعدني ربي عز وجل بالقيوم على العرش».

هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ.

قال ابن حامد: يجب الإيمان بما ورد به من المماساة والقرب من الحق تعالى لنبيه ﷺ في إقاعده على العرش، قال: وقال ابن عمر: «وَأَنَّ لَهُ جَنَّتًا زَلَّتْهُ» [ص: ٢٥] قال: ذكر الدنو منه حتى يمس بعضه. وهذا كذب على ابن عمر، ومن ذكر تبعض الذات كفر بالإجماع.

الحديث الأربعون: روى الدارقطني من حديث أبي إسحاق عن عبد الله بن خليفة عن عمر رضي الله تعالى عنه أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: ادع الله تعالى أن يدخلني الجنة فعظم الرب عز وجل فقال ﷺ: «إن كرسيه وسع السماوات والأرض وأن له أطيافاً كأطياف الرجل الجديد إذا ركب من ثقله».

هذا حديث مختلف جداً وقد رواه أبو إسحاق عن ابن خليفة عن ابن عمر قال: إذا جلس تبارك وتعالى على الكرسي سمع له أطياف كأطياف الرجل، رواه ابن جرير أن عبد الله بن خليفة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن كرسيه وسع السماوات والأرض وأنه ليقعد عليه فما يفضل منه مقدار أربع أصابع ثم قال بأصبعه فجمعها وإن له لأطيافاً كأطياف الرجل إذا ركب من ثقله» هذا على ضد اللفظ الأول وكل ذلك من تخليط

الرواة وسوء الحفظ والأليق فما يفضل منه مقدار أربع أصابع والمعنى أنه قد ملأه بهيئته وعظمته، ويكون هذا ضرب مثل لقدر عظمة الخالق جلّ جلاله وقول الرواة: «إذا قعد» و«إذا جلس» من تغييرهم ومن تعبيرهم بما يظنونونه كما قال القائل «ثم استوى على العرش» قعد، وإنما قلنا هذا لأن الخالق تعالى لا يجوز أن يوصف بالجلوس فيفضل ذلك الشيء لأن هذه صفة الأجسام.

الحديث الحادي والأربعون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «يقول الله عز وجل يوم القيامة يا آدم فيقول لبيك وسعديك فينادي بصوت إن الله تعالى يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار». انفرد بلفظ الصوت حفص بن غياث وخالفه وكيع وجريز وغيرهما فلم يذكروا الصوت وسئل الإمام أحمد عن حفص قال: كان يخلط في حديثه. وفي الحديث الصحيح: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء كجر السلسلة على الصفا». وفي حديث ابن مسعود: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا» وليس في الصحيح «سمع صوته أهل السماء».

الحديث الثاني والأربعون: روى جابر عن النبي ﷺ أنه لما كلم الله موسى يوم الطور كلمه بغير الكلام الذي كلمه به يوم ناداه، فقال له: يا موسى إني كلمتك بقوة عشرة آلاف لسان ولي قوة الألسنة كلها وأنا أقوى من ذلك، فلما رجع إلى بني إسرائيل قالوا: صف لنا كلام الرحمن، قال: لا أستطيع، قالوا: قزب لنا، قال: ألم تروا صوت الصواعق التي تقبل بأحلى كلام سمعتموه.

هذا حديث لا يصح، يرويه علي بن عاصم عن الفضل بن عيسى قال النسائي: علي بن عاصم متروك الحديث، وقال يزيد بن هارون: ما زلنا نعرفه بالكذب.

الحديث الثالث والأربعون: روى القاضي (أبو يعلى) عن حسان بن عطية أنه قال: الساجد يسجد على قدم الرحمن. هذا قول تابعي وهو مثل للمقرب من فضل الله تعالى. وأثبت القاضي (أبو يعلى) بهذا وصف قدم وأنه يسجد على قدمه حقيقة لا على وجه المماثلة.

الحديث الرابع والأربعون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما، وليس بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

الرائي في جنة عدن لا المرئي لأنه لا تحيط به الأمكنة.

وقال القاضي (أبو يعلى): ظاهر الحديث أن المرئي في جنة عدن. وهذا التجسيم المحض. ورداء الكبرياء ما له من الكبرياء والعظمة، وكأنه إن منهم فلعلظته وإن شاء كشف لهم؛ وقد تكلمنا على الوجه في الآيات وقلنا المراد هو.

الحديث الخامس والأربعون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى الله تعالى الخلق كتب في كتابه فهو عنده^(١) فوق العرش إن رحمتي غلبت غضبي» وفي لفظ «سبقت».

قال القاضي (أبو يعلى) ظاهر قوله «عنده» القرب من الذات.

واعلم أن القرب من الحق تعالى لا يكون بمسافة، إنما ذلك من صفة الأجسام، وقد قال تعالى: ﴿مُسَوِّمَةً يَنْذِرُكَ﴾ (هود: ٨٣).

الحديث السادس والأربعون: روى عن بعض التابعين أنه قال: خلق الله آدم بيده، وكتب التوراة بيده، وغرس الفردوس بيده.

هذا لا يثبت عن قائله، وقد تكلمنا على قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَّصْتُ يَدَيَّ﴾ (ص: ٧٥).

الحديث السابع والأربعون: روى ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَبِيعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه قال: كرسيه موضع قدمه، والعرش لا يقدر قدره.

رواه جماعة من الأئمة فوقوه على ابن عباس، ورفعهم منهم شجاع بن مخلد^(٢). فعلم بمخالفته الكبار المتقنين أنه قد غلط. ومعنى الحديث أن الكرسي

(١) يقول العلامة العيني في شرح صحيح البخاري: والعندية ليست مكانية بل هو إشارة إلى كمال كونه مكتوناً عن الخلق مرفوعاً عن حيز إدراكهم (ز).

(٢) يقول الحافظ ابن حجر في (تقريب التهذيب): شجاع بن مخلد الفلاس أبو الفضل البغوي نزيل بغداد صدوق وهم في حديث واحد رفعه وهو موقوف فذكره بسبه العقبلي في الضعفاء (ز).

صغير بالإضافة إلى العرش كمقدار كرسي يكون عند سرير قد وضع لقدمي القاعد على السرير، قال الضحاك: الكرسي الذي تجعل عليه الملوك أقدامهم، وقال القاضي (أبو يعلى): القدم قدم الذات وهي التي يضعها في النار.

الحديث الثامن والأربعون: حديث العباس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه وأسفله كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك».

هذا الحديث لا يصح، تفرد به يحيى بن العلاء، قال الإمام أحمد: هو كذاب يضع الحديث.

وقد تكلما في الفوق في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]. قال القاضي (أبو يعلى): المراد من الفوقية استواء الذات على العرش. وهذا الكلام أصله التجسيم.

الحديث التاسع والأربعون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل».

وفي لفظ أخرجه مسلم «فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل». قال العلماء: هذا خطاب للناس بما يعلمونه ويفهمونه من الأخذ والتربية والنمو، ولما كان تناول باليد والقبض بالكف خاطبهم بما يعقلون، وإنما جرى ذكر اليمين لأنها مرصدة لما عز من الأمور؛ ومعنى التربية المضاعفة.

الحديث الخمسون: روى البخاري ومسلم في الصحيحين من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه ذكر الدجال فقال: «ألا إنه أعور، وإن ريكم بأعور»^(١).

(١) لفظ الحديث في صحيح البخاري «أن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينه وأن المسيح الدجال أعور عين اليمين» وقد قال الحافظ ابن حجر: إن الإشارة إلى عينه ﷺ إنما هي بالنسبة إلى عين الدجال فإنها كانت صحيحة مثل هله ثم طرأ عليها العور لزيادة كذبه في دعوى الإلهية =

قال العلماء: إنما أراد تحقيق وصفه بأنه لا يجوز عليه النقص، ولم يرد إثبات جارحة، لأنه لا مدح في إثبات جارحة، بل كأنه قال: إلا ريكم ليس بذئ جوارح يتسلط عليها النقص، وهذا مثل نفى الولد عنه لأنه يستحيل عليه التجزي. ولو كانت الإشارة إلى صورة كاملة لم يكن في ذلك دليل على الإلهية ولا القدم، فإن الكامل في الصورة كثير.

الحديث الحادي والخمسون: روى البخاري في أفرادهِ من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله تعالى قال: ما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببتُه كنت سمعهُ الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وما تروءون عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته».

قوله: «كنت سمعهُ وبصرهُ» مثل، وله أربعة أوجه:

أحدها: كنت سمعهُ وبصرهُ فهو يحب طاعتي كما يحب هذه الجوارح.

الثاني: أن كليته مشغولة بي فلا يصني إلي ما يرضيني ولا يبصر إلا عن أمري.

الثالث: أني أحصل له مقاصده كما ينالها بسمعهِ وبصرهِ ويده اللواتي تعينه، وأما التردد فخطاب لنا بما نعقل.

الحديث الثاني والخمسون: روى جبير بن مطعم قال: أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله جهدت الأنفس وجاع العيال وتهتك الأموال وهلك

= وهو أنه كان صحيح العين مثل هذه نظراً عليها النقص ولم يستطع دفع ذلك عن نفسه هـ. وقال الفخر الرازي في (أساس التقييد) عند الكلام على هذا الحديث: وأما هذا الخبر فمشكل لأن ظاهره يقتضي أن النبي ﷺ أظهر الفرق بين الإله تعالى وبين الدجال بكون الدجال أعور وكون الله تعالى ليس بأعور وذلك بعيد، وخبر الواحد إذا بلغ هذه الدرجة في ضعف المعنى وجب أن يعتقد أن الكلام كان مسبقاً بمقدمة لو ذكرت لزال هذا الإشكال، أليس راوي هذا الحديث هو ابن عمر ثم إن المشهور أن ابن عمر لما روى حديث «إن الميت ليعذب ببكاء أهله» طلعت عائشة رضي الله عنها فيه وذكرت أن هذا الكلام من الرسول كان مسبقاً بكلام آخر واحتجّت على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرَوْهُ وَرَأَوْهُ وَفَعَلُوا لِمِثْلِهِ﴾ [الأنعام: ١٦٤] لو حكى لزال هذا الإشكال فكذا هاجمته من البعيد صدور مثل هذا الكلام من الرسول اهـ.

الأنعام، فاستسقى الله لنا فاستشفع بالله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «ويحك تدري ما تقول» ويستبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجهه أصحابه ثم قال ﷺ: «إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك ويحك أتدري ما الله، إن عرشه على سمواته هكذا - وقال بأصابعه مثل القبة - وأنه لينط به أطيظ الرجل بالراكب».

ومعنى قوله: «أتدري ما الله» أي أتدري ما عظمة الله تعالى وجلاله ومعنى ينط به أي يعجز عن عظمته وجلاله إذ كان معلوماً أن أطيظ الرجل بالراكب إنما يكون لقوة ما فوقه وعجزه عن احتماله فقرب بهذا النوع من عنده معنى عظمة الله وجلاله ليعلم أن الموصوف بعلو الشأن لا يجعل شفيحاً إلى من هو دونه في القدر، وقد ذكرنا فيما تقدم عن القاضي (أبي يعلى): ينط من ثقل الذات، وهذا صريح التجسيم.



الحديث الثالث والخمسون: روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ نَبِيًّا بَيِّنًا﴾ [النساء: ٥٨] فوضع أصبع الدعاء وإبهامه على عينيه وأذنه.

قال العلماء: أراد بهذا تحقيق السمع والبصر منه فأشار إلى الجارحين اللتين هما السمع والبصر، لا أن الله سبحانه وتعالى جارحة.



الحديث الرابع والخمسون: روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله عز وجل ينزل في ثلاث ساعات بقين من الليل فيفتح الذكر في الساعة الأولى، فيمحو ما يشاء ويثبت، ثم ينزل في الساعة الثانية إلى جنة عدن وهي داره التي لم يسكنها غيره وهي مكنه ثم يقول طوبى لمن دخلك، ثم ينزل في الثالثة إلى سماء الدنيا بروحه وملأته فيقول بعزتي».

هذا الحديث يرويه زيادة بن محمد الأنصاري قال البخاري: وهو منكر الحديث وقال أبو حاتم بن حبان: يروي المتأخير عن المشاهير فاستحق الترك، ونقول: على تقدير الصحة إنها مضافة إليه كما أضيف البيت إليه فهذا بيته وذاك مكنه، وإنما قلت هذا لأن السكنى مستحيلة في حقه سبحانه وتعالى.



إلى خلقه إلا ولي معها وصل
فيا قاصدي الإنصاف لي ميزوا وأبلوا
تكر عليهم كلما طولت تحلو
وما جمعاً إلا لعبد له فضل
ولا خير في قول إذا ضيع الفعل
ويعد يقيني بالمقادير لا ذل
إلى مين مخلوق يماثله الجهل
عشت كما قد تعشق الأعين النجل
وما حبهم إلا لمن ما له شكل
أقر بفضلتي الدين والحزن والسهل
وفي المغرب الأقصى وما بلغت إبل

فما من علوم بثها الله في الوري
وصنفت ما قد صنف الناس جنسه
ولي من بديهات الكلام عجائب
وقد قادني علمي إلى الزهد في الدنا
نعم وثقة الله أشرف خلة
قنوعي بما يكفي يقيني من الأذى
وأحسن من علم ترامى بأهله
وأسكن قلبي حب كل محقق
وبغداد دار ليس يخبن أهلها
وكل البلاد أشحنتها فضائلها
وذكرى وراء النهر بالفضل وافر

* * *

طلبت الأسد في العوَاب وما أغلو
يزيد على كل المذاهب بل يعلو
بنقل صحيح والحديث هو الأصل
يقوم بأنباء وإن شأنه عضل

ولما نظرت في المذاهب كلها
فألفيت عند السير قول ابن حنبل
وكل الذي قد قاله فمشيد
وكان بنقل العلم أعرف من روى

* * *

ويتبع في التسليم من قد مضى قبل
فقام على رجل الثبات وهم زلوا
فكم أرشدوا نحو الهدى ولكم دلوا
بمذهب ما كل فرع له أصل
وعندهم عن فهم ما قاله شغل
فواعجباً والقوم كلهم عزل
وهم من علوم النقل أجمعها عطل
تشابهت الحيات وانقطع الحبل
لذي نقلوه في الصفات وهم غفل
فمال إلى تصديقهم من به جهل

ومذهبه أن لا يشبهه ربه
فقام له الحساد من كل جانب
وكان له أتباع صدق تتابعوا
وجاءك قوم يدعون تمذهباً
فلا في الفروع يشبتون لنصره
إذا ناظروا قاموا مقام مقاتل
قباسهم طرداً إذا صدروا به
إذا لم يكن في النقل صاحب فطنة
ومالوا إلى التشبيه أخذاً بصورة الـ
وقالوا الذي قلناه مذهب أحمد

وصار الأعادي قائلين لكننا
فقد فضحوا ذاك الإمام بجهلهم
لعمري لقد أدركت منهم مشايخاً
وما زلت أجدو عنهم كل خلة
تسموا بالقباب ولا علم عندهم
موائدهم لا يلحق الخل بقلها

* * *

وأكثر حساد لنا أهل مذهبي
تمنوا بجهل أن تزل بي النعل
ومنذ مضى شيخ الجماعة أحمد
لقد بات عندي ألف ألف يقوموا
وروضات علمي كلها تمرح الجنا
وكيف ترى تبرى الحسود وداؤه
تفرد بالبغض القبيح مخالف

فلو قدروا أفتوا بأن دمي حل
ولم تمس في مجد بمثلي لهم رجل
إلى الآن لم يوجد لعالمكم مثل
سحابة وعظي كلهم صيب وبل
ويستأنهم إذ ما تأملته أثل
إذا سنل الطب الخبير به يسلو
أليس اجتماع الناس لي شاهد عدل

تم كتاب دفع شبه التشبيه للإمام ابن الجوزي

جاء في آخر (مجلس في نفي التشبيه من أمالي الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي): أنشدنا أبو عبد الله محمد بن الحسن بن منصور المؤمل لنفسه:

الله أكبر أن يكون لذاته
أو أن تقاس صفاتنا في كلما
تبدأ لذي صفه يقول بأنه
لبديع صنعته عليه شواهد
ذرا الأنعام بقدرة أزلية
ورأى بعين العلم ما تأتي به

كيفية كذوات مخلوقاته
نبيده من أفعالنا بصفاته
جسم وأن سماتنا كسماته
تبدو على صفحات مصنوعاته
وأرادهم لتقديراته
لمحات أعينهم وما لم تأته

* * *

دَفْعُ رِشْبَةٍ مِّنْ رِّشْبَةٍ وَتَمَرُّدٍ
وَنَسَبَ ذَكَرُكَ إِلَى أَسَدِ الْجَلِيلِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ

لِلْإِمَامِ تَقِيِّ الدِّينِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدٍ الْحُصَيْنِيِّ
الْمُتَوَفَّى ٨٢٩ هـ

تَحْقِيقُهُ
الْإِمَامُ بَعْدُ لَيْلَةُ ابْنِ مُحَمَّدٍ زَاهِدِ بْنِ حَسَنَةَ بْنِ عَلِيٍّ الْكَوْثَرِيِّ
الْمُتَوَفَّى ١٣٧١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة

الإمام الحصري مؤلف هذا الكتاب

إنا إنما نذكر ترجمة هذا الإمام رضي الله عنه ليعرف القارئ من ترجمته مقدار كتابه هذا فإننا نرى أن الكتب أشبه بالأبناء فمن لا والد له من الأبناء ضائع لا قيمة له حتى في نظر نفسه ومن له والد حقير كان حقيراً كوالده ومن جلّ والده جلّ ويزداد عظماً كلما عظم والده هذا شيء لا نزاع فيه . وهكذا الكتب إذا رأى الناس كتاباً لا يعرف مؤلفه ارتفعت ثقتهم به وظنوا به الظنون وإذا عرف المؤلف نظروا إليه وبمقدار عظمتهم في نفوسهم علماً وعملاً تكون ثقتهم بكتابه واستغادتهم منه . وأعدل حكم على الرجل هو الذي يصدر عليه من معاصريه الناظرين إليه المحيطين علماً بكل أحواله مع ما في المعاصرة من منافسات ومنازعات وأحقاد يهيجها الحسد الذي يدفن الفضائل وينشر الرذائل فإذا صدر مع هذا حكم جليل من معاصر دُلّ ذلك على أن الحقيقة أرفع وأسمى . رفع سؤال إلى علماء عصره رضي الله عنه عن زيارة النبي ﷺ واسمع ما قاله عنه أحد معاصريه قال ما نصه : فأجاب شيخنا وسيدنا ومولانا العارف الورع العابد الزاهد المحقق المدقق شيخ الإسلام ومفتي الأنام وعلم الأعلام الرياني والصدر النوراني . منقح الألفاظ . ومحقق المعاني . بحر العلوم . والمبرز على ذوي الفهوم . داعي الخلق للحق . الناصح لكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم . بقية السلف . وزين الخلف . شافعي زمانه . وسيبويه أوانه . القطب الكبير . والغوث الشهير . والعلم المنير . والعلامة النحرير . والمجتهد الأخير . البحر الزاخر . والسيف الباتر . زبدة المتقدمين . وعمدة المتأخرين . ومفزع العباد . وحجة الله على العباد . وصمصامة أهل الزيف والفساد . رحلة وقته . ووحيد عصره . وفريد دهره . نسيج وحده . جامع أشتات العلوم والفضائل . القائم في نصرة الحق بالبراهين والدلائل . قدوة أهل الأصول والفروع . ونائر فرائد المنقول والمسموع . الحبيب النسيب . والمتصل في الدين بالمصطفى الحبيب . الشيخ تقي الدين أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حريز بن

سعيد بن داود بن قاسم بن علي بن ناسي بن جوهر بن علي بن أبي القاسم بن عبد الله بن عمر بن موسى بن يحيى علي الأصغر بن محمد التقى بن حسن العسكري بن علي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب الحسيني الشافعي الأشعري الحصري قدس الله روحه. ونور ضريحه. وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحة. وضاعف له جزيل هباته. وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركاته. ونفطنا بعلومه الجمّة وفوائده. كما حلّى أجياد الدهر بقلاد فرائده. آمين. بجاء سيد الأولين والآخرين. اه من الفتاوى السهمية في ابن تيمية. بمجموعة ٣٣ دولار ١٥ من مكتبة صاحب الفضيلة أستاذنا الشيخ محمد بخيت المطيعي حفظه الله وهو وصف لم يدع قولاً لقائل في هذا الإمام الهمام رضي الله عنه ورضي عنا به: ولد رضي الله عنه بدمشق سنة اثنتين وخمسين ومبعمائة من الهجرة الشريفة وبها أخذ العلم عن أئمة عصره وأخذ عنه أئمة وكان من الزهد في الدنيا بدرجة لا تقل عن درجات سلف الأمة الصالحين وكان لتقواه وخشيته لربه وقوراً مهيباً حتى عند الأكابر من ولاة الأمور وكان إذا رأى ما لا يرضاه ربه صدع بالحق لا يخاف في الله لومة لائم - لم يقتصر في بث علومه على ما كان يلقيه من جواهر المعارف والآداب في دروسه حال حياته بل ألف من الكتب الجليلة الكثيرة ما يجمل نفعه العلمي خالداً: فمن مؤلفاته شرح صحيح مسلم في ثلاثة مجلدات، وشرح التتية لأبي إسحاق الشيرازي في الفقه الشافعي في خمسة مجلدات نافع جداً، وشرح منهاج النووي في خمسة مجلدات كذلك، وتفسير آيات متفرقات في مجلد، وقواعد الفقه على المذهب الشافعي في مجلدين، وتلخيص مهمات السنوي في مجلدين، وتنبه السالك على مضار المسالك في ستة مجلدات، وأسنى المسالك لسير السالك في مجلد، وقمع النفوس في مجلد، وشرح أسماء الله الحسنى في مجلد، وشرح الأربعين النووية في مجلد، وسير نساء السلف العابادات في مجلد، وتلخيص تخريج أحاديث الأحياء في مجلد، وأحوال القبور في مجلد، وتآديب القوم في مجلد، وشرح الهداية في أوهام الكفاية في مجلد، وشرح مختصر أبي شجاع في مجلد. قال السخاوي: حسن للغاية وقد طبع في العام الماضي فكاد يطرب الشافعية فرحاً طلبة وعلماء، وتقرر رسمياً أن يقرأ بالأزهر لجلالته، ودفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد وهو هذا الكتاب الذي يجل عن نظير في موضوعه كيف لا وقد أني على بناء مخالفه من أساسه. مات رحمة الله عليه ليلة الأربعاء منتصف شهر جمادى الثانية سنة تسع وعشرين وثمانمائة وحملت

جنازته على أعناق الأفاضل وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً لم يتخلف عنه أحد من أهل دمشق حتى الحنابلة الذين كانت له عليهم حملات ثم حملات. ومع كونه وصى أن يخرج بجنازته بغلس ذهب من غفل عن جنازته من الناس إلى قبره وصلوا عليه غير مرة ودُفن عند والده وأقاربه بالجهة الجنوبية للجامع الأموي سقى الله روضة ضمته غيوث فضله وإحسانه وكرمه ورضوانه. وقد عني بترجمته كثير منهم المقرئ في العقود وابن خطيب الناصرية في تاريخ حلب وابن حجر في أنباء الغمر، والتقي ابن قاضي شهبة في طبقات الشافعية والرضي القرني في بهجة الناظرين والسخاوي في الضوء اللامع وغيرهم فمن أراد أن يعرف من هو الإمام التقي الحصري علماً وعملاً فليرجع إلى تلك التراجم رضي الله عنه وعن جميع العلماء العاملين خصوصاً من أسهروا عيونهم وأتعبوا أبدانهم ووقفوا أفكارهم على نصر دين ربهم والدود عن حياضه: إن أحبوا فلله وإن أبغضوا فلله جعلنا الله من محبيهم السالكين سيولهم اللهم آمين اللهم آمين.

قال حضرة صاحب الفضيلة العلامة صاحب النسخة الفرعية ما نصه:

سبب تأليف هذا الكتاب

قال العلامة التقي محب السنة والذاب عنها بكل ما استطاع في هذا العصر الشيخ محمد زاهر الكوثري: في ظهر الأصل المقابل به بخط الحافظ محمد بن طولون.

فائدة: سبب تكلم المؤلف رحمه الله تعالى في ابن تيمية وأتباعه ما نقل له عن الشيخ العلامة ناصر الدين التكنزي أنه اجتمع ببعض من يتسب للحنابلة قال: فرايته يقول بمسألة التناسخ ولا يقطع لأطفال المسلمين بالجنة وسمع منه هذا القول شخص آخر ونقل للشيخ المؤلف أيضاً أن شخصاً قال عند هذا المبتدع المشار إليه: يا جاه محمد، فقال: لا تقل يا جاه محمد، وكذا نقل له عن شخص آخر قال ذلك عنده فقال: لا تقل يا جاه محمد فإنه قد بقي قفة عظام نعوذ بالله العظيم من هذه الزلة الجسيمة وسمع هذا الكلام أيضاً ابن أخي الشيخ المؤلف فاجتمع مع عمه فتذاكرا ما وقع فيه الجاهل المشار إليه ثم قال: يا عم لو تكلمت في ذلك فقال: أنا مشغول بنفسي فقال: ما يخلصك هذا عند الله عز وجل كيف يتعرض هذا الجاهل للرسول ﷺ وحط مرتبته ومراتب النبيين ويتكلم في الله بما لا يليق بجلاله وغير ذلك مما هو زندقة لا يخلصك هذا عند الله مع تمكنك من ردع هذا الزائف عن تنزيه الله وتعظيم

رسوله عليه الصلاة والسلام فقال المؤلف رحمه الله تعالى: اتّوني بشيء من كلام هذا الرجل انظر فيه فإذا تكلمت تكلمت على بصيرة، فأتى بأشياء من كلامه فلما رأى كلامه تكلم بما تكلم رحمه الله: قال شيخنا النعمي ومن خطه نقلت: نقلتها من خط شيخنا شهاب الدين بن قرا تلميذ المؤلف ملخصاً^(١) لها. انتهى ما وجدته بخط ابن طولون في ظهر الأصل المذكور. وترجمة المصنف مبسطة في كتاب الضوء اللامع في القرن التاسع للمحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي وفي طبقات الشافعية للثقي ابن قاضي شعبة وفي طبقات الرضى الغزي العامري وله مؤلفات ممتعة كشرحه على صحيح مسلم في ثلاث مجلدات وشرحه على التنبية في خمس مجلدات وشرحه على المنهاج كذلك وطبع حديثاً شرحه على مختصر أبي شجاع في مجلدين وكان من مفاخر الشافعية في عصره زهداً وعلماً وسيرة وسنتوفي ترجمته إن شاء الله تعالى عند قيامنا بشرحه.

(١) فابن طولون هذا حافظ جليل له من المؤلفات ما يقرب من ستمائة مؤلف وتوفي سنة ٩٥٣ سنة تسعمائة وثلاث وخمسين وشيخه عبد القادر النعمي له مؤلفات جلييلة وقد ترجم في الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة. وابن قرا هو الشهاب الخوارزمي المحدث مترجم في الضوء اللامع، قاله صاحب الأصل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيد الأولين والآخرين، وأكرم السابقين واللاحقين، وسلّم ومجد وكرم، سبحانه من بيده الضر والنفع، والوصل والقطع، والفرقة والجمع، والعطاء والمنع، وفق من أحب لتزييه فحمى موضع نظره منه وكذا السمع، وخذل من أبغض فجري لشقاوته على ما اعتاده وألفه من رديء الطبع، فهب على الأول نسيم إسعاده وعلى الثاني ريح إبعاده، لصدع قلبه بنمويه العدو فيا له من صدع، تقدس وتمجد بعز كبريائه وجلاله، وتفرد بأوصاف عظمته وكماله، كما عمّ بجوده وإفضاله ونواله، تقدّس وتبارك عن مشابهة العبيد، وتنزه عن صفات الحدوث.

فمن شبه فقد شابه السامرة وأبا جهل والوليد، ومن عطل ما ثبت له من صفاته بالأدلة القاطعة فهو عن الحق مائل ومجيد^(١)، وكلا القسمين سفيه وشقي وغير رشيد، ومن ورائهما عذاب شديد.

ونال خلع الرضوان في دار الأمان من نزه مع تزايد الكرامات ولديه مزيد.

فستان بين من هو رافع في رياض السلامة ونزل الكرامة في دار المقامة، وبين المطرود المبعود^(٢) وقد حق عليه الوعيد.

وبعد، فإن سبب رضي لهذه الأحرف اليسيرة ما دهمني من الحيرة من أقوام أخبات السريرة، يظهرون الانتماء إلى مذهب السيد الجليل الإمام أحمد، وهم على خلاف ذلك والفرد الصمد. والمعجب أنهم يعظمونه في الملأ ويتكاثمون إضلاله مع بقية الأئمة وهم أكثر ممن ترمد وجحد، ويضلون عقول العوام وضعفاء الطلبة بالتمويه الشيطاني وإظهار التعبد والتقشف وقراءة الأحاديث ويعتنون بالمسند، كل ذلك

(١) كان ينبغي أن يقول حائد: ولعله اختار ذلك مراعاة للسجع، اه مصححه.

(٢) اسم المفعول مبعّد فيقال فيه كما قيل فيما قبله، اه مصححه.

خزعبلات منهم وتمويه وقد انكشف أمرهم حتى لبعض العوام وبهذه الأحرف يظهر الأمر إن شاء الله تعالى لكل أحد إلا لمن أراد عز وجل إضلاله وإبقائه في العذاب السرم. ومن قال بنفي ذلك أي بنفي خلود العذاب وسرمدية وهو ابن تيمية وأتباعه فقد تجرأ على كلام الغفور. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْلَا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾ [فاطر: ٣٦] وعليه العليم الحكيم في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوا مِنَّا النَّارَ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧] والآيات في ذلك كثيرة عموماً وخصوصاً ومنها قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] والغرام المستمر الذي لا ينقطع فلو انقطع قدر نفس لا يسمى غراماً.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿رَبِّانَا وَرَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] قال الإمام أحمد معناه جاء أمر ربك.

قال القاضي أبو يعلى: قال الإمام أحمد: المراد به قدرته وأمره وقد بينه في قوله تعالى: ﴿أَوَ يَأْتِيُكَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ [التحل: ٣٣] يشير إلى حمل المطلق على المقيد وهو كثير في القرآن والسنة والإجماع وفي كلام علماء الأمة لأنه لا يجوز عليه الانتقال سبحانه وتعالى.

ومثله حديث النزول وممن صرح بذلك الإمام الأوزاعي والإمام مالك لأن الانتقال والحركة من صفات الحدث والله عز وجل قد نزه نفسه عن ذلك ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَسْتَوِي عَلَى السَّعِيرِ﴾ [الأعراف: ٥٤] فإذا سأل العامي عن ذلك فيقال له الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وستوضح ذلك إن شاء الله تعالى وإنما أجاب الإمام ربعة بذلك وتبعه تلميذه مالك لأن الاستواء الذي يفهمه العوام من صفات الحدث وهو سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فمتى وقع التشبيه ولو بزنة ذرة جاء الكفر بالقرآن.

قال الأئمة: وإنما قيل السؤال بدعة لأن كثيراً ممن ينسب إلى الفقه والعلم لا يدركون الغوامض في غير المتشابه فكيف بالمتشابهة فأيات المتشابهة وأحاديثه لا يعلمها إلا الله سبحانه والقرآن والسنة طافحان بتنزيهه عز وجل ومن أسمائه القدوس وفي ذلك المبالغة في التنزيه ونفي خيال التشبيه وكذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] إلخ، لما فيها من نفي الجنسية والبعضية وغير ذلك مما فيه مبالغة في

تنزيهه سبحانه وتعالى وكان الإمام أحمد رضي الله عنه يقول: أمروا الأحاديث كما جاءت وعلى ما قال جرى كبار أصحابه كإبراهيم الحربي وأبي داود والأثرم ومن كبار أتباعه أبو الحسين المناذري وكان من المحققين وكذلك أبو الحسن التميمي وأبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب وغيرهم من أساطين الأئمة في مذهب الإمام أحمد وجرروا على ما قاله في حالة العافية وفي حالة الابتلاء فقال تحت السباط فكيف أقول ما لم يقل وقال في آية الاستواء هو كما أراد فمن قال عنه إنه قال في الاستواء إنه من صفات الذات أو صفات الفعل أو أنه قال إن ظاهره مراد فقد افترى عليه وحسبه الله تعالى فيما نسب إليه مما فيه إلحاقه عز وجل بخلقه الذي هو كفر صراح لمخالفته كلامه فيما نزه نفسه به سبحانه وتعالى عما يقولون.

ومنه ابن حامد والقاضي تلميذه وابن الزاغوني وهؤلاء ممن ينتمي إلى الإمام ويتبعهم على ذلك الجهلة بالإمام أحمد وبما هو معتمده مما ذكرت بعضه وبالفوا في الافتراء إما لجهلهم وإما لضغينة في قلوبهم كالمغيرة بن سعيد وأبي محمد الكرامي لأنهم أفرأخ السامرة في التشبيه ويهود في التجسيم وحرف المغيرة ومعه خمسة من أتباعه كما أذكره من بعد.

قال ابن حامد في قوله تعالى: ﴿رَبِّكَ وَتَجَهَّ رَيْكَ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٢٧] وفي قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الْقَصَصُ: ٨٨] ثبت لله وجهاً ولا ثبت له رأساً.

وقال غيره: يموت إلا وجهه، وذكروا أشياء يقشعر الجسد من ذكر بعضها.

قال أبو الفرج بن الجوزي: رأيت من تكلم من أصحابنا في الأصول بما لا يصلح وانتدب للتصنيف وهم ثلاثة: ابن حامد وصاحبه القاضي وابن الزاغوني صفوا كتباً شأنوا بها المذهب وقد رأيتهم نزلوا إلى مرتبة فحملوا الصفات على مقتضى الحس فسمعوا أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم على صورته فأنبتوا له صورة ووجهاً زائداً على الذات وعينين وفماً ولهوات وأضراساً ويدين وأصابع وكفاً وخنصراً وإبهاماً وصدراً وفخذاً وساقين ورجلين وقالوا: ما سمعنا بذكر الرأس وقالوا: يجوز أن يمس ويمس ويدني العبد من ذاته. وقال بعضهم ويتنفس ثم إنهم يرضون العوام بقولهم لا كما يعقل وقد أخذوا بالظواهر في الأسماء والإضافات فسموا الصفات تسمية مبتدعة لا دليل لهم في ذلك من النقل ولا من العقل ولم يلتفتوا إلى النصوص الصارقة عن الظواهر إلى المعاني الواجبة لله سبحانه وتعالى ولا إلى إلغاء ما ترجبه الظواهر من سمات الحدث ولم يقتنعوا أن يقولوا صفة فعل حتى قالوا صفة ذات ثم لما أثبتوا أنها

صفات قالوا لا نحملها على ما توجه اللغة مثل اليد على النعمة أو القدرة ولا المجيء على معنى البر واللفظ ولا الساق على الشدة ونحو ذلك بل قالوا نحملها على ظواهرها المتعارفة والظاهر هو الممهود من نعوت الأدمين والشيء إنما يحمل على حقيقته إذا أمكن فإن صرف صارف حمل على المجاز وهم يتخرجون من التشبيه ويأنفون من إضافته إليهم ويقولون نحن أهل السنة وكلامهم صريح في التشبيه تبعهم خلق من العوام على ذلك لجهلهم ونقص عقولهم وكفروا تقليداً وقد نصحت للتابع والمتبوع ثم أقول لهم على وجه التوبيخ: يا أصحابنا أنتم أصحاب نقل وأتباع وإمامكم الأكبر أحمد بن حنبل يقول: (أقول ما لم يقل) هل بلغكم أنه قال إن الاستواء من صفة الذات المقدسة أو صفة الفعل فمن أين أقدمتم على هذه الأشياء وهذا كله ابتداع فبيح بمن ينكر البدعة ثم قلت إن الأحاديث تحمل على ظواهرها. وظاهر القدم الجارحة وإنما يقال تمر كما جاءت ولا تقاس بشيء فمن قال استوى بذاته فقد أجراه مجرى الحيات وذلك عين التشبيه فاصرفوا بالعقول الصحيحة عنه سبحانه ما لا يليق به من تشبيه أو تجسيم وأمروا الأحاديث كما جاءت من غير زيادة ولا نقص فلو أنكم قلتم نقرأ الأحاديث ونسكت لما أنكر عليكم أحد ولا تدخلوا في مذهب هذا الرجل الصالح السلفي - أعني الإمام أحمد - ما ليس منه فلقد كسوتهم هذا المذهب شيئاً قبيحاً حتى لا يقال عن حنبلي إلا مجسم ثم زينتم مذهبكم بالمعصية ليزيد وقد علمتم أن صاحب المذهب أجاز لعته وقد كان أبو محمد التميمي يقول في بعض أئمتكم: لقد شان المذهب شيئاً قبيحاً لا يغسل إلى يوم القيامة.

فالحاصل من كلام ابن حامد والقاضي وابن الزاغوني من التشبيه والصفات التي لا تليق بجناب الحق سبحانه وتعالى هي نزعة سامرية في التجسيم ونزعة يهودية في التشبيه وكذا نزعة نصرانية فإنه لما قيل عن عيسى عليه السلام أنه روح الله سبحانه وتعالى اعتقدت النصراني أن الله صفة هي روح ولجت في مريم عليها السلام وهؤلاء وقع لهم الغلط من سوء فهمهم وماذا إلا أنهم سمو الأخبار أخبار صفات وإنما هي إضافات وليس كل مضاف صفة فإنه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَنَقَّحْتُ يُوْهَنَ رُؤْيَى﴾ [البجر: ٢٩] وليس لله صفة تسمى روحاً فقد ابتدع من سمى المضاف صفة ونادى على نفسه بالجهل وسوء الفهم ثم إنهم في مواضع يؤولون بالتشبيهي وفي مواضع أغراضهم الفاسدة يجرون الأحاديث على مقتضى العرف والحس ويقولون ينزل بذاته وينتقل ويتحرك ويجلس على العرش بذاته ثم يقولون لا كما يعقل يغالطون بذلك من يسمع من عامي وسيء الفهم وذلك عين التناقض ومكابرة في الحس والعقل لأنه

كلام متهاافت يدفع آخره أوله وأوله آخره، وفي كلامهم (تنزهه غير أننا لا ننفي عنه حقيقة النزول) وهذا كلام من لا يعقل ما يقول ومثل قول بعضهم المفهوم من قوله: «هو الله الحي القيوم» في حقه هو المفهوم في حقنا إلا أنه ليس كمثله شيء فانظر أرشدك الله كيف حكم بالتشبيه المساوي ثم عقبه بهذا التناقض الصريح وهذا لا يرضى أن يقوله من له أدنى روية ولهم من مثل هذه التناقضات ما لا يحصى ومن التناقض الواضح في دعواهم في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾ [طه: ٥] أنه مستقر على العرش مع قولهم في قوله تعالى: ﴿هَإِيْنُكُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ﴾ [المُلْك: ١٦] أن من قال إنه ليس في السماء فهو كافر ومن المحال أن يكون الشيء الواحد في حيزين في آن واحد وفي زمن واحد ومن المعلوم أن في للظرفية ويلزم أنه سبحانه وتعالى مطروف تعالى عن ذلك.

وفي البخاري من حديث أنس أنه عليه الصلاة والسلام رأى نخامة في القبلة فشق ذلك عليه حتى رمي في وجهه فقام فحكها بيده فقال: «إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إن ربه بينه وبين القبلة» وفيه من حديث ابن عمر رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام رأى نخامة في جدار القبلة فحكها ثم أقبل على الناس فقال: «إذا كان أحدكم يصلي فلا يبصق قبل وجهه فإن الله قبل وجهه إذا صلى».

وفي صحيح مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام رأى نخامة في القبلة فقال: «ما بال أحدكم يستقبل ربه فيتنخع أمامه أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه».

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم» وفي رواية «والذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» وفي الصحيح «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني» وحديث المريض «أما لو عدته لوجدتني عنده».

وقال تعالى: ﴿وَنَدَّيْنَهُ بَيْنَ جَانِبَيِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢] وقال تعالى: ﴿فَوَدَّكَ مِنْ شِطْطِي الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَتَمَوَّعَ إِذْ أَنْتَ أَنتَ اللَّهُ رَبُّ السَّمَكِينَ ۝﴾ [الفصص: ٣٠] وقال تعالى: ﴿فَلَايْنَمَا تَوَلَّوْا فَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥].

وفي الترمذي في حديث العنان وفيه ذكر الأرضين السبع وأن بين كل أرض والأخرى كما بين السماء والأرض، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لو دلي أحدكم بحبل لوقع على الله سبحانه وتعالى» ومثل هذه الأدلة كثير وكلها قاضية بالكون السفلي دون العلوي.

واعلم أن الاستواء في الغلة على وجوه وأصله افتعال من السواء ومعناه أي السواء العدل والوسط وله وجوه في الاستعمال منها الاعتدال. قال بعض بني تميم: استوى ظالم المشيرة والمظلوم، أي اعتدلا، ومنها إتمام الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [الفصص: ١٤] ومنها القصد إلى الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩] أي قصد خلقها، ومنها الاستيلاء على الشيء، ومنه قول الشاعر:

ثم استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق
وقال آخر:

إذا ما غزا قوماً أباح حريمهم وأضحى على ما ملكوه قد استوى

ومنها بمعنى استقر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاسْتَوَى عَلَى الْبُورِ﴾ [هود: ٤٤] وهذه صفة المخلوق الحادث كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْفَمِ مَا تَرْجُونَ﴾ [٧] لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ [الزخرف: ١٢، ١٣] وهو نزه نفسه سبحانه عن ذلك في كتابه العزيز في غير ما موضع.

وقطع المادة في ذلك أن المسألة علمية وكفى الله المؤمنين القتال والجدال.

قال أبو الفرج بن الجوزي: وجميع السلف على إمرار هذه الآية كما جاءت من غير تفسير ولا تأويل.

قال عبد الله بن وهب: كنا عند مالك بن أنس ودخل رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْفَرَسِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كيف استواؤه؟ فأطرق مالك وأخذته الرخصاء ثم رفع رأسه فقال: ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْفَرَسِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كما وصف نفسه ولا يقال له كيف وكيف عنه مرفوع. وأنت رجل سوء صاحب بدعة أخرجه. فأخرج.

كان ابن حامد يقول: المراد بالاستواء القعود. وزاد بعضهم: استوى على العرش بذاته فزاد هذه الزيادة وهي جرأة على الله بما لم يقل.

قال أبو الفرج: وقد ذهب طائفة من أصحابنا إلى أن الله عز وجل على عرشه ما ملأه وأنه يقعد بنيه معه العرش، ثم قال: والعجب من قول هذا ما نحن مجسمة وهو تشبيه محض تعالى الله عز وجل عن المحل والحيز لاستغنائهما عنهما ولأن ذلك مستحيل في حقه عز وجل ولأن المحل والحيز من لوازم الأجرام ولا نزاع في ذلك وهو سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك لأن الأجرام من صفات الحدث وهو عز وجل منزّه عن ذلك شرعاً وعقلاً بل هو أزلي لم يسبق بعدم بخلاف الحادث.

ومن المعلوم أن الاستواء إذا كان بمعنى الاستقرار والقعود لا بد فيه من المماسّة. والمماسّة إنما تقع بين جسمين أو جرمين والقائل بهذا شبه وجسم وما أبقي في التجسيم والتشبيه بقية كما أبطل دلالة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ومن المعلوم في قوله تعالى: ﴿لَتَلْسَنُوا عَلَى ظُهورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣] أنه الاستقرار على الأنعام والسفن وذلك من صفات الآدميين فمن جعل الاستواء على العرش بمعنى الاستقرار والتمكّن فقد ساوى بينه عز وجل وبين خلقه وذلك من الأمور الواضحة التي لا يقف في تصورها بلبّد فضلاً عن هو حسن التصوّر جيد الفهم والذوق وحينئذ فلا يقف في تكذيبه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وذلك كفر محقق.

ثم من المعلوم أن الاستواء من الألفاظ الموضوعيّة بالاشتراك وهو من قبيل المجهل فدعواه أنه بمعنى الاستقرار في غاية الجهل لجعله المشترك دليلاً على أحد أقسامه خاصّة فالحمار مع بلادته لا يرضى لنفسه أن يكون ضحكة لجعله القسم قسيماً فمن تأمل هؤلاء الحمقى وجدّهم على جهل مركب يحتجون بالأدلة المجهلة التي لا دليل فيها قطعاً عند أهل العلم ويتركون الأدلة التي ظاهرها في غاية الظهور في الدليل على خلاف دعواهم بل بعضها نصوص كما قدمته في حديث النخامة وغيرها فتنبه لذلك لتبقى على بصيرة من جهل أولئك.

ومن المعلوم أنه عز وجل واجب الوجود كان ولا زمان ولا مكان وهما أعني الزمان والمكان مخلوقان وبالضرورة أن من هو في مكان فهو مقهور محاط به ويكون مقدراً ومحدوداً وهو سبحانه وتعالى منزّه عن التقدير والتحديد وعن أن يحويه شيء أو يحدث له صفة تعالى الله عما يصفون وعما يقولون علواً كبيراً.

فإن قيل ففي الصحيحين من حديث شريك بن أبي نمر عن أنس رضي الله عنه أنه ذكر المعراج وفيه «فعلا بي الجبار تعالى فقال وهو في مكانه يا رب خفف عنا» . الحديث، فالجواب أن الحافظ أبا سليمان الخطابي قال: إن هذه لفظة تفرد بها شريك

ولم يذكرها غيره وهو كثير التفرد بمناكير الألفاظ والمكان لا يضاف إلى الله سبحانه وتعالى إنما هو مكان النبي ﷺ ومقامه الأول الذي أُقِيمَ فيه.

وفي الحديث «فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي وَهُوَ فِي دَارِهِ» يَوْمَهُمْ مَكَاناً وَإِنَّمَا الْمَعْنَى فِي دَارِهِ الَّتِي دَوَّرَهَا لِأَوَّلِيَّائِهِ. وقد قال القاضي أَبُو يَعْلَى فِي كِتَابِهِ (الْمُعْتَمَدُ) أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَتَقَدَّسَ لَا يَوْصَفُ بِمَكَانٍ فَإِنْ قِيلَ يَلْزَمُ مِنْ كَلَامِكُمْ نَفْيُ الْجِهَاتِ وَنَفْيُهَا يَحِيلُ وَجُودُهُ فَالْجَوَابُ أَنَّ هَذَا السُّؤَالَ سَاقِطٌ فِيهِ تَمْوِيهِ عَلَى الْأَغْيَاءِ يَجْرُونَ الْجِهَاتِ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالْأَدَمِيِّينَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ ذَلِكَ. وَأَيْضاً إِنْ كَانَ الْمَوْجُودُ يَقْبَلُ الْإِتِّصَالَ وَالْإِنْفِصَالَ فَمُسْلَمٌ فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَقْبَلْهُمَا فَلَيْسَ خَلْوُهُ مِنْ طَرَفِي التَّقْيِضِ بِمَحَالٍّ وَيُوضَحُ هَذَا أَنَّكَ لَوْ قُلْتَ كُلُّ مَوْجُودٍ لَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ عَالِماً أَوْ جَاهِلاً قُلْنَا إِنْ كَانَ ذَلِكَ الْمَوْجُودُ يَقْبَلُ الضَّدِّيَّينَ فَنَعَمْ فَأَمَّا إِذَا لَمْ يَقْبَلْهُمَا كَالْحَائِطِ مَثَلاً فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ الْعِلْمَ وَلَا الْجَهْلَ وَنَحْنُ نَنْزُهُ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَمَا نَنْزُهُ نَفْسَهُ عَنْ كُلِّ مَا يَدُلُّ عَلَى الْحَدَثِ وَمَا لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا يَتَصَوَّرُهُ وَهُمْ لَا يَتَخِيلُهُ خِيَالاً وَالتَّصَوُّرُ وَالْخِيَالُ إِنَّمَا هُمَا مِنْ نَتَائِجِ الْمَحْسُوسَاتِ وَالْمَخْلُوقَاتِ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ، وَمِنْ هُنَا وَقَعَ الْغَلَطُ وَاسْتَدْرَاجُ الْعَدُوِّ فَأَهْلَكَ خَلْقاً وَقَدْ تَنَبَّهَ خَلْقٌ لِهَذِهِ الْغَائِلَةِ فَسَلَّمُوا وَصَرَفُوا عَنْهُ عَقُولَهُمْ إِلَى تَنْزِيهِهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَسَلَّمُوا.

وَمِنْ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يَحْتَجُونَ بِهَا حَدِيثَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَائِشٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ لِي: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى يَا مُحَمَّدُ؟ قُلْتَ أَنْتَ أَعْلَمُ يَا رَبِّ، فَوَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفِي فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيِي فَعَلِمْتُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» وَهَذَا الْحَدِيثُ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِيهِ أَنَّ طَرَفَهُ مُضْطَرِبَةٌ، وَقَالَ الدَّارِقُطَنِيُّ كُلُّ أَسَانِيدِهِ مُضْطَرِبَةٌ لَيْسَ فِيهَا صَحِيحٌ، وَقَالَ الْبَيْهَقِيُّ رَوَى مِنْ أَوْجِهٍ كُلِّهَا ضَعِيفَةٌ وَأَحْسَنُ طَرَفُهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي النَّوْمِ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ رَوَى مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: «أَتَانِي آتٌ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي، فَوَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفِي فَوَجَدْتُ بَرْدَهَا بَيْنَ ثَدْيِي فَعَرَفْتُ كُلَّ شَيْءٍ يَسْأَلُنِي عَنْهُ» وَرَوَى مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ فَقَالَ: «إِنْ رَبِّي أَتَانِي اللَّيْلَةَ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَعْلَمُ يَا رَبِّ، فَوَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفِي حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنْفَامِهِ فِي صَدْرِي فَتَجَلَّى لِي مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» وَرَوَى مِنْ وَجْهِ كَثِيرَةٍ فَهِيَ أَحَادِيثُ مُخْتَلِفَةٌ وَلَيْسَ فِيهَا مَا يَثْبِتُ مَعَ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ لَمْ يَسْمَعْهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَى وَجْهِ التَّنَزُّلِ فَالْمَعْنَى رَاجِعٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

فالمعنى رأيت على أحسن صفاته أي من الإقبال والرضا ونحو ذلك. لأن الصورة يعبر بها ويراد الصفة كما في حديث خلق الله آدم على صورته نقول: هذه صورة هذا الأمر أي صفته فيكون المعنى خلق الله آدم على صفته من الحياة والعلم والقدرة والسمع والبصرة والإرادة مع أن هذا الحديث فيه علل منها أن الثوري والأعمش كان يدلّس ولم يذكر أنه سمع الحديث من حبيب بن أبي ثابت ومنها أن حبيباً كان يدلّس ولم يعلم أنه سمعه من عطاء وهذا كله يوجب وهناً في الحديث ومع ذلك فالضمير يصح عوده إلى آدم عليه السلام فالمعنى أن الله عز وجل خلق آدم على صورته التي خلقه عليها تماماً لم ينقله من نطفة إلى علقه كبني.

قال الإمام أبو سليمان الخطابي: وذكره تغلب في أماليه وقيل إن الضمير يعود إلى بعض بني آدم وخلق من العلماء سكتوا عن تفسير هذا الحديث فالمشبه لا متمسك له بهذه الأحاديث لما ذكرناه وتمسكه بها يدل على جهله وزندقته عافانا الله عز وجل من ذلك.

ومن ذلك حديث القدم «لا تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه» الحديث، وهذا يرجع إلى المحكم، قال الله تعالى: ﴿وَيَقِيرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: ٢٢].

وقال الحسن البصري: القدم في الحديث هم الذين قدمهم الله من شرار خلقه وأثبتهم لها. وقال البيهقي عن النضر بن شميل: القدم هنا الكفار الذين سبق في علم الله أنهم من أهل النار. وقال الأهرلي: القدم الذين تقدم القول بنخليدهم في النار. وقال ابن الأعرابي: القدم المتقدم وكل قادم عليها يسمى قدماً والقدم جمع قادم كما يقال عيب وعائب. وروى الدارقطني حتى يضع قدمه أو رجله وفي هذه دلالة على تغيير الرواية بالظن مع أن الرجل في اللغة هي الجماعة ألا تراهم يقولون رجل من جرّاد فيكون المعنى يدخلها جماعة يشبهون الجرّاد في الكثرة.

قال ابن عقيل: تعالى الله أن يكون له صفة تشغل الأمكنة وهذا عين التجسيم وليس الحق بلذي أجزاء وأبعاد فما أسخف هذا الاعتقاد وأبعده عن المكون تعالى الله عن تخاليل الجسمية، وذكر كلاماً مطولاً بالغاً في التنزيه وتعظيم الله تعالى.

وقد تمسك بهذا الحديث ابن حامد المشبه فأثبت لله سبحانه وتعالى صفات، وزاد فروى من حديث ابن عباس رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لما أسري بي رأيت الرحمن على صورة شاب أمرد نور يتلألأ وقد نهيت عن صفته لكم فسألت ربي

أن يكرمني برؤيته فإذا كأنه عروس حين كشف عنه حجابيه مستو على عرشه، وهذا من وضعه وافترائه وجرأته على الله عز وجل وعلى رسوله ﷺ، ومن أعظم فرية ممن شبه الله عز وجل بأمرد وعروس، وكان بعض أئمة الحنابلة يتوجه ويقول: ليت ابن حامد هذا ومن ضاهاه لم ينسبوا إلى أنهم من أتباع الإمام أحمد فقد أدخلوا بأقوالهم المفتراة الشين على المذهب والتعرض إلى الإمام أحمد بالتشبيه والتجسيم وحاشاه من ذلك بل هو من أعظم المنزهة لله عز وجل وقد خاب من افترى.

وقال بعض أئمة الحنابلة المتزهين: من أثبت لله تعالى هذه الصفات بالمعنى المحسوس فما عنده من الإسلام خير تقدس الله عز وجل عما يقولون علواً كبيراً، وخوضهم في ذلك كلام من لا يعرف الله عز وجل وكذا خوضهم في الأحاديث خوض من لا يعرف كلام الله تعالى ولا كلام أهل اللغة فيجرونها على المتعارف عند الخلق فيقعون في الكفر، ونوضح ذلك إيضاحاً مبيئاً يدركه أبعد العوام فضلاً عن أذكيا الطلبة والعلماء الأخيار الذين جعل الله عز وجل قلوبهم معادن المعاني المرادة وكنوزها.

فمن ذلك ما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في حديث الضيف وفيه «لقد عجب الله من صنعكما الليلة» وفي أفراد البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه «عجب ربك من قوم جيء بهم في السلاسل حتى يدخلهم الجنة».

قال ابن الأنباري: معنى عجب ربك زادهم إنعاماً وإحساناً فعبّر بالعجب عن ذلك.

قال الأئمة: لأن العجب إنما يكون من شيء يدهم الإنسان فيستعظمه مما لا يعلمه وذلك إنما يكون في المخلوق وأما الخالق فلا يليق به ذلك فمعناه عظم قدر ذلك الشيء عنده لأن المتعجب من الشيء يعظم قدره عنده، فالمعنى في حديث الضيف عظم قدره وقدر زوجته عنده حتى نوه بذكرهما في أعظم كتبه وعظم قدر المجيء بهم في السلاسل حتى أدخلهم الجنة وجعلهم من أوليائه وأنصار دينه.

ومن ذلك حديث «لله أفرح بتوبة عبده» ومعناه أَرْضَى بها ومنه^(١) قوله: ﴿كُلُّ جَزِيٍّ بِمَا كَذَّبَتْهُمُ فَزَحْنُ﴾ [المؤمنون: ٥٣] أي راضون ونحو ذلك مما هو كثير في القرآن

(١) أي من هذا الاستعمال، اه مصححه.

وكذا الأحاديث ومنها حديث النزول وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول من يدعوني فأستجيب له» إلى آخره، وهذا الحديث رواه عشرون نفساً من الصحابة رضي الله عنهم وقد تقدم أنه يستحيل على الله عز وجل الحركة والتقل والتغير لأن ذلك من صفات الحدث فمن قال ذلك في حقه تعالى فقد ألحقه بالمخلوق وذلك كفر صريح لمخالفة القرآن في تنزيهه لنفسه سبحانه وتعالى.

ومن العجب العجيب أن يقرأ أحدهم قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَوِيدَ﴾ [التحذير: ٢٥] مع أن معدنه في الأرض وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا لَكُمْ مِنْ الْأَنْتَمِ نُنْيَةَ أَرْجَحَ﴾ [الزمر: ٦] فيا لله العجب من شخص لم يعرف نزول الجمل كيف يتكلم في تفصيلها. وقد قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٤٨] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ [الطلاق: ١٠] فنسب الإنزال إلى هاتين الغائيتين إليه سبحانه وتعالى.

وقد قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَكَا هَؤُلَاءِ لَمْ يَضِلُّهُمْ فِي مَقَالِيمِهِمْ يَمُوتُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] والعلم في البصيرة كما أن العمى في البصر والعلم في البصيرة منه الهلكة أعاذنا الله من ذلك.

وروى أبو عيسى الترمذي عن مالك بن أنس وسفيان بن عيينة وابن المبارك أنهم قالوا: أمروا هذه الأحاديث بلا كيف، قال الأئمة: فوجب على الخلق اعتقاد التنزيه وامتناع تجويز النقلة والحركة فإن النزول الذي هو انتقال من مكان إلى آخر يفتقر إلى الجسمية والمكان العالي والمكان السافل ضرورة كما في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [الأنحل: ٥٠] فإن الفوقية باعتبار المكان لا تكون بالضرورة إلا في الأجرام والأجسام مركبة كانت أو بسيطة والرب سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك إذ هو من صفات الحدث.

وقال ابن حامد الراسم نفسه بالحنبلي: هو فوق العرش بذاته وينزل من مكانه الذي هو فيه فينزل وينقل، ولما سمع تلميذه القاضي منه هذا استبشعه فقال: النزول صفة ذاتية ولا نقول نزوله انتقال، أراد أن يغالط الأغبياء بذلك. وقال غيره: يتحرك إذا نزل، وحكوا هذه المقالة عن الإمام أحمد فجوراً منهم بل هو كذب محض على هذا السيد الجليل السلفي المنزّه فإن النزول إذا كان صفة لذاته لزم تجدها كل ليلة وتعددها، والإجماع منعقد على أن صفاته قديمة فلا تجدد ولا تعدد تعالى الله عما يصفون.

وقد بالغ في الكفر من الحق صفة بالخلق وأدرج نفسه في جريدة السامرة واليهود الذين هم أشد عداوة للذين آمنوا.

ومنها حديث الأصابع وهو في الصحيحين من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء خبر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إن الله يضع السماء على أصبع والجيال على أصبع والشجر على أصبع والأنهار على أصبع وسائر الخلق على أصبع، وفي لفظ: والماء والثرى على أصبع ثم يهزهن، فضحك رسول الله ﷺ وقال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] وفي لفظ: فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً له.

قال الأئمة ومنهم أبو سليمان الخطابي: لا تثبت لله صفة إلا بالكتاب أو خبر مقطوع بصحته مستند إلى أصل في الكتاب أو السنة المقطوع بصحتها^(١) وما كان بخلاف ذلك فالواجب التوقف عن إطلاق ذلك ويتأول على ما يليق بمعاني الأصول المتفق عليها من أقوال أهل العلم مع نفي التشبيه.

وقال غيره: قد نفى الله تعالى التشبيه عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُمْ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] دفعاً لما يتبادر إليه الفهم باعتبار المحسوسات.

قال الأئمة: معناه ما عرفوه حق معرفته. وقال المبرد: ما عظموه حق عظمته.

وتبضة الله عز وجل عبارة عن قدرته وإحاطته بجميع مخلوقاته، واليمين في كلام العرب بمعنى الملك والقدرة كما قال تعالى: ﴿لَا تَخْذَنَا يَوْمَ الْيُسُوفِ﴾ [الحاقة: ٤٥] أي بالقوة والقدرة. وأشعار العرب في ذلك أكثر جداً من أن تُذكر وأشهر من أن تُشد وتبرز وتظهر.

وفي الحديث «الحجر الأسود يمين الله تعالى» وقال تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وقال أبو الوفاء بن عقيل من أصحاب الإمام أحمد: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الفتح: ٧٤] إذ جعلوا صفاته تتساعد وتتعاقد على حمل مخلوقاته وإنما ذكر الشرك في الآية رداً عليهم. وفي معنى هذا الحديث قوله عليه الصلاة والسلام «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف شاء» وفي ذلك إشارة إلى أن القلوب مقهورة لمقلبيها.

(١) لو لاحظ المتكلمون في هذه المواضع هذا الأصل لاستراحوا وأراحوا، اهـ مصححه.

قال الخطابي: واليهود مشبهة ونزول الآية دليل على إنكار الرسول عليهم ولهذا ضحك عليه الصلاة والسلام على وجه الإنكار وليس معنى الأصابع معنى الجارحة لعدم ثبوته بل يطلق الاسم في ذلك على ما جاء به الكتاب من غير تكيف ولا تشبيه. وقال غيره: من حمل الأصابع على الجارحة فقد رد على الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ [البقرة: ١١٦] وأدخل نفسه في أهل الشرك لقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَكَ وَقَعْنَىٰ عَنَّا يَشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] وهو عز وجل يذكر في كتابه المبين التحرس عما لا يليق دفعا وردا لأعدائه كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَكَ﴾ [البقرة: ١١٦] وقال تعالى: ﴿وَحَرِّقُوا لَمْ يَبِينْ وَيَنْتَهِي إِلَهُ سُبْحَنَكَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] ونحو ذلك.

وآكد من ذلك قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْتَلِي جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الحج: ٣] قدم تنزيهه عز وجل أولاً في هذه الآية والقرآن طافح بذلك ومنها ما رواه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش أن رحمتي غلبت غضبي» وفي لفظ «سبقت» قال القاضي المشبه تلميذ ابن حامد: ظاهر قوله عنده القرب من الذات وما قاله يستدعي القرب والمساحة وذلك من صفات الأجسام وقد عمي عن قوله تعالى: ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣] ومن المعلوم أنك تقول عندي فوق الغرفة كتاب كذا وهو في موضع شاسع نازل عن الغرفة بمسافة بعيدة ثم إن هذا القاضي روى عن الشعبي أنه قال إن الله قد ملأ العرش حتى أن له أطيطاً كأطيط الرجل وهو كذب على الشعبي.

وقال بعضهم: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] قعد عليه. وقال ابن الزاغوني: خرج عن الاستواء بأربع أصابع. ولهم ولأتباعهم مثل ذلك خبائث كلها صريحة في التشبيه والتجسيم لا سيما في مسألة الاستواء وهو سبحانه وتعالى منزّه عما لا يليق به من صفات الحدث، ثم إن هؤلاء الجمادات وأهالي الجهلة يلزمهم أن يقولوا في الحديث الذي رواه مسلم وغيره ما لم يمكن القول به من أجهل الناس «ولا يزال عبيدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها» إلخ، وبالضرورة لا يكون سبحانه جارحة لعبده ومع هذا يلزم التعدد بحسب المتقربين والتجزئة والفرقة وغير ذلك مما لا يقوله حمار بل ولا جماد تعالى الله وتقدس عن ذلك.

قال ابن الجوزي: وهؤلاء وأتباعهم جهلوا معرفة ما يجوز على الله وما يستحيل عليه، ومن أعجب ما رأيت لهم ما ذكروا عن ابن أبي شيبة أنه قال في كتاب العرش إن الله قد أخبرنا أنه صار من الأرض إلى السماء ومن السماء إلى العرش فاستوى على العرش، ثم قال: ونبرأ من أقوام شائنا مذهبنا فعابنا الناس بكلامهم ولو فهموا أن الله سبحانه وتعالى لا يوصف بما يوصف به الخلق لما بنوا أمورهم وقواعدهم على المحسوسات التي بها المساواة بينه وبين خلقه. وفي ذلك تكذيبه في تنزيهه وتقديسه نفسه عز وجل.

وقال أبو الوفاء بن عقيل: تحسب الجهلة أن الكمال في نسبة النقائص إليه فيما نزه نفسه عنه عز وجل، والذي أوقعهم في ذلك القياس المظنون وكيف يكون له حكم الدليل وقد قضى عليه دليل العقل بالرد.

قال أبو الفرج ابن الجوزي: والناس في أخبار الصفات على ثلاث مراتب: أحدها: إمرارها على ما جاءت من غير تفسير ولا تأويل إلا أن تقع ضرورة كقوله تعالى: ﴿وَبَاءَ رَيْكُ﴾ [الفجر: ٢٢] أي جاء أمره وهذا مذهب السلف، المرتبة الثانية: التأويل وهو مقام خطر، المرتبة الثالثة: القول فيها بمقتضى الحس وقد عم جهله الناقلين إذ ليس لهم علوم المعقولات التي بها يعرف ما يجوز على الله عز وجل وما يستحيل فإن علم المعقولات يصرف ظواهر المنقولات عن التشبيه فإذا عدموها تصرفوا في النقل بمقتضى الحس ولو فهموا أن الله عز وجل لا يوصف بحركة ولا انتقال ولا جارحة ولا تغير لما بقوا على الحسيات التي فيها عين التشبيه وهو كفر بالقرآن أعاذنا الله من ذلك، ولا شك أن مذهب السكوت أسلم وقد ندم خلق من أكابر المتكلمين على الخوض في ذلك.

قال أبو المعالي الجويني في آخر عمره: (خلت أهل الإسلام وعلومهم وركبت البحر الأعظم وغصت في الذي نهوا عنه والآن رجعت إلى قولهم عليكم بدين العجائز فإن لم يدركني الحق بلطفه وأموت على دين العجائز وإلا فالويل لابن الجويني).

قال أبو الوفاء بن عقيل: معنى دين العجائز أن المدققين بالغوا في البحث والنظر ولم يشهدوا ما يشفي العقل من التعليل فوقفوا مع المراسم واستطرحوا وقالوا لا ندري.

وسئل الإمام أحمد قدس الله روحه عن الاستواء فقال: (هو كما أخبر لا كما يخطر بالبشر).

فانظر وفقك الله وأرشدك إلى الحق إلى هذه العبارة ما أوشقها وعلى أتباعه ما أشقها^(١) اعتقاد قويم ومنهاج سليم.

قال الحافظ أبو الفرج بن الجوزي واسمه عبد الرحمن بن علي لما رأى الحساد للإمام أحمد ما حصل له من الرفعة ونفاة مذهبه لتشبيده بالكتاب والسنة انتموا إلى مذهبه ليُدخلوا عليه النقص والخلل وصرف الناس عنه حسداً من أنفسهم فصرخوا بالتشبيه والتجسيم ولم يستحيوا من الخير العليم. ونسبوه إليه اختراء عليه. ومن نظمه في ذلك:

ولما نظرت في المذاهب كلها	طلبت الأسد في الصواب وما أغلو
فألفيت عند البير قول ابن حنبل	يزيد على كل المذاهب بل يعلو
وكل الذي قد قاله فمشيد	بنقل صحيح والحديث هو الأصل
وكان بنقل العلم أعرف من روى	يقوم... .. ^(٢)
ومذهبه أن لا يشبهه ربه	ويتبع في التسليم من قد مضى قبل

يشير إلى صاحبه الإمام الشافعي وغيره من علماء السلف كما أذكر:

فقام له الحساد من كل جانب	فقام على رجل الثبات وهم زلوا
وكان له أتباع صدق تتابعوا	فكم أرشدوا نحو الهدى ولكم دلوا
وجاءك قوم يدعون تمذهباً	بمذهبه ما كل زرع له أكل
ومالوا إلى التشبيه أخذاً بصورة	الذي نقلوه في الصفات وهم غفل
وقالوا الذي قلناه مذهب أحمد	فمال إلى تصديقهم من به جهل
فصار الأعادي قائلين لكلنا	مشبهة قد ضرنا الصحب والخل
فقد فضحوا ذاك الإمام لجهلهم	ومذهبه التنزيه لكن هم اختلوا
لعمري لقد أدركت منهم مشايخاً	وأكثر ما أدركته ما له عقل

(١) لعله ما أشقها بحلف إحدى الفانين أو بإبدال أحدهما فاء، اهـ مصححه.

(٢) هكذا بياض بالأصل ويصح أن يتم بنحو قولنا: إذا نام السوي وبه يخلو، اهـ مصححه.

وحذفت آياتاً من هذه القصيدة لأنني في هذه الورقات على سبيل الاقتصاد والرمز إلى منهج الحق والرشاد.

وسئل الإمام الشافعي قدس الله روحه عن الاستواء فقال: (آمنت بلا تشبيه وصدقت بلا تمثيل واتهمت نفسي في الإدراك وأمسكت عن الخوض فيه كل الإمساك) وهذا شأن الأئمة يمسكون أعتة الخوض في هذا الشأن مع أنهم أعلم الناس به ولا يخوض فيه إلا أجهل الناس به.

وسئل الإمام أبو حنيفة قدس الله روحه عن ذلك فقال: (من قال لا أعرف الله أفي السماء أم في الأرض فقد كفر لأن هذا القول يؤذن أن الله سبحانه وتعالى مكاناً ومن توهم أن الله مكاناً فهو مشبه).

وسئل الإمام مالك عن الاستواء فقال: (الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة) فنفي العلم بالكيف فمن استدل بكلامه على أنه سبحانه وتعالى فوق عرشه فهو لجهله وسوء فهمه.

وقال الإمام مالك عند قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا يَوْمَ الْأَشْهَالِ﴾ [النحل: ٧٤] من وصف شيئاً من ذاته سبحانه وتعالى مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَقُولَةٌ فَلَتَ آيَاتِهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤] فأشار بيده إلى عنقه قطعت وكذا السمع والبصر يقطع ذلك منه لأنه شبه الله بنفسه.

وقال مالك رضي الله عنه: (الاستواء معلوم) يعني عند أهل اللغة، وقوله: (والكيف مجهول) أي بالنسبة إلى الله عز وجل لأن الكيف من صفات الحدث وكل ما كان من صفات الحدث فالله عز وجل منزّه عنه فإثباته له سبحانه كفر محقق عند جميع أهل السنة والجماعة، وقوله: (والإيمان به واجب) أي على الوجه اللائق بعظمته وكبريائه، وقوله: (والسؤال عنه بدعة) لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا عالمين به وبمعناه اللائق بحسب اللغة فلم يحتاجوا إلى السؤال عنه فلما ذهب العالمون به وحدث من لم يعلم أوضاع لغتهم ولا له نور كنورهم شرع يسأل الجهلة بما يجوز على الله عز وجل وفرح بذلك أهل الزيغ فشرعوا يدخلون الشبه على الناس ولذلك تعين على أهل العلم أن يبينوا للناس وأن لا يهملوا البيان لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] فهذه^(١) الأئمة

(١) لعله فهو لا، اه مصححه.

التي^(١) مدار الأمة عليهم في دينهم متفقون في العقيدة فمن زعم أن بينهم اختلافاً في ذلك فقد افترى على أئمة الإسلام والمسلمين والله حسبه وسيجزي الله المفتريين.

وفي الصحيحين: من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من فارق الجماعة شبراً فمات ميتة جاهلية» وقال عليه الصلاة والسلام: «إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية والنافرة والشاذة إياكم والشعاب وعليكم بالعمامة والجماعة والمساجد» رواه الطبراني وغيره من حديث معاذ رضي الله عنه ورواه الإمام أحمد ورجاله ثقات.

وسئل الإمام أحمد عن الشافعي فقال: (ما الذي أقول فيه وهو الذي أخرج من فشور التشبيه لبابها، وأطلع على معارفها أربابها، وجمع مذهبه أكتافها وأطنابها، فالمحدثون صيادلة والشافعي طبيهم، والفقهاء أكابر والشافعي كبيرهم، وما وضع أحد قلعه في محبرة إلا وللشافعي عليه مئة) وكان كثير الدعاء للشافعي، قال له ابنه عبد الله: أي شيء كان الشافعي فإني أسمعك تُكثر الدعاء له؟ قال: (يا بني كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لَهذين من خلف أو عوض).

وسئل بعض أئمة السلف عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فقال: (الرحمن جلّ وعلا لم يزل والعرش محدث بالرحمن استوى ثم قال كل ما ميزتموه بأذهانكم وأدركتموه في أتم عقولكم فهو مصروف إليكم ومردود عليكم محدث ومصنوع مثلكم لأن حقيقته عالية عن أن تلحقه عبارة أو يدركه وهم أو يحيط به علم كلا كيف يحيط به علم وقد اتفق فيه الأضداد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] أي عبارة تخبر عنه، حقيقة الألفاظ كلام، قصرت عنه العبارات، وخرست عنه الألسنة بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] تعالى الله وتقدس عن المجاسة والمماثلة).

قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: معناها ليس له نظير. وقال أهل التحقيق: ذكر العرش إظهاراً لقدرته لا مكاناً لذاته إذ الذات منتنة عن الإحاطة بها والوقوف عليها، كما أشار إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَقَدْ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْغَاطِيِّ﴾ [النمل: ٢٦] فسبحانه هو المنزه عن التشبيه القدوس المبرأ عن الأفات، والمسيح بجميع اللغات، السلام السالم من نقائص المخلوقات، الصمد

السيد الذي لا يشبهه شيء من المصنوعات والمخلوقات، الغني عن الأغيار، تبارك وتعالى عن أن تحويه الجهات، الفرد الذي لا نظير له، المنفرد بصفات الكمال والقدرة، ومن بعض مقدوراته الكرسي والعرش والأرضون والسموات، شهد لنفسه بالوحدانية ونزهها بالآيات البيّنات فصفاته لا يوصف بها غيره، ومن تعرض لذلك فقد طعن في كلامه، وضاعى أهل العناد فاستوجب اللعن وأشد العقوبات.

قال البغداديون في قوله تعالى: ﴿يَبْقَى السَّمَكَاتُ وَالْأَرْضُ وَإِذَا قُضِيَ أَمْرُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] كل صنع صنعه ولا علة لصنعه ليس لذاته مكان لأنه قبل الكون والمكان، وأوجد الأكوان بقوله كن أزال العلل عن ذاته بالدرك^(١) وبالعبارة عنه وبالإشارة فلا يبلغ أحد شيئاً من كنه معرفته لأنه لا يعلم أحد ما هو إلا هو، حي قديم لا أول لحياته، ولا أمد لبقائه، احتجب عن العقول والأفهام كما احتجب عن الأبصار فعمز العقل عن الدرك، والدرك عن الاستنباط، وانتهى المخلوق إلى مثله، وأسند الطلب إلى شكله اهـ.

وقولهم: كل صنع، عبروا بالمصدر عن اسم المفعول كقوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ آبَاءٍ﴾ [لقمان: ١١] ومن الجهل البين أن يطلب العبد المجهول بكن درك ما لا يدرك، كيف وقد تنزه عن أن يدرك بالحواس أو يتصور بالعقل الحادث والقياس من لا يدركه العقل من جهة التمثيل، ويدركه من جهة الدليل، فكل ما يتوهمه العقل لنفسه فهو جسم وله نهاية في جسمه وجنسه ونوعه وحركته وسكونه مع ما يلزمه من الحدود والمساحة من الطول والعرض وغير ذلك من صفات الحدث تعالى عن ذلك فهو الكائن قبل الزمان والمكان، وهو الأول قبل سوابق العدم، الأبدى بعد لواحق القدم، ليس كذاته ذات، ولا كصفاته صفات. جلّت ذاته القديمة التي لم تسبق بعدم أن يكون لها صفة حادثة كما يستحيل أن يكون للذات الحادثة صفة قديمة، قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مریم: ٦٧].

وسأل بعض المخبئين^(٢) الطوية للإمام العالم العلامة الجامع بين العلوم السنية،

(١) قوله: بالدرك متعلق بمحذوف فيما يظهر تقديره وأعجز الخلق عن أن يحيطوا به بالدرك، الخ، والدرك الإدراك، اهـ مصححه.

(٢) لعله خبيثي الخ، وقوله للإمام: لعل اللام الأولى من تصرفات الشياخ وهذا ظننا في كل ما تقدم أو يجيء في هذا الكتاب من الألفاظ التي تخالف اللغة، لأن الإمام الحصني أجل من أن يخفى عليه مثل ذلك، اهـ مصححه.

والمناهج العلية، يحيى بن معاذ الرازي فقال له: أخبرنا عن الله، فقال: إله واحد، فقال له: كيف هو؟ قال: إله قادر، قال: فأين هو؟ قال: بالمرصاد، فقال السائل: لم أسألك عن هذا، فقال: ما كان غير هذا فهو صفة المخلوق، فأما صفته فالذي أخبرتك عنه.

فالسائل سأل عن الذات والكيفية فأجابه هذا الحبر بالصفات الجلالية القدسية وهذا أخذه من قصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع فرعون اللعين لما قال له موسى عليه السلام: ﴿إِنِّي رَسُولٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦] فسأله فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] فقال موسى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُوزَ مُوقِنِينَ﴾ [الذخآن: ٧] فضمن الجواب العدول عما سأل لأنه عدل فيه عن مطابقة السؤال لأن فرعون سأل عن ماهيته سبحانه وتعالى وموسى أجابه عن قدرته وصفاته فجاز له حين خلط في السؤال وأخطأ وسأل عما لا يمكن إدراكه العدول عن سؤاله فقال فرعون: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥] أنا أسأله عن شيء فيجيب عن غيره، فقال موسى عليه السلام: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦] فلما قال موسى عليه السلام ذلك استشعر فرعون أنه أخطأ في السؤال فخشي أن يدرك ذلك جلساؤه فقال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الْكَاذِبُ أَتَيْكَ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] رماه بذلك حتى يتخلص ويصير موسى عليه السلام في مقام لا يلتفت إلى قوله ولا يؤخذ به، فتأمل أرشدك الله عز وجل وهداك إلى الحق كيف أن ذلك معلوم عند الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرهم عدم العلم بالذات والكيف فلا أجهل ولا أعمى بصيرة من فرعون أهدي منه في معرفته بالعجز عن درك ذاته.

قال الإمام الحافظ محمد بن علي الترمذي صاحب التصانيف المشهورة: (من جهل أوصاف العبودية فهو بنت الربوبية أجهل).

وقال أهل التحقيق من أهل السنة والجماعة: (من اعتقد في الله عز وجل ما يليق بطبيعته كالعامي فهو مشبه فإنه عز وجل منزّه عن كل ما يصفه الآدمي أو يتخيله لأن ذلك من صفات الحدث تعالى وتقدس عن ذلك) فإيمان العامي لضعف علمه وعقله يقبل التشكيك^(١).

(١) هذا الكلام ليس على عمومته فإن من العامة من يتدعش العالم لمبلغ كمال إيمانه بالله عز وجل وقد يصدق ذلك في بعض العوام الذين لم ينشأوا في حجور أهل الدين ولم يختلطوا بهم وهو أندر من الكبريت الأحمر بين طبقات العوام، اهـ مصححه.

قال ابن عباس: سبحانه وتعالى بخلقه يؤمنون به مجعلاً ويكفرون به مفصلاً حملهم على ذلك زخرف العدو وإغواؤه رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] هم الذين شبهوا الله بدسيسة عدم علمهم بغوائل النفس الأماراة بالسوء وعدم تأملهم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَثْبَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَكِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَفْسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١] وفي ذلك إشارة إلى عجز الخليقة أن تدرك بعض صفات ذواتها في ذاتها أو تدري كيف كانت في أنفسها بعدم شهودهم خلق السماوات والأرض وخلق أنفسها فلم تملك أن تحتوي علم أنفسها في أنفسها فكيف تدري أو تدرك شيئاً من صفات موجودها من العلم وبارئها ومالكها.

وقال تعالى: ﴿زَيْنَ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا ذَرِّيَّتَهُ﴾ [الذاريات: ٤٩] ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [يس: ٣٦] وفي ذلك إشارة ظاهرة إلى عجزك عن إدراك كنه بعض المخلوقات على اختلاف ذواتها وصفاتها وفي بعضها ما لا يخطر على قلب بشر فكيف بالخالق الذي نزه نفسه بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وهو سبحانه وتعالى مبين لخلقه من كل وجه لا يسعه غيره ولا يحجبه سواه تقدس أن يدركه حادث أو يتخيله وهم أو يتصوره خيال. كل ذلك محال. فهو الملك القدوس المنزه في ذاته وصفاته عن مشابهة مخلوقاته وأنت من مخلوقاته، ركبك على منوال عجيب، وجعلك في أحسن صورة وأعجب ترتيب، مع تنقل تارات من ماء مهين فقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلْطَانٍ مِنْ طِينٍ﴾ [ثم جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ] ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] الإنسان هنا هو آدم عليه السلام وسلاطه لأنه سلة من كل تربة وكان عليه السلام يتكلم بسبعمائة ألف لغة وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي الإنسان ﴿نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ أي حرز منيع وهو الرحم ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ أي دماً ﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ أي قدر ما يمضغ ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ وبين كل خلقين أربعون يوماً ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ وهو نفخ الروح فيه. قاله ابن عباس ومجاهد والشعبي وغيرهم. وقيل: نبات الأسنان والشعر قاله قتادة. وقيل ذكرأ أو أنشأ قاله الحسن. وقيل غير ذلك ﴿فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ أي المصورين والمقدرين تنزه سبحانه وتعالى بعد ذكر هذه الأطوار. المعنى أن من هذه من بعض مقدوراته يستحق التنظيم والتنزيه لأن هذه التارات والتفلات إنشاء بعد إنشاء في غاية الدلالة على كمال القدرة ووصف الألوهية ثم الإنشاء الآخر أن شق الشقوق وخرق الخروق وأخرج

العصب وجعل العروق كالأنهار الجارية وركّبها على متوال غريب مع كونه خلقاً سوياً فأظهر يد القدرة والآيات الظاهرة وكمال الصنع والحكمة الباهرة وأودع فيه الروح والحركة والسكون والإدراك والتمييز ولغات الكلام والعلم والمعرفة والفهم والفطنة والفراصة وغير ذلك مما يليق بهذا النوع الإنساني الحيواني إلى غير ذلك مما يطول عده ويعسر تقديره وحده فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولو قيل لك أخبرني عن قدر عروقت رقة وثخانة وطولاً وقصراً أو عن حقيقة بعض ما في باطنك من أي نوع كان لمجزت عن بيان ذلك ولخست، وأنت وجميع هذا النوع الإنساني نطفة تراب جعله بشراً منتشرأ فتعالى الله وتبارك أن يخوض في ذاته وصفاته إلا من عدم الرشاد، ومسلّك سبيل الفساد والعناد، وصير نفسه أحسن العباد، فمن حقق نظره واستعمل فكره وجد نفسه أجهل الجاهلين بعظمة هذا العظيم فلا يقدره أحد قدره ولا يعرفه سواه وإن قربه وأدناه، فبجانه ما أثنى عليه حق ثنائه غيره ولا وصفه بما يليق به سواه، عجز الأنبياء والمرسلون عن ذلك.

قال أجلمهم قدراً وأرفعهم محلاً وأبلغهم نطقاً مع ما أعطي من جوامع الكلم: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أئببت على نفسك» ومن تأمل كلام الله عز وجل وجده محشوراً بثنائه تارة بالتصريح وتارة بالتلويح وتارة بالإشارات وتارة بما تقصر عنه العبارات وهؤلاء^(١) العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين قربوا من درجة النبوة لأنهم دلّوا الناس على ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام ويرجع مدادهم على دم الشهداء ويستغفر لهم من في السماوات والأرض حتى الحيتان في الماء وهم أمانة الله عز وجل في أرضه وأحدهم على الشيطان أشد من ألف عابد وقد قيل في قوله تعالى: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤] أي زدني علماً بالقرآن ومعانيه وهؤلاء لهم علم لدني يرد على قلوبهم من غيب الهدى لها جولان في الملكوت فترجع إلى صاحبها بطراف الحكمة من غير أن يلقي إليها عالم علمه ومن ثمرة ذلك حصول الخشية وتزايد الخوف والعمل بالإخلاص والصدق والزهد وصون النفس عن مواطن الهلكة ولا هلك وأهلك غيره، ومثل العالم كمثل السفينة إذا انخرقت غرقت وغرق أهلها، فواجب على العالم أن يحترز لئلا يهلك ويهلك غيره فيلقي الله بذنوبه وذنوب غيره فيضاعف عليه العذاب.

(١) معطوف على الأنبياء أي عجزوا كما عجز الأنبياء عن وصف ربنا عز وجل كما ينبغي له ويليق به ولولا ما علمهم الله تعالى في دينه ما عرفوا ما عرفوا من وجه وإنما قلنا بذلك العطف لأنه لم يجر. بعدهم حديث عنهم فليعلم، اهـ مصححه.

قال محمد بن المنكدر وهو من سادة التابعين وكانت عائشة رضي الله عنها تحبه وتكرمه وتبره: الفقيه يدخل بين الله عز وجل وبين عباده فليُنظر كيف يدخل. وصدق ونصح قدس الله روحه. وهذا شأن السلف بذلوا النصيحة للإسلام والمسلمين وكانوا شديدين على من خالف ولا سيما لما ظهر أهل الزيغ وتظاهروا بالتنويه بذكر آيات المتشابه وأحاديثه بالغوا في التحذير منهم ومن مجالستهم وكانوا يقولون هم الذين عنى الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي قُلُوبِهِمْ نَجَسٌ فَتَقَبَّلَهُ اللَّهُ مِنْهُمْ إِنَّهُمْ يُكْفَرُونَ﴾ [آل عمران: ٧] الآية وكذا قالت عائشة رضي الله عنها، وكانوا يقولون إذا جلس أحد للوعظ والتذكير تفقدوا منه أموراً ولا تغفروا بكل واعظ فإن الواعظ إذا لم يكن صادقاً ناصحاً سليم السريرة من الطمع والهوى هلك وأهلك، وذكروا أشياء ببعضها تنطفئ نار الشبه التي بها يموه أهل الزيغ ومن لا يقبلها فما ذاك إلا أن الله عز وجل يريد إهلاكه وحشره في زمرة السامرة واليهود والزنادقة ومن يرد الله عز وجل إضلاله فلا هادي له ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي الْقَوْمَ الْيَاسِينَ﴾ [الزمر: ١٧] ﴿لَا يَسْتَلِ عَنَّا يَنْفَعُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] قسم الخلق إلى شقي وسعيد، فهو الفعال لما يريد، فمن اتبع هداه فلا يضل ولا يشقى، ومن ابتغى هوى نفسه الأتامة وأهل الزيغ والضلالة وحاد عن سبيل من بهم يقتدي هلك في المرقى.

ولنرجع إلى قول السلف رضي الله عنهم: إذا جلس شخص للوعظ تفقدوا منه أموراً إن كانت فيه وإلا فاهربوا منه وإياكم والجلوس إليه وإلا هلكتم من حيث طلبتم النجاة. قالوا ذلك حين ظهر أهل الزيغ والبدع وكثرت المقالات وذلك بعد وفاة عمر رضي الله عنه، وحديث حذيفة رضي الله عنه يدل لذلك واللفظ لمسلم قال حذيفة: (كنا عند عمر رضي الله عنه فقال أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه، فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره، قالوا: أجل، قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة رضي الله عنه: فأسكت القوم فقلت: أنا، قال: أنت لله أبوك؟ قال حذيفة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى يصير على قلبين على أبيض مثل الصفاة فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض والآخر أسود مرئياً كالكوثر مخجياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه» قال حذيفة رضي الله عنه: وحدثني أن بينك وبينها باباً مغلقاً بوشك أن يكسر، قال: قال عمر رضي الله عنه: اكسر لا أبا لك فلو أنه فتح

لعله كان يعاد، قال: لا بل يكسر، وحدثه أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت حديثاً ليس بالأغاليط).

قال أبو خالد: فقلت لسعيد: يا أبا مالك: ما «أسود مراداً»؟ قال: شدة البياض في السواد، قلت: فما «الكوز مجخياً»؟ قال: منكوساً، فقوله ليس بالأغاليط يعني أنه عن رسول الله ﷺ.

والفتن كل أمر كشفه الاختبار عن أمر سوء وأصله في اللغة الاختبار وشبهت بموج البحر لاضطرابها ودفع بعضها ببعض وشدة عظمها وشيوعها، وقوله «تعرض الفتن على القلوب» أي تلصق بعرض القلوب أي بجوانبها كالحصير تلصق بجنب النائم وتؤثر فيه لشدة التصاقها وهذا شأن المشبهة تلصق فتنة التشبيه في قلوبهم وتؤثر وتحسن لعقولهم ذلك حتى يعتقدوا ذلك ديناً وقريناً من الله عز وجل وما يفتن أحدهم حتى يبقى داعية وحريصاً على^(١) إفتان من يقدر على إفتانه كما هو مشاهد منهم، وإلى مثل ذلك قوله: «أشربها» أي دخلت فيه دخولاً تاماً وألزمها وحلت منه محل الشراب ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَجَلَ﴾ [البقرة: ٩٣] أي حبه، فقوله: «إن بينك وبينها باباً مغلقاً» معناه أن تلك الفتن لا تفتح ولا يخرج منها شيء في حياتك، وقوله: «يوشك» هو بضم الياء وكسر الشين معناه أنه يكسر عن قرب «الرجل» هو عمر وقد جاء مبيناً في الصحيح والحاصل أن الحائل بين الناس وبين الفتن هو عمر رضي الله عنه ما دام حياً فإذا مات دخلت، ومبدأ الفتن هو الذين شرقوا^(٢) بالنبي ﷺ وبأي بكر وعمر رضي الله عنهما لعلهم أن الدين لا يتم إلا بهما لأن عندهم علماً بذلك وكانوا يظهرون الإسلام ويقولون شيئاً من القرآن وكانوا يرمزون إلى التعرض بالنقص حتى في النبي ﷺ حتى أن منهم من كان يؤم الناس ولا يقرأ في الجهرية إلا بعس لما فيها من العتاب مع النبي ﷺ لأجل ابن أم مكتوم وهم رضي الله عنه على^(٣) قتاله وتظاهر شخص بسؤال ما الذاريات ذرواً فقال عمر رضي الله عنه: اللهم أمكنني منه، فمز يوماً فقبل له: هو ذا، واسم الرجل صبيخ، فشتم عمر رضي الله عنه عن ذراعيه وأوجعه جلدأ ثم قال: أرحلوه فأركبوه على

(١) يريد فتنة من يقدر على فتنة أو فتن أو فتون الخ، اهـ مصححه.

(٢) أي غصرا به ﷺ وبصاحبه فلم يستطيعوا أن يتفادوا ما يضرهم من الكيد للإسلام في وجودهم لعلهم الخ، اهـ مصححه.

(٣) على موضع الباء، اهـ مصححه.

راحلته، فقال: طيفوا به في حيه ليعلم الناس بذلك^(١) وكان رضي الله عنه شديداً في دين الله عز وجل لا تأخذه في الله لومة لائم وقد ذكرت نبذة يسيرة من سيرته في كتاب (قمع النفوس).

ولما كان أواخر القرن الأول اتسع الأمر من القصاص وتظاهر شخص يقال له المغيرة بن سعيد وكان ساحراً واشتهر بالوصاف وجمع بين الإلحاد والتنجيم ويقول إن ربه على صورة رجل على رأسه تاج وإن أعضائه على عدد حروف الهجاء ويقول ما لا ينطق به ويقول إن الأمانة في قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا عَرَضَتْهُ الْأَمَانَةُ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ [الأحزاب: ٧٢] هي أن لا يمنع على الخلافة، وقوله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] هو أبو بكر رضي الله عنه.

وقال عمر رضي الله عنه لأبي بكر أن يحملها ويمنع عليها منها وضمن عمر أنه يعين أبا بكر بشرط أن يجعل أبو بكر الخلافة له بعده فقبل أبو بكر منه وأقدهما على المنع متظاهرين، ثم وصفهما بالظلم والجهل فقال: وحملها أبو بكر إنه كان ظلوماً جهولاً. وزعم أنه نزل في حق عمر رضي الله عنه: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَنْزِلْ فِي حَقِّ عُمَرَ رَحِمَ اللَّهُ رَحِيمَةً لَأَكْفُرَنَّ﴾ [النحر: ١٦] الآية، وكان يقول بتكفير سائر الصحابة رضي الله عنهم إلا لمن ثبت مع علي رضي الله عنه وكان يقول إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لم يختلفوا في شيء من الشرائع، وكان يقول بتحريم إنكار المنكر قبل خروج الإمام، وقال لمحمد الباقر: أقر أنك تعلم الغيب حتى أجبي لك العراق، فانتهره وطرده، وكذا فعل بجعفر الصادق ولد محمد الباقر فقال: أعوذ بالله، وكان يقول: انتظروا محمد بن عبد الله الإمام فإنه يرجع ومعه ميكائيل وجبريل يتبعانه من الركن والمقام، وكان له خباثت، فلما كان في السنة التاسعة عشرة والمائة ظفر به خالد بن عبد الله القسيري فأحرقه وأحرق معه خمسة من أتباعه فهذا شأن أهل الزيغ.

واستمر الأمر على ذلك إلا أنهم سلكوا مسلك المكر والحيلة بإظهار الكذب^(٢) على سماع الحديث ويكثرون من ذكر أحاديث المتشابه ويطعنونها ويسردونها على الناس العوام ثم كثرت المقالات في زمن الإمام أحمد وكثر القصاص وتراجع هو وابن عينة وغيرهما منهم وكان الإمام أحمد يقول: كنت أود لو كان قصاصاً صادقاً نصوحاً طيب السريرة، ونبغ في زمنه محمد بن كرام السجستاني وتوافق مع الإمام أحمد

(١) وفاء بعد ذلك رضي الله عنه ولم يرجعه حتى صدقت توبته، اه مصححه.

(٢) يريد الإكباب، اه مصححه.

وأظهر حسن الطريقة حتى وثقه هو وابن عيينه، وسمع الحديث الكثير ووقف على التفسير وأظهر النقشف مع العفة ولين الجانب، وكان ملبوسه جلد ضأن غير مخيط وعلى رأسه قلنسوة بيضاء، ثم أخذ حانوتاً يبيع فيه لبناً، واتخذ قطعة فرو يجلس عليها ويعط ويذكر ويحدث ويتخشع حتى أخذ بقلوب العوام والضعفاء من الطلبة لوعظه وبزهده حتى حصر من تبعه من الناس فإذا هم سبعون ألفاً، وكان من غلاة المشبهة وصار يلقي على العوام الآيات المتشابهة والأخبار التي ظواهرها يوافق عقول العوام وما ألفوه ففطن الحدائق من العلماء فأخذوه ووضعوه في السجن فلبث في سجن نسابور ثمان سنين ثم لم يزل أتباعه يسعون فيه حتى خرج من السجن وارتحل إلى الشام ومات بها في زعر ولم يعلم به إلا خاصة من أصحابه فحملوه ودفنوه في القدس الشريف وكان أتباعه في القدس أكثر من عشرين ألفاً على التعبد والنقشف وقد زين لهم الشيطان ما هم عليه وهم من الهالكين وهم لا يشعرون واستمر على ما هم عليه خلق شأنهم حمل الناس على ما هم عليه إلى وقتك هذا.

قال الله تعالى: ﴿أَفَنَنْتَ لِلَّهِ لَمْ يُؤَلِّمْ بِهِ سُلُوكًا فَرَأَاهُ حَسَبًا﴾ [فاطر: ٨] قال سعيد بن جبير: هذه الآية نزلت في أصحاب الأهواء والبدع، المعنى أنه ركض في ميادين الباطل وهو يظنها حقاً، كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول عند هذه الآية: إن الضلالة لها حلاوة في قلوب أهلها والبدعة هي استحسان ما يسوق إليه الهوى والشبهة مع الظن بكونها حقاً وهؤلاء ينزع من قلوبهم نور المعرفة وسراج التوحيد من أسرارهم ووكّلوا إلى ما اختاروا فضّلوا وأضلّوا ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ قَوْلٍ آلاَ إِلَهُيَّهُمْ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] حتى ينكشف لهم الأمر كما قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَِرُّ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] قبل: عملوا أعمالاً ظنوا أنها في كفة الحسنات فإذا هي في كفة السيئات، وهذه الآية قبل إنها في أهل البدع يتصور^(١) ويعتقد مع تمام الورع والزهد وتمام الأعمال الصالحة وفعل الطاعات والقربات ما عاقبه خسارة. ومن ذلك أن يعتقد في ذات الله وصفاته وأفعاله ما هو خلاف الحق ويعتقده على خلاف ما هو به إما برأيه ومعقوله الذي يحاكي به الخصوم وعليه يعول وبه يغتر قد زين له العدو وحلاه له حتى اعتقده ديناً ونعمة وإما أخذاً بالتقليد ممن هذه حاله، وهذا التقليد كثير في العوام لا سيما من يعضد بدعته واعتقاده بظواهر آية أو خبر وهو على وفق الطبع والعادة وقد أهلك اللعين بمثل هذا خلقاً لا يحصون حتى أنهم يعتقدون أن الحق في

مثال ما هم عليه وأن غيرهم على ضلالة ومثل هؤلاء ومن اتبعوهم إذا بدا لهم ناصية ملك الموت انكشف لهم بطلان^(١) ما اعتقدوه حقاً باطلاً وجهلاً وختم لهم بالسوء وخرجت أرواحهم على ذلك وتعدز عليهم التدارك وكذا كل اعتقاد باطل، ولا يفيد زوال ذلك كثرة التعبد وشدة الزهد وكثرة الصوم والحج وغير ذلك من أنواع الطاعات والقربات لأنها تبع لأمر باطل ولا ينجو أحد إلا بالاعتقاد الحق، وقد قال تعالى: ﴿فَمَاذَا يَمْدُ الْهَاقِي إِلَّا الْهَكْلُ﴾ [يونس: ٣٢] وهذه الآية صريحة في أنه ليس بين الحق والباطل واسطة والباطل هو الذهاب عن الحق مأخوذ من ضل الطريق وهو العدول عن سميته والحق هو الصراط المستقيم الذي في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا أَتْسُلًا فَنُفِرَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] وصف الله تعالى صراطه وهو دينه بالاستقامة وأمر باتباعه، والمستقيم هو الذي لا اعوجاج فيه فمن اتبعه أوصله إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

قال سهل: الصراط المستقيم هو الاقتداء والاتباع وترك الهوى والابتداع، ثم إنه تعالى نهى عن اتباع السبل لما فيها من الحيدة عن طريق الاستقامة فقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَتْسُلًا فَنُفِرَ بَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣] أي تميل بكم عن طريقه التي ارتضى وبه^(٢) أوصي إلى سبل الضلالات من الأهواء فتهلكوا.

قيل لعبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما الصراط المستقيم؟ فقال: ما تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جواز وعن يساره جواز وثم رجال يدعون من مر بهم فمن أخذ في تلك الجواز انتهت به إلى النار ومن أخذ على الصراط انتهت به إلى الجنة، ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية، فأشار رضي الله عنه بالرجال الذين على الجواز إلى علماء السوء وأهل البدع، وأشار بقوله: يدعون من مر بهم، إلى الوغاض الذين هم سبب هلاك من قعد إليهم.

ولهذا بالغ السلف رضي الله عنهم في التحذير من مجالسة كل أحد وقالوا: إذا جلس للوعظ فتفقدوا منه أموراً فإن كانت فيه فاهربوا منه وإلا هلكتم من حيث ظنتم

(١) لعل لفظ بطلان من زيادة النسخ، اهـ مصححه.

(٢) راعى في وصف الطريق بالتي جواز تأنيثها وراعى في رجوع الضمير إليها في به جواز تذكيره فليعلم، اهـ مصححه.

النَّجَاةَ مِنْهَا إِنْ كَانَ مُبْتَدِعاً فَاحْذَرُوهُ وَاجْتَنِبُوهُ فَإِنَّهُ عَلَى^(١) لِسَانِ الشَّيْطَانِ يَنْطَلِقُ وَمَنْ نَطَقَ عَلَى لِسَانِ الشَّيْطَانِ فَلَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ فِي إِغْوَاةِ فِيهِلِكَ لِإِنْسَانٍ مِنْ حَيْثُ يَظُنُّ السَّلَامَةَ وَأَيْضاً فَقِي الْمَشْيِ إِلَيْهِ وَمَجَالَسَتِهِ تَعْظِيمٌ لَهُ وَتَوْقِيرٌ.

رَوَى ابْنُ عَدِيٍّ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «مَنْ وَقَرَ صَاحِبَ بَدْعَةٍ فَقَدْ أَعَانَ عَلَى هَدْمِ الْإِسْلَامِ» وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي مَعْجَمِهِ الْأَوْسَطِ وَرَوَاهُ الْحَافِظُ أَبُو نَعِيمٍ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بَشَرٍ وَبِهَذَا وَغَيْرِهِ يَجِبُ التَّجَرُّبُ مِنْ أَهْلِ الْبَدْعِ وَالتَّبَاعُدُ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: (مَنْ بَشَّرَ فِي وَجْهِهِ مُبْتَدِعٌ أَوْ صَافِحُهُ فَقَدْ حَلَّ عَرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً).

وَقَالَ شَخْصٌ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ لَأَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَكَلَمْتُ كَلِمَةً؟ فَقَالَ: لَا اللَّهُ وَلَا نَصْفَ كَلِمَةٍ، وَكَانَ يَقُولُ: مَا أَزْدَادُ صَاحِبَ بَدْعَةٍ اجْتِهَاداً إِلَّا أَزْدَادُ مِنْ اللَّهِ بُعْداً.

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كُنَّا نَدْخُلُ عَلَى أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيَّ فَإِذَا ذَكَرْنَا لَهُ حَدِيثاً عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَبْكِي حَتَّى نَرْحِمَهُ وَكَانَ يَقُولُ: إِذَا بَلَغَنِي مَوْتُ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ السَّنَةِ فَكَأَنَّمَا يَسْقُطُ عَضْوٌ مِنْ أَعْضَائِي، وَكَانَ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا صَدَّقَ عَبْدٌ إِلَّا سَرَّهُ أَلَا يَرَاهُ أَحَدٌ^(٢).

وَكَانَ يُونُسُ بْنُ عَبِيدٍ يَقُولُ: احْفَظُوا عَنِّي ثَلَاثاً مَتَّ أَوْ عَشْتُ: لَا يَدْخُلُنِ أَحَدٌ عَلَى سُلْطَانٍ يَعْظُمُهُ أَوْ يَعْلَمُهُ، وَلَا يَخْلُونِ بِامْرَأَةٍ شَابَةٍ وَإِنْ أَقْرَأَهَا الْقُرْآنَ، وَلَا يُمْكِنُ سَمْعُهُ مِنْ ذِي هَوًى، وَأَشَدُّهَا الثَّلَاثَةَ لَمَّا فِيهَا مِنَ الزَّيْغِ أَعَاذَنَا اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ. وَكَانَ يَقُولُ: مَا يَزَالُ الْعَبْدُ بَخِيرٌ مَا أَبْصَرَ مَا يَفْسِدُ عَمَلَهُ. وَيُونُسُ هَذَا تَابِعِيٍّ مِنْ أَصْحَابِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْأَصْبَهَانِيُّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ وَمِنَ الْبُكَائِينَ وَلَمْ يَكُنْ بِأَصْبَهَانَ أَزْهَدَ مِنْهُ وَلَا أَوْرَعَ مِنْهُ، قَالَ: وَقَفْتُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ مَاشَاذَةَ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَلَى النَّاسِ فَلَمَّا جَاءَ اللَّيْلُ رَأَيْتُ رَبَّ الْعِزَّةِ فِي النَّوْمِ فَقَالَ لِي: وَقَفْتُ عَلَى مُبْتَدِعٍ وَسَمِعْتُ كَلَامَهُ لِأَحْرَمَتِكَ النَّظَرَ فِي الدُّنْيَا، فَاسْتَيْقِظْ وَعَيْنَاهُ مَفْتُوحَتَانِ لَا يَبْصُرُ بِهِمَا شَيْئاً.

(١) عَلَى بِمَعْنَى عَنْ أَوْ الْبَاءِ، اهـ مَصْحُوحَةٌ.

(٢) أَيُّ وَهُوَ يَعْمَلُ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ كَلَامُ جَلِيلٍ فَلْيَتَفَكَّرْ فِيهِ الْقَارِئُ طَوِيلًا لَعَلَّهُ يَنْحَقِّقَ بِهِ، اهـ مَصْحُوحَةٌ.

وقال الحميدي: سمعت الفضيل يقول: من قرء صاحب بدعة أورثه الله عمى قبل موته، قيل: أراد أيضاً عمى البصيرة.

واعلم أن الكلام على البدعة وأهلها فيه طول جداً وقد ذكرت جملة منه في (تنبيه السالك على مظان المهالك) ومنها: أن يكون الواعظ سيئ الطمعة فإنه إنما ينطق بالهوى لأن مثل هذا يوقع الناس في الحرام أو ربما اعتقدوا حله لأنهم يقتلون به في فعله بواسطة قوله.

ومنها: أن يكون رديء العقل أحق فإنه يفسد بحمقه أكثر مما يصلح والأحق هو الذي يضع الشيء في غير موضعه ويعتقد أنه يصيب. قال عيسى عليه السلام: أبرأت الأكمة والأبرص وأعياني الأحمق، فالأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه للطريق فاسد فلا يكون له رؤية صحيحة في طريق الوصول إلى الغرض ويختار ما لا ينبغي أن يختار وهذا واجب الاجتناب بخلاف صاحب العقل الصحيح فإنه يشر حسن النظر وجودة التدبير وثقافة الرأي وإصابة الظن والتفطن لدقائق الأدلة والأعمال وخفايا النفس الأمارة وغرور الشيطان.

ومنها: أن يذكر الأدلة التي هي رجاء وتوسعة على النفوس ويسكت عن آيات الخوف والرهبة وكذا الأخبار والآثار لأنه بذلك يحل من القلوب الزواجر ويسهل ارتكاب المعاصي لا سيما إذا علم منه ارتكاب شيء ولو كان مكروهاً فإنه يوقع الناس في ورطة عظيمة.

قال: إذا عبث العلماء بالمكروه عبث العوام بالحرام وإذا عبث العلماء بالحرام كفر العوام معناه أنهم يعتقدون حله لارتكاب العلماء ذلك لأنهم القادة وعليهم المعول في التحليل والتحريم.

ومنها: أن يتعرض لآيات المتشابه وكذلك الأخبار ويجمعها ويسردها ويكرر الآية والخبر مراراً لأنه يوقع العامي فمياً اعتاده وألفه فيجري صفات الخالق سبحانه وتعالى على ما ألفه وجرى عليه طبعه ويزينه الشيطان له بغروره لا سيما إن كان الواعظ ممن يظهر زهداً وورعاً وشفقة على الناس فكم من شخص حسن الظاهر خبيث الباطن جميل الظاهر قبيح السرائر والضماير، والسلف رضي الله عنهم لهم اعتناء بشدة مجانبة هذا والتباعد عنه.

ومنها: أن يكون متهماً بالرفض وسب الصحابة رضي الله عنهم وهؤلاء نبه مالك رضي الله عنه على أنهم من سلالة المنافقين وأوضح ذلك نور الله تعالى قلبه

فقال: أرادوا أن يقدحوا في النبي ﷺ بشيء فلم يجدوا مساعاً فقدحوا في الصحابة لأن القدح في الرجل قدح في صاحبه وخليطه وهؤلاء كفار لاستحلالهم سب أفضل الخلق بعد الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام.

وممنهم أقوام يلبسون على الناس بقراءة البخاري وغيره وهم لا يعتقدون البخاري ويسمونهم فيما بينهم بالفشاري ولهم خبائث عديدة كل واحدة كفر محقق، وبقي أمور لا أطول بذكرها فمن أراد الله به خيراً حماء عن مجالسة هؤلاء لأن القلب سريع الانقلاب وقبول الرخص والشبه فإذا علقت به الشبهة والريبة فبعيد أن يرتفع عن قلبه غشاة ما وفر فيه وأقل ما يتال القلب التردد والحيرة وذلك عين الفتنة ومراد الشيطان فإن كان الذي دخلت قلبه الشبهة عامياً والمتدع أدخلها عليه بقال الله عز وجل وقال رسول الله ﷺ فبعيد أن يرجع ويتشع عن قلبه غشاة الجهل والحيرة لتحكم الشبهة بالدليل وهذا من الهالكين إلا أن يتداركه الله برحمته لأن عمدة الناس الكتاب والسنة والهلكة الجهلة يفهمونها على غير المراد منهما على الوجه المرضي فمن حق العبد الطالب للنجاة حراسة قلبه وسمعه عن خزايبا خزعات المتدعة وتزويق كلامهم وأن لا يغتر بتقشفهم وكثرة تعبدهم وزهدهم ووصفهم لأنفسهم فإن ذلك من أقوى حبالهم التي يصطادون بها وبها تشرب القلوب لبدعتهم لا سيما من قلبه مشغوف بحب الدنيا إذا رئي زاهداً فيها مع إكبابه على الكتاب والسنة مع الورع والزهد والعفة والقناعة فلا شك ولا ريب أنه يرغب فيه غاية الرغبة ويميل إليه غاية الميل ولا يصده عنه صاد كما هو مشاهد من العوام ومجنهم ورغبته لمن هو بهذه المثابة فتنبه لذلك فقد أوضحت طريق السلامة والتباعد عن مظان الهلكة فكم من شخص قصده صالح قد هلك بمثل هؤلاء إخوان الشياطين وهو لا يشعر عليك بالاعتداء بالأطباء أعني أطباء القلوب وهم الأنبياء عليهم السلام لأنهم العالمون بأسباب الحياة الأخروية ثم أتباعهم الذين أخذوا عنهم وشاهدوا منهم ما لم يشاهده غيرهم. شعر:

من كان يرغب في النجاة فما له	غير اتباع المصطفى فيما بدا
فاتبع كتاب الله والسنن النبي	صحت فذاك إذا اتبعت هو الهدى
فالدين ما قال النبي وصحبه	فإذا اقتديت بهم فنعم المقتدى

فبحان الحليم الودود، الممهل الكريم العميم الجود، العالم بخفايا الضمائر وديب النملة على الصخرة في الليالي السود، ويرى جريان الماء في العود، القادر فكل ما سواه بقدرته موجود، نزه نفسه بنفسه لعجز خلقه عن ذلك، فتعالى عن

الأشكال والأمثال والجهات والحدود، صفاته قديمة ثابتة بالنقل والعقل فمن عطل وقع في الجحود، وتنزيهه عن النقائص والأشباه محقق ومعلوم والتشبيه مذهب السامرة واليهود، وكف الكف مشلولة بل مقطوعة وباب التشبيه مردود ومسدود، فمن فتحه هجمت عليه نار الوعيد فأهلكته كما هلك فرعون ونمرود، وأصحاب الأخدود وعاد وثمود، فسأل الله العافية من الفتن ومن أسبابها ومن النار ذات الوقود، وتوسل إليك بسيد الأولين والآخرين محمد كما توسل به أبو البشر فقبلته فهو أحمد المحمود، صاحب الحوض المورود، والمقام المحمود، فهو أعظم الوسائل ولا يخيب من توسل به ولو كان من أهل الجحود.

قال الله تعالى: ﴿رَمَيْنَا﴾ [البقرة: ٦١] أي اليهود ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ [البقرة: ٢٥] أي بعث محمد ﷺ ﴿بَنِيهِمْ﴾ [البقرة: ٨٩] أي يستنصرون ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩] وهم مشركو العرب كانوا يقولون إذا حزبهم أمر أو دهمهم عدو اللهم انصرنا بجاء النبي المبعوث آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا ينصرون وكانوا يقولون لأعدائهم كغطفان وغيرها من المشركين قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلناه فنقتلكم معه قتل عاد وثمود.

فانظر أرشدك الله إلى قدره ودنو منزلته عند ربه كيف قبل عز وجل التوسل به من اليهود مع علمه سبحانه بأنهم يكفرون به ولا يوقرونه ولا يعظمونه بل يؤذونه ولا يتبعون النور الذي أنزل معه فمن منع التوسل به فقد نادى على نفسه وأعلم الناس بأنه أسوأ حالاً من اليهود. شعر:

أنت الملاذ لنا وأنت المرتجى	ويك اللباز وأنت ملجأ من لجا
يا سيد الكونين يا من قد سما	معراجة فوق السماء وعرجا
يا سيد الثقلين والحكم الهدى	والمقصد الأسنى لأبواب الرجا
يا سيداً من أم باب مقامه	ألفاء خير مقام سؤل يرتجى
يا سيداً ما أمه من ضامه	رب الزمان بخطبه الأنجا
يا سيداً جعل الإله وجوده	للعالمين المرتجى والملتجى
يا خاتم الرسل الكرام ومن به	رب البرية كل هم فرجا
غيره:	

وكن مستجيراً بالذي نال رفعة إلى عزها ذل الملوك الأكاسر

عظيم له تعزي العلى والمفاخر	نبي له جاء عريض ومنصب
فصبح مليح كامل الحسن باهر	جليل جميل راحم متعطف
لقد نلت فخراً ما لأذناه آخر	ألا يا رسول الله يا غاية المنى
هنيئاً لنفس في هواك تتاجر	أيأ ذرة الأنبياء يا جوهر الورى
وقد سعدت يا درها والجواهر	لقد ربحت في بيعها وتنعمت
أغشني أجرتي يوم تبلى السرائر	حبيبي رسول الله كن لي شافعاً
إذا نصب الميزان والعقل طائر	بجاهك آمال الضعيف تعلقت
حليم كريم غافر الذنب سائر	فكن شافعي عند الإله فإنه
واني عن الفعل الحميد لقاصر	مضى العمر في لهو وزهو وغفلة
فأنت جميل العفو للكسر جابر	فيا رب داركننا بعفو ورحمة
ومن بعفو منك فالعفو غامر	وخذ بنواصينا وطهر قلوبنا
بدا الشمس والأقمار والنجم زاهر	وصل على البدر الذي من جبينه

نجزت هذه الأحرف المباركات على قارئها ومستمعها المتأسين بأهل الحق التابعين للصفوة من أولي المعجزات المنزهين لرب العالمين والمعظمين لسيد الأولين والآخرين وسائر الأنبياء والمرسلين وسرج هذه الأمة من بعدهم كالصديقين وسائر الصحابة والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وكنت قد عزمت على أن أقصر على ذلك لأن في بعض ما ذكرته وقاية من المقت والمهالك ثم قيل لي وكرر علي أن أهل التشبيه والتجسيم والمزدرين بسيد الأولين والآخرين تبعاً لسلالة القردة والخنازير لهم وجود وفيهم كثرة وقد أخذوا بقول كثير من الناس لما يزينون لهم من الاطراء على قدوتهم ويزخرفون لهم بالأقوال والأفعال ويموهون لهم بإظهار التنسك والإقبال على كثرة الصلاة والصوم والحج والتلاوة وغير ذلك مما يحسن في قلوب كثير من الرجال لا سيما العوام المائلين مع كل ريع أتباع الدجال فانقادوا لهم بسبب ذلك وأوقعوهم في أسر المهالك فرأيت بسبب هذه المكائد والخزعبلات أن أتعرض لسوء عقيدتهم قمعاً لهذا الزائغ عن طريق أهل الحق وهم الأئمة الأربعة المقتدى بهم والمعول عليهم في جميع الأعصار والأقطار لأنهم النجوم الذين بهم يهتدى وقد بالغ جمع من الأخيار من المتعبدین وغيرهم من العلماء أهل مكة وغيرها أن أذكر ما وقع لهذا الرجل من الحيدة عن طريق هذه الأئمة ولو كان أحرفاً يسيرة إما بالتصريح أو بالتلويح مشيرة

فاستخرت الله عز وجل في ذلك مدة مديدة ثم قلت: لا أبا لك، وتأملت ما حصل وحدث بسببه من الإغواء والمهالك فلم يسعني عند ذلك أن أكتب ما علمت، وإلا ألجمت بلجام من نار ومقت وها أنا أذكر الرجل وأشير باسمه الذي شاع وذاع، واتسع به الباع، وسار بل طار في أهل القرى والأصهار، وأذكر بعض ما انطوى باطنه الخبيث عليه وما عول في الإفساد بالتصريح أو الإشارة إليه ولو ذكرت كثيراً مما ذكره ودونه في كتبه المختصرات لطال جداً فضلاً عن المبسوطات وله مصنفات آخر لا يمكن أن يطلع عليها إلا من تحقق أنه على عقيدته الخبيثة ولو عصر هو وأتباعه بالعاصرات لما فيها من الزيغ والقبايح النحسات.

قال بعض العلماء من الحنابلة في الجامع الأموي في ملأ من الناس: لو اطلع الحصني على ما اطلعنا عليه من كلامه لأخرجه من قبره وأحرقه، وأكد هؤلاء أن أتعرض لبعض ما وقفت عليه وما أفتى به مخالفاً لجميع المذاهب وما خطيء فيه وما انتقد عليه وأذكر بعض ما اتفق له من المجالس والمناظرات وما جاءت به المراسيم العاليات وأتعرض لبعض ما سلكه من المكائد التي ظن بسببها أنه يخلص من ضرب السياط والجبوس وغير ذلك من الإهانات وهيهات فأول شيء سلكه من المكر والخديعة أن انتمى إلى مذهب الإمام أحمد وشرع يطلب العلم ويتعبد فمالت إليه قلوب المشايخ فشرعوا في إكرامه والتوسعة عليه فأظهر التعفف فزادوا في الغربة فيه والوقوع عليه ثم شرع ينظر في كلام العلماء ويعلق في موداته حتى ظن أنه صار له قوة في التصنيف والمناظرة وأخذ يدون ويذكر أنه جاءه استفتاء من بلد كذا وليس لذلك حقيقة فيكتب عليها صورة الجواب ويذكر ما لا يتقد عليه وفي بعضها ما يمكن أن يتقد إلا أنه يشير إليه على وجه التلبيس بحيث لا يقف على مراده إلا حاذق عالم متفنن فإذا ناظر أمكنه أن يقطع من ناظره إلا ذلك المتفنن الفطن ثم مع ذلك شرع يتلقى الناس بالإنس ووسط الوجه ولين الكلام ويذكر أشياء تحلر للنفس لا سيما الألفاظ العذبة مع اشتغالها على الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة فطلبوا منه أن يذكر الناس ففعل فطار ذكره بالعلم والتعبد والتعفف ففرغ الناس إليه بالأسئلة فكان إذا جاءه أحد يسأله عن مسألة قال له عاودني فيها فإذا جاءه قال هذه مسألة مشكلة ولكن لك عندي مخرج أقوله لك بشرط فأني أنقلدها في عنقي فيقول أنا أوفي لك فيقول إن تكتم علي فيعطيه العهود والمواثيق على ذلك فيفتيه بما فيه فرجه حتى صار له بذلك أنباع كثيرة يقومون بنصرته أن لو عرض له عارض ثم إنه علم أن ذلك لا يخلصه

فكان إذا كان في بعض المجالس قال إنا لله وإنا إليه راجعون قد انفتحت فتوق من أنواع المفساد يبعد ارتفاقها ولو كان لي حكم لكنت أجعل فلاناً وزيراً وفلاناً محتسباً وفلاناً دويداراً وفلاناً أمير البلد فيسمع أولئك وفي قلوبهم من تلك المناصب فكانوا يقومون في نصرته. ثم اعلم أن مثل هؤلاء قد لا يقدرّون على مقاومة العلماء إذا قاموا في نحره فجعل له مخلصاً منهم بأن ينظر إلى من الأمر إليه في ذلك المجلس فيقول له ما عقيدة إمامك فإذا قال كذا وكذا قال أشهد أنها حق وأنا مخطيء واشهدوا أنني على عقيدة إمامك، وهذا كان سبب عدم إراقة دمه، فإذا انفضّ المجلس أشاع أتباعه أن الحق في جهته ومعه وأنه قطع الجميع، ألا ترون كيف خرج سالماً حتى حصل بسبب ذلك افتتان خلق كثير لا سيما من العوام، فلما تكرّر ذلك منه علموا أنه إنما يفعل ذلك خديعة ومكرراً فكانوا مع قوله ذلك يسجنونه ولم يزل ينتقل من سجن إلى سجن حتى أهلكه الله عز وجل في سجن الزندقة والكفر ومن قواعد المقررة عنده وجري عليها أتباعه التوقي بكل ممكن حقاً كان أو باطلاً ولو بالإيمان الفاجرة سواء كانت بالله عز وجل أو بغيره وأما الحلف بالطلاق فإنه لا يوقعه البتة ولا يعتبره سواء كان بالتصريح أو الكناية أو التعليق أو التنجيز وهذا مذهب فرقة الشيعة فإنهم لا يرونه شيئاً وإشاعته هو وأتباعه أن الطلاق الثلاث واحدة خزعبلات ومكر وإلا فهو لا يوقع طلاقاً على حالف به ولو أتى به في اليوم مائة مرة على أي وجه سواء كان حقاً أو منعاً أو تحقيق خبر فاعرف ذلك، وأن مسألة الثلاث إنما يذكرونها تستراً وخديعة وقد وقفت على مصنف له في ذلك^(١) وكان عند شخص شريف زيني وكان يرد الزوجة إلى زوجها في كل واقعة بخمسة دراهم وإنما أطلعني عليه لأنه ظن أنني منهم فقلت له: يا هذا أتترك قول الإمام أحمد وقول بقية الأئمة بقول ابن تيمية فقال: أشهد علي أنني ثبت وظهر لي أنه كذب في ذلك ولكن جرى على قاعدتهم في التستر والتقية فنسأل الله العافية من المخادعة فإنها صفة أهل الدرك الأسفل^(٢) ثم اعلم قبل الخوض في ذكر بعض ما وقع منه وانتقد عليه أنه يذكر في بعض مصنفاته كلام رجل من أهل الحق ويدس في غرضونه شيئاً من معتقده الفاسد فيجري عليه الغي بمعرفة كلام أهل الحق فيهلك وقد هلك بسبب ذلك خلق كثير وأعظم من ذلك أنه يذكر أن ذلك

(١) هذا شيء مدعش جداً ولولا أن الذي يحكيه الإمام الحصري المعروف بشحه على دينه ما وجد ما يحكيه إلى القلوب سيلاً، اهـ مصححه.

(٢) لا يتردد عاقل في أن ما سبّحكه الإمام الحصري بعد فعل دجاجلة لا علماء فليقرأه العاقل وليعجب كيف يكون من هذه بلاياهم أئمة في دين الله، اهـ مصححه.

الرجل ذكر ذلك في الكتاب الفلاني وليس لذلك الكتاب حقيقة وإنما قصده بذلك انفضاض المجلس ويؤكد قوله بأن يقول ما يبعد أن هذا الكتاب عند فلان ويسمي شخصاً بعيد المسافة كل ذلك خديعة ومكر وتليبس لأجل خلاص نفسه ﴿وَلَا يَحِيقُ الْفَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [قاطر: ٤٣] ولهذا لم يزل فيهم التعازير والضرب بالسياط والحبوس وقطع الأعناق مع تكتهم ما يعتقدونه والمبالغة في التكتهم حتى إنهم لا ينطقون بشيء من عقائدهم الخبيثة إلا في الأماكن الخفية بعد التحرز وغلقت الأبواب والنطق بما هم عليه بالمخافة ويقولون إن للحيطان آذاناً، ومن جملة مكرهم وتحيلهم أن الكبير منهم المشار إليه في هذه الخبائث له أتباع يظهرون له العلم والعظمة والتعبد والتعفف يخدعون بذلك أبواب الأموال لا سيما الغرباء فيدفع ذلك الغريب أو غيره إلى ذلك الشيخ شيئاً فيأبى ويظهر التعفف فيزداد ذلك الرجل حرصاً على الدفع فلا يأخذ منه إلا بعد جهد فأخذها ذلك الخبيث ولا عليه من اطلاع الله تعالى على خبث طويته ويدفع بعضها إلى أتباعه وإلى غيرهم ويتمتع هو وخواصه بالباقي ولهم يد وقدرة على ذلك، ومن جملة مكرهم من هذا النوع أن يكسو عشرة مساكين قمصاناً أو غيرها ثم يقولون انظروا هذا الرجل كيف يجيئه الفتح فيؤثركم بها وغيركم ويترك نفسه وعياله وأصدقائه وهكذا كان السلف ويكون قد أخذ أضعاف ما دفع وكثير من الناس في غفلة من هذا ولولا أن ذلك من جملة النصيحة لما ذكرته ولما تعرضت له وكان ما في نفسي شاغلاً عن ذلك إلا أنه كما قال ابن عباس رضي الله عنهما بسبب نجدة الحروري المبتدع (لولا أن أكنتم علماء لما كتبت إليه) يعني جواب ما كتب إليه بأن يعلمه مسائل والقصة مشهورة حتى في صحيح مسلم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» رواه غير واحد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه منهم أبو داود وكذا الترمذي وحسنه والحاكم وصححه.

ثم إن كان المال المدفوع زكاة فلا تبرأ الذمة بدفعه إليهم لأنهم ليسوا من أهلها فليتنبه لذلك فإنه قد يخفي مع ظهوره وقد تشكك في ذلك وتلاعب الشيطان به فلنأخذ بجانب الاحتياط منه فإنه طريق السلامة والله أعلم.

واعلم أنني لو أردت أن أذكر ما هم عليه من التلبيسات والخديعة والمكر لكان لي في ذلك مزيد وكثرة، وفيما ذكرته أنموذج بينه بعضه على غيره لا بما لمن له أدنى فراسة وحسن نظر بموارد الشرع ومصادره التي أشار إليها رسول الله ﷺ وبعضها صرح به تصريحاً ظاهراً لا يخفى إلا على أكمه لا يعرف القمر.

وفي الصحيحين من حديث علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخرج قوم في آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية يقرؤون القرآن لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة».

وفي صحيح مسلم من حديث علي رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «يُخرج قوم من أمتي يقرؤون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء وليس صلاتكم إلى صلاتهم بشيء ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم لا تجاوز صلاتهم تراقيهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية».

وفي الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول وهو على المنبر: «ألا إن الفتنة هنا - ويشير إلى المشرق - من حيث يطلع قرن الشيطان» وفي رواية «إن الفتنة ههنا ثلاثاً، وفي رواية: خرج رسول الله ﷺ من بيت عائشة رضي الله عنها فقال: «رأس الكفر ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان» وهذا المبتدع من حران الشرق بلدة لا تزال يخرج منها أهل البدع كجعد وغيره.

وفي سنن أبي داود من حديث أبي سعيد الخدري وأنس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال: «سيكون في أمتي اختلاف وفرقة يحسنون القيل ويسئون الفعل يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية هم شر الخلق طوبى لمن قتلهم أو قتلوه يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء من قتلهم كان أولى بالله منهم» قالوا: يا رسول الله وما سيماهم؟ قال: «التحليق والتسبيد فإذا رأيتموهم فأيتموهم» أي اقتلوهم، والتسبيد هو الحلق واستئصال الشعر وقيل ترك التدهن وغسل الرأس وغير ذلك، والأحاديث في ذلك كثيرة وفي واحد كفاية لمن أراد الله عز وجل به الرشd والهداية فقد أوضحهم سيد الناصحين ﷺ باعتبار أوصافهم وأماكنهم إيضاحاً جلياً لا خفاء فيه ولا جهالة فلا يتوقف في معرفتهم بعد ذلك إلا من أراد الله تعالى إضلاله وإذا تمهد لك هذا أيها الراغب في فكك نفسك من ربة عقائد أهل الزيغ الضالين المضلين والافتداء بأهل السلامة في الدين.

فاعلم أنني نظرت في كلام هذا الخبيث الذي في قلبه مرض الزيغ: المنتبِع ما تشابه في الكتاب والسنة ابتغاء الفتنة وتبعه على ذلك خلق من العوام وغيرهم ممن

أراد الله عز وجل إهلاكه فوجدت فيه ما لا أقدر على النطق به^(١) ولا لي أنامل تطاوغي على رسمه وتسطيره لما فيه من تكذيب رب العالمين في تنزيهه لنفسه في كتابه المبين وكذا الازدراء بأصفياته المتخبين وخلفائهم الراشدين وأتباعهم الموقفين فعدلت عن ذلك إلى ذكر ما ذكره الأئمة المتقون وما اتفقوا عليه من تبديعه وإخراجه ببعضه من الدين فمنه ما دُوِّن في المصنفات ومنه ما جاءت به المراسيم العليا وأجمع عليه علماء عصره ممن يرجع إليهم في الأمور الملهمات والقضايا المهمات وتضمنه الفتاوى الزكيات من دنس أهل الجهالات ولم يختلف عليه أحد كما اشتهر بالقراءة والمناداة على رؤوس الأشهاد في المجمع الجامعة حتى شاع وذاع واتسع به الباع حتى في الغلوات فمن ذلك نسخة المرسوم الشريف السلطاني^(٢) ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون رحمه الله تعالى وقرئ على منبر جامع دمشق نهار الجمعة سنة خمس وسبعمائة، صورته:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي تنزه عن التشبيه والنظير، وتعالى عن المثل فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] أحمده على ما ألهمنا من العمل بالسنة والكتاب، ورفع في إيماننا أسباب الشك والارتياب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من يرجو بإخلاصه حسن العقبى والمصير، وينزه خالفه عن التحيز في جهة لقوله تعالى: ﴿وَقُوْهُ مَعَكُمْ إِنْ مَّا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي نهج سبيل النجاة لمن سلك سبيل مرضاته وأمر بالتفكر في الآيات ونهى عن التفكر في ذاته صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين علا بهم منار الإيمان وارتفع، وشيد الله بهم من قواعد الدين الحنيفي ما شرع، وأخذ بهم كلمة من حاد عن الحق ومال إلى البدع.

وبعد فإن القواعد الشرعية، وقواعد الإسلام المرعية، وأركان الإيمان العلمية، ومذاهب الدين المرضية، هي الأساس الذي يبنى عليه، والموتل الذي يرجع كل أحد إليه، والطريق التي من سلكها فاز فوزاً عظيماً، ومن زاغ عنها فقد استوجب عذاباً أليماً، ولهذا يجب أن تتعقد أحكامها، ويؤكد دوامها، وتصاب عقائد هذه الأمة عن

(١) ليأمل هذا جداً فإنه عجب، اه مصححه.

(٢) لفظ ناصر الدين صفة لموصوف محذوف قطعاً لبتقيم الكلام والتقدير الصادر من السلطان ناصر الدين الخ، اه مصححه.

الاختلاف، وتزان بالرحمة والعطف والاتلاف، وتخدم ثوائر البدع، ويفرق من فرقها ما اجتمع.

وكان ابن تيمية في هذه المدة قد بسط لسان قلمه، ومدّ بجهره عنان كلمه، وتحدث بمسائل الذات والصفات، ونص في كلامه الفاسد على أمور منكرات، وتكلم فيما سكت عنه الصحابة والتابعون، وفاه بما اجتنبه الأئمة الأعلام الصالحون، وأتى في ذلك بما أنكره أئمة الإسلام وانهقد على خلافه إجماع العلماء والحكام، وشهر من فتاويه ما استخف به عقول العوام، وخالف في ذلك فقهاء عصره، وأعلام علماء شامه ومصره، ويث به رسائله إلى كل مكان، وسمى فتاويه بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، ولما اتصل بنا ذلك وما سلك به هو ومريدوه، من هذه المسالك الخبيثة وأظهره، من هذه الأحوال وأشاعوه، وعلمنا أنه استخف قومه فأطاعوه، حتى اتصل بنا أنهم صرحوا في حق الله سبحانه بالحرف والصوت والتشبيه والتجسيم فقننا في نصرة الله مشفقين من هذا النبا العظيم، وأنكرنا هذه البدعة، وعزنا^(١) أن يشيع عن ترضنه ممالكه هذه السمعة، وكرهنا ما فاه به المبطلون، وتلونا قوله تعالى: ﴿سَبَّحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٨٠] فإنه سبحانه وتعالى تنزه في ذاته وصفاته عن العديل والنظير ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] فتقدمت مراسيمنا باستدعاء ابن تيمية المذكور إلى أبوابنا، حين ما سارت فتاويه الباطلة في شامنا ومصرنا، وصرح فيها بألفاظ ما سمعها ذو فهم إلا وتلا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] ولما وصل إلينا الجمع أولوا العقد والحل، وذوو التحقيق والنقل، وحضر قضاة الإسلام، وحكام الأنام، وعلماء المسلمين، وأئمة الدنيا والدين، وعقد له مجلس شرعي في ملا من الأئمة وجمع، ومن له دراية في مجال النظر ودفع، فثبت عندهم جميع ما نسب إليه، بقول من يعتمد ويعول عليه، وبمقتضى خط قلمه الدال على منكر معتقده^(٢) وانفصل ذلك الجمع وهم لعقيدته الخبيثة منكرون، وآخذوه بما شهد به قلمه تالين ﴿سَتَكُنُّمُ مَهْدُتُهُمْ وَتُكَلِّمُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] وبلغنا أنه قد استيب مراراً فيما تقدم، وأخره الشرع الشريف لما تعرض لذلك، وأقدم، ثم عاد بعد منعه، ولم يدخل ذلك في سمعه،

(١) هذه الفقرة محرفة ومعناها ليس بظاهر والذي يظهر أن أصلها وعزنا أن يشيع عن ترضنه ممالكه هذه السمعة، يستعيز السلطان بالله أن يشيع عنه هو تلك السمعة لأن الرجل في مملكته، اه مصححه.

(٢) ليحفظ هذا ثم ليحفظه المفرورون، اه مصححه.

بالكذب على الله تعالى أنه سبحانه وتعالى أخبر عن نفسه أنه فوق العرش ومحتجاً بلفظ الاستواء الذي هو موضوع بالاشتراك ومن قيل المجلد وهذا وغيره مما هو كثير في كلامه يتحقق به جهله وفساد تصوره وملادته وكان بعضهم يسميه حاطب ليل وبعضهم يسميه الدار الهدار وكان الإمام العلامة شيخ الإسلام في زمانه أبو الحسن علي بن إسماعيل القنوي يصرح بأنه من الجهلة بحيث لا يعقل ما يقول ويخبر أنه أخذ مسألة التفرقة^(١) عن شيوخه الذي تلقاها عن أفراس السامرة واليهود الذين أظهروا التشرف بالإسلام وهو^(٢) من أعظم الناس عداوة للنبي ﷺ وقتل علي رضي الله عنه واحداً منهم تكلم في مجلسه كلمة فيها ازدراء بالنبي ﷺ وقد وقفت على المسألة أعني مسألة التفرقة التي أثارها اليهود ليزدروه بها ويحثوا فيها على قواعد مأخوذة من الاشتقاق وكانوا يقطعون بها الضعفاء من العلماء فتصدى لهم الجهابذة من العلماء وأفسدوا ما قالوه بالنقل والعقل والاستعمال الشرعي والعرفي وأبادوهم بالضرب بالسياط وضرب الأعناق ولم يبق منهم إلا الضعفاء في العلم ودامت فيهم مسألة التفرقة حتى تلقاها ابن تيمية عن شيخه وكنت أظن أنه ابتكرها واتفق الحذاق في زمانه من جميع المذاهب على سوء فهمه وكثرة خطئه وعدم إدراكه للمأخذ الدقيقة وتصورها. عرفوا ذلك منه بالمفاوضة في مجالس العلم.

ولنرجع إلى ما ذكره ابن شاكِر في تاريخه ذكره في الجزء العشرين قال: وفي سنة خمس وسبعمائة في ثامن رجب عقد مجلس بالقضاة والفقهاء بحضرة نائب السلطنة بالقصر الأبلق فسل ابن تيمية عن عقيدته فأملئ شيئاً منها ثم أحضرت عقيدته الواسطة وقرئت في المجلس ووقعت بحوث كثيرة وبقيت مواضع أخرت إلى مجلس ثان ثم اجتمعوا يوم الجمعة ثاني عشر رجب وحضر المجلس صفي الدين الهندي ويحثوا ثم اتفقوا على أن كمال الدين بن الزملكاني يحاقي ابن تيمية ورضوا كلهم بذلك فأفحم كمال الدين ابن تيمية وخاف ابن تيمية على نفسه فأشهد على نفسه الحاضرين أنه شافعي المذهب ويعتقد ما يعتقد الإمام الشافعي فرضوا منه بذلك وانصرفوا ثم إن أصحاب ابن تيمية أظهروا أن الحق ظهر مع شيخهم وأن الحق معه فأحضروا إلى مجلس القاضي جلال الدين القزويني وأحضروا ابن تيمية وصنع ورسم بتعزيره فشفع فيه وكذلك فعل الحنفي باثنين من أصحاب ابن تيمية ثم قال: ولما كان

(١) ظاهر أنها الفوقية وكذا ما يأتي بعد كالسياق أو التفرقة بين حياة الرسول ومماته، اهـ مصححه.

(٢) ظاهر أن هذا اللفظ هم لا هو، اهـ مصححه.

سلخ رجب جمعوا القضاة والفقهاء وعقد مجلس بالميدان أيضاً وحضر نائب السلطنة أيضاً وتباحثوا في أمر العقيدة وسلك معهم المسلك الأول فلما كان بعد أيام ورد مرسوم السلطان صعبة بيريدي من الديار المصرية بطلب قاضي القضاة نجم الدين بن صصري وبابن تيمية وفي الكتاب (نمرفونا ما وقع في سنة ثمان وتسعين في عقيدة ابن تيمية) فطلبوا الناس وسألوهم عما جرى لابن تيمية في أيام نقل عنه فيها كلام قاله وأحضروا للقاضي جلال الدين القزويني العقيدة التي كانت أحضرت في زمن قاضي القضاة إمام الدين وتحدثوا مع ملك الأمراء في أن يكتب في هذا الأمر فأجاب فلما كان ثاني يوم وصل مملوك ملك الأمراء على البريد من مصر وأخبر أن الطلب على ابن تيمية كثير وأن القاضي المالكي قائم في قضيته قياً عظيماً وأخبر بأشياء كثيرة من الحنابلة وقعت في الديار المصرية وأن بعضهم صنع فلما سمع ملك الأمراء بذلك انحلت عزائمه عن المكاتبه وسير شمس الدين بن محمد المهندار إلى ابن تيمية وقال له قد رسم مولانا ملك الأمراء بأن تسافر غداً وكذلك راح إلى قاضي القضاة فشرعوا في التجهيز وسافر صعبة ابن تيمية أخواه عبد الله وعبد الرحمن وسافر معهم جماعة من أصحاب ابن تيمية وفي سابع شوال وصل البريدي إلى دمشق وأخبر بوصولهم إلى الديار المصرية وأنه عقد لهم مجلس بقلعة القاهرة بحضرة القضاة والفقهاء والعلماء والأمراء، فتكلم الشيخ شمس الدين عدنان الشافعي وادعى على ابن تيمية في أمر العقيدة، فذكر منها فصولاً فشرع ابن تيمية فحمد الله تعالى وأثنى عليه وتكلم بما يقتضي الوعظ فقليل له يا شيخ إن الذي تقولوه نحن نعرفه وما لنا حاجة إلى وعظك وقد ادعى عليك بدعوى شرعية فأجب، فأراد ابن تيمية أن يعيد التحميد فلم يمكنه من ذلك بل قيل له أجب فتوقف وكرر عليه القول مراراً فلم يزددهم على ذلك شيئاً وطال الأمر فعند ذلك حكم القاضي المالكي بحبسه وحبس أخويه معه فحبسوه في برج من أبراج القلعة فتردد إليه جماعة من الأمراء فسمع القاضي بذلك فاجتمع بالأمراء وقال يجب عليه التضييق إذا لم يقتل وإلا فقد وجب قتله وثبت كفره فنقلوه إلى الجب بقلعة الجبل ونقلوا أخويه معه بإهانة وفي سادس عشر ذي القعدة وصل من الديار المصرية قاضي القضاة نجم الدين بن صصري وجلس يوم الجمعة في الشباك الكمالي وحضر القراء والمنشدون وأنشدت التهاني وكان وصل معه كتب ولم يعرضها على نائب السلطنة فلما كان بعد أيام عرضها عليه فرسم ملك الأمراء بقراءتها والعمل بما فيها امتثالاً للمراسيم السلطانية وكانوا قد بيتوا على الحنابلة كلهم بأن يحضروا إلى مقصورة الخطابة بالجامع الأموي بعد الصلاة وحضر القضاة كلهم بالمقصورة وحضر

معهم الأمير الكبير ركن الدين بيبرس العلاني وأحضروا تقليد القضاة نجم الدين بن صصري الذي حضر معه من مصر باستمراره على قضاء القضاة وقضاء العسكر ونظر الأوقاف وزيادة المعلوم وقرئ عقيب الكتاب الذي وصل على يديه وفيه ما يتعلق بمخالفة ابن تيمية في عقيدته وإلزام الناس بذلك خصوصاً الحنابلة والوعيد الشديد عليهم والعزل من المناصب والحبس وأخذ المال والروح لخروجهم بهذه العقيدة عن العملة المحمدية ونسخة الكتاب نحو الكتاب المتقدم وتولى قراءته شمس الدين محمد بن شهاب الدين الموقع وبلغ عنه الناس ابن صبيح المؤذن وقرئ بعده تقليد الشيخ برهان الدين بالخطابة وأحضروا بعد القراءة الحنابلة مهاتين بين يدي القاضي جمال الدين المالكي بحضور باقي القضاة واعترفوا أنهم يعتقدون ما يعتقد محمد بن إدريس الشافعي رضي الله عنه وفي سابع شهر صفر سنة ثمان عشرة ورد مرسوم السلطان بالمنع من الفتوى في مسألة الطلاق الذي يفتي بها ابن تيمية وأمر بعقد مجلس له بدار السعادة وحضر القضاة وجماعة من الفقهاء وحضر ابن تيمية وسألوه عن فتاويه في مسألة الطلاق وكونهم نهوه وما انتهى ولا قبل مرسوم السلطان ولا حكم الحكام بمنعه فأنكر فحضر خمسة نفر فذكروا عنه أنه أفتاهم بعد ذلك فأنكر وصمم على الإنكار فحضر ابن طليش وشهود شهدوا أنه أفتى لحاماً اسمه قمر مسلماني في بستان ابن منجا فقبل لابن تيمية اكتب بخطك أنك لا تفتي بها ولا بغيرها فكتب بخطه أنه لا يفتي بها وما كتب بغيرها، فقال القاضي نجم الدين بن صصري: حكمت بحبسك واعتقالك، فقال له: حكمك باطل لأنك عدوي، فلم يقبل منه وأخذوه واعتقلوه في قلعة دمشق، وفي سنة إحدى وعشرين وسبعمائة يوم عاشوراء أفرج عن ابن تيمية من حبسه بقلعة دمشق وكانت مدة اعتقاله خمسة أشهر ونصف وفي سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة في السادس عشر من شعبان قدم بريدي من الديار المصرية ومعه مرسوم شريف باعتقال ابن تيمية فاعتقل في قلعة دمشق وكان السبب في اعتقاله وحبسه أنه قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد وإن زيارة قبور الأنبياء لا تشد إليها الرواحل فغيرها بقبر إبراهيم الخليل وقبر النبي ﷺ) ثم إن الشاميين كتبوا فتياً أيضاً في ابن تيمية لكونه أول من أحدث هذه المسألة التي لا تصدر إلا ممن في قلبه ضغينة لسيد الأولين والآخرين فكتب عليها الإمام العلامة برهان الدين الفزاري نحو أربعين سطراً بأشياء وآخر القول إنه أفتى بتكفيره ووافقه على ذلك الشيخ شهاب الدين بن جهيل الشافعي وكتب تحت خطه كذلك المالكي وكذلك كتب غيرهم ووقع الاتفاق على تضليله بذلك وتبديعه وزندقته ثم أراد النائب أن يعقد لهم مجلساً

ويجمع العلماء والقضاة فرأى أن الأمر يتسع فيه الكلام ولا بد من إعلام السلطان بما وقع فأخذ الفتوى وجعلها في مطالعه وسيرها فجمع السلطان لها الفضاة فلما قرئت عليهم أخذها قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة وكتب عليها (القائل بهذه المقالة ضال مبتدع) ووافقه على ذلك الحنفي والحنبلي فصار كفره مجمعاً عليه^(١) ثم كتب كتاب إلى دمشق بما يعتمده نائب السلطنة في أمره، وفي يوم الجمعة عاشر شهر شعبان حضر كتاب السلطان إلى نائب البلد وأمره أن يقرأ على السدة في يوم الجمعة فقرأه وكان قارئه الكتاب بدر الدين بن الأعززي الموقع والمبلغ ابن التجيبي المؤذن ومضمون الكتاب بعد البسملة أدام الله تعالى نعمه ونوضح لعلمة الكريم ورود مكانته التي جهزها بسبب ابن تيمية فوقفنا عليها وعلما مضمونها في أمر المذكور وإقدامه على الفتوى بعد تكرير المراسيم الشريفة بمنعه حسب ما حكم به القضاة وأكابر العلماء وعقدنا بهذا السبب مجلساً بين أيدينا الشريفة ورسنا بقراءة الفتوى على القضاة والعلماء فذكروا جميعاً من غير خلف أن الذي أفنى به ابن تيمية في ذلك خطأ مردود عليه وحكموا بجزره وطول سجنه ومنعه من الفتوى مطلقاً وكتبوا خطوطهم بين أيدينا على ظاهر الفتوى المجهزة بنسخة ما كتبه ابن تيمية وقد جهزنا إلى الجنب العالي طي هذه المكاتبة فيقف على حكم ما كتب به القضاة الأربعة ويتقدم اعتقال المذكور في قلعة دمشق ويمنع من الفتوى مطلقاً ويمنع الناس من الاجتماع به والتردد إليه تضييقاً عليه لجرائته على هذه الفتوى فيحبط به علمك الكريم ويكون اعتماده بحسب ما حكم به الأئمة الأربعة وأفنى به العلماء في السجن للمذكور وطول سجنه فإنه في كل وقت يحدث للناس شيئاً منكراً وزندقة يشغل خواطر الناس بها ويفسد على العوام عقولهم الضعيفة وعقلياتهم وعقائدهم فيمنع ما ذلك وتسد الذريعة منه فليكن عمله على هذا الحكم ويتقدم أمره به وإذا اعتمد الجنب الرفيع العالي هذا الاعتماد الذي رسنا به في أمر ابن تيمية فيتقدم منع من سلك مسالكه أو يفتي بهذه الفتاوى أو يعمل بها في أمر الطلاق أو هذه القضايا المستحدثة وإذا اطلع على أحد عمل بذلك أو أفنى به فيعتبر حاله فإن كان من مشايخ العلماء فيعزز تعزير مثله وإن كان من الشبان الذين يقصدون الظهور كما يقصده ابن تيمية فيؤديهم ويردعهم ردعاً بليغاً ويعتمد في أمر ما يجسم به مواد أمثاله لتستقيم أحوال الناس وتمشي على السداد ولا يعود أحد يتجاسر على الإفتاء بما يخالف الإجماع ويتبدع في دين الله عز وجل

(١) لينظر هذا المغرورون، اه مصححه.

من أنواع الاقتراح ما لم يسبقه أحد إليه فالجناب العالي يعتمد هذه الأمور التي عرفناه إياها الآن وسد الذرائع فيها وقد عجلنا بهذا الكتاب وبقيّة فصول مكاتبتة تصل بعد هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

وكتب في سابع عشرين رجب سنة ست وعشرين سبعمائة صورة الفتوى من المنقول من خط القضاة الأربعة بالقاهرة على ظاهر الفتوى:

الحمد لله هذا المنقول باطنها جواب عن السؤال عن قوله إن زيارة الأنبياء والصالحين بدعة وما ذكره من نحو ذلك وأنه لا يرخّص بالسفر لزيارة الأنبياء باطل مردود عليه وقد نقل جماعة من العلماء أن زيارة النبي ﷺ فضيلة وستة مجمع عليها وهذا المفتي المذكور ينبغي أن يزجر عن مثل هذه الفتاوى الباطلة عند الأئمة والعلماء ويمنع من الفتاوى الغريبة ويجلس^(١) إذا لم يمتنع من ذلك ويشهر أمره ليحتفظ الناس من الاقتداء به وكتبه محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الشافعي.

وكذلك يقول محمد بن الجريري الأنصاري الحنفي: لكن يحبس الآن جزماً مطلقاً.

وكذلك يقول محمد بن أبي بكر المالكي: وببالغ في زجره حسبما تندفع به المفصلة وغيرها من المفاصد وكذلك يقول أحمد بن عمر المقدسي الحنبلي ووجدوا صورة فتوى أخرى يقطع فيها بأن زيارة قبر النبي ﷺ وقبور الأنبياء معصية بالإجماع مقطوع بها وهذه الفتوى هي التي وقف عليها الحكام وشهد بذلك القاضي جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني فلما رأوا خطه عليها تحققوا فتواه فغاروا لرسول الله ﷺ غيرة عظيمة وللمسلمين الذين ندبوا إلى زيارته وللزائرين من أقطار الأرض واتفقوا على تبديعه وتضليله وزيفه وأهانوه ووضعوه في السجن:

وذكر الشيخ الإمام العلامة شمس الدين الذهبي بعض محتته وأن بعضها كان في سنة خمس وسبعمائة وكان سؤالهم عن عقيدته وعما ذكر في الوسطة وطلب وصورت عليه دعوى المالكي فسجن هو وأخواه بضعة عشر شهراً ثم أخرج ثم حبس في حبس الحاكم وكان مما ادعى عليه بمصر أن قال: (الرحمن استوى على العرش) حقيقة وأنه تكلم بحرف وصوت ثم نودي بدمشق وغيرها من كان على عقيدة ابن تيمية حلّ ماله ودمه^(٢).

(١) ظاهر أن اللفظ ويحبس لا يجلس، اهـ مصححه.

(٢) ليأمل العاقل هلا ثم ليأمله، اهـ مصححه.

وذكر أبو حيان النحوي الأندلسي في تفسيره المسمى بالنهر في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ما صورته: (وقد قرأت في كتاب لأحمد بن تيمية هذا الذي عاصرناه وهو بخطه سماه كتاب العرش (إن الله يجلس على الكرسي) وقد أخلى مكاناً يقعد معه فيه رسول الله ﷺ تحيل عليه التاج محمد بن علي بن عبد الحق وكان من تحيله عليه أنه أظهر أنه داعية له حتى أخذ منه الكتاب وقرأنا ذلك فيه. ورأيت في بعض فتاويه أن الكرسي موضع القدمين وفي كتابه المسمى بالتدمرية ما هذا لفظه بحروفه بعد أن قرر ما يتعلق بالصفات المتعلقة بالخالق والمخلوق (ثم من المعلوم أن الرب لما وصف نفسه بأنه حي عليم قادر لم يقل المسلمون أن ظاهر هذا غير مراد لأن المفهوم ذلك في حقه مثل مفهومه في حقنا فكذلك لما وصف نفسه أنه خلق آدم بيديه لم يوجب ذلك أن ظاهره غير مراد لأن مفهوم ذلك في حقه مثل مفهومه في حقنا) هذه عبارته بحروفها وهي صريحة في التشبيه المساوي كما أنه جعل الاستواء على العرش مثل قوله تعالى: ﴿لِنَسْأُرَّ عَنْ ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣] تعالى الله وتقدس عن ذلك.

وقال في الكلام على حديث النزول المشهور (إن الله ينزل إلى سماء الدنيا إلى مرجة خضراء وفي رجليه نعلان من ذهب) هذه عبارته الزائغة الركيكة وله من هذا النوع وأشباهه مغالاة في التشبيه حريصاً على ظاهرها واعتقادها وإبطال ما نزه الله تعالى به نفسه في أشرف كتبه وأمر به عموماً وخصوصاً وذكره إخباراً عن الملا الأعلى والكون العلوي والسفلي ومن تأمل القرآن وجده مشحوناً بذلك وهذا الخيث لا يعرج على ما فيه التنزيه وإنما يتبع المتشابه ويمعن الكلام فيه وذلك من أقوى الأدلة على أنه من أعظم الزائغين ومن له أدنى بصيرة لا يتوقف فيما قلته إذ القرائن لها اعتبار في الكتاب والسنة وتفيد القطع وتفيد ترتب الأحكام الشرعية لا سيما في محل الشبه.

قال بعض السلف رضي الله عنهم: الإعراض عن الحق والتسخط له علامة الركود إلى الباطل وطريق الحق دقيق وبعيد، والصبر معه شديد، والعدو لا يزال عنه يحميد، وأتقال الحق لا يحملها إلا مطايا الحق.

وقال بعض السلف: داعي الحق داعي رشد، ليس للشيطان فيه بد، ولا للنفس فيه نصيب، وداعي الباطل من نزغات الشيطان وهوى النفس ومتبعها هالك لا محالة لأنه عاص في صورة طائع، ومبعد في صورة مقرب، وصدق ونصح رضي الله عنه فقد هلك بسبب ذلك خلق لا يحصون عدداً، ولا يمكن ضبطهم حدأ.

قال العلماء: إن وسوسة التشبيه من إبليس فالرد عليه وإبطال وسوسته أن يقول في نفسه كل ما تصور في صدري فالرب بخلافه فإنه لا يتصور في صدري إلا مخلوق له كيفية ومثل والرب سبحانه وتعالى لا مثل له ولا كيفية فما مثل في صدري فهو غير ربي فهو سبحانه وتعالى موحد الذات والصفات.

وسئل علي رضي الله عنه عن التوحيد والعدل فقال: (التوحيد أن لا تتوهمه والعدل أن لا تتهمه).

وقال يحيى بن معاذ: (التوحيد في كلمة واحدة ما تصور في الأوهام فهو بخلافه).

وقال علي رضي الله عنه: (ليس لصفته حد محدود ولا نعت موجود).

وقال رضي الله عنه: (أول الدين معرفته وكمال معرفته التصديق به وكمال التصديق به توحيده وكمال توحيده الإخلاص له وكمال الإخلاص له نفي الصفات المحدثة عنه فمن وصفه بحادث فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثناه^(١) ومن ثناه فقد جزأه ومن جزأه فقد جهله ومن أشار إليه فقد حذّه ومن حذّه فقد عدّه).

قال المحققون: (من اعتقد في الله سبحانه وتعالى ما يليق بطبعه فهو مشبه لأنه سبحانه وتعالى منزّه عما يصفه به أو يتخيله لأن ذلك من صفات الحديث).

وسئل - أعني علياً رضي الله عنه -: بم عرفتك ربك؟ فقال: (عرفته بما عرف به نفسه لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس قريب في بُعد بعيد في قرب فوق كل شيء ولا يقال تحته شيء وأمام كل شيء ولا يقال أمامه شيء وهو في كل شيء لا كشيء في شيء فسبحان من هو هكذا وليس هكذا غيره).

وقال أيضاً رضي الله عنه: (عرفنا الله سبحانه وتعالى نفسه بلا كيف وبعث سيدنا محمداً ﷺ بتبليغ القرآن وبيان المفصلات للإسلام والإيمان وإثبات الحجة وتقويم الناس على منهج الإخلاص فصدقته بما جاء به).

وقال الإمام الحافظ محمد بن علي الترمذي صاحب التصانيف المشهورة: (من جهل أوصاف العبودية فهو بنعت الربوبية أجهل).

قال جعفر في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] (هو الذي لم يعط لأحد من معرفته غير الاسم والصفة) وقبل هو الذي لا يدرك حقيقة نعوته

(١) قوله: ثناه، أي ثناه، أي مصححه.

وصفاته إلا هو وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَفْكَهٌ ۝٦﴾ [الإخلاص: ٢] قيل هو الذي أيسر العقول من أن تطلع عليه أو تدرك ما وصف به نفسه ونسب إليه، وقيل هو السيد الذي لا نهاية لزدده وقيل هو المصمود إليه في الحوائج وقيل هو الذي لا يستغني عنه شيء من الأشياء.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: معناه الذي لا جوف له وقيل غير ذلك، وقوله: ﴿كَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُؤَلِّدْ ۝٢﴾ [الإخلاص: ٣] نفى الجنسية والبعضية، وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤] نفى الشريك والنظير فهو الذي لا نظير له في ذاته ولا صفاته ولا أفعاله فتعالى أن تدركه الأوهام والعقول والعلوم بل هو كما وصف نفسه والكيفية عن وصفه غير معقولة ولا موهومة كيف يكون ذلك وهو قديم الذات والصفات والتخيل إنما يكون في المحدثات.

وسئل الإمام العلامة أبو الحسن الدينوري عن الاستدلال بالشاهد على الغائب فقال: كيف يستدل بصفات من يشاهد ويعاين وذو مثل على من لا يشاهد ولا يعاين في الدنيا ولا نظير له ولا مثل هذا من جهل الجاهلين بالآيات التي قلبوا بها حقائق الأمور فجعلوا الآيات صفات ومعنى الآيات العلامات، وهو كلام إمام محقق وقد زلّ خلق كثير بمثل ذلك، فسبحان الأحدي الذات العلي الصفات المنزّه عن الآلات، المقدّس عن الكيفيات، المنزّه عن مشابهة المخلوقات، تعالى عما يقوله من الإلحاقات، كيف يقاس القادر بالمقدورات والصانع بالمصنوعات، وهي من آياته البينات الظاهرات، رفع السماوات ووسط الأرض وثبتها بالآوتاد الراسيات، وأتحفها بالمزن الماطرات، فزهت بأنواع النباتات المختلفة، كذلك يحيي الموتى.

﴿أَفَلَمْ نَأْتِ اللَّهَ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ بَعْدَ مَوْتِهِ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [الحديد: ١٧] قال: أرباب البصائر وذوو التحقيقات: ليس كذاته ذات، ولا كاسمه اسم من جهة المعنى ولا لصفته صفة من جميع الوجوه إلا من جهة موافقة اللفظ وكما لم يجز أن يظهر من مخلوق صفة قديمة كذلك يستحيل أن يظهر من الذات الذي ليس كمثل شيء صفة حديثة وأن التكرار من حدوث الصفة جلّ ربنا أن يحدث له صفة أو اسم إذ لم يزل بجميع صفاته واحداً ولا يزال كذلك وكل أمور التوحيد والتفريد خرجت^(١) من هذه الكلمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لأنه ما عبر عن الحقيقة بشيء إلا والعلة مصحوبة والعبارة منقوضة لأن الحق لا ينبعث^(٢) إقداره إلا على إقراره لأن كل

(١) أي ظهرت للمؤمنين وفهموها من هذه الكلمة، اه مصححه.

(٢) قوله: لا ينبعث هو لا تمتع الخ بدليل قوله بعد ذلك: لأن كل ناعت الخ، اه مصححه.

ناعت مشرف على المنعوت وجلّ ربنا أن يشرف عليه مخلوق. احتجب عن خلقه بخلقه ثم عرفهم صنعه بصنعه وساقهم إلى أمره بأمره فلا يمكن الأوهام أن تناله ولا العقول أن تختاله^(١) ولا الأبصار أن تمثله، ولا الأسماع أن تستمله^(٢)، ولا الأمانى أن تمتحنه، هو الذي لا قبل له ولا مقصر^(٣) عنه ولا معدل، ولا غاية وراءه ولا مثل، ليس له أمد ولا نهاية ولا غاية ولا ميقات ولا انقضاء، ولا يستتره حجاب، ولا يقله مكان ولا يحويه هواء، ولا يحاطه^(٤) فضاء، ولا يتضمنه خلاء.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] قال ابن عباس رضي الله عنهما: (معنى الآية ليس له نظير) وقيل الكاف صلة أعني زائدة فالمعنى ليس مثله شيء وقيل المثل صلة فالمعنى ليس كهو شيء فأدخل المثل للتأكيد فمن الجهل البين أن يطلب العبد درك ما لا يدرك وأن يتصور ما لا يتصور كيف وقد نزه نفسه بنفسه عن أن يدرك بالحواس، أو يتصور بالعقل الحادث والقياس، فلا يدركه العقل الصحيح من جهة التمثيل، ويدركه من جهة الدليل، فكل ما يتوهمه العقل فهو جسم ولا^(٥) نهاية في جسمه وجنسه ونوعه وحركته وسكونه مع ما يلزمه من الحدود والمساحة ومن الطول والعرض وغير ذلك من صفات الحدث تعالى الله عن ذلك فهو الكائن قبل الزمان والمكان المحدثين وهو الأول قبل سوابق العدم، الأبدى بعد لواحق القدم، ليس كذاته ذات، ولا كصفاته صفات، جلّت الذات القديمة الواجبة الوجود التي لم تسبق بقديم^(٦) أن تكون كالصفة الحديثة.

قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ [مریم: ٦٧] فهو سبحانه وتعالى احتجب عن العقول والأنفهام كما احتجب عن الإدراك والأبصار فعبجز الخلق عن الدرك والدرك عن الاستنباط وانتهى المخلوق إلى مثله وأسند الطلب إلى شكله.

(١) يريد أن تخيله، اه مصححه.

(٢) لعلها تشمل أي هو ليس من جنس الأصوات فتسمعه الأسماع، اه مصححه.

(٣) لعلها مفر، اه مصححه.

(٤) لعل الأصل ولا يحيط به الخ، اه مصححه.

(٥) قوله: ولا نهاية صوابه وله نهاية الخ كما هو ظاهر، اه مصححه.

(٦) قوله بقديم هو بعدم كما هو واضح، اه مصححه.

قال الصديق رضي الله عنه: العجز عن درك الإدراك إدراك، وقال رضي الله عنه: سبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته فهو سبحانه عليم قدير سميع بصير لا يوصف علمه وقدرته وسمعه وبصره بما يوصف به المخلوق ولا حقيقته وكذلك علوه واستواؤه إذ الصفة تتبع الموصوف فإذا كانت حقيقة الموصوف ليست من جنس حقائق سائر الموصوفات فكذلك حقيقة صفاته فأجهل الناس وأحمقهم وأجدهم للحق من يشبه من ليس كمثل شيء بالمخلوق المصنوع في شيء من صفاته وأفعاله وذاته ﴿سُبْحَنَكَ وَقَدْ عَلَّمَنَا يَقُولُونَ طَوْفًا كَثِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣] لأنه سبحانه وتعالى وصفاته مصون عن الظنون الكاذبة والأوهام السخيفة وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] أي ما وصفوه حق وصفه وقيل ما عظموه حق عظمتهم وقيل ما عرفوه حق معرفته وقيل غير ذلك.

قال بعض أهل المعاني والقلوب: لا يعرف قدر الحق إلا الحق وكيف يقدر أحد قدره وقد عجز عن معرفة قدره الوسائط والرسول والأولياء والصديقون، ثم قال: ومعرفة قدره أن لا تلتفت عنه إلى غيره ولا تغفل عن ذكره ولا تغتر عن طاعته إذ ذاك^(١) عرفت قدر ظاهر قدره وأما حقيقة قدره فلا يقدر قدرها إلا هو وصدق لأن الخلق تعجز عن تنزيهه بما يستحقه من كمال صفاته وعظم ذاته ولهذا نزه سبحانه نفسه بقوله: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبَّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفافات: ١٨٠] وفي هذا غاية الحث على كثرة التنزيه ودوامه مع أمره لأكمل خلقه في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] مع غير ذلك مما في أشرف الكتب مما أذكر بعضه. فقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ﴾ [الأعلى: ١] أي قل سبحان ربي الأعلى والمعنى نزه اسم ربك وأذكره وأنت له معظم وقيل نزه عن المعاني المفضية إلى نقصه وقيل نزه اسمه عن الكذب إذا أقسمت به وقيل لفظ اسم زائد وفي الكلام حذف المعنى نزه مسمى ربك الذي خلق فسوى أي مخلوقه بأن خلقه مستوياً بلا تفاوت فيه وفي أعضائه وغير ذلك من مخلوقاته فإن من هذا من بعض مصنوعاته يستحق التنزيه فكيف بمخلوقات آخر يعجز الخلق عن إدراكها لعظمها وكلها على اختلاف أجناسها وأنواعها كل يسبحه بلغته وبما يليق بجلاله.

قال تعالى: ﴿سُبْحَنَ لَهُ الْعَرْشُ السَّعِيّ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال: ﴿وَالطَّيْرُ صَفَّتْ كُلُّ قَدَمٍ صَلَاتَهُ

(١) أي لو كنت كما ذكر تعرف قدر الخ، اه مصححه.

وَتَسْبِيحُهُ [الزُّور: ٤١] قال مجاهد: تسبيح المخلوقات هو تنزيه خالقها وتوحيده بما يستحقه من كمال صفات عظم ذاته، قيل: يفقه تسبيحهم العلماء الربانيون الذين انفتحت أسماع بصائرهم والمنورون البصائر الذين يشاهدون كل شيء مرقوماً عليه بقلم القدرة هو الملك القدوس.

وقال مجاهد: كل الأشياء تسبح حيواناً وجماداً وتسبحها سبحان الله وبحمده.

وروى ابن السني أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما تستقبل الشمس فيبقى شيء من خلق الله تعالى إلا سبح الله تعالى وحمده إلا ما كان من الشيطان وأغبياء بني آدم» فقيل: ما أغبياء بني آدم؟ فقال: «شرار الخلق».

وقال شهاب^(١) بن حوشب: حملة العرش ثمانية أربعون يقولون سبحانك اللهم ويحمدك لك الحمد على حلمك بعد علمك وأربعة يقولون سبحانك اللهم ويحمدك لك الحمد على عفوك بعد قدرتك وقال: «هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ» [الحشر: ٢٣] فالملك اسم من أسمائه تعالى وكذا ملك وهو صفة مبالغة في الملك. قال تعالى: «عِنْدَ مَلِكٍ مُنْقَذِينَ» [القمر: ٥٥] فالملك هو المستغني عن كل شيء ويفتقر إليه كل شيء ونافذ حكمه في مملكته طوعاً أو كرهاً، وقيل هو القادر على الإبداع والإنشاء والإعدام وهذا على الحقيقة لا يكون إلا لله عز وجل أبداع المكونات العلويات والسفليات الجليات والخفيات أبداعها بقدرته وربها على اختلاف أطوارها بحكمته فكل ما برز فهو مقهور الوجود بكن، وكل ما انعدم فهو مقهور العدم بكن وبهذا يعلم أن إطلاق الملك على ما سواه أمر مجازي إذ المملوك لا يكون مالكاً لأن من هو تحت قهر الأغيار فهو كالعدم ولهذا لما تحقق أرباب القلوب أن الملك لله عز وجل تحققت قلبياً سكنت أنفسهم عن وصف الإضافات وتبرؤوا من الحول والقوة حتى بالإشارات فلا يقول مني ولا لي حتى قيل لبعضهم ألك رب؟ فقال: أنا عبد وليس لي نعمة ومن أنا حتى أقول لي، فهذا وأمثاله صفى نفسه عن رعونة البشرية وهواها وفك رقة رقى خيالاتها الباطلة ومناها ومحض رقى العبودية لمولائها فترى المملوك الجبابرة مع جبروتهم يخضعون ويتذللون له ولهذا تتمات ليس هذا المقام مقامها إذ الغرض التنزيه.

(١) معروف هذا الاسم بشهر، اه مصححه.

والقدوس من أسمائه عَزَّ وَجَلَّ سَمَىٰ نَفْسَهُ بِذَٰلِكَ لِيرْشِدَكَ إِلَى تَقْدِيسِهِ كَمَا أَشَارَ إِلَى ذَٰلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَسْجُدُونَ لِلْأَيْدِي وَالتَّارَ لَا يَفْقَهُونَ ۝١٦﴾ [الأنبياء: ٢٠] وفيه الحث على دوام التقديس فالقدوس قبل هو المنزَّه عما لا يليق به من الأضداد والأنداد، وقبل هو المنزَّه والمطهَّر من النقائص والعيوب وهاتان غير مرضيين عند المحققين.

قال حجة الإسلام الغواص الغزالي: وهذا في حق الباري سبحانه وتعالى يقارب ترك الأدب كما أنه ليس من الأدب أن يقال لملك ليس بحائك ولا بحجام لأن نفي الوجود يكاد يوهم إمكان الوجود وفي ذلك الإيهام نقص بل القدوس المنزَّه عن كل وصف يدركه حس أو يتصوره وهم أو يسبق إليه فكر أو يهيج به سر أو يختلج به ضمير أو يسنح له خفي خيال وقد أجاد رضي الله عنه وههنا فائدة جلييلة للمنزَّه والمشبَّه وهي أنه ينبغي للعبد أن يجعل له حظاً وافراً من تكرير هذا الاسم والإيمان في معناه فإن كان منزَّهاً عطف ذلك عليه وقدَّس نفسه وقلبه وبدنه أما نفسه فيطهرها من الأوهام المذمومة كالغضب والحقد والحسد والغش وسوء الظن والكبر وحب الشرف والعلو وحب الدنيا ولوازمها وغير ذلك ويبدلها بالأوصاف المحمودة فيطهرها أيضاً عن العاهات والشهوات وما تدعو إليه من المستحسّنات والمآلوفات إذ هي أزمة الشيطان يقود بها إلى ارتكاب الموبقات وأما القلب فيطهره بالعقد الصحيح المطابق الجازم وبالمبادرة إلى امثال الأوامر واجتناب النواهي والأهواء وتحقيق الإخلاص نية وقولاً وعملاً وبالرضى بما جرى فلا بأسف على فائت ولا يفرح بآت وذلك يرجع إلى ذوق حلاوة الإيمان القلبي لا العملي وعلامته تقديس القلب عن ملاحظة الأكوان ولا يرى الأغيار إلا على العدم الأصلي فلا يتحرك في ظاهره ولا باطنه حتى في أنفاسه إلا بالله عَزَّ وَجَلَّ وأما البدن فيطهره بماء الجوع ويكفنه بدوام التقشف ويحفظه بالعزلة ويطيبه بدوام الذكر والفكر ويدفنه في لحد الخوف فإذا قدَّسه بذلك ذهب مغناه وبقي معناه فإذا اجتمعت له هذه التقديسات ذهبت أوصافه القواطع والموانع ولاح له خزان أسرار الآيات في معارج تردد الآيات فأنمر له ذلك كشف أسرار الملكوتيات فيثمر له ذلك الشوق إلى رؤية مطلوبة فلا شيء أشهى إليه من الموت لأنه لا سبيل إلى الوصول إلى محبوبه إلا به فمن أراد أن يجلسه في حضرة القدس على منابر التقديس فليجبر على هذا التأسيس.

ومر إبراهيم بن أدهم قدس الله روحه بسكران مطروح على قارعة الطريق وقد تقياً فنظر إليه وقال: بأي لسان أصابته هذه الآفة وطهر فمه ومضى فلما أفاق السكران أخبر بما فعله به إبراهيم فخنجل وتاب وحسنت توبته فرأى إبراهيم فيما يرى النائم كان قائلاً يقول غسلت لأجلنا فمه فلا جرم أنا طهرنا لأجلك قلبه.

وأما المشبه والمجسم فلأنه بتكرار هذا الاسم يتعقل معناه فيضيه له نوره فينكشف له حجاب الضلال فإذا حقق المعنى المراد منه ظهر له نوره فأحرق حجاب الضلال فصفى قلبه للحق وزاح الباطل وقد وقع ذلك لبعض الغلاة في التشبيه والتجسيم مَرَّ يوماً على هذه الآية ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَّكَ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] فكرر هذا الاسم وتعقل معناه فقال: والله إنا لفي ضلال مبين بين فيادر في الحال وأتى بالشهادتين وقال: والله لا يخلصني إلا استئناف العمل. فانظر أرشدك الله تعالى إلى بركة تكرير هذا الاسم العظيم في حق أهل التنزيه والنشيه والله أعلم.

ثم تمام التقديس لا يحصل إلا بالتمكن بعد كمال التوحيد وحقيقة التوحيد تكون باعتبار الذات وباعتبار الفعل فتوحيد الذات ينفي الحدوث وثبوت الأحدية ينفي الأضداد وثبوت الذات ينفي التشبيه ويحير العقل في بحر الإدراك وأما توحيد الأفعال فهو شهود القدرة في المقدور ثم الاستغراق في أنوار العظمة فيغيب بذلك عن الموجودات وتبقى القدرة بارزة بأسرار التوحيد ثم الاستغراق في أنوار المحو فيغيب عن رؤية القدرة بالقادر.

ومن مقدوراته جلّ وعلا ما ذكره في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ [النبي: ٣٨] قال أبو الفرج بن الجوزي: روي عن علي رضي الله عنه في تفسيرها أن الروح ملك عظيم له سبعون ألف وجه في كل وجه سبعون ألف لسان لكل لسان سبعون ألف لغة يسبح الله تعالى بتلك اللغات كلها يخلق الله عز وجل من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الروح ملك عظيم أعظم من السماوات والأرضين والجبال والملائكة يسبح كل يوم ألف تسبيحة يخلق الله سبحانه وتعالى من كل تسبيحة ملكاً يجيء يوم القيامة صفاً والملائكة بأسرهم يجيئون صفاً.

قال ابن عباس: وهو الذي ينزل ليلة القدر زعيم الملائكة ويده لواء طوله ألف عام فيخرزه في ظهر الكعبة ولو أذن الله عز وجل له أن يلتقم السماوات والأرض لفعل وقيل الروح هنا جبريل عليه الصلاة والسلام وقيل هو ملك ما خلق الله بعد العرش خلقاً أعظم منه وقيل غير ذلك.

روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «رأيت على كل ورقة من السدرة ملكاً قائماً يسبح الله عز وجل» ومراده سدرة المنتهى، سميت بذلك لأنها لا يتجاوزها أحد من الملائكة وغيرهم ولا يعلم ما وراءها إلا الله عز وجل وهي شجرة نبق على يمين

العرش عندها جنة المأوى يأوي إليها الملائكة عليهم السلام وقيل أرواح الشهداء وقيل أرواح المتقين.

وقال الله تعالى: ﴿يَرْزُقْكُمْ أَنْتُمْ رَبُّكُمْ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرَّحْمَنُ: ٧٨] معنى ﴿تَبَارَكَ﴾ جَلَّ وعظم ومعنى ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ المستحق للرفعة وصفات التعالي ونعمت الكمال جَلَّ أن يعرف جلاله غيره تنزه وعظم شأنه عما يقول فيه المبطلون لأن كل شيء يثني عليه بقدرته وكل ذاك يذكركه على قدر طاقته وطبعه وعلمه وفهمه، والحق جَلَّ جلاله ذكره خارج عن أوهام الآدميين لأن الحادث ناقص بفهم الإيجاد والفناء والمعارف^(١) دون الغايات الجلالية فبحانه ما أثني عليه حق ثناءه غيره ولا وصفه بما يليق به سواء عجز الأنبياء والرسل بأجمعهم عن ذلك قال: أجلهم قدراً وأرفعهم محلاً وأبلغهم نطاقاً مع ما أعطي من جوامع الكلم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك وأما^(٢) الإكرام فمعناه ذو الإنعام والمنن على العام والخاص والطائع والعاصي، ووصف سبحانه وتعالى نفسه بالكريم في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الأنفطار: ٦] قال عمر رضي الله عنه: لو قيل لي ما غرك بي لقلت جهلي بك غرني، والكريم هو الذي إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وقيل هو الذي إذا أعطى زاد على منتهى الرجاء ولا يبالي لمن^(٣) أعطي وكم أعطي ولا يضيع من لا ذبه والتجاء، وقيل هو الذي يغني السائل عن الوسائل والشفعاء وإذا رفعت الحاجة إلى غيره لا يرضى، وقيل هو الذي إذا أبصر خللاً جبره وما أظهره وإذا أولى فضلاً أجزله ثم ستره وقيل غير ذلك، فمن تأمل القرآن الكريم وجدته مشحوناً بالتقديس والإجلال والتعظيم وناطقاً بإضلال أهل الإلحاد والتجسيم والحيدة عن الصراط المستقيم وطريقة السلامة في ذلك أن من أشكل عليه شيء من المتشابه في الكتاب والسنة فليقل كما أخبر سبحانه وتعالى في كتابه المبين عن الراسخين في العلم ومدحهم عليه في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَدْعُونَ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُدْعَوْنَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَيَفْتَنُونَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٧] ويقول كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث: «وما جهلتم منه فكلوه إلى عالمه» خرجه غير واحد منهم الإمام أحمد والنسائي وغيرهما ويقول كما قاله الشافعي آمنت بالله وما جاء عن الله على مراد الله

(١) لم يظهر لي في هذه العبارة معنى فلتحرر، اه مصححه.

(٢) ذو الإنعام ليس معنى الإكرام بل معنى ذو الإكرام فهنا لفظ ذو ساقط، اه مصححه.

(٣) لعله بما أعطي الخ، اه مصححه.

وآمنت برسول الله وما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ والراسخ في العلم هو من طول على محل المراد منه وسئل مالك عن الراسخين في العلم فقال: العالم العامل بما علم المتبع له. وقال عمر بن عبد العزيز: انتهى علم الراسخين بتأويل القرآن إلى أن قالوا: ﴿أَمَّا بِهٖ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] وقال بعضهم: للقرآن تأويل استأثر الله تعالى بعلمه لا يطلع عليه أحد من خلقه كما استأثر بعلم الساعة ووقت طلوع الشمس من مغربها ونحو ذلك، والخلق متعبدون بالإيمان به ومتعبدون بالمحكم بالإيمان به وبالعقل به وقيل غير ذلك ثم اعلم أنه حق على اللبيب المعتصم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والتمسك بالعروة الوثقى أن يثبت لله عز وجل ما قضى العقل بجوازه ونص الشرع على ثبوته فإن المشبهة أثبتوا لله ما لم يأذن فيه بل نهى عنه وهي زيفة سامرية ويهودية والمعطلة سلوه ما اتصف به وسفهوه ولقد أحسن أبو الحسن الأشعري في جوابه عن التوحيد حيث قال: إثبات ذات غير مشبهة بالذوات ولا معطلة عن الصفات، شعر:

الله أكبر أن يكون لذاته	كيفية كذوات مخلوقاته
أو أن تقاس صفاتنا في كل ما	تأنيبه من أفعالنا بصفاته
أبدأ عقول ذوي العقول بأسرها	متحيرات في دوام حياته
ليبدع صنعته عليه شواهد	تبدو على صفحات مصنوعاته

فكل ما ترى عينك الباصرة فهو دلائل ظاهرة على^(١) العالم مخلوق بتقدير شامل وتدبير كامل وحكمة بالغة وقدرة غير متناهية، ولو جمعت عقول العقلاء عقلاً واحداً ثم تفكروا بذلك العقل في جناح بعوضة حتى يجدوا تركيباً أحسن منه وأكمل لغنيت تلك العقول وانقطعت تلك الأفكار ولم تصل إلى درك ذرة من ذرات حكمته في تلك البعوضة على سبيل الكمال والتمام فما الظن بذوي الجلال تباركاً لأهل الضلال والجهل وما اعتقدوه من النقص مع تنزيه البحار وشوامخ الجبال فسبحان من تسبحه البحار الطوافح والجبال الشم والسحب السوانح والأمطار الطوامح والأفكار والقرائح، تقدس عن مثل وشبيهه، وتنزه عن نقص يعتريه، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور من سر أضممرته الجوانح، تعالى عن الند المماثل والضد المكارح، يفعل ما يشاء، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، هلك الجاهل والمكافح، متكلم

(١) هنا لفظ أن محذوف كما هو ظاهر، اهـ مصححه.

بكلام^(١) مسموع بالآذان^(٢) بغير آلات ولا أدوات ولا جوارح، أين لهوات الحصى وحلقوم الجذع وجارحتهما فما أجهلك بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَتْهُمْ مَائِدَتُنَا مَبِينَةً﴾ [الثلث: ١٣] نسب الأبصار إلى الآيات فأين الحدّث يا قاصح.

ومن آياته إنزال القطر بقدرته، وصيغ ألوان النبات والثمار بحكمته مع مخالفة الطعوم بمشيئته، وإرسال الرياح لواقع. موصوف بالسمع والبصر يُرى في الدجنة كما يُرى في القمر، من شبهه أو كيفه طغى وكفر. هذا مذهب أهل الحق والسنة، وإن دليلهم لجلي واضح، من شبهه أو مثل أو جسم فهو مع السامرة واليهود ومن حزبهم يوم تظهر المخبات وتبلى السرائر وتبين الفضائح، وإن قبل عنه في الدنيا إنه ولي صالح هلك الهالكون بأرالهم لأنه عمل غير صالح، وفاز المنزهون فيا لها صفقة رابح. هو الواحد المتوحد في صفاته الأزلي الجبار، العظيم العزيز القهار، تبارك وتعالى وتنزه عن درك الخواطر والأفكار، وسم كل مخلوق بميسم الافتقار، وأظهر آثار قدرته في مخلوقاته ومن أظهرها السماوات والأرض والبراري والبحار، والأعين والأنهار، وجريانها على المدار، وتصريف السحاب المسخر بين السماء والأرض واختلاف الليل والنهار ﴿إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣] يعلم حركات الأسرار، ودبيب النملة السوداء في الظلمة على سواد الصخور والأحجار، نوع هذا العالم الإنساني فمنهم شقي ومنهم سعيد وربك يخلق ما يشاء ويختار.

وصفاته كذاته والمشبّهة والمجسّمة أهل زيغ وكفار، نزه نفسه بنفسه وقُدّسها فمن شبه أو عطل فمأواه النار، ومن أناب ورجع قبله وإن ارتكب العظائم الكبار، لأنه سبحانه وتعالى عزيز غفار ستار.

ومن بديع صنعته أن خلق اليوم وليته، وقمر السماء وشمسه، وآدم عليه السلام وما مسه، علم ذلك المتزّه فتزّه قدسه، وجهله أعمى البصيرة المشبه فتصور فيه جنسه، لأنه بجهله قاس الخالق جلّ وعلا على ما ألفه وأحسه، فتراكم عليه غبار التشبيه فضاعت المحسة، وأما المعطل فجحد صفاته فما أغياه وما أحسه، وإذا كان الأمر كذلك فادفع المعطل بيدك النقية، وألحق بالمشبه دفعه ورقسه.

(١) المراد بهذا الكلام هو القرآن لأنه الذي يسمع، اه مصححه.

(٢) قوله: بغير آلات، متعلق بمتكلم فليفهم، اه مصححه.

مبحث الرد على ابن تيمية في قوله بفتاء النار

واعلم: أنه مما انتقد عليه زعمه أن النار تنفى، وأن الله تعالى يغنيها وأنه جعل لها أمداً تنتهي إليه وتنفى، ويزول عذابها وهو مطالب أين قال الله عز وجل وأين قال رسول الله ﷺ وصح عنه وقد سفه الله تعالى في ذكره في كتابه العزيز كما سفه في تنزيهه لنفسه وأتى بأمور إقناعية^(١) صادم بها النصوص الصريحة في دوام العذاب عليهم فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَمَا يُصْلَوْنَ جُلُودُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ جُلُودًا غَيْرَهَا يَصْلَوْنَ الْعَذَابُ﴾ [النساء: ٥٦] تبدل في كل ساعة مائة مرة، وقال الحسن: ناكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ﴿إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ غَرِيظًا﴾ [النساء: ٥٦] أي شديد النعمة على من عصاه، وقيل العزيز الشديد القادر القوي وقيل الغالب الذي لا يغلب والقاهر الذي لا يقهر وقيل الذي لا نظير له وقيل معناه المعز فيكون فعيل بمعنى مفعول كالأليم بمعنى المولم ونحوه.

وقال أهل المعاني وأرباب القلوب: العزيز من ظلت العقول في بحار تعظيمه وحاتر الأبواب دون إدراك نعته وكلت الألسن عن استيفاء مدح جلاله ووصف كماله والقيام بشكر آلائه، وقوله: ﴿حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧] أي حكم على الأعداء بدوام العذاب كما حكم للأولياء بدوام النعيم فلا يعلم كنه حقيقة حكمته غيره فلا شيء من الأشياء إلا وفيه شيء من حكمته على وفقه لمناسبته ﴿سَمِعَ اللَّهُ أَلْفَ نَفْسٍ تَقُولُ﴾ [الشمس: ٨٨] وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لُهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ لَحِيمٌ ۖ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۚ وَلَهُمْ مَقْتَبِعٌ مِنْ حَبِيرٍ ۖ كَلِمًا أَكْرَدُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ النَّارِ﴾ [السخف: ١٩ - ٢٢] وقال: ﴿فَلَنْ نَرْيَاكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [التبا: ٣٠] وقال تعالى: ﴿كَلِمًا نَجَتْ رِزْقُهُمْ سَمِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنْ أَلْئَارٍ وَمَا لَهُمْ مِنْ خِزْيَانٍ فِيهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّؤِيمٌ ۖ﴾ [المائدة: ٣٧] وقال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَذَابُهَا كَانَ عَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] أي مقيماً ملازماً فكل عذاب يفارق صاحبه فليس بغرام والآيات في ذلك كثيرة جداً وأما السفة فطافحة بذلك وتدل على إخراج المؤمنين دون غيرهم حتى يخرج من في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، وفي رواية مثقال ذرة من خير، فأقول: يا رب ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، أي وجب عليه الخلود. قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارٌ

(١) أي للعلماء البله الذين لم يخالطوا المؤمنين أما من عرف دين الله عالمًا ومخالطه فمعاد الله أن يقتنع بنير كلام ربه فليعلم، اهـ مصححه.

الْقُلُوبِ [فُضِّلَتْ: ٢٨] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَلَأَن الْعَذَابَ يَدُومُ بِدَوَامِ سَبِيهِ بِلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ وَهُوَ قَصْدُ الْكُفْرِ وَبِقَاءُ الْعِزِّ عَلَيْهِ وَلَا شَكَّ أَنَّهُمْ لَوْ عَاشُوا أَبَدَ الْأَبَادِ لَاسْتَمَرُّوا عَلَى كُفْرِهِمْ وَكَذَلِكَ الْمُؤْمِنُ يَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ «نَبِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ» وَفِي مَعْنَاهُ أَقْوَالٌ آخَرُ فَادْعَاءُ فَنَاءِ النَّارِ بَعْدَ أَمَدٍ نَزَعَةٍ يَهُودِيَّةٍ أَلَّا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا الْكَارُ إِلَّا أَنْتِكُمْ مَقْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠] الْآيَةَ، أَيِ قَدْرًا مَقْدُورًا، ثُمَّ يَذْهَبُ عَنِ الْعَذَابِ، وَكَانَتْ الْيَهُودُ تَقُولُ إِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا سَبْعَةُ آلَافِ سَنَةٍ وَإِنَّمَا نَعَذِّبُ بِكُلِّ أَلْفِ سَنَةٍ يَوْمًا ثُمَّ يَنْقَطِعُ الْعَذَابُ بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ وَقِيلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا الَّذِي عَبْدُ آدَامَ الْعَجَلِ فِيهَا وَكَانَتْ تَقُولُ إِنَّ رَبَّنَا عَاقَبَ عَلَيْنَا فِي أَمْرٍ فَأَقْسَمَ لِيُعَذِّبَنَا أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَلَنْ تَمُنَّا النَّارَ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقِسْمِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا. فَالرَّجُلُ سَاعَ خَلْفِ سَلْفِهِ كَمَا تَقْدُمُ وَكَمَا يَأْتِي.

مبحث الرد عليه في القول بقدم العالم

وَمَا انْتَقَدَ عَلَيْهِ، وَهُوَ مِنْ أَقْبَحِ الْقَبَائِحِ مَا ذَكَرَهُ فِي مَصْنَفِهِ الْمُسَمَّى بِحَوَادِثِ لَا أَوَّلَ لَهَا وَهَذِهِ التَّحْمِيَةُ مِنْ أَقْوَى الْأَدْلَةِ عَلَى جَهْلِهِ فَإِنَّ الْحَادِثَ مُسَبِّقٌ بِالْعَدَمِ^(١) وَالْأَوَّلُ لَيْسَ كَذَلِكَ وَبَنَى أَمْرَهُ فِيهِ عَلَى اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ الْأَفْعَالِ وَنَفَى الْمَجَازَ فِي الْقُرْآنِ وَهُوَ مِنَ الْجَهْلِ أَيْضًا فَإِنَّ الْقُرْآنَ مُعْجَزٌ وَمَحْشُورٌ بِالْمَجَازَاتِ وَالِاسْتِعَارَاتِ حَتَّى أَنَّ أَوَّلَ حَرْفٍ فِيهِ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْمَجَازِ وَتَضَمَّنَ هَذَا الْمَصْنَفُ مَعَ صَفَرِهِ شَيْئَيْنِ عَظِيمَيْنِ تَكْذِيبُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ [الحديد: ٣] فَجَعَلَ مَعَهُ قَدِيمًا وَتَكْذِيبُ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «كَانَ اللَّهُ وَلَا شَيْءٌ مَعَهُ» وَفِي الْبُخَارِيِّ مِنْ رِوَايَةِ عُمَرَانَ بْنِ حَصِينٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ وَلَيْسَ وَرَاءَهُ ذَلِكَ زَيْغٌ وَكُفْرٌ فَإِنَّ الدِّينَ مَا قَالَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ» وَقَالَ رَسُولُهُ ﷺ وَقَدْ قَالَ: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» هُوَ الْأَوَّلُ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ بِلَا ابْتِدَاءٍ كَانَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مُوجُودًا وَالْآخِرُ بَعْدَ فَنَاءِ كُلِّ شَيْءٍ بِلَا انْتِهَاءٍ وَيَبْقَى هُوَ. وَالظَّاهِرُ هُوَ الْغَالِبُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَالْبَاطِنُ هُوَ الْعَالَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ، هَذَا مَعْنَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَالْأَقْوَالُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ، وَمِنْهَا قَوْلُ أَبِي الْقَاسِمِ الْجَنْدِيِّ نَفَى الْقَدَمَ عَنْ كُلِّ أَوَّلٍ بِأَوَّلِيَّتِهِ وَنَفَى الْبَقَاءَ عَنْ كُلِّ آخِرٍ بِآخِرِيَّتِهِ وَاضْطَرَّ الْخَلْقُ إِلَى الْإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ لظَاهِرِيَّتِهِ وَحُجْبِ الْإِدْرَاكِ عَنْ إِدْرَاكِ كُنْهِهِ وَكَيْفِيَّتِهِ بِبَاطِنِيَّتِهِ. وَقَالَ أَيْضًا: هُوَ الْأَوَّلُ بِشَرْحِ الْقُلُوبِ وَالْآخِرُ بِغَفْرَانِ

(١) لَعَلَّهُ (وَالَّذِي لَا أَوَّلَ لَهُ لَيْسَ كَذَلِكَ)، اهـ مصححه.

الذنوب والظاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب. وقال السيد الجليل محمد بن الفضل. الأول: بيره والآخر بعفوه والظاهر بإحسانه، والباطن بستره، ومن حق العبد أن يجعل له حظاً من هذا الخطاب فيزين ظاهره بأنواع الخدمة ويزين باطنه بأنوار الهيبة ويحقق جميع أفعاله وحركاته وسكناته وسائر طاعاته وقرباته بالصدق والإخلاص لقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَكْفُلُ مَنَ عَلِيٍّ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وسأل عمر رضي الله عنه كعب الأحبار عن معنى هذه الآية فقال: إن علمه بالأول كعلمه بالآخر وعلمه بالظاهر كعلمه بالباطن.

ومما انتقد عليه: تكذيبه النبي ﷺ فيما أخبر به عن نبوته من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قالوا: يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال عليه الصلاة والسلام: «وَأَدَمَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ» وفي رواية «وَأَن آدَمَ لَمُنْجَدِلٍ فِي طَيْتِهِ وَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ لِّسَ فِيهِ عَلَى الْعَوَامِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ سِيَمَى الْأَفْهَامِ» يقصد بذلك الازدراء برسول الله ﷺ والحط من قدره ورتبته، وما فيه رفعه يسكت عنه يفهم ذلك منه كل عالم امتلا قلبه بعظمته ﷺ وتوقيره وبما خضه الله تعالى من مزايا المواهب الإلهية التي لم ينلها غيره.

وهذا الخبيث حريص على حط رتبته والغض منه تارة يقع ذلك منه قريباً من التصريح وتارة بالإشارة القريبة وتارة بالإشارات البعيدة التي لا يدركها إلا أهلها فمن ذلك وقد سئل على ما زعم أيما أفضل مكة أو المدينة فأجاب: مكة أفضل بالإجماع، وكتبه أحمد بن تيمية الحنبلي وعليها خطه وأنا أعرف خطه، وفي هذا الجواب دسائس وفجور ورمز بعيد فمن الفجور نسبته نفسه إلى الإمام أحمد والإمام أحمد وأتباعه برآء منه ومما هم^(١) عليه وهو لا يلتفت إليه إلا إذا كان له في ذكره غرض أما إذا لم يكن فلا يلوي على قوله ويسفه حتى فيما ينقله ويكفره فيما يعتقد أنه إذا كان على خلاف هواه.

ومن مواضع تسفيهه الإمام أحمد مسألة الطلاق، فإن الإمام أحمد قال: الذي أخبرنا بأن الطلاق واحدة أخبرنا بأن الطلاق ثلاث وعلى ذلك جرى الأئمة من جميع المذهب فإذا كان الإمام أحمد غير ثقة فبمن يوثق.

(١) هم هو، له مصححه.

وقال - أعني ابن تيمية - في الجواب عن المسألة المبسوطة والإمام أحمد أعلم الناس في زمانه بالسنة وبإلحاح في الثناء عليه فيا لله العجب من هذا الأعمى البصيرة الذي لا يحس بتناقض كلامه كيف يجعل الإمام أحمد فيما له فيه غرض أعلم الناس بالسنة ويسفه فيما لا غرض له فيه وهذا ونحوه مما يأتي في غير الإمام أحمد من أئمة الحديث يعرفك ما في قلبه من الخبث وعمي بصيرته وأنه لا عليه فيما يقوله . ومن فجوره ادعاء الإجماع على ما يقوله ويفتي به كهذه الفتوى مع شهرة الخلاف في المسألة حتى إنه مشهور في أشهر الكتب المتداولة بين الناس وهو الشفاء فإنه ذكر الخلاف بين مكة والمدينة وإن مالكا وأكثر أهل المدينة قائلون بأن المدينة أفضل من مكة وقال: أهل مكة والكوفة مكة أفضل ومحل الخلاف في غير الموضع الذي ضم سيد الأولين والآخرين ﷺ، وأما هو فالإجماع منعقد على أنه أفضل من مكة وسائر البقاع ومن حكى الإجماع القاضي عياض في الشفاء بعد أن حكى الخلاف في التفضيل بين مكة والمدينة فقال: ولا خلاف في أن موضع قبره أفضل بقاع الأرض وكذا ذكره الإمام هبة الله في كتابه (توثيق عرى الإيمان) وذكر الإمام أبو زكريا يحيى النووي في شرح مسلم ذلك فقال: قال القاضي عياض: أجمعوا على أن موضع قبره أفضل بقاع الأرض وأقره على ذلك، فسكوت الخبيث عن مثل ذلك دليل على خبث في باطنه في حق سيد الأولين والآخرين ﷺ. وفي هذه الفتوى رمز إلى عدم الاعتداد بقول عمر رضي الله عنه فإنه رضي الله عنه من القائلين بأن المدينة أفضل من مكة ويدل على ما قلته من الرمز^(١) تخطئته في الطلاق وعدم الاعتداد بذلك كما رمز إلى تكفير الصديق رضي الله عنه في قوله في بعض تصانيفه من قال الله: ورسوله في أمر يلحقه فإنه يكون مشركاً فإن الصديق رضي الله عنه لما قال النبي ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، ويؤيد ما قلته ما هو مشهور في كتبه وعند أتباعه لا ينبغي أن ينسب إلى غير الله تعالى ضرر ولا نفع ولا أنه ينبغي وهذا من الدسائس أيضاً فإنه يلبس به على كثير من الناس لا سيما الضعفاء في العلم وأصحاب الأذهان الجامدة فهي كلمة حق أريد بها باطل.

وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَمَا تَشْعُرُونَ إِلَّا أَنْ أَفْتَنَهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ قَبْلِهِ﴾ [الثورة: ٧٤] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩] وغير ذلك فهذا نص القرآن العظيم على مثل هذا القول في

الذين يقولون إنه شرك ففي قولهم قُدِّحَ في القرآن وفي رسول الله ﷺ لإقراره الصديق رضي الله عنه على هذا القول الذي هو شرك^(١) وهذا منهم كفر بيقين لأنه واجب وحتم لازم على كل أحد أن يؤمن بالقرآن وبما جاء به سيد الأولين والآخرين ﷺ عن رب العالمين من غير شك ولا ارتياب.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ۝﴾ [الفتح: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢] وقال: ﴿أَمِئُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٣٦] جمع بينهما يراو العطف للشركة ولا يجوز هذا في حق غيره عليه الصلاة والسلام ولما خطب عليه الصلاة والسلام أم سلمة رضي الله عنها فاعتذرت إليه بأعذار منها وأنا موتم مرملة في أربعة من الولد فقال لها من جملة قوله: «وأما ولدك فهم ولد أخي أبي سلمة وهم على الله وعلى رسوله» وقال: ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة: ٥٥] واعلم أن ما ذكرته من الرمز إلى الصديق والفاروق رضي الله عنهما وأن فيه أشعاراً بأنه رافضي هو كذلك، وفي الرد على الرافضي أنه رافضي وهذا نبه عليه الشيخ زين الدين القرشي والشيخ زين الدين بن رجب الحنبلي. نعم وقفت على مصنف لطيف له ولم يتم وفيه ما يدل على ما قالاه وفي هذا الكتاب رمز إلى أنه من القائلين بتناسخ الأرواح^(٢) وبعض أتباعه الذين هم رسل في التبعية يقع منه^(٣) ما يدل على ذلك، والله أعلم.

ومن الأمور الخبيثة التي وقفت عليها في فتاويه ما فيه أن بعض المكاسين مثاب في وظيفة المكس بل أبلغ من ذلك، وأقبض عنان الكلام فيه لما أخشى مما يترتب

(١) يعني في زعمهم، اه مصححه.

(٢) القول بتناسخ الأرواح كفر لأنه عبارة عن اعتقاد أن أرواح من يموتون تنصل بغيرهم فقد يكون روح الخراجة الذي مات اليوم روح أكبر عالم مرشد زاهد ورع بعد ذلك والعكس، وقد يتصل روح الخنزير الذي مات بمحمد الذي ولد بعد ذلك وبكس، وقد يتصل بعد ذلك بكلب ثم يتصل بحمار ثم يتصل بشي وهكذا إلى غير نهاية، وهذا يقتضي أن لا بعث وأن لا جزاء، فإن الروح لا يقف عند حد معلوم يجازي عليه بل قد يكون بحال يقتضي العذاب ويسبح بحال يقتضي النعيم ثم بحال لا يقتضي عذاباً ولا نعيماً وهكذا، وهذا غير ما تنطق به الشرائع الإلهية كلها فهو مصادم للأنبياء ولما جاء به الأنبياء، وكيف لا يكون ما هذا حاله كُفراً وهذا المذهب لا دليل عليه من العقل مع كونه مع الشرع كما ذكرنا وذلك أن الأرواح ليست من عالم المحسوسات حتى نراها ونحكم عليها وهي لم تخبرنا عن نفسها بشيء فالجهالة بها مطلقة، اه مصححه.

(٣) أي من ذلك البعض، اه مصححه.

على التصريح من أهل المكس وتجربتهم عليه وقرر ما قاله بتقرير مقبول في شق وأهمل الآخر فلما وقفت على ذلك قب بدني وهجت على الكلام في ذلك وكان شخص من الحنابلة يدعى بعلاء الدين بن اللحام البعلبكي وكان عندهم عظيماً وصنف في مذهب الإمام فأتيته وهو في حلقة في الجامع الأموي وهم يقرؤون عليه في بعض مصنفاته فسألته عن شيء يتعلق بمسألة تقرأ عليه في كتابه فما أجاب ثم أخرى فما أجاب ثم قلت: ما هذه المسألة التي ذكرها الشيخ تقي الدين بن تيمية في المكس فقال: وشرع يقرر ما قرره ابن تيمية فأخذت الشق الآخر وقررت فسكت ولم يجد جواباً فقلت: يلزم أحد شيئين إما بطلان ما قاله أو تكفيره فقال: هذه المسألة ما هي في فتاويه وأنا اختصرتها فهذه قاعدة من قواعدهم يبحثون مع الخصم فإن ظفروا به فلا كلام وإن ظفر بهم قالوا هذه ما هي في كلامه فهم خلف إمامهم في المكر والخديعة والكذب وقد خاب من افترى، والله أعلم.

ومن الأمور المنتقلة عليه: وهو من أقبح القبائح وشر الأقوال وأخسها مسألة التفرقة التي أحدثها غلاة المنافقين من اليهود وعصوا أمر النبي ﷺ واستمر عليها أتباعهم الذين يظهرون الإسلام وقلوبهم منطوية على بغض النبي ﷺ ولم يقدروا أن يتوصلوا إلى الغض منه إلا بذلك. وقد ذكر المسألة الأئمة الأعلام فاذا ذكر بعض كلامهم فيها ثم أعود إلى تميمه مستدلاً بأمور سمعية وغيرها تفيد جلالته وعظامته وحياته في قبره ﷺ وبقائه حرمة على ما كان عليه في حياته ويقطع الواقف عليها أو على بعضها بأن القائلين بالتفرقة من متغالي أهل الزيغ والزندقة وأن ابن تيمية الذي كان يوصف بأنه بحر في العلم لا يستغرب فيه ما قاله بعض الأئمة عنه من أنه زنديق مطلق ومببب قوله ذلك أنه تتبع كلامه فلم يقف له على اعتقاد حتى أنه في مواضع عديدة يكفر فرقة ويضللها وفي آخر يعتقد ما قالت أو بعضها مع أن كتبه مشحونة بالتشبيه والتجسيم والإشارة إلى الإزدراء بالنبي ﷺ والشيخين وتكفير عبد الله بن عباس رضي الله عنه وأنه من الملحدين وجعل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من المجرمين وأنه ضال مبتدع، ذكر ذلك في كتاب له سماه (الصرائط المستقيم والرد على أهل الجحيم) وقد وقفت في كلامه على المواضع الذي كفر فيها الأئمة الأربعة^(١)

(١) أحب أن لا يستغرب القارئ شيئاً يراه منسوباً إلى هذا الرجل بعد تصريح العلماء عنه أنه يستخف برسول الله ﷺ ويزدريه ويصغر من شأنه فإن الذي يجترئ على أسعى مقام في الرجود لا ينهي ما دونه فليعلم، اه مصححه.

وكان بعض أتباعه يقول إنه أخرج زيف الأئمة الأربعة يريد بذلك إضلال هذه الأمة لأنها تابعة لهذه الأئمة في جميع الأقطار والأمصار وليس وراء ذلك زندقة.

ولنرجع إلى قول بعض الأئمة فمنهم: الإمام العلامة شيخ شيوخ وقته أبو الحسن علي القنوي قال بعد ذكره أشياء لا أطول بذكرها وفيها دلالة على أن التوسل بالنبي ﷺ في الحاجات بعد وفاته كالتمسك به في حال حياته ثم قال: وهذا وأمثاله يرد على هؤلاء المبتدعة الذين نبغوا في زماننا ومنعوا التوسل برسول الله ﷺ وقد جمع بعضهم كلاماً يتضمن نفي عمله ﷺ بعد الوفاة ونقل طائفة منهم التفرقة بين حياته وحال وفاته فقال: (والتفريق بين الحياة والوفاة كان ثابتاً عند الصحابة فلهذا استسقى أمير المؤمنين عمر بالعباس ولولا هذا التفريق الواضح عندهم لما عدل عمر مع جلالة وكونه خليفة راشداً وكان يشاور أيضاً - عن قبر رسول الله ﷺ إلى غيره) ثم قال: (هذا لفظ المبتدع الجاهل التي قامت البيعة عليه بأشياء من هذا القبيل وعزر على ذلك التعزير البالغ بالضرب المبرح والحبس وغير ذلك في شهور ستة خمس وعشرين وسبعمائة بالقاهرة وهذا الكلام من التفرقة بين الحالتين والاستناد فيه إلى استسقاء عمر بالعباس ليس له وإنما هو لشيخه فإنه لما أظهر القول بنفي التوسل برسول الله ﷺ أورد عليه حديث الاستسقاء ففزع إلى التفرقة المذكورة ولا متشبث في الحديث المذكور فإن عمر رضي الله عنه إنما قصد أن يقدم العباس ويأمر الدعاء بنفسه وهذا لا يتصور حصوله من غير الحي أي الحياة الدنيوية، وأما التوسل برسول الله ﷺ فلا نسلم أن عمر رضي الله عنه تركه بعد موته.

وتقديم العباس ليدعو للناس لا ينفي جواز التوسل به مع ذلك، ثم قال: وهذا القول الشنيع والرأي السخيف الذي أخذ به هؤلاء المبتدعة من التحاقه ﷺ بالعدم حاشاه من ذلك - يلزمه أن يقال إنه ليس رسول الله ﷺ اليوم وهو قول بعض الضالين.

قال أبو محمد حزم في كتابه الملل والنحل: (حدثت فرقة مبتدعة تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ﷺ ليس هو اليوم رسول الله لكن كان رسولاً) ثم قال: (وهذه مقالة خبيثة مخالفة لله عز وجل ولرسوله ﷺ ولما عليه أهل الإسلام منذ كان أهل الإسلام إلى يوم القيامة) قال: (وإنما حملهم على هذا الرأي الخبيث قولهم الآخر الخبيث إن الروح عرض والعرش ينفى أبداً أو يحدث ولا يبقى وقتين) قال: (فروح رسول الله ﷺ عند هؤلاء بطل ولا روح له الآن عند الله وأما جسده ففي قبره تراب فبطلت نبوته ورسالته بموته عندهم فتعوز بالله من هذا القول

فإنه كفر صراح لا تردد فيه، ويكفي في بطلان هذا القول الفاحش الفظيع إنه مخالف لما أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ واتفق عليه أهل الإسلام من الأذان في الجوامع والصوامع وأبواب المساجد جهاراً في شرق الأراضى وغربها كل يوم خمس مرات بأعلى أصواتهم قد قرنه الله تعالى بذكره أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن سيدنا محمداً رسول الله، كان يجب أن يقال على قولهم أشهد أن محمداً كان رسول الله وكذلك كان يجب أن يقال في ثاني الشهادتين في الإسلام وقد قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا قَدْ قَضَيْتُهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ تَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أُرْسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقال تعالى: ﴿وَبِإِذْنِهِ يَنْتَظِرُ﴾ [الزمر: ٦٩] فسامهم الله عز وجل بعد موتهم رسلاً ونبیین والأصل الحقيقة وكذلك أجمع المسلمون وجاء به النص أن كل مصل فرضاً أو نفلاً يقول في تشهد السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ولو كان بعد موته في حكم العدم لما صحت هذه المخاطبة) هذا معنى كلام ابن حزم ثم قال: (إن ابن حزم أورد على نفسه إيرادات وأجاب عنها) قلت: وقد حذفتها أنا لأجل الإطالة ولا نسع عقول العوام وكثير ممن أشير إليه بالعلم أن يدركها ويدرك الجواب، ثم قال: (وإنما أطلت النفس في هذه المسألة وإن كانت في غاية الوضوح لقرب العهد بهذين من أظهر الخلاف فيها وأفسد به عقائد خلق كثير من العوام فلذلك استطرقت في هذا المقام بما يتعلق بهذه المسألة هذا المقدار اليسير من الكلام وللمقال فيها مجال واسع لكن إشباع القول في ذلك خارج عما نحن بصدده في هذا الكتاب والله تعالى أعلم).

وهذا الكتاب الذي أشار إليه ومنه نقلت يقال له (شرح التعرف لمذهب أهل التصوف) وأعلم أرشدنا الله وإياك أيها الموفق المنزه المعظم لسيد الأولين والآخرين ﷺ ولذريته الذين بهم تم الدين ولسائر الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين إن في هذا الذي ذكره الأئمة كفاية لمن له أدنى فهم ودراية إلا أنني وعدت بذكر شيء وخلف الوعد صعب شديد فأنا أذكر نبذة يسيرة وأرجو من الله عز وجل حصول البركة فيها وقد ذكرت في كتاب (تنبيه السالك على مظاهر الممالك) جملة كثيرة تتعلق بذلك وبغيره وسقت فيها فتواه المطولة والجواب عما قاله ذكرته في فضل الحج والله أعلم.

ومن الأمور المهمة معرفة الإنسان حاله في التوفيق والخذلان فمن الخذلان عدم إيمان الإنسان بالآيات والنذر كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنْفِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] قيل: المعنى لا تصل العقول الخالية عن التوفيق إلى سبيل

النَّجَاةَ وَمَا يَغْنِي ضِيَاءُ الْعَقْلِ مَعَ الْخِذْلَانِ إِنَّمَا يَنْفَعُ نَوْرَ الْعَقْلِ مُؤَيِّدًا بِنُورِ التَّوْفِيقِ وَعِنَايَةِ الْأَزَلِ وَإِلَّا فَإِنَّهُ مَتَخَبُطٌ بِإِدْرَاكِهِ بِعَقْلِهِ فَإِذَا وَعَيْتَ مَا قَلَّتْهُ وَوَقِفْتَ عَلَى بَعْضِ مَا أَذْكَرُهُ مِنَ الْأَدْلَةِ وَلَمْ تَجِدْ قَلْبَكَ مُؤَمَّنًا بِهَا فَاعْلَمْ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْخِذْلَانِ وَمَرْقُومٌ فِي حِزْبِ الشَّيْطَانِ وَتَابِعْ لِأَهْلِ الْبِدْعِ عَصَاةَ الرَّحْمَنِ.

قال كعب الأحبار: تجد الرجل يستكثر من أنواع البر ويحناط في^(١) صانع المعروف ويكابد سهر الليل وشدة ظمأ الهواجر وهو مع ذلك لا يساوي عند الله جيفة حمار يشير إلى أهل البدع والتبري منهم بحيث لا يمكن سماعه من ذي هوى، لما صالح عمر رضي الله عنه أهل بيت المقدس وقدم عليه كعب الأحبار وأسلم وفرح به عمر رضي الله عنه وبإسلامه.

قال له عمر: رضي الله عنه هل لك أن تسير معي إلى المدينة وتزور قبر النبي ﷺ وتنتفع بزيارته قال: نعم يا أمير المؤمنين افعل ذلك، فهذا ضريح في النذب إلى زيارة قبره عليه الصلاة والسلام وشد الرحل وأعمال المطي إليه والكلام على هذا يأتي إن شاء الله تعالى.

بيان زندقة من قال إن روحه عليه الصلاة والسلام فئت وأن جسده صار تراباً وبيان زيغ ابن تيمية وحزبه في جواب الفتوى التي زعم أنه سئل عنها:

فقال في جوابه: الحمد لله رب العالمين، من استغاث بعيت أو غائب من البشر بحيث يدعوه في الشدائد والكربات، ويطلب منه قضاء الحاجات، فيقول: يا سيدي الشيخ فلان أنا في حسبك أو في جوارك، أو يقول عند هجوم العدو عليه: يا سيدي فلان، يستوحيه أو يستغيث به، أو يقول نحو ذلك عند مرضه وفقره وغير ذلك من حاجاته، فإن هذا ظالم ضال مشرك، وفي بعض النسخ كافر عاص لله تعالى باتفاق المسلمين فإنهم متفقون على أن الميت لا يسأل ولا يدعى ولا يطلب منه شيء سواء كان نبياً أو غير ذلك ثم أكد ما قاله بقصة عمر والعباس في الاستسقاء تبعاً لشيخه الجاري خلف سلالة اليهود، وأنت أرشدك الله تعالى وبصرك إذا تأملت ما قاله في هذا الجواب اقشعر جلدك وقضيت العجب مما فيه من الخباثات والفجور وادعاء انفاق المسلمين وما فيه من الرمز إلى تكفير الأنبياء وتضليلهم والتليس على الأغبياء بقصة عمر رضي الله عنه وليت شعري من أي الدلالات أن من توجه إلى قبر سيد الأولين

(١) صانع المعروف صوابها صانع، اهـ مصححه.

وَالْآخَرِينَ ﷺ وَتَوَسَّلَ بِهِ فِي حَاجَةِ الْإِسْتِقَاءِ أَوْ غَيْرِهَا بِصِيرِ بِذَلِكَ ظَالِمًا ضَالًّا مُشْرِكًا كَافِرًا. هَذَا شَيْءٌ تَقْشَعُرُ مِنْهُ الْأَبْدَانُ وَلَمْ نَسْمَعْ أَحَدًا فَاهٍ بَلْ وَلَا رَمَزَ إِلَيْهِ فِي زَمَنِ مِنَ الْأَزْمَانِ. وَلَا بَلَدَ مِنَ الْبُلْدَانِ، قَبْلَ زَنْدِيقِ حِرَانَ، قَاتِلِهِ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ فَعَلَ، جَعَلَ الزَنْدِيقَ الْجَاهِلَ الْجَامِدَ قِصَّةَ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَامَةً^(١) لِلتَّوَصُّلِ بِهَا إِلَى خُبَيْثِ طَوَيْتِهِ فِي الْأَزْدَرَاءِ بِسَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ وَأَكْرَمِ السَّابِقِينَ وَاللَّاحِقِينَ وَحِطَّ رَتْبُهُ فِي حَيَاتِهِ وَأَنْ جَاهَهُ وَحَرَمَتِهِ وَرِسَالَتِهِ وَغَيْرَ ذَلِكَ زَالَ بِمَوْتِهِ وَذَلِكَ مِنْهُ كُفْرَ بَيِّقِينَ وَزَنْدَقَةَ مُحَقِّقَةٍ فَإِنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَرَمَتُهُ وَقَدْرُهُ وَمَنْزِلَتُهُ عِنْدَ رَبِّهِ مَا زَالَتْ وَلَمْ تَزَلْ وَهُوَ سَيِّدٌ وَلَدَ آدَمَ وَأَكْرَمَهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الدَّوَامِ، وَمَنْ تَأَمَّلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ وَجَدَهُ مَشْحُونًا بِذَلِكَ وَقَدْ ذَكَرْتُ جُمْلَةً مِنْ ذَلِكَ فِي مَوْلَدِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَشِيرُ هُنَا إِلَى نُبْذَةِ سِيرَةٍ مِنْ ذَلِكَ لِيَتَحَقَّقَ السَّمْعُ لَهَا خُبَيْثُ هَذَا الزَنْدِيقِ وَمَا انْطَوَى عَلَيْهِ بَاطِنُهُ مِنَ الْخُبَيْثِ بِإِبْدَالِهِ هَذِهِ الْأَنْوَاعَ مِنَ التَّعْظِيمِ بِالْأَزْدَرَاءِ وَمَا فَاهُ بِهِ مِنَ الْفُجُورِ وَالْإِفْتِرَاءِ كَمَا تَرَى:

سَلْ عَنْ فُضَائِلِهِ الزَّمَانَ لِتُخْبِرَا فَنُظِيرُ مَجْدَكَ يَا مُحَمَّدَ لَا يَرَى
وَلَقَدْ جُمِعَتْ مَنَاقِبًا مَا اسْتَجْمَعَتْ مَا اسْتَجْمَعَتْ يَا سَيِّدِي فَتُفْسِرَا
مَا بَيْنَ مَجْدِكَ وَالْمَحَاوِلِ نِيلُهُ إِلَّا كَمَا بَيْنَ الشَّرِّ وَالشَّرِّ

فَمِنْ ذَلِكَ: أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى تَوَلَّى عَصَمَتَهُ بِنَفْسِهِ فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ بِقَوْمِكَ مِنْ أَتَائِيٍّ﴾ [الْمَائِدَةُ: ٦٧] وَحَقًّا عَصَمَهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ حَفَظَهُ فِي ظَاهِرِهِ مِنْ أَنْ يَنَالُوا مَا هُمُومًا بِهِ وَرَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نَحْوِهِمْ وَحَفَظَهُ فِي بَاطِنِهِ مِنَ النَّاسِ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ إِلَيْهِمُ الْتِفَاتٌ أَوْ يَكُونَ لَهُ بِهِمْ اشْتِغَالٌ صَانَ سِرَّهُ عَنْ مَوَارِدِ السَّكُونِ إِلَيْهِمْ وَعَنْ نَزَغَاتِ الشَّيْطَانِ وَفَلَتَاتِ النَّفْسِ.

وَمِنْهَا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاةَ الرَّسُولِ يَتَنَبَّئُكُمْ كَذِبًا بِبَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [الْثَّوْر: ٦٣] قِيلَ: مَعْنَاهُ لَا تَدْعُوهُ بِاسْمِهِ كَمَا يَدْعُو بَعْضُكُمْ بَعْضًا يَا مُحَمَّدُ يَا عَبْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ فَخْمُوهُ وَعَظِّمُوهُ وَشَرِّفُوهُ وَقُولُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَعَ لَيْنٍ وَتَوَاضَعٍ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ.

(١) قَوْلُهُ لِلتَّوَصُّلِ بِهَا إِلَى خُبَيْثِ طَوَيْتِهِ فِي الْأَزْدَرَاءِ الْخُ وَالصُّوَابُ أَنْ تَقْدَمَ فِي وَتُؤَخَّرَ إِلَى لِيُظْهِرَ مَعْنَى الْكَلَامِ، اهـ مَصْحُوحٌ.

وقيل: معناه احذروا دعاء الرسول عليكم فإن دعاءه مستجاب لا يُرد وليس كدعاء غيره، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: معناه من ضيَّع حرمة الرسول ﷺ فقد ضيَّع حرمة الله عز وجل ومن ضيَّع حرمة الله فقد دخل في ديوان الأشقياء، وحرمة الرسول ﷺ من حرمة الله تعالى بل من ضيَّع حرمة الأولياء فقد عرض نفسه للهلكة.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] أي عليهم بالتوحيد ﴿وَمُشِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥] أي لهم بالتأييد والمغفرة ﴿وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩] أي محذراً إياهم الزيف والضلالات ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتُعِزَّيْنَهُ وَتُقِرُّوهُ﴾ [الفتح: ٩] أي تعظموه تعظيماً يليق به ويمرتبه.

قال الأئمة: لم يؤمن بالرسول من لم يعزه ويعز أومره ويوقره ويوقر أصحابه رضي الله عنهم.

ومنها: قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي بمحمد ﷺ ﴿وَعَصَوْا﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي وقروه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] بذلوا أنفسهم في نصرته وأموالهم ﴿وَاتَّبَعُوا آلَ الْفِرِّاءِ الَّذِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِمُ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وهو القرآن ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفٰلِقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧] أي الفائزون حصر الفلاح فيهم، فهذه الآيات موجبة لتوقيره وتعظيمه وتبجيله وتعريف قدره عند ربه.

ومنها: قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] قال عمر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ أثناء كلام طويل: «يا بني أنت وامي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن جعل الله عز وجل طاعتك طاعة».

وقال جعفر الصادق: معناه من عرفك بالنبوة والرسالة فقد عرفني بالربوبية والألوهية، وقيل بطاعتك يصل العبد إلى الحق وبمخالفتك يقطع عنه، وقيل غير ذلك، ومن أحسنها من ألزم نفسه طاعته وصحح الاقتداء به أوصله إلى مقامات الأنبياء والصديقين والشهداء، لا ترى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَالشَّاهِدِينَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية.

ومنها: وهو أبلغ مما تقدم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ [الفتح: ١٠] أي يا محمد ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠] نفى سبحانه وتعالى الوساطة في المبايعة وقد تنبه لذلك أرباب المعالي والقلوب العارفون بمراتبه عليه الصلاة والسلام وما وهبه الله تعالى من سني الأوصاف التي لا تليق بغيره ولا يقدر على حملها إلا هو،

قالوا: (إن البشرية في نبيه ﷺ عارية^(١)) وأضافه دون الحقيقة) وهو كلام حكيم منور القلب.

وقال بعضهم: لم يظهر الحق سبحانه وتعالى مقام الجمع على أحد بالتصريح إلا على أخص نسمة وأشرفها وهو المصطفى فقال: ﴿إِنَّ إِلَهِكَ يَأْتِيكَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِّنَ النَّارِ﴾ [الفتح: ١٠] ومنها قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد الأذان والإقامة والشهد والخطبة على المنابر، فلو أن عبداً عبد الله وصدقه في كل شيء ولم يشهد أن محمداً رسول الله لم يسمع منه ولم ينتفع بشيء وكان كافراً.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأل جبريل عليه السلام عن هذه الآية فقال: «قال الله عز وجل إذا ذكرت ذكر معي» وقال قتادة رضي الله عنه: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة» وقيل: رفع ذكره بأخذ الميثاق على النبيين والزمهم الإيمان به والإقرار به، وقيل: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] ليعرف المذنبون قدر ربك لدي ليتوسلوا بك إلي فلا أورد أحداً عن مسأله فأعطيه إياها إما عاجلاً وإما أجلاً ولا أخيب من توسل بك وإن كان كافراً، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَكَاذِبًا مِّن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩] وسيأتي الكلام على هذه الآية، وقيل غير ذلك.

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة قيل: بكى مكة لفقد بدموع الحرقه على الخد وقالت: وأسفاً على من أنزل عليه ﴿لَا أَقِيمُ يَدَا إِلَهِكَ﴾ [البند: ١] وهو مكة لحلولك فيه ومن جعل لا أصلية فالمعنى ﴿لَا أَقِيمُ يَدَا إِلَهِكَ﴾ [البند: ١] وأنت حال فيه بل أقسم بك وبحياتك وهذا يدل على علو قدره عند ربه ورفعه التي لم يفز بها غيره.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن جبريل عليه الصلاة والسلام قال: قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد ﷺ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما من رواية أبي الجوزاء رضي الله عنه: ما خلق الله ولا ذراً ولا براً

(١) قوله عارية وأضافه دون الحقيقة لفظ وأضافه بالضمير هو إضافة بالناء ومعنى هذا الكلام غامض وكان قائله يريدون أن يقولوا إن حقيقته ﷺ ملكية وإن كانت صورته بشرية وهو معنى يكون مدحاً إن سلم أن حقيقة الملكية أفضل من حقيقة البشرية وليس لنا قسم آخر يراد إلحاقه ﷺ به إلا الإلهية ولا يتصور أن يكون مراداً للقالين فليعلم، اهـ مصححه.

نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ وَلَا رَأَيْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَقْسَمَ بِحَيَاةِ أَحَدٍ إِلَّا بِحَيَاتِهِ فَقَالَ: ﴿لَتَمُرَّكَ إِنَّهُمْ لَيَ سَكْرَتِهِمْ يَمَهُونَ﴾ [الجعر: ٧٢] وَالْعَمَهُ فِي الْبَصِيرَةِ وَالْعَمَى فِي الْبَصْرِ.

وَفِي رَوَايَةِ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الْمَعْنَى وَعَيْشُكَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَمَهُونَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَقْسَمَ بِحَيَاةِ مُحَمَّدٍ لِأَنَّ حَيَاتَهُ كَانَتْ بِهِ وَهُوَ فِي قَبْضَةِ الْحَقِّ وَبِطَاقِ الْقُرْبِ وَشَرَفِ الْإِنْبِطَاقِ وَمَقَامِ الْإِتِّفَاقِ الَّذِي لَا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُ فَبِحَيَاتِكَ يَكُونُ الْقَسَمُ فَإِنَّ الْكُلَّ زَاغُوا وَمَا زَغَتْ وَمَالُوا وَمَا مَلَتْ حَتَّى يَرَأْنَاكَ وَنَزْلَانَاكَ مِنْزَلَةً مَا نَالَهَا غَيْرُكَ وَلَا يَنَالُهَا أَحَدٌ سِوَاكَ وَقِيلَ الْمَعْنَى وَحَيَاتِكَ الَّتِي خَصَصْتَ بِهَا بَيْنَ الْخَلْقِ فَحَيُّوا بِالْأَرْوَاحِ وَحَيَّيْتُ بِنَا وَلِهَذَا تَمْتَمُ ذِكْرُهَا فِي الْمَوْلَدِ بِتَعْيِينِ الْوُقُوفِ عَلَيْهَا.

وَقِيلَ: أَقْسَمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْأَوَّلِ بِحَيَاتِهِ لِيُظْهِرَ شَرَفَهُ وَعُلُوَّ قَدْرِهِ وَدُنُوَّ مَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ لِيَتَوَسَّلَ الْمُتَوَسِّلُونَ بِهِ إِلَيْهِ قَبْلَ بَرُوزِهِ إِلَى الْوُجُودِ وَفِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَلِهَذَا وَغَيْرُهُ لَمْ يَزَلْ أَهْلُ الْإِيمَانِ يَتَوَسَّلُونَ بِهِ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ مِنْ غَيْرِ نَكِيرٍ، وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَهُمْ عِلْمٌ مِنْ ذَلِكَ فَكَانُوا يَتَوَسَّلُونَ بِهِ قَبْلَ جُودِهِ فَيَسْتَجَابُ لَهُمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَاوُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَنْبِئُونَكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَتْ أَهْلُ خَيْبَرَ تَقَاتِلُ غُطَفَانَ كُلَّمَا اتَّقَوْا هَزَمَتْ غُطَفَانُ يَهُودَ فَعَازَتْ يَهُودَ بِهَذَا الدَّعَاءِ: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ بِحَقِّ النَّبِيِّ الَّذِي وَعَدْتَنَا أَنْ تُخْرِجَهُ لَنَا آخِرَ الزَّمَانِ إِلَّا نَصَرْتَنَا عَلَيْهِمْ، فَكَانُوا إِذَا اتَّقَوْا وَدَعَوْا بِهَذَا الدَّعَاءِ هَزَمَتْ يَهُودُ غُطَفَانَ وَيَهُودَ غَيْرَ مُنْصَرِفٍ لِلْعِلْمِيَّةِ وَالتَّائِيثِ عِلْمٌ عَلَى^(١) قَبِيلَةٍ فَلَمَّا بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ كَفَرُوا بِهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَكَاوُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَنْبِئُونَكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩] أَيْ يَدْعُونَ بِكَ يَا مُحَمَّدُ، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَقَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

وَإِذَا كَانَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَجِيبُ لِأَعْدَائِهِ بِالتَّوَسُّلِ بِهِ ﷺ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ مَعَ عِلْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِهِ وَيُؤْذُونَهُ وَلَا يَتَّبِعُونَ النُّورَ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ قَبْلَ جُودِهِ وَبَرُوزِهِ إِلَى الْوُجُودِ وَإِرْسَالِهِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَكَيْفَ لَا يَسْتَجِيبُ لِأَحْبَائِهِ إِذَا تَوَسَّلُوا بِهِ بَعْدَ جُودِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَبِعِشَّةِ رَحْمَةِ الْعَالَمِينَ، وَإِذَا كَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَكَيْفَ لَا يَتَوَسَّلُ وَلَا يَتَشَفَّعُ بِهِ.

(١) هِيَ أُمَةُ مُوسَى عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أَيْ صَاحِبِ الْفِرْعَوْنِ.

ومن أنكر التوسل به والتشفع به بعد موته وأن حرمة زالت بموته فقد أعلم الناس ونادى على نفسه أنه أسوأ حالاً من اليهود الذين يتوسلون به قبل بروزه إلى الوجود وأن في قلبه نزغة هي أخبث النزغات وهذا آدم عليه السلام توسل به كما هو مشهور.

ورواه غير واحد من الأئمة منهم الحاكم في مستدركه على الصحيحين من حديث عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما اقترف آدم الخطيئة قال يا رب بحق محمد لما^(١) غفرت لي فقال الله: يا آدم وكيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله فعرفت أنك لم تصف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال: يا آدم إنه لأحب الخلق إلي وإذ سألتني بحقه فقد غفرت لك ولولا محمد لما خلقتك».

قال الحاكم: صحيح الإسناد^(٢). ورواه الطبراني وزاد «وهو آخر الأنبياء من فريتك» ورواه الحاكم أيضاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بزيادة بلفظ «أوحى الله إلى عيسى يا عيسى آمن بمحمد ومر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به فلولاً محمد ما خلقت آدم ولولا محمد ما خلقت الجنة والنار، ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكثبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن».

قال الحاكم في مستدركه: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه - يعني البخاري ومسلم - فهذا الإمام الحافظ قد كفانا المؤنة وصحح الحديث وقد رواه غير واحد من الحفاظ وأئمة الحديث بالفاظ، منهم: أبو محمد مكي وأبو الليث السمرقندي وغيرهما أن آدم عليه السلام عند اقترافه قال: «اللهم بحق محمد عليك اغفر لي خطيئتي» ويروي نفيل «فقال الله: من أين عرفت محمداً؟ قال: رأيت في كل موضع من الجنة مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله».

(١) أي إلا، اه صاحب الفرعة.

(٢) لا التواتر بعد هذا التصحيح من الحاكم وهو الحاكم إلى طعن طاعن في هذا الحديث وقد رأينا من يظن فيه وفي أمثاله من الأحاديث التي يصححها الحاكم وهي دالة على سمو شرفه عليه الصلاة والسلام وعلو منزلته عند ربه كان هذا الطاعن أَوْذَى ممن يستخفون بشأنه عليه الصلاة والسلام فصدر منه ذلك الطعن طاعة لشعوره وهو لا يشعر أو يشعر وكان هذه المسألة مسألة عظم حرمة ﷺ ورفعة شأنه - موضع خلاف بيننا وبين هؤلاء الناس ونحن لا نسلم هذا الخلاف إلا بعد أن نسمع من هذه الشرفة أن كلام الله تعالى مطعون في صدقه أيضاً فإذا قالوها سكنا عنهم ويكونون بذلك أراحوا واستراحوا وحبنا الله ونعم الوكيل، اه مصححه.

ويروي محمد عبدي ورسولي فعلمت أنه أكرم خلقك عليك فتاب الله عليه وغفر له.

وفي رواية الحافظ الآجري «قال آدم: لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنه ليس أحد أعظم قدراً عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك فأوحى الله إليّ وعزتي وجلالي إنه لآخر النبيين من ذريتك ولولاه ما خلقتك» قال: وكان آدم عليه السلام يكنى أبا محمد.

بدا مجده من قبل نشأة آدم وأسماءه في العرش من قبل تكتب^(١)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢] قال: لوح من ذهب فيه مكتوب عجباً لمن أيقن بالقدر كيف ينصب عجباً لمن أيقن بالنار كيف يضحك عجباً لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً قال: على باب الجنة مكتوب أني أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسول الله لا أعذب من قالها.

وذكر السيمطاري أنه شاهد في بعض بلاد خراسان مولوداً ولد وعلى جبينه مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله وذلك بقلم القدرة وذكر الأخباريون أن ببلاد الهند ورداً أحمر مكتوب^(٢) عليه بالأبيض لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي بعض البوادي حيوان مكتوب على شقه الأيمن لا إله إلا الله وعلى شقه الأيسر محمد رسول الله وذلك بقلم القدرة وهو مرئي ظاهر لكل من له بصر وذكر غير ذلك.

فسيد الأولين والآخرين عظيم عند ربه نزه بذكره في الأزل وفي الكون العلوي والسفلي ليعلم أنه الفاضل الكامل وأنه أعظم الوسائل.

قال أبو حميد: ناظر أبو جعفر أمير المؤمنين مالكا في مسجد رسول الله ﷺ فقال له مالك: لا ترفع صوتك في هذا المسجد فإن الله عز وجل أذب أقواماً فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢] الآية، ومدح قومياً فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبْغُونُ أَمْوَالَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٣] الآية، وذم قومياً فقال: ﴿إِنَّ الْأَوَّلَ بَنَادُونَكَ مِنْ وَرَثَةِ الْحُجْرَةِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤] وإن حرمة

(١) أي كتبت والتميز بالمضارع بحكاية الحال الماضية، اه صاحب الفرعية.

(٢) يتعين نصب لفظ مكتوب لأنه وصف لمنسوب، اه مصححه.

ميتاً كحرمته حياً فاستكان لها أبو جعفر فقال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلة وأدعو أم أستقبل رسول الله ﷺ؟ فقال: ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أهلك إلى يوم القيامة بل استقبله واستشفع به فيشفعك^(١) الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ قَوَّامًا رَجِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] القصة معروفة مشهورة ذكرها غير واحد من المتقدمين والمتأخرين بأسانيد جيدة ومنهم القاضي عياض في أشهر كتبه وهو الشفاء المشهور بالحسن والإتقان في سائر البلدان، ومنهم الإمام العلامة هبة الله في كتابه (توثيق عرى الإيمان) وقد اشتملت هذه القصة على تعظيمه بعد وفاته وأنه حي والتوسل به وحسن الأدب في حقه كما في حياته وإن في الآية الحث على المجيء إليه ليستغفر له، وليس في الآية تعرض لزمن حياته دون الوفاة وكذا فهم العلماء مالك وغيره كما يأتي إن شاء الله تعالى.

العموم واستحبوا لمن زار قبره المكرم أن يثلو هذه الآية ويستغفر ويتوسل به ويطلب الشفاعة منه ولم نعلم أن أحداً طعن في قصة مالك إلا هذا الفاجر ابن تيمية فإنه لما كان فيها هذه الفضائل طعن فيها وقال إنها مكذوبة فإن هذا شأنه إذا وجد شيئاً لا مساس فيه لما ابتدعه قال به وقبله ولم يطعن.

وإذا وجد شيئاً على خلاف بدعته طعن فيه وإن اتفق على صحته ولا يذكر شيئاً على خلاف هواه وإن اتفق على صحته لا سيما إذا كان آية أو خيراً عن رسول الله ﷺ ولو أمكنه أن يطعن في الآية لفعل^(٢) إلا أنه تعرض لتخصيصها وهي دعوى مجردة وعلى خلاف ما فهمه العلماء من العموم ووقع العمل عليه فمن ادعى التخصيص بغير دليل سمعي ظاهر الدلالة قطعنا بخطئه واتهمناه واستدلنا بذلك على استقصاه سيد الأولين والآخرين الكامل المكمل، وهو كفر بإجماع أهل التوحيد.

(١) قوله: فيشفعك الله، السياق يقضي أن يكون فيشفعك فيشفعه لأنه هو ﷺ الشافع، اهـ مصححه.

(٢) هذا المبدأ عليه أتباعه المفترون به إلى اليوم يعرف ذلك منهم من يلتفت لحالهم أدنى التفاتة فالواجب على المسلم أن لا يعتبر تصحيحهم لحدث ولا تضعيفهم فإنهم للهوى يصحون ويضعفون وأحب أن يأخذ الفاروق قول الإمام الحصري (ولو أمكنه أن يطعن في الآية لفعل) على ظاهره دون أن يظن فيه أي مبالغة وليطرده في أتباعه كذلك، اهـ مصححه.

وذكر القرطبي في تفسيره عن علي رضي الله عنه أنه قال: قدم علينا أعرابي بعدما دفن رسول الله ﷺ بثلاثة أيام فرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ وحشا على رأسه من ترابه ثم قال: قلت يا رسول الله فسمعنا قولك ووعيت عن الله عز وجل فرعينا عنك وكان فيما أنزل عليك ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ [النساء: ٦٤] الآية وقد ظلمت نفسي وجنتك تستغفر لي فتودي من القبر قد غفر لك وهذه القصة غير قصة العتيبي وقصة العتيبي مشهورة في غاية الشهرة وقد ذكرها الأئمة في كتبهم قديماً وحديثاً وكنية العتيبي أبو عبد الرحمن واسمه محمد بن عبد الله بن عمرو وكان من أنصح الناس وصاحب أخبار وصاحب رواية للأثر. حدث عن أبيه وعن ابن عيينة وقد ذكر قصته خلائق منهم ابن عساكر في تايخه وذكرها الحافظ أبو الفرج بن الجوزي في كتابه (مثير الغرام الساكن) وذكرها غيرهما بالاسانيد.

ومن ذكرها الإمام العلامة المتفق على علمه ودينه وزهده أبو زكريا يحيى بن شرف النووي قدس الله روحه ونور ضريحه قال في زيارة قبره: إنها من أعظم القربات وأفضل المساعي والطلبات وإذا انتهى إلى قبره وقف قبالة وجهه ويستشفع به إلى ربه ومن أحسن ما يقوله ما حكاه أصحابنا عن العتيبي مستحسنين له.

قال العتيبي: كنت جالساً عند قبر رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] وقد جنتك مستغفراً من ذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم
نفسي الغداة لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

قال: فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عتيبي الحق الأعرابي فبشره بأن الله قد غفر له، وفي رواية غيره: الحق الأعرابي وبشره بأن الله قد غفر له بشفاعتي فخرجت فلم أجده فأفاد النووي قدس الله تعالى روحه أن أصحاب الشافعي استحسنوا ذلك وحكوه عن غيرهم وأفاد شمول الآية للحياة والممات وأنه يستشفع به إلى ربه وساق ذلك مساق ما هو متفق عليه ولم يتعرض لذلك أحد بالإنكار في سائر الأعصار وزدت أنا هذين البيتين لعل يلبقني نصيب من شفاعته وهما:

وفيه كل خصال الحمد قد جمعت فلذ به فهو من ترعى له الذمم
وهو الذي يرتجى في كل معضلة وفي المعاد إذا زلت بنا القدم

قصة الراهبين مع أبي عبد الله

وقال السيد الجليل قطاع المعافوز على قدم التوكل أبو عبد الله الفرحي قدس الله سره ونور ضريحه: خرجت مرة أريد الزيارة من طريق المعافوز فوقعت في التيه فكنت فيه أياماً حتى أشرفت على الموت فبينما أنا كذلك إذ رأيت راهبين^(١) يسيران كأنهما خرجا من مكان قريب يريدان ديراً لهما بالقرب فملت إليهما فقلت: أين تريدان فقالا: لا ندرى، فقلت: من أين أنيتما، قالا: لا ندرى، قلت: فتدريان أين أنتما؟ قالا: نعم نحن في ملكه وبين يديه، قال: فأقبلت على نفسي أقول: لها راهبان يتحققان بالتوكل دونك ثم قلت: لهما أئاذنان لي في الصحبة؟ فقالا: ذاك إليك، قال: فسرنا فلما أمسينا قاما إلى صلاتهما وقمت إلى صلاة المغرب فتممت وصليت فنظرا إلي وقد تيممت فضحكا مني فلما فرغا من صلاتهما بحث أحدهما بيده فإذا بالماء قد ظهر إذا بطعام موضوع قال: فبقيت أتعجب من ذلك فقالا لي: ادن وكل واشرب، قال: فأكلنا وتوضأت وقاما فلم يزالا في صلاتهما وأنا في صلاتي حتى أصبحنا فصليت الفجر ثم قاما يسيران فصاروا^(٢) إلى الليل فلما أمسينا تقدم الآخر فصلّى بصاحبه ثم دعا بدعوات ثم بحث الأرض بيده فنبع الماء وظهر الطعام فقالا لي ادن وكل واشرب، قال: فأكلنا وشرينا وتوضأت للصلاة ثم نضب الماء وغار حتى لم يبق له أثر فلما كانت الليلة الثالثة قالوا لي: يا مسلم الليلة توتيتك، قال: فاستحييت من قولهما وداخلني من ذلك هم شديد، قال: فقلت في نفسي: اللهم إني أعلم أن ذنوبي لم تدع لي عندك جاهاً ولكني أسألك وأتوسل إليك بنبيك المكرم عندك إلا تفضحني عندهما ولا تشمت^(٣) بنبيك محمد ﷺ، قال: فإذا بعين خزانة وطعام كثير، قال: فأكلنا وشرينا ولم نزل على حالنا حتى بلغت النوبة الثانية إلى أن قال: فدعوت بمثل ما دعوت أولاً وتوسلت بالنبي ﷺ فإذا بطعام اثنين وشراب اثنين دون ما كان، قال: فتقاصرت إلى نفسي وقصرت عن الأكل وأريتهما أنني أكل فسكتا عني، قال: وصرنا

(١) هذه القصة فيها خبيء خفي ولعل هذين الراهبين ملكان أو وليان لله تعالى أرسلهما سبحانه وتعالى للشيخ الفرحي ليتفقد بهما من حاله إلى حال أرفع كما ترى في القصة، وأما أنهما راهبان حقيقة فهذا ما لا يستطيع العقل فهمه فلنا لا نعرف أن الله تعالى يكرم إلا الصادقين من عباده المؤمنين فكيف يكرم بهذه الكرامة الباهرة التي تضمنتها القصة راهبين كافرين بسيد أنبيائه وهما يرفلانه حق المعرفة كما ترى من كلامهما، فاعرف ذلك، اهـ مصححه.

(٢) قوله: فصاروا بالجمع، هو: فساروا بالشبهة كما هو ظاهر، اهـ مصححه.

(٣) أي تشمتها، اهـ مصححه.

حتى بلغت النوبة الثالثة إلى أن قال: فدعوت بمثل ما دعوت وتوسلت بالنبي ﷺ وقوي حالي في أمر صدق توسلي به ﷺ علمي بأنه وسيلة من قبلي فإذا بطعام اثنين والماء مثل ذلك فغمني ذلك، قال: فغلبتني عينا من الهم خوف الشماتة بديننا فإذا بقاتل يقول لي: أدركناك بالإيثار الذي خصصنا به محمداً من دون الأنبياء^(١) وهي علامته وكرامة أمته من بعده إلى يوم القيامة.

قال: فلما بلغت النوبة الرابعة إلي قال: بلى يا مسلم ما هذا؟ إنا نرى في طعامك وشرابك نقصاً فلم ذلك؟ فقلت لهما: أو لم تعلمنا أن هذا خص الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ من بين الأنبياء وخص أمته به من بعده إن الله عز وجل يريد لي الإيثار وقد آثرتكما اقتداء بنبي المكرم فقالا: صدقت، ثم قال: نشهد أن لا إله إلا الله ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق، صدقت في قولك هذا، خلق محمد في كتب الله المنزلة إن الله عز وجل خص محمداً وأمته بذلك، قال: وحسن إسلامهما، قال: ثم قلت لهما في الجمعة والجماعة فقالا: ذلك واجب، قلت: نعم فأسألكم الله تعالى وادعوا أن يخرجنا من هذا الشبه إلى أقرب الأماكن فدعوا، فبينما نحن نسير إذا نحن ببيوت قد أشرطنا عليها فإذا هي بيت المقدس، قال: فدخلنا المسجد وأقمنا أياماً ثم تجدد لي سفر ففارقتهما وقد ملئ قلبي فرحاً بإسلامهما وبصحبة توسلي^(٢) بالنبي ﷺ وأنه غيَّث الصادقين في محبة^(٣) السالكين خلفه في صدقه مع ربه وصحة الاعتماد عليه. فانظر أرشدك الله كيف بصدق التوسل به جرى ما جرى من حصول الكرامات من نبع الماء وحصول الطعام والاهتداء لها، فله عز وجل المنة على ما أكرمنا به وعلى ما وهب الأولياء من آثار معجزاته.

وقال سفيان الثوري: بينا أنا أطوف بالبيت وإذا أنا برجل لا يرفع قدماً ولا يضع أخرى إلا وهو يصلي على النبي ﷺ فقلت: يا هذا إنك تركت التسبيح والتهليل وأقبلت على الصلاة على النبي ﷺ فهل عندك من هذا شيء؟ فقال لي: من أنت؟ قلت: سفيان الثوري، فقال: لولا أنك غريب في أهل زمانك لما أخبرتك عن حالي

(١) أي خصصنا به أمة محمد ﷺ من دون أمم الأنبياء وإلا فالأنبياء جميعاً أوائل أهل الإيثار صلى الله وسلم عليهم جميعاً، اهـ مصححه.

(٢) قوله: وبصحبة توسلي، صوابه وبصحبة توسلي الخ، اهـ مصححه.

ولما أطلعتك على سري، ثم قال: خرجت أنا والدي حاجين إلى بيت الله الحرام وإلى زيارة سيد الأنام حتى إذا كنا ببعض المنازل مرض والدي فعالجته فمات فلما مات اسودَّ وجهه فغلبتني عياني من الهم فتمت فإذا أنا برجل لم أرَ أجمل منه ولا أنظف ثوباً ولا أطيب رائحة منه فدنا من والدي وكشف عن وجهه وأمرَ يده عليه فعاد وجهه أبيض ثم ذهب فتعلقت بشويه وقلت له: يا عبد الله من أنت الذي من الله عز وجل علي وعلى والدي بك في دار الغربة لكشف هذه الكربة؟ فقال: أوما تعرفني أنا محمد بن عبد الله صاحب القرآن، أما إن والدك كان مسرفاً على نفسه ولكنه يكثر الصلاة علي فلما نزل به ما نزل استغاث بي وأنا غيَّاث من أكثر الصلاة علي، قال: فانتبهت فإذا وجه والدي قد ابيضَّ. فانظر أرشدك الله عز وجل إلى جلاله وتعظيمه في حياته وبعد وفاته كيف أغاث من استغاث به حتى في البرزخ فهو عليه الصلاة والسلام كما قيل:

غيثك لملهوف وغيث لآمل	وعين لظمآن وعون لذئ جهد
له فوق إيوان الزمان مراتب	يقصر عنها الأنبياء أولو المجد
فموسى وعيسى والخليل ونوحهم	يقولون طه منتهى السؤل والقصد
حوى قصبات السبق من قبل آدم	وكهلاً وأيام الطفولة في المهد
به طيبة طابت ولا غرو قد حوت	طبيب قلوب الخلق من مرض الجحد
فلولا ما اشتاقت قلوب نفيسة	إلى الشيخ من أرض الحجاز ولا الرند
ولا ذكرت سلع ونعمان والنقا	ولا استعذبت من شدة الوجد للوجد

فسبحان من قزبه ويثله وعظمه ومنحه وتوجه خلع الفضائل وجعله أعظم ما يتوجه به إليه وأعظم الوسائل.

روى الترمذي من حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضرير البصر جاء إلى النبي ﷺ فقال: ادع لي أن يعافيني الله، فقال: «إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك» قال: فادعه، فأمره رسول الله ﷺ أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويدعو بهذا الدعاء «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي اللهم شفعه في» قال الترمذي: حديث حسن صحيح ورواه النسائي بنحوه ورواه البيهقي وزاد محمد بن يونس في روايته فقام وقد أبصر، وفي رواية شعبة ففعل فبرىء، وفي رواية: يا محمد إني توجهت بك إلى ربي فتجلى عن بصري، اللهم شفعه في وشفعني في نفسي، قال

عثمان رضي الله عنه: فوالله ما انصرفنا ولا طال الحديث حتى جاء الرجل كأنه لم يكن به ضر^(١). فهذا حديث صحيح صريح في التوسل والاستجابة وليس فيه أنه فعل ذلك في حضرة النبي ﷺ وليس فيه التقييد بزمان حياته ولا أنه خاص بذلك الرجل بل إطلاقه عليه الصلاة والسلام يدل على أن هذا التوسل مستمر بعد وفاته شفقة عليهم لأنه بهم رؤوف رحيم، ولاحتياجهم إلى ذلك في حاجاتهم، ويدل على ذلك أن عثمان بن حنيف راوي الحديث هو وغيره فهموا التعميم ولهذا استعمله هو وغيره بعد وفاته ﷺ كما رواه الطبراني في معجمه الكبير في ترجمة عثمان بن حنيف رضي الله عنه ذكره في أول الجزء الخمسين من مسنده أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه في حاجة له فكان عثمان لا ينظر في حاجته، فلقي الرجل عثمان بن حنيف وشكى^(٢) إليه ذلك فقال له عثمان بن حنيف رضي الله عنه: انت الميضأة فتوضاً ثم انت المسجد فصل ركعتين ثم قل: اللهم اني أسالك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة يا محمد اني أتوجه بك إلى ربي فتقضي^(٣) حاجتك وتذكر حاجتك، ورح حتى أرواح معك، فذهب الرجل وفعل ما قاله عثمان بن حنيف له ثم إن الرجل أتى إلى باب عثمان بن عفان رضي الله عنه فجاء البواب فأخذ بيده حتى أدخله إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه فأجلسه معه على الطنفسة فقال: حاجتك، فأعلمه بها فقضاها له، وقال: ما ذكرت حاجتك إلا الساعة، ثم قال عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما كان لك من حاجة فاذكرها، ثم إن الرجل خرج من عند عثمان بن عفان رضي الله عنه فلقي عثمان بن حنيف رضي الله عنه فقال له: جزاك الله خيراً أما إنه ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إلى حتى كلمته في، فقال عثمان بن حنيف رضي الله عنه: ما كلمته ولكن شهدت رسول الله ﷺ أنه ضرير فشكى إليه ذهاب بصره فقال له عليه الصلاة والسلام: «أزْ تَصْبِرُ؟» فقال: يا رسول الله إنه ليس لي قائد وقد شق عليّ، فقال عليه الصلاة والسلام: «انت الميضأة فتوضاً ثم صل ركعتين ثم ادع بهذه الدعوات» قال عثمان بن حنيف: فوالله ما انصرفنا ولا طال الزمان حتى دخل علينا الرجل كأنه لم يكن به ضر قط. ورواه البيهقي بإسناده من طريقين فهذا من

(١) وفي رواية أنه قال عليه الصلاة والسلام: «إن كان لك حاجة فمثل ذلك، اه مستنسخ النسخة.

(٢) قوله وشكى يرسم شكاً بالالف، اه مصححه.

(٣) قوله: فتقضي حاجتك، ليس بظاهر معناه وقد راجعت الأصل فرايت النص فتقضي حاجتي وتذكر حاجتك، الخ وبه يتضح المعنى، اه مصححه.

أوضح الأدلة على الاحتجاج بالتوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته كحياته كفعل^(١) عثمان راوي الحديث ولفعل غيره في حياته وبعد وفاته وهم أعلم بالله عز وجل ورسوله ﷺ من غيرهم وإليهم ترجع الأمور في القضايا التي شاهدها في زمنه وأخذوها عنهم رضي الله عنه^(٢) ومن عدل عن ذلك فقد أفهم عن نفسه أن عنده ضغينة لهم وهذا من الواضحات الجليات التي لا ينكرها إلا صاحب دسيمة أعاذنا الله تعالى من ذلك.

وقال القاضي عياض في أشهر كتبه المتداولة بين الناس وهو (الشفاه) الفصل الثاني في حرمة بعد وفاته: وأما حرمة^(٣) النبي ﷺ بعد وفاته وتوقيره وتعظيمه فهو لازم كما كان في حياته وذلك عند ذكره عليه الصلاة والسلام وذكر حديثه وسنته وسماع اسمه وسيرته ومعاملة آله وتعظيم أهل بيته وصحابته واجب على كل مؤمن متى ذكر عنده أن يخضع ويخشع ويتوقر ويسكن من حركته فيأخذ في هيئته وإجلاله بما كان يأخذ بعينه^(٤) لو كان بين يديه ويتأدب بما أذن الله عز وجل به.

وقال ابن حبيب: إذا دخلت مسجد رسول الله ﷺ فصل ركعتين بين الروضة والمنبر ثم اقصد القبر من تجاه القبلة وادن منه ثم سلم على رسول الله ﷺ وأثن عليه وعليك السكينة والوقار فإنه عليه الصلاة والسلام مسلم^(٥) ويعلم وقوفك بين يديه وكذا قاله غيره من الأئمة.

قال الحافظ أبو الفرج بن الجوزي: (أما زيارة قبره عليه الصلاة والسلام فأحضر قلبك لتعظيمه ولهيئته وأحضر عظيم رتبته في قلبك واعلم أنه عالم بحضورك وتسليمك) وهذا الذي قاله معروف مشهور لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يفضون أصواتهم في مسجده تعظيماً له وتوقيراً.

وفي البخاري أن عمر رضي الله عنه قال لرجلين من أهل الطائف: لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله ﷺ، وكانت عائشة رضي الله عنها إذا سمعت دق الوند أو المسمار يضرب في بعض الدور المطبقة لمسجد رسول الله ﷺ ترسل إليهم لا تؤذوا رسول الله ﷺ.

(١) الكافي في قوله كفعل لام، اه مصححه.

(٢) قوله: وأخذوها عنهم رضي الله عنه تؤخر فيه عنهم وتقدم عنه كما هو ظاهر، اه مصححه.

(٣) الصواب وحرمة ويحلف الضمير، اه مصححه.

(٤) قوله بما كان يأخذ بعينه عبارة الشفاء بما كان يأخذ به نفسه الخ، اه مصححه.

(٥) قوله مسلم بتشديد اللام أي راد عليك السلام الذي تسلمه عليه، اه مصححه.

وروي أن علياً رضي الله عنه لما عمل مصراعي داره ما عملهما إلا بالمناصب توقياً لذلك، والآثار بمثل ذلك كثيرة جداً، وكذا الأخبار بعرض الصلاة عليه وكذا برده^(١) روحه الشريفة العظيمة الكريمة على الله عز وجل، وإذا ثبت ردها ثبت حياته وإذا ثبت حياته وجب القطع بصحة التوسل به.

في ابن ماجه من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أكثرُوا علي من الصلاة يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة وإن أحداً لم يصلي علي إلا عرضت علي صلاته حتى يفر منها. قال: قلت: يا رسول الله وبعد الموت؟ قال: «وبعد الموت فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء فنبى الله حي يرزق».

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمني السلام» رواه النسائي وكذا الحاكم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه وصحح: وقال عليه الصلاة والسلام: «ليس أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام» رواه أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد جيد قال البيهقي: معنى قوله: إلا رد الله عليه روحه، إلا وقد رد الله عليه روحه لأجل سلام من سلم عليه واستمرت في جسده لأنه لا يبلى ولا نفتر صلاة المصلين عليه ولا سلام المسلمين عليه من الثقلين وغيرهم.

وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تجعلوا قبري عيداً وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيث ما^(٢) كنتم» رواه أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد صحيح، والأحاديث في ذلك كثيرة.

وقال كعب الأحبار: ما من فجر يطلع إلا أنزل الله سبعين ألفاً من الملائكة حتى يحضوا بالقبر الشريف يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم وصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشفت الأرض خرج رسول الله ﷺ في سبعين ألفاً من الملائكة يوقرونه.

(١) سيأتي للمصنف شرح الحديث الوارد بذلك وتوضيحه أن الوجود لا يخلو لحظة من مسلم عليه ﷺ فهو دائماً يرد السلام فهو دائماً مردودة عليه روحه فهو دائماً حي وشرح الحديث بأن جملة رد الخ حالية تحل إشكال الحديث كذلك وهناك أحاديث أخرى كثيرة تدل على حياة الأنبياء في البرزخ بلا قيد ولا شرط وهو أمر مجمع عليه بين علماء الأمة فليعلم، اهـ مصححه.

وروى الحافظ أبو القاسم الأصبهاني صاحب الترغيب عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي في يوم الجمعة وليلة الجمعة مائة من الصلاة قضى الله له مائة حاجة سبعين من حوائج الآخرة وثلاثين من حوائج الدنيا وكل بذلك ملكاً يدخله على قبري كما يدخل عليكم الهدايا إن علمي بذلك بعد موتي كعلمي به في حياتي».

وقال السيد الجليل سلمان بن شحيم قدس الله تعالى روحه: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله الذين يأتونك ويسلمون عليك تفقه سلامهم؟ قال: «نعم وأرد عليهم».

وقال بعض المشايخ: رأيت رسول الله ﷺ في النوم فقلت: استغفر لي، فأعرض عني، فقلت: يا رسول الله استغفر لي، فأعرض عني، فقلت: يا رسول الله إن سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر أنك لم تسأل شيئاً قط، فقلت: لا، فأقبل علي وقال: «غفر الله لك» وكان موهوب ابن الجزري الشافعي إماماً عالماً فاضلاً مفيداً يشارك في سائر العلوم مشاركة جيدة مع العقل والدين والإشارة لأهل الضرورات وكان يتجر فكثر ماله فأراد الصاحب أن يتعرض له، قال: فخفت منه خوفاً شديداً فلما كان في بعض الليالي رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله إني خائف من الصاحب، فقال: «لا تخف منه وقل له بعلامة كذا وكذا لا تؤذني فرسول الله ﷺ يشفع في» فلما انتهت صليت الصبح وركبت دابتي ووقفت للصاحب في الطريق وهو طالع إلى القلعة، قال: فسلمت عليه وصحبته وقلت له: معي رسالة، فقال: ممن؟ قلت: من رسول الله ﷺ وقال: «قل له بعلامة كذا وكذا» فقال: صدقت أنت وصدق رسول الله ﷺ وأنا اليوم أتشفع بك إلى رسول الله ﷺ فالمولى يرسم والمملوك يمثل ومهما كان لك من الحوائج تعرفني بها أو لأحد أصحابك.

وطلب بعض أمراء الجور رجلاً أراد منه شيئاً وهدده تهديداً وتواعده^(١) بالعقوبات فقال له الرجل: أنا أتشفع إليك بسيد الأولين والآخرين أن لا تتعرض لي بما لا يحل لك، فلم يلتفت إليه ولا إلى قوله، فلما أصبح الصباح طلب الأمير الرجل وأكرمه بعد أن فك عنه الطلب فقبل للأمير في ذلك فقال: رأيت البارحة رسول الله ﷺ فنهزني وهم بي وقال: «يتشفع بي إليك ولا تقبل فوالله لا يتشفع به أحد إلي إلا قبلت شفاعته» فإني خفت على نفسي الهلكة.

(١) الصواب حذف ألف تواعده، اهـ مصححه.

وعن منصور بن عبد الله قال: سمعت ابن الجلاء يقول: دخلت مدينة الرسول ﷺ وبي شيء من الفاقة فتقدمت إلى القبر فسلمت على النبي ﷺ وعلى ضجيعيه أبي بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه ثم قلت: يا رسول الله بي فاقة وأنا ضيفك الليلة، ثم تنحيت ونمت بين القبر والمنبر وإذا أنا بالنبي ﷺ قد جاءني ودفع إلي رغيف خبز فأكلت نصفه فانتبهت فإذا في يدي نصف الرغيف. ومن تنمة القصة أن قال ابن الجلاء إنه دام بعد ذلك أربعين سنة لم يحتج فيها إلى طعام الدنيا ولا إلى شرايها ببركة تلك الأكلة.

قال العلماء: الظاهر أن ما أتاه به النبي ﷺ من طعام الجنة لأن من أكل من طعام الجنة استغنى عن طعام الدنيا، قالوا: وهذه رؤيا حق لما جاء في الحديث «من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي».

ومثل هذا وقع للسيد الجليل أبي الخير الأقطع صاحب المقامات الباهرة والكرامات الظاهرة قال: دخلت مدينة النبي ﷺ وأنا بفاقة فأقمت خمسة أيام ما ذقت ذواقاً فتقدمت إلى القبر وسلمت على النبي ﷺ وعلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وقلت: أنا ضيفك يا رسول الله وتنحيت ونمت خلف القبر فرأيت في المنام النبي ﷺ وأبا بكر عن يمينه وعمر عن شماله وعلي بين يديه فحركني، وقال: قم قد جاء رسول الله ﷺ قال: فقمته إليه وقبلت بين عينيه فدفع إلي رغيفاً فأكلت نصفه وانتبهت وإذا في يدي نصف رغيف، قال العلماء: وإنما بقي نصف الرغيف ليحقق الأمر وتظهر الكرامة لأولياء الله عز وجل الذين سلكوا سبيله بصدق ﷺ ورضي عنهم.

وقال ابن أبي ذرعة الصوفي: سافرت مع أبي ومع ابن حنيف إلى مكة وأصابتنا فاقة شديدة فدخلنا مدينة رسول الله ﷺ ويتنا طاورين وكنت دون البالغ فكنت أجيء إلى أبي غير دفعة وأقول: أنا جائع، فأتى والدي إلى الحضرة الشريفة، وقال: يا رسول الله أنا ضيفك الليلة وجلس على المراقبة فلما كان بعد ساعة رفع رأسه وكان يبكي ساعة ويضحك ساعة فقال: رأيت رسول الله ﷺ فوضع في يدي دراهم وفتح يده فإذا فيها دراهم وبارك الله تعالى لنا فيها إلى أن رجعنا شيراز فكنا تنفق منها.

وقال السيد الجليل أبو العباس أحمد الصوفي: تهمت في البداية ثلاثة أشهر وأنسلخ جلدي فدخلت المدينة الشريفة وجئت إلى النبي ﷺ فسلمت عليه وعلى صاحبيه ثم نمت فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال لي: «يا أحمد جئت؟» قلت: نعم

وأنا جائع وأنا في ضيافتك، فقال لي: «افتح كفيك»^(١) ففتحتهما فملاهما دراهم فانتبهت وهما مملوءتان فقممت فاشتريت لي خبزاً حواري وفالزوجاً وأكلت وقمت للوقت ودخلت البادية ومثل هذا كثير وهؤلاء رجال صدق يقطعون البوادي على قدم التوكل لا يعتمدون على غيره ولا يأنسون بسواه ونقع لهم الطاف وأمور عجيبة وقد ذكرت جملة من ذلك في كتاب (تنبيه السالك) في فصل الكرامات، فمن أراد أن يقف على الغرائب والعجائب فليتنظر فيه وفيما وهب لهم من الكرامات على مقدار طبقاتهم.

وخرج بعض المشايخ يريد الزيارة في جماعة من الفقراء، قال: فلما وصلنا إلى شعب النعام أدركننا العطش وبيننا وبين المدينة مراحل، قال: فاستغثت بالنبي ﷺ وصليت ونمت فرأيت النبي ﷺ فقال: «مرحباً بك وجماعتك» وضمني إلى صدره وقبطني فقبلت يده الكريمة وقدمه، وقلت له: يا سيدي يا رسول الله أنا خائف على أصحابنا من العطش، فقال: «لا تخف فإننا نسير لكم الماء وما نحن نعد لكم الضيافة» ورأيت عليه الصلاة والسلام مشمر الأكمام فجاءنا السيل في تلك الليلة وملأنا ركابنا فلما قدمنا المدينة تلقانا أحد خدام النبي ﷺ فقال لي: سلم على النبي ﷺ وأنتهي أن اجتمع بك حتى أوفي لك بما أوصاني به النبي ﷺ، فلما سلمت على النبي ﷺ جئت إليه، فقال لغلامه: جئء بالمائدة، فجاء بها وعليها كل خير يراد فالتفت إلي وقال: كل، هذا الذي أوصاني به النبي ﷺ، وقال لي: هذه ضيافتك يا فلان وسماني باسمي، وما يبعد أن النبي ﷺ سماه كما وقع لغيره من الخدام من تسمية أقوام قصدوا زيارته من أرض شاسعة كما أخبرني به الشيخ محمد فولاذ في المسجد الأقصى وكان من الأخبار وكثير التعبد والإيثار وحج ماشياً ما يزيد على ثلاثة حجة، قال لي: إذا جاء أوان الحج حاج بي الشوق إلى تلك المعاهد الشريفة وإلى زيارة سيد الأولين والآخرين فأخذ زادي على ظهري وإناء الماء وأسير مع الناس إلى جنب وأنا مشغول بحالي، قال: فاتفق أنني تحدثت أنا وخدام الضريح وتذاكرنا مواهب الله عز وجل لسيدنا رسول الله ﷺ فقال لي: يا شيخ محمد إنني أخدم هذا الضريح ستين سنة فاتفق في يوم حار أنني سمعت السرير يصصرر وسمعت صوته عليه الصلاة والسلام وهو يقول: «وعليك السلام يا فلان ويا فلان بن فلان» وسَمَى ثمانية أنفس، قال الخادم: فقممت من ساعتني وجئت الضريح وإذا بشخص كاد أن يموت من الهزال جالس عند

(١) الصواب ففتحتهما، اهـ مصححه.

الضريح، فسَلَّمْتُ عليه وقلت: ما اسمك؟ فقال: فلان بن فلان لأحد الثمانية، فقلت له: وأين رفقتك؟ فقال: عند باب الحرم، قد عجزوا عن الوصول إلى الضريح، قال: فعمدت إليهم فإذا ثلاثة من الذين سماهم رسول الله ﷺ فقلت: وأين بقيتكم؟ فقالوا: فارقناهم من وراء تلك الأكمة، قال: فأخذت ما أحملهم عليه وماءً وشيئاً من الأكل ومضيت فوجدت الأربعة قد قضوا فجهزتهم ثم رجعت إلى الأربعة فأخذتهم وأكرمتهم وسألتهم من أين ورودهم فقالوا: من بلاد شاسعة تعاقدنا وتعاهدنا على زيارة سيدنا رسول الله ﷺ وأن لا نرجع عن ذلك ولو ذهب أنفُسنا، فأما نحن فقد أعطانا الله عز وجل مرادنا وأما أخواننا الذين ماتوا عند الأكمة فارجو أن الله عز وجل لا يخيِّب مساعاهم.

ووقع مثل ذلك كثيراً جداً وقد دَوَّنَه الأئمة كابن أبي الدنيا وغيره وعقدوا له باب الاستغاثة بالنبي ﷺ وخزجوه بأسانيدهم على اختلاف الوقائع وفيها ما يتعلق بالصدق والفاروق رضي الله عنهما وما أنذا أتعرض لنبذة يسيرة جداً من غير الأسانيد لأنه اللائق بهذه الورقات فمن أراد الكثرة فعليه بالنظر في كتب الأئمة فإنها مجلدات والمهمل لذكرها قد نادى على نفسه بخبث طويته في حق أصفياء الله عز وجل وأوليائه، أعاذنا الله من الزيغ والفتن ما ظهر منها وما بطن.

فمن ذلك: ما أخبر به أبو عبد الله الحسين وأبو علي بن سعيد بن نهبان وكان من فضلاء بغداد ورؤسائهم وغيرهما قالوا: أراد رجل الحج فأحضره الأمير مقلد فقال: يا فلان تريد الحج؟ قال: نعم، قال: إذا حججت وأتيت المدينة فاقرا على النبي ﷺ مني السلام وقل له لولا صاحبك لزلتلك قال الرجل: فحججت وأتيت المدينة ولم أقل الكلام عند القبر إجلالاً لرسول الله ﷺ فلما كان الليل نمت فرأيت رسول الله ﷺ في منامي فقال لي: يا فلان لِمَ لم تؤد الرسالة من مقلد؟ فقلت: يا رسول الله أجلتلك أن أقول في صاحبك ذلك فرفع رأسه إلى رجل فقال له: خذ هذا موسى واذبحه، قال: ففعل، قال: فوافيت العراق فسمعت أن الأمير مقلد ذبح على فراشه فلما قدمت المدينة - أي بغداد - سألت عنه فقيل إنه ذبح على فراشه فذكرت للناس الرؤيا التي رأيتها فشاعت إلى أن بلغت الأمير قرواس بن المسيب فأحضرني وقال: اشرح لي الحال، فشرحت له، فقال: أتعرف موسى؟ قلت: نعم، فأحضر طبقاً مملوءاً موسى والموسى في الجملة فقال لي: أخرج موسى، فضربت بيدي وأخذت موسى الذي رأيته بيد المصطفى ﷺ وقد ناوله الرجل فقال: صدقت هذا موسى وجدته عند رأسه وهو مذبح.

ومن ذلك ما أخبر به علي بن محمد قال: سمعت رضوان اليماني وكان من الأخيار وأهل السنة، قال: كان لي جار في منزلي وفي سوقني وكان يشتم أبا بكر وعمر، قال: فكسر الكلام بيني وبينه فلما كان ذات يوم شتمهما وأنا حاضر فوقع بيني وبينه كلام حتى ناولته وناولني فأنصرفت إلى منزلي وأنا مهموم حزين ألوم نفسي، قال: فنمت وتركت العشاء لشدة ما بي فرأيت النبي ﷺ في منامي في ليالي فقلت: يا رسول الله فلان جاري في منزلي وفي سوقني يسب صاحبك، قال: «مَنْ أَصْحَابِي؟» قلت: أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال لي: «خذ هذه المدية واذبحه بها» قال: فأخذتها وأضجمته فذبحته فرأيت كأن يدي أصحابها من دمه فألقيت المدية وأهويت بيدي إلى الأرض أمسحها فانتبهت وأنا أمسح يدي فأسمع الصراخ من نحو داره فقلت: انظروا ما هذا الصراخ؟ قالوا: فلان مات فجأة، فلما أصبحنا جثت أنظر إليه لعلمي أن رؤياه حق، فنظرت فإذا خط موضع الذبح.

ومن ذلك ما أخبر به يحيى بن عطف المعدل بالموصل قال: حكى لي شيخ دمشقي جاور بالحجاز سنين، قال: جاورت بالمدينة الشريفة سنة مجدية فخرجت إلى السوق لأشتري برباعي دقيقاً فأخذ صاحب الدقيق مني الرباعي، وقال: العن الشيخين حتى أبيعك الدقيق، فامتنعت من ذلك فراجعني مرات وهو يضحك، فضجرت وقلت: لعن الله من لعنهما، فلطم عيني فرجعت إلى المسجد والدموع تسيل، قال: وكان لي صديق زاهد عابد جاور بالمدينة سنين فسألني عن حالي فذكرت القصة فقام معي إلى التربة الشريفة، وقال: السلام عليك يا رسول الله، فلما جنّ علي الليل نمت فلما أصبحت صادفت عيني أحسن مما كانت وكأنها لم يصيبها ضرر ثم لم يكن إلا ساعة وإذا رجل مبرقع قد دخل من باب المسجد يسأل عني فدلّ علي فجاء وسلم علي وقال: ناشدتك الله إلا جعلتني في حل فأننا الرجل الذي لطمتك فقلت: لا أو تذكر لي قصتك، فقال: نمت فرأيت رسول الله ﷺ قد أقبل ومعه أبو بكر وعمر وعلي فتقدمت وقلت: السلام عليكم، فقال علي رضي الله عنه: لا سلام الله عليك ولا رضي عنك أنا أمرتك أن تلعن الشيخين، وجعل بإصبعيه كذا في عيني ففقاها فانتبهت وأنا نائب إلى الله تعالى، وأسألك التجاوز عن جرمي فحين سمعت قوله قلت: اذهب فأنت في حل من قبلي، قال أبو النصر: فكان هذا الشيخ الدمشقي ديناً صالحاً ناسكاً قدس الله تعالى روحه.

كان علي رضي الله عنه يقول: أنا وأبو بكر وعمر كنفس واحدة من أحبنا جميعاً انتفع بمحبتنا ومن فرق بيننا في المحبة لقي الله تعالى يوم القيامة ولا حجة له.

وكان أيوب السختياني يقول: من أحب أبا بكر فقد أحب إمام الدين، ومن أحب عمر فقد أوضح السبيل، ومن أحب عثمان فقد استنار بنور الله تعالى، ومن أحب علياً فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، ومن أحسن الشناء على أصحاب محمد فقد برىء من النفاق، ومن انتقص أحداً منهم فهو مبتدع مخالف السنة والسلف الصالح، وأخاف أن لا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعاً ويكون قلبه سليماً.

على هذا الاعتقاد درج السلف وبذلك اقتدى العلماء خلفاً بعد خلف ومن ذلك ما أخبر به محمد بن عبد الله بن محمد الفقيه الحنبلي قال: اجتمع جماعة في الطريق قاصدين مكة في عرض السنة وكان أحدهم كثير الصلاة والتعب فمات فأمهم دفنه فنظروا إلى بيت شعر في الصحراء فقصدوه فإذا في البيت عجوز وفيه قدوم فسألوها أن تدفنه إليهم فقالت: تعاهدوني بالله عز وجل أنكم تردونها إلي فاعطوها ما أرادت ثم أخذوا القدم فحفروا به قبراً وواروا الرجل ونسوا القدم في القبر فذكروا المعهود فدعتهم الضرورة إلى أن ينشوا فإذا القدم قد صار غلاً من يد الرجل إلى عنقه فردوا عليه التراب فأخبروا العجوز الخبر فقالت: لا إله إلا الله رأيت رسول الله ﷺ في منامي فقال: «احتفظي بهذا القدم فإنه غل لرجل يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما».

وأخبر العباس السني قال: قال لي أحد المشايخ المعمرين: كنت بجوامع عمرو بن العاص ونحن في صلاة أراها صلاة الصبح فسمعت ضجيجاً بصحن الجامع فلما فرغنا من الصلاة اجتمع الناس فرأوا رجلاً مذبولاً فقال رجل من الحاضرين: أنا ذبيحتة فإني سمعتة يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، فحمل إلى السلطان فسأله عن القضية فقال: أنا ذبيحتة، فأمر السلطان بالرجل أن يُحبس وبالمقتول أن يُدفن، فحفروا له موضعاً فوجدوا ثعباناً ثم حفروا له موضعاً آخر فوجدوا فيه ثعباناً فأخبروا السلطان بذلك فقال: احفروا له قبراً ثالثاً، فحفروا فإذا فيه ثعبان، فقال: ادفنوه، وسرح القاتل، قلت: وبلغني أنه لما دفن ابن تيمية قال شخص بعد ثلاثة أيام: قد اضطرب القول في هذا الرجل والله لأنظرون ما صنع الله به، قال: فحفر قبره فوجد على صدره ثعباناً عظيماً هاله منظره فكان الرجل يحذر الناس من اعتقاده ويعلمهم بما رأى، والله أعلم.

وذكر ابن أبي الدنيا في كتابه (مجانبي الدعوة) بسنده (أن^(١) مؤذن عك) قال:

(١) هكذا وجدنا في الأصل، اهـ مستخه.

جرت أنا وعمر إلى بكران وكان رجل يسب أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فنهياه فلم ينته فقلنا: اعتزلنا فاعتزلنا فلما دنا خروجننا قلنا: لو صحبناه حتى يرجع إلى الكوفة فلقينا غلام له فقلنا له: قل لمولاي يعود إلينا، فقال: إن مولاي قد حدث له أمر عظيم قد مسخت يده يدي خنزير، قال: فأتيناه فقلنا له: ارجع إلينا، قال: إنه حدث في أمر عظيم وأخرج ذراعيه فإذا هما ذراعاً خنزير، قال: فصحبنا حتى أتينا قرية من قرى السواد كثيرة الخنازير فلما رأها صاح صاح صيحة فمسخ خنزيراً وخفي علينا فجئنا بغلامه ومتاعه إلى الكوفة وشاع أمره أعادنا الله تعالى من ذلك.

واعلم أن من الشيعة طائفة تقول إن خير الناس بعد رسول الله ﷺ علي رضي الله عنه وأن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما ارتددا بعد الإسلام وقاتلا الناس.

ثم اعلم أن مما يتعلق بأمور الشيعة من هذا النوع وغيره كثير والمراد أن الاستغاثة بالنبي ﷺ واللواذ بقبره مع الاستعانة به كثير على اختلاف الحاجات وقد عقد الأئمة لذلك باباً، وقالوا: إن استعانة من لاذ بقبره وشكى إليه فقره وضره توجب كشف ذلك الضر بإذن الله تعالى.

فمن ذلك ما أخبر به يوسف بن علي قال: ركبني ديون فقصدت الخروج من المدينة الشريفة ثم جئت إلى قبر رسول الله ﷺ فاستغثت به في وفاء ديني فتمت فرأيت النبي ﷺ فأشار علي بالجلوس فاستيقظت فقبض الله لي من وفي ديني.

وقال بعضهم: بلغنا أن أبا الليث يقرأ القرآن في المصحف من غير تعلم سبق منه للكتابة وكنت أنكر ذلك، قال: فدخلت مكة فوجدته يقرأ القرآن في المصحف قراءة محدودة فسألته عن سبب ذلك فقال: كنت في مدينة النبي ﷺ أبيت في المسجد وأخلو به فتشفت إلى الله عز وجل بالنبي ﷺ أن يسهل على القرآن في المصحف، قال: وجلست فأخذتني سنة فرأيت النبي ﷺ وهو يقول: «قد أجاب الله تعالى دعاءك فافتح المصحف واقرأ القرآن» قال: فلما أصبح الصباح فتحت المصحف وشرعت أقرأ القرآن فكنت أقرأ في الصحف فربما تتصفح علي الآية فأنام فأرى من يقول لي الآية التي تصفحت عليك كذا وكذا.

وذكر ابن عساكر في تاريخه أن أبا القاسم بن ثابت البغدادي رأى رجلاً بمدينة النبي ﷺ أذن الصبح عند قبر رسول الله ﷺ فقال فيه: الصلاة خير من النوم، فجاءه

خادم من خدم المسجد فلطمه حين سمع ذلك منه فبكى واستغاث بالنبي ﷺ وقال: يا رسول الله في حضرتك يفعل بي هذا الفعل، قال: فضربه الفالج في الحال وحمل إلى داره فمكث ثلاثة أيام ثم مات.

وقال أبو العباس أحمد المقرئ الضرير التونسي: جعت بالمدينة ثلاثة أيام فجئت إلى القبر، وقلت: يا رسول الله جعت ثم نمت ضعيفاً فلكرزني جارية برجلها فقمعت إليها فقالت: اعزم، فقمعت معها إلى دارها فقدمت لي خبز بر وتمراً وسمناً وقالت: كُلْ أبا العباس فقد أمرني بهذا جدي رسول الله ﷺ، قال أبو العباس: فرجعت إلى بلادي فرأيت النبي ﷺ بمصر بعد رجوعي فقال: «أوحشتنا يا أبا العباس قراءتك» وكنت أكثر قراءة القرآن عند ضريحه.

قال الباجي: كم قرأت من ختمة عند قبره؟ قلت: ألف ختمة.

وقال أبو العباس أحمد: اللواتي كانت عندنا بمدينة فاس امرأة وكانت إذا أصابها أمر أو شيء يفرعها جعلت يدها على عينيها واستغاثت بالنبي ﷺ فتغاث فلما توفيت قال لي قريب لها: رأيتهما في النوم فقلت لها: يا عمه، رأيتهما الملكين الفئتين؟ فقالت: نعم جاءاني فعندما رأيتهما جعلت يدي على عيني وقلت: يا محمد، فلما نزعته يدي عن وجهي فلم أوهما.

وهذه القصة ذكرها بعض الأئمة وعزاها، وقال: إن الاستغاثة من بعيد به ﷺ كالاستغاثة به عند قبره ﷺ.

وساق عن أبي إسحاق الحسين قال: كنت بين مدينة النبي ﷺ والشام ففضل لنا جمل قال: وكان قد بلغني عن الشيخ أحمد الرفاعي أنه قال: من كانت له حاجة فليستقبل عبادان نحو قبري ويمشي سبع خطوات ويستغيث فإن حاجته تقضى، قال: فلما استقبلت عبادان وفصدت الاستغاثة هتف بي هاتف: أما تستحي من رسول الله ﷺ وتستغيث بغيره؟ قال: فتحولت نحو المدينة فقلت: يا سيدي يا رسول الله أنا مستغيث بك، قال: فوالله ما استكملته ذلك إلا والجمال يقول لي: هذا الجمل قد وجدناه.

وسافر بعض الفقهاء لقصد زيارة قبر النبي ﷺ فتاه في الطريق فاستغاث بالنبي ﷺ فظهرت له قبة العباس رضي الله عنه وبينه وبين الموضع المذكور يومان أو نحوهما.

وقال أبو الحجاج يوسف بن علي قدس الله روحه: خرجت من مكة متوجهاً إلى المدينة على طريق المشاة فتهت في الطريق فاستغثت بالنبي ﷺ فإذا بامرأة آتية من

نحو المدينة وهي تشير إلى أن أمشي على أثرها فلم أزل أمشي على أثرها إلى أن وصلت المدينة، وقال: سمعت أبا عبد الله بن سالم يقول: رأيت في المنام كأنني في بحر النيل وإذا بتمساح يريد أن يقفز علي فخفت منه وإذا بشخص وقع لي أنه النبي ﷺ فقال لي: إذا كنت في شدة فقل أنا مستغيث بك يا رسول الله فكنت أفعل فأغاث، فأراد بعض الأخوان السفر لزيارته ﷺ وكان صريراً فحكيت له الرؤيا وقلت له: إذا كنت في شدة فقل أنا مستغيث بك يا رسول الله، فسافر في تلك الأيام فجاء إلى رابع وهي غزيرة الماء وكان له خادم قد ذهب في طلب الماء، قال: فبقيت القرية في يدي وأنا في شدة من طلب الماء فذكرت ما قلت لي وقلت: أنا مستغيث بك يا رسول الله، فبقيت أنا كذلك وإذا بصوت يقول: زم قربتك، وسمعت صرير الماء في القرية إلى أن امتلأت ولم أعلم من أين أتى القائل.

وقال: سمعت محمد السلاوي يقول: لما ودعت النبي ﷺ قلت: يا حبيبي يا محمد يا سيد الكونين أنا أدخل الصحراء فإذا أخذتني شدة أدعرك الله وأتوسل بك، وجئت إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وقلت لهما كذلك قال فبقيت في البرية سبعة أيام ووقعت في جب وفيه ماء فبقيت فيه من أول النهار إلى ما بعد الظهر فلم يبق إلا الموت، قال: فكفرت ما كنت قلت عند النبي ﷺ وقلت: يا حبيبي يا محمد الذي كنت قلت لك وقلت كذلك لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، قال: فكانني بمن حولني وطلعت ببركة النبي ﷺ وصاحبه رضي الله عنهما.

وقال: أخبرني رجل من مدينة طرابلس قال: كنا جاثين من الإسكندرية في مركب فهاج البحر علينا وأشرقنا على التلف والهلاك فقمنا إلى الناس فقلت: استغيثوا بالنبي ﷺ فإنه غياث، فقلنا جميعاً: الغياث يا رسول الله العفو يا رسول الله العفو يا رسول الله جانين مذنبين استجرنا بك أجزنا يا محمد الحبيب يا حبيبنا يا شفيعنا يا ولينا، فنام رجل من أهل المركب مشهور بالخير والصلاح فرأى النبي ﷺ وأخذ بيده فقال: انج وأبشروا بالسلامة، فلما أفاق الرجل يشربنا برؤياه فلما أصبح رجع البحر كالزيت وكأنه عقد بيضة وجئنا إلى طرابلس سالمين ببركته ﷺ وقال: سمعت أبا الحسن العسقلاني يقول: ركبنا البحر في طلب جده فهاج علينا ورمينا ما معنا فيه وأشرقنا على التلف فجعلنا نستغيث بالنبي ﷺ ونحن نقول: وامحمداه، وكان معنا رجل مغربي صالح، فقال لنا: ارفقوا بالحجاج إنكم سالمون، رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت: يا رسول الله أمتك يستغيثون بك، قال: فالتفت إلى أبي بكر الصديق

رضي الله عنه، وقال: يا أبا بكر أنجدهم، قال: فكأن عيني ترى أبا بكر رضي الله عنه وقد خاض البحر وأدخل يده في مقدم الحق ولم يزل يجذبها حتى دخل بها البر فلم تستغيثون فأنتم سالمون، فسلمنا، ولم نر بعد هذا إلا خيراً، ودخلنا البر سالمين والحمد لله رب العالمين.

ولما قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما يوم عاشوراء أول سنة إحدى وستين وهو يومئذ ابن أربع وخمسين سنة ونصف سنة ونصف شهر ووقع ما وقع من السبي وحمل النساء والصبيان فلما مروا بالقتلى صاحت زينب بنت علي رضي الله عنهما مستغيثة بالنبي ﷺ: يا محمداه هذا حسين بالعراء مزمّل بالدماء مقطّع الأعضاء، يا محمداه، فلما كان سنة ثلاث وأربعمئة أخذ أهل الكوفة جذري عظيم ثم عمي منهم ألف وخمسمائة كلهم من نسل من حضر قتل الحسين رضي الله عنه. وهذا من أعجب ما سمع، واعلم أرشدك الله عز وجل أن مثل هذه القضايا كثيرة جداً وقد ذكر جماعة من الأئمة من ذلك أموراً عديدة عجيبة منهم البيهقي ومنهم أبو محمد عبد الحق ومنهم بعض الأئمة وذكر جملة مستكثرة في ذلك وعقد أبواباً في الاستغاثات بالنبي ﷺ ومنها باب في أصحاب العاهات وذكر منها جملة مستكثرة من ذلك على اختلاف أنواع العاهات كالعمى والصداع والزمانة ووجع البطن وغير ذلك، وأنه عليه الصلاة والسلام يضع يده الشريفة على موضع العاهة فتزول ببركة يده الشريفة وتشفى وكأنه ما به وجع قلبه^(١). ثم إنه مع ذلك قال: ولو تتبعت هذا الفن لحفيت الأقاليم وجفت المحابر وفنيت الطروس في تتبعه والدفاتر، ثم قال: ولقد سألت بعض إخواننا المجتهدين وكان بمدينة النبي ﷺ على التجريد فقلت: هل استغثت بالنبي ﷺ أو لجأت إليه في شيء قط مدة إقامتك في المدينة؟ فقال: كنت أستحي أن أسأله إذ كنت بحضرته ﷺ، ثم قال: سمعت الفقيه الإمام برهان الدين بن الطيب المالكي يقول: قال لي من أتق به وكان بمدينة النبي ﷺ وأنه أصابه الجوع فأتى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني جائع، وجلس بالقرب من حجرة النبي ﷺ فأثاء رجل من الأشراف فقال له: قم، فقال: إلى أين؟ فقال: تأكل عندي شيئاً، فقام معه إلى بيته فقدم إليه جفنة فيها ثريد ولحم ودهن فأكل حتى شبع وأراد الانصراف فقال له: كل وازداد فلما أراد الانصراف قال له: يا أخي الواحد منكم يأتي من البلاد البعيدة ويقطع المفاوز والغفار ويترك الأهل والأوطان ويقطع البحار ويأتي إلى زيارة النبي العظيم على ربه ﷺ

وتكون همته أن يطلب منه كسرة خبز يا أخي لو طلبت الجنة أو المغفرة أو الرضى مهما طلبته منه لنته ببركة هذا النبي الكريم ﷺ^(١).

هذا وعدم السؤال يكون للأكابر لما يشاهدون في الحضرة النبوية من الإجلالات والكرامات العلوية وأنت أرشدك الله عز وجل إلى الحق وأزاح عنك الباطل إذا استحضرت بعض ما تقدم وعظفت على قول هذا الزائغ أن المسلمين متفقون على أن الميت لا يُسأل ولا يُدعى ولا يُطلب منه سواء كان نبياً أو شيخاً أو غير ذلك قطعت بفجوره وببہتانہ وأنه من أحبب الناس طوية وأنه لا اعتقاد له وهذه عادته بادعاء الاتفاق وبالإجماع المقطوع به كما سيأتي عند ذكر شد الرحال وأعمال المعطي وفي غير ذلك.

وقد تقدم توسل آدم عليه السلام بالنبي ﷺ وأن الله قبله بسبب التوسل وجعل هذا الزنديق آدم عليه السلام بتوسله بالنبي ﷺ ظالماً ضالاً مشركاً وليس وراء ذلك زندقة وكفر.

وروي عن أبي الجوزاء قال: فحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة رضي الله عنها ذلك فقالت: امضوا إلى القبر واجعلوا منه كوة إلى السماء حتى لا يكون بينها وبين السماء شيء ففعلوا فمطروا حتى نبت العشب وسمت الإبل حتى تفتت من الشحم فسمي عام التفقق.

وروي البيهقي بسنده إلى الأعمش عن ابن صالح قال: أصاب الناس قحط في زمن عمر رضي الله عنه فجاء رجل إلى قبر النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هلك الناس

(١) هذا كلام جليل جداً فليتأمل القارئ ولا يستكثر على منزلة ﷺ عند ربه إغاثة أي ملهوف فإنه تعالى يسمح له في الآخرة في الشفاعة العظمى التي تشمل كل خلق الله كالهمم كموئيدهم فيحمله لذلك الأولون والآخرون من الخلق، وإذا كان تعالى يكرمهم بذلك في دار الجزاء وقد غضب غضباً لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله. فعدم كل ما يحكى في هذه الدار من أنواع إغاثته تعالى للمستغيثين به ﷺ بالنسبة لذلك المقام المحمود. وهو تعالى يشفع في ذلك اليوم عباده الصالحين في أناس رجت لهم النار فلا يدخلونها وفي أناس في النار فيخرجون منها، فإغاثته إذن لمن يستغيث بهم في هذه الدار في أمور دون النار بملابن المرات ليست بالأمر البديع وإنما كتبت هذا لأنني أعلم أن كثيراً من الناس لا يقع منهم موقع القبول ما يحكيه هذا الإمام رغم نقله عن أئمة تخني رؤوس أكابر الفضلاء عند ذكرهم فانا في زمن لا يعرف أهله إلا الإنكار وهم لا يعلمون أنهم إنما ينكرون إما فضل الله على أحبائه أو قدرته على ما ينسب إليه من كرامة يكرم بها محبي أحبائه فليعلم، اهـ مصححه.

استسقى لأمنك، فأتاه رسول الله ﷺ في المنام فقال: «أنت عمر فاقراءه مني السلام وأخبره أنهم مسقون وقل له عليك الكيس» قال: فأتى الرجل عمر فأخبره فبكى عمر رضي الله عنه وقال: يا رب ما أكر إلا ما عجزت عنه. فهذا رجل مبارك قد أتى قبره عليه الصلاة والسلام وطلب الاستسقاء منه عليه الصلاة والسلام فلو كان ذلك جهلاً وضلالاً وشركاً لمنعه عمر رضي الله عنه الذي احتج الزائغ باستسقائه بالعباس وقد تقدمت قصة عثمان بن حنيف وهي من الأمور المشهورة.

فسكوت هذا الزائغ القائل بمسألة الفرق تبعاً لسلالة اليهود عن هذه الأمور الواضحة الجلية المشهورة والعدول إلى الفجور من أقوى الأدلة على خبث طويته. ومثل هذا لا يحل لأحد تقليده فيما يقوله ولا ينظر في كلامه إلا من يكون أهلاً لمعرفة دسائس أهل البدع والزيف والا هلك وأهلك فتنبه لذلك وخذ حذرك وإلا هلكت من حيث ظننت السلامة.

وقوله: (ولا يطلب منه شيء سواء كان نبياً أو شيخاً أو غير ذلك) قال الأئمة الأعلام النقاد أصحاب الأذهان الجيدة: هذا منه كفر لما فيه من حط رتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والإجماع على أن من غمط من نبي في شيء من الأشياء كفر وأيضاً ففيه ترفيع غير الأنبياء إلى رتبة الأنبياء وإلحاقهم بهم وفيه إشارة بعيدة ترجع إلى اعتقاد الشيعة^(١) وهو أن النبوة عندهم تكتسب بالرياضات وتهذيب النفس وكتبهم مشحونة بهذا، وهذا من فجورهم فإن النبوة إنما هي من الله عز وجل فمن نبأه الله عز وجل فهو النبي ومن أرسله فهو الرسول ﴿إِنَّهُ أَهْلَمَ حَيْثُ يَجْمَعُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومن الأمور المنتقدة عليه قوله (زيارة قبر النبي وقبور الأنبياء معصية بالإجماع مقطوع بها) وهذا ثابت عنه أنه قاله. وثبت ذلك على يد القاضي جلال الدين القزويني. فانظر هذه العبارة ما أعظم الفجور فيها من كون ذلك معصية. ومن ادعى الإجماع وأن ذلك مقطوع به فهذا الزائغ يطالب بما ادعاه من إجماع الصحابة رضي الله عنهم وكذا التابعون ومن بعدهم من أئمة المسلمين إلى حين ادعائه ذلك. وما أعتقد أن أحداً يتجاسر على مثل ذلك مع أن الكتب المشهورة بل والمهجورة وعمل الناس في سائر الأعصار على الحث على زيارته من جميع الأقطار فزيارته من

(١) هذا ليس اعتقاد الشيعة وإنما هو اعتقاد الفلاسفة هكذا روي على حاشية خط الشيخ، اه صاحب الأصل.

أفضل المساعي وأنجع القرب إلى رب العالمين وهي سنة من سنن المرسلين ومجمع عليها عند الموحدين ولا يطعن فيها إلا من في قلبه مرض المنافقين ومن هو من أفرأخ اليهود وأعداء الدين من المشركين الذين أسرفوا في ذم سيد الأولين والآخرين.

ولم تزل هذه الأمة المحمدية على شد الرحال إليه على ممر الأزمان من جميع الأقطار والبلدان سار في ذلك الزرافات والوحدان والعلماء والمشايع والكهول والشبان حتى ظهر في آخر الزمان مبتدع من زنادقة حران لبس على أشباه الرجال ومن شابههم من سيئ الأذهان وزخرف لهم من القول غروراً كما صنع إمامه الشيطان فصدهم بشموهيه عن سبيل أهل الإيمان وأغواهم عن الصراط المستقيم إلى ثنيات الطريق ومدرجة النيران فهم برزته في ظلمة الخطأ يعمهون وعلى منوال بدعته يهرعون، وسأذكر لك ما تحقق به فجوره وبدعته وتضليل من مشى خلفه وهلكته وأبين ما أظهره من القول الباطل وما رمز إليه وأوضحه لكل من سمعه ووقف عليه ثم أردف ذلك بما يدل على المنهج من ذلك فلا يزيغ عنه بعد ذلك إلا هالك.

قال القاضي عياض في أشهر كتبه الذي شاع ذكره في سائر البلاد وقرى في المجامع والجوامع على رؤوس الأشهاد (فصل في حكم زيارة قبره عليه الصلاة والسلام وفضل من زاره وكيف يسلم عليه ويدعو): وزيارة قبره سنة من سنن المرسلين مجمع عليها ومرغب فيها.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من زارني في المدينة محتسباً كان في جوارِي وكنت له شافعاً يوم القيامة».

وفي حديث آخر «من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي» هذه ألفاظه بحروفها.

وكذا ذكره الإمام العلامة هبة الله في كتاب توثيق عرى الإيمان فهذا نقل الإجماع على خلاف ما نقله هذا الزائف الفاجر المبالغ في فجوره وعزوه إلى السلف، وأما غير هذين الإمامين ممن نقل النذب إلى زيارته فخلق لا يحصون وسأذكر بعضهم على أنه ذكر في فتوى مطولة ما يناقض ما ادعاه من الإجماع والقطع هنا وقد ذكرت المسألة في (تنبيه السالك) وذكر صورة الفتوى وجوابه، وهذا جواب مطول وتعرضت لما فيه من الخلل وسوء الفهم وفجوره في النقل والعزو وما أنذا أذكر هنا

بعض الجواب وأبين ما فيه من الخطأ وعدم صحة الاحتجاج بما احتج به كحديث «لا تشد الرحال» ولا أدق في الجواب لأن قصدي بيان جهله وأنه لا حجة له في الحديث جرياً على القواعد التي عليها مدار الاستدلال صحة وبطلاناً.

وأذكر ما ذكره في أحاديث الزيارة وما ادعاه فيها من الفجور وما رمز إليه في تكفير الأئمة الذين رووها وأنه قال قولاً مفترى لم يسبقه إليه أحد ولا رمز ولا أشار إليه وبالله التوفيق.

فمن^(١) ما ذكره في الجواب بلفظ قوله وقد يحتج بعض من لا يعرف الحديث بالأحاديث المروية في زيارة قبر النبي ﷺ كقوله: «من زار قبري بعد مماتي فكأنما زارني في حياتي» رواه الدارقطني وابن ماجه.

فانظر أرشدك الله تعالى كيف جعل هذين الإمامين ممن لا يعرف الحديث وهو من أقبح البهتان، وقد احتج بهذا الحديث خلائق من أئمة الحديث غير هذين الإمامين منهم القاضي عياض وصاحب توثيق عرى الإيمان وهو أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه (مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن) ذكره في الباب الذي عقده لزيارة قبر النبي ﷺ.

ومنهم ابن قدامة ذكره في كتابه المغني في فصل يستحب زيارة قبر النبي ﷺ واستدل بحديث ابن عمر من طريق الدارقطني ومن طريق سعيد بن منصور، وذكر أيضاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه «ما من أحد سَلَّمَ عليّ عند قبري» وقوله: (وأما ما يذكره بعض الناس من قوله: «من حج ولم يزرني فقد جفاني» فلم يورده أحد من العلماء) وهذا أيضاً من البهتان البين والجهل فقد روى هذا الحديث غير واحد من الأئمة بالفاظ متقاربة منهم الحافظ أبو عبد الله بن النجار في كتابه (الدرة الشمة).

من حديث علي رضي الله عنه ومنهم الإمام الحافظ المتفق على حفظه وعلو قدره في هذا الشأن أبو سعيد عبد الملك النيسابوري خرجه في كتابه شرف المصطفى من حديث علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي ومن لم يزرني فقد جفاني» رواه ابن عساكر من طرق، وقوله: (وهو مثل «من زارني وزار أبي إبراهيم في عام واحد ضمنت له على الله الجنة»).

(١) توصل ما بمن، اه مصححه.

تنبه يا من أشير إليه بالعلم في قوله فإنه يشير به إلى أن الحديث الأول كذب على رسول الله ﷺ لأنه سوى بينهما، وذكر الحديث الثاني توطئة لقصد الفاسد في إرادة تجاسره به والتمويه على العوام والضعفاء من الطلبة وهو شديد الاعتناء بهذا القصد الخبيث في الكلام على آيات الصفات وأحاديثها فليحذر الواقف على كلامه في آيات المتشابهة وأحاديثه غاية الحذر فإن الخطأ فيها كفر بخلاف غيرها من مسائل الفروع.

وقوله: (وقد احتج أبو محمد المقدسي على جواز السفر لزيارة قبر النبي ﷺ وقبور الأنبياء بأن النبي ﷺ كان يزور قباه وأجاب عن حديث «لا تشد الرحال» بأن ذلك محمول على نفي الاستحباب وأما الأولون فإنهم محتجون بما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال^(١): «إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي» وهذا الحديث اتفق الأئمة على صحته والعمل به).

انظر بضرك الله تعالى ما في هذا الكلام من الإيهام والتدليس فإنه قال: قل، وقد احتج الشيخ أبو محمد على جواز السفر لزيارة قبر النبي ﷺ بأن النبي ﷺ كان يزور قباه ولم يذكر راكباً وماشياً لأن الراكب قد شد الرحل وهو لا غرض له في ذلك، وأيضاً لم يذكر غير الشيخ أبي محمد وهو يومهم انفراده بذلك ولم ينفرد كما أذكره من بعد.

وقوله: (أجاب - يعني أبا محمد - عن حديث «لا تشد الرحال» بأن ذلك محمول على نفي الاستحباب) وهو يومهم أن ذلك لم يقله إلا الشيخ أبو محمد وهو من التدليس الذي هو كثير الاعتناء به. والمكر السيئ قوله: (أما الأولون - يعني القائلين بتحريم السفر وعدم جواز القصر في سفر المعصية - فإنهم يحتجون بما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا» وهذا الحديث اتفق الأئمة على صحته والعمل به) وهو يومهم أنهم احتجوا لتحريم^(٢) قبور الأنبياء وقبر النبي ﷺ به وهو من التدليس الفاحش وهو مطالب بأن الأولين صرحوا بأن شد الرحال وأعمال المطي إلى قبره وقبر الخليل إبراهيم عليهما الصلاة والسلام حرام ومعصية ولا تقصر فيه الصلاة وهذا لا يجده بل الموجود غيره والندب إلى ذلك كما يأتي إن شاء الله تعالى، وقد خاب من افتري.

(١) أول الحديث «لا تشد الرحال» ثم المذكور هنا، اهـ مصححه.

(٢) فيه حذف مضاف تقديره فزيارة قبور الخ، اهـ مصححه.

ثم ما ذكره من انفراد الشيخ أبي محمد بأن الحديث محمول على نفي الاستحباب كذب وفجور وجهل فإنه لم يتفرد بذلك بل لا الحديث مسوق لتحريم زيارة القبور وإنما هو لبيان فضيلة المساجد الثلاثة دون غيرها لأن المساجد الثلاثة مساجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والعمل فيها يضاعف ما لا يضاعف في غيرها، وليس لزيارة القبور تعلق بالحديث.

ولما تكلم الأئمة على هذا الحديث ومنهم الإمام العلامة أبو زكريا يحيى النووي رضي الله عنه في شرح مسلم قال: (في الحديث فضيلة المساجد الثلاثة وفضيلة شد الرحال إليها لأن معناه عند جمهور العلماء لا فضيلة في شدها إلى مسجد غيرها، وقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا: يحرم شدها إلى غيرها وهو غلط ومر بيانه في باب سفر المرأة) فصرح بأن جمهور العلماء إنما ذكروا ذلك في الفضيلة وصرح بأنه لا فضيلة في شد الرحال إلى مسجد غيرها ولم يتعرض للزيارة البتة.

قلت: وجزم الشيخ محيي الدين رضي الله عنه بأن الشيخ أبا محمد جزم بالتحريم وهو ممنوع، وإنما تردد في ذلك فقال: ربما يحرم وربما يكره والله أعلم.

وقال - أعني النووي - في شرح مسلم في باب سفر المرأة: واختلف في شد الرحال وأعمال المطي إلى غيرها لا الذهاب إلى قبور الصالحين والمواضع الغاضلة ونحو ذلك.

فقال الشيخ أبو محمد الجويني: يحرم، وهذا الذي أشار إليه عياض مختاراً له والصحيح عند أصحابنا واختاره الإمام والمحققون لا يحرم ولا يكره والمراد أن الفضيلة التامة إنما هي في شد الرحال إلى الثلاثة خاصة، انتهى.

فذكر أولاً أن جمهور العلماء إنما ذكروا ذلك في الفضيلة، وذكر ثانياً أنه قول المحققين وأنه لا يحرم ولا يكره وأن المراد أن الفضيلة التامة إنما هي في شد الرحال إلى المساجد الثلاثة خاصة ولم يصرح بقبور الأنبياء، وقوله: وأن الفضيلة التامة إنما هي في شد الرحال إلى المساجد الثلاثة يفيد أن شد الرحل إلى غير الثلاثة فيه فضيلة إلا أنها غير تامة، وإذا علمت ذلك وما قرره هذا العبد الصالح وما نقله استفدت منه أنه لا يجوز تقليد هذا الزائغ في نقله، ولا يرجع إليه في تقريره لسوء فهمه وتدليسه، وسيأتي إن شاء الله تعالى ما تقطع به بصحة ما قلته بلا شك ولا تردد.

وأزيدك على ما ذكره النووي ما يؤكد ما قلته: قال ابن قدامة الحنبلي في كتابه المغني (فصل: فإن سافر لزيارة القبور والمشاهد) قال ابن عقيل: لا يباح له الترخيص لأنه منهى عن السفر إليها.

قال النبي ﷺ: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» والصحيح إباحته وجواز القصر فيه لأن النبي ﷺ كان يأتي قباء ماشياً وراكباً وكان يزور القبور، وقال: «زوروها تذكركم الآخرة» وأما قوله: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد» فيحمل على نفي الفضيلة لا على التحريم، وليس الفضيلة شرطاً في إباحة القصر ولا يضر انتفاؤها، انتهى.

وفيه من الفوائد أنه صرح بأن الصحيح أن ذلك في نفي الفضيلة وأن المنع إنما نسبه إلى ابن عقيل فقط، فأين قول ابن تيمية وطوائف كثيرون من العلماء المتقدمين، وابن قدامة واسع الباع في الاطلاع فكيف يقتصر على ابن عقيل وحده ويترك طوائف كثيرة من العلماء المتقدمين؟ وهذه كتب الحنابلة وغيرها مشهورة فأين النقل فيها عن المتقدمين؟ وهذا مما يعرفك أن ابن تيمية يكذب في الإجماع، ومن تتبع ذلك وجده صحيحاً وينقل في بعض الأحيان شيئاً وهو كذب محقق، وإذا نقل كلام الغير لم ينقله على وجهه وإن نقله على وجهه دس فيه ما ليس من كلام ذلك المنقول فاعلم^(١) ذلك وتنبه له واحذر تقليده تهلك كما هلك.

وقول ابن عقيل: لا يباح الترخص لزيارة القبور لأنه منهي عن السفر إليها لم يصرح بقبور الأنبياء ولا بقبر النبي ﷺ ولم يعلم مراده، وعلى تقدير إرادته ذلك فهو مخطئ. وضعيف الإدراك في الاستدلال، ألا تراه اعتمد على الحديث، وما قاله ابن عقيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى أن الحديث لا دليل فيه إلا عند عوام الفقهاء وأن من تمسك به فقد تمسك بما لا يفيد، ولا بد من ذكر ألفاظ الحديث لتتم الفائدة، وقد ورد بألفاظ مختلفة:

أشهرها: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا ومسجد الحرام ومسجد الأقصى».

(١) هل الذي يبلغ في الخيانة في النقل إلى هذه الدرجة يعد من متوسطي المؤمنين فضلاً عن الأفاضل العلماء فضلاً عن الأئمة المجتهدين وأنت تعلم أن العالم لا يكون عالماً ورثق الناس بمولفاته إلا إذا كان أميناً أمانة لا يتطرق إليها الشك أصلاً لأنه يتكلم في دين الله وأنا لا أدري من هذا حاله كيف مدحه بعض الناس لا سيما إذا لوحظ ما تقدم من تكفيره بإجماع علماء المذاهب الأربعة وقد أجاد وأفاد من قال إن ذلك المدح صدر ممن مدح في أوائل أمر هذا الرجل فإنه كان يظهر بما يمدح به ولكن لما تبين حاله لم يمدحه إلا من يوافقه على مشربه لا بل هذا ذمه كل الذم ونصحه وقول المؤلف المنقول أي عنه، اهـ مصححه.

واللفظ الثاني: «تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد» من غير لفظ الحصر.

اللفظ الثالث: «إنما يسافر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبة ومسجدي ومسجد إيلياء وإيلياء بيت المقدس».

وهذه الروايات ذكرها مسلم في فضل المدينة من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وذكر قبل ذلك في سفر المرأة من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى» وهذا بصيغة النهي والثلاثة الأول بصيغة الخبر وبصيغة النهي، رواه الطبراني من حديث ابن عمر رضي الله عنهما «لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد إبراهيم ومسجد محمد ومسجد بيت المقدس» وهذا اللفظ رواه ابن راهويه في مسنده من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

هذا ما يتعلق بلفظ الحديث وأما ما يتعلق بمعناه وما يدل عليه فاعلم أن الاستثناء في الحديث مفرغ كما هو واضح ولا بد فيه من تقدير، وهو شيان:

أحدهما: «لا تشد الرحال إلى مكان إلا إلى المساجد الثلاث» ولا بد من تقدير أحد هذين ليكون المستثنى مندرجاً تحت المستثنى منه، والتقدير الأول وهو «لا تشد الرحال إلى مسجد» أولى من التقدير الثاني وهو «لا تشد الرحال إلى مكان» لأنه على التقدير الأول جنس قريب لما فيه من قلة التخصيص، لأن التخصيص على تقدير إضمار الأمكنة أكثر فيكون مرجوحاً، ولو خطر بالبال تقدير العموم في الحديث لكان خيلاً فاسد^(١) المسافة وللقرينة اللفظية فيه ولدخول التخصيص بالأدلة السمعية والعملية الكثيرة جداً، أما سياق فلأن الحديث إنما ورد لبيان شرف هذه المساجد الثلاثة^(٢) وخيرتها على غيرها من المساجد كما مر من أنها مساجد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولهذا تضاعف الأعمال فيها ما لا تضاعف في غيرها، والمتكلمون على الحديث إنما يتكلمون في ذلك ونحوه من لزوم النذر المتعلق بها دون الزيارات، ولهذا لما تكلم بعض المتأخرين على الحديث وأدرج ذكر الزيارة اعترض عليه في ذكر الزيارة وقيل: لم يرد الحديث لذلك وإنما ورد لبيان شرف هذه المساجد دون غيرها وهذا كاف في بطلان الاحتجاج بالحديث لمنع زيارة القبور والزيادة على ذلك إنما هو على وجه التنزل، فمن احتج بالحديث لمنع الزيارة ينبغي أن لا يرسم في حزب

(١) قوله: فاسد المسافة، ينبغي أن يكون فاسد المشاقة كما هو ظاهر، اهـ مصححه.

(٢) صوابه وخيرتها كما لا يخفى، اهـ مصححه.

الفقهاء البتة لما قررنا وإن قلنا بعموم اللفظ فكذلك لأن وقائع الأعيان إذا تطرق إليها الاحتمال كساها ثوب الإجمال وسقط بها الاستدلال وهذا في الاحتمال وإن كان فيه بُعد.

فما ظنك بهذا الحديث الذي لا احتمال فيه من لفظه وهو قرينة ظاهرة قوية ولها شاهد ظاهر الدلالة كما أذكره إن شاء الله تعالى ولا سيما وقد دخله التخصيص بالأدلة السمعية والعملية مع كثرة المخصصات على اختلاف أنواعها، فمنها ما هو فرض عين، ومنها ما هو فرض كفاية، ومنها ما هو مندوب، ومنها ما هو قرينة، ومنها ما هو مباح. وصور هذه الأنواع لا تكاد تنحصر عدداً.

فأما القرينة اللفظية فذكر المساجد الثلاث في الاستثناء وهو بعض المستثنى منه وهذا قوي جداً وإلى تكون بمعنى اللام إذ حروف الصلة ينوب بعضها عن بعض كما هو كثير في الكلام، فالمعنى: لا تشد الرحال لمسجد إلا للمساجد الثلاثة، ويؤيد هذا أن رجلاً من التابعين قال لابن عمر رضي الله عنهما: أريد أن آتي الطور، قال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام ومسجد رسول الله ﷺ ومسجد الأقصى ودع عنك الطور فلا تأته.

فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من أجلاء الصحابة رضي الله عنهم لم يتكلم إلا في شد الرحال إلى المساجد دون غيرها وهو أعلم بالحديث وموارده ومصادره، وعلى منواله تكلم العلماء في شد الرحال بالنسبة إلى المساجد، وكذا ذكر القاضي عياض في كتابه الإكمال ولم يتعرض لزيارة الموتى أصلاً وليس في الحديث تعرض لمنع الزيارة البتة، وبهذا وغيره يعرف أن دعوى أن الحديث يدل على منع الزيارة من كلام الجهلة العارفين عن العلوم التي بها يصح الاستدلال والاستنباط وعلى سوء الفهم وبلاغة الذهن وجموده وأن مثل هذا لا يحل لأحد تقليده ولا الأخذ بقوله لنحقق جهله ببعض ما قررنا ﴿وَمَنْ كَرِهَ اللَّهُ لَمْ يَحْسِلْ إِلَيْهِ لَمْ يَنْوُكْ فَكُلُّ مَنْ يُؤَيِّرُ﴾ [التور: ٤٠] ومثل هذا لا يزال يتخط في ظلمة جهله هو وأتباعه، وبالله التوفيق.

وقوله في جواب الفتوى (ولو نذر أن يأتي مسجد النبي ﷺ أو المسجد الأقصى لصلاة أو اعتكاف وجب الوفاء بهذا النذر عند مالك والشافعي وأحمد ولم يجب عند أبي حنيفة لأنه لا يجب عنده بالنذر إلا ما كان من جنسه واجب بالسمع) إلى آخره، فقولوه وجب الوفاء عند الشافعي يوهم أن الشافعي جازم بذلك وليس كذلك بل هو قول مرجوح عند الشافعي، وعلل بأن مسجد النبي ﷺ والمسجد الأقصى لا يقصدان

بالنسك فأشبهها سائر المساجد، وقوله: ولو نذر أن يصلي في مسجد أو مشهد أو يعتكف فيه أو يسافر إلى غير هذه المساجد الثلاثة لم يجب ذلك باتفاق الأئمة، وهذا أيضاً ليس بصحيح وما رأيت أجراً منه على الفجور ولا أكذب في دعوى الاتفاق والإجماع، وقصده بذلك الترويج على الأغمار ولا عليه من غضب الجبار، وفي كلامه مسألان:

الأول: إذا نذر أن يصلي في مسجد أو مشهد أو يعتكف فيه من غير المساجد الثلاث. وقد حكي الاتفاق على أنه لا يجب الوفاء بذلك وهو البهتان البين فقي ذلك قولان آخران أحدهما: يجب الوفاء مطلقاً، والثاني: أن نذرهما في الجامع تعين وإلا فلا.

المسألة الثانية: إذا نذر أن يسافر إلى غير هذه المساجد الثلاثة فإنها لا تجب عليه باتفاق الأئمة، ثم أردف ذلك بقوله: وأما السفر إلى بقعة غير المساجد الثلاث، فلم يوجب أحد من العلماء السفر إليه إذا نذره حتى نص العلماء على أنه لا يسافر إلى مسجد قباء لأنه ليس من المساجد الثلاث).

فانظر إلى هذه الجرأة والفجور بقوله: حتى نص العلماء، والمسألة فيها خلاف، وقد قال الإمام محمد بن مسلمة المالكي إذا قصد مسجد قباء لزمه لأن النبي ﷺ كان يأتيه كل سبت راكباً وماشيئاً، بل قال الليث بن سعد: إذا نذر المشي إلى أي مسجد كان لزمه سواء في ذلك المساجد الثلاثة وغيرها.

وقال الإمام ابن كج من كبار أصحابنا: إذا نذر أن يزور قبر النبي ﷺ فعندي أنه يلزمه وجهاً واحداً ولو نذر المشي إلى مسجد النبي ﷺ ففيه قولان: أحدهما لا يلزمه، والثاني: يلزمه فعلى هذا لا بد من ضم عبادة، قيل: يلزمه صلاة وقيل اعتكاف ولو لحظة، والصحيح أنه يتخير في مسجد النبي ﷺ بين الصلاة وبين زيارة قبر النبي ﷺ، فجعل زيارة قبر النبي ﷺ طاعة وهي أخص من القرية، وجعلها تقوم مقام الصلاة التي هي أفضل عبادات البدن والمساجد موضوعة لها بالأصالة.

وقوله: (وقالوا لأن السفر إلى زيارة قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين ولا أمر بها رسول الله ﷺ ولا استحب ذلك أحد من أئمة المسلمين فمن اعتد ذلك عبادة وفعلها فهو مخالف للسنة وإجماع الأمة).

قلت: لما وقف بعض الأئمة على هذا الكلام الباطل قال: هذا من البهت الصريح، وصدق رضي الله عنه لما ذكره وفيه أيضاً تدليس من الفجور، بيان التدليس

قوله: قالوا: فإنه يومهم أن هذا الذي قاله لم يقله من عند نفسه وإنما نقله عن أئمة المسلمين وأنه مجمع عليه وهذا شأنه يدل على الإغراء ليحمل الناس على عقيدته الفاسدة المفسدة لأنه لو عزاه إلى نفسه لما انتظم له ذلك لعلم الحذاق النقاد بسوء فهمه وكثرة خلطه مما عرفوه منه في بحثه وتدوينه إذا انفرد، فقلوه: (لأن السفر إلى قبور الأنبياء) يشمل قبر الخليل والكليم وقبر النبي ﷺ وغيرهم، وقوله: (والصالحين) يشمل قبور الصحابة رضي الله عنهم وغيرهم وهو مطالب بتصحيح ما عزاه إلى أئمة المسلمين وأنه مجمع عليه وهو لا يجد إلى ذلك سبيلاً بل المنقول خلاف ذلك كما تراه، وقوله: (إن السفر إلى قبور الأنبياء والصالحين بدعة لم يفعلها أحد من الصحابة ولا التابعين) هذا من العجور والإفك المبين.

ولم تزل الناس على زيارة قبر الخليل والكليم وغيرهما في سائر الأعصار من جميع الأمصار.

وهذا بلال مؤذن رسول الله ﷺ سافر من الشام إلى المدينة الشريفة لزيارة قبر رسول الله ﷺ ومن ذكر ذلك الحافظ ابن عساكر والحافظ عبد الغني المقدسي في كتابه (الإكمال في ترجمة بلال) وقال فيه: ولم يؤذن لأحد بعد النبي ﷺ فيما يروى إلا مرة واحدة في قعدة قدمها إلى المدينة لزيارة قبر رسول الله ﷺ طلب إليه الصحابة رضي الله عنهم فأذن لهم ولم يتم الأذان وقبل إنه أذن لأبي بكر رضي الله عنه في خلافته اهـ.

ومن ذكر ذلك أيضاً إمام الأئمة في الحديث أبو الحجاج الشهير بالمزي^(١) وسبب سفر بلال رضي الله عنه لزيارة قبره عليه الصلاة والسلام أنه رأى النبي ﷺ في المنام فقال له: «ما هذه الجفوة يا بلال أما أن لك أن تزورني يا بلال؟» فانتبه من نومه حزناً وجلاً خائفاً، فقام على راحلته من حينه وقصد المدينة فأتى قبره عليه الصلاة والسلام فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما إليه فجعل يضمهما ويقبلهما ثم قال له: يا بلال نشتهي أن نسمع أذانك الذي كنت تؤذن للنبي ﷺ في المسجد فعلاً سطح المسجد ووقف موقفه الذي كان يقف، فلما أن قال الله أكبر ارتجت المدينة، فلما قال أشهد أن لا إله إلا الله ازدادت رجتها، فلما قال أشهد أن سيدنا محمداً رسول الله خرجت العواتق من خدورهن وقالوا: أبعث رسول الله ﷺ؟ فما رني يوم أكثر باكياً ولا باكياً بالمدينة بعد رسول الله ﷺ من ذلك اليوم.

(١) المزي بكر الميم وتشديد الزاي نسبة إلى قرية بالشام، اهـ مستنسخ الأصل.

فهذا بلال من سادات الصحابة رضي الله عنهم قد شذَّ رحله من الشام وسافر لزيارة قبره عليه الصلاة والسلام فقط، وأعلم بذلك الحسن والحسين، وطار بذلك الخبر في المدينة وكان في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولم ينكر عليه ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم.

ولو كان السفر لزيارة قبره مخالفاً للسنة ولإجماع الأمة لأنكروا عليه لأنهم ينكرون أدنى شيء من المخالفات ولا سيما عمر وهو أمير المؤمنين وأشد الناس في الإنكار وأبطشهم بدأ وأحدهم لساناً ووقوفاً مع الحق ولا تأخذه في الله لومة لائم.

وأيضاً فمن الشائع الذائع أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان يبرد البريد من الشام لأجل السلام على رسول الله ﷺ فقط، ذكر هذا غير واحد منهم القاضي عياض في أشهر كتبه وهو (الشفاء) وذكره الإمام هبة الله في كتابه (توثيق عرى الإيمان) وذكره الإمام العلامة ابن الجوزي في كتابه (مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن) وذكره الإمام أبو بكر أحمد بن النبل في مناسك له لطيفة جردها من الأسانيد والتزم فيها الثبوت ولفظه: وكان عمر بن عبد العزيز يبعث بالرسول قاصداً من الشام إلى المدينة ليقرى النبي ﷺ السلام ثم يرجع، وهذا الإمام أبو بكر قديم توفي في سنة سبع وثمانين ومائتين، فهذا السيد الجليل عمر بن عبد العزيز يبعث الرجل لأجل السلام فقط لا لقصد آخر، وكان ذلك في زمن صدر التابعين، وكان سفر بلال في زمن صدر الصحابة رضي الله عنهم ولم ينكر ذلك أحد، فدلَّ على أن السفر لأجل زيارة قبره ﷺ ولأجل السلام عليه مجمع عليه بين الصحابة والتابعين فأين دعوى ابن تيمية أن ذلك مخالف للسنة ولإجماع الأمة، وقد تقدم قول عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار ألا تسافر لتزور قبر رسول الله ﷺ وتتمتع بزيارته، فقال: نعم يا أمير المؤمنين أفعل. وهذا أو بعضه كاف في إبطال دعوى ابن تيمية وإثبات فجوره وأتبرع بزيادة وأقتصر غاية الاقتصار.

قال بعض الأئمة: وأما زيارة قبر النبي ﷺ فلم ينكرها أحد ولم يقع في السفر إليها نزاع ولم يزل سفر الحبيب إليه في السلف والخلف، وصدق رضي الله عنه، وهذه كتب العلماء من جميع المذاهب مصرحة بذلك، وقد تقدم قول القاضي عياض: زيارة قبره ﷺ سنة من سنن المرسلين ومجمع عليها ومرغَّب فيها، واحتج بحديث ابن عمر وأنس رضي الله عنهم، وقد ذكر غير القاضي عياض ما ذكره. وإذا تقرر ذلك ففي ذكرى ما أتبرع به مع غاية الاقتصار تتحقق أن ابن تيمية من أعظم الكذبة والفجاء، وقد انكشف لك ذلك كما انكشف ضوء النهار.

فمن ذلك ما ذكره القاضي أبو الطيب وهو من أئمة الشافعية قال: ويستحب أن يزور قبر النبي ﷺ بعد أن يحج ويعتمر، اهـ وكيف يزور من غير سفر سواء كان راكباً أو ماشياً.

وقال المحاملي في كتابه التجريد: ويستحب للمحاج إذا فرغ من مكة أن يزور قبر النبي ﷺ، اهـ.

وقال الحلبي في كتابه المنهاج عند ذكر تعظيم النبي ﷺ وذكر جملة ثم قال: وهذا كان من الذين رزقوا مشاهدته وصحبته، وأما اليوم فمن التعظيم بيان تعظيمه وزيارته.

وقال الماوردي في كتابه الحاوي: أما زيارة قبر النبي ﷺ فمأمور بها ومندوب إليها، وقال في كتابه الأحكام السلطانية في باب الولاية على الحجيج وذكر كلاماً يتعلق بأمير الحاج ثم قال: وإذا قضى الناس الحج أمهلهم الإمام الأيام التي جرت عادتهم بها، فإذا رجعوا سار بهم على طريق المدينة للنبي ﷺ ليجتمع بين حج بيت الله عز وجل وزيارة قبر رسول الله ﷺ رعاية لحرمة وقياماً ببعض حقوق طاعته، وذلك وإن لم يكن من فروض الحج فهو من مندوبات الشرع المستحبة وعبادات الحجيج المستحسنة. فتأمل هذه العبارة من هذا الإمام وما اشتملت عليه من الفوائد الجليلة.

وقال الإمام العلامة المتفق على دينه وكثرة علومه وعلو قدره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي: ويستحب زيارة قبر النبي ﷺ، وذكر القاضي حين نحوه وكذا الروياني، ولا حاجة إلى الإطالة بذكر من قال بزيارة قبره عليه الصلاة والسلام سواء في ذلك قبل الحج أو بعده، وذكر السير إليه كثير من أصحاب الشافعي، من جملتهم: السيد الجليل أبو زكريا يحيى النووي قدس الله روحه، قال في كتابه المناسك وغيرها (فصل في زيارة قبر النبي ﷺ): سواء كان ذلك على طريقه أم لا فإن زيارته ﷺ من أهم القربات وأربع المساعي وأفضل الطلبات، اهـ. وإذا عرفت هذا فأتبرع إليك بزيادة أخرى مع زيادة فائدة.

قالت الحنفية: إن زيارة قبر النبي ﷺ من أفضل المنويات والمستحبات بل تقرب من درجة الواجبات، ومن صرح بذلك الإمام أبو منصور محمد الكرماني في مناسكه، والإمام عبد الله بن محمود في شرح المختار.

وقال الإمام أبو العباس السروجي: وإذا انصرف الحاج من مكة شرفها الله تعالى فليتوجه إلى طيبة مدينة رسول الله ﷺ لزيارة قبره فإنها من أنجح المساعي وكلامهم في ذلك يطول، وأتبرع بزيادة هي أبلغ في تكذيب هذا الفاجر لأنها من كلام أئمة الحنابلة.

قال ابن الخطاب محفوظ الكلوماذي الحنبلي في كتابه الهداية في آخر باب صفة الحج: استحب له زيارة قبره ﷺ وصاحبه وفيه فائدة وهي استحباب شد الرحل إلى زيارة الصديقين رضي الله عنهما.

وقال الإمام ابن أحمد في الرعاية^(١) الكبرى: ويستحب لمن فرغ من نسكه زيارة قبر النبي ﷺ وقبر صاحبه رضي الله عنهما وذلك بعد فراغ الحج وإن شاء قبله.

وذكر نحو ذلك غيرهم ومنهم الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه مشير الغرام وعقد له باباً في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام، واستدل بحديث ابن عمر وأنس رضي الله عنهم. وذكر ابن قدامة في المغني فصلاً في ذلك، فقال: يستحب زيارة قبر النبي ﷺ واستدل بحديث ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم ولا أطول بذكر من ذكره من أئمة الحنابلة تبعاً لإمامهم رضي الله عنهم، وأتبرع بزيادة لفوائد جمعة ومهمة.

فمن ذلك ما في كتابي^(٢) تهذيب الطالب لعبد الحق الصقلي عن أبي عمران المالكي أن زيارة قبر النبي ﷺ واجبة، وقال عبد الحق في هذا الكتاب: رأيت في بعض المسائل التي سئل عنها أبو محمد بن أبي زيد قيل له في رجل استؤجر بمال ليحج به وشرطوا عليه الزيارة فلم يستطع تلك السنة أن يزور لعذر منعه من ذلك، فقال: يرد من الأجرة بقدر مسافة الزيارة وهي مسألة حسنة.

وفي كتاب النوادر لابن أبي زيد فائدة أخرى، فإنه بعد أن حكى في زيارة القبور من كلام ابن حبيب ومن المجموعة عن مالك، ومن كلام القرطبي بإسكان الراء وبالطاء المهملتين، ثم قال عقبه^(٣): ويأتي قبور الشهداء بأحد ويسلم عليهم كما يسلم على قبره ﷺ وعلى صاحبه وفي الكتاب المذكور.

ويدل على التسليم على أهل القبور ما جاء في السنة والتسليم على النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما مقبورين.

(١) هي الدعاية بالدال، اه مصححه.

(٢) صوابه كتاب كما هو واضح، اه مصححه.

(٣) هي عقبه بالقاف لا بالناه، اه مصححه.

وقال العبد العبد المالك في شرح الرسالة: إن المشي إلى المدينة لزيارة قبر النبي ﷺ أفضل من المشي إلى الكعبة وبيت المقدس، وصدق وأجاد رضي الله عنه لأنه أفضل البقاع بالإجماع.

فهذه نبذة يسيرة والنقول في ذلك كثيرة جداً وفيها الإجماع على طلب الزيارة بعدت المسافة أو قصرت وعمل الناس في ذلك في جميع الأعصار من جميع الأقطار، فكيف يحل لأحد أن يبدعهم بالقول الزور ويضل أمة أمة المختار، بل من المصائب العظيمة أن يوقع وفد الله تعالى في جريمة عظيمة وهي عصيانهم بشد رحالهم لزيارة قبره عقب ما رجوه من المغفرة ويتركهم الصلاة التي هي أحد أركان الدين لأنهم إذا لم يجز لهم القصر وقصروا فقد تركوا الصلاة عامدين، ومن تركها متعمداً قتل إما كفراً وإما حداً، ولا يصدر هذا إلا ممن هو شديد العداوة لوفد الله تعالى ولحبيهم الذين^(١) يرتجون بزيارتهم له استحقاق الشفاعة التي بها نجاتهم.

وسأذكر عقب هذا الأدلة الخاصة بالحث على زيارته وأتعرض لما قدح فيها وفي الأئمة روايات ومنه تعلم أن هذا الخبيث لا دين له يعتمد عليه فتراه واضحاً جلياً لا تشك فيه ولا ترتاب فنسأل الله تعالى العافية مما يرتكبه هذا الزائف الفاجر الكذاب، وأن يذيقه أشد العذاب، على ما أنشد في هذه الأمة وسيلقى أشد الحساب.

وقوله (إنما^(٢)) ذكروه من الأحاديث في زيارة قبر النبي ﷺ فكلها ضعيفة باتفاق أهل العلم بل هي موضوعة لم يرو أحد من أهل السنن المعتمدة شيئاً منها) أعوذ بالله من مكر الله عز وجل.

انظر أدام الله لك الهداية وحماك من الغواية إلى فجور هذا الخبيث كيف جعل الأحاديث المروية في زيارة قبر خير البرية كلها ضعيفة، ثم أردف ذلك بقوله باتفاق أهل العلم بالحديث، ولم يجعل الأئمة الذين أذكروهم من أهل الحديث، والعجب أنه روي عنهم في مواضع عديدة من كتبه، وهذا من جهله وبلادة ذهنه وعمارة قلبه من أنه لا يعلم تناقض كلامه ونقضه بذلك، ثم إنه لم تخمد نار خبثه بما ذكره من الفجور حتى أردف ذلك بأن الأحاديث المروية في زيارة القبر المكرم موضوعة - يعني أنها كذب - وهذا شيء لم ير أحد من علماء المسلمين ولا من عوامهم فاه به ولا رمز إليه لا من في عصره ولا من قبله قاتله الله تعالى.

(١) الذي بالإفراد، أم مصححه.

(٢) صوابه إن ما، أم مصححه.

ولقد أسفرت هذه القضية عن زندقته بتجرته على الإفك على العلماء وعلى أنه لا يعتقد حرمة الكذب والفجور ولا يالي بما يقول، وإن كان فيه عظام الأمور. وإذا عرفت هذا فينبغي أيها المؤمن الخالي من البدعة والهوى أن لا تقلده فيما ينقله ولا فيما يقوله، بل تفحص عن ذلك وتسال غير أتباعه ممن له رتبة في العلوم وإلا هلكت كما هلك هو وأتباعه^(١).

ولنذكر بعض الأحاديث الواردة في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام، وأذكر من رواها وأحذف الأسانيد لأنها لا تليق بهذه الأوراق وقد رويت من طرق بلغت بها منزلة الصحيح أو قاربت أو منزلة الحسن وأذكر من صحح بعضها وأبين أنه من الأئمة الأعلام بالحديث وأنه يعتمد تصحيحه وبالله التوفيق.

فمن الأحاديث في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام قوله ﷺ: «من زار قبري وجبت له شفاعتي» رواه غير واحد من أئمة الحديث منهم الدارقطني والبيهقي وغيرهما والحديث مروي بهذا اللفظ في عدة نسخ معتمدة وهو من حديث ابن عمر رضي الله عنهما وخرجه أبو اليمن في كتابه إيجاف^(٢) الزائر، وأطراف المغنم للسنار، في زيارة سيدنا رسول الله ﷺ، وخرجه الحافظ ابن عساكر في تاريخه في زيارة قبره عليه الصلاة والسلام بعد وفاته كان كمن زاره في حياته، وخرجه العقيلي وغيره فلا نطول بذكر من رواه من أئمة الحديث المعترين وهو مروي من طرق تبلغ الحسن.

قال أئمة الحديث: والحديث أو الأحاديث وإن لانت أسانيد مفرداتها فمجموعها يقوي بعضها بعضاً ويعتبر الحديث حديثاً حسناً ويحتج به ومن ذكر ذلك أبو زكريا النووي ذكره في شرح المذهب في كتاب الحج وهي فائدة جلية ينبغي معرفتها ليعلم بها جهل هذا الفاجر المبالغ في فجوره.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «وجبت له شفاعتي» معناه: حققت، ولا بد منها بوعده الصادق. وفي ذلك بشارة عظيمة لزوار قبره الشريف وهي أن من زاره محتسباً مات على التوحيد، وهذه البشارة العظيمة من ثمرة زيارة قبره المكرم.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «وجبت له شفاعتي» تحقيق لما قلته لأجل إضافة الشفاعة إليه ولأنه عليه الصلاة والسلام مشفع لا تُرد شفاعته لا في حياته ولا بعد وفاته ولا في عرصات القيامة.

(١) لعلك في دهشة مما مر مفصلاً من تعدد كذب هذا الرجل في نقوله وأحكامه حتى تمدى كذبه الخلق إلى رسول الله ﷺ، اه مصححه.

(٢) لا أدري أمر إيجاف كما ذكره أم إتحاف، اه مصححه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من زار قبري حلت له شفاعتي» رواه الحافظ البزار في مسنده، وهو بهذا اللفظ في نسخة معتمدة. وسمعا الحافظ أبو الحسين الصدفي على الإمام أبي عبد الله مورتش^(١) سنة ثمانين وأربعمائة. ومعنى «حلت» وجبت، وقد عزى عبد الحق هذا الحديث إلى البزار والدارقطني.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي» رواه الدارقطني في سننه وغيرها.

وفي رواية «ومن مات بأحد الحرمين بعث في الآمين يوم القيامة» ورواه غير واحد وهو من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وروي من طرق. ورواه الحافظ ابن عدي في كتابه الكامل بزيادة: قال عليه الصلاة والسلام: «من حج فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي وصحبي» وذكر البيهقي في سننه أنه ذكره ابن عدي وخرجه هو بدون هذه الزيادة وخرجه الحافظ ابن عساكر.

من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال عليه الصلاة والسلام: «من حج فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي» زاد السهمي «وصحبي».

ورواه الحافظ ابن الجوزي بهذه الزيادة: وقال عليه الصلاة والسلام: «من حج البيت ولم يزرني فقد جفائي» رواه ابن عدي في كتابه الكامل وغيره وهو من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وخرجه الدارقطني في أحاديث مالك التي ليست في الموطأ وهو كتاب ضخم.

وقال ابن الجوزي: إن هذا الحديث موضوع، وقد نسب ابن الجوزي في ذلك إلى السرف فاعرف ذلك.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من زار قبري أو زارني كنت له شفعاً أو شهيداً» رواه أبو داود الطيالسي في مسنده وهو من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ورواه إمام الأئمة ابن خزيمة ورواه البيهقي وابن عساكر من جهة الطيالسي.

وروي بزيادة: قال أبو داود الطيالسي: حدثنا سوار بن ميمون أبو الفرج العبدي قال: حدثني رجل من آل عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من زار قبري» أو قال: «من زارني كنت له شفعاً أو شهيداً».

«ومن مات في أحد الحرمين بعثه الله في الآمين يوم القيامة».

(١) هو فرنس كما في الأصل، اهـ مصححه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من زارني متعمداً كان في جوارِي يوم القيامة» رواه أبو جعفر العقيلي وغيره، ومنهم الحافظ ابن عساكر.

وفي رواية السحاي^(١) قال: حدثنا هارون بن قرعة عن رجل من آل الخطاب عن النبي ﷺ قال: «من زارني متعمداً كان في جوارِي يوم القيامة ومن سكن المدينة وصبر على بلائها كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة ومن مات في أحد الحرمين بُعث في الآمنين يوم القيامة» ومن هو في جواره فهو في الآمنين لا محالة ﷺ.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من حنَّ حجة الإسلام وزار قبري وغزا غزوة وصلى في بيت المقدس لم يسأله الله فيما افترض عليه».

ورواه الحافظ أبو الفتح الأزدي في فوائده، وهذا أبو الفتح اسمه محمد بن الحسين وكان حافظاً من أهل العلم والفضل، وصنف كتاباً في علم الحديث.

ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه وابن السمعاني في الأنساب وأثنى عليه محمد بن جعفر بن غيلان وذكره في الحفاظ وحسن المعرفة بالحديث.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من زارني محتسباً كنت له شفيعاً أو شهيداً» وفي رواية «من زارني محتسباً إلى المدينة كان في جوارِي يوم القيامة» وهو من رواية أنس رضي الله عنه ورواه غير واحد.

ومن ذكره ابن الجوزي في كتابه مثير الغرام الساكن وهو من طريق ابن أبي الدنيا، وروي من طرق.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من زارني ميتاً فكأنما زارني حياً ومن زارني وجبت له شفاعتي يوم القيامة وما من أحد من أمتي له سعة ثم لم يزرنني فليس له عذر» رواه الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود النجار في كتابه (الدرة اليتيمة في فضائل المدينة).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من زارني في مماتي كان كمن زارني في حياتي ومن زار قبري حتى ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيداً» خرجه العقيلي.

ورواه ابن عساكر من جهته إلا أنه قال: «من زارني في المنام كان كمن زارني في حياتي» وهي فائدة جليلة.

(١) في الأصل السحامي، اهـ مصححه.

وعن علي كرم الله وجهه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من زار قبري بعد موتي فكأنما زارني في حياتي ومن لم يزرنى فقد جفاني» رواه الحسين بن يحيى بن جعفر في كتاب أخبار المدينة.

ورواه الحافظ أبو عبد الله ابن النجار في كتابه الدرة البتيمة «من لم يزرنى فقد جفاني».

ورواه الحافظ أبو سعيد عبد الملك بن محمد النيسابوري في كتابه شرف المصطفى ﷺ وهذا الكتاب في ثمان مجلدات. وأبو سعيد هذا له مصنفات في علوم الشريعة، توفي سنة ست وأربعمئة بنيسابور وقبرهن بها مشهور ويترك به، وكان يتفح بكلامه وبوعظه وتنجلي بكلامه القلوب قدس الله روحه ونور ضريحه.

وقال عليه الصلاة والسلام: «من جاءني زائراً لا عمله حاجة إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيماً يوم القيامة».

وفي رواية «من جاءني زائراً لم تنزعه حاجة إلا زيارتي» رواه غير واحد من الأئمة الحفاظ المشهورين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما ومنهم الطبراني في معجمه الكبير ومنهم الدارقطني في أماليه ومنهم أبو بكر ابن المقرئ في معجمه ومنهم العلامة الحافظ أبو علي سعيد بن عثمان بن السكن. ذكره في كتابه المسمى بالصحاح المؤثرة عن رسول الله ﷺ.

يا هذا انتبه لما أذكره.

قال في خطبة كتابه هذا: أما بعد فإنك سألتني أن أجمع لك ما صح عندي من السنن المأثورة التي نقلها الأئمة من أهل البلدان الذين لا يطعن فيهم طاعن مما نقلوه فتدبرت ما سألتني عنه فوجدت جماعة من الأئمة قد تكلفوا ما سألتني من ذلك وقد وعيت جميع ما ذكروه وحفظت عنهم أكثر ما نقلوه واقتديت بهم وأجبتك إلى ما سألتني من ذلك وجعلته أبواباً في جميع ما يحتاج إليه في أحكام المسلمين، فأول من نصب نفسه لطلب الصحيح البخاري وتابعه مسلم وأبو داود والنسائي، وقد تصفحت ما ذكروه وتدبرت ما نقلوه فوجدتهم مجتهدين فيما طلبته، فما ذكرته في كتابي هذا مجملاً فهو مما أجمعوا على صحته، وما ذكرته بعد ذلك مما اختاره أحد الأئمة الذين سميتهم فقد ثبتت حجة في قبول ما ذكره ونسبته إلى اختياره دون غيره، وما ذكرته فيما ينفرده به أحد أهل النقل للمحدث فقد بينت علته ودللت على انفراده دون غيره، وبالله التوفيق، اهـ.

فانظر أرشدك الله تعالى هذا الاتفاق من هذا الإمام والحرص على تحقيق ما وضعه في كتابه لم يقنع بوضع البخاري ومسلم وغيرهما مع جلالتهن بل تتبع ما وضعوه حتى وضع في كتابه وهذا شأن الأئمة الخائفين من الله عز وجل من أن يقع منهم زلل في الإخبار عن رسول الله ﷺ، ثم إنه رضي الله تعالى عنه ذكر في هذا الكتاب في كتاب الحج في باب ثواب من زار قبر النبي ﷺ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من جاءني زائراً لم ينزعه إلا زيارتي كان حقاً على الله أن أكون له شفيعاً يوم القيامة» ولم يذكر في هذا الباب غير هذا الحديث.

وهذا حكم منه بأن هذا الحديث مجمع على صحته بمقتضى الشرط الذي شرطه في الخطبة وهو رضي الله عنه إمام جليل حافظ متقن كثير الحديث واسع الرحلة سمع بالعراق وخراسان وما وراء النهر وسمع بالشام ومصر وسمع من خلائق من أئمة الحديث والأجلاء أهل الدين وهو من القدماء، أصله بغدادى، وسكن مصر ومات بها في نصف المحرم سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة رحمة الله تعالى عليه وعلى أمثاله، وإذا كان هذا حديث صحيح^(١) فكيف يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يجعله ضعيفاً فضلاً عن أن يجعله كذباً وأقل درجات الثقة الخائف أن يقول صححه فلان، وأما القول بوضعه ويتكذيب هذا الإمام وأمثاله فلا يصدر إلا من زنديق محقق الزندقة بهذه القرينة وغيرها عالماً بالله عز وجل من ذلك.

وإذا تقرر لك ذلك فانظر أرشدك الله تعالى وعافاك هذا الخيث الطوية كيف طعن في هذه الأئمة الأعلام في علوم الحديث الذين بهم يُقتدى وعليهم يُعول وعند ذكرهم تنزل الرحمة، ورامهم بالوضع على رسول الله ﷺ وطعن في هذه الأخبار المروية عن هذه الأئمة. وهذا شأنه قاتله الله تعالى كلما جاء إلى شيء لا غرض له فيه طعن فيه وإن كان مشهوراً ومعمولاً به بين الأئمة ولا عليه لا من الله عز وجل ولا من رسوله ﷺ ولا من الناس وتنبه لشيء عظيم رمى به هذه الأئمة وهو أن من قاعدته أن من كذب على النبي ﷺ متعمداً كفر فعليه من الله عز وجل ما يستحقه، وهذا وغيره يدل على أن عنده ضغينة للنبي ﷺ ولصاحبه وكذا لأئمة ليفوت عليهم هذا الخير الذي رتبته على زيارة قبره عليه أفضل الصلاة والسلام فاحذروه واحذروا تزويق مقالته المطوي تحنها أخبث الخباثت فإنها لا تجوز إلا على عامي أو بليد الذهن كالحمار يحمل أسفاراً أو خال من العلوم وأخبار الناس وبالله تعالى التوفيق، والله أعلم.

(١) يكتب حديثاً صحيحاً لأنه خير كان، اهـ مصححه.

قال عليه الصلاة والسلام: «إن بين يدي الساعة دجاجة»^(١) فاحذروهم» رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

وقوله: وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «في مرض موته لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا» قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرزوا قبره ولكن كره أن يتخذ مسجداً فهم دفنوه في حجرة عائشة خلاف ما اعتادوه من الدفن في الصحاري لثلا يصلي أحد عند قبره ويتخذ مسجداً ويتخذ قبره وثناً، الخ.

تأمل بصرك الله تعالى وفهمك كيف بعد تضليل هذه الأئمة وفجوره بادعاء أن هذه الأحاديث المتعلقة بالزيارة كذب كيف أردف ذلك بهذا الحديث محتجاً به على منع زيارة القبر الشريف وفيه من أقوى الأدلة على تدليس وسوء فهمه، إذ الحديث ليس فيه تعرض للزيارة البتة وإنما فيه منع اتخاذ القبور مساجد، ونحن لم نتخذ قبره المكرم المعظم مسجداً ولا نصلي فيه ولا إليه بل نزوره وندعوا مع الأدب والخشوع والسكينة ورؤية العظمة لعلنا بأنه يسمعنا ويجيبنا، وعلى ذلك جرت عادة المؤمنين.

قال بعضهم: رأيت أنس بن مالك رضي الله عنه خادم رسول الله ﷺ أتى قبر النبي ﷺ فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه قد افتتح الصلاة فسلم على النبي ﷺ ثم انصرف، وقوله: فهم دفنوه في حجرة عائشة رضي الله عنها خلاف ما اعتادوه من الدفن في الصحاري لثلا يصلي أحد عند قبره ويتخذ مسجداً فيتخذ قبره وثناً.

هذا أيضاً من التدليس منه وسوء الفهم على عادته، وما قاله باطل يموه به على الضعفاء من الطلبة وغوغاء الناس، وإنما دفنوه في حجرة عائشة رضي الله عنها لما روي لهم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدفنون حيث يقبضون وكان ذلك بعد اختلافهم أين يُدفن فقال بعضهم: يُدفن في مسجده، وقال بعضهم: مع إخوانه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: عندي من ذلك علم، فذكر لهم أن النبي يُدفن موضع يقبض، فلما روي لهم الحديث دفنوه موضع قبضه، وهذا من القضايا المشهورة في غاية الشهرة، ولا نعلم أن أحداً قال إنهم دفنوه موضع قبضه للمعنى الذي ذكره وهذا شأنه إن وجد شيئاً يوافق هواه وخبث طويته ذكره ووسع الكلام فيه وزخرفه وإن وجد شيئاً عليه أهمله أو حملة على محمل يعرف به أهل النقل جهله وتدليسه عند تأمله في بعض المواضع يعرف من غير تأمل.

(١) هذا إخبار من المصنف إلى أن هذا الرجل دجال وهو يؤيد ما سبق لنا من أن أعماله أفعال

وقوله: وكانت الصحابة والتابعون لما كانت الحجرة النبوية منفصلة عن المسجد لا يدخل للصلاة هناك ولا يتمتع بالقبر ولا دعاء هناك، هذا أيضاً من الجسارة التي يزخرف بها على العوام وأشباههم من سيئي الأفهام من الطلبة، فإن هذا لا يدل على مراده من منع الزيارة بل كلامه يدل على الزيارة بلا هذه الأفعال إلا الدعاء، فليس كما قال، وسيأتي إن شاء الله تعالى، ومع ذلك ليس مجمعاً عليه كما زعمه وأوهمه كلامه فإن أبا أيوب الأنصاري رضي الله عنه زار والتزم القبر فأنكر عليه مروان بن الحكم فوبخه أبو أيوب.

وقال في كلامه ما معناه ابكوا على هذا الأمر إذا وليه غير أهله^(١) ذكر ذلك أبو الحسين في كتابه أخبار المدينة.

وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه وضع يده على موضع مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه^(٢) وكان رضي الله عنه يتردد إلى الأماكن التي كان يتردد إليها رسول الله ﷺ وبراحلته لأجل التبرك، وقد تقدمت قصة بلال رضي الله عنه لما شد رحله لزيارة قبره عليه الصلاة والسلام فلما وصل الصريح المكرم جعل يمرغ وجهه عليه ويبكي^(٣). وقوله: ولا دعاء هناك، قضية سياقه أن الإجماع على أنه لا يدعرو عند القبر وهي دعوى عريضة، ثم أكد ذلك بقوله: إنما يفعلونه في المسجد، ثم أردف ذلك بقوله: وكان السلف من الصحابة والتابعين إذا سلموا عليه وأرادوا

(١) في ذلك جواز ضم قبور الصالحين وأبو أيوب الأنصاري الذي ضم ضريح سيد الوجود ﷺ هو أبو أيوب وكفى، اهـ مصححه.

(٢) في ذلك جواز التبرك بآثار الصالحين أباً كانت حتى الخشب الذي كانوا يجلسون عليه وابن عمر هو ابن عمر، اهـ مصححه.

(٣) انظر تمرغ سيدنا بلال وجهه على ضريح خير الخلق وبلال هو بلال تجده صررة طبق الأصل لما يحصل من كثير من الزائرين اليوم والزائرات للصالحين من أهل البيت وغيرهم ويقعد كثير من المنتظمين لذلك ولا يرضون لفاعله غير الشرك بالله ليحكموا بذلك على بلال الذي يعد من أجلاء الصحابة وهو مؤذن رسول الله ﷺ ليعلم أولئك المنتظمون أن ذلك أثر وجد في النفوس لا يشعرون هم به يحمل أهله على التبرك بما يجاور حبيب ربهم وهو من باب قول القائل:

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

هذا قصد أولئك المؤمنين في لمسهم ضريح الصالح من العباد لا العبادة كما يتوهم مظلمو القلوب سينو الظن بالمؤمنين فليعلم، اهـ مصححه.

الدعاء دعوا مستقبلي القبلة ولم يستقبلوا القبر، ثم قال: وأما وقت السلام فقال أبو حنيفة: يستقبل القبلة ولا يستقبل القبر.

وقال أكثر الأئمة: يستقبل القبر عند السلام خاصة ولم يقل أحد من الأئمة إنه لا يستقبل القبلة عند الدعاء إلا في حكاية مكذوبة عن مالك ومذهبه بخلافها ثم أردف هذا بأمور يجسر بها على الأغمار يتخيل الواقف عليها من العوام حسم باب الزيارة لقبره عليه الصلاة والسلام.

والحاصل من كلامه أنه لا يَدْعِي عند القبر بالاتفاق ولا يستقبل القبر عند الدعاء بالإجماع، وأن الحكاية التي وقعت بين مالك وأبي جعفر المنصور كذب، سبحانه هذا بهتان عظيم.

وهذا من الفجور الذي لا أعلم أحداً فاه به ولا رمز إليه لا من العلماء ولا من غيرهم.

أما قضية مالك مع المنصور فقد ذكرتها في الكلام على التوسل فإنها صحيحة بلا نزاع، وأما الدعاء عند القبر فقد ذكره خلق ومنهم الإمام مالك، وقد نصّ على أنه يقف عند القبر ويقف كما يقف الحاج عند البيت للدواع ويدعو وفيه المبالغة في طول الوقوف والدعاء.

وقد ذكره ابن المراز في الموازية فأفاد ذلك أن إتيان قبر النبي ﷺ والوقوف عنده والدعاء عنده من الأمور المعلومة عند مالك وأن عمل الناس على ذلك قبله وفي زمنه، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لأنكره فضلاً عن أن يفني به أو يقره عليه.

وقال مالك في رواية ابن وهب: إذا سلّم على النبي ﷺ ودعا يقف ووجهه إلى القبر لا إلى القبلة ويدعو ويسلّم ولا يمس القبر بيده، نعم في المبسوطة لا أرى أنه يقف عنده ويدعو ولكن يسلّم ويمضي.

وإنما ذكرت كلام المبسوطة لأن من حق العالم الذي يؤخذ بكلامه أن يذكر ما له وما عليه لأن ذلك من الدين.

وقال أبو عبد الله محمد بن عبد الله السامري في كتاب المستوعب في باب زيارة قبر النبي ﷺ: وإذا قدم مدينة رسول الله ﷺ استحَبَّ له أن يغتسل لدخوله ثم يأتي مسجد رسول الله ﷺ ويقدم رجله اليمنى في الدخول ثم يأتي حائط القبر فيقف ناحيته ويجعل القبر تلقاء وجهه والقبلة خلف ظهره والمنبر عن يساره.

ثم ذكر كيفية السلام والدعاء وأطال ومنه: اللهم إنك قلت في كتابك لنبيك عليه الصلاة والسلام ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ [النساء: ٦٤] الآية، وإني قد أتيتك مستغفراً فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حال حياته اللهم إني أتوجه إليك بنبيك وذكر دعاء طويلاً ثم قال: وإذا أراد الخروج عاد إلى القبر فودع، وهذا أبو عبد الله من أئمة الحنابلة، وساق هذا الكلام سياق المتفق عليه.

ومن جملة ما أفاد أنه يتوسل بالنبي ﷺ ويتوجه به بعد وفاته كما في حياته وأن الآية عامة وشاملة للحياة وبعد الوفاة فتنبه لذلك. وكذلك ذكره أبو منصور الكرمانى من الحنفية أنه يدعو ويطلب الدعاء عند القبر المكرم.

وقال الإمام أبو زكريا النووي في مناسكه وغيره فصل في زيارة قبر النبي ﷺ: وذكر كلاماً مطولاً ثم قال: «إِذَا صَلَّى تَحْتَ الْمَسْجِدِ أُنَى الْقَبْرِ فَاسْتَقْبَلْهُ وَاسْتَدْبِرِ الْقِبْلَةَ عَلَى نَحْوِ أَرْبَعَةِ أَذْرُعٍ مِنْ جِدَارِ الْقَبْرِ وَسَلِّمْ مَقْتَصِداً لَا يَرْفَعُ صَوْتَهُ» وذكر كيفية السلام ثم قال: «ويجتهد في إكثار الدعاء ويغتنم هذا الموقف الشريف» الخ.

فهذه نقول الأئمة بشطوئل الدعاء عند القبر المكرم وقد خاب من افترى، وكل أحد تلحقه الخيبة على قدره.

وقوله: وهذا كله محافظة على التوحيد فإن من أصول الشرك بالله اتخاذ القبور مساجد كما قال طائفة من السلف في قوله تعالى: ﴿لَا تَدْعُوا لِلْهَنَكَ وَلَا تَدْرُؤَ وَلَا سُلَوكًا وَلَا يَتَوَكَّرُ وَيَتَوَكَّرُ﴾ [نوح: ٢٣] وقد أضلوا كثيراً.

قالوا: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح فلما ماتوا اعتكفوا على قبورهم ثم صوروا على صورهم تماثيل ثم طال عليهم الأمد فعبدوها، وقد ذكر ذلك المعنى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما وذكره ابن جرير الطبري في تفسيره وغيره عن غير واحد من السلف، الخ.

وأنت أيها اللبيب أرشدك الله عز وجل وزادك بصيرة وفهماً إذا تأملت هذا الاستدلال منه قطعت بجهله وبخلطه في خبطه وعلمت بذلك سوء فهمه وخيالاته الفاسدة، ومن نفس الدليل تعلم ذلك، فإنه تخيل بذهنه الجامد وخياله الفاسد أن منع الزيارة والسفر إليها من المحافظة على التوحيد، وأن الزيارة تؤدي إلى الشرك وعبادة الأوثان، وهذا خيال فاسد لأن اتخاذ الصور مساجد وعياداً، والعكوف ونصوير الموتى فيها هو المحذور والمؤدي إلى الشرك عند تطاول الزمان، وهذا هو الممنوع منه كما

هو مصرّح به في الأحاديث الصحيحة في قوله عليه الصلاة والسلام: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا، وفي قوله عليه الصلاة والسلام لما أخبر بكنيسة بأرض الحبشة قال: «أولئك إذا مات منهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ثم صوّروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله عزّ وجلّ» فهذا هو الذي حذّر منه رسول الله ﷺ.

وأما الزيارة والسلام على الميت والدعاء له وعنده فلم يؤدّ إلى ذلك ولا له تعلق بتلك الأمور، ومن تخيل ذلك فهو من سوء فهمه في هذا الأمر الواضح ولو كان يؤدي إلى ذلك لما شرعه رسول الله ﷺ وأبلغ من ذلك لما أمره الله عزّ وجلّ بالخروج إلى قبور الشهداء الذين أكرمهم بالشهادة حين نزل عليه جبريل عليه السلام وأمره بأمر الله تعالى بالخروج إلى بقيع الغرقد بل كان نهاه أن لو أراد الخروج، وأيضاً فإنه عليه الصلاة والسلام قال: «زوروا القبور» كما رواه مسلم وغيره بزيادة إلى غير ذلك مما علمهم عليه الصلاة والسلام كيفية الزيارة كما جاء في الأحاديث في زيارتها قولاً وفعلاً.

وتواتر ذلك وأجمع عليه المسلمون حتى أن منهم من أوجب زيارتها لظاهر قوله عليه الصلاة والسلام: «زوروا القبور» فلو كانت الزيارة من الأمور التي تؤدي إلى الشرك كاتخاذها مساجد وعياداً والتصوير ونحو ذلك لم يشرعه الله عزّ وجلّ لنبيه ﷺ ولا شرعها رسول الله ﷺ بقوله وفعله، وقد أطلعه الله عزّ وجلّ على ما أراد من غيبه وبعثه بدينه القويم وهو الصراط المستقيم، ولا فعلها الصحابة رضي الله عنهم الذين هم من أصفى الله تعالى، بل كانوا أحرص الناس على ذلك خوفاً من إعادة ما جاء رسول الله ﷺ بإماتته ودفنه واندراس أثره، والله أعلم.

وانت أيها العاقل الفطن إذا تصورت ما نقلته لك وتعلقت بذهنك الصحيح علمت وتحققت أنه ليس لأحد أن يحرم إلا ما حرم الله تعالى ورسوله وأنه لا يحل له التهجم على موارد الشرع ومصادره بخیالاته الفاسدة وأنه بذهنه الجامد أدرك ما لم يدركه الصحابة رضي الله عنهم ولو فتحنا هذا الباب وتبعنا هذه الخيالات الفاسدة لهدمنا أموراً كثيرة من الدين ولانحلت عراه عروة عروة وتبدلت بعد الجهالة ولمات الدين، وذلك من الخسران المبين، شعر:

فالقول ما قال النبي وصحبه فإذا اقتديت بهم فنعم المقتدى

واعلم أن من جملة ما احتج به على منع زيارة قبره عليه الصلاة والسلام حديث «اللهم لا تجعل قبري وثناً وعيداً اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وهذا من أظهر الأمور على عَمَى قلبه وطمس بصيرته كيف يتخيل متخيل فضلاً عن أن يعتقد معتقد أن قبره المكزَّم المعظَّم يصير وثناً، كلا والذي رفع ذكره وأعلى قدره وعظمه وملا كتابه بذلك لا يمكن تصور ذلك، وكيف يتصور وهو لا ترد له دعوة ولو في حق غيره فكيف بما هو في حقه، وهذا من المعلوم الشائع الذائع عند المتسع الباع، ولو عددت لك نقطة من ذلك مع الاقتصاد لضاعت القراطيس والألواح، ولما أدرك غبار مبادئه ولما لاح.

دعا عليه الصلاة والسلام لسعد بن أبي وقاص أن يجيب الله دعوته فما دعا على أحد إلا استجيب له. وإذا كان هذا قد ناله ببركة دعوته فكيف بدعائه لنفسه لا سيما في هذا الأمر الفظيع.

ومرض أبو طالب فعاده عليه الصلاة والسلام فقال: ادع ربك أن يعافيني، فقال: «اللهم اشفِ عمي» فقام في الحال كأنما نشط من عقال، فقال له: يا ابن أخي أطيعك ربك؟ فقال: «يا عماء لئن أطعت الله عز وجل ليطعنك».

ودعا عليه الصلاة والسلام لابنته فاطمة رضي الله عنها أن لا يجيئها، قالت رضي الله عنها: فما جئت بعد.

ودعا عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه أن يكفيه الحر والبرد فكان يلبس في الشتاء ثياب الصيف وفي الصيف ثياب الشتاء ولا يصيه حر ولا برد.

ودعا عليه الصلاة والسلام لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلم التأويل» فكان كذلك، وكان بعد ذلك يسمى الحبر وترجمان القرآن.

ودعا لعبد الرحمن بن جعفر بالبركة في صفقة يمينه فما اشترى شيئاً إلا ربح فيه.

ودعا عليه الصلاة والسلام لعروة بن أبي الجعد فكان لو اشترى التراب لربح فيه.

ودعا عليه الصلاة والسلام لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بالبركة، قال عبد الرحمن: فلو رفعت حجراً لرجوت أن أصيب تحته ذهباً.

وندت له عليه الصلاة والسلام ناقة فدعا بردها فجاءها إعصار ريح حتى ردها عليه. فانظر كيف من كساه خلع القرب والمنتزلة عنده أن جعلها سائسة بغيره. والإعصار أحد الأعاصير وهو الريح العاصف التي ترتفع إلى السماء كأنها عمود.

وفي حديث أسماء بنت عميس رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام كان يروحى إليه ورأسه في حجر علي رضي الله عنه فلم يصلُ العصر حتى غربت الشمس، فقال عليه الصلاة والسلام: «اللهم إنه كان في طاعتك وطاعة رسولك فاردد عليه الشمس» قالت أسماء رضي الله عنها: فرأيتهما غربت ثم رأيتهما طلعت بعدما غربت ووقعت على الجبال وذلك بالصباح بخيبر. وقيل: رجعت حتى بلغت نصف المسجد.

ومثل هذا كثير جداً وقد ذكرت جملة من ذلك في فصل الحج في كتاب (تنبيه السالك على مظان المهالك).

يا من أمد أباهر بمزودة فأوقرت منه للفاديين أحمال
جنتاك نظوي الفجاج المقفرات على عيسى لها في السرى وجد وار قال

قال أبو هريرة رضي الله عنه: أصاب الناس مخمصة فقال لي رسول الله ﷺ: «هل من شيء؟» فقلت: نعم شيء من التمر في المزود، قال: «فأتني به» فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها ودعا بالبركة ثم قال: «ادع عشرة» فأكلوا حتى شبعوا ثم عشرة كذلك حتى أطعم الجيش كلهم وشبعوا، ثم قال: «خذ ما جئت به وأدخل يدك واقبض منه ولا تكفته» فقبضت على أكثر ما جئت به فأكلت منه وأطعمت حياة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما إلى أن قتل عثمان رضي الله عنه فأنتهب مني فذهب.

وفي رواية: فقد حملت من ذلك التمر كذا وكذا أوسقاً في سبيل الله تعالى، فقد تحققت بهذا فضلاً عن غيره وهو مثل الرمال كثرة يا صحيح الذهن وقوي الإيمان به أنه لا يكون قبره وثناً البتة، بل في الحديث الصحيح قد أيس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب أو مثل هذا السيد المعظم المكرم لا يتوسل به ولا تشد الرحال إليه، قاتل الله العزيز من قاله وضاعف العذاب عليه.

جدير بنا نسعى إليه ونلدج فذاك الذي يسعى إليه ويدلج
جعلنا إليه في الحياة احتياجنا ونحن إليه في القيامة أحوج
جميع الورى والرسل تحت لوائه ومن ذاله عن جاه أحمد مخرج

أو لهذا السيد الجليل المبجل لا يشد إليه رحل ولا يتوسل به قائل الله قائله وجعله على رصف جهنم يتمايل.

زكا قدره من ذا يجاريه في العلا	وأعلامه في ذروة العز تركز
زحاماً ترى للرسل تحت لوائه	وكل نبي باللوا يتمتعز
زعيم بتعجيل الشفاعة عندما	أولو العزم عنها في القيامة تعجز
زفير لظي عنا يرد بجاهه	إذا هي من غيظ علينا تميز
زكاة على الأبدان تسعى لقبره	فيروا وزوروا فالغنائم تحرز
فمن زاره نال السعادة كلها	ومن مات عجزاً ذاك والله أميز

فمن توسل به عليه الصلاة والسلام إنما توسل به لعلو قدره ورتبته، وارتفاع منزلته وكمالها عند ربه وعظيم إجلاله وفضله على جميع خلقه، كما أخبر هو عن نفسه، فإنه سيد الأولين والآخرين وحبيب رب العالمين وأحب الخلق إليه أجمعين.

ذلك شائع وذائع في الأقدمين والآخرين حتى في أعدائه المبطلين.

قديماً بدا قبل النبيين فضله	وإن قدموا بعثاً ففي الفضل أسبق
قضى الله أن لا يلحق الرسل لاحق	ولا أحد منهم بأحمد يلحق
قطعنا بأن لا يخلق الله شبهه	قديماً ولا في آخر الخلق يخلق
قل الحق هل تدري لأحمد مشبهاً	فبادر وقل لا لا فإنك تصدق
قرأنا أحاديثاً صحاحاً بأنه	عليه لواء الحمد في الحشر يخفق
قياماً له الأملاك والرسل تحته	ومن حوله صفوا وحفوا وأحدقوا
قوي ولكن لين في أناسه	رفيق ولكن بالمساكين أرفق
قريب لأرباب الحوائج ما ترى	لأحمد حجاباً ولا الباب يغلق

وكيف لا يكون كذلك وهو كما قيل فيه:

أكرم العالمين أصلاً وفصلاً	وجلالاً وسيد البطحاء
خص بالحوض والشفاعة في الحشر	لكل الوري ورفع اللواء
والمقام المحمود والسبق لنا	من دخولاً في الجنة الفيحاء
ثم يعطي وسيلة هي أعلى	درجات الجنان ذات البقاء
هو جاري وعدتي ونصيري	وعمادي في شدتي ورخائي

وليس هذا خاصاً بي وبفقري بل هو كما قيل فيه:

له المقام الذي ما ناله أحد	والفخر والمجد والإحسان والحسب
----------------------------	-------------------------------

وهو الشفيع الذي تنجى شفاعته
محمد خير خلق الله قاطبة
نؤه به يا منادي الحي إن به
عان له مقلة تشناق تنظره
كل الأنام إذا ما مسها العطب
وهو الذي لفخار المجد يكتسب
تزول عن قلبي الآلام والكرب
ومهجة بلهيب الشوق تلتهب

وكيف لا تلتهب وقد شاهدت ما شاهدت مما لا يمكن النطق به ولا أفوه،
وكيف كيف أسلوبه.

رعى الله بالبطحاء أيامنا التي
وحيا قباباً بين سلح إلى قبا
نعمت بها لكن كأحلام نائم
فهل لي إلى تلك العوالم عودة
والشم إجلالاً ثراها وأجتلي
سقى الله ذات الظل من دارة الحمى
وسحت على أعلام سلح مديمة
فتلك لعمر الله دار أحبتي
ألا ليت شعري هل أزور قبابها
وأنشد في أكنافها مترنماً
ألا يا رسول الله أنت وسيلتي
وإن شئت قلت
مضت كوميض البرق ثم تولت
لعزتها يحلو خضوعي وذلي
كأن لم تزرها العيس حتى تولت
ولو دونها بفيض الصوارم سلت
شموسي في أرجائها وأملني
حتى نهلت منه رباها وعلت
غمائم بالنوء الروى استهلت
ومكانها كل المراد ويغيتني
فتحمد فيها العيس شدي ورحلتي
لمن نظم مدحي فيه بيت قصيدتي
إلى الله إذ ضاقت بما رمت حيلتي
إلى الله في غفران ذنبي وزلتي

فالتوسل به عليه الصلاة والسلام لم يزل منذ آدم عليه السلام لا يتوقف فيه أحد
ولا يطعن إلى أن ظهر بعض زنادقة اليهود وغلاتهم في بغضه عليه الصلاة والسلام،
قال: وإنه بموته بطلت حرمة وجهه فلا يتوسل به ولا يقال يا جاء محمد، وتم ذلك
بتوارث سلاتهم معتقدين ذلك مصرين عليه.

ثم زاد هذا الخبيث أن التوسل به شرك وقرره بتقرير الحق بقوله: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُعْزِيَهُنَّ إِلَى اللَّهِ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ﴾ [الزمر: ٣] وذلك يدل على أن من أجهل الجهلة، فإن
التوسل به عليه الصلاة والسلام معناه: أسأل الله عز وجل برسوله وأتشفع إليه به فهو
سائل لله عز وجل لا لغيره ولا يلزم من التوسل به أو بشخص والتشفع إليه به أن
يكون عبده ولا اتخذه إلهاً ورباً من دون الله ولا جعله شريكاً في الإلهية، ومن جعل

التوسل بشخص مثل هؤلاء^(١) فهو من جهله وسوء فهمه وعدم تعقله ما يقول، ومثل هذا لا يحل لأحد أن يقلده ولا ينظر في كلامه إلا من له رتبة التمييز بين الحق والباطل وإلا هلك وهو لا يشعر.

وقد قال عليه الصلاة والسلام: «حياتي خير لكم ومماتي خير لكم» قالوا: يا رسول الله قد عرفنا أن حياتك خير لنا فكيف وفاتك خير لنا؟ قال: «أما حياتي فإنكم كلما أحدثتم حدثاً أحدث الله لكم المخرج منه بي فإذا متُّ فلا أزال أنادي من قبري ربي أمتي حتى ينفخ في الصور ثم لا أزال أجاب أربعين سنة حتى ينفخ الأخرى وتعرض علي أعمالكم فما كان من حسن شكرت الله عليه وما كان من سيئه دعوت الله أن يضره» رواه الإمام العلامة هبة الله في كتابه توثيق عرى الإيمان، ورواه غيره.

فهو عليه الصلاة والسلام رحمة لنا في حياته وبعد وفاته فكيف لا يتوسل به إليه ولا نعمل البزل الفنايس نحوه وإليه، وذلك مما أجمع أهل التوحيد عليه، وأجمعوا على تكفير من قال بخلاف ذلك. صرح به أئمة الأمة وأولهم مالك.

وكان ابن تيمية ممن يعتقد ويفتي بأن شد الرحال إلى قبور الأنبياء حرام لا تقصر فيه الصلاة ويصرح بقبر الخليل وقبر النبي ﷺ، وجاء بريدي من مصر باعتقاله على ذلك فاعتقل وكان على هذا الاعتقاد تلميذه ابن قيم الجوزية الزرعي وإسماعيل بن كثير الشوكوني فاتفق أن ابن قيم الجوزية سافر إلى القدس الشريف ورقى على منبر في الحرم وعظ، وقال في أثناء وعظه بعد أن ذكر المسألة وقال: ها أنا راجع ولا أزور الخليل، ثم جاء إلى نابلس وعمل له مجلس وعظ، وذكر المسألة بعينها حتى قال: فلا يزور قبر النبي ﷺ، فقام إليه الناس وأرادوا قتله فحماه منهم والي نابلس، وكتب أهل القدس وأهل نابلس إلى دمشق يعرفون صورة ما وقع منه فطلبه القاضي المالكي فتردد وصعد إلى الصالحية إلى القاضي شمس الدين بن مسلم الحنبلي وأسلم على يديه فقبل توبته وحكم بإسلامه وحقن دمه ولم يعززه لأجل ابن تيمية.

ولما كان يوم الجمعة رابع شعبان جلس القاضي جلال الدين بعد العصر بالمدرسة العادلية وأحضر جماعة من جماعة ابن تيمية كانوا معتقلين في سجن

(١) هنا محذوف هو المفعول الثاني لجعل تقديره شركاً يستقيم الكلام، اهـ مصححه.

الشرع فادعى على إسماعيل بن كثير صاحب التاريخ أنه قال: إن التوراة والإنجيل ما بدلا وإنهما بحالهما كما أنزلا وشهدوا عليه بذلك وثبت في وجهه فعزز في المجلس بالدرة وأخرج وطيف به ونودي عليه بما قاله ثم أحضر ابن قيم الجوزية وادعى عليه بما قاله في القدس الشرف وفي نابلس فأنكر فقامت عليه البيعة بما قاله فادب وحمل على جمل، ثم أعيدها في السجن، ولما كان يوم الأربعاء أحضر ابن قيم الجوزية إلى مجلس شمس الدين المالكي وأرادوا ضرب عنقه^(١) فما كان جوابه إلا أن قال: إن القاضي الحنبلي حكم بحق دمي وبإسلامي وقبول توبتي، فأعيد إلى الحبس إلى أن أحضر الحنبلي فأخبر بما قاله فأحضر وعُذر وضرب بالدرة وأُركب حماراً وطيف به في البلد والصالحية وردوه إلى الحبس ولم يزل هذا في أتباعه.

وحضر شخص إلى دمشق يقال له أحمد الظاهري وكان قد حفظ آيات المتشابهة وأحاديثه فكان يسردها على العوام وآحاد الناس من الفقهاء فعظمه أتباع ابن تيمية وأكرموه. ثم إنه توجه إلى القاهرة فشرع يسرد الإياد والأحاديث لعلم به الإمام العلامة الشيخ سراج الدين البلقيني فطلبه وأعلم به برقوق فأخذوه وقيدوه وكانوا يضربونه بالسياط أول النهار ثم يستعملونه في العمارة، فإذا كان آخر النهار أعادوا عليه الضرب، ثم بلغني أن آخر الأمر أن ضربوا عنقه.

وكان الشيخ زين الدين بن رجب الحنبلي ممن يعتقد كفر ابن تيمية وله عليه الرد، وكان يقول بأعلى صوته في بعض المجالس: معذور السبكي - يعني في تكفيره - والحاصل أنه وأتباعه من الغلاة في التشبيه والتجسيم والازدراء بالنبي ﷺ وبغض الشيخين وإنكار الأبدال الذين هم خلفوا الأنبياء ولهم دواهي آخر لو نطقوا بها لأحرقهم الناس في لحظة واحدة، فنسأل الله تعالى العافية ودوامها إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير.

(وجرسوا) ابن القيم وابن كثير وطيف بهما في البلد وعلى باب الجوزية لفتواهم في مسألة الطلاق، والله أعلم.

واعلم أنني اقتصر على الكلام على هذه الفتوى لإشاعتها بين العوام وفيها

(١) هذه قيمة ابن قيمة يراها القاري. مجسة أمامه في هذا السياق فليعلمها ولا يفتن، اه مصححه.

التعرض لمنع الوسيلة ومنع شد الرحال إلى قبر سيدنا رسول الله ﷺ واستدلاله لما قاله بالتجسير والتمويهات التي بيّنا بطلانها وفسادها، وأن ذلك من أظهر الأمور على فجوره في النقل والإغراء، وأن لا يحل أن يقلده ولا يأخذ عنه ولا ينظر في كلامه ولا يسمعه إلا من يكون له رتبة التمييز بين الحق والباطل وإلا هلك وهو لا يشعر^(١).

ثم من الأمور المهمة المقرّبة إلى الله عزّ وجل وإلى رسوله وإلى وزيره رضي الله عنهما بسط الألسن والأيدي فيهم جرياً على ما درج عليه العلماء والسلاطين منذ أثار هذا الخيث هذه الخباثت، وأن يعلن بالتوسل بسيد الأولين والآخرين، وأن يعتني بإظهار شد الرحال وإعمال المصلى والأقدام إلى خير خلقه وحبيب القلوب، ومن بذكره تنجلي الكروب، ويهتزّ الطروب، وبالصلاة والسلام عليه تذهب الذنوب، التي بسببها حصل الإبعاد عن المزار وبعد الدار.

روى زيد بن أسلم أن عمر خرج ليلة يحرس فرأى مصباحاً في بيت وإذا عجوز تنفش صوفاً وتقول:

على محمد صلاة الأبرار صلى عليه الطيبون الأخيار
قد كنت قواماً بكاءً في الأسفار يا ليت شعري والمنايا أطوار
هل تجمعني وحبيب^(٢) الدار

تعني رسول الله ﷺ.

قال: فجلس عمر رضي الله عنه يبكي شوقاً إلى حبيبه رسول الله ﷺ وتتصعد أنفاسه من نار الشوق لولا دموع المحبين تطفئ نار الشوق لاحتقرت أكبادهم بأنفاسهم.

(١) هذا حكم من هذا الإمام الكبير على كل من يتبع ابن تيمية بأنه هالك في دينه وانظر معنى الهلاك في مثل هذا المقام ومن هنا نحن نرثي لإخواننا الموجودين والغابرين الذين اغتروا بهذا الرجل المسكين ووراءه ساروا وكان بودنا أن يرى إخواننا الموجودون هذا الكتاب ليعرفوا منه قيمة هذا الرجل ثم بعد ذلك ينظروا لأنفسهم والحمد لله الذي عايناه مما ابتلي به كثيراً من خلقه، اه مصححه.

(٢) وحبيبي، اه مصححه.

يا خليلي قد بلغت القصدا
خليلاني من ذكر سلمى ونجد
أنا لي في حشائتي حب بدر
نار وجدي بحبه في ازدياد
كلما رمت أن نفسي عنه
وتراها إذا ترنم حاد
لا تلمها إذا بدت بحنين
فلها معهد وأنس قديم
وعرفت الغرام هزلاً وجدا
ودعاني من حب سلمى وسعدى
أقسم الدهر أنه لا يسبدي
وغرامي به تزايد جدا
نتلى أبت ولا تنهدي
بربها تذوب شوقاً ووجدا
وأين يقد ذا القلب قدما
ليس يفنى وإن تطاول عهدا

كان الصديق رضي الله عنه من المشغوفين بمحبة رسول الله ﷺ.

قال سيف بن عمرو: كان سب موت الصديق رضي الله عنه وفاة رسول الله ﷺ كمداً عليه فما زال جسمه يتحرق حتى مات، والكمد: الحزن المكثوم.

كنت^(١) السواد لناظري
من شاء بعدك فليمت
وعليك كنت أحاذر
فعليك يبكي الناظر

والحمد لله أولاً وآخراً، وباطناً وظاهراً، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيد الأولين والآخرين وأكرم السابقين واللاحقين ورضي الله عن الصديقين والصحابه أجمعين وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، آمين.

(١) أحفظ هذين البيتين هكذا:

كنت السواد لناظري
من شاء بعدك فليمت
فعمي عليك السناظر
فعليك كنت أحاذر

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد سيد العالمين وعلى آله خير أمة أخرجت للناس وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين. انتهت هذه التعليقات في اليوم الثامن عشر من شهر رجب سنة ١٣٥٠هـ على يد كاتبها الذي يرجو قارئها دعوة صالحة إن رأى فيها خيراً ونحن جميعاً نبتهل إلى رنا الغفور الرحيم الشكور الكريم أن يفرغ غيرت رحماته وكراماته على جدت يضم هذا الرجل الغيور على دينه القائل في نصره كالأسد يذود عن عرينه الإمام أبي بكر نقي الدين الحصني وأن يجمعا معه في دار كرامته يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، آمين.

السيف الصَّقِيلُ في الرد على ابن زفيل

للإمام تقي الدين علي بن عبد الطَّافِي السَّكِينِي

المؤلف ٧٥٦ هـ

تحقيقه

الإمام العلامة الشيخ محمد زاهد بن محمد بن علي الكوثري

المؤلف ١٣٧١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ترجمة السبكي

هو: علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الأنصاري الخزرجي أبو الحسن تقي الدين شيخ الإسلام في عصره، وأحد الحفاظ المفسرين المناظرين، وهو والد التاج السبكي صاحب الطبقات.

مولده: ولد في «سبك من أعمال المنوفية» سنة ٦٨٣هـ - ١٢٨٤م.

رحلاته العلمية: انتقل من سبك إلى القاهرة، ثم إلى الشام وولي قضاء الشام سنة ٧٣٩هـ واعتل فعاد إلى القاهرة فتوفي فيها.

من تصانيفه: «الدر النظيم في التفسير - لم يكمله»، «مختصر طبقات الفقهاء»، «إحياء النفوس في صنعه إلقاء الدروس»، «الإغريض في الحقيقة والمجاز والكنية والتعريض»، «التمهيد فيما يجب فيه التحديد - ط. في المبايعات والمقاسمات والتملكيات وغيرها»، «السيف الصقيل - ط. رأيت بخطه في ٢٥ ورقة في المكتبة الخالدية بالقدس في الرد على قصيدة نونية تسمى الكافية في الاعتقاد منسوبة إلى ابن القيم»، «المسائل الحلبية وأجوبتها - خ. في فقه الشافعية»، «السيف المسلول على من سب الرسول - خ»، «مجموع فتاوى - ط»، «شفاء السقام في زيارة خير الأنام - ط»، «الابتهاج في شرح المنهاج - فقه». ورأيت مجموعة - خ - بخطه في مجلد ضخمة تشتمل على رسائل كثيرة له، منها: الأدلة في إثبات الأهلّة، والاعتبار ببقاء الجنة والنار، وفتاوى وغير ذلك. ورأيت مجموعة أخرى كلها بخطه «في الرباط ٣٠٦ أوقاف» تشتمل على تسع رسائل منها: المجاورة والنشاط في المجاورة والرباط... الخ وقد استوفي ابنه تاج الدين أسماء كتبه، وأورد ما قاله العلماء في وصف أخلاقه، وسعة علمه.

وفاته: توفي بالقاهرة سنة ١٣٥٥م - ١٣٥٥/٥٦هـ.

(*) انظر: الأعلام للزركلي ٣٢/٤ طبعة: دار العلم للملايين - بيروت، الخطط التوفيقية لابن المبارك ٧/١٢ طبعة: الأميرية ببولاق سنة ١٣٠٥هـ، غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري ٥٥١/١ طبعة: السعادة بمصر سنة ١٩٣٣، الدرر الكامنة ٦٣/٣ - ٦٤ طبعة الأولى - الهند سنة ١٣٤٩هـ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤٢/٦ - ٤٤ طبعة عيسى الحلبي الأولى سنة ١٣٨٦هـ - سنة ١٩٦٧م، ٣٦٦/٥ - ٣٦٨ نفس الطبعة.

التعريف بكتاب «السيف الصقيل»

في أثناء القرن السابع الهجري رحل من حران إلى الشام بيت علم وفضل، خوفاً على أنفسهم من التتر واستوطنوا دمشق. وكان منهم طفل صغير من مواليد حران حمله أبوه معه فيما حمل من أهله، فالحقه بمدرسة من مدارس دمشق. ذلك الصغير، هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام المعروف بابن تيمية. وعبد السلام كان من خيرة العلماء، له في مذهب أحمد تصانيف، وله متقى الأخبار الذي شرحه الشوكاني وأسماء: نيل الأوطار. فأقبل ذلك الصغير على العلم وظهرت عليه مخايل الذكاء، وتفقه في مذهب أحمد كأسرته الحنابلة، وقرأ في كثير من الفنون والعلوم، وظهرت عليه مخايل الذكاء، واشتهر بجودة الحفظ وقوة الذاكرة، وتصدّر للفتيا وإلقاء الدروس في سن مبكرة، وظهرت عليه آثار النسك والعبادة، فأجته العامة وأثنت عليه الخاصة، وبالغ في الدعاء إلى السنة ومجانبة البدعة. وقد آنس من نفسه قوة ذهن وشدة عارضة فلم يحفل بالرجوع إلى شيوخ الوقت وأكابرهم، ورفعت إليه الأسئلة والاستفتاءات، فأجاب وأفتى، وهو مرموق في كل ذلك بعين التجلّة من الجميع. . حتى إذا قارب سن الأربعين سن الكمال عادة، بدأ النقص يظهر فيه، فبدأ يسير على طريق الكرامة والحشوية^(١)، ويحيي بدعة القول بالجهة والمكان والأجزاء لله.

(١) وهناك صورة مجملّة من الكرامة والحشوية، حتى تستبطن حقيقتها، وتختبر عودها، وتنظر في أصلهما فيحكى لنا الإيجي أنهما فرعان لشجرة حنظل واحدة، هي شجرة التشبيه. تشبيه الخالق بالمخلوق. وإن اختلفوا في طريقته فمنهم مشبهة علاة الشيعة ومنهم مشبهة الحشوية كمضّر وكهمس والهجيمي ومنهم مشبهة الكرامية أصحاب أبي عبد الله محمد بن كرام. ويؤكد الرازي على أن اليهود أكثرهم مشبهة. وأن ظهور التشبيه في الإسلام قد بدأ من الروافض مثل بيان بن سمعان الذي كان يثبت لله تعالى الأعضاء والجوارح، وهشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي، ويونس بن عبد الرحمن القمي، وأبو جعفر الأحوال الذي كان يدعى شيطان الطاق. وهؤلاء رؤساء علماء الروافض، ثم تهافت في ذلك المحدثون ممن لم يكن لهم نصيب من علم المعقولات.

وقيام الحوادث من الصوت وغيره بذاته تعالى. وأخذ يشيع أن القول بذلك هو الإسلام والإيمان والدين والتوحيد، وأن ذلك هو مذهب أحمد بن حنبل^(١) وأن من

= ويصور لنا الشهرستاني بعض معتقداتهم، ويعد أن يورد أصولهم فيقول: إن جماعة من الشيعة الغالية، وجماعة من أصحاب الحديث الحشوية صرحوا بالتشبيه مثل: الهشاميين من الشيعة. ومثل مضر، وكهس، وأحمد الهجمي وغيرهم من الحشوية. قالوا: معبودهم على صورة ذات أعضاء وأبعاد ويحوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتمكن. وأما مشبهة الحشوية، فحكى الأشعري عن محمد بن عيسى أنه حكى عن مضر، وكهس، وأحمد الهجمي: أنهم أجازوا على ربهم الملامة والمصافحة. وأن المسلمين المخلصين يعانقونه في الدنيا والآخرة. وحكى عن داود الجواربي أنه قال: اهفوني من الفرج واللحية وأسألوني عما وراء ذلك. وقد أورد كثيراً من هذه المعتقدات الفاسدة الأشعري في مقالاته، وكذا البغدادي في فرقه... ثم إن الإمام الرازي رتب فرقه الخمسة هكذا: ١ - الحكمية: وهم أصحاب هشام بن الحكم. ٢ - الجواليقية: أتباع هشام بن سالم الجواليقي الرافضي. ٣ - اليونسية: أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي. ٤ - الشيطانية: أتباع شيطان الطاق. ٥ - الحوارية أصحاب داود الحوارية. وكذا أورد طوائف الكرامية وقال: وأقربهم الهيصمية وفي الجملة، فهم كلهم يعتقدون أن الله تعالى جسم وجوهر ومحل للحوادث، ويثبتون له جهة ومكاناً. ونقول: والحشوية - كما سبق - من أهل الحديث الذين تمسكوا بظواهر الأحاديث التي تشعّر بالتشبيه، وسبب تسميتهم بهذا الاسم كما يقول الكوثري - في مقدمته على تبين كذب المفتري -: أن الحسن البصري كان يلزم مجلسه نبلاء أهل العلم، وقد حضر مجلسه يوماً أناس من رعاي الرواة. ولما تكلموا بالسقط عنده قال: ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة أي جانبها، فسموا الحشوية. ومنهم أصناف المجسمة والمشبّهة. والحشوية بفتح الشين ويصح إسكانها، لفقرهم بالجسم، لأن الجسم محتر.

انظر: مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، الملل والنحل للشهرستاني ج ١/ ١٠٥، الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٦٥، والسيوطي للإيجي ص ٤٢٩، اعتقاد فرق المسلمين والمشرّكين للفخر الرازي ص ٩٧ - ١٠١، تبين كذب المفتري لابن عساكر الدمشقي ص ١١.

(١) يقول الرازي: اعلم أن جماعة من المعتزلة ينسبون التشبيه إلى الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه ويحسب بن معين. وهذا خطأ. فإنهم منزهون في اعتقادهم عن التشبيه والتعطيل، ولكنهم كانوا لا يتكلمون في التشابه مع جزمهم بأن الله تعالى لا تشبيه له وليس كمثله شيء. وأقول بعد ذلك: فلا يخدعك عن دينك قول من يقول: إن كل حنبلي مجسم، لتظن أن الإمام أحمد كان هو أو فقهاء أتباعه كذلك - فالمجسمة إن كانوا حنابلة ففي الفروع لا في الأصول - وقد روى الإمام أبو الفضل التيمي شيخ الحنابلة، والمافظ ابن الجوزي وغيرهما من أعيان المذهب عن الإمام أحمد ما عليه الجماعة من تنزه الحق عن الجسمية ولوازمها. روى البيهقي في مناقب الإمام أحمد بسنده عن أبي الفضل أنه قال: «أنكر أحمد على من قال بالجسم وقال: إن الأسماء مأخوذة من الشريعة واللغة. وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على ذي طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف. والله تعالى خارج عن ذلك كله فلم يجوز أن يسمى جسماً لخروجه عن معنى الجسمية. ولم يجزى في الشريعة ذلك فبطل».

خالف ذلك فهو معطل ملحد عدو للدين منابذ للإسلام والمسلمين، فأحيا بذلك بدعة الحشو بعدما ماتت أو كادت، حتى لقد رآه ابن بطوطة - في بعض رحلاته - يخطب على المنبر، وتلا حديث النزول ثم قال: ينزل كنتولي هذه وترل درجة، فأنكر عليه بعض الحاضرين، فهاج العامة على المنكر وضربوه ضرباً شديداً. بل لقد تعصب له بعض الحنابلة أولاً، حتى إذا استطار، في الناس ضرره جعلوا يوجهون إليه النصائح بالمشافهة والمكاتبه. وحسبك نصحة الحافظ الذهبي له - وهي مثبتة في ذيل تكملة السيف الصقيل الذي بين يديك - وهو شيخ الحنابلة والحديث - وكان قبل ذلك يكثر الثناء عليه بل يطربه - فيقول: «كان سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخيتهما» ثم قال: إن سلم لك إيمانك بالشهادتين فانت سعيد... الخ وستأتيك بتمامها». ونقول: لقد برع في الاحتيال لنشر آرائه المخالفة للمعقول والمنقول، وبرز في نصر بدع الكرامية، وإحياء ما اندرس من شبههم وشبه غيرهم، وترى ذلك في منهاجه الذي يرد به على الروافض وفي الحقيقة لقد خالف فيه منهاج السنة، فأثبت بأنه لا أول للحوادث وأنه لا ابتداء لها، وأن ذلك هو مذهب الصحابة والتابعين، وتراه مع ذلك... في تناقض واضح - ينقل خلاف الصحابة والتابعين في أول مخلوق، هل هو العرش أو القلم أو الماء؟! وفي صفحة واحدة دون خالصة من الخجل!!

وله في ثلب الكرام طريق غريبة مأكرة، تجد ذلك في كيديه للانتصار للأئمة الأربعة وإن حفل نصفه الأول بالثناء عليهم فقد انسرب مكره بهم في النصف الثاني تمهيداً لجرأة العامة عليهم وكذلك كان صنيعه مع إمامي أهل السنة أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي. ولا عليك فإن جاءك خلاف بين الأشاعرة والحنابلة فلا تشك أنه هو وأتباعه فقط. ولم يسلم من لسانه إمام من أئمة أهل السنة فارجع إلى موافقة معقولة تجده قد وقع في إمام الحرمين وحجة الإسلام الغزالي ووصفهما بأنهما أشد كفراً من اليهود والنصارى!!.. ولكن هل تركه علماء عصره على هذه الضلالات؟ ونبادر إلى القول بأن علماء عصره على اختلاف مذاهبهم قد تصدوا له، فهذا هو علامة عصره تقي الدين الحصني في كتابه «دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى الإمام أحمد» يقول: أخبرنا أبو الحسن على الدمشقي عن أبيه قال: «كنا جلوساً في مجلس ابن تيمية، فذكر ووعظ وتعرض لآيات الاستواء ثم قال: واستوى الله على عرشه كاستوائني هذا: قال: فوثب الناس عليه وثبة واحدة وأنزلوه من الكرسي، وبادروا إليه ضرباً باللكم والتمال... حتى أوصلوا إلى بعض الحكام واجتمع

في ذلك المجلس العلماء فشرع يناظرهم فقالوا: ما الدليل على ما صدر منك؟ فذكر آية الاستواء فضحكوا منه، وعرفوا أنه جاهل... وكان الإمام العلامة شيخ الإسلام في زمانه أبو الحسن علي بن إسماعيل القنوي يصرح بأنه من الجهلة بحيث لا يعقل ما يقول. ونقل عن صلاح الدين الكتبي ويعرف بالتركي في الجزء العشرين من تاريخه ما قام به العلماء في جهاد هذا الرجل. وذكر قبل ذلك صورة المرسوم الذي أصدره السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وذكره أيضاً العلامة الكوثري بنصه. ناقلاً له مما رآه بنفسه من خط ابن طولون في تكلمته للسيف الصقيل. ومع هذا فقد ترك بعد موته أئمة ابتداع عيوباً من حياضه الآسنة وعلى رأسهم الإمام ابن زفيل الشهير بابن القيم - وكان أبوه قيم المدرسة الجوزية ولذلك يقولون أحياناً: ابن قيم الجوزية، يعنون بها تلك المدرسة - كان أتبع لشيوخه ابن تيمية من ظله، وقد أفنى عمره في خدمة بدع أستاذه بفنون من التليس، فيؤلف في السيرة النبوية، وفي الفوائد الصوفية وفي المواعظ، ويدس في خلال ذلك من حشو شيخه وأضاليه ما استطاع ثم يعود إلى ما يعرفه العلماء، وكثيراً ما يحكي المسألة المجمع عليها بين العلماء إجماعاً ظاهراً فيذكر فيها خلافاً فيقول: قالت طائفة بذلك ويحتج لها ويطيل الاحتجاج. وقالت طائفة أخرى يعطول الاحتجاج بما يظنه حجة من أوهام شيخه. كما وقوع الطلاق الثلاث المجموع ثلاثاً وغيرهما كثير وقلما يسلم له كتاب من تشيع ودس وتهويش، وقد جمع شواذ شيخه في قصيدة سخيطة نونية بلغها ستة آلاف بيت تقريباً^(١). وكان إخوانه وتلاميذه يخفونها خوفاً من أهل العلم وأهله، حتى وقعت في يد شيخ الإسلام نفي الدين أبي الحسن علي السبكي، فكتب عليها كتاباً سماها: السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل - وقد وضع العلامة الكوثري تكلمة لهذا السيف وأجاد كل الإجادة - وهو الكتاب الذي بين يديك أبها القاريء الكريم - ومن قرأ هذه المنظومة النونية وقرأ كتب ابن تيمية - وهو من أهل العلم - لا يرتاب في أنه نسخة منه، فإنه يرمي من تقدمه من محققي أهل العلم وأكابر العلماء بأنهم أعداء الإسلام، وذلك لأنهم لم يقولوا بما قال به ابن تيمية من التجسيم والتشبيه، وإن كان ابن الجوزي قد أخذ من أهل التجسيم والتشبيه بالجراح في كتابه القيم: دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه في الرد على المجسمة والمشبهة بتحقيق: محمد زاهد الكوثري وتصدير العلامة محمد أبي زهرة وتقديم الدكتور: جمعه الخولي بما يشفي الصدر ويثلج

(١) وعدد أبياتها على التحقيق ستة آلاف بيت إلا واحداً وخمسين بيتاً.

النفس . وكذلك فإن العلامة ابن زاهد الكوثري قد أنصف أهل السنة من هذا وشيخه ومن تبعهما في كتابه: التكملة وهو ضميمة للسيف الصقيل بما يبهج خاطر ويرد الظلامه ويسفر بنور الإصباح . ولا يغررك كتاب ابن القيم: «غزو الجيوش الإسلامية، للمعطلة والجهمية» فإنه جمع فيه ما تشابه من الآيات والأحاديث، لا فرق بين صحيحها وسقمها وموضوعها ليثبت بذلك - في زعمه - الجهة لله تعالى عما يقول . وقد عني بالمعطلة والجهمية كل من نزه الله تعالى عن الجهة وغيرها . من لوازم الأجسام!!

ولا يقع في وهمك أن ابن القيم قد رجع عن هذه الأباطيل، كما تأكد لديك ثبات شيخه عليها إلى وفاته فإن ابن رجب - في طبقات الحنابلة - سمعها أي هذه المنظومة من لفظ ابن القيم عام وفاته أي أنه استمر على هذا العقد الباطل إلى أواخر عمره .

والله ولي التوفيق .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التقديم للكتاب

الحمد لله القدوس المتعال، المتزه عن النظر والمثال، جلّت ذاته وعلت صفاته عن أن يحوم حول اكتناهاها وهم أو خيال، والعقول عن إدراك تلك المطالب في عقاب، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المبعوث لتسميم مكارم الخلال، منقذاً لهذه الأمة من مخالب الوثنية وصنوف الضلال، وهادياً إلى مرضي مولاه ذي الجلال والجمال، وعلى آله خير الآل وأصحابه أصحاب كرائم الخصال.

انقشاع ظلمات الجاهلية بمبعثه ﷺ

وبعد، فلا يخفى على من درس تاريخ الدين الإسلامي أن الله سبحانه بعث خاتم رسله في بيئة عريقة في الوثنية، وقد أهدقت بتلك البيئة أمم يدينون بالإشراك والتشبيه وأنواع من التخريف والتمويه، فمبعثه ﷺ انقشعت تلك الظلمات الجاهلية، واستنارت بصائر الذين آمنوا به بأنوار التعاليم الإسلامية، حتى داسوا تحت أرجلهم تقاليد الوثنية ونبدوا تلك الأساطير الهمجية وخمدت عزائم أعداء الدين، وفترت مواصلتهم العداة إلى حين.

تحسين الأعداء الفرص للكيد بالمسلمين

لكنهم كانوا يتحينون الفرص لتفريق كلمة المسلمين، وتشويه تعاليم هذا الدين في الأخلاق والعمل والاعتقاد، حتى تذرعوها بعد وفاته ﷺ بشتى الوسائل إلى بذور الفساد كلما ظنوا أن الفرصة سانحة، يلبسون في كل عصر ما يروونه أنجع في مخادعة الجمهور، وأغشى على بصائر الخاصة والدهماء وأشد فتكاً بهم في صميم دينهم. إلى أن تمكنوا من إضلال طوائف في الأطراف ورغم هذا بقيت بيضة الإسلام - بحمد الله جلّ شأنه - مصونة الجانب تحت كلاءة الله سبحانه ورعايته، حيث لم يمكنهم من إبادة خضراء الملة، ولا من إحداث أحداث جوهرية في صميم الدين

الإسلامي تشتت شمل الجماعة، بل بقي الإسلام في جوهره - بفضل الله جلّ جلاله - وضاء المنار واضح المنهاج، نير الطريقة، بادي المعالم لمن ألقى إلى تعاليمه السمع وهو شهيد.

وغاية ما نخيل الأعداء أن يتمكنوا منه أن يوقفوا نموه العظيم الذي كان ظهر في الصدر الأول، ويعرقلوا رقى معتقيه السريع بعد أن بهر أبصار أولي الأبصار في أوائل انتشاره، لكن أيّ الله إلا أن يتم نوره.

وكان أخطر هؤلاء الأعداء على الدهماء وأبعدهم غوراً في الإغواء أناساً ظهوراً بأزياء الصالحين بعيون دامعة كحيلة، ولحي مسرحية طويلة، وعمائم كالأبراج، وأكمام كالأخراج، يحملون سبحات كبيرة الحبات، ويتظاهرون بمظهر الدعوة إلى سنة سيد السادات مع انطوائهم على مخازٍ ورثوها عن الأديان الباطلة، والنحل الآفلة، وكان من مكرمهم الماكر أن خلطوا الكذب المباشر بالتزديد في تفسير ماثور أو في حديث صخ أصله عند الجمهور، باعتبارهم ذلك أنجع في إفساد دلالة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ على أفهام أناس قرب عهدهم من الجاهلية ولم تكامل بعد عقولهم ولا نضجت أفكارهم.

وكم أضلّ رواية من هذا القبيل طوائف من سذج المسلمين منذ عهد التابعين حيث اندسوا بين الصالحين من رواية الأعراب ومواليهم لإدخال ما اختلقوه من الأخبار بين مرويات هؤلاء الأخيار، حتى يتم إفساد دين المسلمين عليهم، ولكن أبي الله إلا أن يرد كيدهم في نحرهم حيث أقام جهابذة يسمعون في إبعاد مختلفاتهم عن مرتبة الاعتداد في جميع الطبقات، على أن في عقول الذين أسلموا إسلاماً صحيحاً من النور ما يشق لهم الطريق إلى تعرف دخائل المرويات من نفس تلك الروايات، وإن لم تخل طبقة من طبقات الرواة من أغرار انخدعوا بها وتعصبوا لها، لأن الفاتنين كانوا راحوا في رواياتهم عقول هؤلاء ومداركهم في جاهليتهم تيسيراً لزلل أقدامهم وتدهورهم في هاوية إغوائهم.

انخداع سذج الرواة

فالرواة السذج إذا انخدعوا بمثل هذا التعميه يكون عندهم بعض عذر، ومن الذي لا ينخلع قلبه؟ إذا سمع السنة والدعوة إلى السنة من متشفس متظاهر بالورع الكاذب على تقدير جهل السامع بما وراء الأكمة؟ فيجب أخذ هؤلاء بالرفق لتدريجهم إلى الحق من باطل تورطوا فيه باسم السنة.

ومن محققي أهل السنة من يشير إلى أن العامي إذا بدر منه ما يوهم ظاهره التشبيه يرجي من فضل الله أن يسامحه حيث يعلو التنزيه من الجهة ونحوها عن

مداركه. وأما من جمع بين الرواية والدراية على زعمه وألف في ذات الله وصفاته، وصدر منه مثل هذا فلا يوجد بين علماء أهل السنة من يعذر مثله بل أطبقت كلماتهم على إلزامه مقتضى كلامه، وليس لعالم عذر في الميل إلى شيء من التشبيه والقرمطة لظهور سقوطهما لكل ناظر. قال القاضي أبو بكر بن العربي في القواصم والعواصم: «ما لقيت طائفة إلا وكانت لي معهم وقفة عصمني الله منها بالنظر - بتوفيقه - إلا الباطنية والمشبهة فإنهما زعنفة تحققت أنه ليس وراءهما معرفة فقدفت نفسي كلامهما من أول مرة» اهـ. بل لا يتصور أن يميل إلى أحدهما عاقل إلا إذا كان له غاية إلحادية، وأنى يستعجم على عالم باللسان العربي المبين ما في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من الدلالة على تنزيه الله جل شأنه من الجسمية والجسمانيات والمادة والماديات، بخلاف العامي الذي هو قريب العهد من الجاهلية.

فضل علماء أصول الدين في حراسة الدين

جزى الله علماء أصول الدين عن الإسلام خيراً، فإن لهم فضلاً جسيماً في صيانة عقائد المسلمين بأدلة ناهضة مدى القرون أمام كل فرقة زائفة، وإنما يكون التمويل في كل علم على أئمة دون من سواهم، لأن من يكون إماماً في علم كثيراً ما يكون بمنزلة العامي في علم آخر، فإذا لا يعول في العقائد إلا على أئمة أصول الدين لا على الرواة البعيدين عن النظر، وكم بينهم من يرثي لمداركه حيث يقل عقله عن عقول الأطفال وإن بلغ في السن مبلغ الرجال. ومن طالع ما ألفه بعض الرواة على طول القرون من كتب في التوحيد والصفات والسنة والردود على أهل النظر يشكر الله سبحانه على النور الذي أفاضه على عقله حتى نبذ مثل تلك الطامات بأول نظرة.

محاولة ابن تيمية بعث الحشوية من مرقلهما

وقد استمرت فتن المخدوعين من الرواة على طول القرون مجلبة لسخط الله تعالى ولاستخفاف العقلاء من غير أن يخطر ببال عاقل أن يناضل عن سخافات هؤلاء، إلى أن نبغ في أواخر القرن السابع بدمشق حراني تجرد للدعوة إلى مذهب هؤلاء الحشوية السخفاء متظاهراً بالجمع بين العقل والنقل على حسب فهمه من الكتب بدون استناد يرشده في مواطن الزلل، وحاشا العقل الناهض والنقل الصحيح أن يتضافرا في الدفاع عن تخريف السخفاء إلا إذا كان العقل عقل صابئ. والنقل نقل صبي، وكم انخدع بخزعبلاته أناس ليسوا من التأهل للجمع بين الرواية والدراية في شيء. وله مع خلطائه هؤلاء موقف في يوم القيامة لا يغبط عليه. ومن درس حياته

يجدها كلها فتناً لا يثيرها حافظ بعقله غير مصاب في دينه، وأتى يوجد نص صريح منقول أو برهان صحيح معقول يثبت الجهة والحركة والثقل والمكان ونحوها لله سبحانه؟ وسير بك سرد بعض مخازيه مع نقضها إن شاء الله تعالى.

وكل ما في الرجل أنه كان له لسان طلق، وقلم سيال، وحافظة جيدة، قلب - بنفسه بدون أستاذ رشيد - صفحات كتب كثيرة جداً من كتب النحل التي كانت دمشق امتلأت بها بواسطة الجوافل من استيلاء المغول على بلاد الشرق، فاعتز بما فهمه من تلك الكتب من الوسائس والهواجر، حتى طمحت نفسه إلى أن تكون قدوة في المعتقد والأحكام العملية ففاه في القيلين بما لم يفه به أحد من العالمين مما هو وصمة عار وأمارة مروق في نظر الناظرين فانفض من حوله أناس كانوا تعجلوا في اطرائه بادیء بدء قبل تجربيه وتخلوا عنه واحداً إثر واحد على تعاقب فتنة المدونة في كتب التاريخ ولم يبق^(١) معه إلا أهل مذهبه في الحشو من جهلة المقلدة، ومن ظن أن علماء عصره صاروا كلهم لباً واحداً ضده حسداً من عند أنفسهم فليتهم عقله وإدراكه قبل اتهام الآخرين، بعد أن درس مبلغ بشاعة شواذه في الاعتقاد والعمل وهو لم يزل يستتاب استتابة إثر استتابة، وينقل من سجن إلى سجن إلى أن أفضى إلى ما عمل وهو مسجون فقبر هو وأهواؤه في البابين بموته وبرود العلماء عليه وما هي بعيدة عن متناول رواد الحفائق.

مسايرة ابن القيم لابن تيمية في فتته

وكان ابن زفيل الزرعي المعروف بابن القيم يسايره في شواذه كلها حياً وميتاً، ويقفده فيها تقليداً أعمى في الحق والباطل، وإن كان يتظاهر بمظهر الاستدلال لكن لم يكن استدلاله المصطنع سوى ترديد منه لتشغيب قدوته دائماً على إذاعة شواذ شيخه، متوخياً في غالب مؤلفاته تلطيف لهجة أستاذه في تلك الشواذ، لتنتلي وتنطق على الضعفاء، وعمله كله التلبيس والمخادعة والتضال عن تلك الأهواء المخزية حتى أفنى عمره بالدندنة حول مفردات الشيخ الحراني. تراه يثرثر في كل واد، ويخطب بكل ناد بكلام لا محصل له عند أهل التحصيل، ولم يكن له حظ من المعقول، وإن كان كثير السرد لآراء أهل النظر. ويظهر مبلغ تهافته واضطرابه لمن طالع (شفاه العليل) له بتصر، ونونته وعزوه من الدلائل على أنه لم يكن ممن له علم بالرجال ولا ينقد الحديث حيث

(١) وثنا بعض المتأخرين عليه لم يكن إلا عن جهل بمضلات الفتن في كلامه ووجوه الزيف في مؤلفاته ومنهم من ظن أنه دام على توت بعدما استتب فدام على التناء ولا حجة في مثل تلك الأتنية، وأقواله المائلة أمامنا في كنه لا يؤيدها إلا غار غوى، نسأل الله السلامة.

أثنى فيهما على أناس هلكى، واستدل فيهما بأخبار غير صحيحة على صفات الله سبحانه. وقد ذكره الذهبي في المعجم المختص بما فيه عبرة، ولم يترجم له الحسيني ولا ابن فهد ولا السيوطي في عداد الحفاظ في ذيولهم على طبقات الحفاظ، وما يقع من القارئ بموقع الإعجاب من أبحاثه الحديثة في زاد المعاد وغيره فمختزل مأخوذ مما عنده من كتب قيمة لأهل العلم بالحديث كال مورد الهني شرح مير عبد الغني للقطب الحلبي، ونحوه ولولا محلى ابن حزم وإحكامه ومصنف ابن أبي شيبة وتمهيد ابن عبد البر لما تمكن من مغالطاته ونهويلاته في أعلام الموقعين. وكم استتيب وعزر مع شيخه وبعده على مخاز في الاعتقاد والعمل تستين منها ما ينطوي عليه من المضي على صنوف الزيف تقليداً لشيخه الزائع وسيلقى جزاء عمله هذا في الآخرة - إن لم يكن ختم له بالتوبة والإنابة - كما لقي بعض ذلك في الدنيا.

نماذج من أقوال أصحاب ابن القيم وأصداده والمتحايدين

قال الذهبي في المعجم المختص عن ابن القيم هذا: عنى بالحديث بمتونه وبعض رجاله وكان يشتغل في الفقه ويجيد تقريره، وفي النحو ويدريه، وفي الأصلين. وقد حبس مدة لإنكاره على شد الرحيل لزيارة قبر الخليل (إبراهيم عليه السلام) ثم تصدر للاشتغال ونشر العلم لكنه معجب برأيه جريء على الأمور اهـ.

قال ابن حجر في الدرر الكامنة: غلب عليه حب ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله بل يتصر له في جميع ذلك، وهو الذي هذب كبه ونشر علمه. واعتقل مع ابن تيمية بالقلع بعد أن أھين وطيف به على جمل مضروباً بالدرة، فلما مات أفرج عنه وامتنح مرة أخرى بسبب فتاوى ابن تيمية وكان ينال من علماء عصره وينالون منه اهـ.

قال ابن كثير كان يقصد للإفتاء بمسألة الطلاق حتى جرت له بسببها أمور يطول بسطها مع ابن السبكي وغيره. . وكان جماعاً للكتب فحصل منها ما لا يحصر حتى كان أولاده يبيعون منها بعد موته دهرأ طويلاً سوى ما اصطفوه منها لأنفسهم. . وهو طويل النفس في مصنفاته يتعانى الإيضاح جهده، فيسهب^(١) جداً، ومعظمها من كلام شيخه يتصرف في ذلك، وله في ذلك ملكة قوية، ولا يزال يندندن حول مفرداته وينصرها ويحتج لها. . وجرت له محن مع القضاة منها في

(١) الإسهاب: الإطناب، وهو عكس الإيجاز.

ربيع الأول طلبه السبكي بسبب فتواه بجواز المصابقة بغير محلل فأنكر عليه وآل الأمر إلى أنه رجع عما كان يغني به من ذلك اهـ. وقال: التقى الحصني: كان ابن نيمية ممن يعتقد ويفتي بأن شد الرحال إلى قبور الأنبياء حرام لا تقصر فيه الصلاة، ويصرح بقبر الخليل وقبر النبي صلى الله عليهما وسلم. وكان على هذا الاعتقاد تلميذه ابن قيم الجوزية الزرعي وإسماعيل بن كثير الشركوني، فاتفق أن ابن قيم الجوزية سافر إلى القدس الشريف ورفق على منبر في الحرم ووعظ وقال في أثناء وعظه بعد أن ذكر المسألة: وها أنا راجع ولا أزور الخليل. ثم جاء إلى نابلس وعمل له مجلس وعظ وذكر المسألة بعينها حتى قال فلا يزور قبر النبي ﷺ، فقام إليه الناس وأرادوا قتله فحماه منهم والي نابلس، وكتب أهل القدس وأهل نابلس إلى دمشق يعرفون صورة ما وقع منه فطلبه القاضي المالكي فتردد وصعد إلى الصالحية إلى القاضي شمس الدين بن مسلم الحنبلي وأسلم على يديه فقبل توبته وحكم بإسلامه وحقق دمه ولم يعززه لأجل ابن نيمية. ثم أحضر ابن قيم الجوزية وادعى عليه بما قاله في القدس الشريف وفي نابلس فأنكر، فقامت عليه البيعة بما قاله فادب وحمل على جمل ثم أعيد في السجن ثم أحضر إلى مجلس شمس الدين المالكي وأرادوا ضرب عنقه فما كان جوابه إلا أن قال إن القاضي الحنبلي حكم بحقن دمي وإسلامي وقبول توبتي، فأعيد إلى الحبس إلى أن أحضر الحنبلي فأخبر بما قاله فأحضر وعزر وضرب بالدرة وأركب حماراً وطيف به في البلد والصالحية وردوه إلى الحبس - وجرسوا ابن القيم وابن كثير وطيف بهما في البلد وعلى باب الجوزية لفتواهم في مسألة الطلاق اهـ.

قال ابن رجب: قد امتحن وأوذى مرات وحبس مع الشيخ تقي الدين في المدة الأخيرة بالقلعة منفرداً ولم يفرج عنه إلا بعد موت الشيخ اهـ.

وقد سقت هنا نماذج من كلمات أصحابه وأضداده والمتحايدين في حقه في هذا الكتاب، وأرجو أن الحق لا يتعدى ما دللت عليه في حقه فيما كتبناه.

أحق الناس بالثناء

وأحق الناس بالثناء وأجدرهم بالترحم من أفنى عمره في سبيل العلم منصاعاً لمبتدع يرديه من غير أن يتخير أستاذاً رشيداً يهديه، ومثله إذا دوّن أسفاراً لا يزداد بها إلا بُعداً عن الله وأوزاراً، وهو الذي يصبح متفانياً في شيخه الزائع بحيث لا يسمع إلا بسمعه ولا يبصر إلا ببصره في جميع شؤونه، ويبقى في أحط دركات الجهل من

التقليد الأعمى، ولو فكر قليلاً لكان أدرك أن من السخف بمكان وضعه لشيخه في إحدى كفتي الميزان ليوازن به جميع العلماء والفقهاء من هذه الأمة في كفته الأخرى فيزنهم ويغال بهم به فيغلبهم في علومهم! وهذا ما لا يصلر من حاط بعقله، ولا سيما بعد التفكير في تلك المخازي من شواذه. نعم يمكن أن يكون عنده أو عند شيخه بعض تفوق في بعض العلوم على بعض مشايخ حارته أو أهل خطه أو قريته أو مضرب خيام عشيرته، لكن لا يوجب هذا أن يصدق في ظنه في حق نفسه أن جو هذه الأرض يضيق عن واسع فهمه، وعرض هذه البحار لا يتسع لزاخر علومه.

أخطر ما يطفئ من صنوف الاستغناء

ومن الآفات المردية التي تعتري الإنسان وتقذف به إلى هاوية الخسران طغيانه حينما يرى نفسه على شيء من الاستغناء بمال أو جاه أو علم، لكن المال عرض زائل، والجاه الدنيوي قلما يدوم على حال، وعلم الإنسان مهما اتسع فما أوتي من العلم إلا قليلاً، وتلك الخلال لو روعيت حدودها لكانت أكبر عون للمرء على إحراز مرضاة الله سبحانه، وأما إذا اتخذها أداة طغيان فإذ ذاك تنقلب تلك النعم مجلبة لسخط الله عز وجل ومقت الخلق، فيصبح ذلك الطاغى من الأخشرين أعمالاً في الدارين، وليعلم أن ضرر العلم - إذا زاع صاحبه - دونه كل ضرر، فإن الطاغى بالمال يزول ضرره بزوال ماله، كصاحب الجاه الذي لا يدوم جاهه، وأما صاحب العلم الذي لعب به الشيطان وخلد كتباً فيما طفى به فهمه وطاش قلمه، فيدوم ضرره ويتضاعف وزره ما دامت آثاره دارجة يضل بها أناس، فإذا هي أخطر تلك الآفات، ولا يخفف عن مؤلفها العذاب إلا بإعراض الناس عن كتبه المغوية بتنبيه أهل العلم المهتدين على ما حوته من صنوف الزيغ والضلال، فيكون في الكشف عن مواطن الغواية من أمثال تلك الكتب تخفيف لعذاب مؤلفيها، وصون للأمة عن الوقوع في مهاويها. وقد عنى الموفقون من علماء هذه الأمة بنقض أمثال تلك الكتب لتلك الغاية النبيلة قديماً وحديثاً ومن هلك بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

ردود السبكي على ابن تيمية والكلام في رده على نونية ابن القيم

وللمحافظ النقي السبكي فضل مشكور وعمل مبرور في الرد على ابن زفيل وشيخه في شواذهما المردية، ومن جملة مؤلفاته في هذا الصدد «رده على نونية ابن القيم» وقد نقل السيد محمد المرتضى الزبيدي في شرح الإحياء عند الكلام على

إمامي أهل السنة عن هذا الرد المسمى «السيف الصقيل في الرد على ابن زفيل» جملة نافعة من مقدمته. والتقي السبكي أوجز في رده مكتفياً بلفت النظر إلى كلمات الناظم الخطرة في الغالب بدون أن يناقشه فيها كثيراً، باعتبار أن الاطلاع عليها يكفي بمجردة في نبذها وتفضيل قائلها، ولو كان السبكي يرى ابن القيم يستأهل المناقشة لأوسع في الرد عليه، لأنه كان أنظر أهل عصره - كما قال الإسوي وغيره من المحققين - لكنه كان يعدة في غاية من الغباوة فاكتفى في غالب الأبحاث بلفت نظر عامة العلماء إلى أهوائه البشعة، والتقي السبكي من اللطف أهل العلم لهجة وأنزههم لساناً مع من يرد عليهم. لكن حيث إن الناظم أسرف في ضلاله وإضلاله اضطر التقي في رده عليه إلى بعض إغلاظ في حقه صوناً لمن عسى أن ينخدع بتليساته، وقرعاً للبعد بالعصا، وهو معذور في ذلك بل إغلاظه ليس بشيء في جنب ما تقول به ابن القيم في حق جمهور أهل الحق.

ودونك نونيته التي ردَّ عليها السبكي وهي أصدق شاهد لما قلنا.

ونونية ابن القيم هذه من أبشع كتبه وأبعدها غوراً في الضلال وأشنعها إغراء للحشوية ضد أهل السنة، وأوقحها في الكذب على العلماء كما نرى إيضاح ذلك في مقدمة «السيف الصقيل» فلا نزاحم السبكي في شرح بشاعة طريقته فيها إلا أنا نشير هنا إلى أن ابن القيم كلما تراه يزداد تهويلاً وصراخاً باسم السنة في كتابه هذا يجب أن تعلم أنه في تلك الحالة متلبس بجريمة خداع خبيث وأنه في تلك الحالة نفسها في صدد تلييس ودرس شنيعين، وإنما تلك التهويلات منه لتخدير العقول عن الانتباه لما يريد أن يدسه في غضون كلامه من بدعه المخزية كما يظهر من مطالعة النونية بتبصر وبقظة.

وإنما اختار طريق النظم في ذلك ليسهل عليه أن يهيم في كل واد، ولولا أنها طُبعت مراراً وتكراراً ممن لا بغية له من طبعها غير عدد من القرش يملأ به الكرش. قام بذلك الدين أم قعد، بدون أن يقوم أحد من العلماء المعاصرين بالرد عليها، لكان إعمال الرد عليها أنسب، لكن لم يبقَ بعد تكرر طبعها مع تقاعس أهل العلم عن ردها مساغ للإهمال، فوجب تقويض دعائمها بنشر كتاب السبكي مع تعليق كلمات عليه في مواضع رأيناها في حاجة إلى التعليق، وقد سميت ما علقته «تكلمة الرد على نونية ابن القيم».

والله سبحانه ولي النفع وعليه توكلت وإليه أنيب..

محمد زاهد بن الحسن الكوثري
حفا عنهما

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الكتاب للمؤلف

قال الإمام الحجة أبو الحسن علي بن عبد الكافي السبكي رضي الله عنه:
يا عالماً بكل شيء، قادراً على كل شيء، ارحم عبداً جاهلاً بكل شيء، عاجزاً
عن كل شيء، خُلِقَ ضعيفاً تنتوشه الآفات من جميع الجهات ويستغرقه احتياجه على
ممر الأنفاس واللحظات، مدته في الدنيا قصيرة لو صرفها كلها في طاعة ربه، وعلم
نافع به سلامة قلبه كان موفقاً يقتصر على خويصة نفسه وهذا يحتاج إلى مدد إلهي في
دنياء في صحة جسمه وكفايته وكفاية من يتعلق به في القوت وما يتعلق به ودفع الأذى
عنه، وفي دينه بسلامة قلبه من العقائد الفاسدة، وإقباله على الله تعالى وسلامة
جوارحه من المعاصي وقيامها بما افترض الله عليها، وسلامته في قلبه وجسمه من
شياطين الإنس والجن ونفسه وهواه وفي علمه فلا يشتغل من العلوم إلا بما ينفع وهو
القرآن والسنة والفقه وأصول الفقه والنحو وبأخذها عن شيخ سالم العقيدة ويتجنب
علم الكلام والحكمة اليونانية، والاجتماع بمن هو فاسد العقيدة أو النظر في كلامه.

وليس على العقائد أضر من شيئين: علم الكلام والحكمة اليونانية،
وهما في الحقيقة علم واحد، وهو العلم الإلهي لكن اليونان طلبوه بمجرد
عقولهم، والمتكلمون طلبوه بالعقل والنقل معاً وافترقوا ثلاث فرق إحداها
غلب عليها جانب العقل وهم المعتزلة^(١) والثانية غلب عليها جانب النقل

قول أبي الحسن الطرأفي في المعتزلة:

(١) وعنه يقول أبو الحسين محمد بن أحمد الطرأفي الشافعي المتوفى سنة ٣٧٧هـ في كتاب الرد
على أهل الأهواء والبدع: «وهم أرباب أنواع الكلام وأصحاب الجدل والتمييز والانتظر
والاستنباط والحجج على من خالفهم، والمفرقون بين علم السمع وعلم العقل والمنصفون في
مناظرة الخصوم، وهم عشرون فرقة يجتمعون على أصل واحد لا يفارقونه وعليه يتولون وبه
يتعادون وإنما اختلفوا في الفروع وهم سُموا أنفسهم معتزلة، وذلك عندما بايع الحسن بن علي =

وهم الحشوية^(١) والثالثة ما غلب عليها أحدهما بل بقي الأمران مرعيين عندها على حد سواء وهم الأشعرية وجميع الفرق الثلاث في كلامها مخاطرة إما خطأ في بعضه وإما سقوط هيبة، والسالم من ذلك كله ما كان عليه الصحابة والتابعون وعموم الناس

= عليه السلام معاوية وسلم إليه الأمر اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس - وذلك أنهم كانوا من أصحاب علي - ولزموا منازلهم ومساجدهم، وقالوا نشغل بالعلم والعبادة قسموا بذلك معتزلة! ثم ذكر أنهم من البصريين واليخداديين وسرد بعض آرائهم في عدة أوراق. وهو من محفوظات الظاهرية بدمشق تحت رقم ٥٩ في التوحيد ولتقديمهم فضل الدفاع عن الدين الإسلامي والرد على الزنادقة والنصارى واليهود، لكن تحكيمهم للعقل وكثرة احتكاكهم بفرق الزيغ أديا بكثير منهم ولا سيما المتأخرين إلى صنوف من البدع الرديئة كما أشرت إلى ذلك في مقدمة ما كتبه على تبين كذب المفتري.

(١) ومنهم أصناف المشبهة والمجسمة، وسبب تسميتهم حشوية أن طائفة منهم حضروا مجلس الحسن البصري بالبصرة وتكلموا بالسقط عنده فقال: ردوا هؤلاء إلى حشا الحلقة - أي جانبها - فسمع الناس ذلك وسومهم الحشوية بفتح الشين، ويصح إسكانها - لقولهم بالتجسيم لأن الجسم محشور - راجع شفاء الغليل للشهاب الخفاجي، وذيل لب الباب في تحرير الأنساب للشيخ المحدث أبي العباس أحمد المعجمي، ومقدمة ما كتبتا، على تبين كذب المفتري. والحشوية هم الذين حادوا عن التنزيه وتقولوا في الله بأفهامهم المعوجة وأوهامهم المموججة، وهم مهما تظاهروا باتباع السلف إنما يتابعون السلف الطالح دون السلف الصالح ولا سيل إلى استنكار ما كان عليه السلف الصالح من إجراء ما ورد في الكتاب والسنة المشهورة في صفات الله سبحانه على اللسان، مع القول بتنزيه الله سبحانه تنزيهاً عاماً بموجب قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] بدون خوض في المعنى ولا زيادة على الوارد ولا إبدال ما ورد بما لم يرد. وفي ذلك تأويل إجمالي بصرف الوارد في ذات الله سبحانه عن سمات الحدوث من غير تعيين المراد وهم لم يخالفوا في أصل التنزيه الخلف الذين يعينون معنى موافقاً للتنزيه بما يرشدهم إليه استعمالات العرب وأدلة المقام وقرائن الحال على أن الخلف يفوضون علم ما لم يظهر لهم وجهه كوضع الصبح إلى الله سبحانه.

فالخلاف بين الفريقين حين يسر وكلامهما منزه، وإنما السيل على الذين يحملون تلك الألفاظ على المعاني المتعارفة بينهم عند إطلاقها على الخلق ويستغلون بها ألفاظاً يظنونها مرادفة لها ويستدلون بالمفاريذ والمناكير والشواذ والموضوعات من الروايات. ويضيفون في الكتاب والسنة أشياء من عند أنفسهم ويجعلون الفعل الوارد صفة إلى نحو ذلك فهؤلاء يلزمون مقتضى كلامهم وهم الحشوية. فمن قال إنه استقر بذاته على العرش ويترى بذاته من العرش، ويقعد الرسول ﷺ على العرش معه في جنبه وإن كلامه القائم بذاته صوت وإن نزوله بالحركة والثقله وبالذات وإن له نقلاً يشغل على حمله العرش، وأنه متمكن بالسماء أو العرش، وأن له جهة وحداً وغاية ومكاناً، وأن الحوادث تقوم به وأنه يماس العرش أو أحداً من خلقه ونحو ذلك من المخازي فلا نشك في زيغ وخروجه وعنده عما يجوز في الله سبحانه. وهذا مكشوف جداً فلا يمكن ستر مثل تلك المخازي بدعوى السلفية، والذين يدعون بها هم الذين نستنكر عقائدهم ونستخف أحلامهم، ونذكرهم بأنهم نوابت حشوية.

الباقون على القطرة السليمة. ولهذا كان الشافعي رضي الله عنه ينهى عن الاشتغال بعلم الكلام ويأمر بالاشتغال بالفقه فهو طريق السلامة، ولو بقي الناس على ما كانوا عليه في زمن الصحابة كان الأولى للعلماء تجنب النظر في علم الكلام جملة، لكن حدثت يدع أوجبت للعلماء النظر فيه لمقاومة المبتدعين ودفع شبههم حذراً من أن تزيف بها قلوب المهتدين.

الأشعرية أعدل الفرق

والفرقة الأشعرية هم المتوسطون في ذلك وهم الغالبون من الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة وسائر الناس.

وأما المعتزلة فكانت لهم دولة في أوائل المائة الثالثة ساعدهم بعض الخلفاء ثم انخذلوا وكفى الله شرهم.

وهاتان الطائفتان الأشعرية والمعتزلة هما المتقاومتان وهما فحولة المتكلمين من أهل الإسلام، والأشعرية أعدلها لأنها بنت أصولها على الكتاب والسنة والعقل الصحيح.

وأما الحكمة اليونانية فالناس مكفبون شرها، لأن أهل الإسلام كلهم يعرفون فسادها ومجانبتها للإسلام.

وأما الحشوية فهي طائفة رذيلة جهال^(١) يتسبون إلى أحمد وأحمد مبرأ منهم. وسبب نسبتهم إليه أنه قام في دفع المعتزلة وثبت في المحنة رضي الله عنه، نقلت عنه كليبات ما فهمها هؤلاء الجهال فاعتقدوا هذا الاعتقاد السيئ وصار المتأخر منهم يتبع المتقدم، إلا من عصمه الله وما زالوا من حين نبغوا مستلئين ليس لهم رأس ولا من يناظر وإنما كانت لهم في كل وقت ثورات ويتعلقون ببعض أتباع الدول ويكفي الله شرهم، وما تعلقوا بأحد إلا كانت عاقبته إلى سوء وأفسدوا اعتقاد جماعة شذوذ من الشافعية^(٢) وغيرهم ولا سيما بعض المحدثين الذين نقصت عقولهم أو غلب عليها من

(١) وهم طوائف كالكرامية والبربرية والسلمية ولابن الجوزي كتاب (منهاج الوصول إلى علم الأصول) وكتاب (دفع شبه التشبيه بكف التنزيه) أجاد الرد عليهم فيهما، وسبق أن نشر الثاني، ومن جملة ما يقوله ابن الجوزي فيه:

فقد فضحوا ذاك الإمام بجهلهم ومنعه التنزيه لكن هم اختلوا

وهو بديع في يابه حجة على من سائرهم من الحنابلة.

(٢) على طول القرون لكن كفى شرهم نظار أهل الحق من الشافعية ولنا في صدد سرد أسمائهم هنا ونشير عرضاً إلى بعضهم فيما نعلق على هذا الكتاب.

أضلهم فاعتقدوا أنهم يقولون بالحديث . ولقد كان أفضل المحدثين في زمانه بدمشق ابن عساكر^(١) يمتنع من تحديثهم ولا يمكنهم أن يحضروا مجلسه وكان ذلك أيام نور الدين الشهيد وكانوا مستذلين غاية الذلة .

ثم جاء في أواخر المائة السابعة رجل له فضل ذكاء واطلاع ولم يجد شيخاً يهديه وهو على مذهبه وهو جسر متجرد لتقرير مذهبه ويجد أموراً بعيدة فيجارتها يلتزمها فقال بقيام الحوادث بذات الرب سبحانه وتعالى^(٢) وأن الله سبحانه ما زال فاعلاً وأن التسلسل ليس بمحال فيما مضى كما هو فيما سيأتي وشق العصا، وشوش عقائد المسلمين وأغرى بينهم ولم يقتصر ضرره على العقائد في علم الكلام حتى تعدى وقال إن السفر لزيارة النبي ﷺ معصية^(٣) وقال إن الطلاق الثلاث لا يقع وإن

(١) وقد سبق أن نشر «بين كذب المفترى في اللب» عن الأشعري له مع مقدمة لنا عليه في بيان الحالة العامة عند البعثة النبوية ولعمرة في نشأة الفرق وتعليقات على مواضع من الكتاب كتبت كتبها فيها وفي الكتاب كثير مما يتعلق بالحشرية، وابن عساكر أيضاً مجلس في إثبات التنزيه وآخر في نفي التشبيه، وكتاب في (بيان وجوه التخليط في حديث الأبيط) وكتاب في (سرد الأسانيد في حديث يوم المزيد) يبين فيها وجوه الضعف في أحاديث الأبيط وروايات يوم المزيد.

(٢) اتفقت فرق المسلمين سوى الكرامية وحنوف المجسمة على أن الله سبحانه منزّه من أن تقوم به الحوادث وأن تحل به الحوادث وأن يحل في شيء من الحوادث بل ذلك مما علم من الدين بالضرورة، ودعوى أن الله لم يزل فاعلاً متابعاً منه للفلاسفة القائلين بسلب الاختيار عن الله سبحانه، ويصدور العالم منه بالإيجاب، ونسبة ذلك إلى أحمد والبخاري وغيرهما من السلف كذب صريح وتقول فيج، ودعوى أن تسلسل الحوادث في جانب الماضي غير محال لا تصدر ممن يعي ما يقول فمن تصور حوادث لا أول لها تصور أنه ما من حادث محقق، وأن ما دخل بالفعل تحت العد والإحصاء غير متناه، وأما من قال بحوادث لا آخر لها فهو قائل بأن حوادث المستقبل لا تنتهي إلى حادث محقق إلا وبعده حادث مقدر، فأين دعوى عدم تناهي ما دخل تحت الوجود في جانب الماضي من دعوى عدم تناهي ما لم يدخل تحت الوجود في المستقبل؟ على أن القول بالقدم النوعي في العالم من لازمه البين عدم تناهي عدد الأرواح الصكفة فأني يمكن حشر غير المتناهي من الأرواح وأشباحتها في سطح متناه محدود على هذا التقدير؟ فيكون القائل بعدم تناهي عدد الكلفين قائلًا بنفي الحشر الجسماني بل بنفي الحشر الروحاني أيضاً حيث إن هذا القائل لا يعترف بتجرد الروح ليكون أسوأ حالاً من غلاة الفلاسفة النافين للحشر الجسماني وفي شواذ ذلك الزائع كتب خاصة ترد عليه في بعده الأصلية والفرعية، ولا استقصاء ذلك موضع آخر.

(٣) وضبطت فخواه بخطه بهذا المعنى وثبت ذلك ثبوتاً شرعياً وشهد بذلك الإمام جلال الدين القزويني صاحب التلخيص والإيضاح وألف قاضي قضاة المالكية تقي الدين أبو عبد الله محمد الإخنائي في الرد عليه (المقالة المرضية في الرد على من ينكر الزيارة المحمدية) كما ألفت في =

من حلف بطلاق امرأته وحنث لا يقع عليه طلاق. واتفق العلماء على حبسه الحبس الطويل فحبسه السلطان^(١) ومنع من الكتابة في الحبس وأن يدخل إليه أحد بدواة ومات في الحبس. ثم حدث من أصحابه من يشيع عقائده ويعلم مسائله ويلقي ذلك إلى الناس سراً ويكتمه^(٢) جهراً فعن الضرر بذلك حتى وقفت في هذا الزمان على قصيدة نحو ستة آلاف بيت يذكر ناظمها فيها عقائده وعقائد غيره ويزعم بجهله أن عقائده عقائد أهل الحديث^(٣). فوجدت هذه القصيدة تصنيفاً في علم الكلام الذي نهى العلماء عن النظر فيه لو كان حقاً، فكيف وهي تقرير للعقائد الباطلة ويوح بها وزيادة على ذلك وهي حمل العوام على تكفير كل من سواه وسوى طائفته فهذه ثلاثة أمور هي مجامع ما تضمنته هذه القصيدة.

فالأول من الثلاثة حرام لأن النهي عن علم الكلام إن كان نهى تنزيه فيما تدعو

= الرد عليه مؤلف شفاء السقام في تلك المسألة بل جمع الحافظ الصلاح العلائي طرق حديث الزيارة في الرد عليه أيضاً بطلب ابن الفرکاح ولم يستمر على مشابته بعد ذلك إلا مكسرو الحشوية تحت الحفاء، وكما استتب وأخذ خطه بالتوبة ثم نقض موثيقه. راجع (نجم المهتدي) و(دفع الشبه) و(الدرر الكامنة).

(١) الملك الناصر محمد بن قلاوون ولم يكن له عداه شخصي نحو ابن تيمية أصلاً كما اختلف بذلك أشياخ ابن تيمية لكن لما رأى توالى فتنه واتفق علماء المذاهب ضده ومعهم قاضي قضاة الحنابلة لم يسمعه إلا أن يصدر مرسوماً لأهل دمشق ومرسوماً لساير البلدان أسوة بما أصدره بمصر ضد هذا الزائغ. ونصوص تلك المراسيم مدونة في (نجم المهتدي) و(عيون التواريخ) و(دفع الشبه) بالفاظ متقاربة في المعنى وفي الاطلاع عليها حيرة بالغة. وقد تليت تلك المراسيم على المنابر نصحاً للأمة وإفهاماً لها أن فلك الرجل مجسم زائغ اعتقاداً وعملاً فلا يجوز الاغترار به.

(٢) ويظهر من ذلك أن نونية ابن القيم لم تكن تداع في ذلك العهد إلا سراً وكفى هذا سعيًا بالفساد ولا يحسن القاري أن ابن القيم ربما يكون تاب وأناب عن هذه العقيدة الزائغة التي احتوتها تلك القصيدة فإنه يرى في ترجمته من طبقات الحنابلة لابن رجب أن ابن رجب سمعها من لفظ ابن القيم عام وفاته وهذا من الدليل على أنه استمر على هذا المعتقد الباطل إلى أواخر عمره. وعند أبياتها ستة آلاف بيت إلا واحداً وخمسين بيتاً.

(٣) وبين أهل الحديث من القدرية والخوارج وصنوف الشيعة والمجسمة من كرامية وبرمهارية ومالكية رجال لا يحصيهم العد كما لا يخفى على من له إلمام بعلم الرجال فليس لهم عقيدة جامعة فيكون عزو عقيدة إلى جماعة الحديث مخادعة وتمويهاً على العقول، فإن كان يريد تخصيص هذا الاسم بصنوف المجسمة فهذه التسمية إنما تكون تسمية ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما التعميل على أهل الحديث في روايتهم الحديث فقط فيما لا يهتمون به، وأما علم أصول الدين فله أئمة معروفون وبراهين مدونة في كتبهم، وأهل الحديث المبرورون من البدع يسرون سيرهم.

الحاجة إلى الرد على المبتدعة فيه فهو نهى تحريم فيما لا تدعو الحاجة إليه فكيف فيما هو باطل.

والثاني من الثلاثة: العلماء مختلفون في التكفير به إذا لم يتب إلى هذا الحد أما مع هذه المبالغة ففي بقاء الخلاف فيه نظر.

وأما الثالث فنحن نعلم بالقطع أن هؤلاء الطوائف الثلاثة الشافعية والمالكية والحنفية وموافقيهم من الحنابلة مسلمون ليسوا بكافرين، فالقول بأن جميعهم كفار وحمل الناس على ذلك كيف لا يكون كفراً وقد قال ﷺ: «إذا قال المسلم لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما». فالضرورة أوجبت العلم بأن بعض من كفرهم مسلم والحديث اقتضى أن يبرء بها أحدهما فيكون القاتل هو الذي باء بها.

مجامع الزيف في نونية ابن القيم

وما أنا أذكر مجامع ما تضمنته القصيدة ملخصاً من غير نظم وناظمها^(١) أقل من أن أذكر كلامه لكنني تأسيت في ذلك بإمام الحرمين في كتابه المسمى بنقض كتاب السجزي، والسجزي هذا كان محدثاً له كتاب مترجم بمختصر البيان وجده إمام الحرمين حين جاور بمكة شرفها الله، اشتمل كتاب السجزي هذا على أمور منها أن القرآن حروف وأصوات. قال إمام الحرمين: وأبدى من غمرات جهله فصولاً وسوى على قصبة سخافة عقله نصولاً، ومخايل الحق في تضاعيفها مصقولة وبعثات الحقائق دونها معقولة. وقال إمام الحرمين أيضاً: وهذا الجاهل الفر المتماذي في الجهل المصر، يتطلع إلى الرتب الرفيعة بالدأب في المطاعن في الأئمة والوقبة. وقال إمام الحرمين أيضاً: صدر هذا الأحق الباب بالمعهود من شتمه فأف له ولخرقه فقد والله سئمت البحث عن عواره وإبداء شتاره. وقال الإمام أيضاً: وقد كسا هذا التيس الأئمة صفاته. وقال الإمام أيضاً: أبدى هذا الأحق كلاماً يتقضى آخره أوله في الصفات وما ينبغي لمثله أن يتكلم في صفات الله تعالى على جهله وسخافة عقله. وقال الإمام أيضاً: قد ذكر هذا اللعين الطريد المهين الشريد، فصولاً وزعم أن الأشعرية يكفرون

(١) وهو ابن زليل الزرعي المعروف بابن قيم الجوزية كان يمتناول يده من كتب الفرق التي كانت دمشق امتلأت بها بعد نكبة بغداد ونكبة البلاد الشرقية باستيلاء المغول عليها ما يزداد به غواية إلى غوايته وقد حشر في مؤلفاته ما لم يفهمه ولم يهضمه من أقوال أرباب النحل شأن من خاض في المسائل النظرية الخطرة من غير أستاذ رشيد فحصل في تفكيره ما يحصل في معدة الشره المتخوم فأصبحت مؤلفاته محشر الأتوال المتناقضة ولم يتخدر بها إلا من ظن أن العلم هو حشد المصطلحات من غير نظام يربط بعضها ببعض ويدون تسجيص الحق من الباطل.

بها فعلية لعائن الله تترى، واحدة بعد أخرى، وما رأيت جاهلاً أجسر على التكفير وأسرع إلى التحكم على الأئمة من هذا الآخر، وتكلم السجزي في النزول والانتقال والزوال والانفصال والذهاب والمجيء فقال الإمام: ومن قال بذلك حلّ دمه وتبرّم الإمام كثيراً من كلامه معه^(١).

تأسي السبكي بإمام الحرمين في الرد على بعض جهلة أهل الحديث

وما أنا أيضاً أقندي بالإمام في كلامي مع هذا الجاهل متبرماً لكن خشية على عقائد العوام تكلمت.

والسجزي الذي ردّ عليه الإمام أعرف ترجمته محدث^(٢) لا يصل ناظم هذه القصيدة إلى عشرة في الحديث ولكن الإنسان يضطر إلى الكلام مع الجهال والمبتدعين صيانة لعقائد المسلمين وليت كلامي كان مع عالم أو مع زاهد أو متحفظ في دينه صين في عرضه قاصد للحق ولكنها بلوى نسأل الله حسن عاقبتها وبعد أن كنت قصدت الاختصار على اختصار مجامعها عنّي لي هنا أن أستوعب كلماتها لأطفيء جمراتها.

(١) وعن هذا السجزي يقول أبو جعفر اللبلي الأندلسي في فهرته: وكذلك اللعين المعروف بالسجزي فإنه تصدّى أيضاً للوقوع في أحيان الأئمة وسرج الأمة بتأليف تالف وهو على قلة مقداره وكثرة عواره ينسب أئمة الحقائق وأخبار الأمة ويحور العلوم إلى التلبيس والمراوغة والتدليس وهذا الرذل الخسيس أحقر من أن يكرّث به ذمّاً ولا يضر البحر الخضم ولغة كلب.

ما يضر البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه غلام بحجر
فمما ذكر هذا المناق الحائد بجهله عن الحقائق أن من مذهب الأشعرية أن النبوة عرض من الأهراس والعرض لا يبقى زمانين وإذا مات النبي زالت نبوته وانقطعت دعوته، وهذه من جملة حكاياته وتقولاته المستبعدة اهـ وسياقي الرد على هذا الهذيان. وقد وفاة اللبلي الكلب صاعاً بصاع.

(٢) ومن الغريب أن السجزيين مهما علت منزلتهم في الرواية يقل بينهم جداً من يكون طاهر الذيل ناصح الجبين من فحش التشبيه ووصمة التجسيم كما لا يخفى على من بحث مؤلفاتهم يتبصر وأرى ذلك من عدوى مرض شيخ المجسمة أبي عبد الله محمد بن كرام السجزي الذي يتشبهه كان سحر الباب أهل سجنستان وتاريخه في غاية من الشهرة. وهذا السجزي هو أبو نصر الرائلي. مؤلف الإبانة المتوفى سنة ٤٤٤ وصاحبه السعد الزنجاني بمكة مثله في التشبيه مع أنهما ينتحلان مذهب الشافعي. ومن هذا الطراز الأجرى صاحب كتاب الشريعة قبلهما ويرني لحال من يميل إلى التشبيه مع جلاله مقداره في الحديث ونحن لا نمول على الرجل إلا في العلم الذي يتقنه دون سائر العلوم فكم بين أهل الحديث من هو أنزل منزلة من العامي في علم أصول الدين والفقه وكذلك سائر العلماء في غير علومهم.

فصل

مناظرة خيالية بين المشبه والمنزه... إلخ

قال: «جمع مجلس المذاكرة بين مثبت للصفات والمعلو ومعتل» إلى أن قال: «من كلام المثبت أن كهيعص وحمصق وق ون كلام الله حقيقة وأن الله تكلم بالقرآن العربي الذي سمعه الصحابة».

مراده بذلك أن كلام الله حرف وصوت وهذا الجاهل لا يفرق بين كلام الله واللفظ الدال عليه^(١).

ثم قال: «ومن قال ليس لله في الأرض كلام فقد جحد رسالة محمد ﷺ هذا الكلام يحتمل وجهين^(٢) لا نطول بهما، ثم قال: «إن الله فوق سمواته». يقول له: أين قال الله أو رسوله إنه فوق سمواته؟ وأنت قلت في صدر كلامك

(١) بل بين الكلام اللفظي والكلام النفسي وفي أوائل تفسير (روح المعاني) بطل لطيف في الكلام النفسي بحيث لا يدع شكاً لمرتاب. ويعد أن انتهى الأكوسي فيه من الكلام في الكلام النفسي قال: ومن أحاط بذلك اندفع عنه كل إشكال في هذا الباب ورأى أن تشيع ابن تيمية وابن القيم وابن قدامة (الموفق) وابن قاضي الجبل والطوفي (سليمان بن عبد القوي) وأبي نصر (السجزي) وأمثالهم صرير باب أو طنين ذباب... وقد انحرفت أفكارهم واختلطت أنظارهم فوقعوا في علماء الأمة وأكابر الأئمة وبالغوا في التمنيح والتشيع وتجاوزوا في التسخيف والتفطيع ولولا الخروج من الصلدة لوفيتهم الكيل صاعاً بصاع ولتقدمت إليهم بما قدموا بأعاً ببيع ولعلمتهم كيف يكون الهجاء بحروف الهجاء ولعرفتهم إلماً ينتهي المرء بلا مراء:

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ولي فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن رام تقويمي فلاني مؤؤم ومن رام تعريجي فلاني معوج
على أن المعو أقرب للقرى والإغضاء مبنى الفتوة وعليه الفتوى والسادة الذين تكلم فيهم هؤلاء إذا مروا باللغو مروا كراماً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً اهـ.

(٢) لعله يريد وجود الكلام النفسي ووجود الكلام اللفظي فنفي وجود الثاني في الأرض نفي لوجود كتاب الله وشرعه في الأرض وهو كفر صراح ولا قاتل بذلك من فرق المسلمين. وأما زعم وجود الكلام النفسي القائم بالله في الأرض فقول بالحلول فقول النصاري في الكلمة، وقد كفر غير واحد من أئمة السنة، السالمة على قولهم بأنه تعالى يقرأ على لسان كل قارئ، تعالى الله عما يافكون. وقد ذكرنا ما يشعلك بذلك بنوع من البسط فيما علقناه على التبيين وفي (لفظ) للفظ إلى ما في الاختلاف في اللفظ).

«نقول ما قاله ربنا» وأين قال ربنا: إنه بائن من خلقه. ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، فقد نسبت إلى قول الله ما لم يقله، ومن هو المعطل الذي عنيته فإننا لا نعرف اليوم أحداً معطلاً يتظاهر بين المسلمين بل ولا معتزلاً ولا فيلسوفاً يتظاهر بقول الفلاسفة^(١) فلعلك عنيت الأشعرية فإنهم القائلون اليوم من أكثر المذاهب ثم قال^(٢): «فلما سمع المعطل منه ذلك أمسك ثم أسرها في نفسه وخلا بشياطينه وبنى جنسه وأوحى بعضهم إلى بعض أصناف المكر والاحتيايل وراموا أمراً يستحمدون به إلى نظرائهم من أهل البدع والضلال وعقدوا مجلساً يتتوا فيه ما لا يرضاه الله من القول وراموا استدعاء المثبت ليجعلوا نزله ما لفقوه من الكذب وتمموه فلم يتجاسروا وخذلهم المطاع فمزق ما كتبوه من المحاضر، فسعى في عقد مجلس عند السلطان فلم يذعنوا فطالبهم بإحدى ثلاث: مناظرة فأبوا، فدعاهم إلى مكتبة فأبوا، فدعاهم إلى المباهلة^(٣) بين الركن والمقام فلم يجيبوا فحيث عقد المثبت لله مجلساً بينه وبين خصمه وما كان أهل التعطيل أوليائه إن أوليائه إلا المتقون».

هذا كله مقصوده به والله أعلم طوائف الأشعرية الشافعية والمالكية والحنفية الذين كانوا مقاومين لابن تيمية فهم الذين يسميهم المعطلة، وكان مراده بالمثبت ابن تيمية والعاقد للمجلس فيما بينه وبين خصمه إما ابن تيمية وإما هذا النحس المتشيع بما لم يعط.

(١) هذا بالنظر إلى عهد المؤلف، فإن العلماء كانوا قائمين بواجبهم إذ ذاك يوقفون المبتدعة الذين يحاولون الاعتداء على حريم قدس الدين عند حدم وما ألف في الرد على هذا الزايع وشيخه من الكتب في ذلك العصر يعد بالعشرات فضلاً عن باقي أهل الضلالة. وأما اليوم فقلماً تجد بين العلماء من يسهر على السنة الثقية البيضاء والدين الحنيف فانتسح المجال لنموه الضلال. وأدعو الله سبحانه أن يوقظ أهل الشأن من سباتهم العميق ويرشدهم إلى حراسة الشرع من اعتداء المعتدين.

(٢) مما اختص به ناظم القصيدة من بين دعاة الحشوية تصوير مناظرات في مسائل يدس في غشون كلام الطرفين ما يشاء من وسائل استدراج الضعفاء إلى ضلاله وهذه طريقة الأقدمين من أعداء الدين بعثها من مرقعها هذا الناظم ليصل إلى إضلالهم بطريقة روائية خيالية فمن مشى على الاستسلام له فيما يراه من مناظراته الخيالية في هذا الكتاب وفي شفاء العليل وأعلام الموقنين ونحوها فإنه معرض للانحلال وستكشف الستار عن وجهه تضليله وتدجيله بحول الله وتوفيقه.

(٣) راجع الآية ٦١ من سورة آل عمران.

فصل

أمثال مضروبة للمعطل والمشبه والموحد

قال: «وهذه أمثال حسان مضروبة للمعطل والمشبه والموحد».

مقصوده بالمعطل الجماعة الأشعرية، وبالموحد نفسه وطائفته، والمشبه لا وجود له عنده. ومقصود غرماؤه بالمشبه هو وطائفته وبالموحد أنفسهم، والمعطل لا وجود له الآن عندهم، لأن المعطل هو المنكر للصانع، والمشبه هو الذي شبهه بخلقه وهذا على ظاهره لا يوجد من يقول به لكن بما يلزم عنه، ولا شك أن لزوم التشبيه له أظهر من لزوم التعطيل لغرماؤه، وإذا امتحن الإنسان نفسه قطع بأن الأشعري ليس بمعطل وأن هذا النحس مشبه ولا ينبغي إنكاره باللسان وقد اعترف على نفسه بأن من شبه الله بخلقه فقد كفر. واندفع في ضرب الأمثلة بما لا نطول به.

فصل

من قصيدته النونية

قال في قصيدته التي أهدت الجري إليه وفرت سهام النبال عليه:

«إن كنت كاذبة الذي حدثتني فعليك إثم الكاذب الفتان
جهنم بن^(١) صفوان وشبعته الألى جحدوا صفات الخالق الديان
بل عطلوا منه السماوات العلى والعرش أخلوه من الرحمن»

أما جهنم فمضى من سنين كثيرة ولا يعرف اليوم أحد على مذهبه فعلم أن مراد هذا الناظم بالجهمية الأشعرية من الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة فليعلم

(١) جهنم بن صفوان زائع باتفاق بين أهل السنة والمعتزلة، يقول بنفي الخلود في الجنة وفي النار، وثابمه ناظم القصيدة في شطر هذا المعتقد حيث يقول: لا خلود للكفار في النار تبعاً لشيخه وهو كفر عند جمهور أهل الحق. وكان جهنم متبوعاً لم يبق بعد قتله من تابعه أصلاً ومن يقال فيه من المتكلمين إنه جهمي من قبيل التيز بالألقاب، وقد توسعت في بيان ذلك بعض توسع فيما علقته على الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة وليس بين المعتزلة فضلاً عن الإشارة من بنفي أن الله سبحانه عالم قدير سميع بصير... إلى آخر تلك الصفات الواردة في الكتاب والسنة المشهورة حتى يصح رميهم بجحد الصفات وجل الإله سبحانه من أن يكون له مكان يحويه فلا يقال إن السماء ظرف له ولا إن العرش مستقر ذاته فأين في كتاب الله مثل ذلك أو تفسير الاستواء بالاستقرار إنما هو قول مقاتل بن سليمان شيخ المجسمة وقول الكلبي الزائع.

اصطلاحه وكل ما ينسب إليه إلى الجهمية فمراده بها هؤلاء، والمعتزلة يشاركون الأشعرية في ذلك لكن ما منهم أحد موجود في هذه البلاد وإن كان موجوداً فلا ظهور له، فكل ما قال هذا الناظم عن جهم في هذه القصيدة فمراده، الذي مذهبه مذهب الأشعري.

فصل

تخيل الناظم في أفعال العباد . . الخ

قال:

والعبد عندهم فليس بفاعل بل فعله كتتحرك الرجفان

كذب هذا الجاهل في قوله: إن العبد عندهم ليس بفاعل. ولكن مراده بذلك قولهم: إنه لا يخلق فعله. وليس بخالق والله سبحانه هو خالق أفعال العباد، فاعتقد هذا الجاهل^(١) بسبب ذلك أنهم يقولون إنه ليس بفاعل. وكون العبد ليس بخالق حق، وكونه ليس بفاعل باطل، والفاعل من قام به الفعل والفعل قائم بذات العبد، والخالق من أوجد الفعل ولا يوجد إلا الله. وقوله: كتتحرك الرجفان جهل منه فإنه لم يفرق بين الجبر ومذهب الأشعري ثم قال:

والله يصليه على ما ليس من أفعاله حر الحميم الآن

استمر هذا الجاهل على جهله وكذبه. وكذلك قوله: «ولكن يعاقبه على أفعاله» ثم قال: «والظلم عندهم المحال لذاته» نعم إن الله لا يظلم مثقال ذرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَمَلِ﴾ [فُصِّلَتْ: ٤٦] وكيف يتصور الظلم والكل ملكه ثم قال: «أني ينزه عنه ويكون

(١) أقل ما يقال في هذا الناظم أنه جاهل، فإذا طالعت ما ذكره في شفاء العليل عن كسب العبد تجده ينقل عن نظامية إمام الحرمين قوله في أفعال العباد ليسايره إلى أبعد حد ثم يتراجع فيقع في أحط دركات الجبر ثم يقع في المعتزلة وقيمة لا مزيد عليها ثم تجده يسبقهم في التجرؤ. والحاصل أنه جماع لأراء الناس من غير أن يعقلها على وجوها فيتخبط تخبط من به مس، وهو يصور مناظرات خيالية بين سني وجبري وأخرى بين سني وقدر، في شفاء العليل يلمس في خلالها أموراً يتقضى بعضها بعضاً وذلك كله من سوء فهمه وضغفه للمعنى بشئ الأنظار التي هو غير مستأهل لتحقيقها وتمحيص الحق من بينها فتشوه الحقائق في ذهنه وتكتسي أسجع الصور كما هو شأن ما يتعكس في المرايا المحلوبة والمقعرة وشأن من اختلت بصيرته، نسال الله العافية.

مدحاً ذلك التنزيه قلنا: يا جاهل اجترأت على الله وعلى عباده فلم تفرق بين الفعل والخلق وظننت بجهلك أنهما سواء وأنه لا يعاقب على فعله، وقلت: «ما هذا بمعقول لذي الأذهان» وأي ذهن لك حتى تعقل به وأنت عن تعقل أحكام الربوبية بمعزل؟ وهل مثلك ومثل من هو أكبر منك إلا كمثل الخفاش بالنسبة إلى ضوء النهار؟.

فصل

قال:

وكذلك قالوا ما له من حكمة^(١) هي غاية للأمر والإنسان

انظر هذه الجراءة والكذب والبهت على العلماء وما قال إنهم نسبوه إلى الله ثم قال:

«ما ثم غير مشيئة قد رجحت مثلاً على مثل بلا رجحان»

أبصر هذا القدم البليد الفهم ساء سمعاً فساء إجابة كأنه سمع كلام الأشعرية فما فهمه وظن أنهم يقولون إن الأفعال كلها سواء بالنسبة إلى كل شيء وإن المشيئة رجحت بعضها على بعض مع تساويها وأنه ما ثم غير المشيئة وجعل المشيئة هي المرجحة ولم يذكر القدرة والتبس عليه الرجحان الحاصل في الفعل بالرجحان الذي هو موجب للفعل أو باعث عليه، ومن لا يكون اشتغل بشيء من العلوم كيف يتكلم في هذه الحقائق؟ ثم قال:

«هذا وما تلك المشيئة وصفه بل ذاته أو فعله قولان»

(١) ولا قائل بذلك مطلقاً بين فرق المسلمين، الذين علموا من الدين بالضرورة أن الله عزيز حكيم، وأما كون أفعال الله سبحانه غير معللة بالأغراض فليس من نفي الحكمة في شيء بل من قبيل التهيب والاحتراز من القول بأن هناك غرضاً يحمل الله سبحانه على الفعل استحصالاً لذلك الغرض الذي لا يحصل إلا بذلك الفعل. ولا يخفى أن هذا مما يجب الاحتراز منه لعدم ورود إطلاق مثل ذلك في الكتاب والسنة ولما في ذلك من الاستكمال بالغير. وأما قول محفقي أهل الفقه بوجود حكم، مصالح فيها ترجع إلى العباد سواء عقلتها أو لم نعقلها فليس فيه ما يوجب التهيب بل هو محض الصواب هذا عند القائلين بأن الله فاعل بالاختيار كما هو الحق وأما الذين يعدونه فاعلاً بالإيجاب كالفلاسفة فلا ينصرون هناك لا غرضاً ولا حكمة وليس المراد هنا بالوجوب بالضرورة بشرط المحمول. ومن الغريب أن ابن القيم قائل بالإيجاب حتى يذافع عن أن الحوادث لا أول لها ومع ذلك يرى أنها معللة بالأغراض وما هذا إلا تهاتر.

ليتني ما شرعت في الكلام مع هذا... ينبغي أن يطالب بالقولين على هذه الصورة وبالقول بأنه ما تلك المشيئة وصفه وإنما سمع كلاماً إما من كلامهم وإما من شيوخه فما فهمه هو أو ما فهمه شيوخه وعبر عنه بهذه العبارة الرديئة، وإن أراد بهذا البيت المعتزلة فقد خلط كلام المعتزلة بكلام الأشعرية.

ثم قال:

وكلامه مذ كان غيراً كان مخلوقاً له

هذا بالنسبة إلى المعتزلة ثم قال:

«قالوا وإقرار العباد بأنه خلاقهم هو منتهى الإيمان»

لم يقولوا كذلك، أما أولاً فلأنه لا بد من الشهادتين، وأما ثانياً فمتمهى الإيمان يشعر بالإيمان الكامل ولم يقل بهذا أحد، وأما ثالثاً فقوله «فالناس في الإيمان شيء واحد» ليس مما يحسن^(١) وأما رابعاً فكما ذكره عن أبي جهل وغيره^(٢) أنه لم يكن فيهم منكر للمخالق، يكفي في الرد عليه أن كل من سمعه يتخذ ضحكة.

(١) لأنه إن أراد أن الناس متساوون في الإيمان فهذا باطل لأن من الناس من هو مؤمن ومن هو كافر وإن أراد أن المؤمنين متساوون في الإيمان فلا يصح ذلك أيضاً فإن منهم من هو كامل الإيمان باستكمال العمل ومنهم من هو غير كامل الإيمان بإخلاله بالعمل وإن كانوا متساوين في المؤمن به وفي الجزم المتأني لتجويز النقيض، على أن طريق حصول هذا الجزم مختلف في المؤمنين فيتنافوت إيمانهم باعتبار عدم قبوله الزوال أصلاً أو قبوله الزوال ببطء أو بسرعة، فالعامي الجازم معرض لزوال الإيمان بأدنى تشكيك والعالم الجازم بالبراهين يمكن زوال إيمانه بطرؤه شيعة، وإيمان الأنبياء لا يحتمل الزوال أصلاً لأن طريق حصوله الوحي والشهادة.

(٢) من عبدة الأوثان واليهود والنصارى وفرعون وقارون وهامان ونحوهم. ولو تذكر ابن القيم قول يوسف عليه السلام - كما حكى القرآن الكريم - «أَنْزَابُ ثَنُورُكَ خَيْرٌ أَوْ اللَّهُ أَزْجَدُ الْقَهَّارُ» [يوسف: ٣٩] وقول إبراهيم عليه السلام - كما حكى القرآن الكريم -: «إِنِّي أَنذَرْتُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ» [الصافات: ٨٦] وقول الكفار حينما دعاهم الرسول ﷺ إلى كلمة التوحيد - كما حكى القرآن الكريم -: «لَا تَكُنْ مِنَ الْآفِيَّةِ إِلَهًا رَئِيًّا» [ص: ٥] وقولهم في التلبية (لبك اللهم لبك لبك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك) لاستحيا أن يفرو بذلك ويقولوا:

هل كان فيهم منكر للمخالق إل رب العظيم مكون الأكوان

فليبشروا ما فيهم من كافر هم عند جهم كاملو الإيمان

فأين توحيد الربوبية والألوهية من توحيد الخالقية والرازقية؟ على تقدير تسليم شمول آية توحيد الخالقية لهم بل الضمير في (ولئن سألتهم) بعيد عن العموم. ومعتقد المؤمنين: أنه لا رب ولا إله ولا خالق ولا رازق سوى الله عز وجل. وهذا هو إيمان المؤمنين على رغم تقول الزائفين المائلين إلى الخوارج المستهجنين لمعتقد المؤمنين.

فصل

قال: «وقضى - يعني جهماً - وشيعته الذين هم الأشعرية بزعمه بأن الله كان معطلاً، والفعل ممتنع بلا إمكان ثم استحال وصار مقدوراً له من غير أمر قام بالديان» مقصوده أن الله ما زال يفعل وهذا يستوجب^(١) القول بقدم العالم وهو كفر.

فصل

استنكار الناظم إعادة المعدوم . . إلخ

قال: «وقضى الله بأن يجعل خلقه عدماً ويقلبه وجوداً ويعيد ذا المعدوم. هذا المعدوم وذلك المبدأ لذي جهم وقد نسبوه للقرآن هذا الذي قاد ابن سينا والآلئ قالوا مقالته إلى الكفران لم تقبل الأذهان ذا، وتوهموا أن الرسول ﷺ عناه بالإيمان، هذا كتاب الله أنى قاله أو عبده أو صحبه أو تابع، بل صرح الوحي بأنه مغير الأكوان ونحدث الأرض وتشهد أفشهد العدم».

أجمع المسلمون على أن الله قادر على أن يعدم الخلق ثم يعيده وعلى أن إنكار ذلك كفر وجمهور المسلمين على أن الواقع ذلك لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الزحمن: ٢٦] و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] وقيل إن الأجسام تتفرق ثم تعاد وقوله (أفشهد العدم) أنحن قلنا تشهد وهي عدم إنما تشهد بعد الإعادة فانظر كلام هذا الجاهل وقوله (لم تقبل الأذهان ذا) إن كان ينكر إمكانه (وكونه مقدوراً لله) فهو كافر وإن لم ينكر إلا وقوعه فهو مذهب ضعيف. ثم قال «هذا الذي جاء الكتاب وستة الهادي به، ما قال إن الله يعدم خلقه طراً كقول الجاهل الحيران» أقول: قد قال تعالى: ﴿كُنَّا بَنَاتًا أَوَّلَ حَكْمَتِي تُبْدِي﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ولو كانت الإعادة جمع الأجزاء بعد تفريقها أو الإتيان بغيرها لم تنطبق على الآية فإن الآية تقتضي أن جميع ما بدأ به الخلق يعيده وإنما يكون كذلك إذ أعدمه ثم أعاده بعينه، والله قادر على ذلك. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الرؤم: ٢٧] وإنما كان أهون بالنسبة إلى الشاهد

(١) وهذا الاستلزام بين وما يقال من أن لازم المذهب ليس بمذهب إنما هو فيما إذا كان اللزوم غير بين، فاللازم بين لمذهب العاقل مذهب له وأما من يقول بلزوم مع نفيه للزومه البين فلا يعد هذا اللازم مذهباً له لكن يسقطه هذا النفي من مرتبة العقلاء إلى درك الأنعام وهذا هو التحقيق في لازم المذهب فيدور أمر القائل بما يستلزم الكفر لزوماً بيناً بين أن يكون كافراً أو حماراً.

لأن الإعادة في الشاهد فعل على مثال وهو أهون من الابتداء لأنه فعل على غير مثال مع اشتراكهما في الإخراج من العدم إلى الوجود. وعند هذا المتخلف ما أخرج المعاد من العدم إلى الوجود بل من صفة إلى صفة بتعالى الله عن قوله فهذا القول منه بما دلّ عليه من أن الإبراز من العدم إلى الوجود في الإعادة غير مقدور، كفر إلا إذا تأول على الوقوع مع الموافقة على الإمكان وليس ظاهر الكلام ففي قبول قوله إذا ادعاه نظر لأن هذا يتكرر وتكرير هذه الأمور يشبه الزندقة.

فصل

زعم الناظم قيام الله بالحوادث

قال: «وقضى بأن الله ليس بفاعل فعلاً يقوم^(١) به بلا برهان» مقصود الناظم أن الله يفعل فعلاً في ذاته فيكون محلاً للحوادث، تعالى الله عن قوله، فنسب إلى جهم خلاف قوله وأنه قول بلا برهان. وهذا الناظم لا يعرف حقيقة البرهان ثم قال: «والجبر مذهب» إن أراد نفس جهم فهو ليس بمرجوع والكلام معه ضياع، وإن أراد الأشعري فقد كذب في قوله (إن الجبر مذهب) ثم قال: «لكنهم حملوا ذنوبهم على رب العباد» هذا كذب أيضاً عليهم فإن الجبرية يقولون إن الله تعالى يعذب من يشاء بذنب وبغير ذنب، له ذلك ﴿لَا يَسْتَلْ عَمَّا يُفَعَّلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وقوله:

«تبدؤوا منها وقالوا إنها أفعاله ما حيلة الإنسان»

(١) قال الأستاذ أبو منصور عبد القاهر البغدادي في كتاب (الاسماء والصفات): إن الأشعري وأكثر المتكلمين قالوا بتكفير كل مبتدع كانت بدعته كفرًا أو أدت إلى كفر، كمن زعم أن لمعبوده صورة أو أن له حداً ونهاية أو أنه يجوز عليه الحركة والسكون... ولا إشكال لذي لب في تكفير الكرامية مجسمة خراسان في قولهم إنه تعالى جسم له حد ونهاية من تحته وأنه مماس لمرسه وأنه محل الحوادث وأنه يحدث فيه قوله وإرادته اهـ (راجع الفتاوى الحلبيات في أجوبة المؤلف عن ٦٤ مسألة سأله عنها الشهاب الأفرعي) وكثيراً ما ترى الناظم يلهج بقيام الأفعال الحادثة بالله تعالى وينطق بلوازم الجسمية والنشبية بكل صراحة وفي مثله قال القائل:

كم تزرع التشبيه في سنخ القلوب فما انزوع
فاهجر دمشق وأهلها واسكن ببصري أو زرع
هناك يمكن أن يصمد بق ما تقول ويحتمع

وحق أمصار المسلمين أن لا تروج فيها أمثال تلك الأباطيل، وإن ترج فإنما تروج في مثل بصرى بلد ابن زككون أو زرع بلد الناظم أو تلك القفار التي لا يشع فيها نور غير نور الشمس.

ما يتبرأ منها على هذه الصورة إلا ملحد، والذي يعتقد ذلك يقول إنه تعالى يفعل ما يشاء وأطال الناظم في هذا كثيراً بجهل وصيبة أو تقليد لمن هو مثله ثم قال: «وكذلك أفعال المهيمن لم تقم أيضاً به خوفاً من الحدثان فإذا جمعت مقالتيه أنتجا كذباً (وزوراً واضح البهتان)» يعني أن فعل العبد فعل الله وفعل الله ما هو في ذاته إنتاجاً بجهله ما يقوله وهو قوله:

«فهنالك لا خلق ولا أمر ولا وحي ولا تكليف عبد فان»

ما هذه إلا فحة وبلادة يأخذ ما يتوهمه لازماً فيستنتج وينكر على الناس إلزامه التجسيم اللازم، ثم قال:

«فانظر إلى تعطيله الأوصاف»^(١) وال أفعال والأسماء للرحمن»

يا جاهل من قال بحدوث الأفعال كيف يلزمه التعطيل؟ ثم قال:

«ماذا الذي في ضمن ذا التعطيل نفى ومن جحد ومن كفران»

إذا رجعنا إلى الخلاف بينك وبينه وجدناك كاذباً عليه ليس في القول بحدوث الأفعال لا نفى ولا جحود ولا كفران، ثم قال:

«لكنه أبدى المقالة هكذا في قالب التنزيه للرحمن»

«وأتى إلى الكفر العظيم فصاغه عجباً ليفتن أمة الثيران»

الله عند لسان كل قائل. الرجل إنما قال ذلك في قالب التنزيه ولم نعلم نحن باطنه فمن أين لك أنه قصد خلافه وصاغ الكفر عجباً ثم قال:

«فرآه ثيران الورى فأصابهم كمصاب إخوانهم قديم زمان»

(١) والناظم الممكن قائل بحدوث لا أول لها اتخذاعاً منه بشبه أوردها الفلاسفة في بحث الحدوث غير متصور اتصاف الله سبحانه بصفاته العليا قبل صدور الأفعال منه تعالى. واستنكار شيخه «كان الله ولم يكن معه شيء» مما استشعنه ابن حجر في فتح الباري جد الاستبشاح. وحدوث الأفعال فيما لا يزال لا يلزم منه تعطيل الصفات أصلاً لا في زمن حدوث الأفعال ولا في غيره وهو تعالى سريع الحساب وشديد العقاب قبل خلق الكون وقبل النشور وهل يتصور عاقل أن يحاسب الله خلقه أو يعاقبه قبل أن يخلقهم؟ وهذا يهد مزاعم الناظم الذي يجري الصفات على مجرى واحد، فإله القادر مختار يفعل ما يشاء متى شاء.

إن أراد طائفة لا وجود لها فما في ذكرها من فائدة، وإن أراد خصماءه من الأشعرية ونحوهم فإياها من مصيبة جعلهم ثيراناً إخوة اليهود ثم قال:

«عجلان قد فتنا العباد بصوته إحداهما ويحرفه ذا الثاني»

وذكر آياتاً إلى آخرها، والله أعلم أنه يقصد بها ربط قلوب الناس على أنه لا مسلم إلا هو وطائفته وسائر الناس كفار كاليهود الذين عبدوا العجل فإيا ترى من أحق يشبه من عبد العجل؟ المجسم أم غيره؟

فصل

ثم قال:

«يا أيها الرجل المريد نجاته (اسمع مقالة ناصح معوان)
واضرب بسيف الوحي كل معطل ضرب المجاهد فوق كل بنان
«من ذا يبارز فليقدم نفسه أو من يسابق يبد في الميدان»

ويلك من أنت؟ أو أنت تعرف المباراة أو حضرت قط مباراة أو ميداناً؟ ثم قال:

«لا تخش من كيد العدو ومكرهم فقتالهم بالكذب والبهتان
فجنود أتباع الرسول ملائك وجنودهم فعساكر الشيطان»

انظر كيف يقول عن خصومه وهم هداة العالم إنهم عساكر الشيطان وإن قتالهم بالكذب والبهتان ثم قال: «فإذا رأيت عصابة الإسلام قد وافت» يعني عصابة طائفته فانظر دلالة على كفر غيره «فإذا دعوك لغير حكمهما» يعني الكتاب والسنة «فلا سمعاً لداعي الكفر والعصيان» فانظر إلى إيهامه العوام أن خصومه يدعون إلى غير الكتاب والسنة. ثم قال:

«واسمع نصيحة من له خبر بما عند الوري من كثرة الجولان
ما عندهم والله خير غير ما أخذوه عمن جاء بالقرآن»

نعم ولكنهم فهموه وأنت ما فهمته ثم قال:

«والكل بعد فبدعة أو فرية أو بحث تشكيك وراي فلان»
كأنه يصف طائفته.

فصل

عقد مجلس خيالي . . كلامه في وحدة الوجود

وهذا أول عقد مجلس التحكيم . قال :

واحكم إذاً في رفقة قد سافروا يبغنون فاطر هذه الأكوان
فترافقوا في سيرهم وتغارقوا عند افتراق الطرق بالحيران
فأتى فريتق ثم قال وجدته هذا الوجود بعينه وعيان

فهو السماء بعينها وهو الغمام بعينه وهو الهواء بعينه، هذي بسائطه ومنه تركبت هذي المظاهر^(١) يلبسها ويخلعها وتكثر الموجود كالأعضاء في المحسوس أو كالقوى في النفس . هذه مقالة ، أو كتكثر الأنواع في جنس فيكون كلياً وجزئياته هذا الوجود^(٢)

(١) فتكون المظاهر على ما صوّره الناظم محلاً له تعالى ، تعالى الله عن ذلك ، وأما كون الشيء مجلي لشيء فلا يفيد كونه محلاً له ، فإن الظاهر في المرأة مثلاً خارج عنها بذاته قطعاً بخلاف الحال في محل ، فإنه حاصل فيه فالظهور غير الحلول فإن الظهور يجامع التنزيه بخلاف الحلول عند أشباع الشيخ الأكبر ، وأما كونه كلياً والكون جزءاً له على ما ذكره الناظم فعلى خلاف ما اشتهر عنهم أن العالم أعراض مجتمعة في عين واحد كالثلج مع الماء ، تعالى الله عما يأنفكون ، والواجب تعالى عندهم هو الوجود المحض المجرد عن الماهية القائم بذاته المتعين بذاته المطلق حتى عن قيد الإطلاق بمعنى أنه واحد شخصي موجود بوجود هو نفسه فلا يكون المطلق عندهم بمعنى الكلي حتى يرد على ذلك ما أورده السعد في شرح المقاصد من تسمة أوجه ، وأول من نطق بوحدة الوجود في الإسلام - فيما نعلم - هو جهنم بن صفوان ، ولذلك ذهب إلى الجبر ، لكم فتح هذا الرأي من أبواب للإباحة والزندقة على شرار الخلق ، وإما القول بأن الممكن الوجود كلا موجود بالنظر إلى واجب الوجود لا احتياجه إليه بدءاً ودواماً فليس من الخطر في شيء كالقول بأن ذلك حالة خيالية تطرأ للمالك المقبل إلى الله بكلية ثم تنجلي كما ذكره السعد في شرح النسفية والناظم في كثير من كتبه ومن الصوفية من يتصور مسألة الوجود بحيث لا يخل بالتكليف والتنزيه ويقول إنه طور وراء طور العقل ولا كلام لنا فيما هو وراء طور العقل .

(٢) ولا وجود للكلي إلا في ضمن جزئياته فيكون الواجب هو العالم وهو عين مذهب الطبيعيين على تصوير الناظم خذلهم الله . على أن هنا التصوير يخالف ما قرره ابن سبعين في بدء العرف فلمراجع . وترى شيخ الناظم ينسب إلى الصدر القانوني القول بأنه الموجود المطلق لا بشرط شيء وإلى ابن سينا القول بأنه الوجود المطلق بشرط الإطلاق فيعده نافياً للصانع باعتبار أن ما هو بشرط الإطلاق لا وجود له إلا في الأذهان ، لكن الفلاسفة ، ومنهم ابن سينا ، يرون أن الواجب هو الوجود المقيد بقيد التجرد ، بمعنى اللاعروض ، وهو مبدأ الكون كله ، فعلم أن شيخ الناظم لم يحل كلام ابن سينا على الوجه ، وتغابى عن فهمه كما سبق مثل ذلك . ورأى الصدر القانوني يظهر من مفتاحه . والحاصل أن بحث وحدة الوجود بحث خطر متشعب والموقف من وقاه الله شره ، ومن توسع في رد ذلك القاضي عضد الدين في الموافق .

فهذان قولان الأول نص الفصوص وما بعده قول ابن سبعين وما القولان عند العفيف التلمساني الذي هو غاية في الكفر إلا من الأغلاط في حس وفي وهم وتلك طبيعة الإنسان والكل شيء واحد وأطال في أقوالهم.

فصل

قال:

«وأتى فريق ثم قال وجدته
هو كالهواء بعينه لا عينه
والقوم ما صانوه عن بشر ولا
وعليهم رد الأئمة أحمد
فهم الخصوم لكل صاحب سنة
هؤلاء أيضاً ليس علينا منهم.

فصل

ثم قال:

«وأتى فريق^(٢) ثم قارب وصفه
فأسر قول معطل ومكذب
هذا ولكن جد في الكفران
في قالب التنزيه للرحمن

(١) وهذا بظاهره قول بالتجسيم كقول من يقول إنه مستقر على العرش، وإن كان مراده أنه لا يوصف بمكان دون مكان، بل نسبته إلى الأمكنة على حد سواء لتعالیه عن الجهات، فهو قول متكلمي أهل السنة والمعتزلة، ولعل هذا اللفظ لفظ من حكي هذا المذهب تشبيهاً، وأما إن كان بياناً لمذهب جهم على خلل في اللفظ فهو داخل في الفريق القائل بوحدة الوجود، فلا وجه لإفراجه بكل حال. ونسبة كتاب (الرد على الجهمية) الذي فيه الرد على هؤلاء إلى أحمد نسبة كاذبة، وروايه الخضر بن المثنى مجهول، وقد أنصف الذهبي حيث قال: وفي النفس شيء من صحة هذه النسبة. ويقول الناظم في عزوه: إن الخضر المذكور عرفه الخلال. لكن لو كان بمثل هذا القول تزول الجهالة لما وجد بين الرواة مجهول أصلاً، على أن نظرنا إلى الخلال وغلامه ليس كنظر الناظم وشيخه إليهما فضلاً عن دونهما في السند من مقلدة الحشوية بل في متن (الرد على الجهمية) ما يجعل مقدار أحمد عن أن يفوه بمثله جزءاً.

(٢) وهم أهل السنة خصوم كل مجسم وزائف، وهم يقولون إنه لا يقال إن الله في داخل العالم، كما لا يقال إنه في خارج العالم، ولا إنه مستقر على العرش لأن ذلك لم يرد في الكتاب ولا في السنة، ولأن ذلك شأن الأجسام، ومن جاز في معبوده الدخول والخروج والاستقرار فهو عابد وثن، ويؤيدهم البراهين والآيات الواردة في التنزيه. وليس للمشبهة شبه شبهة في ذلك كما سبأتي رغم أنف هذا الناظم الزائف.

إذا قال ليس بداخل فينا ولا
بل قال ليس ببائن عنها ولا
كلا ولا فوق السموات العلى
والعرش ليس عليه معبود سوى
بل حفظه من ربه حظ الثرى
لو كان فوق العرش كان كهذه الـ
يعني أن هذا من قولهم، ثم قال:

«ولقد وجدت لفاضل منهم مقاماً قامه في الناس منذ زمان»

في قوله ﷺ: «لا تفضلوني على يونس» قد كان يونس في قرار البحر ومحمد
صعد السماء وجاوز السبع الطباق، وكلاهما في قربه من ربه سبحانه إذ ذاك مستريان.
فاحمد إلهك أيها السني إذ عافاك من تحريف ذي بهتان
والله ما يرضى بهذا خائف من ربه أمسى على الإيمان
هذا هو الإلحاد حقاً بل هو التحريف محضاً أبرد الهذيان
والله ما بلى المجسم قط ذي الـ جلوى ولا أمسي بنذي الخذلان
أمثال ذا التأويل أفسد هذه الـ أديان حين سرى إلى الأديان

والفاضل الذي أشار إليه^(١) وتفسيره للحديث المذكور بما قاله صحيح،

(١) وهنا يبايض في أصل المؤلف والمراد بذلك الفاضل هو إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، وقد ذكر غير واحد من أهل العلم منهم ابن فرح القرطبي في تذكرته رواية عن القاضي أبي بكر بن العربي عن غير واحد من أصحاب إمام الحرمين عنه ما معناه: أن ذا حاجة حضر عنده وشكا من دين ركه فأشار إليه بالمكث لعل الله يفرج عنه وفي أثناء ذلك حضر غني يسأله عن الحججة في تنزه الله سبحانه عن الجهة فقال إمام الحرمين: الأدلة على هذا كثيرة جداً، منها نهيه ﷺ عن تفضيله على يونس عليه السلام. فعصب فهم وجه دلالة ذلك على الحضور، فسأله السائل عن وجه الدلالة فقال إمام الحرمين: حتى تقضي حاجة هذا - مشيراً إلى صاحب الدين - فتولى قضاء دينه، ثم أجاب الإمام قاتلاً: إن هذا الحديث يدل على أن النبي ﷺ وهو عند سدرة المنتهى لم يكن بأقرب إلى الله من يونس عليه السلام وهو في بطن الحوت في قعر البحر، فدل ذلك على أنه تعالى منزّه عن الجهات. وإلا لما صحّ النهي عن التفضيل، فاستحسنه الحاضرون غاية الاستحسان ولفظ البخاري «لا يقولن أحدكم إنني خير من يونس بن متى» والمعنى واحد وذكره القاضي عياض في الشفاء على لفظ المؤلف، ومن أطلق الكفر على إثبات الجهة في غاية من الكثرة بين الأئمة، ومن الدليل على تنزه الله سبحانه عن الجهة حديث «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» أخرجه النسائي وغيره.

وقد سبقه إليه إمام دار الهجرة نجم العلماء أمير المؤمنين في الحديث، عالم المدينة أبو عبد الله مالك بن أنس حكي ذلك الفقيه الإمام العلامة قاضي قضاة الإسكندرية ناصر الدين بن المنير المالكي^(١) الفقيه المفسر النحوي الأصولي الخطيب الأديب البارع في علوم كثيرة في كتابه (المقتفي في شرف المصطفى) لما تكلم على الجهة وقرر نفيها، قال: ولهذا المعنى أشار مالك رحمه الله في قوله ﷺ: «لا تفضلوني على يونس بن متى» فقال مالك: إنما خص يونس للتنبيه على التنزيه لأنه ﷺ رفع إلى العرش، ويونس عليه السلام هبط إلى قابوس البحر، ونسبتهما مع ذلك من حيث الجهة إلى الحق جلّ جلاله نسبة واحدة! ولو كان الفضل بالمكان لكان عليه الصلاة والسلام أقرب من يونس بن متى وأفضل مكاناً، ولما نهى عن ذلك. ثم أخذ الفقيه ناصر الدين يبدي أن الفضل بالمكانة لأن العرش في الرفيق الأعلى، فهو أفضل من السفلى، فالفضل بالمكانة لا بالمكان، فانظر أن مالكاً رضي الله عنه - وناهيك به - قد فسر الحديث بما قال هذا المتخلف النحس، إنه إلحاد، فهو الملحد عليه لعنة الله^(٢) ما أوقفه وما أكثر تجرباه! أخزاه الله.

فصل

الفوقية الحسية . . . إلخ

ثم قال:

وأنى فريق ثم قارب وصفه هذا وزاد عليه في الميزان

قال اسمعوا يا قوم لا تلهيكم هذي الأماني هن شر أماني

أتعبت راحلتي وفشت، ما دلني أحد عليه إلا طوائف بالحديث تمسكت تعزى

(١) صاحب «البحر الكبير في نخب التفسير» الذي يقول عنه بعض المحققين إنه لم يولف في التفسير مثله وهو من مفاخر المالكية في القرن السابع بل من مفاخر علماء الإسلام طراً، ويوجد بدار الكتب المصرية جزء من هذا التفسير وكتابه المقتفي يتوسع في بيان الإسراء.

(٢) ترى المؤلف على ووعه البالغ يستنزل اللعنات على الناظم في كثير من مواضع هذا الكتاب، وهو يستحق تلك اللعنات من حيث خروجه على معتقد المسلمين بتلك المخازي، لكن الخاتمة مجهولة، فالأولى كف اللسان الآن عن اللعن. وأما استنزال المؤلف للعة عليه فكان في حياة الناظم وهو يمضي على زيغته وإضلاله عامله الله بعده.

مذاهبها إلى القرآن، قالوا: الذي تبغيه فوق عباده^(١) فوق السماء وفوق كل مكان وهو الذي حقاً على العرش استوى وإليه يصعد كل قول طيب وإليه يرفع سعي ذي الشكران، والروح والأملك منه تنزلت وإليه تعرج أيدي السائلين توجهت، وإليه قد عرج الرسول ﷺ وإليك قد رفع المسيح حقيقة وإليه يصعد روح كل مصدق، لكن أولو النمطيل منهم أصبحوا مرضى بداء الجهل والخذلان.

تسمية الناظم أهل الحق بحزب جنكز خان

فسألت عنهم رفيقي أصحاب جهنم حزب^(٢) جنكسخان. من هؤلاء؟ قال مشبهة

(١) والوارد في القرآن الكريم ﴿وَعَوَّاهُ أَعْقَابُ رُوحٍ يَبْأُوهُ﴾ [الأنعام: ١٨] ومن الخرق أن يظن من قوله تعالى عن القبط: ﴿وَيْتًا قَوْفَهُمْ تَنْهَرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وكوب القبط على أكتاف بني إسرائيل مع إمكان ركوب جسم على جسم، وكيف يتصور ذلك في الله تعالى المنزه عن الجسم ولوازم الجسم واعتبار ذات الله فوق عباده فوقية مكانية إلحاد ليس من مدلول الآية في شيء وكون ذاته جلّ جلاله فوق إحدى السماوات فوقية مكانية وفوق كل مكان فوقية مكانية مثل ما سبق في الزيف، وأين في القرآن ما يوهم ذلك؟ على أن القول الأخير موافقة منه لمن يقول إن ذاته جلّ شأنه بكل مكان وكفى هذا تهاتراً. وإن كان يريد بالاستواء الاستقرار تبعاً لمقاتل بن سليمان شيخ المجسمة فقد استعجمت عليه الآية الكريمة وتباعد عن بلاغتها أيما تباعد وقد أوضحت ذلك في (لفت اللحظ إلى ما في الاختلاف في اللفظ) ونسبة الصعود إلى الأعراف والمعاني من الدليل في أول نظر على أنه مجاز من القبول وماذا من نزول الملائكة من السماوات وعودهم إليها. وإليه تعالى قصد السائلين، لكن رفضهم الأيدي إلى السماء ليس في شيء من الدلالة على استقرار وجود ذاته في السماء وإنما ذلك لمجرد أن السماء قبلة الدعاء ومنزل الأنوار والأمطار والخيرات والبركات ﴿وَرَبِّكَ أَتَى السَّمَاءَ﴾ [الفرقان: ٢٢] وسمت الرأس مما يتبدل آنأ فتأ كما يعرف ذلك صفار التلاميذ في الممارس، فهل ذات معبود الناظم في تنفل دائم لا يبرح سمت رأسه؟ وما حال سائر المصالحين في أقطار الأرض؟ وهذا هو الجهل المطبق. لم يكن إسرائ النبي ﷺ ليفشي مكان الله - سبحانه عن المكان - بل أسرى به ربه ليريه من آياته الكبرى كما نصّ على ذلك القرآن ومقام عيسى عليه السلام يظهر من حديث المراج، فوبخ الناظم ما أجهله بالسنّة، نعم يوجد بين التنصاري من يزعم أن الابن رفع إلى السماء وجلس في جنب أبيه، تعالى الله عما يقول المجسمة وإخوانهم التنصاري واليهود علواً كبيراً، وصعود الأرواح إلى السماء من الذي يراه صالحاً لاتخاذ دليلاً على التجسيم؟.

(٢) انظر هذا الحشوي كيف يجعل أهل السنة المنزهين لله عن الجسم والجسمانيات من حزب جنكزخان الذي اكسح معالم الإسلام من بلاد الصين إلى حدود الشام غرباً وإلى نهر ولجا وما والاها من بلاد البلقار القديم شمالاً ذلك الكافر العربي في الكفر، المسود لتاريخ البشرية بعظائمه الهمجية. ولم تزل أعين المسلمين تفيض دماً على تلك الكوارث التي قضت على تلك المعلوم الزاهرة وعلى هؤلاء العلماء النباه حراس الشريعة الغراء، حتى أصبح مثل النظام يجد =

مجسمة^(١) فلا تسمع ترابهم والعنهم واحكم بسفك دمائهم فهم أضل من اليهود والنصارى، واحذر تجادلهم يد قال الله وقال الرسول وهم أولى به، فإذا ابتليت بهم فغالطهم على التأويل للأخبار والقرآن، وعلى التكذيب للإحاد.

هذان أصلان أوصى بهما أشياخنا أشياخهم، وإذا اجتمعت بهم في مجلس فابدأ بإيراد وشغل زمان لا يملكوه عليك بالأثار وتفسير القرآن، فإن وافقت صرت مثلهم، وإن عارضت صرت زنديقاً كافراً، وإن سكنت يقال جاهل، فابدأ ولو بالفشر والهديان

= مجالاً للكلام، يمثل هذه المخازي، كأنه وشيخه كانا يحاولان القضاء على البقية الباقية من الإسلام، ومن علوم الإسلام، إتماماً لما لم يتم بأيدي المغول، لكنهما قسبا على أنفسهما ومداركهما قبل أن يقضيا على السنة باسم السنة وعلى عقول الناس باسم النظر عاملهما الله سبحانه بعدله.

(١) يسمى الناظم بكل قواه في تهوين أمر التجسيم أسوة بشيخه، لكن القائلين يقدم الجسم طائفتان ليس بين طوائف البشر أسخف أحلاماً من كلتا الطائفتين. إحداهما الطبيميون وقد تسمى الملاحدة والزنادقة والهرية والمعطلة وهم القائلون بنفي الصانع، وهم كما يقول المطهر المقدسي أقل الناس عدداً وأفيلهم رأياً، وأشرهم حالاً وأرغمهم منزلة، يقولون يقدم أعيان العالم والأجسام وتولد النبات والحيوان من الطبايع باختلاف الأزمنة والثانية المجسمة وقد تسمى الحشرية والمشبية على اختلاف بينهم فيما يخلقونه في الله من السخافات والحماقات، تعالى الله عما يصفون، وهم مشاركون لهؤلاء في القول بجسم قديم قديماً ذاتياً إلا أنهم يؤلهونه ويتعبدونه بخلاف هؤلاء، سواء أطلقوا لفظ الجسم عليه أم لم يطلقوا بعد أن قالوا بمعنى الجسم الشاغل للفرغ، الذهاب في الجهات، حيث خاضوا في ذات الله سبحانه بقولهم الضئيلة التي تعجز عن اكتناه ذوات المخلوقات وإنما علمهم بالمخلوقات عبارة عما تخيلوه بشأنها من إحساسهم بأغراضها، فكيف يجترئون على تخيل الحورم حول حمى الخالق جلّ وعلا.

قال ابن تيمية في التأسيس في رد أساس التقيس المحفوظ في ظاهرة دمشق في ضمن المجلد رقم ٢٥ من الكواكب الدراري، وهذا الكتاب مخبأة ووكر لكتيبهم في التجسيم وقد بينت ذلك فيما علقت على المصعد الأحمد (ص ٣١): فمن المعلوم أن الكتاب والسنة والإجماع لم ينطق بأن الأجسام كلها محدثة وأن الله ليس بجسم ولا قال ذلك إمام من أئمة المسلمين فليس في تركي لهذا القول خروج عن الفطرة ولا عن الشريعة اهـ.

وقال في موضع آخر منه: فقلتم ليس هو بجسم، ولا جوهر ولا منحيز ولا في جهة ولا يشار إليه بحس ولا يتميز منه شيء وعبرتم عن ذلك بأنه تعالى ليس ينقسم ولا مركب وأنه لا حد له ولا غاية، تريدون بذلك أنه يتمتع عليه أن يكون له حد وقدر أو يكون له قدر لا ينتهي... فكيف ساغ لكم هذا النفي بلا كتاب ولا سنة اهـ. وفي ذلك عبر للمعتبر، وهل يتصور لمارق أن يكون أصرح من هنا بين قوم مسلمين؟.

هذا الذي - والله^(١) - وصانا به أشياخنا فرجعت عن سفري وقلت لصاحبي: عطل ركابك ما ثم شيء غير ذي الأكوان، لو كان للأكوان رب خالق كان المجسم صاحب البرهان أو كان رب بائن عن ذا الوري، كان المجسم صاحب الإيمان. فدع التكليف واخلع عذارك ما ثم فوق العرش من رب، ولم يتكلم الرحمن بالقرآن لو كان فوق العرش رب لزم التحيز ولو كان القرآن عين كلامه حرفاً وصوتاً^(٢) كان ذا جثمان، فإذا

(١) ثم انظر كيف يحلف كذباً على هذه المحاورة الخيالية فهل يتصور أن يصدر منه مثل ذلك لو كان يخاف مقام ربه في ذلك اليوم الرهيب، وسيأتي ما يقضي على مزاعمه في استقرار معبوده على العرش - جلّ إله المسلمين عن مثل هذه الوثنية - كما سيأتي القضاء على مزاعمه في الحرف والصوت قضاء لا نهوض لها بعده إن شاء الله تعالى.

(٢) واعتقاد الصوت في كلام الله خطر جداً، وكان الإمام عز الدين بن عبد السلام ابتلي بالمتدعة الصوتية في عهد الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل الأيوبي، وكان الملك الأشرف هذا يميل إليهم ويعتقد فيهم أنهم على صواب حيث كان يخالطهم منذ صغره حتى منع العز المذكور من الإفتاء بسبب هذه المسألة كما هو مشروح، مفضل في مطلب الأدب لأبي بكر بن علي الحسيني السيوطي، وفي طبقات التاج ابن السبكي وطبقات التقي التميمي، وفي خلاصة الكلام في مسألة الكلام للشيخ محمد عبد اللطيف بن العز المذكور - وقد نقلت الرسالة الأخيرة من خط المؤلف - واستمر منعه من الإفتاء إلى أن ركب الإمام الكبير جمال الدين الحصري - شراح الجامع الكبير، وشيخ الفقهاء في عصره - ونوجه إلى الملك الأشرف وأفهمه أن الحق مع العز وقال له إن ما في فتياء هو اعتقاد المسلمين وكل ما فيها صحيح ومن خالف ذلك فهو حمار. وكان جمال الحصري عظيم المنزلة عند الملك لجلالة قدره عند جماهير أهل العلم، فأطلق الإفتاء للعز ومنع الصوتية من مزاعم الحرف والصوت في كلام الله سبحانه.

فتاوى في الرد على الفاكليين بالحرف والصوت

وأرى من النصيح للمسلمين أن أنقل هنا أجوبة الإمام العز بن عبد السلام والإمام جمال الدين أبي عمرو عثمان بن الحاجب المالكي، والإمام علم الدين أبي الحسن علي بن محمد السخاوي مؤلف «جمال القراء» وكمال الإقراء» حينما استفتوا في هذه المسألة. ومكانتهم السامية في العلم معروفة.

ونص السؤال والأجوبة كما هو مدوّن في «نجم المهتدي ووجم المعتدي» للفخر بن المعلم القرشي، كالآتي:

صورة السؤال: ما يقول السادة الفقهاء رضي الله عنهم في كلام الله القديم القائم بذاته؟ هل يجوز أن يقال إنه عين صوت القارئ وحروفه المقطعة، وعين الأشكال التي يصورها الكاتب في المصحف؟ وهل يجوز أن يقال إن كلام الله القديم القائم ببلاته حروف وأصوات على المعنى الظاهر فيها وإنه عين ما جمعه الله معجزة لرسوله ﷺ؟ وما الذي يجب على من اعتقد جميع ذلك وأذاعه وغربه ضعفاء المسلمين وهل يحل للعلماء المعتبرين إذا علموا أن ذلك قد =

= شاع أن يسكتوا عن بيان الحق في ذلك وإظهاره والرد على من أظهر ذلك واعتقده؟ افتونا مأجورين.

صورة جواب الإمام عز الدين بن عبد السلام رحمه الله:

القرآن كلام الله صفة من صفاته قديم بقدمه، ليس بحروف ولا أصوات ومن زعم أن الوصف القديم هو عين أصوات القارئ وكتابة الكاتبين فقد ألحد في الدين وخالف إجماع المسلمين، بل إجماع العقلاء من غير أهل الدين ولا يحل للعلماء كتمان الحق ولا ترك البديع سارية في المسلمين، ويجب على ولادة الأمر إعانة العلماء المتزهين الموحدين، وقمع المبتدعة المشبهين المجسمين، ومن زعم أن المعجزة قديمة فقد جهل حقيقتها، ولا يحل لولادة الأمر تمكين أمثال هؤلاء من إفساد عقائد المسلمين، ويجب عليهم أن يلزمهم بتصحيح عقائدهم بمباحة العلماء المعبرين، فإن لم يفعلوا ألجئنا إلى ذلك بالحبس والعزير، والله أعلم.

كتبه عبد العزيز بن عبد السلام

وصورة جواب الإمام جمال الدين أبي عمرو عثمان بن الحاجب المالكي:

من زعم أن أصوات القارئ وحروفه المتقطعة والأشكال التي يصورها الكاتب في المصحف هي نفس كلام الله تعالى القديم فقد ارتكب بدعة عظيمة وخالف الضرورة وسقطت مكالته في المناظرة فيه، ولا يستقيم أن يقال إن كلام الله تعالى القديم القائم بذاته هو الذي جعله الله معجزة لرسوله ﷺ، فإن ذلك يعلم بأدنى نظر، وإذا شاع ذلك أو مثل عنه العلماء وجب عليهم بيان الحق في ذلك وإظهاره ويجب على من له الأمر وفقه الله أخذ من يعتقد ذلك ويغريه ضعفاء المسلمين وزجره وتأديبه وجبه عن مخالطة من يخاف منه إضلاله إلى أن يظهر توبته عن اعتقاد مثل هذه الخرافات التي تأباه العقول السليمة، والله أعلم.

كتبه عثمان بن أبي بكر الحاجب

وصورة جواب الإمام هلم الدين أبي الحسن علي السخاوي:

كلام الله عز وجل قديم صفة من صفاته ليس يخلق؛ وأصوات القراء وحروف المصاحف أمر خارج عن ذلك، ولهذا يقال صوت قبيح وقراءة غير حسنة وخط قبيح غير جيد، ولو كان ذلك كلام الله لم يجز ذمه على ما ذكر لأن أصوات القراء به تختلف باختلاف مخارجها والله تعالى منزّه عن ذلك، والقرآن عندنا مكتوب في المصاحف متلو في المحارب محفوظ في الصدور غير حال في شيء من ذلك، والمصحف عندنا معظّم محترم لا يجوز للمحدث منه، ومن استخفّ به أو ازدراء فهو كافر مباح الدم، والصفة القديمة القائمة بذاته سبحانه وتعالى ليست المعجزة، لأن المعجزة ما تحدّى به الرسول ﷺ وطالب بالإتيان بمثله ومعلوم أنه لم يتحدّم بصفة الباري القديمة، ولا طالبهم بالإتيان بمثله، ومن اعتقد ذلك وصرّح به أو دعا إليه فهو ضال مبتدع، بل خارج عما عليه العقلاء إلى تخليط المجانين، والواجب على علماء المسلمين إذا ظهرت هذه البدعة إخمادها وتبيين الحق والله أعلم.

علي السخاوي

انظر يا رعاك الله كيف كان العلماء يتكافرون في قمع البدع وإحقاق الحق على اختلاف مذاهبهم في تلك العصور الزاهرة بخلاف غالب أهل العلم في زماننا هذا فإن لهم منازع وراه اختلاف =

= المذاهب لا يهمهم ذبوع الباطل وقد خانوا دينهم الذي اتعنهم الله عليه، وبه يعيشون، ويوم الخاتين يوم رهيب.

وكانت تلك الفتنة بالشام في النصف الأول من القرن السابع الهجري، وقد وقع مثلها في النصف الأخير من القرن السادس بمصر، وفتنة القاهرة معروفة بفتنة ابن مرزوق وابن الكيزاني وكلاهما من حشوية الحنابلة، وظن التاج ابن السبكي بن الكيزاني من الشافعية فترجم له في طبقاته تبعاً لابن خلكان، فلا بأس في الإشارة هنا إلى فتاوى علماء ذلك العصر في حقهما. وصورة الاستفتاء في شأنهما:

ما قولكم في الحشوية الذين على مذهب ابن مرزوق وابن الكيزاني اللذين يعتقدان أن الله سبحانه يتكلم بحرف وصوت، تعالى الله عن ذلك، وأن أفعال العباد قديمة، هل تغد أحكامهم على أهل التوحيد وعامة المسلمين وهل تقبل شهادتهم على المسلمين أم لا؟
جواب الإمام شهاب الدين أبي الفتح محمد بن محمود الطوسي الشافعي (صاحب الوقائع مع ابن نجية الحنبلي):

تقبل شهادة عدولهم على أصحابهم ولا تسمع شهادتهم على أهل الحق من الموحدين ولا ينفذ حكم قاضيهم على الموحدين فإنهم أعداء الحق، والله أعلم.

كتبه محمد الطوسي

وجواب الإمام يوسف الأرموي:

ما نصّ عليهم أعلاء اقترفوا حربة عظيمة يجب عليهم القفول عما اعتقدوه وهم كفار عند أكثر المتكلمين وكيف يسوغ قبول أقوالهم؟ ويجب على من إليه الأمر إحضارهم واستابنتهم عما هم عليه، فإن تابوا وإلا قتلوا، وحكمهم في الاستابة حكم المرتد في إمهاله ثلاثة أيام ولا يقتل في الحال.

كتبه يوسف الأرموي

وجواب الخطيب أبي عبد الله محمد بن إبراهيم الحموي:

من اعتقد أن أفعال العباد قديمة فقد قال قولاً يلزم منه القول بقدم العالم ومن قال بقدم العالم فهو كافر لا تصح ولايته ولا تقبل شهادته والله أعلم.

كتبه محمد بن إبراهيم الحموي

واستفتاء آخر صورته:

ما قول الفقهاء الأئمة قادة علماء هذه الأمة أدام الله إرشادهم ورفق إصدارهم وإبرادهم في الحشوية الذين على مذهب ابن مرزوق وابن الكيزاني. اللذين يعتقدان أن الله سبحانه متكلم بحرف وصوت، وأن أفعال العباد قديمة، هل تقبل شهادتهم على أهل الحق الموحدين الأشعرية، وهل تغد أحكام قضائهم على الأشعرية أم لا؟

جواب الإمام أبي المنصور ظافر بن الحسين الأزدي المالكي:

لا تقبل شهادة من يقول إن الله تعالى يتكلم بحرف وصوت لأنهم مرتكبون كبيرة هي أعظم من سائر المعاصي كالزنى وشرب الخمر لأنها كبيرة تتعلق بأصل من أصول الدين.

كتبه ظافر بن حسين الأزدي =

= وجواب شارح المذهب أبي إسحاق إبراهيم العراقي:
جوابي كذلك.

كتبه إبراهيم العراقي

وجواب الخطيب محمد بن إبراهيم الحموي:
من قال إن الله متكلم بحرف وصوت فقد قال قولاً يلزم منه أن الله جسم ومن قال إنه جسم فقد قال بحدوثه ومن قال بحدوثه فقد كفر، والكافر لا نصح ولا تقبل شهادته، والله أعلم.
كتبه محمد بن إبراهيم الحموي

وجواب الشيخ جمال الدين بن رشيقي المالكي:
لا تقبل شهادتهم ولا يجوز أن يولوا الحكم ولا غيره من المناصب الدينية لأنهم بين جاهل يصير على جهله بما يتعين عليه اعتقاده من صفات الله سبحانه وبين عالم معاند للحق، ومن هذه صفته يتعين تأديبه وزجره عما صار إليه بأبلغ الأدب، ومن جملة رد الشهادة وبالله التوفيق.
كتب حسين بن عتيق بن رشيقي

وجواب الشيخ محيي الدين محمد بن أبي بكر الفارسي:
من قال إن الله سبحانه متكلم بالصوت والحرف فقد أثبت الجسمية وصار بقوله مجسماً، والجسم كافر، ومن قال إن أفعال العباد قديمة فقد كذب الله تعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ وَنَا نَسْلَكُمْ﴾ [الصفافات: ٩٦] ومكذب الله بصفة الإصرار كافر ولا تثبت عدالتهم ولا تقبل شهادتهم ولا تجوز الصلاة خلفهم، ويجب على الإمام وعلى نوابه في الأقاليم استأينهم، فإن لم يرجعوا عما هم فيه من الكفر يعاقبهم على كفرهم أو يقبل الجزية منهم أذلاء لا كاليهود والنصارى بل كفرهم أشنع وأبشع من مقالة النصارى واليهود، أما اليهود فشيهوة بالحادث صفة، وأما النصارى فقالوا إنه جوهر شريف والمجسمة يثبتون الجسم لله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.
وكتب محمد الفارسي:

وفي تلك الفتاوى ما يتزجر به من يخاف مقام ربه من تلك البدع الشنيعة وبها يعلم أيضاً أن أبا عمرو عثمان بن مرزوق الحنبلي وأبا عبد الله الكيزاني الحنبلي مشتركان في إثارة البدع المذكورة بمصر ولا مانع من أن يكون بينهما بعض اختلاف في فرع من فروع تلك البدع، ومن حاول تبرئة أحدهما منها فلا حجة عنده أصلاً، وقد تكلف ابن رجب في طبقاته تبرئة ابن مرزوق عن ذلك بدون جدوى بعد أن أقر بذلك الناصح الحنبلي وابن القطيعي الحنبلي، ولو كان ابن رجب رأى تلك النصوص من فتاوى علماء عصر ابن مرزوق وابن الكيزاني المنقولة عن خطوطهم المحفوظة في خزنة الملك الظاهر ببيرس لما سعى في تبرئة ساحته من تلك البدعة الشنيعة.

ونسبة القول بتلك البدعة إلى ابن الكيزاني في مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي لا تبرئ ابن مرزوق منها على أن ابن رجب قال بعد ذلك: ثم وجدت لأبي عمرو بن مرزوق مصنفاً في أصول الدين، ورأيت يقول فيه إن الإيمان غير مخلوق، أقواله وأفعاله وإن حركات العباد مخلوقة، لكن القديم يظهر فيها كظهور الكلام في ألفاظ العباد.

انتفيا ما الذي يبقى من إيمان؟ فدح الحلال مع الحرام لأمله، فهما السياج فاخرقه ثم ادخل واقطع علائقك التي قد قيدت هذا الوري لتصير حراً^(١) لست تحت

= هذا طراز آخر في التشريف يدل على أنه قائل بالحلول على مذهب السامية، ومثله لا يمكن ترقية كلامه. ووقعت بين الفتنين فتنة عبد الغني المقدسي الحنيلي في الصوت ونحوه كما في ذيل الروضتين لأبي شامة فليراجع هناك، وما حدث في القرن الخامس ببغداد في عهد أبي نصر بن الفشير من فتنة الحشوية فمشهور جداً. والمحضر الذي رفعه أبو إسحاق الشيرازي والحسين بن محمد الطبري ومحمد بن أحمد الشاشي والحسين بن أحمد البغدادي وعزيز بن عبد الملك شينلة، وغيرهم من أئمة ذلك العصر عن تلك الفتنة بخطوطهم إلى نظام الملك، مسجل في تبين كذب المفتري لابن عساكر (ص ٣١٠) فيراجع هناك ليعلم مبلغ سعي الحشوية في إثارة الفتن في كل قرن وذلك مما يعرف به جبين الدهر خجلاً من تخريفاتهم التي يثيراً منها العقلاء كلهم. وأما ما أحدثوه من الفتن في أوائل القرن الرابع من الدعوة إلى القول بإجلاس محمد ﷺ على العرش في جنبه تعالى فمدون في كتب التاريخ. والمرسوم الذي أصدره الراضي العباسي ضد البربهاري الداعي إلى تلك البدعة مسجل في تاريخ ابن الأثير بنصه ونصه فليراجع القارئ الكريم هنا وذاك ليعلم نصيب الحشوية من العقل والدين وكلا الكتابين بمتناول الأيدي فنستفي عن تقل نصوص عنهما، وفي كل ما تقدم عبر، ربا لها من عبر، والله سبحانه هو الهادي إلى سواء السبيل.

رد حديث الأوهال

(١) انظر هذا الخبث المضاعف، بصور الناظم أن القول بعدم استقرار الإله جل شأنه على العرش استقراراً يمكن ويعدم كون كلام الله القائم بذاته حرفاً وصوتاً حادثين في ذاته تعالى يكون انحلالاً عن الدين وانسلاخاً من التكليف، ولست أشك أن من يجترى على هذا التصوير ويدور في خلدته مثل هذا التفكير أمام جماهير أهل الحق المعضدين للتمتيز من فجر الإسلام إلى اليوم في مشارق الأرض ومغاربها على طول القرون لا يكون إلا منطوياً على الانسلاخ الذي يرمي به أهل الحق، قاتله الله ما أجراه على الله وما أوقعه! فمن الذي نفى أن للعالم مدبراً وأن القرآن كلام الله أنزل به الروح الأمين على قلب رسوله ﷺ؟ ومن الذي يجهل أن الملء والتخلية من شأن الأجسام نفيًا وإثباتاً ولم يرد الملء في سنة صحيحة حتى يجوز إطلاقه عليه سبحانه، على أن تنزهه سبحانه عن الجسمية ولوازم الجسمية مما أجمع عليه أهل الحق، ولم يشك فيه سوى من عنده نزعة الوثنية، ولغظ بائن من خلقه لم يرد في كتاب ولا سنة، وإنما أطلق من أطلق من السلف بمعنى نفي الممازجة رداً على جهم لا بمعنى الابتعاد بالمسافة، تعالى الله عن ذلك. كما صرح بذلك البيهقي في الأسماء والصفات، وأما لفظ أنه فوق العرش فلم يرد مرفوعاً إلا في بعض طرق حديث الأوهال - من رواية ابن منده من التوحيد - وعبد الله بن حميرة في سننه مجهول الحال، ولم يدرك الأحنف فضلاً عن العباس. وسماك انفرد به عن عبد الله هذا، في جميع الطرق، ويحيى بن العلاء في رواية عبد الرزاق عن سماك يقول عنه أحمد: كذاب يضع الحديث. وتصحيح بعض الحشوية لبعض طرق حديث الأوهال لا يزيل ما به سنناً ومنناً، بل خير الأوهال ملفق من الأسر اليليات كما نص على أبو بكر بن =

أوامر ولا نهى ولا فرقاً، لكن جعلت حجاب نفسك إذا تى، فوق السماء من ديان، لو قلت ما فوق السماء مدبر والعرش تخليه من الرحمن، والله ليس متكلماً بالقرآن لحللت طلسمه وفزت بكنزه وعلمت أن الناس في هذيان، لكن زعمت أن ربك بائن من خلقه وأنه فوق العرش والكرسي وفوق القدمان وأنه يسمع خلقه ويراهم من فوق وأن كلامه منه بدا وإليه^(١) يعود ووصفته بالسمع والبصر والإرادة والقدرة وكراهة ومحبة وحنان، وأنه يعلم كل ما في الكون، وأنه كلم موسى، والنداء صوت بإجماع النحاة، وأن محمداً ﷺ أسرى به (ليلاً إليه) فهو منه داني وأنه يدينه يوم القيامة حتى يرى قاعداً معه على العرش وأن لعرشه أطيطاً^(٢) وأن الله أبدى بعضه للطور، وأن له وجهاً وله يمين، بل زعمت يدان، وأن يديه للمسبح العلى والأرض (يوم الحشر) قابضتان^(٣) وأن يمينه ملأى من الخير، وأن العدل في الأخرى وأن الخلق طراً عنده

= العربي في شرح سنن الترمذي وأنت تعرف مبلغ براعته في الحديث ونقده وتحسين الترمذي بالنظر إلى تعدد طرقه بعد سماك، وهذا مصطلح له وقوله: غريب إشارة إلى انفراد سماك من ذلك المجهول ولا شأن للجاهيل والوحدان والمنقطعات في إثبات الصفات أصلاً ولم يثبت عن القدمين حديث مرفوع، وقول ابن عباس لإفادة أن الكرسي صغير بالنسبة إلى العرش ككرسي قد وضع لقدمي الفاهد على السرير كما قال ابن الجوزي. ورواية من رواه بلفظ (قدميه) تحريف للرواية وتفيد الرؤية بلفظ (من فوق) من كس الجسم بدون كتاب ولا سنة. ووصفه سبحانه بالصفات الواردة في الكتاب والسنة لم ينه أحد من أهل الحق، كما لم ينه أحد منهم كلام الله لموسى بلا كيف. والإقعاد معه على العرش يروى عن مجاهد بطريق ضعيفة وتفسير المقام المحمود بالشفاعة متواتر تواتراً معنوياً وأنى ما ينسب إلى مجاهد من ذلك؟ وقد صرح غير واحد من الأئمة ببطلان ما يروى عن مجاهد، ويرى بعض النصارى رفع عيسى عليه السلام وإقعاده في جنب آية وهذا هو مصدر هذا التخريف.

(١) قال ابن المعلم القرشي: وهذا الحديث أورده بإسناد فيه محمد بن يحيى بن زرين، قال أبو حاتم البستي كان كذاباً دجالاً يضع الأحاديث اه. وزيادة على ما سبق سيأتي الكلام على الصوت فانتظروه، ودعوى الإجماع في أن النداء صوت كذب كما سيأتي.

(٢) ويغني عن إيداء وجهه التخليط في حديث الأطيط ما ألفه الحافظ ابن عساكر في ذلك، وإيداء بعضه للطور بمعنى إيداء بعض آية على أنه مما أدخل على حماد بن سلمة، تعالى الله سبحانه عن الأبعاض والأجزاء رغم أنف المجسمة. ويأتي الكلام على قبض السماوات.

قبض السماوات والأرض

(٣) قال البخاري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَبِيحًا بِقَعَتُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] إن أبا هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض ويطوي السماوات يمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض» اه. وهذا هو أصل الحديث وهو مروى بأسانيد كثيرة جداً وهو الموافق لكتاب الله سبحانه، واليمين: القدرة كما هو مبسوط في أساس التقديس، وحاشا =

يهتز فوق أصابع^(١) الرحمن وأن قلب العبد بين اثنتين من أصابعه، وأنه يضحك عند

= أن يكون قبض الله من قبيل احتواء الأنامل على شيء، وما زاد على ذلك في الروايات من أنه يأخذ السماوات بيده اليمنى ويأخذ الأرض بشماله - وحاشا أن يكون له شمال وكلتا يديه يمين - فمن تصرفات الرواة أثناء النقل بالمعنى كما لا يخفى على أهل هذه الصناعة المستحضرين لأحاديث الباب ومبلغ اضطرابها سنداً ومتناً.

وأما حديث الحبر اليهودي فيوضع أجزاء الكون على أصبع فضحك النبي ﷺ فيه لا يدل على تصديق ذلك وإن ظنه بعض الرواة تصديقاً - في بعض الطرق - بل يدل على الإنكار والاستهجان. وقد برهن ابن الجوزي في دفع الشبه وابن حجر في الفتح على أن ذلك إنكار لا تصديق رغم توهم ابن خزيمة كونه تصديقاً لزيف مشهور في معتقده، كما سيأتي بيانه، بل نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا قَدَرُوا اللَّهَ حَزَنًا قَلِيلًا وَالْأَرْضُ جَنِينًا مَبْثُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] أي تحت تصرف مالك يوم الدين لا يجري لأحد سواء حكم في ذلك اليوم ﴿وَاللَّسْتُكَوكُ مَكْلُوفَتُكُ يَسْمِينَهُ﴾ [الزمر: ٦٧] أي بقدرته لا حساب على سكانها بخلاف أهل الأرض فإنهم محاسبون ﴿سَبَّحْتَكَ وَقَتَلْتَ عَنَّا بَشَرَكُنَا﴾ [يونس: ١٨] عقب حديث حبر اليهود طليل واضح على الإنكار على أن إنباتهم الأصابع الحسبة بالوجه السابق إشراك. قال الله تعالى: ﴿لَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْكُنُوتُ وَالْأَرْضُ أَنْ تَزُولَ﴾ [فاطر: ٤١] فمن الذي يظن أن ذلك بالمصاصة؟ وكذلك القبض، وإن هذى الشيخ محمد المنجي الحنبلي تلميذ الناظم في جزءه [إنبات المصاصة] بما شاء من صنوف الهذيان، وكل ذلك من بلایا ابن تيمية حيث لفق الروايات في هذا الصدد وقال ما شاء أن يقوله في الأجوبة المصرية وذكر ما ورد في بعض طرق الحديث وهو (قبض كفيه فجعل يقبضهما وبسطهما) ثم قال: «وهنا شبه القبض والبسط بقبضه وبسطه» اهـ. وهذا تشبيه صريح من ابن تيمية «أَقْبَضَ يَمْلُكُ كَمَنْ لَا يَمْلُكُ» [الثلح: ١٧] ومغالطة مكشوفة، واللفظ المذكور لم يقع إلا في بعض الروايات، والاضطراب في الحديث سنداً ومتناً زيادة ونقصاً ظاهر جداً لمن اطلع على طرقه بحيث لا يصح الاستدلال به ولا سيما في مثل هذا المطلوب وعلى فرض ثبوت أن النبي ﷺ قبض كفيه وبسطهما أثناء الخطبة لم ينسب إليه ﷺ في حديث أنه قال: «هكذا يقبض وبسط حتى يصح كلام ابن تيمية، بل البسط غير موجود فيما يروى عما يفعله سبحانه عند قيام الساعة حتى يظن به ﷺ إذا قبض كفيه وبسطهما أنه أراد تشبيههما بقبض الله وبسطه، على أن الخطيب كثيراً ما تصدر منه حركات وإشارات أثناء الخطبة، وحملها على معان لم ينظر هو بها تقوِيل للمخاييب ما لم يقله، ومن الظاهر جداً أن الأرض تحتوي على الأنجاس والأرجاس فكيف يتصور أن يكون قبض الله كقبض أحد من خلقه حقيقة بحيث يستلزم ذلك القبض على الأخبيات والأرواث، تعالى الله عن ذلك. وهذا مما لا يتصوره من يخاف مقام ربه ولو كان جاهلاً باستحالة الجسمية على الله سبحانه. ولا تعرض هنا لرواية كاتب الليث في الخبرية ولعل فيما ذكرنا كفاية.

الأصابع في كلام الجبر

(١) لم يرد في حديث وضع السماوات على أصبع إضافة الأصابع إلى الرحمن أصلاً وهذا كذب ونصرف في الحديث بالتحريف والتغيير قال القاضي أبو بكر بن العربي في القواصم والمواصم: =

تقابل الصفيين من عبده يأتي فييدي نحره لعدوه، ويضحك عندما يشب الفتى من فرشه لقراءة القرآن، ومن قنوط عباده إذا جذبوا، وأنه يرضى ويغضب، وأنه يسمع صوته^(١)

= وأما ذكر الأصابع فصحيح ولكن لم ترد مضافة إليه تعالى وإنما ورد أنه يضع السماوات على أصبع والأرضين على أصبع ثم يهزم... الحديث، ومن أين لهم أن أصابع الوضع المطلقة هي أصابع الثقليب المضافة إليه؟ اه على أن قول النبي ﷺ بعد أن قال الحبر ذلك ﴿وَمَا تَدْرُونَ اللَّهَ حَقَّ دَرِيهِ﴾ (الأنعام: ٩١) يدل على إنكار ما قاله الحبر كما قال ابن حجر في شرح البخاري رداً على ابن خزيمة - وتوحيد ابن خزيمة من أهيف الكتب، راجع تفسير ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١) من تفسير الفخر الرازي - وما أخرجه الضياء الحنبلي من حديث الخنصر قباطل بالمرّة وفيه من العلل ما بين في مرضه وليس في حديث الترمذي رفع حديث طرف الإبهام إلى الرسول ﷺ على انفراد حماد بن سلمة به، بل نسبة ذلك إلى سليمان بن حرب أو حماد، قال ابن العربي: ونمثيل سليمان بن حرب وأمثاله ما تنجلى للجبل بالأنملة لا ينظر إليه لأنه كلام غير معصوم ولا واجب الاتباع فالأمر هين والمخرج عنه سهل بين اه.

فيا سبحان الله ما أجهل هذا الناظم بلسان قومه كيف يفهم من اليد معنى الجارحة ومن الضحك إبله النواجد، راجع القواصم لابن العربي، ودفع الشبه لابن الجوزي، والأسماء والصفات للبيهقي، وقد روى القاضي أبو بكر بن العربي في المعارضة والقاضي عياض في الشفاء عن الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه أنه كان يرى قطع يد من أشار بيده إلى عضو من أعضائه عند ذكر شيء ورد في الله سبحانه حيث إن الإشارة إلى عضو عند ذلك تشبيه، تعالى الله عن ذلك، وأما ما وقع في صحيح مسلم من حديث القبط باليمين والشمال فلم يخرج البخاري لاضطراب عبد العزيز بن سلمة في سننه لأنه يرويه مرة عن أبيه عن ابن مقسم عن ابن عمر كما وقع في رواية سعيد بن منصور وأخرى عن أبيه عن عبيد بن عمير عن ابن عمر، كما في رواية القنبري، وتارة أخرى عن أبيه عن عبيد بن عمير عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما في رواية يحيى بن بكير، فقلت تلك الأسانيد المختلفة على أن عبد العزيز لم يضبط السند كما يجب، وحال المتن توازي حال السند وسلم حيث ترجع عنده روايته بطريق ابن مقسم بالنظر إلى متابعة يعقوب بن عبد الرحمن القاري لعبد العزيز في روايته عن سلمة عن ابن مقسم خروجه في صحيحه، لكن ما يحتاج إلى متابع يكون منقطع الرتبة في الصحة بل من أحاط بأسانيد هذا الخبر في توحيد ابن خزيمة وحلية أبي نعيم بعده مضطرب السند والمثن معاً. على أن ما يقع في المنبر أمام الجمهور تتوفر فيه الدواهي إلى روايته فكيف ينفرد برواية مثله راو واحد، وإن صح الاحتجاج بمثل ذلك فإنما يصح عند - عدم المعارض - في الأعمال فقط دون الاعتقاد على أن تلاوته ﷺ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرُونَ اللَّهَ حَقَّ دَرِيهِ﴾ (الأنعام: ٩١) عند ذكر حديث الحبر في الصحيح تعارضه إذا لم يحمل خبر مسلم على المجاز لوجود بين أهل العلم من لا يستدل بمثله في الأعمال فضلاً عن الاعتقاد ومع هذا كله لا يحتج بما دون المشهور من الأحاديث في ذات الله وصفاته عند جمهور أهل الحق فكيف يحتج بذلك الحديث في باب الاعتقاد وقد يتأ بعض ما فيه.

(١) وحديث جابر المعلق في صحيح البخاري مع ضعفه في سياق ما بعده من حديث أبي سعيد ما يدل على أن المنادي غير الله حيث يقول "... فينادي بصوت إن الله يأمرك..." فيكون الإنسان مجازياً عل أن الناظم ساق في حادي الأرواح بطريق الدارقطني حديثاً فيه بيعت الله يوم =

ويشرق نوره يوم الفصل ويكشف ساقه^(١) ويسبط كفه ويمينه تطوى السماء وينزل^(٢) في الدجى في الثلث الأخير والثلث الثاني وأن له نزولاً^(٣) ثانياً يوم القيامة للقضاء وأنه يبدو جهرة لعباده حتى يرونه ويسمعون كلامه وأن له قدماً^(٤) وأنه واضعها على النيران وأن الناس كل منهم بخاصر^(٥) ربه، بالخاء والصاد والحاء والضاد وجهان محفوظان

= القيامة منادياً بصوت... وهذا نص من النبي ﷺ على أن الإسناد في الحديث السابق مجازي وهكذا يخرب الناظم بيته بيده ويأبدي المسلمين وللحافظ أبي الحسن المقدسي جزء في تبين وجوه الضعف في أحاديث الصورت فليراجع ثمت.

الكلام على الساق والنزول والمجيء ووضع القدم

(١) وفي القرآن ﴿يَوْمَ يَكُنُّفَ عَنْ سَائِي﴾ [الفلم: ٤٢] بدون ضمير وذلك استعارة عن الشدة كما ذكره الفراء وابن قتيبة وابن الجوزي، وذكر الإسماعيلي في مستخرجه أن رواية حفص بن ميسرة يكشف رينا عن ساق بدون ضمير وروايته بالضمير منكروا. راجع ما كتبناه على دفع الشبه لابن الجوزي، ومن عادة الحشوية حمل المجاز المشهور على الحقيقة باختلاف رواية حول ذلك وإلغائها على ألسنة الرواة. وتصرفات المجسمة هنا من هذا القبيل.

واني أنقل للقاريء بلية من بلايا المجسمة نفهمه إلى أي حد يصل جنون هؤلاء، وقد رأينا في بعض كتب روافضهم أن فاطمة رضي الله عنها تحمل قميص حسين عليه السلام في يوم القيامة ونقول لله سبحانه وهو جالس على عرشه هذا ما فعلته الأمة بابني سبط الرسول ﷺ، ويكشف الله سبحانه إذ ذاك عن ساقه فإذا هي مربوطة برباط ويقول ماذا أنا فاعل إزاء هذا وهم قد فعلوا بي ما ترون؟ ويملكون هذا بما فعله نمرود من توجيهه الرمي إلى السماء ليقول إله إبراهيم عليه السلام فاهمين أن سهمه أصاب ساق الله فبقيت مربوطة من أثر الجرح في ذلك اليوم. فهل رأى القاريء كفراً أشنع من هذا وأبعد من هية الرب سبحانه وتقديره حق قدره وأدل على ذهاب المقول؟ قاتلهم الله.

(٢) قال ابن حزم في الفصل: إن ثلث الليل مختلف في البلاد باختلاف المطالع والمغارب يعلم ذلك ضرورة من بحث عنه فصّح ضرورة أنه فعل يفعل رينا في ذلك الوقت لأهل كل أفق وأما جعل ذلك نقلة فقد قلنا بطلان قوله في إبطال القول بالتجسيم اه وفي بعض طرق الحديث ما يعين أنه إسناد مجازي، ففي سنن النسائي «إن الله يأمر ملكاً ينادي... وفي شرحي البدر العيني وابن حجر على البخاري بسط واف في المسألة.

(٣) ولفظ التنزيل ﴿وَمَا رَكَّبُ﴾ [الفجر: ٢٢] قال أحمد: أمره، وقد بينه في قوله تعالى: ﴿لَوْ يَأْتِي أَمْرٌ رَكَّبُ﴾ [النحل: ٣٣] رواه ابن حزم وأبو يعلى وابن الجوزي. قال الخلال في السنة بسنده إلى حنبل عن عمه الإمام أحمد أنه سئل عن أحاديث النزول والروية ووضع القدم ونحوها فقال: «لو من بها ونصلق بها ولا كيف ولا معنى».

(٤) وضع القدم مجاز مشهور عن التسكين وعن الردع والقمع. راجع أساس البلاغة والفاوق ودفع شبه التشبيه وأساس التقديس. والأخيران مهمان جداً في الرد على الحشوية، وهما مطبوعان يسهل تناولهما فیهما غنية عن التوسع بأكثر مما ذكر.

(٥) قال ابن العربي: أما حديث المخاصرة فضعيف، راجع العواصم، فكم في سنن الترمذي ومسنده =

في الترمذي والمسنود وغيرهما من كتب التجسيم، ووصفته بصفات حي فاعل بالاختيار، وذلك الأصلان أصل التفرق في الباري فكُن في النفي غير جبان أو لا فلا تلعب بدينك تثبت بعض الصفات وتنفي بعضها فانكر الجميع أو فرق بين ما أثبتته ونفيته، فذروا المراء وصرحوا بمذاهب القدماء وانسلخوا من الإيمان أو قاتلوا مع أمة التشبيه والتجسيم تحت لواء ذي القرآن أو لا فلا تتلاعبوا بقولكم وكتابكم وبسائر الأديان، فجميعها قد صرحت بصفاته وكلامه وعلوه والناس بين مصدق أو جاحد أو بين ذلك أو حمار، فنزه وأنف الجميع ولقب مذهب الإثبات بالتجسيم وأحمل على الأقران، فمتى سمحت لهم بوصف واحد حملوا عليك فصرعت فلذلك أنكرنا الجميع مخافة التجسيم إن صرنا إلى القرآن ولذا خلعنا ربقة الأديان من أعناقنا ولنا ملوك قارموا الرسل في آل فرعون وقارون وهامان ونمرود وجنكخان ولنا الأئمة أرسطو وشيعته ما فيهم من قال: إن الله فوق العرش، ولا إن الله يتكلم بالوحي، ولهذا رد فرعون على موسى إذ قال موسى ربنا متكلم فوق السماء وأنه ناداني، وكذا ابن سينا لم يكن منكم ولا الطوسي قتل الخليفة والقضاة والفقهاء إذ هم مجسمة، ولنا الملاحدة الفحول أئمة التعطيل ولنا تصانيف مثل الشفاء ورسائل إخوان الصفاء والإشارات قد صرحت بالضد مما جاء في التوراة والإنجيل والفرقان، وإذا تحاكمنا فإليهم لا إلى القرآن، يا ويح جهنم وابن درهم ومن قال بقولهما، بقيت من التشبيه فيه بقية ينفي الصفات مخافة التجسيم ويقال: إن الله يسمع ويرى ويعلم ويشاء وإن الفعل مقدور له والكون ينسب إليه إلى الحدوث ويصرخ بنفي التجسيم والله ما هذان متفقان، لكننا قلنا محال كل ذا حذراً من التجسيم والإمكان اهـ.

تصوير الناظم أهل الحق أسوأ تصوير

انتهى كلام هذا الملحد نبأ له وقطع الله دابر كلامه. انظر هذا الملعون كيف أقام طوائف الشافعية والمالكية والحنفية الذين هم قدوة الإسلام وهداة الأنعام في صورة الملاحدة الزنادقة المقربين على أنفسهم باتباع فرعون وهامان وأرسطو وابن سينا، المقدمين كلامهم على القرآن، وأنهم أتباع أصحاب جنكسخان، وأن رائده، لعنه الله ولعنه، سألهم عما يقوله أهل الحديث فنسبوههم إلى ما نسبوههم إليه، وأنه لذلك انحلّ

= أحمد من أحاديث ضعيفة والناظم هو الذي يسميها بالتجسيم، قال ابن الجوزي هذا يرويه يوسف بن عبد الله وهو خطأ.

عن الأديان وخلع ربة الإيمان وأبرز ذلك في صورة مقامة وخيال ليرسم به في ذهن من يقف عليه من العوام والجهال أن الطوائف المذكورة، على هذه الصفة.

وإذا كانت علماء الشريعة وقادة الأمة بهذه الصفة كيف يقبل قولهم في الدين؟ أو ماذا تكون قيمة فتاويهم عند المسلمين؟ فما أراد هذا إلا أن يقرر عند العوام أنه لا مسلم إلا هو وطائفته التي ما برحت ذليلة حقيرة، وما أدري ما يكون وراء ذلك من قصده الخبيث، فإن الطعن في أئمة الدين طعن في الدين وقد يكون هذا فتح باب الزندقة ونقض الشريعة وأبى الله ذلك والمؤمنون.

وجماعة من الزنادقة يكون مبدأ أمرهم خفياً حتى تنتشر ناره ويشعل شاره، نسأل الله العافية.

فينبغي لأئمة المسلمين وولاة أمورهم أن يأخذوا بالحزم ويحسموا مادة الشر في مبدئه قبل أن يستحكم فيصعب عليهم رفعه. ثم إن هذا الوقح لا يستحي من الله ولا من الناس، ينسب إلى طوائف المسلمين ما لم يقولوه فيه وفي طائفته، وأن شيوخهم وصوهم بذلك، وهو يزعم بكذبه أنه متمسك بالقرآن وأين قال الله في القرآن (إنه فوق السماء) وأين قال (إنه بائن من خلقه) وأين قال (إنه فوق العرش) بهذا اللفظ وأين قال (إن القدمين فوق الكرسي) وأين قال (إنه يسمع خلقه وإبراهيم من فوق) وأين قال (إن محمداً قاعد معه على العرش) إلى بقية ما ذكره جميعه.

والمتمتع للقرآن لا يغيره ولا يغير لفظه بل يتمسك به من غير زيادة ولا نقصان، وكذلك الأحاديث الصحيحة يقف عند ألفاظها ولا يزيد في معناها ولا ينقص.

كذب الناظم على الله ورسوله ﷺ

وهكنا أكثر ما ذكره لم يجرى لفظه في قرآن ولا سنة، بل هو زيادة من عنده قد كذب فيها على الله^(١) وعلى رسوله ﷺ وفهمها على خلاف الحق ونسب إلى علماء

(١) جرت سنة العلماء في تصانيفهم أن أحدهم إذا نقل عن أحد العلماء نقلاً بنص على أنه نقله بنصه أو مع شيء من التصرف بالزيادة فيه أو النقص منه، يفعلون ذلك حرصاً على صفة الأمانة التي يهوي إلى الدرك الأسفل من الحقارة والصغار من حفظ عنه أنه أدخل بها في نأفه من الأمور، فهم يحرسون على تلك الصفة صفة الأمانة في النقل عن العلماء إخوانهم فاهمين أنهم لو خانوا في النقل عنهم (وهم يتقلون عنهم ديناً يدين به العباد) لهوروا في هاوية من النقص لا قرار لها ولا تقوم لهم قائمة بعدها، وهم إذا حفظوا عن واحد مما ينتسب إلى العلم شيئاً من =

المسلمين البراء من السوء كل قبيح، وجعل ذلك طريقاً للخروج من الدين والانسلاخ من الإيمان وانتهاك الحرام، وعدم اعتقاد شيء فهل وصلت الزنادقة والملاحدة والطاعنون في الشريعة إلى أكثر من هذا؟ بل هذا، وإيهامه الجهال أنه هو المتمسك بالقرآن والسنة، لينفق عندهم كلامه ويخفي عنهم سقامه.

الإخلال بتلك الأمانة سقط من نظرهم وأكثروا له في صلورهم من الازدراء به كعالم ما يجعله في نظرهم كأنه مسخت إنسانيته وأصبح مخلوقاً آخر من المخلوقات التي لا يقع في النفوس أنها تكون في وقت من الأوقات مصدراً لأي معنى ينتفع به بنو الإنسان من الناحية الأدبية، هذا نظرهم لمن يخون في الثقل عن رجل مثلهم ما قال الله ولا رسوله ﷺ إنه معصوم.

وإذا كان الأمر كذلك في هذا فليقل لي حضرات إخواننا المساكين المغرورين بآبين القيم كيف يدومون على غرورهم به وإمام عظيم من أئمة المسلمين يقول عنه بعبارة صريحة فصيحة بيّنة لا تحتل التأويل، لا يقولها فقط بلسانه بل يكتبها في كتاب تبقى فيه على ممر الدهور يقرأها البعيد والقريب والصغير والكبير والعالم والجاهل والمؤمن والكافر يقول تلك الكلمة هذا الإمام النادر المثال في فضله وزهده وورعه وعلمه وهو يعلم أنه مسؤول عنها عند ربه ولي أمره في دينه وفي أخراه، وأي كلمة هذه الكلمة هي قوله: إن ابن القيم كذب على الله ورسوله - ليقول لي حضرات المغرورين بآبين القيم كيف يكون نظرهم إليه في الحطارة والصغار وهم يسمعون إماماً كبيراً لا ينسب إمامهم إلى الخيانة في الثقل عن فريق العلماء جميعاً بل ينسبه إلى الخيانة في الثقل عن الله ورسوله ﷺ يقول عنه إنه يكذب عليهما ويسند إليهما ما لم يقله كتاب ولا سنة أمع هذا يقولون على غرورهم وإفراطهم في تعظيم ذلك الرجل الذي يقول عنه الإمام السبكي بحق: إنه ما زاد عنه الزنادقة والملاحدة والطاعنون في الشريعة في الخروج على الإسلام والمسلمين، أنا لا أتوهم بعد اطلاع هؤلاء المساكين على حال هذا الرجل أن يبقى في قلوبهم مثقال ذرة من التعظيم له والمطف عليه، كيف لا وهم مؤمنون بالله يقول في كتابه الكريم عن كل من اتصف بالإيمان: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤَيِّنُكُمْ بَأَقْيَمُ الْوَعْدِ الْأَخِيرِ يَرْفَعُكُم مِّنْ حَكَاةٍ اللَّهُ رَزَقَهُمْ وَكُلُوا مِمَّا كَسَبُوا بِيَدِهِمْ أَوْ أُبْعِدَتْكُم أَوْ يُخَذَّذْكُمْ أَوْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ [السجادة: ٢٢] وإنني أعيظهم بالله من احترام رجل لا يزيد عنه في الخروج على الإسلام والمسلمين لا الزنادقة ولا الملاحدة ولا الطاعنون في الشريعة، إنني أرجو إخواننا المغرورين بآبين القيم أن يفهموا أن كذب صاحبهم على الله ورسوله ﷺ في أصول الإسلام ليعلموا هذا جيداً ثم ليوقنوا أن الذي يكذب في الأصول حين جداً عنه أن يكذب في الفروع وإذن ترتفع بكل معناها عن ابن القيم فلا يجوز لمسلم أن يعتمد عليه في نقل لا في أصول ديننا ولا في فروع وهو على هذه الحالة سيئة واحدة من سيئات شيخه الكبير إمامكم العظيم لا في هذا ولا عشر نظركم ابن تيمية. ما ثبت له بيت لشيخه بالأولى ثم بالأولى. وبناء على هذا أؤكد عليكم أن تنظروا إلى كل كتاب خطته براعة هذا الرجل وشيخه نظر من لا أثر للثقة في قلبه بهما وبما يكتبانه وإلا فمثلكم حينئذ مثل من يرى اللص بعينه يسرق العظام من أموال الناس ثم في الوقت عينه يقول ما أصلحه وما أجله وما أوثق دينه.

فصل

قال: «في قدوم ركب الإيمان وعسكر القرآن» قال:

«وأنتى فريق ثم قال: ألا اسمعوا قد جئتكم من مطلع الإيمان:

من أروض طيبة، من مهاجر أحمد. سافرت في طلب الإله فدلتني الهادي عليه،
ومحكّم القرآن مع فطرة الرحمن وصريح عقل شهدوا بأن الله مفرد بالملك والسلطان
وهو الإله الحق».

هذا صحيح.

ثم قال: «لا معبود إلا وجهه» هذا عندنا صحيح وأما عنده فالوجه غير الذات
فكيف يصح؟

ثم قال: «والناس بعد فمشرّك أو مبتدع وكذلك شهدوا بأن الله ذو سمع وذو
بصر هما صفتان».

هذا نحن نقوله لكن لو طولب بالشهادة بأنه ذو سمع وذو بصر أين يجدها^(١)
في الفاظ القرآن والسنة ولو كان كذلك لم يكن بيننا وبين المعتزلة نزاع فيه.

قال: «وعموم قدرته^(٢) يدل بأنه هو خالق الأفعال للحيوان».

اعتقادنا أنه سبحانه خالق أفعال الحيوان ولكن كيف يدل عموم القدرة على ذلك
بل لذلك أدلة أخر. واستدلال هذا القدم بعموم القدرة من عدم شعوره.
ثم قال: «هي خلقه حقاً وأفعال لهم حقاً ولا يتناقض الأمران!».

(١) بل الواجب على من يهاب مقام ربه أن لا يطلق عليه تعالى ما لم يرد إطلاقه عليه في الكتاب
والسنة المشهورة مع الاختصار على الوارد فعلاً كان أو صفة أو مفرداً أو مجموعاً، فلا يقال له
عينان ولا هو ستو. فإبدال الفعل صفة، والمجموع مثنى، وإبدال اللفظ بما يظن مرادفاً له مما
يجب أن ينتهي كل مسلم. بل قال إمام الحرمين: أجمع المسلمون على منع تقدير صفة مجتهد
فيها له عز وجل لا يتوصل فيها إلى قطع بعقل أو سمع وأجمع المحققون على أن الظواهر
يصح تخصيصها أو تركها بما لا يقطع به من أخبار الآحاد والأقبيّة وما يترك بما لا يقطع به
كيف يقطع به؟ اهـ.

(٢) وكَم من شيء مقدور عليه لم يدخل في حيز الوجود فمن أين يدل عموم القدرة على أنه خالق
أفعال الحيوان؟ بل الدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَحْسِبُونَ﴾ (الصفّات: ٩٦)
وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (الزّعد: ١٦) وكَم لنا من براهين عقلية على ذلك لكن الناظم
بالغ الجهل ظاهر البلادة حتى في مثل هذه المسائل الظاهرة لصغار المتعلمين وحق مثله أن
يقرّح إيقافاً له عند حده فالمصنف معذور إذا قال عنه إنه حمار أو نيس.

عجب قد تقدم إنكاره على جهم وشيعته قولهم: إن العبد ليس بفاعل فما هذا التناقض^(١) ولعله نقل الكلامين تقليداً ولم يفهم معناهما فلذلك وقع التناقض بينهما ويكونان من كلامين.

ثم قال: فحقيقة القدر الذي حار الورى في شأنه هو قدرة الرحمن، واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد وقال شفى القلوب بلفظه.

وقال الناظم: «إن الجبرية والمكذنين بالقدر نظروا نظر الأعور» والكلام في ذلك يطول وليس هذا من أهله^(٢)، ولا هو متعلق به بل كلامه فيه فضول فيما لا يعنيه.

فصل

قال: «أَيُّكُونُ أعطي الكمال وما له ذاك الكمال أَيْكُونُ^(٣) إنسان سميع مبصر متكلم وله الحياة والقدرة والإرادة والعلم والله قد أعطاه ذاك وليس وصفه فأعجب من البهتان بخلاف نوم العبد وجماعه وأكله وحاجة بدنه إذ تلك ملزومات كون العبد محتاجاً وتلك لوازم النقصان وكذا لوازم كونه جسداً نعم، ولوازم الأحداث والإمكان يتقدس عنها وعن أعضاء ذي جثمان».

(١) نفى عن العبد كونه فاعلاً في مذهب الجهمية يعني الأشاعرة فيما سبق وأثبت هنا مذهباً لهم، وعذ اختيار العبد فاعلاً مناقضاً لاعتبار أن الله خالق لفعل العبد مع أن التناقض في كلامه نفسه كما شرحنا حيث نفى عنهم سابقاً ما أثبت لهم هنا، وأين التناقض بين كون الله خالقاً وبين كون العبد فاعلاً؟ فتدبر.

(٢) نرجو حضرات المغترين بهذا الناظم وتلح في الرجاء أن يقفوا هنا طويلاً ليفهموا مقدار تدوتهم الذي لا يرضون أن يكون بجانبه أحد من علماء الأمة في العلم، فما هم أولاء يسمعون الشيخ السبكي وهو الإمام الجليل في تفواه وفضله بقرر بصراحة أن ابن القيم ليس بأهل للكلام معه في مسألة من المسائل العادية، وإني أعود فأرجوهم أن يتأملوا طويلاً في كلمة هذا الإمام الكبير رضي الله عنه.

(٣) دليل اتصاف الله سبحانه بصفات الكمال من الكتاب والسنة والمعقول معروف عند أهله، وأما الطريق الذي سلكه الناظم في ذلك فليس في شيء من الأداء إلى ما يتوخاه، وإنما سلك هذا الطريق الغير النافذ ليحيل إلى العامة أن صفات الله من قبيل صفات العبد فلا مانع من أن يكون الباري ينظر بعين ويسمع بأذن... إلى آخر تلك المخاوي كما هو مذهبه في إثبات الصورة له تعالى مع أن تلك الصفات في العبد بالآلات وجوارح فهي في العبد مقرونة بالتقاصص والاحتياج، تعالى الله عن ذلك، فليتبه إلى دسائس الناظم.

عدم تمييز الناظم بين اللازم والملزوم

الجسدية والحدوث والإمكان يلزم منها ثلاثتها الاحتياج والنقص، فالنوم والجماع والأكل لوازم لذلك لا ملزومات^(١) وتقديسه عن الأعضاء مع إثباته قدمين كيف يجتمعان.

تخطيط الناظم في الصوت

قال: «والله ربي لم يزل متكلماً، هو قول ربي كله لا بعضه لفظاً ومعنى، ما هما خلقان».

أما كونه لم يزل متكلماً وقوله مع ذلك إنه لفظ وإنه غير مخلوق فكلام من لا يدري ما يقول^(٢).

قال: «لكن أصوات العباد مخلوقة، فإذا انتفت الوساطة كتكلم الله لموسى فالمخلوق نفس السمع^(٣) إلا المسموع، هذي مقالة أحمد - يعني ابن حنبل - ومحمد - يعني البخاري -».

(١) يا حضرات المفترين بآبئ القيم، اعملوا معروفاً مع أنفسكم وانظروا كيف لا يميز صاحبكم اللازم من الملزوم، أيكون حاله هكلنا في الجهل ويصل غروركهم به إلى أن تعتقدوا أنه الإمام الذي لا يساميه بل لا يدانيه إمام.

(٢) لأن اللفظ لا بد من أن يكون باعتبار وجوده الخارجي متعاقب الحروف فلا يتصور العاقل في مثله قدماً، نعم ليس للفظ باعتبار وجوده العلمي والنفسي تعاقب فيكون قديماً كما قال بذلك أحمد وتابعه ابن حزم، وهو الموافق لتحقيق القوم في الكلام النفسي، إلا أن وجوده أصلي بخلاف العلم فإنه بالإضافة إلى المعلوم. والناظم ليس بقاتل بما قال به أحمد كما يظهر من مواضع من نظمه فيكون قاتلاً بما هو غير معقول.

(٣) لا فرق بين موسى عليه السلام وبين غيره في خلق السمع فيهما، وأما المسموع فإن كان يريد به الصوت المكيف فكذلك، وإن كان يريد ما هو قائم بالله فجعل الإله أن يقوم به عرض سيال. والوارد في الكتاب أنه تعالى كلم موسى - بدون ذكر الصوت أصلاً - والتكلم لا يستلزم الصوت قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُلْكَمَهُ اللَّهُ إِلَّا بِرِئَاوَيْنِ لَوْ يَشَاءُ أَوْ بِرِئِيلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١] إذ لا صوت في الرحي إلى القلب والصوت في الثالث صوت الرسول دون المكلم فليكن الكلام من وراء حجاب كذلك وهو الذي حصل لموسى، فمهما كان النبي يسمعه صوت الرسول إليه يعد أن الله كلمه فلا يكون أي مانع من أن يعد موسى كلمه ربه إذ نودي من الشجرة، فأني زاتع يتصور حلول الله في الشجرة حتى يقول: إن الذي سمعه صوت الله؟ تعالى الله أن يكون كلامه صوتاً، والآية قاضية على جميع الأوهام في هذا البحث لمن أحسن التدبر فيها.

قلنا نعم نوافقه على ذلك على قول الأشعري إن الكلام النفسي يسمع ولا يلزم أن يكون هناك حرف وصوت ومن اعترف بكلام الله تعالى وأن موسى سمعه ولم يقل إنه حرف أو صوت أو غير ذلك بل وقف عند حده وعجزه وجهله ونزه الله تعالى عن صفات خلقه، سلم.

ثم قال في بيت الأخطل:

يا قوم قد غلط النصارى في الكلمة

ونظير هذا من يقول كلامه معنى قديم غير محدث والشر مخلوق وتلك حروفه ناسوته^(١).

أبصر هذه الجراءة وتشبيهه أقوال العلماء بأقوال النصارى وجهله وكذبه بأن الحروف كالناسوت. والمعنى قائم بذات الرب سبحانه وتعالى والألفاظ بالقارىء لا يتحد أحدهما بالآخر ولا يحل فيه كما يقول النصارى تعالى الله عن قولهم.

فصل

قال: «الكلام قيل بغير مشيئة، وإنه معنى إما واحد وإما خمسة معان، وقيل: إنه لفظ مقترن فالسين مع الباء، والذين قالوا بمشيئة صنفان أحدهما جعله خارج ذاته وهو قول الجهمية ومتأخري المعتزلة والثانية في ذاته وهم الكرامية، وهم نوعان أحدهما جعله مبدوءاً به حذراً من التسلسل فلذلك قالوا له أول والآخرين كأحمد ومحمد قالوا: لم يزل متكلماً^(٢) بمشيئة وإرادة.

(١) لم يفهم الناظم كلام القوم فشنع كما شاء، قاتل الله البلادة ما أفنكها.

ظن الناظم أن المراد بالمعنى معنى النظم فبنى عليه ما شاء، مع أن مرادهم بالمعنى هنا هو القائم بالله الشامل للخالق ومدلوله باعتبار وجودهما العلمي كما نص عليه أحمد في رده على ابن أبي داود، كما ذكر في كتاب السنة وغيره، فلا يكون للفظ الخارجي دخل أصلاً في القدم على مذهب إمامه نفسه، نعم يوجد من يسير سير النصارى في الحلول بين الذين تكلموا في القرآن وهو من يقول إن الصوت من المصوت قديم وإن الله تعالى قرأ على لسان كل قارىء كما ذهب إلى ذلك السالية، تعالى الله عما يقول الظالمون. والناظم من أقرب المبتدعة إليهم.

(٢) انترى الناظم عليهما تمويهاً وتحميلاً على لفظ مجمل ما لا يحتمله وهما كباني أهل السنة يقولان: إن الله منتصف بصفة الكلام أزلاً كاتصافه بياتي صفاته الأزلية وهو يتكلم متى شاء، وهما بعيدان من المباحكات الزائفة، والله سبحانه سريع الحساب وشديد العقاب أزلاً ولا يستلزم ذلك قدم البعث وهو سبحانه لم تحدث له صفة بخلق الخلق وهو خالق أزلاً قبل أن يخلق الخلق.

وتعاقب^(١) الكلمات.

هذا هو الذي ابتدعه ابن تيمية والتزم به حوادث لا أول لها، والعجب قوله مع ذلك إنه قديم، وحين النطق بالبلاء لم تكن السين موجودة، فإن قال النوع قديم وكل واحد من الحروف حادث عدنا إلى الكلام في كل واحد من حروف القرآن، فيلزم حدوثها وحدوثه، فالذي التزمه من قيام الحوادث بذات الرب لا ينجيهِ بل يردِّيه، وهذا آفة التخلُّط والتطفل على العلوم وعدم الأخذ عن الشيوخ.

كلام واف في أحاديث الصوت

ثم قال: «واذكر حديثاً في صحيح محمد ذاك البخاري فيه نداء الله^(٢) يوم معادناً بالصوت».

(١) فيكون محلاً للحوادث، تعالى الله عن ذلك، وابن تيمية تابع الكرامية في ذلك وأرى عليهم في الزيف بدعوى القدم النوعي في الكلام، مع أنه لا وجود للكلي إلا في ضمن الأفراد، فلا معنى لوصف النوع بالقدم بعد الاعتراف بحدوث كل فرد من أفراد وقد أطال العلامة قاسم بن قطلوبغا الحافظ فيما كتبه على المسامرة الكلام في ذلك فلا نطيل الكلام بما هو في متناول أيدي صغار التلاميذ. والناظم من أتبع الناس لابن تيمية في سخافاته، وقد نقل ابن رجب في طبقاته عن الذهبي في حق ابن تيمية أنه أطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا وجسر هو عليها اه، ليدر أمره بين أن يكون مصاباً في عقله أو دينه، فتباً لمن يتخذ مثله قدوة.

(٢) إن كان يريد حديث جابر عن عبد الله بن أنيس «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب... الحديث، فهو حديث ضعيف علقه البخاري بقوله ويذكر عن جابر دلالة على أنه ليس من شرطه ومداره على عبد الله بن محمد بن عقيل وهو ضعيف باتفاق، وقد انفرد عنه القاسم بن عبد الواحد وعنه قالوا إنه ممن لا يحتج به. وللحافظ أبي الحسن المقدسي جزء في تبيين وجوه الضعف في الحديث المذكور، وأما إن كان يريد حديث أبي سعيد الخدري «يقول الله يا آدم يقول لبيك وسعديك فينادي بصوت إن الله يأمرك... الحديث، فلفظ ينادي فيه على صيغة المفعول جزءاً بدليل «إن الله يأمرك» ولو كان على صيغة الفاعل لكان إني أمرك كما لا يخفى على أن لفظ (صوت) انفرد به حفص بن غياث وخالفه وكيع وجابر وغيرهما فلم يذكروا الصوت، وسئل أحمد عن حفص هذا فقال كان يخلط في حديثه كما ذكره ابن الجوزي، فأين الحجة للناظم في مثله؟ على أن الناظم نفسه خرج في حادي الأرواح - وفي هامشه إعلام الموقعين - (٢ - ٩٧) عن الدارقطني من حديث أبي موسى «يبعث الله يوم القيامة منادياً بصوت يسمعه أوله وآخرهم إن الله وعدهم... الحديث، وهذا يعين أن الاستناد مجازي على تقدير ثبوت الحديثين فظهر بذلك أن الناظم متمسك في ذلك بالسراب والمؤلف تساهل في الرد عليه وفي (القواصم والمواصم) لابن العربي ما يقصم ظهر

اللفظ الذي في البخاري (فينادي بصوت) وهذا محتمل لأن يكون الدال مفتوحة والفعل لم يسم فاعله وأن يكون مكسورة فيكون المنادي هو الله تعالى فتقله عن البخاري نداء الله ليس بصحيح، والعدالة في النقل أن ينقل المحتمل محتملاً، وإذا ثبت أن الدال مكسورة فلم يقل إن الصوت منه؟ فقد يكون من بعض ملائكته أو من يشاء الله.

ثم قال: «أصبح في عقل وفي نقل^(١) نداء ليس مسموعاً لنا».

أما العقل فلا مدخل له في ذلك وأما النقل فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّهُ نَبَلَّةَ حُفَيَّا﴾ [مریم: ٣].

ثم قال: «والله موصوف بذلك حقيقة هذا الحديث ومحكم القرآن».

ليس في الحديث ومحكم القرآن أنه حقيقة.

قال: «ورواه عندكم البخاري المجسم بل رواه مجسم فوقاني».

هذا بهت لنا في أن البخاري مجسم عندنا والله ما اعتقدنا فيه ذلك ولا في أحمد الذي عناه بالفوقاني ولكن هذا بهت لنا وإساءة على البخاري ومن فوقه.

ثم قال: «واذكر حديثاً لابن مسعود صريحاً إنه ذو أحرف».

هو حديث في الترمذي: من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة وقال حسن صحيح ووقفه بعضهم على ابن مسعود، وعلى كل تقدير الحرف في قراءة القاري، وقد تقدم من هذا الناظم أن الصوت فعل القاري فلا وجه لاحتجاجة هنا، ولابن مسعود حديث آخر أنه على سبعة أحرف، والمراد نزوله بها ثم قال: «وانظر إلى السور التي افتتحت بأحرفها لم يأت قط بسورة إلا أتى في أثرها خبر عن القرآن».

هذا متفرض بسورة «كهيعص» والعنكبوت والروم و«ن».

فصل

قال: «إنه يلزم من نفي صفة الكلام نفي الرسالة»^(٢).

(١) النداء طلب الإقبال عند النحاة واللغويين فيجري مجرى القول وكم في الكتاب والسنة مما يدل على القول والكلام بدون صوت كما نسرده بعض ذلك عند التدليل على الكلا النفسي وقول صاحب القاموس: النداء الصوت تسمع منه، وكم له من مسامحات معروفة عند أهل العلم.

(٢) وقد نعى الله سبحانه على أن تكليم الله سبحانه منحصر في الوحي إلى القلب وإرسال ملك يبلغ كلامه، والكلام وراء حجاب وليس في واحد منها صوت للمكلم سبحانه فمن أين يلزم =

وهو جهل منه وإن كنا لا ننفي صفة الكلام.

فصل

وقال: «إنه يلزمهم تشبيه الرب بالجماد الناقص».
وهذا بلاهة^(١).

فصل

قال: في إلزامهم^(٢) أن كلام الخلق حقه وباطله عين كلام الله سبحانه بخلفه أفعال العباد.
ما هذا إلا... .

فصل

في التفريق بين الخلق والأمر قال: «وكلاهما عند المنازع واحد».
المنازع هم المعتزلة، ولنا منهم، لكن قوله: إنهما عندهم^(٣) واحد ليس بصحيح.

= من نفي ما أثبتته المجسمة من حرف وصوت في الرسالة بل عذ الإله سبحانه محلاً للأعراض هو المستلزم لنفي الصانع فضلاً عن الرسالة، قاتل الله هذه الفئة السخيفة، ما أجهلهم بما يجوز في الله وما لا يجوز.

(١) اكتفى بوصفه بالبلادة لئلا يقع عليه الحكم بالكفر لو كان يعقل ما يقول، لأن إثبات الحرف والصوت لله تشبيه له بالإنسان وتشبيه الله بمخلوق كفر والصوت عرض سيال محال أن يقوم بالله سبحانه بل هو متكلم بكلام نفسي ليس له صوت.

(٢) وجه هذا الإلزام لا يظهر إلا لمن هو على شاكلة الناظم في تخيل ما هو غير معقول ولو ألزم القائلين بالحرف والصوت أن التالي قد يكون لاحقاً قبيح الأداء فلا يتصور في صفة الله سبحانه مثل ذلك ليطل القول بأن كلام الله حرف وصوت لكان قوله هذا ملزماً حقيقة وأما إلزام الناظم هنا فقلب للحقيقة بل هليان ظاهر وأمام هذا لم يسع المصنف إلا أن يخرج الناظم من عداد العقلاء ومن الصعب جداً على العالم خطاب من لا يفهم.

(٣) وهم يفرقون بين الأمر التكليفي والأمر التكويني، وقد ذكروا فيما آفوه في أصول الفقه ما هو موجب الأمر التكليفي. وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْفَتْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] يحتمل معاني ومن أجلها أنه هو الذي خلق الخلق وإليه فقط أن يأمرهم بما يشاء وأولو الأمر إنما يستمدون الأمر من أمره تعالى فلا يكون لآية دخل في هذا البحث أصلاً وإن كان بعضهم يلهج بذلك.

فصل

قال: «والله أخبر في الكتاب بأنه منه».

قلنا: الذي في الكتاب ﴿تَتَرَىٰ لَكِنَّا مِنَ اللَّهِ﴾ [الرؤى: ١]... ونحوه وليس فيها الكتاب منه.

ثم قال: «والمجروح (من)^(١) نوعان: عين ووصف قائم بالعين، فالعين خلقه والوصف قام بالمجروح».

قوله قائم بالعين ليس بصحيح فقد يكون قائماً بنفسه (٢).

فصل

وقيعة الناظم وشيخه في ابن حزم

قال: «وأتى ابن حزم فقال ما للناس قرآن ولا اثنان بل أربع كل يسمى بالقرآن وذلك قول بين البطلان. هذا الذي يتلى والمرسوم والمحفوظ والمعنى القديم فالشيء شيء واحد لا أربع فدهى ابن حزم^(٣) ملة القرآن».

هذا لم يفهم كلام ابن حزم، مراد ابن حزم أن القرآن هو المعنى وهو واحد له وجود في نفسه ويتلى ويرسم ويحفظ فيوجد في اللفظ والخط والصدر ويطلق على الثلاثة أيضاً قرآن فاللفظ مشترك بين الأربعة.

(١) يريد أن ما سبق على المجروح بـ«من» إما أن يكون عيناً أو وصفاً، فالعين مخلوقه تعالى، قال: والوصف قائم به تعالى لكن في العبارة ارتباك، وكذا عبارة المصنف فليحذر.

(٢) ومن المفسك المبكي وقيعة الناظم وشيخه في ابن حزم وهو إمامهما في غالب المسائل القرعية التي شذبا بها عن الجماعة وأنت تراهما يطعنان فيه طعناً رآ في المسائل الاعتقادية، وهو أقرب إلى الحق منهما في غالب تلك المسائل ولا سيما في مسألة القرآن وهو من المتزهين دونهما وهو عدو لدود للمجسمة حتى إنهم تراهم يبنون هذا الظاهري بالقرمطة، وفي الفصل أبحاث جيلة تتعلق بقمع أهل التجسيم لعلها تكون كفارة عن بعض قسوته وشلوذه ومخالفاته لجمهور العلماء وقول ابن حزم بكون القرآن مشتركاً بين تلك الأربعة موافق لكتاب الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مَلِكٌ يَتَنَبَّأُ فِي صُورِ اللَّيْلِ أَوَّلُ الْوَيْلَةِ﴾ [التكوير: ٤٩] وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مُدَبِّرُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [في تَجْزِئِ الْمُحْطَمِ] [البزج: ٢١، ٢٢] وقال تعالى: ﴿وَرَأَىٰ صَرْقَاتًا لِئَلَّهِ تَقَرَّبَ مِنَ اللَّيْلِ يَسْتَكْمِرُ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] فصدور العلماء والروح المحفوظ ولسان الرسول ﷺ مخلوقة مع ما فيها، فالقديم هو ما قام بالله سبحانه دون ما في الصدور والألواح والأكنة، وهذا في غاية من الظهور. وغلط ابن حزم إنما هو في قوله بعموم المشترك هنا.

ثم قال ما معناه: «إن اللفظ يطلق على المصدر ويطلق على الملفوظ وألفاظ العباد كذلك، فالأول مخلوق والثاني^(١) غير مخلوق وهو القرآن وعلى ذلك حمل كلام أحمد^(٢) والبخاري^(٣)».

الكلام اللفظي

قلنا أما المصدر فمخلوق بلا شك^(٤) وهو فعل العبد وأما الملفوظ من فم العبد فهو الصوت الخارج منه، المخلوق لله تعالى، وقولنا له كلام الله كما يقال إذا قرأ المحدث (إنما الأعمال بالنيات) هذا كلام النبي ﷺ وإذ قرئ كتاب ملك علينا نقول هذا كتاب الملك.

فصل

قال: في مقالة الفلاسفة والقرامطة:

هذا لا يتعلق بنا فعلهم غضب الله، ولكن غرضه أن يخلط الحق بالباطل حتى يروج^(٥) الباطل.

(١) يعني الملفوظ، فإن كان يريد وجوده العلمي في علم الله فقدّمه بهذا الاعتبار موضع اتفاق، وإن كان يريد الصوت الصادر من فم الالفاظ فهو حادث قطعاً، وأنى يتصور القدم لمرض محسوس المبدأ والمقطع ومنعّب الناظم اعتبار كلام الله صوتاً صادراً من الله حادثاً شخصاً قديماً نوعاً، تعالى الله عن ذلك. ولم يقل به أحد قبل شيخ الناظم وتابعه الناظم المسكين كما يظهر من مواضع في هذا الكتاب فنقله (والثاني غير مخلوق) لا يصح بالنظر إلى الصوت وهو ظاهر والله سبحانه هو الهادي.

الخلافاً بين أحمد والبخاري في اللفظ

(٢) والمعروف بين أهل العلم أن البخاري كان يقول بحديث اللفظ - يعني لفظ التالي الدال دون تعرض للمعنى المدلول عليه وضعاً أو عقلاً - وأحمد يبدع من يقول ذلك وتبديع هذا وقول ذلك متواردان على شيء واحد، والحق مع البخاري في تلك المسألة وإن كان الذهلي وأصحابه جميعاً هجروه على ذلك، راجع كتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم وليس بقليل بين أهل العلم الذين يقولون بأن المعنى المصدري أمر نسبي من قبيل الحال فنعتهم أن الالفاظ هو العبد وهو مخلوق الله والملفوظ هو الصوت المكيف الخارج من فم العبد وهو مخلوق الله تعالى أيضاً واللفظ بالمعنى المصدري نسبة بين الالفاظ والملفوظ فلا يتعلق به الخلق عندهم وقول الناظم والمصنف بخلقه على مذهب نفاة الحال. وتفصيل هذا البحث فيما كتبه على الاختلاف في اللفظ.

(٣) يعني عند نفاة الحال، راجع شرح المواقف.

(٤) هل بعد من علماء الإسلام بل من عامة المسلمين من يروج الباطل هو يعلم أنه باطل؟

فصل

قال: في الاتحادية:

هو من النمط الذي قبله.

ثم قال: «هذه مقالات الطوائف كلها فاعطف على الجهمية المغل الذين خرقوا سياج العقل والقرآن شرد^(١) بهم من خلفهم واكسرهم». ثم ذكر مذاهب المعتزلة ومذاهب الأشعرية وهما اللذان يسميهما الجهمية.

ثم قال: هذا الذي قد خالف المعقول والمنقول والفطرات للإنسان، أما الذي قد قال إن كلامه ذو أحرف قد رتب ببيان وكلامه بمشقة وإرادة كالفعل منه كلاهما^(٢) سيان فهو الذي قد قال قولاً يعلم العقلاء صحته بلا نكران، فلاي شيء كان ما قلنم أولى؟ ولاي شيء كفرتم أصحاب هذا القول؟ فدعوا الدعاوى وابحثوا معنا وارفوا مذاهبكم إن أمكن».

ليت شعري من هو الذي من العقلاء يعلم صحة كلام ذي أحرف مرتبة مفعول قديم ولكن هذا صبي العقل غره، هجاء على الحقائق بهواه.

(١) التشريد المذكور في الآية مأمور أن يوقمه النبي ﷺ بالكفار. ولينظر القارىء كيف يأمره حضرة الناظم أن يوقمه بجماعة المسلمين الأشاعرة وغيرهم من أجل أنهم لا يوافقونه في ضلاله.

(٢) هذا إنما يصح في الكلام اللفظي الحادث باعتبار وجوده الخارجي وأما باعتبار وجوده العلوي فقديم، كما سبق، قال أبو بكر الباقلاني في النقض الكبير: «من زعم أن السين من باسم الله بعد الباء والميم بعد السين الواقعة بعد الباء لا أول له فقد خرج عن المعقول وجحد الضرورة وأنكر البليهة، فإن اعترف بوقوع شيء فقد اعترف بأوليته، فإذا ادعى أنه لا أول له فقد سقطت محاجته وتعين لحوقه بالفسطة، وكيف يرجى أن يرشد الدليل من يتوابع في جحد الضرودي أنه راجع الشامل لإمام الحرمين ونجم المهتدي لأمين المعلم القرشي. وفي شعب الإيمان للحلي «ومن زعم أن حركة شفتيه أو صوته أو كتابته بيده في الورقة هو عين كلام الله القائم بذاته فقد زعم أن صفة الله قد حلت بلماته ومشت جوارحه وسكنت قلبه، وأي فرق بين من يقول هذا وبين من يزعم من النصارى أن الكلمة اتحدت بميسى عليه الصلاة والسلام أنه ليحفظ القارىء. هذا ثم أرجوه أن يقرأ قول الموفق الحنبلي صاحب المغني في مناظرته المسجلة في المجموعة المحفوظة تحت رقم ١١٦ بظاهرة دمشق ونصه «قال أهل الحق: القرآن كلام الله غير مخلوق، وقالت المعتزلة هو مخلوق، ولم يكن اختلافهم إلا في هذا الموجود دون ما في نفس الباري مما لا ندري ما هو ولا نعرفه».

وعن الموفق هذا يقول شيخ الناظم: ما حلّ دمشق مثله بعد الأوزاعي وأنت ترى كلامه في المسألة وإذا كان هذا حال الموفق فماذا تكون حال الناظم وشيخه؟.

ثم قال: «فاحكم - هداك الله - بينهم لا تنصرون سوى الحديث وأهله هم عكر القرآن. فنقول هذا القدر قد أعيا على أهل الكلام وقاده أصلاً، أحدهما: هل فعله^(١) مفعوله أو غيره، قولان والقائلون بأنه عينه فروا من الحدث في الصفات وحقيقة قولهم تعطيل الخالق عن فعله إذ فعله مفعوله لكنه ما قام به فعلى الحقيقة ما له فعل إذ المفعول منفصل عنه. والقائلون بأنه غير طائفتان: إحداهما قالت قديم قائم بالذات، سموه تكويناً، وهم الحنفية. والآخرون راوه حادثاً قام بالذات، وهم نوعان: أحدهما جعله مفتتحاً به حذراً من التسلسل وهو قول الكرامية، والآخرون أهل الحديث كأحمد^(٢) بن حنبل قال: إن الله لم يزل متكلماً إن شاء، جعل الكلام صفة فعل قائمة بالذات لم يفقد من الرحمن، وكذلك نص على دوام الفعل وكذا ابن عباس وجعفر الصادق (عثمان بن سعيد) الدارمي وصدق فالحياة والفعل متلازمان

(١) إن كان المراد بالفعل ما هو بالمعنى المصدرى من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُرِيدُ﴾ [نور: ١٠٧] فليس لي فرق الإسلام من ينفي الفعل بهذا المعنى عن الله سبحانه بل إثباته موضح اتفاق بين الفرق كلها وإن كان يريد ما هو مبدأ هذا المعنى فهو صفة قديمة غير الإرادة والقدرة عند طوائف من أهل الحق وهي المسماة عندهم بصفة التكوين، وأما الأماخرة فيرجعونها إلى القدرة وللقولين حظ من النظر وأما إن كان المراد بالفعل الفعل الحاصل بالمصدر أعني الأثر المترتب على التكوين أو القدرة فلا شك أنه مفعول الله ومخلوقه وغير قائم به أصلاً، فأفعال الله بهذا المعنى هي مخلوقاته حتماً، ودعوى قيامها بالله لا تصدر ممن يمي ما يقول ومن المجسمة أناس يظنون أن أفعال الله تكون بالحركة كأفعال العباد وتصدر منه بالعلاج والمزاولة مع أن الجوارح والآلات إنما وضعت للعباد ليتوصلوا بها إلى قصدهم وهي كلها نقص وآفات، وأما من له الحول والقوة جبل جلاله فإنما هو إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون بدون آلة ولا جراحة ولا علاج ولا مزاولة. يريد الشيء فيحدث. وبهذا البيان ظهر ما في كلام الناظم من الاختلال ووجوه الضلال.

(٢) نسبة القول بقيام الفعل الحادث بالله سبحانه إلى أحمد وجعفر الصادق وابن عباس رضي الله عنهم نسبة كاذبة وقرينة مكشوفة. وقول أحمد (إن الله لم يزل متكلماً إن شاء) بمعنى أن الكلام صفة قديمة وأنه تعالى يكلم أنبياءه متى شاء بدون حرف ولا صوت بالروحي ومن وراء حجاب أو بإرسال رسول «وهو متكلم خالق قبل أن يكلم الرسل ويخلق الخلق» كما صرح بذلك غلام الخلال من قدماء الحنابلة في المقنع، وأما عثمان بن سعيد الدارمي السجزي مؤلف النقض على المريسي فكان فيما سبق لا يخوض في صفات الله سبحانه كما هو طريقة السلف، ثم اتخذ بالكرامية وأصبح مجسماً مختل العقل عند تأليفه النقض المذكور، وهو حقيق بأن يكون قدوة للناظم ونسجل هنا على الناظم اعتقاده قيام الحوادث بذات الله سبحانه وتعالى واعتقاده أن هذه الحوادث لا أول لها، وإني ألقت نظر حضرة القاري إلى هذه العقيدة وهل تنفق مع دعوى أنه إمام دونه كل إمام؟ بل هل تنفق هذه العقيدة مع دعوى أنه في عداد المسلمين فقط؟.

وكل حي^(١) فعال إلا إذا عرضت آفة أو قسر، أولستَ تسمع قول كل موحد (يا دائم المعروف قديم الإحسان) أوليس فعل الرب تابع وصفه وكماله؟ أفذاك ذو حدثان؟ وكماله سبب الفعال وخلفه أفعالهم سبب الكمال الثاني، أوما فعال الرب عين كماله؟ أفذاك ممتنع على المنان أزلاً إلى أن صار فيما لم يزل ممكناً؟ تالله قد ضلّت عقول القوم إذ قالوا بهذا، وتخلف التأثير بعد تمام موجه محال والله ربي لم يزل ذا قدرة ومشية وعلم وحياة وبهذه الأوصاف تمام الفعل فلاي شيء تأخر فعله مع موجب^(٢) قد تم والله عاب على المشركين عبادتهم ما ليس بخالق ولا ينطق، والله إله حق دائماً، أفعتة الوصفان^(٣) مسلويان أزلاً، هذا المحال إن كان رب العرش لم يزل إله الخلق، فكذا لم يزل متكلماً فاعلاً - والله - ما في العقل ما يقضي لذا بالرد بل ليس في المعقول غير ثبوته، وما دون المهيمن حادث ليس القديم سواء والله سابق كل شيء ما ربنا والخلق مقترنان والله كان وليس شيء^(٤) غيره لسنا نقول كما يقول

الرد على عثمان بن سعيد في إثباته الحركة

(١) ليست حياة الله كحياة العباد ولا فعله تعالى كأفعالهم، وإدخال الله سبحانه في مثل هذه الكلية لا يصدر إلا ممن هو مريض القلب بمرض التشبيه، وعثمان بن سعيد هذا يصرح في نقضه المتقوض بأن كل حي فعال متحرك ويثبت لله الحركة ويظهر من ذلك كيف يتصور فعل الله، والتاظم بقندي بمثل هذا المخدوف، ولعل القاريء ازداد بصيرة وعلم من هذا الكلام بأن الحوادث لا أول لها في نظر هذا الناظم لأن حياة الله لا أول لها فيكون فعله لا أول له، وهذه المسألة من المسائل التي كثر علماء الإسلام الفلاسفة بها فليعرفه المغرورون بابن القيم ثم ليعرفوه.

الرد على قول الناظم بالإيجاب

(٢) وهذا تصريح منه بأن الله سبحانه فاعل بالإيجاب انخداعاً منه بقول الفلاسفة القائلين يقدم العالم وقد أتى أهل الحق ببيانهم من القواعد، وإن كان الناظم المسكين بعيداً عن فهم أقوال هؤلاء وأقوال هؤلاء. ثم يناقض الناظم نفسه ويثبت لله الاختيار وهو في الحالين غير شاعر بما يقول، تعالى الله عما يقول. وأرجو أن يفهم القاريء هنا معنى لا بد من اعتقاده وهو أن القائل بأن الله فاعل بالإيجاب في ناحية ودين الإسلام كله في ناحية، وأي مسلم يستطيع أن يقول إن ربنا مرغم على فعل ما يفعله.

(٣) ليس منذ خلق الخلق استفاد اسم الخالق ولا بإحداثه البرية استفاد اسم البارئ له معنى الربوبية ولا مربوب ومعنى الخالق ولا مخلوق وهكذا كما نقله الطحاوي عن فقهاء السلة لكن أين للمجسم المسكين أن يفهم هذه الحقائق.

(٤) والمسلمون جميعهم يعتقدون أن حياة الله لا افتتاح لها، وقد تقدم للناظم أنه يقول: إن كل حي فعال وإن الحياة والفعل متلازمان. ومعنى هذا أن الفعل لا افتتاح له أيضاً فإذن كيف يتفق قوله هذا السابق مع قوله هنا: «كان الله وليس شيء غيره» فليعرف ذلك أهل التورود بابن القيم ثم ليعرفوه.

اليوناني بدوام هذا العالم المشهود والأرواح في أزل وليس بفان، واندفع في ذكر التصير الطوسي لعنه الله فهو معذور فيه، لكنه لا فرق بينه وبين القائلين بقدوم العالم إلا أنه لا يقول بقدوم هذه الأجسام المشاهدة والأرواح وهذه الأجسام والأرواح كالحوادث اليومية التي أجمع كل عاقل على حدوثها، فلو جاء زنديق وقال إنه لم يزل أجسام وأرواح خلقاً من قبل خلق وإنه كان قبل هذه السماوات سماوات غيرها لا إلى نهاية، وأرواح غير هذه الأرواح لا إلى نهاية لم يكن بينه وبين هذا الناظم فرق إلا أن هذه في غير ذاته تعالى، وما قاله الناظم، بحدوثه في ذاته سبحانه وتعالى والتسلسل عنده جائز فبم يتكرر على الزنديق الذي يدعي ذلك؟ وأي فرق بين قوله وقوله؟ فإن التزم جوازهما فأى فرق بينهما وبين جرم هذه السماء^(١)؟ وقوله (تخلف التأثير بعد تمام موجبه) ففيه اعتراضان: أحدهما أن المؤثر خلاف الفاعل بالاختيار والله تعالى فاعل بالاختيار والثاني قوله (بعد تمام موجبه) إن أراد الإيجاب الذاتي فهو قول الفلاسفة والله فاعل بالاختيار، ومن ضرورة الفعل بالاختيار تأخر الفعل عن الاختيار، والتأخر يقتضي الحدوث فكيف يتخلص عن هذه اللكنة. [وإن أراد الوجوب عن الله فسياق العبارة ينافية].

فصل

القول في تجويز التسلسل في الماضي

قال: «فلئن زعتم أن ذاك تسلسل قلنا صدقتم وهو ذو إمكان كتسلسل التأثير في مستقبل، وهل بينهما^(٢) فرق؟ وأبو علي الجبائي وابنه أبو هاشم والأشعري وابن الطيب الباقلاني وجميع أرباب الكلام الباطل فرقوا وقالوا ذلك فيما لا يزال حق وفي الأزل ممتنع لأجل تناقض الأزلي والأحداث، فانظر إلى التلبس في ذا الفرق ترويجاً على العوران والعميان ما قال ذو عقل بأن ذا أزلي لذي ذهن ولا أعيان بل كل فرد فهو مسبوق بفرد ونظيره كل فرد ملحق بفرد فالآحاد تفتى والنوع^(٣) لا يفتى أزلاً

(١) ولعل المصنف لم ير جزء (حوادث لا أول لها) لابن تيمية إذ قوله فيه خطر جداً.

(٢) لو كان الناظم سعى في تعلم أصول الدين عند أهل العلم قبل أن يحاول الإمامة في الدين لبان له الفرق بين الماضي والمستقبل في ذلك، ولعلم أن كل ما دخل في الوجود من الحوادث متناه محصور وأما المستقبل فلا يحدث فيه حادث محقق إلا ويعدو حادث مقدر لا إلى غير نهاية بخلاف الماضي كما سبق وسيأتي كلام أبي يعلى وغيره في ذلك.

(٣) عدم فناء النوع في الأزل بمعنى قدمه، وأين قدم النوع مع حدوث أفراد؟ وهنا لا يصدر إلا =

وأبدأ وتعاقب الآتات ثابت في الذهن كذا في العين، فإن قلتم الآتات حادثة فيقال ماذا تعنون بالآتات؟ هل تعنون مدة من حين إحداث السماوات؟ ونظنكم تعنون ذلك ولم يكن قبلها شيء من الأكوان، هل جاءكم في ذلك من أثر ومن نص ومن نظر ومن برهان؟ إنا نحاكمكم إلى ما شئتم منها أوليس خلق الكون في الأيام أوليس ذلكم الزمان بعمدة، فحقيقة الأزمان^(١) نسبة حادث لسواء، واذكر حديث السبق بخمسين ألف سنة سابقة، وعرش الرب فوق الماء من قبل السنين بعمدة وزمان والحق أن العرش كان قبل القلم والذين لم يقولوا بدوام فعله^(٢) عموا عن القرآن والحديث ومقتضى العقول وفطرة الرحمن والبرهان وأسوا أصل الكلام وبنوا قواعدهم عليه وقادهم قسراً إلى التعطيل، نفى القيام لكل أمر حادث بالرب خوف تسلسل الأعيان

= ممن به من بخلاف المستقبل وقد سبق بيان ذلك، وقال أبو يعلى الحنبلي في المعتمد: «والحوادث لها أول ابتدأت منه خلافاً للملحدة له». وهو من أئمة الناظم فيكون هو وشيخه من الملاحقة على رأي أبي يعلى هذا فيكونان أسوأ حالاً منه في الزيغ نسأل الله السلامة.

الرد على كلام الناظم في الزمان

(١) بل الزمان متجدد معلوم يقدر به متجدد مبهم إزالة لإيهامه عند المتكلمين، وجوه مجرد عند بعض الفلاسفة، وعرض غير قار الذات عند جمهورهم أو هو الفلك الأعظم أو حركته أو مقدار تلك الحركة عند طوائف منهم، وقول الناظم لا يطابق واحداً منها والكلام في الزمان والمكان طويل الذليل مبسوط في موضعه، فكان الناظم يريد أن يقول: إن الزمان كان موجوداً قبل هذه السماوات بدليل تلك الأحاديث فلا مانع من وجود حوادث لا أول لها متعاقبة في الماضي في آتات متعاقبة لا أول لها، وهو قول الدهرية نفاة الصانع. فبا نرى ماذا يريد من كون العرش قبل القلم فإن كان أراد أن يجعل لله عرشاً يستقر عليه أولاً إما بقدم العرش قدماً نوعياً، كما روى الدواني عن ابن تيمية أو قدماً شخصياً لورود «أول ما خلق الله القلم» فحاشاه أن يستقر على عرش استقرار تمكن حادثاً كان العرش أو غير حادث. تعالى الله عن هذا وذاك. ولأهل العلم كلام واف في الأحاديث الواردة في أول ما خلق الله تعالى ولا غرض لنا بتعلق بذلك هنا. والعرش هو المخلوق الثالث عند محقق أهل العلم بالحديث.

(٢) القول بدوام فعله تعالى في جانب الماضي قول بحوادث لا أول لها، وقد سبق تسخيف ذلك مرات، قال القاضي أبو يعلى الحنبلي: «لا يجوز وجود موجبات لا نهاية لعددها سواء كانت قديمة أو محدثة خلافاً للملحدة، والدلالة عليه أن كل جملة لو ضمنت إليها خمسة أجزاء مثلاً لعلم ضرورة أنها زادت، وكذلك عند النقص، وإذا كان كذلك وجب أن تكون متناهية بجواز قبول الزيادة والنقصان عليها، لأن كل ما يأتي فيه الزيادة والنقصان وجب أن يكون متناهياً من جهة العدد» راجع المعتمد المحفوظ تحت رقم ٤٥ من التوحيد في ظاهرية دمشق وهذا بالنظر إلى الماضي كما سبق فتياً لمن يكون أسوأ حالاً في هذه المباحث من أبي يعلى المذكور حاله في دفع شبه التشبيه لابن الجوزي.

فيسد ذاك عليهم يزعمهم إثبات الصانع إذا أثبتوه بخلاف الأجسام، هذي نهايات أقدام الورى في ذا المقام الضيق فمن يأتي بفتح ينجي الورى من الحيرة» انتهى كلامه في هذا الفصل.

وقد صرح بقبائح منها إمكان التسلل ومنها نسبة أكابر علماء الأشعرية إلى التليس ومنها نسبة ذلك إلى القرآن والسنة وأنه لم يجرى أثر ينص على العدم المتقدم وقد جاء (كان)^(١) الله ولا شيء معه) والشئ يشمل الجسم والفعل والنوع والآحاد.

فصل

قال: «هذا»^(٢) الدليل هو الذي أرداهم ما زال أمر الناس معتدلاً إلى أن دار في الأوراق فرفعت لوازمه قواعد الإيمان وتركوا حق الأدلة وهي في القرآن ودليلهم لم يأت به الله ولا رسوله ﷺ بل حدث على لسان جهم وحزبه».

ينبغي أن يقال لهذا الردى انتصب للدليل حتى يرى ما عنده.

فصل

قال في الرد على الجهمية المعطلة القائلين بأنه ليس على العرش إله يُعْبَد ولا فوق السماوات إله يُصَلَّى له ويُسَجَد.

هذا المذبر يأخذ الكلام يقلبه كما يقلب الحقائق، فإنه جعل مصب كلام خصومه إلى نفي الإله وهم أثبتوا الإله ونفوا كونه فوق العرش وقوله (المعطلة) بوجه به أنهم معطلة العالم من الصانع وهو يريد به معطلة الخالق من قيام الفعل الحادث به فما أكثر تلبيسه^(٣) وتدليسه ومراده بالجهمية (المعتزلة والأشعرية) وليس أحد من

(١) أخرجه ابن حبان والحاكم وابن أبي شيبة عن بريدة وفي رواية ولا شيء غيره.

(٢) وهو القول بأن الجسم لا يخلو من حادث في الاحتجاج على حدوث العالم وانتهائه إلى محدث واجب الوجود منزّه عن الجسمية والجسمانيات، وهو حجة الله التي آتاه إبراهيم مهما تقولت المجسمة وهذت في ذلك، وقد اعترف بتلك الحجة مثل ابن حزم مع كونه ظاهرياً فما للناظم لا يتابعه في ذلك وهو يتابعه في شواذه الباطلة؟ فلمعله اتخذة قدوة في الباطل دون الحق.

(٣) وكيف يرضى العقال أن يعد من العلماء - وهم أمناء الله في أرضه - رجلاً كثير الفش لامة محمد ﷺ ككرة يتعجب منها أئمة الإسلام وليس هذا الفش في أمر من أمور الدنيا ولو كان هذا لهان الأمر ولكنه غش في صميم الإسلام فليعرف ذلك المفرورون بابن القيم ثم ليعرفوه.

المعتزلة اليوم عندنا ظاهراً فلا كلام له إلا مع الأشعرية الذين أكثر الخلق يقتدون بهم، يريد تنقيصهم والطعن فيهم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

قال: «والله كان وليس شيء»^(١) غيره وخلق البرية، فسل المعطل هل هي خارج ذاته أو فيها أو هو عينها لا رابع، ولذلك قال محقق القوم الذي رفع القواعد هو عين الكون فهو الوجود بعينه إن لم يكن فوق الخلائق إذ ليس يعقل بعد إلا أنه فيها كمقالة النصراني فاحكم على من قال لبس بخارج ولا داخل بأنه أوقع عليه^(٢) حد المعدوم، فإن زعم أن ذاك في الجسم، والرب ليس كذا فيقال هذا دعوى واصطلاح اليونان.

إن أراد بالدعوى نفى الجسمية عن الرب وبلاصطلاح ذلك فقد أظهر ما في نفسه، وإن أراد أن النفي إنما يصدق في الأجسام والظاهر أنه مراده فلا يقال فيه اصطلاح.

قال: «والشيء يصدق فيه عن قابل وسواء ولذا ينفي عنه الظلم المحال والنوم والسنة والطعم والولادة والزوجة، والله وصف الجهاد بأنه ميت أصم، ونفى عنه الشعور والنطق والخلق وهو لا يقبل، ولو سلم أن هذا شرط كان في الضدين لا في النقيضين ونفيكم لقبولهما يزيل الإمكان وهو كنفى قيامه بالنفس أو بالغير فإذا المعطل

(١) وهذا يناقض القول بحوادث لا أول لها ودوام الفعل في جانب الماضي، والناظم كم ينقض غزله وله هوى في إكفار الأمة بكل وسيلة، ولا أدري ماذا يكسب هذا المتهوس إذا لم يبق من الأمة مسلم سوى مكسري الحشوية. وبين الصوفية أنقياء أبرار يراهم أدق أوامر الشرع في جميع شؤونهم ويرون في الوجود ما لا يتنافى مع التكاليف الشرعية كما أن بين المتشوفة زنادقة إباحية، وإجراء الكلام في حق الفريقين يمجري واحد ليس من الإنصاف في شيء وكفى أن ينسب إليهم بعض بدع بدون تسرع في إكفارهم، وقال العلامة يوسف البحري من أجله أصحاب السيد مرتضى الزبيدي فيما علقه على (المجموع في المشهود والمسموع): إن الواجب له عز الوجوب والعظمة والكبرياء فهو منزّه عن اللواحق المادية والتعطيلات الإلحادية وإن الممكن له ذل الإمكان وحضارة الاحتياج إليه محفور مفهور محتاج إليه تعالى في وجوده ويقاله وجميع أطواره فلا ينقلب الواجب ممكناً ولا الممكن واجباً، بل الواجب خالق قادر غني والممكن مخلوق عاجز محتاج، فلا يكون أحدهما عين الآخر، وهذا بدعي وبه نزلت الكتب السماوية وجاء به الأنبياء والمرسلون ودعوا الناس إلى اعتقاده وقامت عليه البراهين واتحدت كشوف الأولياء مع طريق النظر في هذا المطلب اه ثم شرح كيف يضمحل الوجود الإمكاناني في نظر المقبل إلى الله بكلية.

(٢) من يعلم هذا البهجة الفناج أنواع التقابل والفرق بين الضدين والنقيضين؟ ومن يفهمه أن الخروج والدخول ضدان لا تقيضان قد يرتفعان عما ليس بجسم بخلاف النقيضين؟.

قال إن قيامه بالنفس أو بالغير باطل إذ ليس يقبلهما إلا جسم أو عرض فكلاهما ينفي الإله حقيقة ماذا يرد عليه من هو مثله في النفي صرفاً والفرق ليس بممكن لك والخصم يزعم أن ما هو قابل لهما كقابل لمكان فافرق أو أعط القوس باريها وخل الفشرة وكثرة الهذيان.

فهذا فشار كبير ممن لا يعرف الضدين ولا النقيضين ولا الإمكان ولا الامتناع، يا سبحان الله الدخول والخروج نقيضان أو نفي الوصف بهما يزيل الإمكان أو ينفي الإله؟ هذا خلط.

فصل

قال: في سياق هذا الدليل على وجه آخر إن نفي المعطل كون الإله خارج الأذهان بالغ في الكفر وإن أقر، فإن قال إنه عين الأكون قال بالاتحاد وجحد ربه، وإن قال غيرها، فإن قال الخلق في ذاته أو ذاته فيهم فهو قول النصاري، وإن قال قائم بنفسه فهو وغيره مثلاً أو ضدان أو غيران وعلى التقادير^(١) الثلاثة لولا التباين لم يكن شيئان فلنا إنكم باب من الاتحاد.

أسمع جمعية ولا أرى طحناً آخره مطالبة بأن ما ليس في حيز كيف يكون موجوداً.

(١) يلوك لسانه مصطلحات أهل المعقول من غير أن يفهم مرادهم ليظهر عند الحمقى بأنه جامع بين المعقول والمنقول، قاله القيران إذا اشتركا في تمام الساهية فهما مثلاً، وإلا فإن كانا وجوديين أمكن تمثيل أحدهما مع الدهور عن الآخر فهما ضدان، والتباين عندهم باعتبار الصدق أو التحقق لا بمعنى البينونة المفيدة إشغال هذا حيزاً غير حيز ذلك، والحاصل أنه جعل القسم قسماً وحمل التباين على التباين بالمساقاة وإشغال كل حيزاً غير حيز الآخر، وحاول أن يستتج من الدعوى المجردة ما يدعيه، ولو كان المسكين درس الطوائع مثلاً قبل أن يخوض في هذه المباحث عند عالم كالأصبهاني لما فضح نفسه بهذيان المحمومين، وحق للمصنف أن يقول في ثمرته الناظم أسمع جمعية ولا أرى طحناً. لأن معنى كلام الناظم: إن نفي المعطل الإله في خارج الأذهان فهو كافر، وإن أقر بوجوده بأن قال إنه عين الكون فهو اتحادي ملحد، وإن قال إنهما مثلاً أو ضدان أو غيران بدون اختلاف في الجهات فهو قائل بالاتحاد أيضاً. فبا نرى هل لهذا التخريف من معنى عند أهل البصيرة؟

فصل

نصوص عن ابن تيمية في الفوقية الحسية

قال: «ولقد أتناينا عشرة أنواع من المنقول في فوقية»^(١) الرحمن مع مثلها أيضاً يزيد بواحد، ها نحن نسردها بلا كتمان».

أخذ هذا الخلف سوء يذكر ما قاله شيخه في كتاب العرش وكأنه المقصود بهذا النظم فإنه أطال فيه.

قال: «هذا ومن عشرين وجهاً يبطل التفسير بـ (استولى) لذي العرفان قد أفردت بمصنف لإمام هذا الشأن بحر العالم»^(٢) الحراني.

(١) شيخ الناظم يريد بالفوقية الفوقية الحسية كما صرح به فيما رد به على الرازي حيث قال: «إن العرش في اللغة السرير وذلك بالنسبة إلى ما فوقه كالسقف بالنسبة إلى ما تحته، فإذا كان القرآن جعل لله عرشاً وليس هو بالنسبة إليه كالسقف علم أنه بالنسبة إليه كالسرير بالنسبة إلى غيره وذلك يقتضي أنه فوق العرش اهـ». ومثل هذه الفوقية لا يقول به إلا مجسم، ونقل البيهقي في مناقب أحمد عن رئيس الحنابلة وابن ريسها أبي الفضل التميمي أنه قال: «أنكر أحمد على من قال بالجسم وقال: إن الأسماء مأخوذة من الشريعة واللغة وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على ذي طول وعرض وسك وتركيب وصورة وتأليف والله تعالى خارج عن ذلك كله فلم يجز أن يسمى جسماً لخروجه عن معنى الجسمية ولم يجيء في الشريعة ذلك فيبطل انتهى». فالناظم وشيخه متقولان على الشرع وعلى اللغة وعلى إمامهما فضلاً عن باقي الأئمة، عاملهما الله بعلمه.

(٢) بل هو وارث علوم صابئة حوران حقاً، والمستلف من السلف ما يكسوها كسوة الخيانة والتلبس. وعن هذا الحراني - الذي اتخذه الناظم إماماً - يقول ابن حجر في الدرر الكامنة في ترجمته: «واستشعر أنه مجتهد قصار يرد على صغير العلماء وكبيرهم، قديمهم وحديثهم، حتى انتهى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فخطأه في شيء فبلغ الشيخ إبراهيم الرقي الحنبلي فأنكر عليه فلمع إليه واعتذر واستغفر وقال في حق علي كرم الله وجهه أخطأ في سبعة عشر شيئاً ثم خالف فيها نصوص الكتاب، منها اعتداد المتوفى عنها زوجها أطول الأجلين، وكان لتعصبه لمذهب الحنابلة يقع في الأشاعرة حتى إنه سب الغزالي فقام عليه قوم كادوا يقتلونه. وذكروا أنه ذكر حديث النزول فنزل عن المنبر درجتين فقال: كنزولي هذا فنسب إلى التجسيم. واختلف الناس فيه شيئاً، منهم من نسب إلى التجسيم لما ذكر في المقيدة الحموية التي ردها عليها ابن جهيل والواسطية وغيرها من ذلك، كقوله: إن اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقة لله وأنه مستوي على العرش بذاته قليل له يلزم من ذلك التحيز والانقسام فقال: أنا لا أسلم أن التحيز والانقسام من خواص الأجسام فالزم بأنه يقول بالتحيز في ذات الله تعالى، ومنهم من ينسب إلى الزندقة لقوله: إن النبي ﷺ لا يستأنث به. لأن في ذلك تنقيصاً ومنعاً من تعظيم رسول الله ﷺ، وكان أشد الناس عليه في ذلك النور البكري، فإنه لما عقد له المجلس =

= بسبب ذلك، قال بعض الحاضرين: يعزى فقال البكري: لا معنى لهذا القول فإنه إن كان تنقيصاً يقتل وإن لم يكن تنقيصاً لا يعزى، ومنهم من ينسب إلى النفاق لقوله في علي كرم الله وجهه ما تقدم، ولقوله إنه كان مخذولاً حشماً توجه وإنه حاول الخلافة مراراً فلم يزلها وإنما قاتل دون الرياسة لا للدبابة، وأن عثمان رضي الله عنه كان يحب المال. ولقوله أبو بكر رضي الله عنه أسلم شيخاً لا يدري ما يقول وعلي كرم الله وجهه أسلم صبياً والعصبى لا يصح إسلامه على قول. ونسب قوم إلى أنه كان يسمى في الإمامة الكبرى فإنه كان يلجج بذكر نورث ويطويه فكان ذلك مؤكداً لطول سجنه وله وقائع شهيرة، وكان إذا حوَّق وألزم يقول لم أرد هذا إنما أردت كذا فيذكر احتمالاً بعيداً اهـ.

والدور الكامنة من محفوظات دار الكتب المصرية وقد طبعت حديثاً بمعرفة دائرة المعارف بحيدر آباد الدكن وليس بين هؤلاء من ذكره بالإمامة والقعدة في الدين ومن اتخذ إماماً إنما اتخذ إماماً في الزيغ والشذوذ من غير أن يتهب ذلك اليوم الذي يدعى فيه كل أناس بإمامهم، فليجبر بذلك من ظن أن ابن حجر الصقلاني في صف المشين على إمامته على الإطلاق. وهذا كلام ابن حجر في هذا الزائف مع أنه لم يطلع على جميع مخازنه. ومن أثنى عليه من أهل السنة في بدا أمره قبل انكشاف السر عن بدعه الظلمة إنما أثنى عليه تشجيعاً له على العلم لما كانوا يرون فيه في مبدأ نشأته من القابلية للعلم كما كانوا يفعلون مثل ذلك مع كل ناشئ لكن لما تشعبت هموم ابن تيمية وتوزعت مواهبه في مختلف الأهواء وضاع صوابه بين أمواج البدع التي ارتضاها لنفسه تراجع كل من أثنى عليه من هؤلاء على توالي قته بين الأمة وتعايب أهواله المخزية وانقلبوا غده، ولولا مفارقاته في شتى العلوم التي يكفي واحد منها ليختص فيه أذكى العلماء لربما برع في علم يتفرغ له بعزيمة صادقة لكن جنى على نفسه بنشبت مساعيه وراه أهواء بشعة فأصبح في موضع هزة البارعين كلما اختبروه في علم من العلوم التي يدهي الإمامة فيها ومن أمثلة ذلك أن صفى الدين الأرموي المشهور كان طويل النفس في التقرير إذا شرع في وجه بقره لا يدع شبهة ولا اعتراضاً إلا وقد أشار إليه في التقرير بحيث لا يتم التقرير إلا ويعزى على المعترض مقاومة، وكان حضر حينما جمعت العلماء لأجل النظر في المسألة الحموية، ولما عقد المجلس لأجل امتحان ابن تيمية عما أورده في الحموية أخذ صفى الأرموي بقر المسألة على طريقتة البارعة ليقطع الطرق على ابن تيمية من جميع الوجوه فبدأ ابن تيمية يجعل عليه على عادته ويخرج من شيء إلى شيء على أمل أن يتفق عليه تشفيه لكن سقط في يده حيث قال له الصفى الأرموي: ما أراك يا ابن تيمية إلا كالعصفور حيث أردت أن أقبضه من مكان يفر إلى مكان آخر اهـ. وما ابن تيمية في نظر مثل الأرموي إلا كمصفورة في العلم وإن اتخذ الجبهة الأحرار إماماً بأن نبذوا الأئمة المتبوعين وراه ظهورهم حيث راجت عليهم ثورته الفارغة، ولا فرو فإن كل ساقطة لاقطة والطير على أشكالها تقع.

والمسألة الحموية هذه تتضمن القول بالجهة وحسب ابن تيمية بعد هذا المجلس بسبب هذه المسألة ونودي عليه في البلد وعلى أصحابه وعزلوا من وظائفهم، وهذه المسألة هي التي رد عليها العلامة ابن جهيل رداً مشبعاً، وقد علمت بذلك قيمة علم ابن تيمية عند البارعين من أهل العلم. وههنا لا بد من التنبيه على شيء وهو أنني كنت كتبت فيما علفت على دفع الشبه لابن =

قول أبي حيان في ابن تيمية

المصنف المذكور هو كتاب العرش لابن تيمية^(١) وهو من أقبح كتبه، ولما

= الجوزي في (ص ٤٧): (بل يروي عن نفسه أعني ابن تيمية) أنه نزل درجة وهو يخطب على المنبر في دمشق وقال: «ينزل الله كنزولي هذا» على ما أثبت ابن بطوطة من مشاهداته في رحلته. وقال الحافظ ابن حجر في (الدور الكامنة): «ذكروا أنه ذكر حديث النزول فنزل عن المنبر درجتين فقال: «كنزولي هذا» فنب إلى التجسيم اهـ. وهنا انتهى ما علقته على الموضوع المذكور.

وأما ما زاد على ذلك وهو: «ويقول بعض علماء دمشق بأنه رأى هذه الخطبة في مخطوط قديم بزيادة (لا) قبل (كنزولي) والله أعلم. فزيادة من الأستاذ الناشر اعتماداً على ما سمعه من الشيخ بدران الدوماني كأنه لم يكن يعرف مبلغ اجتراحه على المجازفات وإرسال الكلام بدون ميزان ولم تكن الجماعة تعتقد أن نزول الله كنزول ابن تيمية حتى يكون لهذا الكلام معنى ما ولأجل ما زيد في كلامي هنا نكت الشيخ خضر الشنيطي رحمه الله على في (استحالة المعية) وأنا بريء من تلك الزيادة، سامحه الله.

صيغة استاتبة ابن تيمية في الاستواء والصوت ومخطوط كبار العلماء

(١) وقد استتب مرات في أمور خطيرة وهو ينقض موثيقه وعهوده في كل مرة وأوردت هنا صورة من صيغ استاتبه كما هي مسجلة في (نجم المهتدي) لتكون عبرة للمعتبر وهي هذه:
«الحمد لله. الذي أعتقده أن القرآن معنى قائم بذات الله وهو صفة من صفات ذاته القديمة الأزلية وهو غير مخلوق وليس بحرف ولا صوت وليس هو حالاً في مخلوق أصلاً، لا ورق ولا حبر ولا غير ذلك، والذي أعتقده في قوله تعالى ﴿أَلَمْ نَخْلُقْ عَلَى الْمَرْثَى آسَتَيْنِ﴾ (طه: ٥) أنه على ما قال الجماعة الحاضرون وليس على حقيقته وظاهره، ولا أعلم كنه المراد به، بل لا يعلم ذلك إلا الله، والقول في النزول كالقول في الاستواء أقول فيه ما أقول فيه، لا أعرف كنه المراد به بل لا يعلم ذلك إلا الله وليس على حقيقته وظاهره كما قال الجماعة الحاضرون، وكل ما يخالف هذا الاعتقاد فهو باطل، وكل ما في خطي أو لفظي مما يخالف ذلك فهو باطل، وكل ما في ذلك مما فيه إضلال الخلق أو نسبة ما لا يليق بالله إليه فانا بريء منه، فقد برئت منه ونائب إلى الله من كل ما يخالفه. كته أحمد بن تيمية، وذلك يوم الخميس سادس شهر ربيع الآخر سنة سبع وسبعمائة.

وكل ما كتبه وقلته في هذه الورقة فانا مختار في ذلك غير مكروه. كته أحمد بن تيمية حبنا الله ونعم الوكيل».

وبأهلى ذلك بخط قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة ما صورته: اعترف عندي بكل ما كتبه بخطه في التاريخ المذكور، كته محمد بن إبراهيم الشافعي. وبخاصية الخط: اعترف بكل ما كتب بخطه، كته عبد القني بن محمد الحبلي، وبآخر خط ابن تيمية رسوم شهادات هذه صورته: كتب المذكور بخطه أعلاه بحضوري واعترف بمضمونه، كته أحمد بن الرفعة.

وقف عليه الشيخ أبو حيان^(١) ما زال يلعبه حتى مات بعد أن كان يعظمه. قال:

= صورة خط آخر: أقر بذلك، كتبه عبد العزيز النمرائي.

صورة خط آخر: أقر بذلك كله بتاريخه، علي بن محمد بن خطاب الباجي الشافعي.

صورة خط آخر: جرى ذلك بحضوره في تاريخه، كتبه الحسن بن أحمد بن محمد الحسيني. وبالحاشية أيضاً ما مثله: كتب المذكور أعلاه بخطه واعترف به، كتبه عبد الله بن جماعة.

مثال خط آخر: أقر بذلك وكتبه بحضوره، محمد بن عثمان البوريحي.

وكل هؤلاء من كبار أهل العلم في ذلك العصر، وابن الرفعة وحده له (المطلب العالي في شرح وسط الغزالي) في أربعين مجلداً وفي ذلك عبر. ولولا أن ابن تيمية كان يدعو العامة إلى اعتقاد ضد ما في صيغة الاستتابة هذه بكل ما أوتي من حول وحيلة لما استتابه أهل العلم بتلك الصيغة وما اقترحوا عليه أن يكتب بخطه ما يؤاخذ به إن لم يقف عند شرطه، وبعد أن كتب تلك الصيغة بخطه توج خطه قاضي القضاة البدر ابن جماعة بالعلامة الشريفة وشهد على ذلك جماعة من العلماء كما ذكرنا، وحفظت تلك الوثيقة بالخزانة الملكية الناصرية، لكن لم تمض مدة على ذلك حتى نقض ابن تيمية عهوده ومواريثه، كما هي عادة أئمة الضلال، وعاد إلى دهرته الضالة ورجع إلى عادته القديمة في الإضلال وكم له من فتن في مختلف التواريخ في سني ٦٩٨ و٧٠٥ و٧١٨ و٧٢١ و٧٢٢ و٧٢٦ وهي مدونة في كتب التواريخ وفي كتب خاصة، ومجرد تصور شوائده التي ألمنا ببعضها في هذا الكتاب يدل المسترشد النصف على ما ينطوي عليه من الزيف والإضلال الأعمى، والله سبحانه يتقّم منه.

والضريب أن أتباع هذا الرجل يسرون وراءه ويتشبهون به في إثارة الفلاقل والفتن بين الأمة بمواجهتها بالحكم على أفرادها بالشرك والزيف والكفر وعبادة الأوثان والطواغيت، يعنون أحباب الله الأنبياء والأولياء يقولون إن من يزورهم يكون عابداً للأوثان والطواغيت ومن هذا الطراز في زمنا كثير نراهم بأعيننا ونسمعهم بأذاننا، طهر الله الأرض منهم وأراح العباد من شرهم.

(١) قال أبو حيان الأندلسي الحافظ في تفسير قوله تعالى ﴿وَبِشْرَةِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٥) وقد قرأت في كتاب لأحمد بن تيمية هذا الذي عاصرنه وهو بخطه سماه كتاب العرش

«إن الله يجلس على الكرسي وقد أحلى مكاناً يقعد معه فيه رسول الله ﷺ، تحيل عليه محمد بن عبد الحق وكان من تحيله أنه أظهر أنه داعية له حتى أخذ منه الكتاب وقرئنا ذلك فيه» كما ترى في النسخ المخطوطة من تفسير أبي حيان وليست هذه الجملة بموجودة في تفسير الحبر المطبوع، وقد أخبرني مصحح طبعه بمطبعة السعادة أنه استظفها جداً وأكبر أن ينسب مثلها إلى مسلم فحفظها عند الطبع لئلا يستغلها أعداء الدين، ورجاني أن أسجل ذلك هنا استدراكاً لما كان منه ونصيحة للمسلمين.

وقد علمت العوائق في خدورهم حكاية هجر أبي حيان لابن تيمية لهذا السبب بعد أن كان تسرع في إطاره، وإطراره مدون في الرد الوافر لابن ناصر الدين الدمشقي وأما نقول بعض المدهاتين بأنه إنما كان هجره لوقوعه في سبويه حيث قال: أكان سبويه نبي النحو وقد غلط في كيت وكيت. فرجم بالغيب أما تصريح أبي حيان صاحب القصة، نعم هذا تهور وقلة أدب من ابن تيمية وما هي قيمة نحوه في جانب استبحار سبويه وأبي حيان في النحو، وإن كان لكل إمام غلطات معدودة في علمه لكن وقوعه في سبويه في جنب الوقوع في الله سبحانه ليس =

«منها استوى»^(١) في سبع آيات بغير لام ولو كانت بمعنى استولى لجاءت في موضع».

وهذا الذي قاله ليس بلازم فالمجاز قد يطرد وحسنه أن لفظ استوى أعذب وأخصر وليس هذا من الاطراد الذي يجعله بعض الأصوليين من علامة الحقيقة، فإن ذلك هو الاطراد في جميع موارد الاستعمال والذي حصل هنا اطراد استعمالها في آيات فأين أحدهما من الآخر، ثم إن استوى وزنه افتعل فالسين فيه أصلية واستولى وزنه استعمل فالسين فيه زائدة ومعناه من الولاية فهما مادتان متغايرتان في اللفظ والمعنى، والاستيلاء قد يكون بحق وقد يكون بباطل والاستواء لا يكون إلا بحق والاستواء صفة للمستوي في نفسه بالكمال والاعتدال، والاستيلاء صفة متعددة إلى غيره فلا يصح أن يقال استولى حتى يقول على كذا، ويصح أن يقول استوى ويتم الكلام، فلو قال استولى لم يحصل المقصود، ومراد المتكلم الذي يفسر الاستواء بالاستيلاء التنبيه على صرف اللفظ عن الظاهر الموهم للتشبيه واللفظ قد يستعمل مجازاً في معنى لفظ آخر ويلاحظ معه معنى آخر في لفظ المجاز لو عبر عنه باللفظ الحقيقي لاختل المعنى وقد يريد المتكلم أن الاستواء من صفات الأفعال كالاستيلاء المتمحض للفعل من كل وجه ويكون السبب في لفظة الاستواء عذوبتها واختصارها فقط دون ما ذكرناه ولكن ما ذكرناه أحسن وأمكن مع مراعاة معنى الاستيلاء. وانظر قول الشاعر:

قد استوى قيس على العراق من غير سيف ودم مهراق

= بشيء مذكور لحمل هجره الدائم على خلاف ما ذكره الهاجر ليس شأن من يخاف الله، ويتوخى مرضيه. بل ذلك شأن المخدوعين المفتونين.

(١) ويقال لهذا المتعلم بل لو كان (استوى) بمعنى (جلس) لأثنى لفظ (جلس) في أحد المواضع السبعة.

ومما يقصر المسافة في الرد على العشوية التي تدعي التمسك بالظاهر أن قوله تعالى: ﴿لَمْ أَكُنْ مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٩] صيغة فعل مقرونة بما يدل على التراخي وذلك يدل على أن الاستواء فعل له تعالى متبدي بالزمن والتراخي شأن سائر الأفعال ومع ذلك صفة إخراج للكلام عن ظاهره وهذا ظاهر جداً ولم يرد (المستوى) في عداد أسماء الله الحسنى لا في الكتاب ولا في السنة حتى يصح إطلاقه على الذات العلية على أن يكون صفة أو علماً. وقد أجمعت الأمة على أن الله تعالى لا تحدث له صفة فلا مجال لعد ذلك صفة وقد ذكرت وجه حسن الاستعارة التشبيلية في الآية (في لفت اللحظ إلى ما في الاختلاف في اللفظ) ولعل القارئ المنصف بكاد يعد ذلك متعيناً ولا حاجة إلى إعادة من هناك، فليراجع ثمت.

ولو أتى بالاستيلاء لم يكن له هذه الطلاوة والحسن، والمراد بالاستواء كمال الملك هو مراد القائلين بالاستيلاء، ولفظ الاستيلاء قاصر عن تأدية هذا المعنى، فالاستواء في اللغة له معنيان أحدهما استيلاء بحق وكمال فيقيد ثلاثة معان ولفظ الاستيلاء لا يفيد إلا معنى واحداً، فإذا قال المتكلم في تفسير الاستواء الاستيلاء مراده المعاني الثلاثة وهو أمر يمكن في حق الله سبحانه وتعالى فالمقدم على هذا التأويل لم يرتكب محذوراً ولا وصف الله تعالى بما لا يجوز عليه والمفروض المنزه لا يقدم على التفسير بذلك لاحتمال أن يكون المراد خلافه وقصور اتهامنا عن وصف الحق سبحانه وتعالى مع تنزيهه عن صفات الأجسام قطعاً، والمعنى الثاني للاستيلاء في اللغة الجلوس والقعود، ومعناه مفهوم من صفات الأجسام لا يعقل منه في اللغة غير ذلك والله تعالى منزّه عنها، ومن أطلق القعود وقال إنه لم يرد صفات الأجسام قال شيئاً لم تشهد به اللغة فيكون باطلاً وهو كالمقر بالتجسم^(١) المنكر له فيؤاخذ بإقراره ولا يفيد إنكاره واعلم أن الله تعالى كامل الملك أزلاً وأبداً، ولكن العرش وما تحته حادث، فإن قوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] لحدوث العرش لا لحدوث الاستواء.

فصل

قال: «وثانيها لفظ العلمي والأعلى^(٢) والعلو بمطلقه عام ونفيه نقص وعلوه فوق

(١) والإقرار بتجويز الجسمية بكل صراحة موجود في كلام شيخه فيما ردّ به على الفخر الرازي كما سبق، بل لصاحب الفرج بعد الشلة الشيخ محمد المنجي الحنبلي من أخص تلاميذ الناظم رسالة في الرد على من ينفي المماساة بكل وقاحة، وما تخفي صدور هؤلاء أكبر فالمؤمن الرشيد يجب عليه أن يتوقى من الوقوع في هاوئهم والمسألة مسألة كفر وإيمان وستنقل نصواً من الكتابين المذكورين في مواضع تحذيراً للمفتريين.

(٢) العلو ومشتقاته من صفات التنزيه تعالى الله عما يصف به المجسمة، والحمل على علو المكان نزعة وثنية، قال ابن تيمية في التأسيس: «والباري سبحانه وتعالى فوق العالم فوقية حقيقة ليست فوقية الرتبة كما أن التقدم على الشيء قد يقال إنه بمجرد الرتبة كما يكون بالمكان مثل تقدم العالم على الجاهل وتقدم الإمام على السامع فتقدم الله على العالم ليس بمجرد ذلك بل هو قبلية حقيقة وكذلك العلو على العالم قد يقال إنه يكون بمجرد الرتبة كما يقال العالم فوق الجاهل وعلو الله على العالم ليس بمجرد ذلك بل هو عال عليه علواً حقيقياً وهو العلو المعروف والتقدم المعروف اهـ. فهل يشك عاقل أن ابن تيمية يريد بذلك الفوقية الحسية والعلو الحسي، تعالى الله عما يافكون، واستعمال العلو ومشتقاته في اللغة العربية بمعنى علو الشأن في غاية من الشهرة رغم نقول المجسمة.

الخلقة كلها فطرت عليه الخلق» فيقال أسماء الله قديمة فإن لزم من العلى والأعلى كونه فوق جسم لزم قدم العالم والذي فطرت عليه والبديهة التعظيم إلى أعلى غاية.

فصل

كلمة ابن تيمية في العلو والفوقية والرد عليه

قال: «وثالثها صريح الفوق»^(١) مصحوباً بمن ويدونها أحدهما قابل للتأويل والأصل الحقيقة والمجورور لا يقبل التأويل وأصح لفائدة جليل قدرها إن الكلام إذا أتى بسياقه يبدي المراد أضحي كنص قاطع».

فيقال المجورور أولى بالتأويل لأن قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [التحل: ٥٠] يحتمل أن المراد خوفاً من فوقهم وليس في سياق الكلام ما يبدي المراد الذي ادعاه فإين الفائدة؟ والفوقية بمعنى القهر وعلو القدر متفق عليها والجهة هي عين النزاع ويلزم منها قدم الجهة.

فصل

قال: «ورابعها عروج الروح والملائكة في سورتي السجدة والمعارج قالوا هما بزمان وعندي يوم واحد وعروجهم فيه إلى الديان فالألف مسافة نزولهم وصعودهم إلى السماء الدنيا والخمسون ألف من العرش إلى الحضيض الأسفل».

فيقال له في الآيتين ﴿إِلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٧٨] فعلى قوله يكون الله في مكانين أحدهما في السطح التحتاني من السماء الدنيا لأنه نهاية الألف والثاني في العرش ثم إن المسافة

(١) ينص شيخه في كتابه المذكور على أن المراد بالفوقية الفوقية الحية فكأنه لم يتل في كتاب الله ﴿يَدُّ اللَّهِ قَرَّةٌ أَبَدِيَّةٌ﴾ [الفتح: ١٠] و﴿وَنَزَّوْتُ عَلَىٰ هِيءٍ مَكِينٍ﴾ [يوسف: ٧٦] والمراد بالفوقية فوقية العزة والقهر والتنزه. والله فوق ذلك» في حديث الترمذي بمعنى أنه يعلم عن مدارك البشر بدليل ما في سنن الترمذي أيضاً من حديث «لو فليمن» قال ابن جهيل: الفوقية ترد لمعنيين: أحدهما نية جسم إلى جسم بأن يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل بمعنى أن أسفل الأعلى من جانب رأس الأسفل، وهذا لا يقول به من لا يجسم، وثانيهما بمعنى المرتبة كما يقال الخليفة فوق السلطان والسلطان فوق الأمير، وكما يقال: جلس فلان فوق فلان والعلم فوق العمل والصياغة فوق الدباغة. قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ قَرَدًا بَعْضًا دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢] ولم يطلع أحدهم فوق أكتاف الآخر وقال تعالى عن القبط: ﴿وَإِنَّا قَوْلَهُمْ قَهْرٌ﴾ [الأعراف: ١٢٧] وما ركبت القبط أكتاف بني إسرائيل ولا ظهورهم اهـ. فظهر بذلك بطلان التسلك بكلمة فوق في الآيات والأحاديث في إثبات الجهة له تعالى الله عن مزاعم المجسمة.

إذا فصلت على أن بين السماء والأرض خمسمائة عام وكذا ثخانة كل سماء وما بين كل سماء وسماء لا يبلغ هذا المقدار وهذا لا يتعلق بفرضنا، والمتعلق بفرضنا إلزامه بظاهر قوله: ﴿إِيَّايَ﴾ [البقرة: ١٧٨] مع التزامه أن الغاية في المكان وكون ما بين السماء والأرض خمسمائة عام روي بطرق ضعيفة وفي الترمذي من رواية العباس في حديث الأوعال إما واحدة وإما اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة وهو يوافق قول أهل الهيئة وهذا يرجح أنهما يومان: أحدهما في الدنيا إلى العرش ألف سنة والثاني يوم القيامة خمسون ألف سنة من الشدة وقد جاء أن في الجنة مائة درجة بين كل درجتين مائة عام في رواية وفي رواية كما بين السماء والأرض (وكلاهما في الترمذي والفردوس أعلى الجنة وفوقه العرش فهذه المسافة أكثر من عشرة آلاف سنة)^(١).

فصل

قال: «وخامسها صعود كلامنا^(٢) والصدقة والحفظة والسعي والمعراج^(٣) وعيسى وروح المؤمنين ودعاء المضطر ودعاء المظلوم».

وقال في المعراج: «وقد دنا منه إلى أن قدرت قوسان».

وقد علم كل واحد اختلاف المفسرين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] فكيف يستدل به وعيسى في السماء الرابعة ليس على العرش، ورفع الصدقة والكلام وشبههما من المعاني ليس بالانتقال من مكان إلى مكان لأن المعاني لا تنتقل.

فصل

حديث النزول

قال: «وسادسها وسابعها النزول^(٤) والنزول».

(١) ما بين القوسين في هامش الأصل.

(٢) قال ابن جهيل: الصعود كيف يكون حقيقة في الكلام؟ مع أن الصعود في الحقيقة من صفات الأجسام فليس المراد إلا القبول اهـ وهذا ظاهر جداً.

(٣) قال ابن جهيل: لم يرد في حديث المعراج أن الله فوق السماء أو فوق العرش حقيقة ولا كلمة واحدة من ذلك وهو لم يرد حديث المعراج ولا بين وجه الدلالة منه حتى نجيب عنه فلو بين وجه الدلالة لعرفنا كيف الجواب اهـ.

(٤) قاتل الله الجهل، ما أفنكه، فمن الذي يجهل استمرار الثلث الأخير من الليل في البلاد باختلاف =

وتنزيل القرآن لتزول جبريل به من جهة العلو.

فصل

قال: «وثامنها رفيع الدرجات وفعليل بمعنى المفعول».

ما بقي من تخلف هذا النحس إلا أن يجعل الله سلماً يصعد وينزل في درجاته، تعالى الله عما يقول. يحمل على اللفظ فوق ما يحتمله ويفهم منه غير مراده فسحقاً له.

فصل

«وتاسعها فوق السماء»^(١).

فصل

قال: «وعاشرها الملائكة الذين هم عند الرحمن وكُتَّاب رحمته عنده فوق العرش وسائر الأشياء ليست كذلك».

من هم الملائكة الذين هم معه في المكان وجبريل يتأخر عن المكان الذي وصل إليه النبي ﷺ؟

فصل

الإشارة إلى رفع الأيدي إلى السماء

قال: «وحادي عشرها إشارة النبي ﷺ بأصبعه في الموقف لله»^(٢).

المطالع حتى يحمل النزول إلى السماء الدنيا على النزول الحسي، وقد حمل حماد بن زيد النزول في الحديث على معنى الإقبال ومن أهل العلم من حمل الحديث على أن الإسناد فيه مجازي من قبيل الإسناد إلى السبب الأمر ويؤيده حديث أبي هريرة في سنن النسائي وفيه «ثم يأمر متأدياً يقول هل من داع فيستجاب له». وليس في استطاعة من يخاف الله غير أن يفوض معنى النزول إلى الله مع التنزيه أو أن يحمل الحديث على المجاز في الطرف أو في الإسناد، بل الأخير هو المتعين لحديث النسائي المذكور فيخرج حديث النزول من عداد أحاديث الصفات بالمرة عند من فكر وتدبر تعالى الله عن النقلة التي يقول بها المجسمة.

(١) يريد حديث الرقية وفي لفظ الناظم تغيير للفظ الحديث وسأتي بيان ذلك والرد عليه.

(٢) أين في الحديث ذكر الإشارة إلى الله؟ وهكذا تكون أمانة مثل الناظم وشيخه في النقل؟ وهل صدر منه ﷺ في خطبة عرفات سوى أن رفع أصبعه ثم نكبها إليهم وهل في ذلك دلالة على أن رفعه كان ليشير به إلى جهة الله سبحانه؟ تعالى الله عن ذلك. والخطيب يرفع يده وينكبها =

جوابه: إن القلب متوجه إلى الرب العالي قدراً وقهراً على كل شيء والإشارة إلى جهة العلو التي هي محل ملكه وسلطانه وملائكته والعلمين عن خلقه، وقبلة دعائه ومنزل وجهه وهكذا رفع^(١) الأيدي في الدعاء.

فصل

قال: «وثاني عشرها وصفه تعالى بالظاهر وفسر في الحديث (أنت الظاهر فليس فوقك شيء)».

يقال لهذا المدبر إن كان الظاهر يقتضي الفوقية الحسية فاسم الباطن يقتضي التحتية الحسية - تعالى الله.

فصل

دعوى الناظم في الرؤية بدون مقابلة

قال: «وثالث عشرها إخباره أنا نراه في الجنة وهل نراه إلا من فوقنا»^(٢) ودعوى

كيف يشاء في أثناء خطبه. وجعل ذلك حجة في شيء لا يصدر إلا ممن في قلبه مرض على أن الأرض كرية فالواقف في شرق الأرض تكون إخمصه في مقابلة إخمص الواقف في غرب الأرض، ومن ضرورة ذلك أن يكون سمتا رأسهما إلى جهتين متعاكستين فتكون إشارة أحدهما إلى جهة تعاكس الجهة التي يشير إليها الآخر، وهكذا، وكرية الأرض منصوطة في الكتاب والستة كما في فصل ابن حزم والمتكر لذلك ليس بمتكر لقول أهل الهيئة فقط، ولا للمحسوس فقط. ونسي الناظم الاستدلال في هذا الصدد بالإشارة في التشهد ١٩

(١) ورفع الأيدي إلى السماء لأجل أن السماء منزل البركات والخيرات لأن الأنوار إنما تنزل منها والأمطار، وإذا ألف الإنسان حصول الخيرات من جانب مال طبعه إليه فهذا المعنى هو الذي أوجب رفع الأيدي إلى السماء وقال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَلْيَدِي إِلَى السَّمَاءِ وَإِنِّي لَمُبْسُطٌ كَفِّي﴾ [الذاريات: ٢٢] ذكره ابن جهيل فيما رد به على العقيدة النحوية لابن تيمية وهذا الرد يحق أن يكتب بهاء الذهب، ومن حاول الرد عليه من الحشوية فقد وقع على أم رأسه وكتاب ابن جهيل حقه أن يفرد بالطبع من طبقات ابن السكيت - ونسخة مخطوطة من كتاب ابن جهيل هذا توجد بمكتبة (لا له لي) بانطبول.

(٢) قال: «إذ رؤية لا في مقابلة من الرائي محال ليس في الإمكان». وهذا صريح في أنه لا يرى رؤية لا يكون المرئي فيها في مقابلة الرائي فلا يكون أصرح من هذا في القول بالتجسيم ومن جملة ما يهذي به الناظم في شفاء العليل (١٥٩): «كيف يصح عند ذي عقل، مرئي يرى بالأبصار عيناً لا فوق الرائي ولا تحته ولا عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه ولا أمامه، اهـ وهذا مثل ما هنا وهو من أبعد الناس عن نفق الرؤية فيكون مجسماً صريحاً، ورؤية الله كما يرى القمر في ليلة البدر يقول عنها ابن قتيبة في (الاختلاف في اللفظ) لم يقع التشبيه فيها على =

سواها مكابرة ولذا قال محقق منكم للمعتزلة ما بيننا خلف فاحملوا معنا على المجسمة إذ قالوا يرى كما يرى القمران فيلزمهم العلو وليس فوق العرش رب هذا الذي والله مودع كتبهم».

ينبغي أن يحضر هذا النحس ويلزم بأن يخرج من كتبهم أنه ليس فوق العرش رب ولن يجده في كتبهم أبداً وتوهمه أنه لا يرى إلا من فوق لقصور عقله. ونقله اتفاقنا مع المعتزلة لعدم فهمه بل بيننا وبينهم وفاق وخلاف فقوله: ما بيننا وبينكم خلف كذب علينا.

فصل

بسط الكلام في السؤال بـ «أين» في حديث الجارية

قال: «ورابع عشرها أين الله في كلام النبي ﷺ في حديث معاوية بن الحكم وفي تقريره لمن سأله رواه أبو رزين».

أقول: أما القول فقوله ﷺ للجارية «أين»^(١) الله؟ قالت: في السماء» وقد تكلم

= حالات القمر من التدوير والمسير والحدود وغير ذلك وإنما وقع التشبيه في أن إدراكه يوم القيامة كإدراكنا القمر ليلة البدر لا يختلف في ذلك كما لا يختلف في هذا، والعرب تضرب بالقمر المثل في الشهرة والظهور اه فعار على الناظم وشيخه أن يغيب عنهما ما لم يغيب عن مثل ابن قتيبة، لكن الهوى يعمي ويصم، وكلامهما ينسب عن تشبيه المرئي بالمرئي بل عادة ابن تيمية تهوين شأن التشبيه حتى تجده يقول فيما رده به على الرازي (٢٤ - الكواكب) «ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ولا كلام أحد من الصحابة والتابعين ولا الأكابر من أتباع التابعين ذم المشبهة وذم التشبيه ونفي مدح التشبيه ونحو ذلك وإنما اشتهر ذم هذا من جهة الجهمية اه» كأنه لم يزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقوله تعالى: ﴿أَشْأَى يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [الحل: ١٧] وهو الذي يروي عن ابن راهويه في موضع آخر من ذلك الكتاب «من وصف الله تشبه صفاته بصفات أحد من خلقه فهو كافر بالله العظيم» ويروى أيضاً مثله عن نعيم بن حماد في موضع آخر وهو من أئمتهم بل يروي عن الإمام أحمد نفسه «لا يشبهه شيء من خلقه» في موضع آخر من كتابه المذكور وهذا مما يدل على وقاحتها البالغة وقلة دينه، وهل أدل على قلة عقل الرجل من تناقضه في كتاب واحد؟ والله يتقن منه.

(١) ورواي هذا الحديث عن ابن الحكم هو عطاء بن يسار وقد اختلفت ألفاظه فيه ففي لفظ له «فعد النبي ﷺ يده إليها وأشار إليها مستفهماً مَنْ في السماء... الحديث، فتكون المحادثة بالإشارة على أن اللفظ يكون ضائعاً مع الخرساء الصماء فيكون اللفظ الذي أشار إليه الناظم والمؤلف لفظ أحد الرواة على حسب فهمه لا لفظ الرسول ﷺ. ومثل هذا الحديث يصح الأخذ به فيما يتعلق بالعمل دون الاعتقاد، ولذا أخرجه مسلم في باب تحريم الكلام في الصلاة =

= دون كتاب الإيمان - حيث اشتمل على تشميت العاطس في الصلاة ومنع النبي ﷺ عن ذلك، ولم يخرج البخاري في صحيحه وأخرج في جزء خلق الأفعال ما يتعلق بشميت العاطس من هذا الحديث مقتصرًا عليه دون ما يتعلق بكون الله في السماء بدون أي إشارة إلى أنه اختصر الحديث وليس في رواية الليثي عن مالك لفظ «فإنها مؤنة». وأما عدم صحة الاحتجاج به في إثبات المكان له تعالى فللمبرهين القائمة في تنزه الله سبحانه عن المكان والمكانيات والزمان والزمانيات، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٣] وهذا مشعر بأن المكان وكل ما فيه ملك لله تعالى، وقال تعالى: ﴿وَلَمْ يَمَّا سَكَنَ فِي الْكُلِّ وَاتَّخَذَ﴾ [الأنعام: ١٣] وذلك يدل على أن الزمان وكل ما فيه ملك لله تعالى، فهاتان الآيتان تدلان على أن المكان والمكانيات والزمان والزمانيات كلها ملك لله تعالى وذلك يدل على تنزيه سبحانه عن المكان والزمان، كما في أساس التقيس للفخر الرازي، ولأن الحديث فيه اضطراب سنأ وتأ رغم تصحيح اللعبي وتهويله راجع طرقة في كتاب العلو للنعبي وشرح الموطن وتوحيد ابن خزيمة حتى تعلم مبلغ الاضطراب فيه سنأ وتأ، وحمل ذلك على تمدد القصة لا يرشاه أهل الفوص في الحديث والنظر معاً في مثل هذا المطلب. فالروايات على رجل مبهم محمولة على ابن الحكم، ولم يصح حديث كعب بن مالك ولا حديث يروي عن امرأة، فمالك يرويه عن عمر بن الحكم غير مقر بأن يكون غلطاً فيه، ومسلم عن معاوية بن الحكم ولفظهما كما سقت الإشارة إليه مع نقص لفظ «فإنها مؤنة» في رواية مالك. ولفظ ابن شهاب في موطن مالك عن أنصاري - وهو صاحب القصة في الرواية الأولى - (قال لها رسول الله ﷺ: أتشهدين أن لا إله إلا الله؟ قالت: نعم، قال: أتشهدين أن محمداً رسول الله؟ قالت: نعم) وأين هذا من ذلك؟ وستعرف حال اللعبي في أواخر الكتاب فلا تلتفت إلى تهويله وتحريفه في هذا الباب فلعل لفظ (أين الله) تغيير بعض الرواة على حسب فهمه. والرواية بالمعنى شائعة في الطبقات كلها وإذا وقعت الرواية بالمعنى من غير فقيه فهناك الطامة، وصاحب القصة لم يكن من فقهاء الصحابة ولا له سوى هذا الحديث في التحقيق، بل كان أهرابياً يتكلم في الصلاة. على أن (أين) تكون للسؤال عن المكان وللسؤال عن المكانة حقيقة في الأول ومجازاً في الثاني أو حقيقة فيهما، قال أبو بكر ابن العربي في شرح حديث أبي رزين في المعارضة: المراد بالسؤال بأين عنه تعالى المكانة، فإن المكان يستحيل عليه، وأين مستعجلة فيه، وقيل إن استعمالها في المكان حقيقة وفي المكانة مجاز وقيل هما حقيقتان، وكل جاز على أصل التحقيق مستعمل على كل لسان وعند كل فريق اهـ. وقال أبو الوليد الباجي في المنتقى: يقال مكان فلان في السماء بمعنى علو حاله ورفعة وشرفه، فلعل الجارية تريد وصفه بالعلو، وبذلك يوصف كل من شأنه العلو اهـ فيكون معنى «أين الله» ما هي مكانة الله عندك ومعنى «في السماء» أنه تعالى في غاية من علو الشأن، يتحد هذا المعنى مع معنى «أتشهدين أن لا إله إلا الله» قالت نعم فإن قيل فيلكن لفظ الرسول ﷺ هو «أين الله» ولفظ الراوي هو «أتشهدين...» رواية بالمعنى على الصورة السابقة فالجواب أنه لم يصح عن النبي ﷺ في تلقين الإيمان طول أداء رسالته السؤال بأين أو ذكر ما يوهم المكان ولا مرة واحدة في غير هذه القصة المضطربة بل الثابت هو تلقين كلمة الشهادة، فاللفظ المجاري على الجادة أجدر بأن يكون لفظ الرسول ﷺ، على أن المحقق =

الناس عليه قديماً وحديثاً والكلام عليه معروف ولا يقبله ذهن هذا الرجل لأنهم شاء على بدعة لا يقبل غيرها؟ وأما حديث أبي رزين^(١) ففي سنن الترمذي عنه قال:

= السيد الشريف الجرجاني أجاز في شرح المواقف أن يكون السؤال للاستكشاف عن معتقد الجارية هل هي هابطة وثن أرضي أم هي مؤمنة بالله رب السماوات. ومن أهل العلم من يعدّ العامي معذوراً في اللفظ الموهوم اعتدأ بأصل اعتقاده بالله سبحانه وإن أروهم بعض إيهام في وصفه تعالى، وإليه يشير القرطبي في المفهم في شرح حديث الجارية في صحيح مسلم، قال ابن الجوزي: قد ثبت عند العلماء أن الله لا تحويه السماء ولا الأرض، ولا تقسمه الأقطار، وإنما عرف بإشارتها تعظيم الخالق جلّ جلاله عندنا اه وعلى تقدير ثبوت لفظ «أين» فالمعنى الذي ذكره الباجي وابن العربي معنى لا حيدة عنه أصلاً وجمالة مقدار هذين الإمامين في الحديث واللغة وأصول الدين والفقه لا يجعلهما إلا الجاهلون وقول ذلك الصحابي الذي كان يعني فوق السماء مظهرًا، من الأدلة على ما أشار إليه الباجي.

توهين حديث أبي رزين

(١) وأما حديث أبي رزين ففي سنده حماد بن سلمة مختلط، وكان يدخل في حديثه وبياه ما شاء وليس في استطاعة ابن عدي ولا غيره إبعاد هذه الوصفة عنه، ويعلى بن عطاء تفرد به عن وكيع بن حذس أو عدى، وهو مجهول الصفة، وهو تفرد عن أبي رزين، ولا شأن للمنفردات والوحدان في إثبات الصفات فضلاً عن المجاهيل وعنهم به اختلاط، فليقت الله من يحاول أن يثبت به صفة لله. وقد ستم أهل العلم من كثرة ما يرد بطريق حماد بن سلمة من الروايات الساقطة في صفات الله سبحانه، وقد روى أبو بشر الدولاقي الحافظ عن ابن شجاع عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن مهدي أنه قال: «كان حماد بن سلمة لا يعرف بهذه الأحاديث حتى خرج خرقة إلى جيلان فجاء وهو يرويه، فلا أحسب إلا شيطاناً خرج إليه في البحر فألقاها إليه اه. وماذا يجدي تحمس ابن عدي في الدفاع عنه والرد على محمد بن شجاع الإمام افتراء منه عليه؟ وابن شجاع هذا مات في صلاة العصر وهو ساجد ولا مغمز في علمه وثقته وورعه إلا أنه كان يقف في القرآن ولا يقول إنه مخلوق أو غير مخلوق لعدم ورود هذا وذلك نصاً في الكتاب والسنة، وألف كتاباً في الرد على المشبهة وهذا ذنب لا يغفر عنهم. وإنما يدل هذا التحمس على خيئه لابن عدي الذي لم يتعلم من العربية ما يقوم به لسانه ويصونه من اللحن الفاضحة، وأتى لمثله أن يقوم فكره حتى يتخذ قدوة؟ وكان ابن شجاع يحذر الرواة من الأخذ بروايات تالفة أدخلها الرضاعون على بعض شيوخ الرواية فيرد عليه عثمان بن سعيد الدارمي المجسم قائلاً كيف يجد الرضاعون سبيلاً إلى الإدخال على شيوخ في الرواية؟ وابن عدي يمسك الأمر ويجعل الذي يدخل عليهم هو ابن شجاع بدون أي دليل وبدون سوق أي سند كما هو شأن المتقولين وله مع نفات الرواة وأئمة الأمة في الفقه الذين تكلم فيهم موقف في يوم القيامة، لا يخط عليه، والعقيلي على نعته لم يذكره في كتابه - وحديث إجراء الخيل كان ذائعاً بين شيوخ الرواية من الحشوية حتى يشكو من ذلك ابن قتيبة مر الشكوى في (الاختلاف في اللفظ) وهو معاصر لابن شجاع، وكذلك خرجه أبو علي الأهوازي بسنده بطريق حماد بن سلمة. وقول الحاكم (أبنا إسماعيل بن محمد الشمراني أنه قال: بلغت عن محمد بن شجاع =

قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه؟ قال: «كان في عماء ما تحته

= عن حبان بن هلال عن حماد بن سلمة) لا يمكن اتخاذه حجة في كون هذا الخبر مروياً عن حماد بن سلمة بطريق ابن شجاع منفرداً به لأن بين الشعماني وبين ابن شجاع نحو مائة سنة فلا يقل الساقط من الرجال من بينهم عن نحو ثلاثة، هكذا يفضح الله من يتناول على الأئمة. راجع ما علقناه على تبين كذب المفترى في (ص ٣٦٩) ومن اطلع على كتاب (نقض عثمان بن سعيد على الجهمي العنيد) الجاري طبعه يعرف سبب مقت الحشوية لهذا الإمام الجليل، بل يكفي في معرفة حال حماد ابن سلمة الاطلاع على كتب الموضوعات المبسطة، في باب التوحيد منها خاصة فيرى فيها القاري أخباراً تالفة رويت بطريقه بكثرة بل ما سرده ابن عدي نفسه في الكامل في ترجمة حماد هذا من الأحاديث التالفة المروية بطريقه كاف في معرفة سقوط ما يروى بطريقه في الصفات بل سقوط ابن عدي المتحمس دونه.

منها روايته عن قتادة عن عكرمة... أن محمداً رأى به في صورة شاب أمرد... وفي لفظ (... جعداً أمرد عليه حلة خضراء...) إلى غير ذلك من الألفاظ الفاضحة، وقد روى ابن عساكر بطريق أبي القاسم السمرقندي عن قتادة (الأهمى): إني ما حفظت عن عكرمة إلا بيت شعر، وهذا دليل على أنه لم يرض روايته الحديث، وأما ما يروى عن أحمد من سماع قتادة عن عكرمة عدة أحاديث فلا يثبت عن أحمد لأنه بطريق رواية من المججمة القائلين بإقعاد الله رسوله ﷺ في جنبه على العرش، تعالى الله عن ذلك، وقد توسع الفخر بن المعلم القرشي في رد ما يروى عن عكرمة في هذا الصدد ثم قال «فعماد الله أن يرى ربه على صورة أصلاً فكيف على صورة قد ذكر مثلها أو أكثرها عن المسيح الدجال» اهـ.

فمن التهور البالغ قول ابن صدقة «من لم يؤمن بحديث عكرمة فهو زنديق» بل من يقول به هو الزنديق، ويأسف المرء أن يرى بعض تلك الروايات التالفة مدونة في كتاب (أخبار الصفات) للدارقطني. وابن المعلم القرشي يؤكد أنه مدسوس في كتاب الدارقطني وليس بعيد بالنظر إلى أن رواه عنه العشاري والراوي عنه ابن كادش، وستعرف قيمتهما في أواخر ما علقناه على هذا الكتاب. ويظهر مما رفعه أبو إسحاق الشيرازي وأصحابه إلى نظام الملك من المحضر - في فتنه الحشوية ببغداد ضد ابن القشيري - اتخاذ رواية حماد هذه دليلاً فليراجع المحضر المذكور في (تبين كذب المفترى) لابن عساكر (ص ٣١٠) وفيه ما نصه «... وأبوا إلا التصريح بأن المعبود ذو قدم وأضراس ولهوات وأنامل، وأنه ينزل بذاته ويتردد على حمار في صورة شاب أمرد يشعر فقطط وعليه تاج يلعب وفي رجله نعلان من ذهب... تعالى الله عما يشركون. وفي مرسوم الخليفة العباسي الرازي الذي أصدره في فتنه البريهاري ما نصه «... وتارة إنكم تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين وهيئتكم الرذلة على هيئته وتذكرون الكف والأصابع والرجل والتعلين المنجيين والشعر فقطط والصدود إلى السماء والنزول إلى الدنيا، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً...» كما في الكامل لابن الأثير (٨ - ٩٨) إلى غير ذلك من الفضائح المكشوفة، وحديث أم الطفيل أنكره أحمد والنسائي فلا يمكن أن يصح مثل تلك الرواية لا يقظة ولا مناماً، راجع دفع الشبه لابن الجوزي (ونجم المهتدي) والله ولي الهداية.

هواء وما فوقه هواء وخلق عرشه^(١) على الماء» قال الترمذي قال أحمد يعني ابن منيع راوي الحديث قال يزيد يعني ابن هارون شيخ أحمد: العماء أي ليس معه شيء. انتهى كلام الترمذي.

وفي رواية (كان في عما) بالقصر ومعناه ليس معه شيء وقيل هو كل أمر لا يدركه عقول بني آدم ولا يبلغ كنهه الوصف والفظن، قال ابن الأثير: ولا بد في قوله (أين كان ربنا) من مضاف محذوف فيكون التقدير أين كان عرش ربنا ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا عَرْشُهُ عَلَى الْكَلْبِ﴾ [هود: ٧] قال الأزهري: نحن نؤمن به ولا نكيفه بصفة أي نجري اللفظ على ظاهره من غير تأويل، وقوله من غير أن نكيفه بصفة صريح في التنزيه والعلماء في المتشابهات يؤمنون بها إما بأن يتأولوها وإما بأن يسكتوا مع التنزيه وهذا المدبر يصدق بعضها ببعض ليقوي الشبهة ويمكن الريبة من قلوب الناس لعنه الله^(٢).

فصل

قال: «وخامس عشرها الإجماع من^(٣) رسل الله، حكى إجماعهم عبد القادر

(١) قال أبو بكر ابن العربي في العارضة: والذي عندي أنه أراد بالعرش الخلق كله (على الماء) بمعنى يسكه بقدرته لا بعد ترائفه ولا أساس يعاضده، فإنها كانت تكون مفتقرة إلى أمثالها إلى غير نهاية وذلك غير محصور فترده أدلة العقول اه وهو معنى بديع جداً لمن ألقى السمع وهو شهيد. واستعمال العرش بمعنى الملك شائع، راجع كتاب أصول الدين لعبد القاهر البغدادي.

(٢) ولمن كل من اتبع المتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وأنت قد جريت أن الإمام السبكي رحمه الله لا يتنزل اللغات على الناظم إلا عند كلماته الخطرة جداً، عامله الله بعذله.

تفنيد زعم الإجماع على الفوقية الحسية

(٣) فيا للعار والشار على من يهون إجماع المسلمين فيما يستدلون به عليه من المسائل الفرعية كيف يزعم إجماع رسل الله على محال؟ وتجد في الكتب المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر كثيراً مما يرده علماء أصول الدين في الاعتقاد كما تجد فيها كثيراً من الأحاديث الملفقة الموضوعة فلا يعمل على مثل تلك الكتب في مثل هذا المطلب، وقد قال ابن حجر المكي في فتاويه إن ذكر الجهة ونحوها ملموس في كتب الشيخ عبد القادر، وذكر مثله اليافعي قبله في نشر المحاسن، وكذلك النجم الأصفهاني قبل اليافعي، وهم لا يعتمدون بروايات أمثال الغنبي والناظم وشيخه وابن رجب عنه في هذا الصدد لأنهم أظنهم عندهم فيما يتعلق بالجهة، ومن المقرر عند أهل السنة أن أهل البدع لا تقبل رواياتهم فيما يؤيدون به يدعهم، فالقاتلون بصلاح

= الشيخ عبد القادر - وهم الجمهور - يروونه من تلك البدع ويعملونها مدسوسة في كتيبه ولا يوجد بين أهل الحق من يعترف له بالصلاح مع فرض ثبوت تلك المخازي عنه، فعلى فرض ثبوتها عنه فلا حب ولا كرامة، ومخارق حفيده عبد السلام المتري لديه تدعو الباحث إلى غاية من الاحتياط في حقه، وقد أشار الحافظ أبو شامة المقدسي في ذيل الروضتين إلى ما جرى بينه وبين أبي الفرج ابن الجوزي الحنبلي والوزير العالم ابن يونس الحنبلي نسأل الله السلامة. وبين المتصوفة من يلهج كثيراً بمرتبة الإطلاق ومراتب التنزل في المظاهر أخذاً من مذهب السامية لكن أئمة أصول الدين ليسوا على تصديق التجلي في الصور الذي يقول به هؤلاء بل يعدون ذلك والحلول على حد سواء، فمن حاول الجمع بين أقوال المتكلمين والمتصوفة والحكماء والحشوية في ذلك كالبرهان الكوراني فإنما حاول المحال والانسلاخ من قيد العقل والنقل معاً، نسأل الله العافية، وليس بقليل بين الأئمة من جاهر بإكفار القائلين بالجهة كما نقلت نص ذلك من شرح مشكاة المصابيح للعلامة ناصر السنة علي القاري فيما علقته على «دفع شبه التشبيه لابن الجوزي (ص ٥٧)» وشأن من يخاف الله سبحانه أن ترتعد فرائصه في موطن جاهر فيه بعض الأئمة المتبوعين في أصول الدين؛ بالإكفار.

بسط الكلام في رد القول بالجهة

ولم يرد لفظ الجهة في حديث ما يُلّ قال أبو يعلى الحنبلي في «المعتمد في المعتقد»: ولا يجوز عليه الحد ولا النهاية ولا قبل ولا بعد ولا تحت ولا قدام ولا خلف لأنها صفات لم يرد الشرع بها وهي صفات توجب المكان اهـ ولعله آخر مؤلفاته بديل أن امتحانه في الصفات كان سنة ٤٢٩ قبل وفاته بنحو ثلاثين سنة فمن أثبت له تعالى جهة فقد أثبت له أمثلاً وأشباهاً مع أنه لا مثل له ولا شبهة له تعالى، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وقال تعالى: ﴿أَفَنَسْئَلُكُمْ كَمَنْ لَّا يَخْلُقُ﴾ [الحل: ١٧] فلعمان الله على من يثبت له تعالى ما لم يثبت له الكتاب ولا السنة من الجهة ونحوها، وأما ابن رشد الحفيد فيلسوف ظئير يسمى في إثارة وجوه من التشكيك حول آراء المتكلمين من أهل السنة لينتقم منهم بسبب ودفعهم على الفلاسفة إخوانه ولا سيما من أبي المعالي الجويني وأبي حامد الغزالي، فمن طالع فصل المقال ومناهج الأئمة لابن رشد وخاصة في بحث قدم العالم قلعاً زمانياً وعلم الله بالجزئيات والبعث الجسماني يتقن ما قلنا في حقه على أنه يقول في فصل المقال (ص ١٣): إن ههنا ظاهراً من الشرع لا يجوز تأويله، فإن كان تأويله في المبادي فهو بدعة، وههنا أيضاً ظاهر يجب على أهل البرهان تأويله وحملهم إياه على ظاهره كفر في حقهم، وتأويل غير أهل البرهان له وإخراجه عن ظاهره كفر في حقهم. ومن هذا الصنف آية الاستواء وحديث النزول اهـ.

وهذا الكلام يهد على رأس ابن نيمية وتلميذه ما يريدان أن يبينيا على كلامه ولو علما مغزى كلامه لأبيا كلا الإياء أن يحوما حول كلامه في مثل هذه الأبحاث. فما يكون كفرأ في حق طائفة عند ابن رشد يكون إيماناً في حق طائفة أخرى عنده وبالعكس وهذا هو الذي يحتج ابن نيمية في التأسيس وغيره بقوله في الجهة من غير أن يعقل مغزى كلامه الطويل في مناهج الأدلة. وأما ما وقع في كلام ابن أبي زيد وابن عبد البر مما يوهم ذلك فنزول عند محققى =

المالكية ولو كان ابن عبد البر لم يكتب بالظلمنكي في أصول الدين ورحل إلى الشرق كالباجي لم يقع في كلامه ما يوهم ولم يقع ذكر الجهة في حق الله سبحانه في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ ولا في لفظ صحابي أو تابعي ولا في كلام أحد ممن تكلم في ذات الله وصفاته من الفرق سوى أفتاح المجسمه وأتحدى من يدعي خلاف ذلك أن بسند هذا اللفظ إلى أحد منهم بسند صحيح فلن يجد إلى ذلك سبيلاً فضلاً عن أن يتمكن من إسناده إلى الجمهور بأسانيد صحيحة، وأول من وقع ذلك في كلامه ممن يدعي الانتماء إلى أحد الأئمة المتبوعين - فيما أعلم - هو أبو يعلى الحنبلي المتوفى سنة ٤٥٨ هـ حيث قال عند إثباته الحد له تعالى في كتابه (إبطال التأويلات لأحاديث الصفات): «إن جهة التحت تحاذي العرش بما قد ثبت من الدليل والعرش محدود فجاز أن يوصف ما حاذاه من الذات أنه حد وجهة له وليس كذلك فيما عداه لأنه لا يحاذي ما هو محدود بل هو مار في البينة واليسرة والفوق والامام والخلف إلى غير غاية فلذلك لم يوصف واحد من ذلك بالحد والجهة وجهة العرش تحاذي ما قابله من جهة الذات ولم تحاذ جميع الذات لأنه لا نهاية لها اهـ. تعالى الله عما يقول المجسمه علواً كبيراً وهو عين ما ينسب إلى الطائفة الحرائية من تلاقي النور من جهة الأسفل مع الظلمة وعدم تناهيها من الجهات الخمس - سبحانه ما أحلمك - ثم تابعه أناس من الحنابلة في نسبة الجهة إلى الله سبحانه منهم أبو الحسن علي بن عبيد الله الزاغوني الحنبلي المتوفى سنة ٥٢٧ هـ ووقع بعده في غيبة الشيخ عبد القادر وقد سبق رده، وإثبات ذلك له تعالى ليس بالأمر الهين عند جمهور أهل الحق بل قال جمع من الأئمة إن معتقد الجهة كافر كما صرح به العلم العراقي، وقال إنه قول أبي حنيفة ومالك والشافعي والأشعري والباقلاني اهـ فانظر قول ابن تيمية في التبيين (ص ٣): أما قول القائل، الذي نطلب منه أن ينفي الجهة عن الله والتجيز فليس في كلامي إثبات لهذا اللفظ لأن إطلاق هذا اللفظ نفياً وإثباتاً بدعة اهـ، وهذه مغالطة، فإن ما لم يشبه الشرع في الله فهو منفي قطعاً، لأن الشرع لا يسكت عما يجب اعتقاده في الله، وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] نص في نفي الجهة عنه تعالى إذ لو لم تنف عنه الجهة لكانت له أمثال لا تحصى، تعالى الله عن ذلك - ثم انظر قوله في منهاجه (١) - (٢٦٤): ثبت أنه في الجهة على التقديرين اهـ لتعلم كيف رماه الله بقله الدين وقلة الحياء في آن واحد. وأما ما ينقله الذهبي وغيره من الحشوية من تفسير القرطبي في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ﴾ [الأعراف: ٥٤] من أنه قال: وقد كان السلف الأول رضي الله عنهم لا يقولون بنفي الجهة ولا ينطقون بذلك بل نطقوا هم والكافة بإثباتها لله تعالى كما نطق كتابه وأخبرت رسله فسماهل منه في العبارة، فإنه لم يرد لفظ الجهة في عبارة السلف ولا في كتاب الله، ولو أراد ورود هذا اللفظ لكذب كتاب الله وسنة رسوله ﷺ والآثار المعروية عن السلف لأن الموارد لفظ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ﴾ [الأعراف: ١٨] و﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا شَيْءٌ﴾ [الأعراف: ٥٤] ونحو ذلك بدون تعرض للتكييف بالجهة، وهكذا الوارد في السنة وآثار السلف ويعين قوله «كما نطق به كتابه» أن مراده الفوقية والعلو بلا كيف وذكر الجهة سبق قلم منه فلا يكون

= متى اختص بجهة يكون في مكان وحيز فيلزم الحركة والسكون اهـ وهو القائل أيضاً في (التنكار في أفضل الأذكار) ص ١٣: «يستحيل على الله أن يكون في السماء أو في الأرض إذ لو كان في شيء لكان محصوراً أو محدوداً ولو كان ذلك لكان محدثاً وهذا ملعب أهل الحق والتحقيق اهـ».

تناقض ابن تيمية في الجهة وكذب

وفي (ص ٢٠٧) من الكتاب المذكور: «ثم متبع المشابه لا يخلو اتباعهم من أن يكون لاعتقاد ظواهر المشابه كما فعلته المجسمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة مما يهجم ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن الباري تعالى جسم مجسم وصورة مصورة ذات وجه وغير ذلك من يد وعين وجنب وأصبع، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، والصحيح القول بتكفيرهم إذ لا فرق بينهم وبين عبادة الأصنام والصور، ويستأثرون فإن تابوا وإلا قتلوا كما يفعل بمن ارتد. اهـ».

فبذلك تبين أن تسلك الحشوية بقول القرطبي السابق من قبيل الاستجارة من الرضا بالنار وبه يظهر ملعب المالكية فيمن يقول بذلك كما يظهر قول الشافعية فيه من كفاية الأخيار للتقي الحصني، حيث قال فيها بعد أن أشار إلى كلام الرافعي في كتاب الشهادات: «جزم النووي في صفة الصلاة من شرح المذهب بتكفير المجسمة».

قلت: وهو الصواب الذي لا محيد عنه اهـ.

ومن حذائق النظر من استدلل على بطلان القول بالجهة بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَثَرُ مَنْ إِلَّا فِي غَنَابَةٍ وَاهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] باعتبار أن فيه استدلالاً على بطلان التمدد ببطلان لازمه الذي هو انحباز الإله إلى جهة. راجع شعب الإيمان للحلي. وفي الإكمال شرح مسلم للمناضي عياض ثم من صار من دهماء الفقهاء والمحدثين وبعض متكلمي الأشعرية وكافة الكرامية إلى الجهة أول (في) بلعلي). ومن أحال ذلك - وهم الأكثر - فلهم فيها تاويلات... وقد أجمع أهل السنة على تصويب القول بالوقف من التفكير في ذاته تعالى لحيرة العقل هنالك، وحرمة التكيف. والوقف في ذلك غير شك في الوجود ولا جهل بالموجود فلا يقدم في التوحيد بل هو حقيقة. وقد تسمع بعضهم في إثبات جهة تخصه تعالى أو أشار إليه بحيز يحاذيه، وهل بين التكيفين - أي التكيف المحرم إجمالاً والتكيف بالجهة - فرق؟ وبين التحديد في الذات والجهة فرق؟ وقد أطلق الشرع أنه القاهر فوق عبادته وأنه استوى على العرش فالتسك بالآية الجامعة للتنزيه الكلي الذي لا يصح في العقل غيره وهي قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] «عصمة لمن وفقه الله تعالى» اهـ. وقد تعبه الأبى تعباً شديداً، وقال ما نسب من القول بالجهة إلى الدهماء ومن بعدهم من الفقهاء والمتكلمين لا يصح ولم يقع إلا لأبي عمر في الاستذكار والتمهيد ولابن أبي زيد في الرسالة وهو عنهما متناول. ثم نقل عن الفقهاء التونسيين كابن عبد السلام وابن هارون والفاسيين كالمطري وابن الصباغ اتفاقهم على إنكار ذلك في مجلس الأمير أبي الحسن ملك المغرب. راجع شرح مسلم (٢ - ٢٤١) للأبي.

وأبو الوليد [ابن رشد الفيلسوف] وأبو العباس^(١) الحراني [ابن تيمية] وله اطلاع، لم

= إلى الدعاء على أن لفظ الجهة لم يقع في كلام أبي عمر ولا في كلام ابن أبي زيد وإن كان ظاهر كلامهما يوهم ذلك وقد تأول كلامهما المالكية ليكونا مع الجمهور في هذه المسألة الخطرة ولو ترك كلامهما على الظاهر لهربا في هاوية التجسيم وذلك حزين عليهم أيضاً، وقول القاضي عياض ليس يشمل المشاركة حيث لم يرحل إلى الشرق وإنما قوله بالنظر إلى معنى كلام بعض الفقهاء والمحدثين والمتكلمين من أهل بلاده من أصحاب الظنمكي وابن أبي زيد وأبي عمر بل لا أذكر وقوع لفظ الجهة في كلام أحد منهم، وإنما جرى ابن رشد الفيلسوف في المناهج على التساهل يذكر ما لم يجر على لسانهم باعتباره معنى كلامهم كما سبق، والحاصل أن التكيف غير جائز إجمالاً - ويمكن جمع جزء في الآثار الواردة في المنع من التكيف والتشبيه - ولا شك أن القول بالجهة تكيف لم يقع إلا في عبارات أناس هلكى، وأما تأويل القائلين بالجهة ما يوهم كونه في السماء بمعنى على السماء، كما ذكر القاضي عياض، فلا ينجيهم من ورطة التجسيم لأن (في) في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ فِي جُلُوعٍ مُّتَنَبِّئَةٍ﴾ (طه: ٧١) لم تزل تنبئ تمكين المصلوب في الجلع كتمكين المظروف في الظرف، وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ يَهُودُا فِي الْأَرْضِ﴾ (الأنعام: ١١) فحمل لفظ (في) على معنى (على) لا يجدي في الإبعاد عن التمكن وإنما التأويل الصحيح ما أشار إليه الباجي من استعمال العرب لفظ «هو في السماء» يعنون علو شأنه ورفعة منزلته بدون ملاحظة كونه في السماء أصلاً كقول الشاعر:

علونا السماء مجدنا وجلودنا وإنا لنبغني فوق ذلك مظهرنا

وظاهر أنه لم يرد إلا علو الشأن. وليس قوله تعالى: ﴿مَآئِنُهُمْ فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦] من هذا القبيل بل الظاهر أن المراد خاسف سدوم وعد «في السماء» بمعنى على السماء ثم جعل على السماء بمعنى «على العرش» باعتبار أن السماء مأخوذة من السموات، ففلة عن شمولها للقف والسحاب على هذا التقدير غير المتبادر وتخصيصها بالعرش عن هوى مجرد كما لا يخفى. وفيما ذكرناه كفاية لأهل التبصر.

مخالفات ابن تيمية

(١) يوجد من يذكره بلقب شيخ الإسلام - وللمتدعة افتتان بهذا التلقب لزعمائهم - إيهاماً للضعفاء في العلم أن ما يدعو إليه هذا الزائغ هو الإسلام الصحيح ويخاف على من يستمر على تلقيه به بعد أن عرف مخالفاته لشرع الإسلام ومن ذكره بهذا اللقب من أهل السنة إنما ذكره قبل أن يجاهر ذلك المبتدع ببدهه المعروفة، وأما من استمر على هذا التلقب من المتأخرين فإنما استمر جهلاً ببدهه التي نقلناها من أوثق المصادر أو ظناً من أنه تاب وأتاب وحافظ على عهوده وقد توسعنا في بيان ذلك فيما علقناه على ذيول طبقات الحفاظ. على ترجمة العلامة البخاري فليراجع هناك، ولعل في كتبنا ولا سيما في هذا الكتاب ما يقنع المنصف في أمر هذا الزائغ.

ومما قال المصنف في حقه في فتاويه (٢ - ٢١٠) في أثناء رده على فتيا له في الوقف: «وهذا الرجل كنت رددت عليه في حياته في إنكاره السفر لزيارة المصطفى ﷺ وفي إنكاره وقوع الطلاق إذا حلف به ثم ظهر لي من حاله ما يقتضي أنه ليس ممن يعتمد عليه في نقل ينفرد به لمسارعتة إلى النقل لفهمه - كما في هذه المسألة - ولا في بحث ينشئ لخلطه المقصود بغيره -

يكن من قبله لسواه من متكلم^١.

ونحن نقطع أيضاً بإجماعهم (على التنزيه) أما يستحي من ينقل إجماع الرسل على إثبات الجهة والفوقية الحسية لله تعالى؟ وعلماء الشريعة ينكرونها؟ أما تخاف منهم أن يقولوا له إنك كذبت على الرسل؟.

فصل

قال: «سادس عشرها إجماع أهل العلم^(١) ابن عباس ومجاهد ومقاتل والكلبي

وخروجه عن الحد جداً، وهو كان أكثر من الحفظ ولم يتهدّب بشيخ ولم يرتض في العلوم بل يأخذها يده مع جسارة واتساع خيال وشغب كثير، ثم بلغني من حاله ما يقتضي الإعراض عن النظر في كلامه جملة، وكان الناس في حياته ابتلوا بالكلام معه للرد عليه، وحسب بإجماع العلماء وولاة الأمور على ذلك ولم يكن لنا غرض في ذكره بعد موته لأن تلك أمة قد خلت ولكن له أتباع يتعقون ولا يعمون ونحن نتبرم بالكلام معهم ومع أمثالهم ولكن للناس ضرورات إلى الجواب في بعض المسائل كهذه المسألة... اهـ. وهذا مما يزيدك معرفة بالرجل، ومن جملة هذياناته هذا الزائف قوله في (المحصل) للفخر الرازي:

محصل في أصول الدين حاصله	من بعد تحصيله أصل بلا دين
أصل الضلالات والشك المبين فما	فيه فأكثره رحي الشياطين
هذا رأي الرجل في معتد أهل السنة ولأهل العلم ردود عليه وكنت قلت في معارضته:	
محصل في أصول الدين حصله	من اهتدى ففدا محصن الدين
أس الهداية والحق الصراح فمن	يرتاب فيه فدا إثر الشياطين
كما قلت فيما سبق في معارضة بعضهم:	
إن كان تنزيه الإله تنجسا	فالمؤمنون جميعهم جهمي
جلّ الإله عن الحوادث أن نحـ	ل به وعن جهة وعن كم
يخلاف زعم زعيمكم سفهاً فإن	نابعثموه فكلكم تيمى
والله سبحانه ولي الهداية.	

الرد على الناظم في دعوى الإجماع على الفوقية المكانية

(١) الناظم يروي عن إمامه أحمد بن حنبل في أعلام الموقعين أن من ادعى الإجماع فهو كاذب. فكيف ساغ له أن يروي هنا الإجماع على الفوقية على خلاف البراهين العقلية والنقلية القائمة. فابن عباس ومجاهد لم يرو عنهما ما يروهم ذلك إلا أناس هلكت لا تقبل أقوالهم في حيز الناء فضلاً عن المسائل الاعتقادية، ومقاتل بن سليمان المروزي شيخ أهل التجسيم في عصره وقد أسد جماعة من المروزة. والكلبي هالك عند أهل النقد، وأبو العالية رفيع الرياحي فسر الاستواء بالارتفاع، كما ذكره ابن جرير بطريق أبي جعفر الرازي، وهو متكلم فيه حتى عند الناظم. وروي القريبابي عن مجاهد تفسير استوى بقوله: علا بطريق ورقاء عن ابن أبي نجيح =

عنه . والكلام فيهما مشهور . ولذا ذكر هذا وذاك البخاري من غير سند ، ومع ذلك أين الدلالة في هذا وذاك على الفوقية المكانية؟ وأبو عبيدة معمر بن المثنى الشعبي ماذا تكون قيمة كلامه في مثل هذه الأبحاث؟ والأشعري إن كنتم تعتقدون فيه أنه قائل بالفوقية المكانية فما سبب طعن الحشوية كلهم فيه؟ وإنما له رأيان: أحدهما عدم الخوض في الصفات مع إثبات ما ثبت في الكتاب والسنة بدون تشبيه ولا تمثيل والآخر تأويل ما يجب تأويله بما يوافق التنزيه إذاً عن ضرورة ، وليس في هذا ولا في ذاك القول بالفوقية المكانية ، وتأليف الإبانة كان في أوائل رجوعه عن الاعتزال لتدريج البريهاري إلى معتقد أهل السنة ، ومن ظن أنها آخر مولفاته فقد ظن باطلاً . وقد تلاحقت أقلام الحشوية بالتصرف فيها ولا سيما بعد فتن بغداد فلا تعويل على ما فيها مما يخالف نصوص أئمة المذهب من أصحابه وأصحاب أصحابه . وابن درياس غير مأمون في روايتها لأنه أفسده شيخه في التصوف مع تأخر طبقاته . . والبغوي الشافعي إنما نقل في تفسيره ما يروى عن مثل مقاتل بن سليمان والكلبي تعويلاً على قول أهل النقد فيهما ، ودلالة على أن هذا القول قول أهل الزيغ . ومالك قائل بالاستواء بلا كيف ، وكذا الشافعي وأبو حنيفة وأبو يوسف وأحمد وابن المبروك ، وهم براء مما يوجد في روايات عبد الله بن نافع الصائغ والعشاري والمهكاري وابن أبي مريم ونعيم بن حماد والإصطخري وأمثالهم . (والاعتقاد الشافعي) المذكور في ثبت الكولراني كذب موضوع مروى بطريق العشاري وابن كادش ، وسيأتيان في أواخر الكتاب . وابن خزيمة على سعة في الفقه والحديث جاهل يعلم أصول الدين وقد اعترف بذلك هو نفسه كما في الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٢٠٠) وكتاب التوحيد له بعده الرازي كتاباً في الشرك . ويستخف عقله وفهمه في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١٦) وينقل جزءاً من سخفه ويرد عليه رداً مشعباً فيجب الاطلاع عليه ، ومن الشافعية من يعد من الشافعية كل من تلقى بعض شيء من بعض الشافعية ، وهذا ليس بصواب لأن كل متأخر يأخذ ممن تقدمه على أي مذهب كان المتقدم كما لا يخفى على من درس أحوال الرجال . وابن خزيمة هذا وإن تلقى بعض شيء من المزني في شبيبته لكن لم يكن شافعيًا بل ثبت مساعدته لمحمد بن عبد الحكم في تأليفه ذلك الرد القاسي على الشافعي . وعلى فرض أنه شافعي لا محاباة في المعتقد أياً كان ملعب من زاع عن السبيل . وهذا المسكين ممن إذا أصاب مرة في المعتقد يخطئه فيه مرات ، فليسمح لي ساداتنا العلماء أن أعجب غاية العجب من طبع مثل كتاب التوحيد هذا بين ظهرانيهم بدون أن يقوم أحد منهم بالرد عليه كما يجب . أيقظ الله أصحاب الشأن لحراسة السنة وابن خزيمة الذي يروى عنه الطحاوي غير ابن خزيمة صاحب كتاب التوحيد وليعلم ذلك .

والإجماع الذي يرويه ابن عبد البر إنما يصح في العلو والفوقية بمعنى التنزه والقهر والغلبة لا بمعنى إثبات المكان له تعالى . وأبو بكر محمد بن وهب شارح رسالة ابن أبي زيد مسكين مضطرب بعيد عن مرتبة الحجة . وقد ذكرنا ما يتعلق بابن أبي زيد فيما علقناه على تبين كذب المعفري وقد أغنانا ذلك عن تكرير الكلام . ورأى القاضي أبي بكر بن العربي فيه مدون في القواصم ، وأبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرجي الشافعي صاحب الفصول مجسم صريح كآبي الخير يحيى العمراني ، وقد كفنا مؤنة الرد عليهما ما قاله فيهما ابن السبكي واليانعي =

= الشافعيان. وعثمان الدارمي السجزي صاحب النقض - وهو غير صاحب المسند - قد سبق القول فيه، وهو بيث الحركة لله تعالى كحرب بن إسماعيل السرجاني. وقد نقلت فيما كتبت على شروط الأئمة الخمسة ما قاله الحافظ الراهبرمي في حرب السرجاني هذا. وخشيش بن أصرم صاحب كتاب الاستقامة يعرف أهل الاستقامة مبلغ انحرافه، ومن جملة ما هذى به قوله: فإن زعمت الجهمية فمن يخلقه إذا نزل؟ قيل لهم: فمن خلقه في الأرض حين صعد؟ اهـ. ولا ينجيه من وورطته كونه من مشايخ أبي داود كما لا ينجي عمران بن حطان كونه من رجال البخاري. وعبد الله بن أحمد إذا ثبت عنه كتاب السنة المنسوب إليه فلا حب ولا كرامة. وابن أبي حاتم أقر على نفسه بأنه يجهل علم الكلام كما في الأسماء والصفات للبيهقي (ص ١٩٩) وحق مثله أن لا يخوض في أمثال هذه المباحث وأن يهجر قوله إذا خاض، ومحمد بن أبي شبة صاحب كتاب العرش مشبه كذاب، ومن جملة تخريفاته في كتابه المذكور: أن الله تعالى أخبرنا أنه صار من الأرض إلى السماء ومن السماء إلى العرش فاستوى على العرش اهـ. تعالى الله عن تخريفات المجسمة. وابن أبي داود كفانا مؤنة الرد عليه كلام أبيه فيه. وابن أسباط لا يحتاج به في الرواية فكيف يعول على مثله في الصفات. سامع الله اللالكائي والطلعنكي إسماعيل التيمي فإنهم تكلموا في غير علومهم. والباقون كلهم بخير خلا ما أدخل على ابن سلمة ولن يثبت عن هؤلاء سوى أنهم كانوا يقولون: إنه تعالى استوى على العرش بلا كيف وإنه القاهر فوق عباده بلا كيف وابن هذا مما يدعو إليه الناظم؟.

تنبيه: روى الناظم في أعلام الموقعين عن أحمد: أن من ادعى الإجماع فهو كاذب ثم حكى هو نفسه في الكتاب نفسه في (١ - ٥٦، ١١٤، ٢٧٥، ٣٨٩) وفي (٢ - ٣٣، ٤٨، ٥٣، ٢٤١ و ٢٩٠) وغيرها الإجماع والقول بالإجماع في مسائل عن أحمد وغيره ومثل هذا التناقض لا يصدر إلا من مثل الناظم. وذكر أيضاً في عدة من كتبه في صدد الرد على من يقول بإجماع الصحابة على وقوع الطلاق الثلاث بلفظ واحد أنه لم يرو ذلك عن عشر الصحابة بل عن عشر عشرهم بل عن عشر عشرهم لا ينعقد إلا برواية نص عن مائة ألف صحابي مات عنهم النبي ﷺ - وهذا تخريف لم يقل به أحد قبل الناظم لأن الظاهرية يكتفون باتفاق فقهاء الصحابة إلا أنهم يكثر عدد الفقهاء منهم ويلفون عددهم إلى نحو مائة وخمسين صحابياً على خلاف الواقع - ثم يناقض نفسه فيقول في إعلام الموقعين (٣ - ٣٧٩): فإن لم يخالف الصحابي صحابياً آخر فإما أن يشتهر قوله في الصحابة أو لا يشتهر، فإن اشتهر فالذي عليه جماهير الطوائف من الفقهاء أنه إجماع وحجة وقالت طائفة منهم هو حجة وليس بإجماع، وقالت شريحة من المتكلمين (من أتباع النظام) وبعض الفقهاء المتأخرين لا يكون إجماعاً ولا حجة، وإن لم يشتهر قوله أو لم يعلم هل اشتهر أم لا؟ فاختلف الناس هل يكون حجة أم لا فالذي عليه جمهور الأمة أنه حجة، هذا قول جمهور الحنفية، صرح به محمد بن الحسن وذكر عن أبي حنيفة نصاً وهو مذهب مالك وأصحابه، وتصرف في موطنه دليل عليه وهو قول إسحاق بن راهويه وأبي عبيد وهو منصوص الإمام أحمد في غير موضع عنه واختيار جمهور أصحابه وهو منصوص الشافعي في القديم والجديد أما القديم فأصحابه مقرون به، وأما الجديد فكثير منهم =

ورقيق وأبو عبيدة والأشعري والبغوي ومالك والشافعي والنعمان ويعقوب وأحمد وابن المبارك وابن خزيمة وقال يقتل من ينكره وحكى ابن عبد البر إجماع أهل العلم أن الله فوق العرش وابن وهب وحرب الكرمانى وحكى الإجماع ابن أبي زيد والكرجى في التصنيف الذي شرحه وتفسير عبد بن حميد والنسائي وعثمان الدارمي وابن أصرم وعبد الله بن أحمد والأثرم (وأبو حاتم وابنه ومحمد بن أبي شيبة) وابن أبي داود وابن أسباط وسفيان وحماة بن زيد وحماة بن سلمة والبخاري والطبري اللالكائي الشافعي وإسماعيل التيمي والطبراني والظلمنكي والطحاوي والباقلاني وابن كلاب والطبري في التفسير والداني وابن سريج وأبو الخير العمراني صاحب البيان وسواهم والله قطاع الطريق أمة تدعو إلى النيران ما في الذين حكيت عنهم آثماً من حنبلي واحد بضمان، بل كلهم والله شيعة أحمد، فأصوله وأصولهم سيان، أتظنهم لفظية جهلية هم أهل العقول فتفتنون أولاء بل أضاعفهم من سادة العلماء كل زمان بالجهل والتشبيه والتجسيم والتبديع والتضليل والبهتان، يا قومنا الله في إسلامكم لا تفسدوه لنخوة الشيطان، يا قومنا اعتبروا بمصارع من مضى في هذه الأزمان لم يغني عنهم كذبهم ومحالهم وقتالهم بالزور والتدليس عند الناس والحكام والسلطان وبدا لهم أنهم على البطلان ما عندهم شكاية ما يشتكي إلا عاجز، لستم معنى النصوص وقولنا أساتم الظن بأئمة الإسلام ما ذنبهم ما الذنب إلا للنصوص لديكم إذا جئت.

انتهى كلام هذا المدبر، وقد تقدم النقل عن مالك رحمه الله بخلاف ما قاله ولكنه اغترّ هنا بما رواه الحسن بن إسماعيل الضراب^(١) في كتابه الذي صنّفه في فضائل مالك رضي الله عنه بأسانيده إلى مالك رضي الله عنه أنه أتاه رجل فقال يا أبا

= يحكي عنه فيه أنه ليس بحجة وفي هذه الحكاية عنه نظر ظاهر جداً أهـ. ثم ذكر وجه النظر. وهذا القول هو الصواب لكن الناظم يناقض هذا حينما يقول كلام أحمد المذكور على خلاف تأويل الجمهور في (١ - ٣٣) من إعلام الموقعين وعندما يشدّ عن الجماعة في مسائل كالطلاق ونحوه في كثير من كتبه ويهون أمر الإجماع بل ينكره ويتابعه الجهلة الأغرار من أبناء الزمن وفي ذلك عبرة بالغة نلفت إليها أنظار المنصفين والحق أن الناظم ليس له أصل يبنى عليه وإنما يلبس لكل ساعة لبوسها كما هو شأن أصحاب الأهواء والله ولي الهداية. والحق أن تكذيب أحمد لمن يهدي الإجماع على تقدير ثبوته عنه لا بد من حمله على ادعاء من لم يتأهل لنقل الإجماع في مسألة ولا لتناقض كلامه وعمله.

(١) هو أبو محمد محدث مصر المتوفى سنة ٣٩٢، راجع إكمال ابن ماكولا، وإنساب ابن السمعاني، وحسن المحاضرة، والشدرات.

عبد الله، الرحمن على العرش استوى، كيف استوى^(١) فأمسك عنه مالك حتى علاه الرخصاء ثم قال: الكيف منه غير معقول والاستواء فيه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وإني لأحبسك ضالاً، ثم أمر به فأخرج. وفي رواية: فإني أخاف أن يكون شيطاناً.

رد المصنف على الناظم في الفوقية

وهذا الكلام صحيح إن صح عن مالك، فإنه ليس فيه إلا الإيمان بآية استوى على العرش كما نطق به القرآن وأن كيفيته غير معقولة، والسائل عنها ضال مبتدع شيطان، وفي ذلك قطع بأن الاستواء على ظاهره المعلوم عند الناس من أنه القعود، فإن ذلك معقول وليس فيه تصريح بفوقية الذات ولا يلزم من قولنا استوى على العرش أن يكون هو على العرش إلا بعد أن ثبت أن الاستواء هو القعود والجلوس كما في المخلوق، وجلّ الله عن ذلك، فهذا الرجل لم يفهم كلام مالك ولا كلام غيره من العلماء الكثيرين الذين حكى عنهم كلهم. وإنما يؤثر عنهم كلام مقتدٍ بالكتاب يراد به معنى صحيح مع التنزيه، وما لا يوهم التشبيه ولا يقضيه.

روايات الضراب عن مالك

وقد روى الضراب في هذا الكتاب قال: حدثنا عمر بن الربيع ثنا أبو أسامة ثنا ابن أبي زيد عن أبيه عن حبيب^(٢) كاتب مالك قال: سئل مالك بن أنس عن قول

(١) قال أبو بكر بن العربي في القواصم والعواصم: المطلوب هنا ثلاثة معان: معنى الرحمن ومعنى استوى ومعنى العرش، فالرحمن معلوم والعرش في العربية جاء لعمان وللفظ استوى معه محتمل خمسة عشر معنى في اللغة، فأبها تريدون أو أبها تدعون ظاهراً منها، ولم قلتم إن العرش ههنا المراد به مخلوق مخصوص فادعيتموه على العربية والشرعية... فقلوه تعالى: ﴿كَرَّجَتْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] إن علمنا معناه أننا قولاً ومعنى، وإن لم نعلم معناه قلنا كما قال مالك: الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة، فكيف لو رأى من يفسر تعلفه بالله لا يقال إنه بدعة بل أشد من البدعة عنده، فكيف لو سمع من يقول: إن الله فوقه، فكيف بمن يعين فوقية الذات فكيف بمن يقول إنه يحاذيه ويليّه نبأ له اه راجع (٢٤) - (٢٦) في الجزء الثاني من الكتاب المذكور. وقد توسع ابن المعلم المحدث في (نجم المهتدي) في بيان محتملات الآية الخمسة عشرة التي أشار إليها أبو بكر ابن العربي فليراجع هناك.

(٢) وعلى روايته في تفسير النزول من مالك عزّ القاسمي عياض في المشارق، وقد تكلم في حبيب هذا أهل النقد إلا أن مالكاً رضي الله عنه كان شديد الانتقاد للرجال وقوله هو القول =

النبي ﷺ: «ينزل رينا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة» قال: ينزل أمره كل سحر وأما هو فهو دائم لا يزول وهو بكل^(١) مكان. وروى الضراب أيضاً في هذا الكتاب بإسناده إلى عبد الرحمن بن القاسم قال: سئل مالك عن يحدث الحديث الذي قالوا: إن الله خلق آدم على صورته، وإن الله يكشف عن ساقه يوم القيامة، وإنه يدخل يده في جهنم حتى يخرج من أراد، فأنكر ذلك إنكاراً شديداً ونهى أن يتحدث بها أحد، فقليل له: إن ناساً من أهل العلم يتحدثون بها، فقال: من هم؟ قيل: ابن عجلان عن أبي الزناد، فقال: لم يكن ابن عجلان يعرف هذه الأشياء ولم يكن عالماً وذكر أبا الزناد فقال: لم يزل عاملاً لهؤلاء حتى مات وكان صاحب عمل يتبعهم، ورواه الضراب أيضاً من طريق ابن وهب عن مالك. وروي أيضاً عن طريق الوليد بن مسلم قال: سألت مالكا والأوزاعي وسفيان وليثاً عن هذه الأحاديث التي فيها ذكر الرؤية فقالوا: أرووها كما جاءت؟ فانظر كلام مالك وكلام غيره، لم يصرحوا ولم يبيحوا إلا روايتها لا اعتقاد ظاهرها الموهم للتشبيه ومالك شدد^(٢) في روايتها إلا ما يعلم صحته فيروى مع التنزيه كالقرآن، وهذا التحس وأمثاله يروون في ذلك الجفلاء

= الفصل في رجال المدينة فلا يطمئن القلب إلى إن يكون كاتبه وقاري، موطنه على جمهور المتلقين من مالك غير مرضي عنه.

(١) وظاهر هذا الكلام غير مراد قطعاً، بل المراد أنه لا يوصف بمكان دون مكان حيث تنزه عن الأمكنة، ومن هذا القليل ما يروى عن بعضهم أن علمه بكل مكان، وحاشا أن يكون المراد بهما حلول ذاته أو صفته في الأمكنة، تعالى الله عما يظن به الجاهلون. وأما قول الترمذي في حديث لهبط على الله (وفسر بعض أهل العلم هذا الحديث فقالوا: إنما هبط على علم الله وقدرته وسلطانه، وقدرته وسلطانه في كل مكان وهو على العرش كما وصف في كتابه) فقد تعقبه ابن العربي في المعارضة وقال: إن علم الله لا يحل في مكان ولا ينتسب إلى جهة، كما أنه سبحانه كذلك لكنه يعلم كل شيء في كل موضع وعلى كل حال فما كان فهو يعلم الله لا يشك عنه شيء ولا يميز عن علمه موجود ولا معدوم، والمقصود من الخبر أن نسبة الباري من الجهات إلى فوق كنسبته إل تحت إذ لا ينسب إلى الكون في واحدة منهما بذاته اهـ.

وما يرويه سريج بن النعمان عن عبد الله بن نافع عن مالك أنه كان يقول: الله في السماء وعلمه في كل مكان. لا يثبت، قال أحمد: عبد الله بن نافع الصائغ لم يكن صاحب حديث وكان ضعيفاً فيه، قال ابن عدي: يروي غرائب عن مالك، قال ابن فرحون: كان أصم أماً لا يكتب. راجع ترجمة سريج وابن نافع في كتب الضعفاء وبمثل هذا السند لا ينسب إلى مثل مالك مثل هذا، وقد تواتر عنه عدم الخوض في الصفات وفيما ليس تحته عمل كما كان عليه عمل أهل المدينة على ما في شرح السنة للالكائي وغيره.

(٢) بل قال أبو بكر ابن العربي في المعارضة: روى عن مالك وغيره أنه إذا روى هذه الأحاديث (أحاديث القبض ونحوه) لو أحد مثل بجاجة قطعت اهـ.

لأن لهم بدعة لا يبيغون عنها حولاً، وكل هؤلاء الذين نقل عنهم كلامه إما متأول أراد به قائله معنى صحيحاً غير ما أراده هذا المبتدع، وإما مختلق عليه وحقه أن يسبر، فمن سمي من المتأخرين لم يكن له بصر بالحقائق فزلّ كما زلّ شيوخ^(١) هذا المبتدع وقادته ممن لم يكن قدوة.

فصل

قال: «وسابع عشرها إخباره سبحانه في القرآن عن موسى، وفرعون أنكر التكليم والفرقة العليا. ولنا متنا دليل على أنه فوق السماء ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ﴾ [النساء: ٦٥] - بالله - هل حدثتكم قط أنفسكم بهذا فسلوا أنفسكم عن الإيمان، لكن رب العالمين وجنده ورسوله ﷺ المبعوث بالفرقان هم يشهدون بأنكم أعداء من ذا شأنه أبدأ بكل زمان ولاي شيء كان أحمد^(٢) خصكم أعني

قول اليافعي في الحشوية

(١) من حشوية الحنابلة قال العفيف اليافعي في (مرهم الملل المعضلة في دفع الشبه والرد على المعتزلة) في الجزء الثالث منه: «ومتأخرو الحنابلة خلوا في دينهم غلوا فاحشاً وتسفها سفهاً عظيماً وجسموا تجسماً قبيحاً وشبهوا الله بخلقه تشبيهاً شنيعاً وجعلوا له من عبادته أمثلاً كثيرة حتى قال أبو بكر بن العربي في العواصم: أخبرني من أتق به من مشيختي أن القاضي أبا يعلى الحنبلي كان إذا ذكر الله سبحانه يقول فيما ورد من هذه الظواهر في صفاته تعالى: «ألزمني ما شتم، فإني ألتزمه إلا اللحية والعمرة». قال بعض أئمة أهل الحق وهذا كفر قبيح واستهزاء بالله تعالى شنيع وقليله جاهل به تعالى لا يقتدي به ولا يلتفت إليه ولا منج لإمامه الذي يشب إليه ويستر به بل هو شريك للمشركين في عبادة الأصنام، فإنه ما عبد الله ولا عرفه، وإنما صوّر صنماً في نفسه، فتعالى الله عما يقول الملحدون والجاحدون علواً كبيراً اهـ.

ومثل ما نقله ابن العربي عن أبي يعلى هذا منقول في كتب الملل والنحل عن داود الجوابري، تعالى الله عن ذلك. ثم قال اليافعي: «ولقد أحسن ابن الجوزي من الحنابلة حيث صنف كتاباً في الرد عليهم، ونقل عنهم أنهم أثبتوا لله صورة كصورة الأدمي في أبعاضها، وقال في كتابه هؤلاء قد كسوا هذا المذهب شيناً قبيحاً حتى صار لا يقال عن حنبلي إلا مجسم، قال: وهؤلاء متلاعبون وما عرفوا الله ولا عندهم من الإسلام خير ولا يحدثون، فإنهم يكابرون العقول وكأنهم يحدثون الصبيان والأطفال، قال: وكلامهم صريح في التشبه وقد تبهم خلق من العوام وفضحوا التابع والمتبرع... انتهى». والكتاب الذي أشار إليه اليافعي هو (دفع شبه التشبيه) وهو مطبوع فليراجع.

(٢) وإنما خصوم أحمد هم الذين انتصوا إليه كذباً وخالفوه في التنزيه، وقال الحافظ ابن شاهين (رجلان صالحان بلبا بأصحاب سوء: جعفر بن محمد الصادق وأحمد بن حنبل) رواه ابن عساكر بطريق أبي ذر الهروي راوية الجامع الصحيح يريد الروافض والمجسمة.

ابن حنبل الرضى الشيباني ولاي شيء كان أيضاً خصمكم شيخ الوجود العالم الحراني^(١).

(١) ونحن معاصر أهل الحق لا نبالي بعداء مثله من المبطلين ولا نزال نطن في آذان رواد الحقائق شولاً ابن تيمية السخيفة باطلاعهم عليها في مؤلفاته نفسه وفيما رواه ثقات أهل العلم عنه وكلمته فيما رد به على الرازي في المجلد رقم ٢٥ من الكواكب الدراري بظاهرية دمشق حيث قال: «لو شاء لاستقر على ظهر بعوضة فاستقلت به بقدرته فكيف على عرش عظيم آية من آيات خرقه وحقه فليصادق من شاء من الخرقى مثله على عدائه لأهل الحق والمراسم الملكية الصادرة في حقه بعد محاكمته أمام جماعة كبار العلماء في عصره مسجلة في كتب التاريخ وكتب خاصة مثل عيون التواريخ ونجم المهتدي ودفع الشبه وغيرها، ولا بأس أن أسجل هنا صورة منها بالنقل من خط الحافظ شمس الدين بن طولون وهي كما رأيتها بخطه رحمه الله: نسخة مثال شريف سلطاني ملكي تاريخه ثامن عشري رمضان سنة ٧٠٥.

أحد المراسيم الصادرة في حق ابن تيمية

الحمد لله الذي تنزه عن الشبه والنظير، وتعالى عن المثال فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْبَاقِي﴾ [الشورى: ١١] نحمده على أن ألهمنا العمل بالسنة والكتاب ورفع في إيماننا أسباب الشك والارتباب، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من يرجو بإخلاصه حسن العقبى والمصير ونزه خالقه عن التحيز في جهة لقوله تعالى: ﴿وَقَوْلاً مَّكَرُؤُنَا مَا كُنتُمْ وَآلَافَهُ بِمَا تَكْتُمُونَ﴾ [الحديد: ٤] ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي نهج سبيل النجاة بما سلك طريق مرضاته وأمر بالتفكير في آلائه ونهى عن التفكير في ذاته - صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين علا بهم منار الإيمان - ورفع رشيد بهم قواعد الشرع وما شرع، وأخذ بهم كلمة من حاد عن الحق ومال إلى البدع. وبعد، فن العقائد الشرعية وقواعد الإسلام المرجية وأركان الإيمان العلية ومذاهب الدين المرضية هي الأساس الذي يبنى عليه والموئل الذي يرجع كل أحد إليه والطريق الذي من سلكها فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن زاغ عنها فقد استوجب عذاباً أليماً، فلهذا يجب أن تغد أحكامها ويؤكد دواها وتصان عقائد هذه الملة عن الاختلاف وتزاد بالاتلاف وتخدم نوازل البدع ويفرق من فرقها ما اجتمع، وكان التقي ابن تيمية في هذه الملة قد بسط لسان قلمه ومدّ عنان كلمه وتحدث في مسائل الصفات والذات، ونص في كلامه على أمور منكرات وتكلم فيما سكت عنه الصحابة والتابعون وفاء بما تجنيه السلف الصالحون وأتى في ذلك بما أنكره أئمة الإسلام وانعقد على خلافه إجماع العلماء والحكام، وشهر من فتاويه ما استخف به عقول العباد وخالف في ذلك فقهاء عصره وعلماء شامه ومصره وبعث برسائل إلى كل مكان وسقى فتاواه بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان فلما اتصل بنا أنه صرح في حق الله بالحرف والصوت والتجسيم، قمنا في الله مشفقين من هذا النبا العظيم. وأنكرنا هذه البدعة وعز علينا أن يشيع عنن تضم ممالكنا هذه السمعة، وكرهنا ما فاه به المبطلون، وتلونا قوله سبحانه وتعالى عما يصفون، فإنه جلّ جلاله تنزه في ذاته وصفاته عن التعديل والنظير ﴿لَا تَدْرِيكَ الْآبَسْتُ وَهُوَ يَدْرِيكَ الْآبَسْتُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وتقدمت مراسيمنا باستدعاء التقي ابن تيمية إلى أبوابنا عندما سارت فتاواه في شامنا ومصرنا، وصرح فيها بالفاظ

= ما سمعها ذو فهم إلا وتلا ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] ولما وصل إلينا تقدمنا بجمع أولي العقد والحل وذوي التحقيق والنقل وحضر قضاة الإسلام وحكام الأنام وعلماة الدين، وفقهاء المسلمين وعقدوا له مجلس شرع في ملأ من الأئمة وجمع، فثبت عند ذلك جميع ما نسب إليه بمقتضى خط يده الدال على سوء معتقده، وانفصل ذلك الجمع وهم عليه وعلى عقيدته منكرون وأخلوه بما شهد به قلمه قائلين ﴿سَكَكْتُ شَهَدَتَهُمْ وَتَشْتَرُونَ﴾ [الزخرف: ١٩] وبلغنا أنه استتيب مراراً فيما تقدم وأخره الشرع لما تعرض إليه وأقدم ثم عاد بعد منعه ولم تدخل تلك النواهي في سمعه ولما ثبت عليه ذلك في مجلس الحكم العزيز المالكي حكم الشرع الشريف أنه يسجن هذا المذكور ويمنع من التصرف والظهور، ومن يومنا هذا نأمر بأن لا يسلك أحد مسلك المذكور من المسالك، وننهي عن التشبه به في اعتقاده مثل ذلك، أو يعود له في هذا القول متبعاً أو لهذه الألفاظ مستمعاً، وأن يسري في التجسيم مسراه، أو يفوه بعدد العلو مخصصاً كما فاه أو يتحدث إنسان في صوت أو حرف أو بوسع القول في ذات أو وصف أو ينطق بتجسيم أو يحيد عن الصراط المستقيم أو يخرج عن رأي الأئمة وينفرد به عن علماء الأمة أو يحيز الله تعالى في جهة أو يتعرض إلى حيث وكيف، فليس لمن يعتقد هذا المجموع عندنا إلا السيف، فليقت كل واحد على هذا الحد، وله الأمر من قبل ومن بعد، وليلزم كل الحنابلة بالرجوع عما أنكره الأئمة من هذه العقيدة والخروج من هذه التشبهات الشريفة ولزوم ما أمر الله به والتمسك بأهل المذاهب الحميدة، فإنه من خرج عن أمر الله فقد ضلّ سواء السبيل، وليس له غير السجن الطويل مستقراً ومقيلاً، فقد رسمنا أن يتأدي في دمشق المحروسة والبلاد الشامية وتلك الجهات مع التهي الشديد والتخويف والتهديد أن لا يتبع التقي ابن تيمية في هذا الأمر الذي أوضاعناه، ومن تابعه منهم تركناه في مثل مكانه وأحللناه ووضعناه عن عيون الأمة كما وضعناه، ومن أعرض عن الامتناع وأبى إلا الدفاع أمرنا بمنزلهم من مدارسهم ومناصبهم وإسقاطهم من مراتبهم، وأن لا يكون لهم في بلادنا حكم ولا قضاء ولا إمامة ولا شهادة ولا ولاية ولا إقامة، فإننا أزلنا دعوة هذا المبتدع من البلاد وأبطلنا عقيدته التي ضلّ بها العباد أو كاد، ولتبت المحاضر الشرعية على الحنابلة بالرجوع عن ذلك ولتسير إلينا المحاضر بعد إثباتها على قضاة الممالك، فقد أهدرنا حيث أنزرننا، وأنصفنا حيث حزننا، وليرقرأ مرسومنا هذا على المنابر ليكون أبلغ واعظ وزاجر وأجمل ناه وآمر، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه، الحمد لله، صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

اتتهى ما رأيت بخط الحافظ ابن طولون في المجموعة الحسينية التي كان فيها الدرة المضية والمقالة في الرد على من ينكر الزيارة المحمدية للتقي الأختالي والاعتبار في بقاء الجنة والنار ودفع شبه من شبه وتمرد وغيرها، ونص المرسوم المقروء على الجمهور على منبر جامع القاهرة بعد صلاة الجمعة وعلى منبر جامع الفسطاط بعد العصر سلخ رمضان مدون في نجم المهتدي لابن المعلم القرشي. وما قرئ على منبر جامع دمشق بعد وصول ابن مصرى القاضي من مصر به في اليوم السادس عشر من شهر ذي القعدة سنة سبعمائة وخمس مدون في دلع الشبه للتقي الحصني وما نقلناه هنا من المراسيم التي قرئت على منابر البلاد الشامية وألفاظ تلك المراسيم كلها متقاربة في المعنى وفي ذلك كله عبر بالغة، فمأذا علينا من عداء مثل هذا =

وبالغ هذا الخبيث في الأفذاع والسفاعة بما هو صفته ونسي قول فرعون كما حكى القرآن الكريم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمُ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القَصَص: ٢٨] وتجراً على علماء المسلمين بما لو نقلناه لطال ولا يحتمل الإبطال.

فصل

قال: «وثامن عشرها تنزيهه سبحانه عن موجب النقصان، فلاي شيء لم ينزه نفسه عن الفوقية».

فنقول قد قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

فصل

قال: «وتاسع عشرها إلزام المعطل لأي شيء لم يصرح النبي ﷺ بنفي هذا»^(١).

ثم استمر هذا السفیه على سفيه.

فصل

قال: «والعشرون نصوص الاستواء»^(٢) سبع والفوق ثلاث والعلو خمسة والتزول

= القاتن المفتون، ومن أحاط علماً بما نقلناه في هذا الكتاب وغيره من نصوص عباراته وتأكد من الأصول صدق النقل واستمر على مشايخته وعلى عده شيخ الإسلام فعليه مقت الله وغضبه، ومن أشبه في شيء مما نقلناه فنحن على استعداد أن نسهل عليه سبيل الاطلاع على الأصول إن كان لا يكفيه ما يراه بنفسه في مناجاه ومعقوله ونحوهما من كتبه المطبوعة والله سبحانه هو الهادي إلى سواء السبيل.

(١) ما للنفاص من آخر، فهل تدون مجلدات في نفي كل نقیصة عنه تعالى بالرواية عن النبي ﷺ وكفى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] والمحتاج إلى الإثبات هو الميث دون المنفي، وكلمة هذا الرجل هذه تقول إن الله تعالى مثبت له من النقائص ملايين الملايين مما لم ينص النبي ﷺ على نفيه بلفظ خاص، وهل يقول هذا عاقل فضلاً عن فاضل فضلاً عن إمام يعتقد تابعوه أنه وحيد الأمة فضلاً وعلماً.

(٢) ألفت نظر القارئ الكريم إلى أن الاستواء لم يذكر في تلك الآيات إلا بصيغة الفعل المقرونة بأداة التراخي في بعضها، وذلك نص على أن الاستواء فعل من أفعال الله سبحانه لا صفة ذات له تعالى، وجب الإله أن تحدث له صفة بعد أن لم تكن ومن قال إنه مستوٍ نطق بما لم يأذن الله به كائنًا من كان ومن زاد وقال استوى بذاته بمعنى استقر فهو عابد وثن خيالي إن لم يكن عابياً.

أكثر من سبعين نصاً، والهاء منفطر به لم يسمح المتأخرون بنقله جناً^(١) وضعفاً بل قاله المتقدمون^(٢).

هذا الرجل كما قال الله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ مَا كَتَبَهُ وَتَهُ﴾ [آل عمران: ٧].

فصل

قال: «والحادي والعشرون إتيان رب العرش ومجيئه^(٣) من أين يأتي لا يأتي إلا

(١) وروى الحشوية في تفسيره ألفاظاً وهي (معتلى به) و(مقلته به) و(مقلته به موقرة) و(يط من ثقل الذات) وركبوا لها أسانيد فمن أثبت الله سبحانه نقلاً لم يدع ما لم يف به في التجسيم، والناظم استنكر إمساك المتأخرين عن ذلك حتى يباح بما في نفسه، ويحاول شيخه أن يجعل قول كعب الأحبار في ذلك مما يمكن أن يكون سمعه من الصحابة، فحاشاهم عن ذلك، وفي جزء المتبجي تلميذ الناظم في هذا الصدد مخاز، ومن علم الحالة العامة عند مبعث النبي ﷺ من هراقة البيئة في الوثنية ومنازع الأمم المحدثه بها في التشبه والتجسيم كما أشرت إلى بعض ذلك في مقدمة تبیین كذب المفتري لا يصعب عليه معرفة وجه اندساس أعداء الدين بين الجمهور من عهد التابعين لبعث ما عندهم من صنوف الزيف بين أعراب الرواة وسطاه مواليتهم حتى وجدت تلك الأساطير من يذيعها بين الأمة خلفاً عن سلف، قائلهم الله، ولولا قيام علماء أصول الدين في كل قرن بكشف الستار عن وجوه هؤلاء المخنولين لاستفحل أمرهم وله الحمد في الآخرة والأولى، وهذا الناظم وشيخه قد جلدوا الكرة بسلاح جديد بتلبس معتقدهما الزائف بلباس النظر والفلسف تارة على طريقة صاحب المعتبر أبي البركات البغدادي اليهودي ولباس الرواية والأثر تارة أخرى وأمرهما كما ترى مكشوف مقضوح في الحالتين بفضل الله وتوفيقه ولا غر للمنتدعين بهما بعدما سردناه في هذا الكتاب.

نص أحمد في المجيء

(٢) قال ابن حزم: روي عن الإمام أحمد في قوله تعالى: ﴿وَبَآءَ رُبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] إنما معناه وجاء أمر ربك كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْكَلْبُكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَثَرُ رُبُّكَ﴾ [الضحل: ٣٣] والقرآن يفسر بعضه بعضاً. وهكذا نقله ابن الجوزي في تفسيره زاد المسير، وقال البيهقي في مناقب أحمد أنبأنا الحاكم قال حدثنا أبو عمرو بن السماك قال حدثنا حنبل بن إسحاق قال سمعت عمي أبا عبد الله يعني أحمد يقول: احتجوا علي يومئذ - يعني يوم نؤظر في دار أمير المؤمنين - فقالوا نجيء سورة البقرة يوم القيامة وتجيء سورة تبارك فقلت لهم إنما هو الثواب قال الله تعالى: ﴿وَبَآءَ رُبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢] إنما تأتي قدرته، وإنما القرآن أمثال ومواعظ. قال البيهقي وفيه دليل على أنه كان لا يعتقد في المجيء الذي ورد به الكتاب والنزول الذي وردت به السنة انتقلاً من مكان إلى مكان كمجيء ذوات الأجسام ونزولها، وإنما هو عبارة عن ظهور آيات قدرته، فإنهم لما زعموا أن القرآن لو كان كلام الله وصفة من صفات ذاته لم يجوز عليه المجيء والإتيان فأجابهم أبو عبد الله بأنه إنما يجيء ثواب قراءته التي يريد إظهارها يومئذ، فبتر عن إظهاره إياها بمجيئه اهـ.

من العلو».

ما كفاه إثبات الفوقية حتى أثبت الحركة في الإتيان.

فصل

في الإشارة إلى ذلك من ^(١) السنة.

قال:

«لما قضى الله ربنا الخليقة كتبت يده كتاب ذي إحسان»

أين لفظ كتبت يده؟

قال:

«ولقد أشار نبينا في خطبة نحو السماء بأصبع وبنان»

= وقال اليافعي بعد أن ساق ذلك: قال العلماء وقد يقتضي الحلف من التعظيم والتفخيم ما لا يقتضيه الذكر، وشواهد من الكتاب كثيرة كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المائدة: ٣٣] و﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٥٧] وقد أجمع المسلمون على تقديمه تعالى عن التأذي والفسور، أي يحاربون عباد الله وأوليائه، ويوضحه قوله تعالى: ﴿ثَأَنَ اللَّهُ يَبْتَغِيهِمْ﴾ [التحل: ٢٦] ليس المراد الإتيان بلذاته بالاتفاق وإنما هو أمره ويشهد له قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَاهُمُ أَشْرًا فَلَا تَوْبَهُ﴾ [يونس: ٢٤] اهـ. والناظم وشيخه يدعيان الانتماء إلى أحمد ولا يتابعانه في التنزيه كما رأيت نصوص أهل العلم عن أحمد فلا ينخدعن الموفق بشرئيهما المفضوحة وتهويلهما المصطنع وإنما ذلك وقاحة منهما فأنلهما الله، ما أجزأهما على الله تعالى.

معنى كتب ريكتم على نفسه بيده

(١) قد أجمع أهل الحق على أنه لا يجوز إثبات صفة الله سبحانه بدون دليل يفيد العلم ولهم في ذلك أدلة ناصحة قال أبو سليمان الخطابي في (الناصحة) لا يجوز أن يعتمد في الصفات إلا على الأحاديث المشهورة التي قد ثبتت صحة أسانيدنا وعدالة ناقلها اهـ. ثم أقام التكير على قوم من أهل الحديث تعلفوا برواية المغايرد والشواذ في الصفات، ونكتفي بهذه الإشارة هنا. ولم يقع كتبت يده في الصحيح عند ذكر حديث «سبقت رحمتي غضبي»، وأما ما في ابن ماجه فبطريق ابن عجلان وقد ضعفه البخاري ولم يكن مالك يرويه في الصفات فلا حجة في رواية مثله على أن لفظه «كتب ريكتم على نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق رحمتي سبقت غضبي» قال الله تعالى: ﴿كَتَبَ رَيْكُم عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] فكذب إذا تعدى بلفظ على يكون بمعنى أوجب، فيكون معنى الحديث أوجب على نفسه بلماته لا بإيجاب أحد سواه، واستعمال (بيده) بمعنى بذاته شائع كثير، والإيجاب على النفس بمعنى الوعد والوجوب عن الله لا الوجوب على الله. ليس هناك خط ولا مخطوط، ومن الدليل على ما قلنا أن الخط حادث مخلوق فكيف يتصور أن يكون قبل الخلق خلق فلا تغفل مع الغافلين.

تقدم جوابه .

قال : «ولقد أتى في رقية المرضى نص بأن الله فوق»^(١) سمائه وخبر رواه العباس أن الله فوق العرش^(٢) .

واذكر حديث حصين^(٣) بن المنذر الثقة الرضى أعني أبا عمران إذ قال : ربي في

(١) ولفظ الحديث «ربنا الله الذي في السماء نقذس اسمك» يدور هذا اللفظ بين أن يكون بمعنى أنه تقلى اسمه في السماء لأن أهل السماء كلهم منزّهون بخلاف أهل الأرض وبين أن يكون بمعنى أنه في السماء واستحالة الثاني تعين الأول والناظم غير اللفظ وادعى أنه نص تحريفاً للكلم على أن في سننه زيادة ابن محمد وهو منكر الحديث والناظم يستدل بالمنكر في الصفات مع تغيير نص الرواية والحديث مخرج في سنن أبي داود .

(٢) في رواية عبد الرزاق (والله فوق ذلك) ولفظ فوق العرش إنما وقع في بعض الروايات كما سبق على أن الحديث انفرد به سماك . وشيخه عبد الله بن عميرة لم يدرك الأحف كما نص عليه البخاري فضلاً عن أن يدرك عباساً مع كونه مجهول الصفة، وتحسين الترمذي باعتبار أنه مروى عن سماك بطرق لا بمعنى أنه محتج به حيث قال حسن غريب ثم ذكر وقفه عن شريك عن سماك فتكون في رفعه حلة أيضاً، ويحيى بن العلاء في مسند عبد الرزاق متروك، هكذا تكون حجج الناظم في السنة لا ييالي أن يكون الحديث من المفاريد أو أن يكون فيه منكر أو مجهول أو انقطاع . دعنا من تخريج الضياء وقد عرف الناس مذهبه في الصفات وقال ابن العربي في المعارضة عن حديث الأوهال هذا : وروى غير ذلك ولم يصح شيء منه وإنما هي أمور تلففت من أهل الكتاب ليس لها أصل في الصحة وقد روي أن النبي ﷺ أنشد قول أمية بن أبي الصلت :

رجل وثور تحث رجل يمينه والنسر لآخرى ولبت مرصد
ولم يصح اهـ .

سخف عثمان بن سعيد في التمسك بحديث

حصين في الفوقية

(٣) غلط الناظم في اسم والد حصين كما يظهر من الكتب المؤلفة في الصحابة، وإسلام حصين صاحب القصة مختلف فيه ووصفه بالقة الرضى مطلقاً مجازة وأقل ما يقال فيه إنه لم يكن ثقة ولا رضي حين المحادثة على تقدير ثبوت الخبر ولنا في صدد استقصاء جهالات الناظم ويورد بحديث حصين ما رواه أحمد بن منيع عن أبي معاوية عن شبيب بن شبة عن الحسن عن عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ لأبي : «كم تعبد اليوم إلهاً؟ فقال : سنة في الأرض وواحد في السماء» قال : فأفهم تعد له رغبتك ووهبتك؟ قال : الذي في السماء . قال : يا حصين، أما إنك لو أسلمت علمت كلمتين ينفعانك، فلما أسلم قال : يا رسول الله علمني الكلمتين، قال : «قل اللهم ألهمني رشدي وأعطني من شر نفسي» . وأخرجه عثمان بن سعيد السجزي الدارمي عن ابن منيع إلى «الذي في السماء» فقط في كتاب النقص محتجاً به على إثبات الحد والنهاية والمكان له تعالى حتى قال : فلم ينكر النبي ﷺ على الكافر إذ عرف أن إله =

السماء لرغبتي ولرهبتي أدعوه كل أوان، فأقره الهادي البشير ﷺ ولم يقل أنت المجسم قائل مكان واذكر شهادته لمن قال ربي في السماء^(١) بالإيمان وشهادة المعطل له بالكفران، وحديث^(٢) الأبطي، وحديث النزول^(٣) وحديث^(٤) ابن رواحة،

= العالمين في السماء فحسين الخزاعي في كفره يومئذ كان أعلم بالله من المريسي وأصحابه... وقد انفقت الكلمة من المسلمين والكافرين أن الله في السماء وحلوه بذلك... وكل أحد بالله وبمكانه أعلم من الجهمية اهـ راجع معقول ابن تيمية في هامش منهاجه (٢ - ٣٠) تجده ينقل ذلك عنه بنصه وفصه بدون استنكار، والناظم أتبع له من ظله في كل صغير وكبير ﴿وَيَنْزِلُ اللَّهُ لَهُ نُورٌ فَكُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ﴾ [النور: ٤٠] وعثمان الدارمي هذا مجسم قبح كما ترى وهو إمام الناظم وشيخه وإسلام عمران بن حصين إمام خير وهذه المحادثة وقعت قبل الهجرة وحسين مشرك ولا يكون من التفرير في شيء ما يشاهده النبي ﷺ في المشرك ومكت عليه، وكيف يتصور عاقل أنه أقره على ما يذيعه الناظم؟ إذ من المحال أن يقره على ستة في الأرض، على أن عرضه الإسلام يدل على استنكار ما قاله حسين وعلى أنه كان على شر وضلال فيما قال، وشبيب بن شبة ضمهفه النسائي وغيره ويمثل هذا السند لا يستدل في الأعمال فضلاً عن الاستدلال به في المعتقد، وأما ما أخرجه ابن خزيمة في التوحيد قبللفظ آخر زيد فيه كلمة إنقاذاً للموقف لكن في سنده عمران بن خالد وحاله أسوأ من أن يقال: إنه ضعيف بل هو مكشوف الأمر والروايتان مختلفتان فلا تجمعان ولا تلفقان ولا ينقل هذا الموقف بمثل ذلك الترفيع، فليتنق الناظم رب العالمين من أن يسوق في صفات الله سبحانه أمثال تلك الروايات.

(١) وليس في رواية يحيى الليثي عن مالك لفظ «فإنها مؤمنة» في حديث الجارية وقد سبق بيان اضطراب هذا الحديث سنداً ومتناً وعدم صلاحية مثله للاحتجاج إلا في الأعمال دون المطالب الاعتقادية وقد حمل الشريف الجرجاني لفظ «أين» في الحديث على السؤال الاستكشافي، ومن أهل العلم من قال إن العامي الذي يعلو عن مداركه التنزيه عن المكان يولخذ بالرفق ويعذر لهذا الحديث بخلاف من عنده بعض إلمام بالعلم، وجعل ابن رشد الحفيد لصاحب البرهان شأناً غير شأن العامي في ذلك، وقد سبق بسط ذلك كله.

(٢) قال الذهبي في كتاب العلو: لفظ الأبطي لم يأت به نص ثابت اهـ. وقد ألف الحافظ أبو القاسم بن عساكر جزءاً سماه (بيان التخليط في حديث الأبطي) بين فيه وجوه التخليط في روايات الأبطي فلا حاجة لتكلف التأويل بعد ثبوت يطلان تلك الروايات.

(٣) وقد سبق بيان ما فيه كفاية في هذا الصدد فلا نعيد الكلام بدون موجب.

الشعر المنسوب إلى ابن رواحة

(٤) يشير به إلى ما ينسب إلى عبد الله بن رواحة رضي الله عنه من أنه أشد: شهدت بأن وعد الله حق وأن النار مشوى الكافرينا وأن العرش فوق الماء طاف وفوق العرش رب العالمينا إيهاماً لأمرائه أنه يتلو القرآن دفعا لما اتهمته به من نيله جارية له حتى قالت زوجته أنت باه وكذبت عيني اهـ وهذه قصة تذكر في كتب المحاضرات والمسامرات دون كتب الحديث =

والمعراج^(١) وقريظة^(٢)، وصعود الروح^(٣) عند الموت، وسخط الله^(٤) على المرأة

= المعتمدة ولم ترد في كتب أهل الحديث بسند متصل ولو من وجه واحد وأما ما وقع في الاستيعاب من قول ابن عبد البر (روناه من وجوه صحاح) فهو واضح من النسخ وأصل الكلام (من وجوه غير صحاح) فقط لفظ (غير) فتأبعت النسخ على السهو إذ لم يجد أهل الاستقصاء سنداً واحداً يحتج بمثله في هذه القصة بل كل ما عندهم في هذا الصدد أخبار منقطعة وما يكون في عهد ابن عبد البر مروياً بطرق صحيحة كيف لا يكون مروياً عند من بعده ولو بطريق واحد صحيح؟ وهذا يعين ما قلناه من سقوط لفظ (غير) في الكتاب. ولم يتمكن اللغوي بعد بذل جهده من ذكر سند واحد غير منقطع في القصة وأفعال الصحابة كلها جد، وجل مقدار مثل هذا الصحابي من أن يوهم صحابة أنه يتلو القرآن بإنشاده الشعر لها. وإيهام كون الشعر من القرآن ليس مما يقر عليه النبي ﷺ فمن الخبر نفسه يدل على البطالان. على أن الحافظ ابن الجوزي ذكر في كتاب الأذكياء أنه قال:

وفينا رسول الله يتلوه كتابه كما انشق مرموق من الصبح ساطع
أرانا الهدي بعد العمى فقلوبنا به مرقنات أن ما قال واقع
يبست يجافي جنبه عن فرائه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
وأين هذا الشعر من فاك الشعر والحكاية هي هي. ولا مجال لتعدد القصة لأن المرأة لا تخدع بمثل فاك مرتين.

(١) نحيل الناظم في حديث المعراج الذي يريد أن يستدل به هنا على ما كتبه هو نفسه في زاد المعاد في الأروام الواقعة في حديث شريك في المعراج وقد بطل أهل العلم أغلاطه فيه.

حديث بني قريظة

(٢) يعني ما يروى عنه ﷺ أنه قال لسعد بن معاذ حين حكم في بني قريظة بأن يقتل مقاتلتهم ونسب ذراريهم: «لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبعة أرقعة» وفي سنده النسائي محمد بن صالح التمار ليس بقوي، قال أبو بكر بن العربي في القواصم: لم يصح اه على أن حكم الله يطلع عليه الملائكة باطلاعهم على اللوح المحفوظ فيكون معنى كون حكمه في السماء كون حكمه في اللوح المحفوظ الذي هو في السماء.

(٣) أخرجه أحمد وابن خزيمة وفيه لفظ «حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الرب». وليس السند إليهما كالسند إلى الأصول الستة، وقد أعرض عن تخريجه أصحاب الأصول الستة وهذا اللفظ منكر والظاهر أنه من تغيير بعض الرواة وقد أجمع المسلمون على أن الله سبحانه لا تحويه السماء ولا الأرض وأنه منزّه عن المكان، قال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه: إذا روى الثقة المأمون خبراً متصل الإسناد رد بأمور أحدها أن يخالف موجبات العقول فيعلم بطلانه لأن الشرع إنما يرد بمجوزات العقول وأما بخلاف العقول فلا اه. وأما هذا فمخالف للكتاب والسنة والمعقول في آن واحد.

(٤) ولفظ مسلم «كان الذي في السماء ساخطاً عليها» وليس في هذا اللفظ التصريح بما يرمي إليه الناظم، ومثل هذا الحديث من أخبار الآحاد يحمل على المحكمات وليس في الحديث. ذكر الرب سبحانه وحمله عليه نقول وعلى فرض حمله عليه ليس معنى كونه في السماء الاستقرار والتمكن فيها باتفاق بل معنى ذلك علو الشأن، كما سبق.

التي تهجر زوجها، وحديث جابر في أهل الجنة إذا بنور^(١) ساطع فإذا هو الرحمن.

وحديث فضل^(٢) يوم الجمعة، وأمين^(٣) من في السماء، وأذكر حديث أبي رزين^(٤) ويطوله ساقه ابن إمامنا والطبراني وأبو بكر بن زهير وأذكر كلام مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الْكَفَّاءَ﴾ [الإسراء: ٧٨]... في سبحان في ذكر تفسير المقام

حديث جابر

- (١) أخرجه ابن ماجه بطريقين العباداني وهو منكر الحديث وفضل الرقاشي ممن لا يكتب حديثه وأورده ابن الجوزي في الموضوعات وأقر الذهبي بكونه ضيف الإسناد ومثله يحتج الناظم.
- (٢) غير صالح للاحتجاج بالمرة ولا سيما في مثل هذا المطلب ولابن عساكر الحافظ جزء سماه (القول في جملة الأسانيد الواردة في حديث يوم المزيدي) وبين فيه وجوه الوهي فيها وقال إن لهذا الحديث عن أنس عدة طرق في جميعها مقال. وفي بعض طرق الحديث ما يخيّل إلى الناظر أنه في احتفاء بأحد وجات العرب تعالى الله عما اختلّفه أهداء الدين وركبوا له أسانيد ما أنزل الله بها من سلطان.
- (٣) وهو أمين من في الأرض من المؤمنين وأمين سكان السماوات كلهم فعاذا في هذا الحديث مما يرمي إليه الناظم.
- (٤) سبق الكلام في حديث أبي رزين، ونود أن نعلم هل كان الناظم يعتقد صحة جميع ما في كتاب السنة المنسوب إلى عبد الله بن أحمد، فإذا ذلك يسقط التابع والمتبوع وجل مقدار أحمد أن يصح عنه جميع ما في الكتاب المذكور ومن طالعه من أهل العلم لا يتردد أنه ليس بكتاب يحتاج بجميع ما فيه ومن جملة ما فيه: رآه على كرسي من ذهب يحمله أربعة: ملك في صورة رجل، وملك في صورة أسد وملك في صورة ثور وملك في صورة نسر، في روضة خضراء دونه فراش من ذهب. ومنها: كلمه بصوت يشبه الرعد. ومنها: أوحى الله إلى الجبال إنني نازل على جبل منك، ومنها: أن الرحمن ليثقل على حملة العرش من أول النهار إذا قام المشركون حتى إذا قام المسبحون خفف عن حملة العرش ومنها ﴿أَلَمْ تَرَ سُبْحَانَ يَوْمَ﴾ [الزمن: ١٨] مثقل وممتلئ به. ومنها: أنه ليقعد عليه فما يفضل منه إلا قيد أربع أصابع. ومنها فأصبح ريك يطوف في الأرض... إلى آخر ما تجده في النسخة المطبوعة من كتاب السنة. وقوله فنازل على جبل منك، يذكرنا ما أخرجه أبو إسماعيل الهروي في الفاروق عن كعب: إن الله نظر إلى الأرض فقال إنني واطيء على بعضك فاستبقت له الجبال وتضعضت الصخرة فشكر لها ذلك فوضع عليها قدمه فقال هذا مقامي... اه. وهذا الهروي المخرف يروي في ذم الكلام عن بعض قاداته أنه لا تحل ذبائح الأشعرية لأنهم ليسوا بمسلمين ولا بأهل كتاب اه، والله يتقّم منه. وأما الطبراني فمن المعروف عند أهل النقد أنه من الذين يروون الحديث الموضوع والضعيف بدون بيان كونه موضوعاً أو ضعيفاً بل ينسب إليه تصحيح حديث عكرمة في الرؤية على صورة شاب مرد... فلا حب ولا كرامة.

لأحمد^(١) إن كان نجسماً، فإن مجاهداً هو شيخهم بل شيخه الفوقاني ولقد أتى ذكر الجلوس به.

هذه الأحاديث كلها قد ذكرها الأئمة وذكرها تأويلاتها من قديم الزمان وإلى الآن.

فصل بحث ممتع في التأويل

في جناية التأويل^(٢) على ما جاء به الرسول.

(١) مروى عنه بطرق ضعيفة وتفسيره بالشفاعة متواتر معنى عن النبي ﷺ فأنى بناهضه قول تابعي على تقدير نبوته عنه؟ ومن يقول إن الله سبحانه قد أدخل مكاناً للنبي ﷺ في عرشه فيقعه عليه في جنب ذاته فلا تشك في زيغه وضلاله واختلال عقله رغم تقول جماعة البرهانية من الحشوية وكم آذوا ابن جرير حتى أدخل في تفسيره بعض شيء من ذلك مع أنه القائل:

سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس

ولو ورد مثل ذلك بسند صحيح لرؤى أن هذا سند مركب فكيف وهو لم يرفع إلى النبي ﷺ أصلاً بل نسب إلى مجاهد بن جبر، نعم لا مانع من أن يكون الله سبحانه يقعه على عرش أهله لرسوله ﷺ في القيامة إظهاراً لمنزله لا أنه يقعد ويقعه في جنبه، تعالى الله عن ذلك. إذ هو محال يرد بمثله خبر الأحاد على تقدير ورود مرفوعاً فكيف ولم يرد ذلك في المرفوع حتى قال النهمي: لم يثبت في قعود نبينا ﷺ على العرش نص بل في الباب حديث واه. وقال أيضاً: ويروى مرفوعاً وهو باطل. فما ذكره ابن عطية من التأويل وسأبره الألويسي فليس في محله لأن أصحاب الاستقراء لم يجدوه مرفوعاً حتى نحتاج إلى محاولة التأويل بما يمجبه الذوق ومن ظن أنه يوجد في مسند الفردوس ما يصح في ذلك لم يعرف الديلمي ولا مسنده وأرسل الكلام جزافاً. جرى الله الواحددي خيراً حيث رد تلك الأخلوقة رداً مشبهاً وكذا ابن المعلم القرشي وأما ما يروى عن أبي داود أنه قال من أنكر هذا الحديث فهو عندنا منهم. فيطريق النقاش صاحب شفاء الصدور وهو كذاب عند أهل النقد وقال ابن عبد البر إن لمجاهد قولين مهجورين عند أهل العلم أحدهما تأويل المقام المحمود بهذا الإجماع والثاني تأويل ﴿إِنَّ رَبَّكَ تَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [القيامة: ٢٣] بانتظار الثواب. وقتنة أبي محمد البرهاني ببغداد في الإقصاد وصمة حار بابي أهل الدين أن يميلوا إليها لاستحالة ذلك وتضافر الأدلة على تفسير المقام المحمود بالشفاعة وإنما هذه الأسطورة نسبت إلى معتقد الحشوية من قول بعض النصاري بأن عيسى عليه السلام رفع إلى السماء وقعد في جنب أبيه، تعالى الله عن ذلك لحاولوا أن يجعلوا للنبي ﷺ مثل ما جعله النصاري لعيسى عليه السلام كسابقة لهم، تعالى الله عن ذلك، فعليك أن تهتم من يقول إنني منهم من ينفي حديث الإقصاد في جنب الله عز وجل.

(٢) من كلام العرب ما يفهم منه مراد المتكلم بمجرد سماعه بدون احتياج إلى التدبر ومنه ما لا يفهم المراد منه إلا بعد التأمل فيما يزول إليه ذلك الكلام والتأويل تبين ما يزول إليه الكلام =

بعد التدبر فمن نفى التأويل جملة وتفصيلاً فقد جهل الكتاب والسنة ومناحي كلام العرب في التخاطب. وأبو يعلى الحنبلي المسكين - من أئمة الناطم - ألف كتاباً سماه (إبطال التأويلات في أخبار الصفات) أتى فيه بكل طامة حتى قال عنه أبو محمد رزق الله التميمي الحنبلي: لقد بال أبو يعلى على الحنبالية بولة لا يفسلها ماء البحار. كما ذكره سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان، ولفظ ابن الأثير في الكامل أقطع وأما لفظ ابن الجوزي في دفع الشيع فرواية بالمعنى، وقد ذكر أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي في دفع شبه التشبيه كثيراً من مخازيه بل في تأسيس ابن تيمية نقول كثيرة من كتاب (إبطال التأويلات) منها إثبات الحد له تعالى من الجانب الأسفل، تعالى الله عن ذلك. ويأسف الإنسان كل الأسف أن يغفل مثل أبي يعلى هذا الضلال وما ذلك إلا من عدوى خلطاته، فلو كان والده الذي كان من أخص أصحاب أبي بكر الرازي الجصاص رأى ما آل إليه أمر ابنه اليتيم عنه لبكى بكاء مرأ وتبرأ منه ومن عقائله. ومما زاد في وبلاات الكتاب اعتداده بكل خبر غير مميز بين المختلف وغيره. ولأبي يعلى هذا كتاب المعتمد في المعتمد وهو قريب إلى السنة ونرجو أن يكون هذا آخر مؤلفاته ليكون قاصباً على ما سلف منه وإلا فيا للعار والنار من مسaire الأشرار، فمن أول في كل موضع فهو قرمطي كافر، ومن أبي التأويل في كل آية وحديث فهو حجري زائع كابن الفاعوس الحنبلي الذي لقب بالحجري حيث كان يقول إن الحجر الأسود يمين الله حقيقة قال أبو بكر بن العربي عن الظاهرية:

قالوا الظواهر أصل لا يجوز لنا عنها العدول إلى رأي ولا نظر
بينوا عن الخلق لسم منهم أبداً ما للأنام ومعلوف من البقر

وقد قال ابن عقيل الحنبلي «هلك الإسلام بين طائفتين: الباطنية والظاهرية والحق بين المتزئنين وهو أن نأخذ بالظاهر ما لم يصرفنا عنه دليل ونرفض كل باطن لا يشهد به دليل من أدلة الشرع» وللغزالي جزء لطيف سماه قانون التأويل وهو يقول فيه عند البحث فيما إذا كان بين المعقول والمنقول تصادم في أول النظر وظاهر الفكر: «والخائفون فيه تحزبوا إلى مفرط يتجريد النظر إلى المنقول وإلى مفرط بتجريد النظر إلى المعقول وإلى متوسط طمع في الجمع والتلفيق والمتوسطون انقسموا إلى من جعل المعقول أصلاً والمنقول تابعاً وإلى من جعل المنقول أصلاً والمعقول تابعاً وإلى من جعل كل واحد أصلاً»: ثم شرح هؤلاء الأصفاف الخمسة شرحاً جيداً لا يستغني عنه باحث، حفظنا الله سبحانه من الإنطراط والتفريط ومسلك بنا سواء السبيل وفي الاطلاع على جزء الغزالي هذا فوائد في هذا الصدد.

قول ابن حجر في التأويل

وأما قول ابن حجر في فتح الباري «إنه لم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن أحد من الصحابة بطريق صحيح التصريح بوجود تأويل شيء من ذلك - يعني المتشابهات - ولا النسخ من ذكره ومن المحال أن يأمر الله نبيه ﷺ بتبليغ ما أنزل إليه ربه وينزل عليه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] ثم يترك هذا الباب فلا يميز ما يجوز نسبته إليه تعالى وما لا يجوز مع حثه على التبليغ عنه بقوله ﷺ: «يلبغ الشاهد الغائب» حتى نقلوا أقواله وأفعاله وأحواله وما فعل بحضرته فدلّ على أنهم اتفقوا على الإيمان بها على الوجه الذي أراد الله تعالى منها ووجب تنزيهه عن =

= مشابهة المخلوقات بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم فقد خالف سبيلهم وبالله التوفيق اهـ.

فليس مما يستطیع الحشوي أن يتخذ سنداً في ترويح مزاعم المشبهة - رغم محاولة بعضهم ذلك لأن في سياق كلامه ما يحتم التلويح مع التنزيه وهو مذهب جمهور السلف وليس أحد من أهل العلم يمنع من إجراء التشابه في الكتاب والسنة المشهورة على اللسان بدون خوض في المعنى فمن خاض وحمل على ما يتأني التنزيه فهو الذي خالف سبيلهم، بل الصحابة كلهم أجمعوا على تنزيه الله سبحانه عن مشابهة المخلوقات في ذاته وصفاته وأفعاله ومن ضرورة ذلك صرف الألفاظ المستعملة في الخلق عن معانيها المتعارفة بينهم إلى معاني تتسامى عنها عند نسبة تلك الألفاظ إلى الله سبحانه على مقتضى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وهو تأويل إجمالي وأما تعيين تلك المعاني المناسبة تفصيلاً بقرائن قائمة فيما يختلف مبلغ انتباه أهل العلم إليه على اختلاف ما أتاهم الله من الفهم فمن بان له وجه الكلام كوضح الصبح يسلك طريق التبيين بل يدخل هذا التشابه في حقه في عداد المحكم - وذلك كالتعدي بالنسبة إلى الحدسي ركم من نظري متعصب عند أناس يكون حديثاً مكشوراً عند أناس آخرين - فأحاديث النزول مثلاً إبعادها عن معان توجب التشبيه والنقطة موضع اتفاق بين أهل الحق سلفاً وخلفاً وحملها على المجاز في الطرف أو على الإسناد المجازي استعمال عربي صحيح وموافق للتنزيه وقد يرجع عند بعضهم الأول وعند بعضهم الثاني، ولكن الذي صح عنه رواية الإنزال أو اطلع على صحة حديث أبي هريرة في سنن النسائي «إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل ثم يأمر منادياً يقول هل من داع فيستجاب له» يجرم بإعادة الإسناد المجازي في باقي الروايات فيخرج حديث النزول في نظره من عداد المتشابه ويدخل في عداد المحكم حيث رده إليه.

تحقيق ابن دقيق العيد

قال الإمام المجتهد ابن دقيق العيد: «إن كان التأويل من المجاز البين الشائع فالحق سلوكه من غير توقف، أو من المجاز البعيد الشاذ فالحق تركه، وإن استوى الأمران فالاختلاف في جوازه وعدم جوازه مسألة فقهية اجتهادية والأمر فيها ليس بالخطر بالنسبة للفرقتين اهـ».

وهذا كلام نفيس جداً ببنىء عن علم جم، وصراحة في بيان الحق، وتوسط حكيم بخلاف كلام الذين يسعون في إرضاء الطوائف بكلام معقد متشابه يفتح باب التقول لمن بعدهم من الزائغين في المنشابهات، وأين هؤلاء من ابن دقيق العيد في الشروي والأمانة والصراحة والتحقيق والجمع بين الأصلين والفقه والحديث؟ وعن ابن دقيق العيد هذا يقول ابن المعلم: (كان مبارزاً لأهل البدع من الحشوية والصوتية والقاللين بالجهة... متكرراً عليهم بيده ولسانه ولقظه وجتانه يغري ويؤلب عليهم ولا يدع لهم رأساً قائمة إلا اقتطعها ولا شجرة يخشى شرها إلا اقتلعها) فتبين من ذلك أن المسلم في سعة من التفويض والتأويل فالأول في حينه أسلم والثاني بشرطه أحكم فلا يتصور أن ينقل التصريح بوجوب التأويل التفصيلي عن الصحابة لأنه لو نقل لوجب التأويل التفصيلي على العالم والمجاهل على حد سواء وهذا مما ييرا منه الشرع الحنيف.

صنيع الصحابة في التأويل

= وقد كانت الصحابة رضي الله عنهم لا يخوضون في المعضلات حرصاً منهم على معتقد الذين قرب عهدهم بالجاهلية وتدريباً لهم على الأعمال النافعة دون المماحكات الفارغة، لأن الخوض فيها يضر ولا ينفع في شخص دون شخص وفي وقت دون وقت - وعمل الفاروق رضي الله عنه في صبيح معروف - ولم يتقاضي الصحابة من الإجابة عند حدوث ضرورة كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما مع نافع بن الأزرق فلا يكون المؤول بشرطه مخالفاً للصحابة رضي الله عنهم بل مقتدياً بهم، وقد سرد المحدث النظار الفخر بن المعلم القرشي الشافعي في (نجم المهندي) في باب خاص منه نماذج كثيرة من التأويلات المروية عن الصحابة والتابعين وقد اكتظت كتب التفسير بالرواية بما روى عنهم في هذا الصدد، وكانت الصحابة يفهمون بلسنتهم كلام الله وكلام رسوله ﷺ ولم يكن يصعب عليهم فهم ما يستعصي فهمه على كثير ممن تأخر زمنه عن زمن الوحي، ولم يقع في كلام أحد منهم شيء ينافي التنزيه أصلاً وأما ما وقع في بعض الروايات مما يوهم ذلك فمن تغيير أعراب الرواة وأعاجمهم والرواية بالمعنى من غير فقهاء الرواة في حاجة إلى التقيب والنظر وحيث كان غالب ألفاظ الروايات ألفاظ الرواة - على حسب فهمهم المعاني - لا يعمل محققو علماء العربية في اللغة على ألفاظ الحديث المروي بالمعنى فكيف يتصور أن يتخذ علماء أصول الدين ألفاظ هؤلاء الرواة - على حسب أفهامهم - حجة في دين الله من غير نظر فيما إذا كان مخالفاً للتنزيه والبراهين القائمة؟ والحاصل أن التفرغ مع التنزيه مذهب جمهور السلف لانتفاء الضرورة في عهدهم والتأويل مع التنزيه مذهب جمهور الخلف حيث عرّف لهم ضرورة التأويل لكثرة الساعين في الإخلال في زمنهم، وليس بين الفريقين خلاف حقيقي لأن كليهما منزّه ومن أهل العلم من توسط بين هؤلاء وهؤلاء كما أشرت إليه.

وأما المشبهة فتراهم يقولون: نحن لا نزول بل نحمل آيات الصفات وأخبارها على ظاهرها. وهم في قولهم هذا غير متبهيّن إلى أن استعمال اللفظ في الله سبحانه بالمعنى المراد عند استعماله في الخلق تشبيه صريح وحمله على معنى سواه تأويل على أن الأخبار المحتج بها في الصفات إنما هي الصحاح المشاهير دون الوجدان والمفاهيم والمناكير والمنقطعات والضعاف والموضوعات مع أنهم يسمون جميعها في مساق واحد في كتب يسمونها التوحيد أو الصفات أو السنة أو العلو أو نحوها.

اضطراب الحشوية

ومن الأدلة القاطعة على رد مزاعم الحشوية في دعوى التمسك بالظاهر في اعتقاد الجلوس على العرش خاصة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرْثَرَ إِلَٰهَ مِن سَبِّ الْوَلَدِ﴾ [ق: ١٦] وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَجِبْ دَعْوَةَ الْغَافِلِينَ﴾ [النمل: ١٩] وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ وَكَانَ مَعَهُ عِجْلٌ﴾ [نمل: ٥٤] وقوله تعالى: ﴿وَمَوْمِنًا وَكَانَ مَعَهُ كِتَابٌ﴾ [الحديد: ٤] إلى غير ذلك مما لا يحصى في الكتاب والسنة المشهورة مما ينافي الجلوس على العرش وأهل السنة يرونها أدلة على تنزه الله سبحانه عن المكان كما هو الحق فلا يبقى =

للحشوية أن يعملوا شيئاً إزاء أمثال تلك النصوص غير محاولة تأويلها مجازفة أو العدول عن القول بالاستقرار المكاني فآين التمسك بالظاهر في هاتين الحالتين؟ وهكذا سائر مزاعمهم على أن من عرف أقسام النظم باعتبار الوضوح والخفاء وأقرّ بكون آيات الصفات وأخبارها من المتشابه كيف يتصور في هذا المقام ظاهراً يحمل المتشابه عليه؟ وإنما حقه أن يحمل المتشابه في الصفات على محكم قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] بالتأويل الإجمالي ومن الحشوية من يزعم أن الآية المذكورة متشابهة لبتكبح الحمل المذكور، بل منهم من بلغ به الكفر إلى حد أن يقول (له ساق كسافي هذه والمراد بالآية نفى المحاطة في الإلهية لا في كل أمر) كما تجد ذلك في ترجمة العبدري الظاهري في تاريخ ابن عساكر. وهذا كفر بواح، فتلاوة المشبه الآية المذكورة لا تنفي بمجرد التزيه بالمعنى الذي يفهمه أهل الحق من الآية فلا تغفل ولا تنخدع فمن المضطك المبكي تمسكهم مرة في نفى العلم بالتأويل بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْكُمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧] باعتبار الوقف على الاسم الكريم مع دعوى الحمل على الظاهر، وزعمهم أخرى أن التأويل بمعنى التفسير مع الوقف على ﴿وَأَلَّا يَكُونَ فِي آيَاتِهِ﴾ [آل عمران: ٧] مدعين أنهم يعلمون تأويل المتشابه باعتبار أنهم من الراسخين في العلم ومجتربين على النطق بكلمات في المتشابهات لا ينطق بمثلها من يخاف مقام ربه، وأما أهل الحق فلا يدعون معرفة جميع التأويل بل يفوضون علمه إلى الله ويردون المتشابه إلى المحكم جملة وتفصيلاً ولا يحملون لفظ التأويل في تلك الآية على خلاف معناه المعلوم من السياق بل يحمل بعض المحققين منهم النفي في الآية - بالوقف على لفظة ﴿الله﴾ كما هو المؤيد دراية ورواية - على سلب العموم دون عموم السلب بالنظر إلى أن التأويل مصدر مضاف فيكون من ألقاظ العموم فبانصباب النفي على العموم يكون المعنى: ما يعلم غيره تعالى بنفسه جميع التأويل وهذا لا يمانع معرفة الرسول ﷺ جميع التأويل بتعليم الله سبحانه وحياً ولا يمنع أهل العلم من الأمة من السعي في معرفة ما دون الجميع من التأويل كما هو حكم رفع الإيجاب الكلي، ومنهج كثير من السلف الذين اختاروا الوقف على لفظة ﴿الله﴾ فضلاً عن الخلف وبهذا نعرف قيمة ما أطال به ابن تيمية الكلام في تفسير سورة الإخلاص مظاهراً بالمسايرة مع الخلف مخادعة منه في صدد توهين الوقف على لفظة ﴿الله﴾ مع إخراج التأويل عن معناه ليمكن من حمل المتشابهات على معتقد الحشوية، فإذا تدبرت كلامه الطويل هناك تحت نور هذا البيان تجده يضمحل ويذهب هباء ومن الطريف تأويل التأويل ممن ينكر التأويل ويدعي الأخذ بالظاهر.

ثم إنني أوصي الشحيح بدبه أن لا يلتفت إلى كلام مثل البرهان الكوراني (وله أمثال) ممن ضاع صوابه بين نزعات متضاربة من حشوية وتصوف وفلسفة وكلام حيث أطلق عنان الهذيان في التلغيق بينها من غير أن يستبحر في علم منها والكلام بعد الاستطراف المجرد موقع في التحريف ومصدق ذلك في (الأمم لإيقاظ الهمم) له في (ص ٢٣ - ٢٦) منه فما يرويه فيه عن كتب تنسب إلى الأشعري على خلاف ما هو مدون في كتب أصحابه وأصحاب أصحابه ليس بموضع تعويل لمنافاته لنقل الكافة ولإبادة الحشوية لكتبه في فتن بغداد ولتصرفهم في البقية الباقية التي يذيعونها بما يخالف نقل الكافة ولعدم روايتها سماعاً بطريق أهل السنة، كما بينت =

فذكر أن التأويل أصل كل بلية ثم قال: «والتأويل الصحيح هو تفسيره وظهور معناه كقول عائشة يتأول القرآن وحقيقة التأويل معناه الرجوع إلى الحقيقة لا خلف بين أئمة التفسير في هذا، تأويله هو عندهم تفسيره بالظاهر^(١) ما قال منهم قط شخص واحد تأويله صرف عن الرجحان ولا نفي الحقيقة».

= ذلك في موضع آخر. وأما ما يرويه عن عبد الغني المقدسي بسنده عن الشافعي من الاعتقاد فيأبطل موضوع وفي سنده العشاري وأبو العز بن كادش وسباني حالهما في أواخر الكتاب وعبد الغني نفسه ليس ممن يقبل قوله في الصفات، راجع ذيل الروضتين. فلا يعمل على مثل هذا السند إلا مثل الكوراني.

التجلي في الصور

وقول الكوراني بالتجلي في الصور مجون في مجون وجنون ليس فوقه جنون، وقال أبو بكر ابن العربي في القواصم والمواصم (٢ - ٢٨) فيمن يحمل حديث «... فيأتيهم في صورة ثم يأتيهم في صورة أخرى...» على التبدل والانتقال والتحول: إنه ليس من أهل القبلة بل حكم بخروجه أصلاً وفرعاً من الملة. وحمل الصورة على ظاهرها فضيحة ليس فوقها فضيحة - والله هو الهادي.

(١) وحمل التأويل على معنى التفسير في باب المتشابهات تحريف للكلم عن مواضعه وملاحظة ظاهر للمتشابه جهل بأباه كثير من العامة فضلاً عن الخاصة وقد رضي الناظم لنفسه بهذا الجهل وأنى يتصور ظاهر في مشابهة؟ فالظاهر في اللغة يقابل الخفي فلا يتصور حيث لا يكون المدلول عليه واضحاً فلا يعقل أن يلاحظ هذا المعنى في المتشابه الذي هو غاية في الخفاء، وأما في أصول الفقه فهو بمعنى الراجح من الاحتمالين بالوضع أو بالدليل وهو من أقسام الوضوح المقابل للخفاء الذي من أقسامه المتشابه فلا يتصور اجتماعهما في لفظ ويطلق الظاهر أيضاً على ما يدل على المراد بإحدى الدلالات المعتمدة عند أهل اللسان فيكون مقابلاً للباطن الذي ابتدعه القرامطة، ولا شأن لهذا المعنى في هذا المبحث، وقد يطلق الظاهر بمعنى المستفيض المشهور وهو مراد من يقول من أهل السنة (بإجراء أخبار الصفات على ظاهرها) حيث يريد إجراء اللفظ المستفيض عن النبي ﷺ في صفات الله على اللسان كما ورد مع التفويض أو التأويل على ما سبق، وهذا المعنى هو المراد في قول الفقهاء (هذا ظاهر الرواية) يعنون أنه المروي عن صاحب المذهب بطريق الاستباضة والشهرة. وفيما علق على الاختلاف في اللفظ (ص ٤٥): «أما ما يروى عن بعض السلف من إجراء أحاديث الصفات وإمرارها على ظاهرها فليس بمعنى الظاهر المصطلح في أصول الفقه الذي يبقى حين ترجح الاحتمال الآخر بالدليل كالنجم عند شروق الشمس ولا بمعنى ما يظهر للعامة من اللفظ بل بالمعنى المقابل للغريب الذي يتفرد بلفظه راو في إحدى الطبقات فيكون بمعنى تجويز إمرار اللفظ على اللسان وإجرائه عليه إذا كان اللفظ مروباً بطريق الظهور والشهرة في جميع الطبقات كما وقع إطلاق الظاهر بهذا المعنى في كلام الإمام مالك رضي الله عنه وغيره وقد يناط بعضهم في ذلك فيضل ويضل فلزم التنبيه على ذلك اهـ».

قال الله تعالى في المتشابه: ﴿آيَاتُهُ الْفُتْنَةُ وَالْآيَةُ تَأْوِيلُهَا﴾ [آل عمران: ٧] فكيف يكون تأويله تفسيره بالظاهر والمتشابه لا ظاهر له وقوله ما قال منهم أحد إن التأويل صرف عن الرجحان: كذب بل خلق قالوا ذلك وينطلق التأويل أيضاً على تدبر القرآن وتفهم معناه.

فصل

قيما يلزم مدعى التأويل.

ثم قال: «دليل صارف واحتمال اللفظ وتعيين المقصود».

هذا كثرة كلام في أمر سهل مفروغ منه.

فصل

«في طريقة ابن سينا^(١) وذويه من الملاحدة في التأويل».

ذكر ابن سينا والملاحدة هنا للتفجير وإلا لما جاء بابن سينا والملاحدة معنا.

قال: «ويقول تأويلي كتأويل الفوقية والصفات والعلو تأويله أشد من تأويل القيامة وحدث العالم».

ليس مقصود هذا الناظم إلا أن يفضح مقالات خصومه من الفقهاء وأهل العلم ويجعلها في قلوب العامة أقبح من مقالات الفلاسفة لتشتد نفرتهم عنها واندفع في مخارق وسفه ودعاوى لا حقيقة لها.

تبديع الفلاسفة وإكفارهم

(١) ذكر الغزالي مخالفته لما عليه أهل الحق في نحو عشرين مسألة أكفره بثلاث منها وبدعه في الباقي في كتاب التهافت فقدم العالم وإنكار الحشر الجسماني ومسألة العلم بالجزئيات هي المكفورات عنده لكن الناظم وشيخه قاتلان بالقدم النوعي ولا يقولان بإعادة الأجزاء المعدمة بل ولا يجمع الأجزاء المفارقة - راجع تفسير سورة الإخلاص لشيخه - وقولهما في العلم بالمتجددات معروف - راجع ما استنقله من مفردات ابن تيمية من ذخائر القصر - فهما من أوقع الناس في شبكة التفلسف عن جهل، على أن قول ابن رشد في تهافت التهافت ومناهج الأدلة وقول الرازي في المطالب العالية وقول اللواتي في شرح المضدية مما يثير اهتمام الباحث بتلك المسائل. وقد صرح ابن سينا في بعض كتبه بأن العقل لا يدرك غير الحشر الروحاني وأما البيعت الجسماني فطريق ممرته وحي الرسل وليس في هذا إنكار للبعث الجسماني.

فصل

قال: «هذا وثَمَّ بلية مستورة ورث المحرف من اليهود وأنى إلى حزب الهدى وأعطاهم شبه اليهود قال استوى استولى وإذا من جهله عشرون^(١) وجهاً تبطله أفردت بتصنف تصنيف حبر عالم رباني وشبه النون التي زادت بها اليهود في حطة بلام تعطيل الجهمية». وهذا من الخرافات.

فصل

قال: «ومن العجائب قولهم فرعون مذهبه العلو وفرعون قال إن موسى كاذب إذا ادعى فوقية الرحمن». أين ادعى موسى فوقية الرحمن؟

فصل

قال: «تركيب استوى مع حرف الاستعلاء نص في العلو بوضع كل لسان». نص في العلو أما في الذات فلا، فقولك: استوى قيس على العراق. لا يستلزم أن يكون إذ ذاك في العراق بل ملكه فيها وعليها.

فصل

كله دعاوى وفتاوى فارغة.

فصل

فيه إنكار المجردات^(٢).

(١) وقد سبق إبطال جميع تلك الوجوه، والمصنف ذكر فيما سبق وجه حسن استعمال استوى مجازاً عن استولى بحيث لا يدع لقاتل مقالاً، على أن الاستعارة التمثيلية في هذا المقام أقعد وأوقع فيكون المجاز على هذا التقدير في المركب دون أن يسري في مفرداته كما هو مدون في محله وقد أشرت إلى اختيار ذلك فيما علفته على الاختلاف في اللفظ لابن تيبة (ص ٤١).

تجرد الروح

(٢) القول بتجرد الروح مما ذهب إليه إمام الهدى أبو منصور الماتريدي والحلي والراغب والغزالي والبيضاوي وغيرهم من كبار علماء السنة وه يزول كثير من الإشكالات، وإن خفيت أدلة ذلك على جمهور المتكلمين فضلاً عن مكسري الحشوية.

فصل

سوى فيه بينهم وبين المتأنين والقراطة وجعل المجسمة مقابل الجميع، وأن ما ثم إلا التجسيم أو التعطيل وقد تقدم مثله، وإنما زاد التكرير والتفطيع ليزرع الرية في القلوب.

فصل

قال: «الاستواء ونحوه والمشيئة ونحوها كلاهما من صفات الأجسام - وطلب الفرق بينهما - والله لو نشرت شيوذك كلها لم يقدروا أبداً على فرقان». انظر هذا الجلف الجاري على ما لا يعلم، وكل عاقل يعلم أن الاستواء بمعنى القعود أقرب إلى صفات الأجسام من المشيئة والقدرة.

قال: «قال زعيمهم في الفرق هذه الصفات بالعقل والقرآن فيقال إن نفي العقل التجسيم فانفوها وانسلخوا من القرآن وإن أثبته فلم الغرار؟ وإن نفاه في وصف وأثبته في وصف فما الفرق؟».

انظر هل بعد هذا الكلام شيء في التجسيم^(١)؟.

فصل

كله سفاقة.

فصل

حكى مذاهب خصومه بأقبح ما يكون ثم قال: «جريت هذا كله ووقعت في

نص من ابن تيمية في الحد والجسم

(١) وشيخه أصرح منه وأجهر صوتاً في ذلك حيث يقول فيما ردّه به على أساس التقديس: «ومن المعلوم بالاضطرار أن اسم الواحد في كلام الله لم يقصد به سلب الصفات - يريد ما يشمل المجيء ونحوه - ولا سلب إدراكه بالحواس ولا نفي الحد والقدر ونحو ذلك من المعاني التي ابتدع فيها الجهمية وأتباعهم، ولا يوجد نفيها في كتاب ولا سنة اهـ». وهذا صريح جداً لعلك لا تحوجني إلى شرح ذلك، راجع الكواكب الدراري لابن زكّون الحنبلي المحفوظ بظاهرية دمشق في المجلد رقم ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ منه رده على أساس التقديس وفيه فوق ما تقدم التصريح بأنه يمكنه التزام قدم بعض الأجسام يريد الباري سبحانه فهل يتصور أن ينطق مبتدع مارق بأصرح من هذا في وسط المسلمين والناظم متقلد ملهه يدون تفكير والله سبحانه ينتقم منهما بما أثاروا من الفتن بين العوام.

تلك الشباك وكنت ذا طيران حتى أتاح لي الإله بفضلته من ليس تجزيه يدي ولساني
حبر أتى من أرض حوران فياً أهلاً بمن قد جاء من حوران^(١).

(١) وكما أضل من خلطائه ولهم معه موقف يوم القيامة لا يخط عليه وهو الذي جاهر بقيام
الحوادث بدياته تعالى - بعز ذلك إلى أئمة أبرياء من مثل هذا الإلحاد - وبالفهم النووي،
وبالجهة والحركة والنقل وتجويز الجسمية والاستقرار في جانب الله سبحانه مع التناول على
كثير من الأئمة والشذوذ عما عليه جمهور أهل العلم في كثير من المسائل الفرعية، والرد على
كثير العلماء وصغيرهم حتى الصحابة وتلييس ذلك بمذهب السلف خيانة وكذباً، ومما يجب
التنبه إليه أن من وجوه تحيل الناظم وشبهه ومن على شاكلتهما من المتشبعين بما لم يعطوا
تنج ما دون ضد الأئمة المتبوعين من مواخذات في مسائل واتخاذ تلك المواخذات وسيلة
للتهم عليهم كلما شاوروا لأجل أن يظهروا بمظهر أنهم من السعة في العلم بحيث تضيق علوم
الأئمة من علومهم ويجب هجر آراء هؤلاء إلى أهولتهم، هذا شأنهم في أئمة علوم الشرع
وهكذا صنيعهم مع علماء باقي العلوم بدون تفرغ العلم، ولا شك أن كل عالم مهما علت
منزلته في علمه لا بد وأن تقع منه هفوات تكون مدونة في كتاب لأحد نقاد هذا العلم
المفرغين للتحصيل فيه خاصة إذ لا عصمة لغير الأنبياء عليهم السلام، فمن تعود أن يجمع
تلك المواخذات من مظانها كالباب الخاص في مصنف أبي شيبه في مخالفت أبي حنيفة
لأحاديث صحيحة صريحة في نظر صاحب المصنف، وكتاب إبراهيم ابن علي في مالك وكتاب
محمد بن عبد الحكم في حق الشافعي، وكتاب الكياهراسي في مفردات أحمد وكتاب
الأهوازي في الأشعري ونحوها، وأخذ يتحامل على الأئمة بتوجيه تلك المواخذات إليهم
منظاهراً بأنهم من بنات أفكاره داساً في غضون كلامه ما شاء من الأباطيل يظن به من لا بصير له
بالحقائق من العامة أن له من العلم ما يجعله فوق الأئمة فهماً وتحقيقاً وإحاطة مع أنه لا يس
ثوبي زور، وقد رذ على غالب تلك المواخذات في كتب خاصة بحيث لا تقوم لها قائمة لكن
الذي يجعل ذلك يتخذ بخزعيلاته ويقع في المهالك إذا تقاصر علماء أهل الحق من البحث
والتنقيب والرد على الشذاف بمثل أسلحتهم كما يجب، والله سبحانه يتولى هدايتنا بمشركه
وأيقتنا جميعاً من رقتنا وألهمنا طريق حراسة مناهب أهل الحق في الأصول والفروع وأشعرنا
عظم المسؤولية في الآخرة ووقانا شر الساهل في ذلك إنه سميع مجيب.

قال الحافظ ابن طولون في «ذخائر القصر في تراجم نبل العصور» عند ذكره سبب انتقال الشيخ
عبد النافع بن عراق من المذهب الحنبلي إلى المذهب الشافعي بعد أن جعله والده حنبلياً:
«قال الحافظ صلاح الدين العلائي (وقل من أفضله عليه من متأخري الشافعية في الجمع بين
الفقه والحديث كما يجب) ذكر المسائل التي خالف فيها ابن تيمية الناس في الأصول والفروع.
فمنها ما خالف فيها الإجماع، ومنها ما خالف فيها الراجح في المذاهب: فمن ذلك يمين
الطلاق قال بأنه لا يقع عند وقوع المحلوف عليه بل عليه فيها كفارة يمين، ولم يقل قبله
بالكفارة فيها واحد من فقهاء المسلمين البتة ودام إفتاؤه بذلك زماناً طويلاً وعظم الخطب ووقع
في تقليده جم غفير من العوام وعم البلاء، وأن طلاق الحائض لا يقع وكذلك الطلاق في طهر
جامع فيه زوجته، وأن الطلاق الثلاث يرد إلى واحدة، وكان قبل ذلك قد تقل إجماع المسلمين
في هذه المسألة على خلاف ذلك، وإن من خالفه فقد كفر، ثم إنه أتى بخلافه وأوقع خلقاً =

كثيراً من الناس فيه، وأن الصلاة إذا تركت عمداً لا يشرع فضاؤها، وأن الحائض تطوف في البيت من غير كفارة وهو مباح لها، وإن المكوس حلال لمن أقطعها، وإذا أخذت من التجار أجزائهم عن الزكاة وإن لم يكن باسم الزكاة ولا على رسمها، وأن المايعات لا تنجس يموت الفأرة ونحوها فيها، وأن الجنب يصلي تطوعه بالليل بالتيجم ولا يؤخره إلى أن يفتسل عند الفجر وإن كان بالبلد. وقد رأيت من يفعل ذلك ممن قلده فتمتته منه، وسمعت حين مثل عن رجل قَدِمَ فرائشاً لأمر فيجنب بالليل في السفر ويخاف إن اغتسل عند الفجر أن يتهمة أسناده فأفتاه بصلاة الصبح بالتيجم وهو قادر على الغسل (ومسألة أبي يوسف غير هذه)، ومثل عن شرط الواقف قال غير معتبر بالكلية بل الوقف على الشافعية يصرف إلى الحنفية وعلى الفقهاء إلى الصوفية وبالعكس، وكان يفعل هكذا في مدرسته فيعطي منها الجند والعمام ولا يحضر درساً على اصطلاح الفقهاء وشرط الواقف بل يحضر فيها ميعاداً يوم الثلاثاء ويحضره العوام ويستغني بذلك عن الدرس، ومثل عن جواز بيع أمهات الأولاد فرجحه وأفتى به.

ومن المسائل المنفرد بها في الأصول مسألة الحسن والقبح التي يقول بها المعتزلة (بل أرى عليهم بتحكيم العقل في الخلود راجع المعتمد لأبي الحسين البصري المعتزلي في المسألة وكلام ابن تيمية فيها حتى تعلم مبلغ مجازفته وتهوره) فقال بها ونصرها وصنف فيها وجعلها دين الله بل ألزم كل ما بيني عليه كالموازنة في الأعمال (فيا ليت حينما حكم العقل حكم العقل السليم ولم يحكم عقل نفسه الظاهر اختلاله جداً بما فاه به في ذات الله وصفاته، تعالى الله عما يقول الجاهلون).

وأما مقالاته في أصول الدين فمنها أن الله سبحانه محل للحوادث، تعالى الله عما يقول علواً كبيراً، وأنه مركب مفتقر إلى (اليد والعين والوجه والساق ونحوها) افتقار الكل إلى الجزء، وإن القرآن محدث في ذاته تعالى، وأن العالم قديم بالنوع ولم يزل مع الله مخلوق دائماً فجعله موجباً بالذات لا فاعلاً بالاختيار - سبحانه ما أحلمه - ومنها قوله بالجسمية والجهة والانتقال - وهو منزه عن ذلك - وصرح في بعض تصانيفه بأن الله بقدر العرش لا أكبر ولا أصغر تعالى الله عن ذلك، وصنف جزءاً في أن علم الله لا يتعلق بما لا يتناهى كنعيم أهل الجنة وأنه لا يحيط بغير المتناهي وهي التي زلق فيها الإمام - يعني ابن الجويني في البرهان - ومنها أن الأنبياء خير معصومين وأن نبيا عليه وعليهم الصلاة والسلام ليس له جاه ولا يتوسل به أحد إلا وأن يكون مخطئاً، وصنف في ذلك عدة أوراق، وأن إنشاء السفر لزيارة نبينا ﷺ معصية لا تقصر فيها الصلاة ويبلغ في ذلك، ولم يقل به أحد من المسلمين قبله، وإن عذاب أهل النار ينقطع ولا يتأبد (وجزء - التضيي السبكي في الرد عليه مطبوع) ومن أفرادها أيضاً أن التوراة والإنجيل لم تبدل ألفاظهما بل هي باقية على ما أنزلت وإنما وقع التحريف في تأويلهما وله فيه مصنف (هنا يخالف كتاب الله والتاريخ الصحيح، وما في البخاري عن ابن عباس من الكلام الطويل في ذلك بين صدره وعجزه كلام مدرج، ما أسنده أحد وفيه الإيهام فلا يصح أن يتمسك به أحد على خلاف كتاب الله وخلاف ما صحح عن ابن عباس نفسه في البخاري نفسه) آخر ما رأيت وأستغفر الله من كتابة مثل هذا فضلاً عن اعتقاده انتهى ما نقله ابن طولون عن الصلاح الملاكي*. وصاحب هذه الطامات هو الذي يرحب به النظام ويتخله قدوة فتياً لهذا التابع وهذا =

فصل

قال: «ومن العجائب قولهم حشوية^(١) سمي به ابن عبيد» فيه سفه.

فصل

قال: «كم ذا مجسمة، وإذا سببتم بالمحال فسنبا بأدلة وحجاج ذي برهان فحقيقة التجسيم إن يك عندكم وصف الإله بصفاته العليا فتحملوا عنا الشهادة واشهدوا في كل مجتمع وكل مكان أنا مجسمة بفضل الله وليشهد بذلك معكم الثقلان».

نقول له: أنت أبديت لنا اعتقادك ووصفت بأمر يمتحن فيها كل عاقل منصف إذا عرضت على خال من الأغراض كلها من امرأة أو صبي أو أعجمي أو عربي عامي وعموم الناس هل يفهمون من الاستواء والقعود والنزول والمجيء والإتيان والوجه^(٢)

= المتبوع. وما ذكره ابن رجب في مفرداته ارتفاع الحدث بالمياه المعتصرة كماه الورد ونحوه، وجواز المسح على كل ما يحتاج في نزعه من الرجل إلى معالجة باليد أو بالرجل الأخرى، وعدم توقيت المسح على الخفين مع الحاجة، وجواز التيمم خشية فوت الوقت لغير المعذور وفوت الجمعة والمبدين وأنه لا حد لأقل الحيض ولا لأكثره ولا لسن الإياس، وأن قصر الصلاة يجوز في قصر السفر وطويله، وأن البكر لا تستبرئ ولو كانت كبيرة وأنه لا يشترط الوضوء لسجود التلاوة، وأنه يجوز المسابقة بلا محلل، واستبراء المختلعة بحيضة وكذا الموطوءة بشبهة والمطلقة آخر ثلاث تطليقات وغيرها اه فكم له من شواذ نحو ما تقدم. وقد ذكر ابن حجر الهيثمي في الفتاوى الحديثية كثيراً من شواذ ابن تيمية وقال عنه: «عبد خذله الله وأخزاه وأصنمه وأعماه» وقد حاول الشيخ نعمان الأكوبي بإشارة صديق خان الذي كان له به صلة مادية متينة الرد عليه في (جلاء العينين) متوخياً تبرقة ساحة ابن تيمية من غالب تلك الشواذ لكن سقط في يده حيث فضحت هذه المرحلة من الدعاية لابن تيمية بطبع كتب له فيما بعد تصرح بما نفى هو عنه بل ربما طبع له كتب أخرى مثل (التأسيس في رد أساس التقيس) بالنظر إلى أن بعض صنائع الحشوية نقله حديثاً فيخبرون بيوتهم بأيديهم وأيدي المسلمين وفيما ذكرناه كفاية في لفت النظر إلى نماذج من مفرداته والشيخ نعمان المذكور ناقض نفسه حيث يناقض كلامه في الكتاب المذكور ما سطره هو في (غالبية المواظ) لكن قاتل الله المادة ما دخلت في شيء إلا أنسدته وهو ليس بأمين على طبع تفسير والده ولو قابله أحدهم بالنسخة المحفوظة اليوم بمكتبة راعب باشا بإصطنبول - وهي النسخة التي كان المؤلف أهداها إلى السلطان عبد المجيد خان - لوجد ما يطمئن إليه. نسأل الله السلامة.

(١) فهل تلقيب عمرو بن عبيد لابن عمر رضي الله عنه بالحشوي فكأن وزوراً على تقدير ثبوت ذلك عنه يمنع من تلقيب الحسن البصري لطوائف المجسمة حشوية حقاً وصدقاً، فاضحك ثم اضحك على عقل من يأبى هذا التلقيب وهو متلبس بهذه الرخصة الشيعة بشهادة نفسه.

(٢) ليس بخافٍ على ملم باللغة العربية وبمناحي الكلام في اللسان العربي المبين أن لكل كلمة مع =

واليد والساق والقدم والجنب والعين والانتقال في الدرجات وغير ذلك مما قد ذكرته معنى الجسم ويرسم ذلك في نفسه أولاً فإن قال إنه لا يفهم منها إلا معنى الجسم فيكفيك إثماً عند الله إضلال مثل هؤلاء وحملهم على اعتقاد التجسيم الذي تزعم أنت بلسانك أنك لا تقول به فالمحقق منك إضلال أكثر العالم، وأما أنت في نفسك فإن كذبت في إنكارك التجسيم فقد جمعت إلى فساد الاعتقاد الكذب، وإن صدقت في زعمك فقد لبست عليك نفسك وخيلت لك فرقاً أو كان عندك فرق الله أعلم به، هذا في الباطن الذي أمره إلى الله في الآخرة وأما في الدنيا فإن في قبول قولك عندنا نظراً فإن قبل أو لم يقبل - وإن كنا لم نقل بالكفر ولا بالقتل - فلا أقل من القدر الذي ينكف به ضررك عن المسلمين. وهذه الأشياء التي ذكرناها هي عند أهل اللغة أجزاء لا أوصاف، فهي صريحة في التركيب والتركيب للأجسام، فذكرك لفظ الأوصاف تلبس وكل أهل اللغة لا يفهمون من الوجه والعين^(١) والجنب والقدم إلا الأجزاء ولا

= صاحبها شأناً ليس لها مع كلمة أخرى، فمن جمع ما فرقه الله سبحانه في كتابه من الصفات العليا أو فرق ما جمعه فقد خان الله حيث جعل صفات الله سبحانه عرضة لتقولات المتقولين من أصحاب الأهواء وكذلك ما ورد في السنة من الصفات والأفعال. وكما بين المجمة من ألف فيما يسمونه التوحيد أو السنة أو الصفات أبواباً في اليد والعين والساعد والأصبع واليمين والذراع والكف والجنب والقدم والحق والصدر ونحوها. جمعاً لما تفرق في الروايات المختلفة لمختلف الرواة لهوى في نفوسهم، وليس تفرق المجموع جمع الفرق في هذا الباب من شأن من يخالفه سبحانه، وأنت علمت معاني تلك الصفات على مذهب أهل الحق.

قول السلف في العين واليد

(١) ومن ذكر من السلف أن العين واليد صفتان تبرا بهذا اللفظ عن القول بالجراحة بل يكون قالاً بأن المراد بالعين معنى قائم بالله وكذلك اليد لكن لا أعين ذلك المعنى المراد بأن أقول إنه الرؤية أو الحفظ، والقدرة أو النعمة أو العناية الخاصة لكون تعيين المراد من بين المحتملات الموافقة للتزويه تحكماً على مراد الله وتسميته لهما صفتين تدل على أنه جازم بأنهما ليستا من قبيل أجزاء الذات تعالى الله عن ذلك، ومن قال وله يد بها يبطش وعين بها يرى جعلهما من قبيل الجوارح وخالف السلف الصالح. وقد قال الترمذي عند الكلام على حديث «يمين الرحمن ملأى سخاء...» وهذا حديث قد روثه الأئمة تؤمن به كما جاء من غير أن يفسر أو يتوهم، هكذا قال غير واحد من الأئمة منهم الثوري ومالك بن أنس وابن عيينة وابن المبارك أنه تروى هذه الأشياء ويؤمن بها فلا يقال كيف اهـ.

خداع الناظم وشيخه

وإين هذا من عمل الناظم وشيخه؟ نعم قد يقع في كلامهما ذكر الوجه والعين واليد وغيرها بأنها صفات لكن السياق والسباق في كلامهما بتايدان أنهما أرادا بها أجزاء الذات لا المعاني =

يفهم من الاستواء بمعنى القعود إلا أنه هيئة وضع المتمكن في المكان ولا من المجيء والإتيان والنزول إلا الحركة الخاصة بالجسم، وأما المشيئة والعلم والقدر ونحوها فهي صفات ذات وهي فينا ذات أمرين أحدهما عرض قائم بالجسم، والله تعالى منزّه عنه، والثاني المعاني المتعلقة بالمراد والمعلوم والمقدور وهي الموصوف بها الرب سبحانه وتعالى وليست مختصة بالأجسام فظهر الفرق.

فصل

قال: «يا وارد القلوطة»^(١).

فأتى بيضعة عشر بيتاً من هذا القبيل فهل سمع أحد بأن هذا كلام أهل العلم، وما دعائي إلى الوقوف على هذا الوسخ؟ ينبغي أن يأتي له (مجلّي) مثله يتكلم معه زيّق المشاعلي أو غرير المرقد أو أهل جعفر أو عماد فكيف بابن حجاج؟.

فصل

فيه أكثر من تسعين بيتاً... وقال في أواخره:

من قال بالتعطيل فهو مكذب	بجميع رسل الله والفرقان
إن المعطل لا إله له	سوى المنحوت في الأذهان
وكذا إله المشركين نحتة الأيد	يدي ما في نحتهم بيان
لكن إله المرسلين هو الذي	فوق السماء مكون الأكوان

= القائمة بالله سبحانه كما يقول السلف، واصطلحوا في الصفة على معنى، يجمع الجزء على خلاف المعروف بين أهل العلم وإلا لما بقي وجه لشدهما ضد أهل الحق. وشيخ النازم يقول في الأجرية المصرية: «إن الله يقبض السماوات والأرض باليدين اللتين هما البدان» فماذا يجدي بعد هذا التصريح أن يسميها صفات؟ والله سبحانه هو الهادي.

معنى القبض عند الخلف

وأهل العلم من الخلف يحملون القبض على أنه مجاز عن إخراج السماوات من الإغلاق والأرض من الإقلال وإيقافهما عن أن تكونا صالحتين لتنازل المتناسلين كما يشير إلى ذلك البيضاوي وهو القابض الباسط أي المرفق عن المسير متى شاء والمجرى للأمور كما يشاء. راجع المعارضة في شرح الأسماء الحسنى. والسلف يفوضون مع التنزيه، وأما حمل القبض على القبض الحسي فقول بالتجسيم والجراحة، تعالى الله عن ذلك.

(١) لفظة عامة لا ينطق بها من العوام إلا من هو بالغ الوقاحة فضلاً عن أهل العلم فتأبى شرح هذه الكلمة القدرة المستنة.

المعطل في الأصل من ينفي الصانع

وهذا الرجل يسمي خصومه معطلة لأنهم نفوا الصانع الذي يقول هو به ويصفه بتلك الصفات بزعمه ويجعلهم يعبدون إلهاً آخر ويكفرهم كالمشركين العابدين للأصنام، فيا خيبة المسلمين إن كان يكفر بعضهم بعضاً، ولم لا يقول هذا الجاهل إن الكل يقرون بالله ووحدانيته ويغلط بعضهم في وصفه ولا يخرجهم ذلك الغلط عن الإسلام؟ وإن كان ولا بد من الإخراج فمن أولى به؟ ومن أولى بعبادة ما نحتة ذهنة؟ من ركب أجزاء مقصودة معقولة أو من قال أعبد إلهاً واحداً أنا عاجز عن معرفته وعن كنه ذاته فهو كما وصف به نفسه، وفوق ما يصف به عباده، وعقلي يقصر عن سبحات وجهه وعلمي يضل في علمه ويتضاءل دون عظمتة وملكوته سلطانه وقدرته وقهره لا شريك له سبحانه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] كل ما تصوره الذهن فالله بخلافه لو اجتمعت عقول العالمين كلها لم تبلغ معرفة حقيقة ذاته ولا كنه صفاته، وإنما علموا منها ما دلهم على التوحيد وأمر السيد العبيد وأنعم عليهم بالرسول أرشدهم إلى ما فيه صلاحهم وأنزل عليهم كتاباً كلفهم فيه بتكاليف إن عملوا بها وصلوا إلى دار السلام. فلا ينبغي لهم الاشتغال بغيرها - فاشتغالهم بغيرها فضول - وإن فكروا فكروا في آلائه لا في ذاته، فإن هناك تضل العقول، وانظر إلى هذه الصفات التي يشبها هذا المبتدع لم تجيء قط في الغالب مقصودة وإنما في ضمن كلام يقصد منه أمر آخر وجاءت لتفريق ذلك الأمر، وقد فهمها الصحابة ولذلك لم يسألوا عنها النبي ﷺ لأنها كانت معقولة عندهم بوضع اللسان وقرائن الأحوال وسباق الكلام وسبب النزول ومضت الأعصار الثلاثة التي هي خيار القرون على ذلك حتى حدثت البدع والأهواء فيجيء مثل هذا المتخلف يجمع كلمات وقعت في أثناء آيات أو أخبار فهم الموفقون معناها بانضمامها مع الكلام المقصود فجعلها هذا المتخلف في أمثاله مقصودة وبالحق فيها فأورث الرب في قلوب المهنددين، وانظر إلى أكثرها لا تجده مقصوداً بالكلام بل المقصود غيره إما بسباق قبله أو بسباق بعده، أو بأن يكون المحدث عنه معنى آخر والمحدث به ويكون ذلك مذكوراً على جهة الوصف المقوي لمعنى ما سبق الكلام لأجله، وما مثل المشتغلين بذلك وبالكلام إلا مثل سرية أنها كتاب السلطان يأمرهم بما يعتمدونه في الغزاة التي نذبهام لها ويوصيهم بأمر مهمة لما بين أيديهم وينهاهم عن أمور وينبههم على مكان لعدوهم وعدوه حتى يحترزوا عن غوائلها فأخذوا يتأملون في ذلك الكتاب ويفكرون فيمن كتبه وفي حروفه ومتى كتب وأين كان السلطان حين كتبه وعلم عليه، وهل كان

في القلعة أو في غيرها وربما كان فيهم من لم يرَ السلطان قط فصار يسأل عن صفته وشغلوا الزمان بذلك ويسؤال حامل الكتاب عنه وبالفكرة فيه واشتغلوا به عما هم بصدده من الجهاد الذي أمرهم به وعن تلك الأمور التي وصاهم بها في الكتاب وأمرهم بها ونهاهم عنها وما كفاهم ذلك حتى أداهم اختلافهم في صفة السلطان وفي أين كان لما كتب ومن كتب الكتاب عنه إلى أن قال كل فريق منهم عن الآخر الذي وصفه بخلاف ما وصفه به رفيقه إنه أنكر السلطان وقال إنه لا سلطان له فهل يكون لهؤلاء عقل، اللهم إنا نسألك أن لا تضل عقولنا ولا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ونحفظ علينا ديننا يا مقلب القلوب يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

فصل

أكثر من مائة بيت كلها إغراء بخصومه والله ينتقم لهم منه ثم إنه يناقض قوله فينكر على خصومه تكفيره فلم لا ينكر على نفسه تكفيرهم بعين ما كفروه به.

فصل

مختصر في معناه.

فصل

قريب منه.

فصل

قال:

ن مكنوماً منذ زمان ^(١)	اسمع سرّاً عجيباً كما
مقرونة مع أحرف بوزان	جيم وجيم ثم جيم معها
تحلله تحلل ذروة العرفان	فيها لدى الأقوام طلسم متى
جيمات بالتثليث شر قران	فإذا رأيت الثور فيه تقارن الـ

(١) هذا من الدليل على أنه من ورثة علوم الصابنة عبدة الأجرام العلوية كاد أن يروح بما عنده من عزائم الكواكب كما فعل عبد السلام الجيلي، راجع ترجمته من طبقات ابن رجب وذيل الروضتين لأبي شامة الحافظ.

دلت على أن النحوس جميعها سهـم الذي قد فاز بالخذلان
جبر وإرجاء وجيم تجهـم فتأمل المجموع في الميزان
فاحكم لطالعتها لمن حصلت له بخلاصه من رقة الإيمان

وأخذ يذكر مفسد المذاهب الثلاثة «وقياذ الجبر»^(١) إلى الكفر والبهتان والإرجاء كذلك بالجد في العصيان وشتـم الرسل ومن أتوا من عنده والسجود للصنم، فإذا أضفت إلى الجيمين جيم تجهـم آيين الصفات والجهم أصلها جميعاً والوارثون له أصحابها لا شيعة الإيمان لكن نجا أهل الحديث المحض أتباع الرسول وتابعوا القرآن».

فصل

قال: «وسل المعطل ماذا يقول لربه».

وساق ما يقولونه كله بقبح وأنهم يخاطبون به الله يوم القيامة، وعن طائفته ما يولونه ومخاطبتهم به وهاتان طائفتان من المسلمين يعرفون عظمة الله تعالى، وكل أحد قد بذل جهده وطاقته فيما اعتقده ويخاف ويفرق، ويوم القيامة يكون أشد خوفاً يوم لا يتكلم إلا الرسل ويود كل من دونهم أن ينجو كفافاً، فتصوير مخاطبة الله تعالى بذلك في ذلك الموقف العظيم إنما يصدر عن قلب فارغ.

فصل

في تحميل أهل الإثبات للمعطلين شهادة تؤدي عند رب العالمين.

قال: «يا أيها الباغي على أتباعه قد حملوك شهادة فاشهد بها إن كنت مقبولاً لدى الرحمن فاشهد عليهم إن سئلت بأنهم قالوا إله العرش والأكوان فوق السماوات

(١) والجبر الذي يريده الناظم هو قول الأشعري إن العبد كاسب والرب سبحانه هو الخالق وحده، وآيين الجبر في ذلك؟ نعم جهم بن صفوان كان يقول بالجبر، لكن ليس له من يتابعه بعده، وأما الإرجاء الذي يريده فهو القول بأن الإيمان هو الاعتقاد الجازم كما نص عليه الحديث الصحيح «الإيمان أن تؤمن بالله...» ومن جعل الأعمال من أركان الإيمان حقيفة فقد تابع الخوارج من حيث يعلم أو لا يعلم، وأما التجهـم الذي يذكره فمراده به نفي حلول الحوادث في الله سبحانه وتنزيهه تعالى عن قيام الحوادث به سبحانه كما هو ملعب أهل الحق فظهر أنه ينزى بتلك الأكقاب السيئة جمهر أهل الحق الفراء منه عليهم وإلا فلا وجود للجبرية حقيقة ولا للإرجاء بالمعنى البدعي ولا للجهمية في عصر الناظم والله سبحانه ينتقم منه.

العلی حقاً على العرش استوى والأمر ينزل منه وإليه يصعد ما يشاء وإليه صعد الرسول ﷺ وعيسى ابن مريم والأملاك تصعد دائماً من هنا إليه وروح العبد بعد الموت وأنه متكلم بالقرآن سمع الأمين كلامه منه هو قول رب العالمين حقيقة لفظاً^(١) ومعنى وأنهم وصفوا الإله بكل ما جاء في القرآن وأن قول الرسول ﷺ نص^(٢) يفيد علم اليقين.

فمن ينازع في ذلك؟ وإن أراد الآحاد أو الذي جوزت اللغة احتمال لفظه فحكمه عليه بإفادة علم اليقين جهل منه.

قال: «وإنهم قابلوا التعطيل والتمثيل بالنكران أن المعطل والمثل ما هما متيقنين عبادة الرحمن ذا عابد المعدم لا سبحانه أبداً وهذا عابد الأوثان وأنهم يتأولون حقيقة التأويل وأن تأويلاتهم صرف عن المرجوح^(٣) للرجحان وأنهم حملوا النصوص على

(١) قد سبق إبطال القول بالفوقية الحية والنزول الحسي والجلوس على العرش ونحوها مما هو معتقد المجسمة إطلاً لا مزيد عليه، وقوله هنا في الكلام إعادة لزعمه الحرف والصوت في كلام الله وقد سبق إبطال ذلك أيضاً ومن الغريب أن يولف مثل الموقق بن قدامة (المصراط المستقيم في إثبات الحرف القديم) وكفى ما سبق في إبطاله. وابن بطة صاحب الإبانة فضح نفسه بأن يزيد في رواية حديث موسى عليه السلام «من ذا العبراني الذي يكلمني من الشجرة؟» ليجعل كلام الله من قبيل كلام الخلق فجمع بين الاختلاق وسوء المعتد وابن بطة هذا من أئمة النافس ولست في صدد استقصاء أهل الكذب والزيف من أئمة وبين هذا المتأخر زمناً وعلماً كلمات جوفاء في تزويق مزاعم الحشوية في تلك المسائل، ومن ظن به أنه أتى بشيء جديد غير الجمع بين الحشوية والتصوف السالمي الهاذلي بالتجلي في الصور فقد ولى فهمه ولأبر علمه وكم من مصاب في عقله ودينه يتكلم في هذه الأبحاث بدون علم ولا فهم ولا تقى، نسأل الله المعافاة.

(٢) قول الرسول القطعي الثبوت والقطعي الدلالة نص يفيد علم اليقين من غير خلاف، وأما ما هو ظني الدلالة منه فلا، كما تقرر في الأصول ودعوى إفادة خبر الآحاد العلم من هواجس الظاهرية إلا إذا كان متحفاً بقرائن، وقد بينا الحق في ذلك في تعليقاتنا المهمة على شروط الأئمة فليراجع هناك. والحشوية يحشرون في كتبهم في المعتقد المنقطعات والوحدات وروايات المجاهيل والضعفاء والوضاعين ويقولون عنها إنها قول الرسول ﷺ مع إنها مما لا يحتاج به في باب الاعتقاد أصلاً بل لا يتمسك بها في باب الأعمال أيضاً، وتوثيق مثل ابن حبان لرجل لا يخرج من الجهالة عند من يعرف مصطلح ابن حبان في التوثيق. وإنما الحجة في باب الاعتقاد هي الكتاب المنزل والصحاح المشاهير من الحديث.

(٣) صرف اللفظ عن الاحتمال المرجوح إلى الراجح مما لا معنى له لأن اللفظ منصرف بنفسه إلى الراجح من الاحتمالين، واللفظ ظاهر بالنسبة إلى الراجح مطلقاً سواء كان بالوضع أو بالدليل كما ذكره أبو الخطاب في التمهيد في أصول الحنابلة فما يرى مرجوحاً بالنظر إلى الوضع فقط =

الحقيقة لا على المجاز إلا إذا اضطروا للمجاز بحس أو برهان وأنهم لا يكفرونكم بما قلتم من الكفران إذ أنتم أهل الجهالة عندهم لستم أولي كفر ولا إيمان^(١).

فالبالغ المكلف الذي بلغته الدعوة إما كافر وإما مؤمن فكيف ينتفيان عنه والجهل ليس عذراً في ذلك.

قال: «لا تفرقون حقيقة الكفران بل لا تفرقون حقيقة الإيمان إلا إذا عاندم وردتم قول الرسول ﷺ لأجل قول فلان فهناك أنتم أكفر الثقلين وأشهد عليهم أنهم فاعلون حقيقة والجبر عندهم محال هكذا نفي القضاء».

قد أشهد على نفسه بالفوقية وباللفظ والله يعلم ما تصوره قلبه منهما وبمعنى التأويل وأين هذا من التابعين الذين قيل فيهم ما منهم إلا من يخاف النفاق على نفسه كانوا مع صحة الاعتقاد والاجتهاد في العمل يخافون النفاق، ونحن اليوم مع البعد - وشتان ما بيننا وبينهم - بيننا من يتجاسر هذه الجسارة ويدل هذا الإدلال.

فصل

في عهود المثبتين مع الله رب العالمين

قال: «يا ناصر الإسلام اشرح لديك صدر كل موحد وانصر به حزب الهدى فوحق نعمتك التي وليتي وأرئيتي البدع المضلة لأجاهد لك عداك ما أبقيتي ولأجعلن لحومهم ودماءهم في يوم نصرك أعظم القران».

هذا يقتضي أنه يعتقد كفرهم وسفك دمائهم، وقد حملهم في الفصل الذي قبل هذا شهادة أنه لا يكفرهم فيناقض كلامه وقال هناك إنهم جهال لا كفار ولا مؤمنون فلعلة يرى أنهم كالبهائم لكنه صرح هنا بأنهم أعداء الله وغير الكافر ليس عدو الله.

= قد يكون راجحاً بالنظر إلى الدليل فيكون اللفظ حينذاك ظاهراً في احتمال قد ترجح بالدليل حيث لا يكون هذا الاحتمال مرجوحاً عند قيام الدليل على الرجحان فقولهم بالظهور في جانب الوضع إنما هو بالنظر إلى حالة عدم قيام دليل مرجح للاحتتمال المقابل. والحاصل أن الظاهر بالوضع هو ما لا يقارنه دليل يرجح الاحتمال الآخر فلا ظاهر بالوضع عند ترجح الاحتمال الثاني بالدليل، فإطلاق الظاهر على ما بالوضع عند قيام الدليل المرجح للاحتتمال الثاني ما هو إلا تسامح فليعرف ذلك.

(١) وهذا بظاهره قول بالمنزلة بين المنزلتين كما هو معتقد المعتزلة الذين هم من أبغض خلق الله إليه. وإخراج أهل الحق من الإيمان محض هذيان.

فصل افتراءهم المثلث على الأشعرية

قال :

إننا تحملنا الشهادة بالذي قلتم نؤديها لدى الرحمن
ما عندكم في الأرض^(١) قرآن كلام الله حقاً يا أولي العُدوان

كلا ولا فوق السماوات العلى رب^(٢) مطاع ولا في القبر^(٣) عندكم من يرسل
فالروح عندكم عرض قائم بجسم الحي، وكذا صفات الحي قائمة به مشروطة بالحياة،
فإذا انتفت الحياة انتفى شروطها ورسالة المبعوث مشروطة بها كصفاته بالعلم والإيمان
فإذا انتفت تلك الحياة فكل مشروط بها عدم^(٤).

قوله ما في الأرض قرآن شهادة زور ونحن نطلق القرآن على ما في المصحف
وهو إن كان لا يطلقه عليه لزمه ما ألزمنا وإن كان يقول إنه في المصحف حقيقة فهو
قد قال فيما تقدم إن الصوت من العبد مخلوق فالخط بطريق الأولى وعندنا أن القرآن
مكتوب في المصاحف ولهذا يحرم على المحدث حمل المصحف ومتلو بالأكسنة
ومحفوظ في الصدور.

(١) تلك الثلاثة هي أقانيم اختلافهم على الأشعري وأصحابه، لهج بها أبو نصر الوائلي السجزي
صاحب الإبانة وابن مت صاحب ذم الكلام ومن تابعهما في البهت على أئمة الدين. ومن قال
إن القرآن اللقائم بالله في الأرض فهو حلولي زائف وهذا ظاهر جداً.

(٢) نعم هم لا يعتقدون حسناً متمكناً بمكان وإنما يؤمنون بآله العالمين الذي ليس كمثل شيء، وله
الأسماء الحسنى، تعالى الله عما يقول الجاهلون من الجاهلية بعد الإسلام.

(٣) وقال إمام الحرمين فيما رد به على السجزي، السابق ذكره في مقدمة المصنف: ما كنت أظن
أن هذا الجاهل يبلغ حمقه وخرقه هذا المبلغ (وهو زعمه أن من مذعب الأشعرية أن النبوة
عرض لا يبقى زمانين وإذا مات النبي زالت نبوته) وهذا الذي حكاه لم يقل به قائل ولم ينقله
قبله ناقل ولو سئل هذا الأحق من النبوة وحقيقتها ومعناها لتبدل في غمه وتردد في خيه ولم
يتمسك إلا بدهش الحيرة كما نسب إليها غيره فليست النبوة عرضاً من الأعراض باتفاق من
المحققين وإطابق من المحصلين - ثم ذكر الدليل على أن النبوة ليست عرضاً ثم قال - فيطل
المصير إلى أن النبوة عرض ووجب القضاء بأن النبوة هي حكم الله تعالى برسالة رسول وإخباره
عن سفارته وأمره بإبلاغ الشرائع وشرع الأحكام وقد حكم الله تعالى بنبوة الأنبياء
عليهم السلام في حياتهم وبعد مماتهم وكونهم مرسلين، وعلم ذلك منهم في السابقة والعاقبة
فهذا مذعب أهل الحق ودينهم، فعلى من يصفهم بغير ذلك لعنة الله ولعنة الملائكة والناس
أجمعين. انتهى ما ذكره إمام الحرمين وهو نص ما نقله اللبلي عنه.

فصل في حياة الأنبياء

قال:

ولأجل هذا رام ناصر قو لكم ترقيعه يا كثرة الخلقة

قال الرسول بقبيره حي^(١).

(١) الناظم وشيخه يفتيان التوسل بالنبي ﷺ باعتبار نفرتهما بين حالته ﷺ حال حياته وحال وفاته وإخراجهما للحديث الصحيح في التوسل عن دلالة الصريحة بالرأي عن هوى، وقد أقام قاضي قضاة الشافعية العلامة علاء الدين القونوي الشافعي النكير على ابن تيمية بعنف في هذه المسألة في كتابه (شرح التحرف) وهو من محفوظات التيمورية، وعد ذلك مأخوفاً من اليهود مع أنه كان من المثنيين عليه قبل هذه الحادثة، وفي الاطلاع على شرح التحرف هذا تنوير للمسألة. وقد أضافنا عن بسط ذلك هنا ما نقله التقي الحصني من في كتاب (دفع الشبه) وهو مطبوع. وفي كتاب الروح للناظم كثير مما يناقش ما ذكره هنا، والتاقت شأن من أصيب في عقله أو دينه، نسال الله السلامة والمعافة. وأما كلمة ابن حزم في الفصل فاعترا من بتقولات الرواة من الحشوية في حق الأشعري كما بينت ذلك فيما علقته على تبين كذب المفتري لابن عساكر.

فتيا الأئمة في إنكاره شد الرحل لزيارته ﷺ

وقد بلغ بالناظم وشيخه الغلو في هذا الصدد إلى حد تحريم شد الرحل لزيارة النبي ﷺ وعد السفر لأجل ذلك سفر معصية لا تقصر فيه الصلاة فأصدر الشاميون فتيا في ابن تيمية وكتب عليها البرهان ابن الفركاح الفزازي نحو أربعين سطراً بأشياء إلى أن قال بتكفيره ووافقه على ذلك الشهاب بن جهيل، وكتب تحت خطه كذلك المالكي، ثم عرضت الفتيا لقاضي قضاة الشافعية بمصر البلر بن جماعة فكتب على ظاهر الفتوى: الحمد لله، هذا المنقول باطنها جواب عن السؤال عن قوله إن زيارة الأنبياء والصالحين بدعة وما ذكره من نحو ذلك وأنه لا يرخس بالسفر لزيارة الأنبياء باطل مردود عليه، وقد نقل جماعة من العلماء أن زيارة النبي ﷺ فضيلة وستة مجمع عليها، وهذا المفتي المذكور - يعني ابن تيمية - ينبغي أن يجزع من مثل هذه الفتاوى الغريبة، ويحس إذا لم يتمتع من ذلك ويشهد أمره ليعفظ الناس من الاقتداء به.

وكتبه محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الشافعي.

وكذلك يقول محمد بن الجبري الأنصاري الحنفي لكن يحس الآن جزماً مطلقاً.

وكذلك يقول محمد بن أبي بكر المالكي ويبالغ في زجره حسبما تندفع تلك المفسدة وغيرها من المفاسد.

وكذلك يقول أحمد بن عمر المقدسي الحنبلي، راجع دفع الشبه (٤٥ - ٤٧) وهؤلاء الأربعة هم قضاة المذاهب الأربعة بمصر أيام تلك الفتنة في سنة ٧٢٦ والنهي عن شد الرحل إلى غير المساجد الثلاثة في الحديث باعتبار أنه لا مضاعفة لثواب المصلي في غيرها ولا علاقة له أصلاً =

= بمثل زيارة القبور، وهذا ظاهر جداً فمعنى الحديث النهي عن شد الرحل إلى مساجد غير المساجد الثلاثة التي يضاعف فيها الثواب حيث لا داعي إلى تجشم المشاق والاستثناء المفرغ بقدر فيه المستثنى منه بقدر أدنى ما يصحح الاستثناء لأن التقدير ضرورة فلا يزيد على القدر الضروري في تصحيح الكلام - وما زاد على ذلك ليس مما يعتبره أهل العلم كما لا يخفى على أن شد الرحل لأجل العلم أو الجهاد أو التجارة أو الاعتبار أو استعادة الصحة ونحو هذا لا يتصور أن يتناوله النهي في الحديث فلا يصح تقدير المستثنى منه من أعم ما يتناول المستثنى ومن تصور خلاف ذلك فقد غلط غلطاً فاحشاً واستعجم عليه الحديث.

والأحاديث في زيارته ﷺ في غاية من الكثرة وقد جمع طرفها الحافظ صلاح الدين الملا في جزء كما سبق وعلى العمل بموجبها استمرت الأمة إلى أن شد ابن تيمية عن جماعة المسلمين في ذلك، قال علي القاري في شرح الشفا: «وقد فرط ابن تيمية من الحنابلة حيث حرم السفر لزيارة النبي ﷺ كما أفرط غيره حيث قال كون الزيارة قرية معلوم من الدين بالضرورة وجاحده محكوم عليه بالكفر ولعل الثاني أقرب إلى الصواب لأن تحريمهم ما أجمع العلماء فيه بالاستحباب يكون كفراً لأنه فوق تحريم المباح المطلق عليه... اهـ».

فسمى في منح الناس من زيارته ﷺ يدل على ضغينة كامة فيه نحو الرسول ﷺ وكيف يتصور الإشراك بسبب الزيارة والتوسل في المسلمين الذين يعتقدون في حقه ﷺ «أنه عبده ورسوله» وينطقون بذلك في صلواتهم نحو عشرين مرة في كل يوم على أقل تقدير إدامة لذكرى ذلك. ولم يزل أهل العلم ينهاون العوام عن البلع في كل شؤونهم ويرشدونهم إلى السنة في الزيارة وغيرها إذا صدرت منهم بدعة في شيء ولم يعدوهم في يوم من الأيام مشركين بسبب الزيارة أو التوسل، كيف وقد أنقذهم الله من الشرك وأدخل في قلوبهم الإيمان وأول من رماهم بالإشراك بتلك الوسيلة هو ابن تيمية وجرى خلفه من أراد استباحة أموال المسلمين ودماءهم لحاجة في النفس ولم يخف ابن تيمية من الله في رواية عد السفر لزيارة النبي ﷺ سفر معصية لا تقصر فيه الصلاة عن الإمام أبي الوفاء بن عقيل الحنبلي، وحاشاه عن ذلك - راجع كتاب التذكرة له تجد فيه مبلغ عنايته بزيارة المصطفى ﷺ والتوسل به كما هو مذهب الحنابلة - وإنما قوله بذلك في السفر إلى المشاهد المعروفة في العراق لما قارن ذلك من البدع في عهده وفي نظره.

نص ابن عقيل الحنبلي في تذكرته

واليك نص عبارته في التذكرة المحفوظة بظاهرية دمشق تحت رقم ٨٧ في الفقه الحنبلي.

«فصل: ويستحب له قدوم مدينة الرسول صلوات الله عليه فيأتي مسجده فيقول عند دخوله باسم الله اللهم صل على محمد وآل محمد وافتح لي أبواب رحمتك وكف عني أبواب عذابك، الحمد لله الذي بلغ بنا هذا المشهد وجعلنا لذلك أهلاً، الحمد لله رب العالمين. ثم تأتي حائط القبر فلا تمسه ولا تلتصق به صدرك، لأن ذلك عادة اليهود واجعل القبر تلقاء وجهك وقم ما يلي المنبر وقل السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته اللهم صل على محمد وعلى آل محمد... إلى آخر ما يقوله في الشهد الأخير، ثم تقول اللهم أعط محمداً الوسيلة والفضيلة =

وذكر أربعين نبيا في إنكار ذلك وقد صنف البيهقي^(١) جزءا في حياة الأنبياء ولكن هذا المذهب بعيد عن التوفيق.

فصل

قال: «فإن احتججتم بالشهيد».

وذكر غيره أشياء من حججنا.

فصل

قال في الجواب: «إن الشهيد حياته منصوبة مع النهي عن أن ندعوه ميتاً، ونسأله حل لنا من بعده وما له مقسوم وهو مع ذلك حي فارح قلتم فالرسل أولى».

فانظر إلى قلب الدليل عليهم ما قلب شيئا قلب الله قلبه.

قال: «ورؤيته موسى مصلياً في قبره في القلب منه حسيكة هل قاله؟ ولذلك

والدرجة الرفيعة والمقام المحمود الذي وعدته، اللهم صل على روحه في الأرواح وجسده في الأجساد كما بلغ رسالتك وتلا آياتك وصدع بأمرك حتى أتاه اليقين، اللهم إنك قلت في كتابك لنبيك ﷺ «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا» [الشد: ٦٤] وإنني قد أتيت نبيك تابياً مستغفراً فأسألك أن توجب لي المغفرة كما أوجبتها لمن أتاه في حياته، اللهم إني أتوجه إليك بنبيك ﷺ نبي الرحمة، يا رسول الله إني أتوجه بك إلى ربي ليغفر لي ذنوبي، اللهم إني أسألك بحق أن تغفر لي ذنوبي، اللهم اجعل محمداً أول الشافعين وأنجح السائلين وأكرم الأولين والآخرين اللهم كما آمنا به ولم نره وصدقناه ولم نلقه فأدخلنا مدخله واحشرونا في زمرة وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه مشرباً صافياً رويأ سائفاً هنياً لا نظماً بعده أبداً غير خزايا ولا ناكثين ولا مارقين ولا مفسؤياً علينا ولا ضالين واجعلنا من أهل شفاعة. ثم تقدم عن يمينك فقل السلام عليك يا أبا بكر الصديق، السلام عليك يا عمر الفاروق، اللهم اجزهما عن نبيهما وعن الإسلام خيراً، اللهم «أَغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ...» [الخش: ١٠] وتصلني بين القبر والمنبر في الروضة وإن أعجبت تسمح بالمنبر والحنانة وهو الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ فلما اعتزل عنه حن إليه كحنتين النافقة، وتأتي مسجد بقاء فتصلي لأن النبي ﷺ كان يقصده فيصلني فيه، وإن أمكنت فأنت قبور الشهداء وزرهم وأكثر من الدعاء في تلك المشاهد حتى كأنك تنظر إلى مواقفهم واصنع عند الخروج ما صنعت عند الدخول».

ويقال من كتاب الفنون لابن عقيل الحنبلي هذا إنه في ثمانمائة مجلد ويقول اللهي عنه إنه لم يصف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب. ومن هو نظير ابن عقيل هذا بين الحنابلة في الجمع والتحقق؟ وأنت رأيت نص عبارته في المسألة على خلاف ما يعزو إليه ابن تيمية.

(١) وجزء البيهقي في حياة الأنبياء مطبوع فاستغنيا به عن الكلام في ذلك.

أعرض البخاري عنه عمداً والدارقطني أعله ورأى أنه موقوف على أنس لكن تقلد مسلماً، لكن هذا ليس مختصاً به روى ابن حبان صلاة العصر في قبر الذي مات مؤمناً فتمثل الشمس التي قد كان يرعاها لأجل الصلاة عند الغروب يخاف فوت صلاته فيقول للملكين تدعاني حتى أصلي العصر قالوا ستفعل ذلك بعد الآن، هذا مع الموت المحقق لا الذي حكيت لنا بشيئته القولان.

وثابت البناني دعا أن لا يزال مصلياً في قبره وحديث ذكر حياتهم بقبورهم لما يصح، وظاهر النكران ونحن نقول إنهم أحياء عند ربهم كالشهداء. يعني ونشكر حياتهم في قبورهم.

قال: «هذي نهايات لأقدام الورى في ذا المقام الضنك والحق فيه ليس نحمله عقول بني الزمان لغلظة الأذهان ولجهلهم بالروح هل في عقولهم أن الروح في أعلى الرفيق مقيمة بجنان، وترد أوقات السلام عليه وأجواف الطير الخضمر مسكنها لدى الجنات، من ليس يحمل عقله هذا فاعذره على النكران للروح شأن غير ذي الأكوان، وهو الذي حار الورى فيه فلم يعرفه غير الفرد في الأزمان، هذا وأمر فوق ذا لو قلته يادرت بالإنكار والعدوان فلنفاك أمسكت العنان ولو أرى ذاك الرفيق جريت في الميدان، وقولي إنها مخلوقة وليست كما قال أهل الإفك لا داخله فينا ولا خارجه عنا - والله - لا الرحمن أثبت ولا أرواحكم، عطلمت الأبدان من أرواحها والعرش عطلمت من الرحمن».

استشكال معرفة الروح صحيح لكنه ما أظنه يفهمه وإنما قاله تقليداً وإنكاره حياة الأنبياء ليس له عليه حامل صحيح^(١١).

حياة الأنبياء

(١١) وعن أنس مرفوعاً «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون» رواه أبو يعلى الموصلي والبخاري والبيهقي ورجال أبي يعلى ثقات. والحياة البرزخية الثابتة للأنبياء فوق الحياة الثابتة للشهداء ويغنيان عن الكلام في حياة الأنبياء جزء البيهقي المطبوع، نعم انقطعت حاجتهم إلى الأكل والشرب من مآكل هذه الدار ومشاربها، ولذلك صُح وصُفهم بالموت ﴿إِنَّكَ بِتَّ وَأَنْتُمْ قَسْرُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وحامل النظم على إنكار حياتهم البرزخية هو التفرع بذلك إلى تحريم التوسل بهم من موى وفي دفع الشبه للتقي الحصني ووفاء الوفاء للنور السمهودي وغيرهما أحاديث وآثار كثيرة في النذب إليه، وليس هذا موضع سرد لتلك الأحاديث وله موضع آخر وفي المطالب العالية للرازي وفي شرح المقاصد للفتاوازي وفيما علقه الشريف الجرجاني على شرح المطالع ما يمكن إليه صدور المقتدين بأئمة أصول الدين من البيان في هذه المسألة، وكنت بسطت -

المسألة قبل سنين متطاولة في (ارغام المريد) الذي كنت ألفته سنة ١٣٢٠ ولا بأس في أن أورد هنا بعض ما كنت نقلته فيه، مما قاله الفخر الرازي والسعد التفتازاني، والشريف الجرجاني في هذا الصدد فإنهم أئمة في أصول الدين يميزون بين الحق والباطل والتوحيد والإشراك حتى التمييز، ولا يرميهم أحد من أهل الحق بتزعة تخالف مذهب أهل الحق في هذه المسألة ومن الغريب رمي أهل التجسيم لأهل الحق بالإشراك بوسيلة التوسل وفيما ننقله عن أئمة أصول الدين في هذا الصدد قمع من يرمي أهل الحق بدله وهم من أبعد الناس عن الإشراك بخلاف من يقول بالجهة والتحيز وسائر لوازم الجسمية تعالى الله عن ذلك.

نصوص من المطالب العالية للفخر الرازي

قال الإمام فخر الدين الرازي بعد بسط مقدمات في الفصل الثامن عشر من كتابه المطالب العالية وهو من أمتع مؤلفاته في علم أصول الدين: «وإذا عرفت هذه المقدمات فنقول إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوي النفس كامل الجوهر شديد التأثير ووقف هناك ساعة وتأثرت نفسه من تلك التربة حصل لنفس الزائر تعلق بتلك التربة وقد عرفت أن لنفس الميت تعلقاً بتلك التربة أيضاً فحينئذ يحصل لنفس هذا الزائر الحي ونفس ذلك الإنسان الميت ملاقة بسبب اجتماعهما على تلك التربة فصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرأتين صقيتين وضعتا بحيث يتعكس الشعاع من واحدة منهما إلى الأخرى فكل ما حصل في نفس هذا الزائر الحي من المعارف البرهانية والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخضوع لله تعالى والرضى بقضاه الله، يتعكس منه نور إلى روح ذلك الإنسان الميت وكل ما حصل في نفس ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرفة والآثار العلوية الكاملة فإنه يتعكس منه نور إلى روح هذا الزائر الحي، وبهذا الطريق نصير تلك الزيارة سبباً لحصول المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح الزائر ولروح المزور، فهذا هو السبب الأصلي في مشروعية الزيارة، ولا يبعد أن يحصل فيها أسرار أخرى أدق وأحق مما ذكرناه، وتمام العلم بالحقائق ليس إلا عند الله اهـ.

وأما بقاء النفس مدركة لبعض الجزئيات فقد بينها الرازي في الفصل الخامس عشر من الكتاب المذكور. وقال الرازي أيضاً في تفسيره: «إن الأرواح البشرية الخالية عن العلائق الجسمانية، المشتاقة إلى الاتصال بالعالم العلوي، بعد خروجها من ظلمة الأجساد تنزع إلى عالم الملائكة ومنازل القدس، ويظهر منها آثار في أحوال هذا العالم فهي المندبرات أمراً، أليس الإنسان قد يرى أستاذة في المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده إليها اهـ.

وقال العلامة سعد الدين التفتازاني في شرح المقاصد عند إثبات إدراك بعض الجزئيات للميت رداً على الفلاسفة: «لما كان إدراك الجزئيات مشروطاً عند الفلاسفة بحصول الصورة في الآلات فعند مفارقة النفس وبطلان الآلات لا تبقى مدركة للجزئيات ضرورة انتفاء المشروط بانتفاء الشرط وعندنا لما لم تكن الآلات شرطاً في إدراك الجزئيات إما لأنه ليس بحصول الصورة لا في النفس ولا في الحس وإما لأنه لا يتمتع ارتسام صورة الجزئي في النفس بل الظاهر من قواعد الإسلام أنه يكون للنفس بعد المفارقة إدراكات متجددة جزئية وإطلاع على بعض جزئيات أحوال الأحياء، ولا سيما الذين كان بينهم وبين الميت تعارف في الدنيا، ولهذا

فصل

قال: «ما معناه منجنيق المعطلة ما يدعونه من التركيب، ولتركيب ستة معان أحدها: التركيب من متباين كتركيب الحيوان من هذه الأعضاء وتركيب الأعضاء من الأركان الأربعة، الثاني: تركيب الجوار من اثنين يفترقان، الثالث: التركيب من متماثل يدعى الجواهر الفردة، الرابع: الجسم المركب من هبولى وصورة عند الفيلسوف والجواهر الفرد ليس ممكنات، الخامس: التركيب من ذات وأوصاف سموه تركيباً وليس بتركيب، السادس: التركيب من ماهية ووجودها، واختلفوا هل الذات الوجود أو غيره فيكون تركيباً محالاً أو يفرق بين الواجب والممكن حتى أتى من أرض آمد نور كبير^(١)، بل حقير الشأن قال الصواب الوقف فقصاراه أن شك في الله».

جوابه أنه لم يشك في الله في الوجود هل هو زائد أو لا ولا يجوز أن يقال له

= ينتفع بزيارة القبور والاستغاثة بنفوس الأخيار من الأموات في استئزال الخيرات واستدفاع الملمات، فإن للنفس بعد المفارقة تعلقاً بالبدن وبالترية التي دفنت فيها، فإذا زار الحي تلك الترية وتوجهت تلقاء نفس الميت حصل بين النفسين ملاقة وإفاضات اهـ.

وقال العلامة الشريف الجرجاني في أوائل حاشية شرح المطالع معلقاً على ما ذكره شارح المطالع في صدد بيان الحكمة في التوصل والصلاة على النبي ﷺ: فإن قيل هذا التوصل إنما يتصور إذا كانوا متعلقين بالأبدان وأما إذا تجردوا عنها فلا إذ لا جهة مقتضية للمناسبة، قلنا يكفيه أنهم كانوا متعلقين بها متوجهين إلى تكميل النفوس الناقصة بهمة عالية فإن أثر ذلك باق فيهم ولذلك كانت زيارة مرادهم معدة لفيضان أنوار كثيرة منهم على الزائرين كما يشاهده أصحاب البصائر اهـ. ورأيت بخط الحافظ الضياء المقدسي الحنبلي في كتابه - الحكايات المنثورة - المحفوظ تحت رقم ٩٨ من المجاميع بظاهرية دمشق أنه سمع الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي يقول إنه خرج في عهده شيء يشبه الدمل فأهيمته مداراته، ثم مسح به تبر أحمد بن حنبل ليرى، ولم يعد إليه، وفي تاريخ الخطيب (١ - ١٢٣) بسنده إلى الشافعي رضي الله عنه قال: «إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجيء إلى قبره كل يوم - يعني زائراً - فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عنده فما تبعد عني حتى تقضى اهـ.

فمن الذي يستطيع أن يعد هؤلاء قوبرين يتعبدون للضرائع؟!

(١) سيف الدين الأمدى المعروف بين الفرق ببالح الذكاء ذنبه عند الحشوية أنه نشأ حشواً ثم هداه الله إلى مذهب الأشاعرة ولأجل ذلك يرى متقشفو الحشوية من تمام ورعهم اختلاق حكايات في حقه ويسمى ابن تيمية جهده في مناقشته في معقوله، ويقوم الذهبي بحظه في الاختلاق عليه في ميزانه. وتأليفه الخالدة في أصول الدين وأصول الفقه والجدل هي آية كونه ثوراً كبيراً في نظر الناظم فليعتبر.

نور ولا أنه حفير الشأن، وقد اعترف في التركيبين الآخرين بالامتناع فيسأل من أهل اللغة هل القدم واليد والجنب أعضاء^(١) أو صفات.

فصل

قال: «ودلالة الأسماء مطابقة وتضمن والتزام فالمطابقة يفهم منها ذات الإله والوصف والتضمن دلالة على أحدهما واللازم دلالة على الصفة التي اشتق الاسم منها كالرحمن، فالذات والرحمة مدلولاه تضمننا ودلالته على الحياة بالالتزام».

مقصوده بهذا المبالغة في القول بالتركيب في المعنى^(٢) وإن أنكره باللفظ فيما تقدم، ومدلول الرحمن في اللغة ذو الرحمة وهو شيء واحد لا مركب وإن كان

(١) فإن اعترف بعد السؤال من أهل اللغة بأنها أعضاء يكون المركب منها من القسم الأول فيكون عابد جسم ذي أعضاء وإن لم يعترف بأنها أعضاء بل قال إنها مجازات عن صفات ثابتة له تعالى فقد ترك مذهبه وكان جهاده في غير عدو ولكن أتى يعترف بأنها مجازات مع الغلو المشهود في نحلته؟ ومن ألطف التكت الجارية مجرى الإلزامات الظاهرة على المجسمة ما ذكره الفخر الرازي في تفسيره (٧ - ١٤٨) حيث قال: إن من قال إنه مركب من الأعضاء والأجزاء فلما أن يثبت الأعضاء التي ورد ذكرها في القرآن ولا يزيد عليها وإما أن يزيد عليها، فإن كان الأول لزمه إثبات صورة لا يمكن أن يزداد عليها في القبح لأنه يلزمه إثبات وجه بحيث لا يوجد منه إلا مجرد رقعة الوجه لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ مَّالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القضص: ٨٨] ويلزمه أن يثبت في تلك الرقعة عيوناً كثيرة لقوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْتُكَ عَلَى مَا قُرِّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وأن يثبت له جنباً واحداً لقوله تعالى: ﴿يَتَبَرَّأْتُكَ عَلَى مَا قُرِّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وأن يثبت على ذلك الجنب أيدي كثيرة لقوله تعالى: ﴿يَتَبَرَّأْتُكَ عَلَى مَا قُرِّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] ويتقدير أن يكون له يدان فإنه يجب أن يكون كلاهما على جانب واحد لقوله ﷺ: «وكلتا يديه يمين» وأن يثبت له ساقاً واحداً لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكَنَّفُ عَنْ نَاقٍ﴾ [الفلم: ٤٢] فيكون الحاصل من هذه الصورة مجرد رقعة الوجه ويكون عليها عيون كثيرة وجنب واحد ويكون عليه أيدي كثيرة وساق واحد ومعلوم أن هذه الصورة أقيح الصور ولو كان هذا عبداً لم يرغب أحد في شرائه فكيف يقول العاقل إن رب العالمين موصوف بهذه الصورة؟! وإن كان الثاني وهو أن لا يقتصر على الأعضاء المذكورة في القرآن بل يزيد وينقص على وفق التأويلات فحينئذ يبطل مذهبه في الحاصل على مجرد الظواهر ولا بد له من قبول دلائل العقل اهـ.

(٢) لأن كلام أهل العربية في الدلالات الثلاث (دلالة اللفظ على تمام ما وضع له مطابقة وعلى جزئه تضمن وعلى الخارج اللازم التزام) والاجتراف على إجراء ذلك في الأسماء المقدسة مبالغة في القول بالتركيب في المعنى بإثبات الجزء في دلالتها كما قال المصنف على أن ابن حزم قطع على الحشوية سبيل القول بالمرة بأن قال إن الأسماء الحسنى أسماء أعلام للذات العلية لا تدل على الصفات باعتبار أن الله سماها أسماء. ففاسقوا ذراعاً من كلامه هذا جداً وليس هذا موضع توسع لبيان ما له وما عليه، وكفى للبصير مجرد الإشارة إليه.

يقتضي أن له رحمة وكذا ضارب، مدلوله شيء له الضرب ولا نقول بأن الضرب بعض مدلوله وإن كان قاله بعض الأصوليين من جهة تركيب العقل ما دلّ عليه اللفظ لا من جهة أن الواضع وضعه لهما كما أشعر به كلام هذا القدم، واستعماله في الأسماء المقدسة جراءة جراتها عقيدة سوء ميثالة إلى معنى التركيب.

فصل

قال: «الملحدون ثلاثة: المشركون وإخوانهم الاتحادية، والثاني: المعطلة يقولون ما ثم غير الاسم عطل حرف ثم أول وافقها واقذف بتجسيم وبالكفران للمثبتين، فإن احتجوا عليك فقل مجاز فإن غلبت عن المجاز فقل الألفاظ لا تفيد اليقين فإن غلبت عن تقريره فقل العقل مقدم على النقل، والثالث: منكر الخالق الصانع لا يوحشك غربة بين الوري قل لي متى سلم الرسول وصحبه وتظن أنك وارث لهم ولا جاهدت في الله حق جهاده».

هذا الرجل قال قبل ذلك إنه لم ينكر أحد الخالق وقد ناقض هنا وجعل القسم الثاني من الملحدة خصماءه ووصفهم بما قال، وهم هداة الأمة.

فصل

في النوع الثاني من توحيد المرسلين المخالف لتوحيد المعطلين والمشركون.

قال: «وهو أن لا تعبد غير الله، فالمشركون اتخذوا أنداداً يحبونهم كحب الله، ولقد رأينا من فريق يدعي الإسلام شركاً جعلوا له شركاء سووهم به في الحب بل زادوا لهم حباً - والله - ما غضبوا إذا انتهكت محارم ربهم حتى إذا ما قيل في الوثن الذي يدعونه ما فيه من نقصان فأجارك الرحمن من غضب ومن حرب ومن شتم ومن عدوان وضرب وتعزير وسب وتسجان، قالوا تنقصت الأكابر والأمر - والله العظيم - يزيد فوق الوصف، وإذا ذكرت الله توحيداً رأيت وجوههم مكسوفة الألوآن، وإذا ذكرت بمدحة شركاءهم يستبشرون - والله - ما شئوا روائح دينه». انتهى ثناؤه على المسلمين قبحه الله.

فصل

في صفة العسكريين وتقابل الصفيين واستدارة رحي الحرب العوان ونصاويل الأقران.

أبصر كيف يوقع الملعون العداوة بين المسلمين .
فذكر جماعة ثم قال : «وخيار عسكرهم فذاك الأشعري القدم» أو القرم «ذاك
مقدم الفرسان» .

سواء أقال القدم أو القرم قد جعله من عسكر الملحدين .
قال : «لكنكم ما أنتم على إثباته صفوا الجيوش وعبثوها وابرزوا للحرب واقربوا
من الفرسان فهم إلى لقاءكم بالشوق كي يوفوا بنذرهم من القرين، تباً لكم لو
نستحون لكنتم خلف الخدور كأضعف النسوان، من أين أنتم والحديث وأهله ما
عندكم إلا الدعاوى والشكاوى وشهادات على البهتان هذا الذي والله نلنا منكم قبح
الإله مناصباً ومأكلاً قامت على البهتان والعدوان» .
أيكون أقيح من هذا الإغراء .

فصل

في الهدنة بين المعطلة والاتحادية حزب جنكسخان

قال : «يا قوم صالحتم نفاة الذات ولأجل ذا كتتم مخانيئاً لهم» .
ينبغي أن يعرض عن كلام هذا المتخلف .

فصل

في مصارع المعطلة بأسنة الموحدين

قال : «وإذا أردت ترى مصارع من خلا من أمة التعميل وترى وترى وتري فاقرأ
تصانيف الإمام حقيقة شيخ الوجود العالم الرباني أعني أبا العباس^(١) وقرأ كتاب

كلمة صاحب الدرة المضية في ابن تيمية

(١) وعن هذا الشيخ الذي يطريه الناظم يقول صاحب الدرة المضية : «قد أحدث ابن تيمية ما
أحدث في أصول العقائد ونقض من دعائم الإسلام الأركان والمعاهد، بعد أن كان متسماً بتبعية
الكتاب والسنة، مظهراً أنه داع إلى الحق هاد إلى الجنة، فخرج عن الاتباع إلى الابتداع، وشذَّ
عن جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع، وقال بما يقتضي الجسمية والتركيب في الذات
المقدسة وبأن الانتقار إلى الجزء ليس بمحال وقال بحلول الحوادث بذات الله تعالى وأن القرآن
محدث تكلم الله به بعد أن لم يكن وأنه يتكلم ويسكت ويحدث في ذاته الإرادات بحسب
المخلوقات، وتعدى في ذلك إلى استلزام قدم العالم بالقول بأنه لا أول للمخلوقات، فقال =

العقل، والنقل، والمنهاج^(١)، والتأسيس وغيرها وقرأت أكثرها عليه فزادني - والله - في علم وفي إيمان، هذا ولو حدثت أنه قبلي يموت لكان غير الشأن وله المقامات الشهيرة أبدى فضائهم^(٢) وبين جهلهم وأصارهم تحت نعال أهل الحق، كانت نواصيتنا بأيديهم فصارت نواصيتهم بأيدينا وغدت ملوكهم ممالكنا والقدم يوحشنا وليس هنا كم فحضوره ومغيبه سيان.

وهذا الفصل نسعون بيتاً ماذا تضمن من الكذب الذي يدل على أن قائله خرق جلباب الحياة.

فصل

يزيد على مائة وعشرين بيتاً مما يهيج ويوقع العداوة وليس فيه قط إفادة.

بحوادث لا أول لها فأنبت الصفة القديمة حادثة والمخلوق الحادث قديماً، ولم يجمع أحد هذين القولين في ملة من الملل ولا نحلة من النحل فلم يدخل في فرقة من الفرق الثلاث والسبعين التي افرقت عليها الأمة وكل ذلك وإن كان كثيراً شنباً مما تغل جملته بالنسبة إلى ما أحدث في الفروع فإن متلقي الأصول عنه وفاهم ذلك منه هم الأقلون والداعي إليه من أصحابه هم الأرذلون، وإذا حوققوا في ذلك أنكروه. وأما ما أحدثه في الفروع فأمر قد عمت به البلوى.. وقد بث دعائه في أقطار الأرض لنشر دعوته الخبيثة وأضل بذلك جماعة من العوام ومن العرب والفلاحين.. وليس عليهم.. اهـ.

والدرة المضية هذه مطبوعة ضمن المجموعة السبكية ونسخة مخطوطة منها موجودة في مكتبة أبياسوفيا في إسطنبول. ومثل هذا الضال المضل اتخذته النازم قدوة في فتنه عاملهما الله تعالى بعدله ولم يكن بغض علماء أهل الحق لهما إلا بغضاً في الله شأنهم مع كل زائغ، ومن حمل ذلك على الحسد لم يعرف سيرة الرادين عليه ولا مبلغ زيغ النازم وشيخه فمثل هذا القول ينهى عن جهل قائله أو زيغه.

(١) مطبوع في هامش منهاجه، وأما التأسيس في رد أساس التقديس فقد فضح ابن تيمية به نفسه وهو في ضمن الكواكب الدراري لابن زكنون الحنبلي في المجلدات (رقم ٢٤ و ٢٥ و ٢٦) بظاهرة دعوى وقد سبق أن وصفت الكواكب فيما علقت على المصعد الأحمد لابن الجزري فلر قام بطبع التأسيس أحدهما لما بقي من أهل البسيطة أحد لم يعلم دخائل ابن تيمية. وقد نقلت منه نصوصاً كثيرة فيما علقت على هذا الكتاب كما سبق في مواضع على أن مبلغ زيغه ظاهر من الكتابين المذكورين لمن ألقى السمع وهو شهيد، ويتيجج بهما هذا الزائغ كتبججه بالتأسيس، هكذا شأن مقلدة الزائعين يتنون على الزيف ويزدادون غواية. وقد أشرت إلى بعض ما في منهاجه ومعقوله في «الإشفاق على أحكام الطلاق» فليراجع هناك.

(٢) كلا بل فضح نفسه وأثناه وفادته وأصارهم تحت نعال أهل الحق بجهله وخرقه ولم يزل ينقل من محبس إلى محبس ومن هوان إلى هوان حتى أفضى إلى ما عمل وخلف شوائده وصمة الأبد، لكن قاتل الله الرقاعة تحاول قلب الحقائق.

فصل

في كسر الطاغوت الذي نفوا به الصفات

ثمانية وثمانون بيتاً كلها نهيج وإشلاء وسفاهة.

من جملتها:

فتعين الإلزام حينئذ على قو ل الرسول ومحكم القرآن
وجعلتم أتباعه مائسترا خو فأمن التصريح بالكفران
«والله - ما قلنا»^(١) سوى ما قاله فجعلتمونا جنة والقصد مفهوم فنحن وقاية
القرآن».

ما يحس أن يتخيل أحد في مسلم أنه يقصد الرد على القرآن والرسول.

ثم قال: «والله لو نشرت لكم أشياءكم عجزوا.

إن كنتم فحولاً فابرزوا ودعوا الشكاوى حيلة النسران
وإذا اشتكيتم فاجعلوا الشكوى إلى الوحيين^(٢) لا القاضي ولا السلطان

فصل

في مبدأ العداوة بين الموحدين والمعتولين

قال: «يا قوم تدرون العداوة بيننا من أجل ماذا؟ إنا تحيزنا إلى القرآن والنقل

(١) اتق الله لا تحلف به كذباً هذا الكلب المكشوف أين قال الله أو قال رسوله ﷺ إن الله متمكن على العرش تمكن استقرار أو إن الحوادث تقوم به؟ أو إن الحوادث لا أول لها وإن من لم يقل ذلك معطل ملحد وإنه في جهة الطلو من رؤوس العباد أو إنه تكلم بحرف وصوت إلى آخر تلك المخازي أو أين قال الله أو قال رسوله ﷺ إن المنزهين لله من المادة والماديات والجسم والجسمانيات من حزب جنكزخان.

(٢) إن كان يريد بهما الكتاب والسنة فقد ظهر ظهوراً لا مزيد عليه بما بسطناه في هذا الكتاب من تحاكمنا إليهما أننا على الحق وخصومنا على الزيغ والفسال المبين، وإن كان يريد بهما وحي شياطين الجن وحي شياطين الإنس على ما هو الظاهر من تلبساته فلنا نتحاكم معه إلى الطواغيت «وَيَسْئَلُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَمْ سَمَّيْتَ بِتَمْلِكُ يَوْمَئِذٍ» [الشعراء: ٢٢٧] ولا بأس أن أهمس في أذنه وأذان أشياعه أنه لم يبق في غالب البلاد سلطان لأحكام الشرع يخاف الفانون جانبه بسبب تلك الفتن الدامية التي كانت الحشونة يثيرونها على طول القرون في أخطر أيام الإسلام حتى تركوا الشرع لا سلطان له إلا على قلوب المسلمين حقاً وأصبح الإسلام بالحالة التي نراها والله سبحانه وتعالى يتنقم من هؤلاء الفاتنين الدائبين على السعي في تفريق كلمة المسلمين وتوهمين سلطان الدين وأعاد إلى الدين سلطانه، إنه قريب مجيب.

الصحيح والعقل الصريح فاشتد ذلك الحرب بين فريقنا وفريقكم وتأصلت تلك العداوة من يوم أمر إبليس بالسجود فأثنى التلاميذ الوقاح فانظر إلى ميراثهم ذا الشيخ هذا الذي ألقى العداوة بيننا».

فصل

في أن التعطيل أساس الزندقة

قال: «من قال إن الله ليس بفاعل فعلاً يقوم^(١) به وليس أمره قائماً به وليس فوق عبادته، فثلاثة لا تبقى من الإيمان حبة خردل وقد استراح من القرآن والرسول وشريعة الإسلام وتمام ذلك جحوده للمصفات وتمامه الإرجاء وتمامه قوله في المعاد^(٢)».

فصل

في بهت أهل الشرك والتعطيل

قال: «قالوا تنقصتم رسول الله، وأعجباً، ونظيره قول النصارى إنا تنقصنا المسيح».

هذه الفصول كلها كما ترى.

(١) كم يكرر النظام قيام الفعل به تعالى وهو الذي دعاه وشيخه إلى القول بحوادث لا أول لها وهذا من الخطورة بمكان، قال الإمام أبو منصور عبد القاهر في أصول الدين: وأما جسمية خراسان من الكرامية فتكفيرهم واجب لقولهم بأن الله له حد ونهاية من جهة السفلى، ومنها يماس عرشه ولقولهم بأن الله محل للحوادث وإنما يرى الشيء برؤية تحدث فيه ويدرك ما يسمعه بإدراك يحدث فيه ولولا حدوث الإدراك فيه لم يكن مدركاً لصوت ولا مدركاً لمرئي وقد أفسدوا بإجاعة حلول الحوادث في ذات الله تعالى لأنفسهم دلالة الموحدين على حدوث الأجسام بحلول الحوادث اهـ. وأنت عرفت مذهب الناظم في تلك المسائل.

(٢) ثم قال:

وتمام هذا قولكم بفسناء دا ر الخلد فالداران فانيشان

مع أن الناظم يقول في كثير من كتبه بنفي الخلود للكفار في النار وبهذا حكم على نفسه بالكفر، انظر كلامه فيمن لا يرى قيام الحوادث بالله والفوقية المكائبة له تعالى. وجعل العمل جزءاً من الإيمان حقيقة مؤد إلى تكفير مرتكبي الكبائر كما هو مذهب الخوارج. ونفي قيام الأفعال الحادثة به تعالى بعده نفي الصفات والله يتقن منه.

فصل

قال: «ولنا الحقيقة من كلام إلهنا ونصيبكم منه المجاز الثاني وخيامنا مضروبة بمشاعر الوحيين وخيامكم»^(١) مضروبة في التيه فالمكان كل ملدد حيران، هذه شهادتهم على محصولهم عند الممات والله يشهد أنهم أيضاً كذا ولنا المسانيد والصحاح ولكم تصانيف الكلام ونقول: قال الله قال رسوله في كل تصنيف وكل مكان لكن تقولون: قال أرسطو وقال ابن الخطيب^(٢) وقال ذو العرفان شيخ لكم يدعى ابن سينا، وخيار ما تاتون قال: الأشعري وتشهدون^(٣) عليه بالبهتان، والكفر عندكم خلاف شيوخكم ووافقهم فحقيقة الإيمان».

انتهى، يكفيه أن ينسب القائلين عند موتهم بالعجز عن حقيقة الإدراك إلى الكفر وهي كلمة الصديق الأكبر (إن العجز عن حقيقة الإدراك إدراك).

(١) بل أهل السنة هم الذين جمعوا بين الكتاب والسنة وآثار السلف والبراهين العقلية التي هي من حجج الله سبحانه، من غير إعمال شيء منها، مراعين مراتب الأدلة ووجوه الدلالة وإنما مذهب السلف عدم الخوض في الصفات مع التنزيه العام وهم من أبعد الناس عن حمل ما في كتاب الله وما صيغ في السنة على ما يوهم التشبيه فإذا تكلموا إنما يتكلمون بما يوافق التنزيه وهم الذين يقولون فيما صيغ لفظه: «أمره كما جاء بدون تفسيره بل تفسيره قراءته بلا كيف ولا معنى» كما تواتر ذلك عن السلف ولا سيما عن أحمد وقد ذكرنا بعض نصوص لهم في ذلك، وأما أصحاب الناطم فهم الذين جمعوا بين الإسرائيليات والجاهليات وأنواع الخرافات والأخبار الموضوعات كما يظهر من كتبهم في العلو والسنة والتوحيد والنحل أين في الصحاح والسنن (ينزل بذاته) (ويسوي على العرش استواء استقراء وجلوس) (ويتحرك) (ويتكلم بصوت)؟ فلو وقفوا حيث وقف الكتاب والسنة والبرهان العقلي وأبوا الخوض في الصفات بمقولهم الضئيلة لكانوا على الهدى لكنهم حادوا وزادوا، قاتلهم الله ما أوقفهم وأشنع إنكهم على أهل الحق.

عظم شأن الفخر الرازي في الرد على الحشوية

(٢) هو الإمام نخر الدين الرازي، سيف الله المسلول على المجسمة وهو من أبغض أهل العلم إليهم لأنه تمكن ببيانه الواضح وبرهانه الدامغ من إزالة شرور المجسمة من بلاد الشرق كما أجهز على المجسمة الذين أووا إلى الشام بكتابه (أساس التقديس) وهو كتاب يحق أن يكتب بماء الذهب وأن يجعل من كتب الدراسة في بلاد نشيع فيها مخازي المشبهة وهو كاف في فمهم، والله سبحانه يكافيه على ذلك، وتفسيره الكبير من أهم الكتب في الرد على الحشوية وفي ذلك ما يكون كفارة لما بدر منه من بعض أغلاط، سامحه الله وأعلى منزلته في الجنة.

(٣) ومنذيه هو ما في كتب أصحابه وأصحاب أصحابه كآبي منصور عبد القاهر البغدادي والفيسري وابن الجوزي ونحوهم وقد أفنى الحشوية مؤلفات الإمام في فتن بغداد وتصرفوا فيما بالأيدي من كتبه ودسوا ما شاؤوا، قاتلهم الله.

فصل

أنكر فيه على خصومه تكفيرهم إياه وقال: «اسمع إذن يا منصفاً حكميهما وانظر إذن هل يستوي الحكمان، هم عندنا قسمان أهل جهالة ومعاند فالمعاند كافر والجاهل نوعان أحدهما متمكن من العلم فهو فاسق وفي كفره قولان، والوقف عندي فيهم لست الذي بالكفر أنعتهم ولا الإيمان، والله أعلم بالبطانة منهم لكنهم مستوجبون عقابه قطعاً لأجل البغي والعدوان، النوع الثاني عاجز عن بلوغ الحق مع قصد وإيمان وهم ضريان أحدهما قوم دهاهم حسن ظنهم بشيوخهم فمعذورون إن لم يظلموا أو يكفروا والآخرين طالبون للحق لكن صدهم عن علمه شيان أحدهما طلب الحقائق من سوى أبوابها فأولاء بين الذنب والأجرين فانظر إلى أحكامنا فيهم وأحكامهم فينا». انتهى كلامه، وهو كلام من يعتقد أن خصومه خارجون بتكفيره وخصومه يقولون لا تكفر أحداً من أهل القبلة.

فصل

في أذان أهل السنة بصريحها جهرًا على رؤوس منابر الإسلام

قال: «شبهتم الرحمن بالأوثان»^(١) في عدم الكلام هم أهل تعطيل وتشبيه معاً

ناحت المعجل

(١) بل من قال إن كلام محبوبه حرف وصوت قائمان به فهو الذي نحت عجلاً: «لا يحل لمسلم أن يعتقد أن كلام الله صوت وحرف لا من طريق العقل ولا من طريق الشرع، فأما طريق العقل فلأنه الصوت والحرف مخلوقان محصوران، وكلام الله يجل عن ذلك كله وأما من طريق الشرع فلأنه لم يرد في كلام الله صوت وحرف من طريق صحيحة ولهذا لم نجد طريقاً صحيحة لحديث ابن أنس وابن مسعود».

وأنت تعلم مبلغ استبحار ابن العربي في الحديث وجزء الصوت للمحافظ أبي الحسن المقدسي لا يدع أي متمسك في الروايات في هذا الصدد لهؤلاء الزائغين ومن رأى نصوص فتاوى الغز بن عبد السلام وابن الحاجب والجمال الحصري والعلم السخاوي ومن قبلهم ومن بعدهم من أهل الحق كما هو مدون في نجم المهتدي ودفع الشبه وغيرهما يعلم مبلغ الخطورة في دعوى أن كلام الله حرف وصوت قائمان به تعالى وقد سبق نقل بعض النصوص منها ولا تصح نسبة الصوت إلى الله إلا نسبة ملك وخلق لكن هؤلاء السخفاء وغم تضافر البراهين ضدهم ودثور الآثار التي يريدون البناء عليها يعاندون الحق ويظنون أن كلام الله من قبيل كلام البشر الذي هو كفية اعتزائية تحصل للهواء من ضغطه باللهة واللسان، تعالى الله عن ذلك، ويدور أمرهم بين التشبيه بالصنم أو التشبيه بابن آدم «أَوَلَيْكُم مَّا أَصْنَعُوا بِلِ اللَّهِ أَنَّهُمْ أَشْرَ» [الأعراف: ١٧٩].

بالجمادات تسعون وجهاً يطل المعنى الذي قلتم هو النفس^(١) للقرآن.

ولا وجه واحد. (وتسعون إلى آخره ساقطة من المطبوع).

قال: «والله قد عرج الرسول حقيقة».

الكلام النفسي

(١) وقد صرح عن أحمد فيما جاب به المتوكل وغيره كما هو مذكور في كتاب السنة وعيون التواريخ وغيرهما أنه كان يقول: القرآن من علم الله وعلم الله غير مخلوق فالقرآن غير مخلوق وهذا دليل على أنه كان يريد بالقرآن ما هو قائم بالله، وتابعه ابن حزم في الفصل. فقوله تعالى: ﴿فَأَنشَرَهَا يُّوشُفَ فِي تَقْيُوءٍ. وَكَمْ يُبَوِّهَا لَهْمُ قَالَ أَشْتَرُ مَكَّنَّا﴾ [يُوشُف: ٧٧] فقال: إما بدل من أسر أو استئناف بياني وعلى التقديرين تدل الآية على أن للنفس كلاماً لقوله في نفسه - كما حكى القرآن الكريم - ﴿أَنشَرُ مَكَّنَّا﴾ [يُوشُف: ٧٧] وكذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يَسْتَدِينُ لَنَا لَا نَسْخُحُ بِرَيْفَتِهِمْ وَنَجْمِئُهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠] وفي الحديث السر ما أسره ابن آدم في نفسه وقوله تعالى: ﴿... يَتْلُوهُ لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ عَيْنٌ مَّا فُكِنَا هَهْنًا﴾ [آل عمران: ١٥٤] أي يقولون في أنفسهم بدليل السياق وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ تِلْكَ فِي تَقْيُوءٍ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

كل ذلك من أدلة الكلام النفسي وحديث أم سلمة في الطبراني في رجل سأل النبي ﷺ قائلاً: إني لأحدث نفسي بالشيء لو تكلمت به لأحببت أجري، فقال ﷺ: «لا يلقي ذلك الكلام إلا مؤمن» وما في الحديث القدسي «إِذَا ذُكِرْتُمْ فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُمْ فِي نَفْسِي» من أدلة الكلام النفسي أيضاً وقد أقر اللغوي بحجية الأخير في ذلك في كتاب الملو له، ومن الدليل على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿يَتْلُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨] فقوله تعالى ﴿يَتْلُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٤٦] و﴿يَتْلُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] في قوله تعالى: ﴿يَتْلُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١] و﴿يَتْلُوهُ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] لم يجعل القول باللسان مجازاً حتى يظن المجازية في القول في النفس تمسكاً بلفظ ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] كما توهم بعض أهل الأهواء وقول عمر الفاروق «زورت في نفسي كلاماً» أشهر من نار على علم، فمن رد أن يكون كلام في النفس رد على تلك الأدلة الصريحة والحامل لأهل الحق على القول بالكلام النفسي هو إجماع التابعين على القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق فخرجوا إجماعهم هذا على هذا الوجه المعقول وإلا لما صرح قولهم. وتسفيه أحلام التابعين جميعاً لا يصدر إلا عن مجازف فالفرق بين ما هو قائم بالخلق والمعنى القائم بالله سبحانه هو المخلص الوحيد في هذه المسألة فاللفظي حديث والنفسى قديم كما أشار إلى هذا وإلى ذلك إمام الأئمة أبو حنيفة وتابعه أهل الحق. ويتضح بهذا البيان الواضح أن قول بعض زهاد الحشوية في هذا البحث: «نحن نستدل في الحرف والصوت بقوله تعالى: ﴿كَهَيِّضَ﴾ [مریم: ١] ونحوه وقول النبي ﷺ: «يجمع الله الخلائق يوم القيامة...» وخصومنا يستدلون بقول الأخطل الصراني «إن البيان لفي القواد» بتحريف الباین إلى الكلام» هوأ بعيد عن الحقيقة بُعد الأرض عن السماء وهراء لا يصدر إلا من السفهاء ومثل هذا السفه حمل بعض الشافعية أن يشترط في مدرسة بناها بدمشق أن لا يطأ أرضها يهودي ولا نصراني ولا حشوي حنبلي كما في المدارس في تاريخ المدارس وقانا الله شر الغلو.

جسداً له خوار يحمل أشياءه على تعبه، قال أبو بكر ابن العربي في العارضة:

أين في القرآن إليه؟

«قال والله أكبر من أشار رسوله حقاً إليه بأصبع وينان».

أين في الحديث إليه؟

«قال والله فوق العرش والكرسي».

أين في القرآن إن الله فوق العرش؟.

فصل

في تلازم التعطيل والشرك

«قال: واعلم بأن الشرك والتعطيل مذكنا هما لا شك مصطحبان أبداً فكل معطل هو مشرك».

سواء أراد بالتعطيل الإنكار للذات أو إنكار الصفات أو بعضها هو مبين للشرك.

قال: «والناس في ذا ثلاث طوائف: إحدى الطوائف مشرك بإلهه فإذا دعاه دعا إلهاً ثاني، وثانيها: جاحد يدعو سوى الرحمن، هو جاحد للرب يدعو غيره شركاً وتعطيلاً له قدما».

هذا ما يستقيم يا هذا.

قال: «وثالث هذه الأقسام خير الخلق فمعطل الأوصاف ذو شرك كذا ذو الشرك فهو معطل الرحمن».

فصل

قال:

لكن أخو التعطيل شر من أخي الإشراك بالمعقول والبرهان

والله لا معقول ولا برهان وأخذ يبينه بما لا يصح وإن كان فيه شيء كثير من الصحيح لا يحصل به مقصوده بل يلبس به.

ثم قال:

لكن أخو التعطيل ليس لديه إلا النفي أين النفي من إيمان

فصل في مثل المشرك والمعطل

قال :

أين الذين قد قال في ملك عظيم م لست فينا قط ذا سلطان
فذكر ثمانية أبيات من هذا الخطاب الذي قد خرق حجاب الهيبة ثم قال : « هذا
وثنان قال أنت مليكتنا إذ حزت أوصاف الكمال ولقد جلست على سرير الملك متصفاً
بتدبير عظيم الشأن » .
هذا تصريح بالجلوس^(١١) . (وفي المطبوع وقد استوتيت) .

(١١) يعجب المصنف كيف يصرح الناظم بالجلوس . ولأحد تلامذته الأخصاء جزء في إثبات العماسة
رداً على من يزهو الله سبحانه عن ذلك وما يطوي عليه هؤلاء أفلح بكثير من فئات لسانهم فلو
كانوا بين قوم على معتقدهم لكنت تراهم يصرحون بكل ما تكن صدورهم . قال ذلك التلميذ
- أعني محمداً المنجي - صاحب الفرج بعد الشدة في الجزء المذكور : قال الخلال في كتاب
السنة : حدثنا أحمد بن الحسين الرقي حدثنا إبراهيم بن المنذر حدثنا محمد بن فليح حدثني أي
عن سعيد بن الحارث عن عبيد بن حنين قال : بينما أنا جالس في المسجد إذ جاءني فتادة بن
التمعان يحدث وثاب إليه الناس ، فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله لما فرغ من
خلقه استوى على عرشه واستلقى ووضع إحدى رجله على الأخرى وقال إنها لا تصلح
لبشر » . قال الحافظ الذهبي وغيره إنساده على شرط البخاري ومسلم اهـ .

ولعلك علمت بذلك قيمة كتاب السنة للخلال ، وفي ذلك الجزء من المخازي ما يضاهي ما
نقلناه آنفاً ، ولابن بدران الدشتي جزء في إثبات الحد والجلوس لله سبحانه ويسوق فيه الحديث
المذكور بطرق كما ذكرت ذلك فيما علقت على ذبول طبقات الحفاظ قائلهم الله ما أجراهم
على الله . ولعلك علمت بذلك أيضاً قيمة تهويلهم بأنهم يتابعون السنة كما علمت قيمة
تصحيحهم للروايات المطابقة لزيغهم .

تنبيه : اللغبي يعد عن رشد ويفقد صوابه إذا جاء دور الكلام على أحاديث في الصفات أو في
فضائل النبي ﷺ أو أهل بيته عليهم السلام وكذلك حينما يترجم لشافعي من الأشاعرة أو حنفي
مطلقاً رغم تظاهره بالإنصاف والبعد عن التعصب في كثير من المواضع على سعة علمه في
الحديث ورجاله . فهل يتصور من عالم يعقل ما يقول أن يصحح مثل هذا الحديث الذي بطلانه
أظهر من الشمس في ضحوة النهار؟ فطالب الحق لا يعبر سمعاً لأقواله فيما ذكرناه . وهو
شافعي الفروع إلا أنه مجسم اعتقاداً رغم تنزيهه منه في كثير من المواضع وعنده نزعة خارجية
وإن كان أهون شراً بكثير من الناظم وشيخه في ذلك كله ، ومن لا يكون متساهلاً في أمر دينه ،
لا يثنى بكلام مثله فيما ذكرناه بعد أن عرف دخائله . والتاج ابن السبكي أطراه غاية الإطراء
حينما ترجم له في طبقات الشافعية الكبرى أداه لحق التلمذة عليه لكن لم يعنمه ذلك من =

= الإشارة إلى ما ينطوي عليه من البدع والأهواء في مواضع من كتابه حيث قال في الكتاب المذكور (١ - ١٩٧): وأما تاريخ شيخنا الذهبي فإنه على حسنه وجمعه مشحون بالتعصب المفرط، لا آخذة الله فلقد أكثر الوقعة في أهل الدين - أعني الفقراء الذين هم صفوة الخلق - واستطال بلسانه على كثير من أئمة الشافعيين والحنفيين ومال فأفرط على الأشاعرة ومدح فزاد في المجسمة اه حتى عده لا يحول على تراجمه لهؤلاء، وقال أيضاً في حقه (٢ - ٢٤٩) من الكتاب المذكور: وتأتي أنت تتكعج. في ظلم التجسيم الذي تدعي أنك بريء منه وأنت من أعظم الدعاة إليه وتزعم أنك تعرف هذا الفن - يعني علم أصول الدين - وأنت لا تفهم منه نقيراً ولا فطيراً اه.

حال الذهبي - ما له وما عليه

وقال أيضاً في ترجمة ابن جرير ناقلاً عن الحافظ صلاح الدين العلامي أنه قال عن الذهبي ما نصه: «لا أشك في دينه وورعه وتحريه فيما يقوله عن الناس ولكنه غلب عليه مذهب الإثبات ومنافرة التأويل والغفلة عن التنزيه حتى أثر ذلك في طبعه انحرافاً شديداً عن أهل التنزيه وميلاً قوياً إلى أهل الإثبات فإذا ترجم واحداً منهم يطلب في وصفه بجميع ما قبل فيه من المحاسن ويبالغ في وصفه ويتغافل عن غلطاته ويتأول له ما أمكن، وإذا أذكر أحداً من الطرف الآخر كإمام الحرمين والغزالي ونحوهما لا يبالغ في وصفه ويكثر من قول من طعن فيه ويعيد ذلك ويبيده ويعتقده ديناً وهو لا يشعر ويعرض عن محاسنهم الطائفة فلا يستوعبها وإذا ظفر لأحد منهم بغلظة ذكرها وكذلك يفعل في أهل عصرنا إذا لم يقدر على أحد منهم بتصريح يقول في ترجمته والله يصلحه... ونحو ذلك وسببه المخالفة في العقائد، انتهى».

قال التاج ابن السبكي عقب ما تقدم ما نصه: «والحال في شيخنا الذهبي أزيد مما وصف وهو شيخنا ومعلمنا غير أن الحق أحق أن يتبع وقد وصل من التعصب المفرط إلى حد يسخر منه وأنا أخشى عليه يوم القيامة عند من لعل أذناه عنده أوجه منه فالله المسؤول أن يخفف عنه وأن يلهمهم العفو عنه وأن يشفعهم فيه، والذي أدركنا عليه المشايخ النهي عن النظر في كلامه وعدم اعتبار قوله ولم يكن يستجري أن يظهر كتبه التاريخية إلا لمن يغلب على ظنه أنه لا ينقل عنه ما يعاب عليه، وأما قول العلامي عن دينه وورعه وتحريه فيما يقوله فقد كنت أعتقد ذلك وأقول عند هذه الأشياء ربما أعتقدها ديناً، ومنها أمور أقطع بأنه يعرف بأنها كذب وأقطع بأنه لا يختلفها وأقطع بأنه يجب وضعها في كتبه لنشر وأقطع بأنه يجب أن يعتد سامعها صحتها بنصاً للمتحدث فيه وتغيباً للناس عنه مع قلة معرفته بمدلولات الألفاظ ومع اعتقاده (أن ذلك) مما يوجب نصر العقيدة التي يعتقدها هو حقاً، ومع عدم ممارسته لعلوم الشريعة غير أنني لما أكثر بعد موته النظر في كلامه عند الاحتياج إلى النظر فيه توقفت في تحريه فيما يقوله ولا أزيد على هذا غير الإحالة على كلامه... إلى آخر ما قاله فليراجع باقي كلامه من أراد المزيد على ما نقلنا.

وقال التاج أيضاً في طبقاته وهو يترجم لإمام الحرمين ما نصه: «وقد كان الذهبي لا يدري شرح البرهان، ولا هذه الصناعة، ولكنه يسمع خرافات من طلب الحنابلة فيعتقدها حقاً =

= ويودعها نصانيفه، هذا قدر عقلية الذهبي وقدر تحريره عند صاحب الطبقات، ولعل القاري يرى هذه العقلية من أسخف العقلات كيف لا وهي عقلية ترى الخرافات حقاً وتدع في المصنفات ويبنّي عليها ما يتخذ عباد الله ديناً، ورجل هذا حاله أي قدر يكون قدره عند أولي النهي، الذين عرفوا دخائله.

ولسنا نطيل النقل للقاري في شأن سقوط كلام هذا الرجل في علماء الحنفية والمالكية والشافعية وهم قادة الأمة وأدلاؤها إذا ادّلعهم ليل المشكلات وكفى القاري في هذا الرجل قول ابن السبكي السابق (والذي أدركنا عليه المشايخ النهي عن النظر في كلامه وعدم اعتبار قوله) فإن هذا معناه القضاء على الرجل وإسقاطه من عداد العلماء الذين يحترم قولهم، ليثأل القاري طويلاً في قول التاج ابن السبكي السابق أيضاً (ولم يكن يستجري أن يظهر كتبه التاريخية إلا لمن يغلب على ظنه أن لا ينقل عنه ما يعاب عليه) فإن هذا معناه أن الرجل كان يعلم حق العلم أنه قال في تلك الكتب ما يوفن أنه ليس بحق، ولذلك كان يحرص على أن لا يطلع الناس عليه لتلافتهم بأكاذيبه البعيدة عما عليه العلماء الذين يكتب عنهم، وأرجو وألح في الرجاء أن لا يغفل القاري عن قول صاحب الطبقات السابق في هذا الرجل من أنه (كان قليل المعرفة بمبدولوات الألفاظ) ومن من العقلاء يرضى أن يسقط نفسه فيعد من ذمرة العلماء رجلاً يصل به الجهل إلى درجة قلة المعرفة بمبدولوات الألفاظ؟ كما أرجو القاري أيضاً وأشد في هذا الرجاء أن يلتفت لقول صاحب جمع الجوامع (إن الذهبي لم يمارس علوم الشريعة) ومن فقد رشده وضاع صوابه حتى يستطيع أن يعد من العلماء رجلاً لم يمارس الشريعة فليعلم حق العلم ليراعي حق الرعاية. ولا ينسى القاري أن ما تقدم شهادة تلميذ هو إمام فهو أعرف بشيخه ولعل هذا يكفي في دفع ما ربما يقوله بعض المفرورين بالذهبي أو ينقله عن بعض المفرورين.

وقد أشرت إلى حاله في مواضع مما علقته به على ذيول طبقات الحفاظ وزغل العلم.

وما يزيدك بصيرة في هذا الباب اجترأ الذهبي على حذف لفظ «إن صحت الحكاية عنه» من كلام البيهقي في الأسماء والصفات (ص ٣٠٣) عندما نقل كلامه في كتاب العلو (ص ١٢٦) في صدد نسبة القول بأن الله في السماء، إلى أبي جنيّة لبخيل إلى السامع أن سند هذه الرواية لا مغمز فيه مع أن نوحاً الجامع ريب مقاتل بن سليمان المجسم، في السند هالك مثل زوج أمه، وكذلك نعيم بن حماد ريب نوح، وقد ذكره كثير من أئمة أصول الدين في عداد المجسمة فأين التعويل على رواية مجسم فيما يحتاج به لملعبيه؟ وليس بقليل ما ذكره الذهبي في حقهما في ميزان الاعتدال على أنه لو سبق النفاق نحو عشرة آلاف شخص حول بدعه امرأة أنت من ترمذ إلى الكوفة للدعوة إلى مذهب جهم لكان لهذا النبا شأن عظيم في كتب الأنبياء والرواية ولما انفرد بمثل ذلك الخبر يحيى بن يعلى المجهول عن نعيم بن حماد الهالك عن نوح الجامع لكل شيء غير الصدق ولا كان انفرد أحمد بن جعفر بن نصر عن يحيى المذكور ولا أبو الشيخ بن حيان صاحب كتاب العظمة الذي يحوي كل هائف وقد ضعه بلبابه الحافظ الصال، وقد أشار البيهقي بقوله «إن صحت الحكاية» إلى ما في الرواية من وجوه الخلل. وعندما حذف الذهبي هذا اللفظ يظن من لا خبرة عنده بالرجال أن الإله في السماء قول فقيه الحلة إمام شطر هذه =

الامة بل ثلثيها في جميع القرون مع بطلان رواية ذلك عنه بالمرة. ولأبي حنيفة كلمة في الفقه الأيسط رواية أبي مطيع عنه وهي «من قال لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض كفر» وعُتِل الأصحاب ذلك بأن هذا القائل جوز المكان في حقه تعالى وهو كفر؟ وما طبع في الهند باسم شرح الفقه الأكبر للماتريدي إنما هو شرح أبي الليث على الفقه الأيسط مع سقم النسخة الهندية، ويدار الكتب المصرية نسخة خطية جيدة من شرح أبي الليث. وقد زاد أبو إسماعيل الهروي في الفروق على تلك الكلمة ما شاء من كسبه مما يوافق مذهبه في التجسيم كذباً وزوراً بسند مركب، ونقل الذهبي في كتاب العلو جملة ذلك بدون أن يذكر سند الهروي في روايته نعمة وترجيحاً للباطل، وكذا فعل الناظم في عزوه - راجع شرح أبي الليث وشرح البزدوي وإشارات المرام في عبارات الإمام للبياضي، ودفع الشبه للفتي الحصري وشرح الفقه الأكبر لعلي الفارسي - فيما نقله عن ابن عبد السلام ولم يراقب الله من زاد على الكلمة السابقة ما أشرنا إليه كما وقع في بعض نسخ الكتاب المذكور من عهد ذلك الهروي. وقد روى الذهبي في كتاب العلو أيضاً عن الدارقطني الأبيات المعروفة عند المجسمة بسند يقول فيه أنبأنا أحمد بن سلامة عن يحيى بن بوش أنبأنا ابن كادش أنشدنا أبو طالب العشاري أنشدنا الدارقطني: حديث الشفاعة في أحمد، إلى أحمد المصطفى بسند الأبيات (وآخرها كما في بدائع الفوائد لابن القيم ٤ - ٣٩):

فلا تنكروا أنه قاعد ولا تجدوا أنه مفعم

فأحمد بن سلامة الحنبلي شيخ الذهبي مات سنة ٦٧٨ والذهبي ابن خمس، ويحيى بن أسعد بن بوش الحنبلي الخباز المتوفى سنة ٥٩٣ وأحمد بن سلامة ابن أربع كان أمياً لا يكتب، وأبو العز بن كادش أحمد بن عبيد الله المترفي سنة ٥٢٦ من أصحاب العشاري اعترف بالوضع ويقال ثم تاب، راجع الميزان. وحكم مثله عند أهل النقد معروف، وأبو طالب محمد بن علي الشاري الحنبلي المتوفى سنة ٤٥٧ مغفل يتقن ما يلحق، وقد راجت عليه العقيدة المنسوبة إلى الشافعي كذباً، وكل ذلك باعتراف الذهبي نفسه في الميزان وغيره، فهل يصح عزو تلك الأبيات إلى الدارقطني بمثل هذا السند؟ وقال الذهبي أيضاً في العبر في ترجمة أبي يعلى الحنبلي: (صاحب التصانيف وفقه العصر كان إماماً لا يدرك قرأه ولا يشق عبارته وجميع الطائفة معترفون بفضلته ومخترفون من بحره). وأنت علمت حال أبي يعلى مما ذكره ابن الجوزي في دفع الشبه، ومما نقلناه عن كتبه في هذا الكتاب ومما ذكره ابن الأثير في الكامل في حوادث سنة ٤٢٩، وترى للذهبي كثيراً ما يقول في رد ما أخرجه الحاكم في المستدرک في فضائله ﷺ وأهل بيته عليهم السلام: أقلته باطلاً. بدون ذكر أي حجة، وقد ذكر ابن الوردي في تاريخه أنه أدّى كثيراً من الأحياء بتدوين ما كان يسمعه من أحداث يجتمعون به.

وفيما ذكرنا كفاية في معرفة حال الذهبي نسال الله السلامة، ومع ذلك هو أهون شراً من الناظم وشيخه كما سبق، وله رسالة إلى ابن تيمية ينصحه فيها ويمتنعه من المغالاة، وسبق نشرها مع زغل العلم له. وترى الذهبي مع ثنائه البالغ في حق ابن تيمية في كثير من كتبه يقول عنه: «وقد أوديت من الفريقين من أصحابه وأصداده وأنا مخالف له في مسائل أصلية وفرعية اه كما في الدرر الكامنة، ويقول عنه أيضاً: إنه أطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون وهابوا وجسر هو عليها اه نقله ابن رجب عنه في طبقاته. ويقول عنه أيضاً في زغل العلم =

قال :

«إن المعطل بالعداوة معلن والمشركون أخف في الكفران»
 ما لمن يعتقد في المسلمين هذا إلا السيف^(١).

فصل

في أسبق الناس دخولاً إلى الجنة

قال : «وروى ابن ماجه أن أولهم يضافه^(٢) إله العرش ذو الإحسان فاروق دين الله» .

(ص ١٧) . . . وقد تمت في وزنه وتفتيشه حتى ملئت في سنين متطاولة ، فما وجدت الذي أخره بين أهل مصر والشام ومقت نفوسهم وازدروا به وكذبوه وكفروه إلا الكبر والمجب وفرط الغرام في رياسة المشيخة والأزهراء بالكبار ، فانظر كيف ربال الدعاوى ومحبة الظهور . . وما دفع الله عنه وعن اتباعه أكثر ، وما جرى عليهم إلا بعض ما يستحقون فلا تكن في ريب من ذلك اهـ .

ويقول عنه أيضاً في (ص ٢٣) من زغل العلم : « . . . وقد وأيت ما أكل أمره إليه من الحط عليه والهجر والتفليل والتكفير والتكذيب بحق ربباطل فقد كان قبل أن يدخل في هذه الصناعة منوراً مضيئاً على محبيه سيما السلف ثم صار مظلاً مكسوفاً عليه قتمة عند خلائق من الناس ، ودجلاً أفاكاً كافراً عند أعدائه ، ومبتدعاً مضلاً محققاً بارهاً عند طوائف من عقلاء الفضلاء ، وحامل راية الإسلام ، وحامي حوزة الدين ومحبي السنة عند عموم عوام أصحابه اهـ . وهذه الكلمات نقلها السخاوي عنه أيضاً في (الإعلان بالتوبيخ) ومن الخطأ الفاحش عزوها إلى (جمع المعارض) للسيوطي اغتراراً بوضع رقم التعليق في (القول الجلي) غلطاً عند كلمة (جمع المعارض) مع تصحيف (زغل العلم) إلى (رجل العلم) بعد أسطر في الطبعيتين مع أن أصل التعليق كان على (زغل العلم) المصحف إلى (رجل العلم) كما نبهت على ذلك فيما علفته على الزغل المطبوع وإن لم ينفع تنبيهي عند أناس لا يوقظهم من سباتهم العميق غير نفخة الصور ونسبة (زغل العلم) إلى الذهي ليست بموضع ريبة أصلاً ، وهو من المخطوطات المحفوظة في التيمورية بدار الكتب المصرية وسأتي إن شاء الله تعالى في آخر الكتاب بصورة رسالة الذهي التي بعث بها إلى ابن تيمية ينصحه في شواذه ويكفي ما ذكرناه هنا في تبين نظر الذهي لابن تيمية مع أنه من أهل مذهبه المنفخمين به فنسجل للذهبي هذه الحسنات كتسجيلنا لسيئاته المذكورة مراعاة للعدل فيما له وفيما عليه وإيقاظاً للمفتقرين به ، والله ولي الهداية .

(١) لأن ذلك زندقة مكشوفة ومروق ظاهر وإصرار على اعتقاد الإيمان كفرة أبه الله كيف يعتقد في المشركين أنهم أخف في الكفر من المؤمنين المنزهين والشيخ الإمام المصنف رضي الله عنه رجل معروف بالورع البالغ واللسان العفيف والقول النزيه لا تكاد تسمع منه في مصنفاته كلمة تشم منها رائحة الشدة ، ولينظر القارئ حاله هذا مع قوله في ابن القيم «ما له إلا السيف» إنه إن فكر في هذا قليلاً علم العلم القاطع أن هذا الناظم بلغ في كفره مبلغاً لا يجوز السكوت عليه ولا يحسن لمؤمن أن يفضي عنه ولا أن يتساهل فيه .

(٢) قاتله الله ، حديث موضوع يستدل به وشأن هذا الخبر في السقوط فوق أن يقال بين رجاله =

فصل

في عدد الجنات

قال: «سبحان من غرست يده»^(١) جنة الفردوس ويده أيضاً أنقنت لبنائها، هي في الجنان كآدم لكنما الجهمي ليس لديه من ذا الفضل شيء فهو ذو نكران». إنما ينكر العضو والجراحة فإن كنت أنت تثبتها فاعرف.

قال: «ولد عقوق عني والده ولم يثبت بهذا فضلاً عن الشيطان».

ما يستحيي يكذب على الناس.

قال: «ولقد روى حقاً أبو الدرداء ذلك عويمر أثراً عظيم الشأن يهتز قلب العبد عند سماعه طرباً بقدر حلاوة الإيمان ما مثله أبداً يقال برأيه فيه النزول»^(٢). ثلاث ساعات: فأحدها ينظر في الكتاب، الثاني: يمحو ويثبت ما يشاء بحكمة، والساعة الأخرى إلى عدن أهله هم صفوة الرحمن والساعة الأخرى إلى هذه السماء يقول هل من تألب ندمان».

الظاهر أنه ما ساق أبواباً في صفة الجنة إلا ليذكر هذا الحديث وأيضاً ليسكت الناس بسماع صفات الجنة فيقبلون على هذه القصيدة ويعكفون عليها فيفتنهم، أسأل الله العافية ويحق له اسم الحشوي لأن الباطل محشو في هذه القصيدة للحناء.

قال: «وروى ابن ماجه مسنداً عن جابر بينا هم في عيشهم إذا بنور ساطع رفعوا رؤوسهم فرأوه نور الواحد وإذا برهم تعالى فوقهم»^(٣) قد جاء للتسليم وقال السلام

= ضعيف بل بينهم ضعيف ومنكر الحديث وآخر قدري خلا استحالة المتن وابن كثير أهون شراً من الناظم حيث أنكره جداً في جامع المسانيد (قال المنجي الحنبلي في إثبات المماس): قال ابن تيمية والمعروف عند أئمة أهل السنة وعلماء أهل الحديث أنهم لا يمتنعون عن وصف الله أنه يسر ما شاء من خلقه بل يروون في ذلك الآثار ويردون على من نفاه. انتهى ذكره في الأجوبة المصرية). فأنله الله، ما أجرأه على الله.

(١) خلق الله آدم بعناية خاصة ويدون سبباً والد وأم هذا المعنى المجازي يعقله كل من عنده ذوق العربية وأما الخبر الذي يشير إليها الناظم ففي سننه ابن علي زيد بن جدهان لا يحتاج به.

(٢) هذا الخبر الموقوف ليس بثابت عن أبي الدرداء فضلاً عن ثبوت رفعه إليه ﷺ. وفي سننه زيادة بن محمد الأنصاري، قال البخاري: هو منكر الحديث وقال ابن حبان يروي المتأخر عن المشاهير فاستحق الترك، نقله ابن الجوزي، ولعلك علمت بذلك مبلغ قيمة ما يحتاج به هذا البجاجة النفاج.

(٣) قال الذهبي: إسناده ضعيف، وقال ابن الجوزي: موزع، وقال العقيلي: أبو عاصم العباداني - في سننه - منكر الحديث لا يتابع عليه. وأما فضل الرقاشي في السنن فممن لا يكتب حديثه ويمثل هذا الخبر يحتاج الناظم في تكييف الرؤية.

عليكم جهراً ومصادقه ﴿سَلَّمْتُ قَوْلًا مِنْ رَبِّي تَزِيْرٌ﴾ [يس: ٥٨] من رد ذا فعلى رسول الله رده. الذي يحمله على محمل صحيح لا يرده والذي يحمله على صفات الأجسام هو الذي يرد ما يجب.

فصل

في يوم المزيد^(١)

قال: «فيرون ربهم تعالى جهرة ويحاضر الرحمن واحدهم محاضرة الحبيب يقول يا بن فلان، هل تذكر اليوم الذي قد كنت فيه مبارزاً بالذنب قالوا يحق لنا وقد كنا إذا جلساء رب العرش».

فصل

كله فيما للمبعد عند ربه في الآخرة ولو كان مفرداً بالتصنيف كان حسناً، ولكن إدخاله في قصيدة انتصب فيها للحكم بين الحشوي وخصومه وإسعار الحرب بينهم لأي معنى؟.

فصل

رجع فيه إلى ما كان عليه مما في نفسه وذكر خصومه وفصول معه ذكر فيها فرق المعادين له.

فصل

ختم به الكتاب فيه شيء يسير ولكن هذا آخر كلامنا في ذلك والله المستعان. قال المؤلف: شرعت فيه يوم السبت الرابع والعشرين من صفر سنة ٧٤٩ وفرغت منه يوم السبت مستهل ربيع الأول من السنة^(٢) والحمد لله وحده

(١) جمع طرقه أبو بكر بن أبي داود ذلك الكذاب الزائف وسبق بيان أن ابن عساكر ألف جزءاً في توهمين طرقه فتذكر. ولفظ الجلساء لم يقع إلا في بعض الطرق الواهية لحديث يوم المزيد، راجع جزء ابن عساكر.

خاتمة السيف الصقيل

(٢) فيكون تأليف السبكي لهذا الكتاب قبل وفاة ابن القيم بنحو ستين. هذا وكنا وعدنا عند الكلام على الذهبي أن نأتي في آخر الكتاب بصورة رسالة بعث بها الذهبي إلى ابن تيمية يحذره فيها عواقب إصراره على الشلوذ عن جمهور العلماء في مسائل أصلية وفرعية وقد ظفروا بها بخط =

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

حسبنا الله ونعم الوكيل.

تم السيف الصقيل

= التقي ابن قاضي شهبة متقولاً عن خط البرهان ابن جماعة المتقول من خط الحافظ أبي سعيد الصلاح العلالي المنسوخ من خط الشمس الذهبي نفسه، وخط التقي ابن قاضي شهبة معروف وتوجد كتب بخطه في دار الكتب المصرية والخزانة الظاهرية بدمشق منها قطعة من طبقات الشافعية بدار الكتب المصرية، ومنها ما انتقاء من التاريخ الكبير للذهبي مما يتعلق بتراجم الشافعية بالخزانة الظاهرية ففي إمكان الباحث الذي لا يعرف خط ابن قاضي شهبة أن يتأكد من خطه المقارنة بين الصورة الزنكوغرافية المنشورة هنا، المأخوذة من الرسالة المذكورة المحفوظة بدار الكتب المصرية وبين خطه المحفوظ في الدار والخزانة المذكورتين وإلى تلك الرسالة أشار السخاوي حيث قال في الإعلان بالتوبيخ: «ورأيت له رسالة كتبها لابن تيمية هي في دفع نسيبه لمزيد تمصبه مفيدة» وذلك في صدد الدفاع عن الذهبي ردأ على من ينسبه لفرط التصعب كما ذكرت في صدر الرسالة عند نشرها مع الزغل قبل سنين.

مقدمة رسالة الذهبي إلى ابن تيمية

وقبل الرسالة لا بد من ذكر مقدمة هنا ليكون القارىء على بينة من أمر ابن تيمية وهي أن ابن تيمية هذا ولد بحران بيت علم من الحنابلة وقد أتى به والده الشيخ عبد الحليم مع ذويه من هناك إلى الشام خوفاً من المغول، وكان أبوه رجلاً هادئاً أكرمه علماء الشام ورجال الحكومة حتى ولّوه عدة وظائف علمية مساعدة له، وبعد أن مات والده ولّوا ابن تيمية هذا وظائف والده بل حضروا درسه تشجيعاً له على المضي في وظائف والده وأثنوا عليه خيراً كما هو شأنهم مع كل ناشئ حقيق بالرعاية. وعطفهم هذا كان ناشئاً من مهاجرة ذويه من وجه المغول يصحبهم أحد بني العباس - وهو الذي تولى الخلافة بمصر فيما بعد - ومن وفاة والده بدون مال ولا تراث بحيث لو عثر الآخرون في وظائفه للقي عياله البؤس والشقاء، وكان في جملة المشين عليه التاج الفزاربي المعروف بالفركاخ وابنه البرهان والجلال القزويني والكمال الزملكاني ومحمد بن الجبري الأنصاري والعلا القزويني وغيرهم، لكن ثناء هؤلاء غرّ ابن تيمية - ولم ينته إلى الباعث على ثنائهم - فبدأ يذيع بدءاً بين حين وآخر وأهل العلم يتسامحون معه في الأوائل باعتبار أن تلك الكلمات ربما تكون فلتات لا ينطوي هو عليها، لكن خاب ظنهم وعلموا أنه فائن بالمعنى الصحيح فنخلوا عنه واحداً إثر واحد على توالي فتنه، كما سبق. والذهبي كان من أشياعه ومتابعيه إلا في مسائل، لكنه لما وجد أن فتنه تأخذ كل مأخذ ولم يبق معه سوى مقلدة الحشوية والمتنخدين به وهم شباب بدأ يسعى في تهدئة الفتنة، مرة يكتب إلى أصداده لأجل أن يخففوا لهجتهم معه - كما فعل مع السبكي على رواية ابن رجب ولم نطلع على غير صدر الجواب على تقدير صحة ذلك الصدر - ومرة يكتب هذه الرسالة إلى ابن تيمية نفسه.

نص رسالة الإمام الذهبي
إلى شيخ الإسلام ابن تيمية

نص الرسالة

ولا تخلو قراءة هذا الخط من بعض صعوبة على بعض القراء فإليك الرسالة بالحروف المعتادة مع عنوانها:

رسالة كتب^(١) بها الشيخ شمس الدين أبو عبد الله الذهبي إلى الشيخ تقي الدين ابن تيمية كتبها^(٢) من خط قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة رحمه الله وكتبها هو من خط الشيخ الحافظ أبي سعيد بن العلاء وهو كتبها من خط مرسلها الشيخ شمس الدين.

الحمد لله على ذلتي، يا رب ارحمني وأقلني عثرتي. واحفظ عليّ إيماني. وا حزناه على قلة حزني، وا أسفاه على السنة وذهاب أهلها. وا شوقاه إلى إخوان مؤمنين يعاونونني على البكاء. وا حزناه على فقد أناس كانوا مصاييح العلم وأهل التقوى وكنوز الخيرات. آه على وجود درهم حلال وأخ مونس، طوى لمن شغله عيه عن عيوب الناس. وتباً لمن شغله عيوب الناس عن عيه. إلى كم ترى القداة في عين أخيك وتنسى الجلع في عينك! إلى كم تمدح نفسك وشقاشقك وعبارتك وتذم العلماء وتبجح عورات الناس مع علمك بنهي الرسول ﷺ «لا تذكروا موتاكم إلا بخير، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا» بلى أعرف أنك تقول لي لتنصر نفسك: إنما الوقعة في هؤلاء الذين ما شئوا راحة الإسلام ولا عرفوا ما جاء به محمد ﷺ وهو جهاد. بلى والله عرفوا خيراً كثيراً مما إذا عمل به العبد فقد فاز وجهلوا شيئاً كثيراً مما لا يعنيه، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه. يا رجل بالله عليك كف عنا فإنك محجاج عليم اللسان لا تقر ولا تنام. إياكم والغلو طات في الدين كره نبيك ﷺ المسائل وعابها ونهى عن كثرة السؤال وقال: «إن أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان» وكثرة

(١) بتضمين (بعث).

(٢) والكاذب هو التي ابن قاضي شهبة وقد ذكر في طبقات الشافعية أنه اطلع على مجاميع وفوائد بخط البرهان ابن جماعة.

الكلام بغير زلل تقسي القلوب إذا كان في الحلال والحرام، فكيف إذا كان في عبارات اليونانية والفلاسفة وتلك الكفريات التي تعمي القلوب. والله قد صرنا ضحكة في الوجود فإلى كم تنبش دقائق الكفريات الفلسفية لنرد بمقولنا، يا رجل قد بلغت (سوم) الفلاسفة وتصنيفاتهم مرات. وكثرة استعمال السموم يدمن عليه الجسم وتكمن والله في البدن. وا شوقاه إلى مجلس فيه تلاوة بتدبر وخشية بتذكر وصمت بتفكر. وآهاً لمجلس يذكر فيه الأبرار فعند ذكر الصالحين تنزل الرحمة. بلى عند ذكر الصالحين يذكرون بالازدراء واللعنة. كأن سيف الحجاج ولسان ابن حزم شقيقين فواخيتهما بالله خلونا من ذكر بدعة الخميس وأكل الحبوب وجدوا في ذكر بدع كنا نعددها من أساس الضلال قد صارت هي محض السنة وأساس التوحيد ومن لم يعرفها فهو كافر أو حمار، ومن لم يكفر فهو أكفر من فرعون. وتعد النصارى مثلنا، والله في القلوب شكرك إن سلم لك إيمانك بالشهادتين فأنت سعيد. يا خيبة من اتبعك فإنه معرض للزندقة والانحلال لا سيما إذا كان قليل العلم والدين باطولياً شهوانياً. لكنه يتفكك ويجاهد عندك بيده ولسانه وفي الباطن عدو لك بحاله وقلبه فهل معظم أتباعك إلا قعيد مربوط خفيف العقل أو عامي كذاب بليد الذهن أو غريب واجم قوي المكر أو ناشف صالح عديم الفهم، فإن لم تصدقني ففتشهم وزنهم بالعدل، يا مسلم أقدم حمار شهوتك لمدح نفسك. إلى كم تصادقها وتعادي الأخيار. إلى كم تصادقها وتزدرى الأبرار. إلى كم تعظمها وتصغر العباد إلى متى تخاللها وتمقت الزهاد. إلى متى تمدح كلامك بكيفية لا تمدح - والله - بها أحاديث الصحيحين. يا ليت أحاديث الصحيحين تسلم منك بل في كل وقت تغير عليها بالتضعيف والإهدار أو بالتأويل والإنكار. أما أن لك أن ترعوي؟ أما حان لك أن تتوب وتنب؟ أما أنت في عشر السبعين وقد قرب الرحيل. بلى - والله - ما أذكر أنك تذكر الموت بل تزدرى بمن يذكر الموت فما أظنك تقبل على قولي ولا تصغي إلى وعظي بل لك همة كبيرة في نفخ هذه الورقة بمجلدات ونقطع لي أذنان الكلام ولا تزال تنتصر حتى أقول: والبتة سكت. فإذا كان هذا حالك عندي وأنا الشفوق المحب الرواد فكيف حالك عند أعدائك وأعدائك - والله - فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء كما أن أولياءك فيهم فجرة وكذبة وجهلة وبطلة وعور وبقر. قد رضيت منك بأن تسبني علانية وتتفع بمقاتلي سرأ (فرحم الله امرأه أهدى إلي عيوبي) فإني كثير العيوب غزير الذنوب. الويل لي إن أنا لا أتوب، ووافضيحتي من علام الغيوب ودوائي عفو الله ومسامحته وتوقيفه وهدايته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وهنا انتهت صورة رسالة الذهبي إلى ابن تيمية وفيها عبر بالغة. وليكن هذا آخر تكملة الرد على نونية ابن القيم وبها يكون إن شاء الله تعالى (تبديد الظلام المخيم من نونية ابن القيم).

لماذا يقال للناظم ابن القيم

وقد عرف الناظم بابن القيم حيث كان أبوه قيم المدرسة الجوزية الحنبلية التي أنشأها محيي الدين ابن الحافظ أبي الفرج ابن الجوزي الحنبلي بسوق القمح المعروفة اليوم بالبزورية بدمشق، والغالب أن يقال له ابن قيم الجوزية لئلا يلتبس بابن القيم الكبير المصري الراوي عن الفخر الفارسي فإنه معمر مقدم، وبذلك يعلم أن من يقول عنه (ابن القيم الجوزي) وأهم وهماً قبيحاً وإنما هو (ابن قيم الجوزية) كما قلنا - ويجد القاري الكريم في كتابنا هذا الرد على ابن تيمية كما يجد فيه الرد على ابن القيم باعتبار أن الثاني إنما يردد صدى الأول في أبحاثه كلها دون أن تكون له شخصية خاصة بل هو ظل الأول في كل آرائه وجميع أهوائه فانتظمهما الرد ولعل فيما رددنا به عليهما كفاية للمنصف وقطعاً لعدو كل متعسف. وأما من تعود أن يقول: (عزّة وإن طارت).

خاتمة تكملة الرد

فلبس خطابي معه ﴿وَاللّٰهُ يَقُولُ الْحَقُّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] وكان فراغي من إعادة النظر في الكتاب بمنزلي في آخر العباسية بمصر القاهرة - حرسها الله تعالى - ضحوة يوم الخميس المصادف لليوم الثالث من رجب سنة ١٣٥٦ وأسأل الله سبحانه أن ينفع به المسلمين وأن يجعله ذخراً لي يوم الدين يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم إنه المجيب البر التواب الرحيم، وأنا الفقير إلى عفو الله ومسامحته «محمد زاهد بن الحسن بن علي الكوثري» خادم العلم بدار السلطنة العثمانية سابقاً عفا الله عن سيئاته ورفع منزلته ومنازل ذويه في الآخرة وأغدق عليه وعلى قرائته ومشايخه سحب رحمته ورضوانه وغفر لهم ولسائر المسلمين أجمعين.

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

العالم والمتعلم للإمام أبي حنيفة

تأليفه
الإمام العلامة الشيخ محمد زاهد بن حسنة بن علي الكوثري
المتوفى ١٣٧١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة عن العالم والمتعلم ورسالة أبي حنيفة إلى البتي والفقه الأيسط ورواتها

الحمد لله، وصلاة الله وسلامه على سيدنا محمد رسول الله، وآله وصحبه وكل من هدى هديه وتابع نور هداة. أما بعد فإن (العالم والمتعلم) رواية أبي مقاتل حفص بن سلم السمرقندي عن الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، والرسالة التي بعث بها أبو حنيفة إلى عالم البصرة عثمان بن مسلم البتي المتوفى سنة ١٤٣هـ رواية أبي يوسف عن أبي حنيفة، والفقه الأكبر رواية أبي مطيع عن أبي حنيفة المعروف عند أصحابنا بالفقه الأيسط، والفقه الأكبر رواية حماد بن أبي حنيفة عن أبيه، والوصية في عقيدة أهل السنة رواية أبي يوسف عن أبي حنيفة فتلك الرسائل هي العمد عند أصحابنا في معرفة العقيدة الصحيحة التي كان عليها النبي ﷺ وأصحابه الغر الميامين، ومن بعدهم من أهل السنة على توالي السنين.

وإمام الهدى أبو منصور الماتريدي رضي الله عنه وعن سائر الأئمة بني توضيح الدلائل، على مسائل تلك الرسائل، كما جرى على ذلك الإمام المجتهد أبو جعفر الطحاوي في كتابه «بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن» رضي الله عنهم المعروف بعقيدة الطحاوي، فيتبين من ذلك مبلغ أهمية تلك الرسائل عند الباحثين، وتوجد نسخ مخطوطة منها في مكتبة الفاتح بالآستانة ودار الكتب الملكية بالقاهرة، وسبق أن نشرت كلها في مجموعة بالآستانة قبل مدة أكثر من قرن كامل فأصبحت تلك الطبعة بنفاد نسخها في حكم ما لم يطبع، وطبعت الوصية مع شروحاتها مرات، وكذلك الفقه الأكبر رواية حماد وشروحه.

وسبق أن طبع (العالم والمتعلم) رواية أبي مقاتل في الهند قبل نحو عشر سنين بمعرفة إخواننا الأعزاء هناك لكنه خلو من السند مع بعض مخالفة لما عندنا من النسخ، وطبع في الهند وفي مصر شرح الفقه الأكبر رواية أبي مطيع - وهو المعروف بالفقه الأبسط تمييزاً له عن رواية حماد بن أبي حنيفة - لكن نسب الناشر هذا الشرح سهواً إلى الإمام أبي منصور الماتريدي مع ظهور أن الشرح ليس له، بما جرى من نقول عن كثير ممن تأخر زمنه عن زمنه، وهو توفي سنة ٣٣٢هـ في رواية قطب الدين الحلبي الحافظ.

والواقع أن هذا الشرح لأبي الليث السمرقندي المتوفى سنة ٣٧٣هـ. والطابع لم ينحر صحة الأصل، فلعل أحد الطابعين يتولى إعادة نشر الشرح من أصل وثيق فيعيد الحق إلى نصابه. وعدة نسخ مخطوطة من الشرح باسم أبي الليث موجودة في دار الكتب المصرية. راجع المجموعتين ٣٤٩، ٣٩٣ ورقم ١٩٥ في علم الكلام بدار الكتب المصرية ففيها التصريح بنسبه إلى أبي الليث السمرقندي.

وحيث منّت الحاجة إلى تحقيق ونشر الثلاثة الأول: العالم والمتعلم، ورسالة أبي حنيفة إلى النبي في الإرجاء، والفقه الأبسط، تقديماً للأهم على المهم، فإنني أتحدث أولاً عن أسانيد تلك الكتب عند أصحابنا فأقول:

أما كتاب العالم والمتعلم رواية أبي مقاتل عن أبي حنيفة فيرويه الموفق المكي في المناقب (١ - ٨٤ و ٩٧): كتابة عن أبي حفص عمر بن محمد النسفي عن أبي علي الحسن بن عبد الملك النسفي عن جعفر بن محمد المستغفري عن أبي عمرو محمد بن أحمد النسفي عن الإمام أبي محمد الحارثي البخاري عن محمد بن يزيد عن الحسن بن صالح عن ابن مقاتل عن أبي حنيفة (ح)^(١) وعن أبي حامد محمد بن أبي الربيع المازني المقرئ. قراءة عن أبي العلاء حامد بن إدريس عن أبي المعين ميمون بن محمد النسفي، عن أبي طاهر المهدي بن محمد الحسيني، عن أبي يعقوب يوسف بن منصور اليساري، عن أبي الفضل أحمد بن علي السليمانبي البيكندي، عن أبي سعيد حاتم بن عقيل الجوهري، عن الفتح بن أبي علوان ومحمد بن يزيد قالاً أنبأنا الحسن بن صالح عن أبي مقاتل عن أبي حنيفة «ح» وبعلو عن أبي حفص

النسفي عن أبي يعقوب السيارى بسنده . وفي نسخة دار الكتب المصرية يرويه ابن قاضي العسكر أبو الحسن علي بن خليل الدمشقي عن أبي الحسن برهان الدين علي بن الحسن البلخي، عن أبي المعين النسفي، عن أبيه محمد النسفي، عن عبد الكريم بن موسى البزدوي النسفي، عن أبي منصور الماتريدي عن أبي بكر أحمد بن إسحاق الجوزجاني عن أبي سليمان موسى بن سليمان الجوزجاني وعن محمد بن مقاتل الرازي وهما عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله وأبي عصمة عصام بن يوسف البلخين وهما عن أبي مقاتل حفص بن سلم السمرقندي عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عن الجميع .

وقد طالعت ألسنة بعض النقلة على أبي مقاتل كطول لسانهم على أبي حنيفة وأصحابه متذرعين في ذلك برميهم إياه بالرأي والإرجاء والتجهّم ونحو ذلك مما يعلو تحقيق الحق والباطل منه على مداركهم حتى تراهم يرمونه بالكذب من غير حجة، وكل من قال بخلاف رأيهم فهو كذاب لقوله بما هو خلاف الواقع في نظرهم على جلالة قدره عند أصحابنا رضي الله عنهم . لا آخذ الله المخلفين على هذا العدوان الصارخ، فإن كان لا بد من النقل عن غير أصحابنا في التعميل على المرء، فدونك كلام أبي يعلى الخليلي في (الإرشاد) في أبي مقاتل: (مشهور بالصدق غير مخرج في الصحيح وكان يفتي وله في الفقه محل وتعنى بجمع حديثه خلف بن يحيى قاضي الري)، عمر كثيراً وعاش إلى أن مات سنة ثمان ومائتين وما وقع في اللسان من سنة ٢٥٨هـ كتاريخ لوفاته فسبق قلم، وإقامة (لا) بدل الصفر.

وأما رسالة أبي حنيفة إلى الإمام عثمان النبي عالم البصرة فسندها في نسخة دار الكتب المصرية برواية الإمام حسام الدين حسين بن علي بن الحجاج السفناقي - شارح الهداية - عن حافظ الدين محمد بن محمد بن نصر البخاري عن شمس الأئمة محمد ابن عبد السار الكردري عن برهان الدين المرغيناني - صاحب الهداية - عن ضياء الدين محمد بن الحسين بن ناصر الدين اليرسوخى عن علاء الدين أبي بكر محمد بن أحمد السمرقندي - صاحب تحفة الفقهاء - عن أبي المعين النسفي عن أبي زكريا يحيى بن مطرف البلخي عن أبي صالح محمد بن الحسين السمرقندي عن أبي سعيد سعدان بن محمد بن بكر البستي عن أبي الحسن علي بن أحمد الفارسي عن نصير بن يحيى البلخي عن محمد بن سماعة التميمي عن أبي يوسف عن الإمام الأعظم رضي الله عنهم .

وأما الفقه الأبيسط فسنده في نسخة دار الكتب المصرية^(١) برواية أبي بكر الكاساني - صاحب البدائع عن العلاء السمرقندي - صاحب تحفة الفقهاء، عن أبي المعين النسفي - صاحب تبصرة الأدلة، عن أبي عبد الله الحسين بن علي المعروف بالفضل - وله نحو مائة وعشرين مؤلفاً إلا أنه متكلم فيه، عن ابن مالك نصران بن نصر الختلي عن أبي الحسن علي بن أحمد الفارسي عن نصير بن يحيى عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي عن الإمام الأعظم. وفي مشبه الذهبي رواية نصران الختلي عن علي بن الحسن الغزالي. (ح) وروى أبو المعين أيضاً عن يحيى بن مطرف عن أبي صالح محمد بن الحسين عن أبي سعيد سعدان بن محمد بن بكر بن عبد الله البستي الجرمي عن علي بن أحمد الفارسي السابق ذكر سنده، رضي الله عن الجميع، وأبو مطيع: تكلموا فيه على عاداتهم ورموه بالتجهم والإرجاء والرأي قال الذهبي: كان ابن المبارك يعظمه ويجله لديه وعلمه. تفقه به أهل تلك الديار. كان بصيراً بالرأي علامة كبير الشأن اهـ. قال ابن حجر: روى عنه محمد بن مقاتل وموسى بن نصر وكانا يبجلانه اهـ. وكانت وفاته سنة ١٩٩هـ عن ٨٤ سنة رحمه الله. واختلاف المذاهب يؤدي في بعض النفوس إلى اختلاف القول في المرء وهذا مما يؤسف له نسأل الله السلامة.

وأما الفقه الأكبر رواية حماد بن أبي حنيفة عن أبيه فله شروح كثيرة. وقد طبع مرات في كثير من العواصم كما طبع كثير من شروحه، وأما سنده ففي النسخة الخطية المحفوظة ضمن المجموعة رقم (٢٢٦) بمكتبة شيخ الإسلام العلامة عارف حكمت بالمدينة المنورة زادها الله تكريماً، ففي أولها شد الشيخ إبراهيم الكوراني في الكتاب إلى علي بن أحمد الفارسي عن نصير بن يحيى عن ابن مقاتل (محمد بن مقاتل الرازي) عن عصام بن يوسف عن حماد بن أبي حنيفة عن أبيه رضي الله عن الجميع، وفي مكتبة شيخ الإسلام هذه نسختان من الفقه الأكبر رواية حماد قديمتان وصحیحتان فإلى بعض الطابعين قام بإعادة طبع الفقه الأكبر من هاتين النسختين مع المقابلة بنسخ دار الكتب المصرية.

(١) راجع المجموعتين ٦٤٥م و ٢١٥٥م بدار الكتب المصرية، وأما رواية عبد الله الأنصاري الهروي الفقه الأكبر هذا، في كتابه الفاروق ففيها تزيد وتحريف الكلمة للإمام الأعظم على هوى الحشوية ومخالفة لروايات الآخرين فستفضح دخيلة هذه الخيانة في موضعها إن شاء الله تعالى (ز).

ففي بعض تلك النسخ: وأبو النبي ﷺ ماتا على الفطرة، و(الفطرة) سهلة التحريف إلى (الكفر) في الخط الكوفي، وفي أكثرها. (ما ماتا على الكفر)، كان الإمام الأعظم يريد به الرد على من يروي حديث (أبي وأبوك في النار) ويرى كونهما من أهل النار. لأن إنزال المرء في النار لا يكون إلا بدليل يقيني وهذا الموضوع ليس بموضوع عملي حتى يكفي فيه بالدليل الظني.

ويقول الحافظ محمد المرتضى الزبيدي شارح الإحياء والقاموس في رسالته (الانتصار لوالدي النبي المختار). وكنت رأيته بخطه عند شيخنا أحمد بن مصطفى العمري الحلبي مفتي العسكر العالم المعمر. ما معناه: إن الناسخ لما رأى تكرر (ما) في (ما ماتا) ظن أن إحداهما زائدة فحذفها فذاعت نسخته الخاطئة، ومن الدليل على ذلك سياق الخبر لأن أبا طالب والأبوين لو كانوا جميعاً على حلة واحدة لجميع الثلاثة في الحكم بجملة واحدة لا بجملتين مع عدم التخالف بينهم في الحكم. وهذا رأي وجيه من الحافظ الزبيدي إلا أنه لم يكن رأى النسخة التي فيها (ما ماتا) وإنما حكى ذلك عن رآها، وإنني بحمد الله رأيت لفظ (ما ماتا) في نسختين بدار الكتب المصرية قديمتين كما رأى بعض أصدقائي لفظي (ما ماتا) و(على الفطرة) في نسختين قديمتين بمكتبة شيخ الإسلام المذكورة. وعلي القاري بنى شرحه على النسخة الخاطئة وأساء الأدب سامحه الله. وكتب الرجال شحيحة في ذكر بعض الوفيات، فعلي بن أحمد الفارسي توفي عن سن عالية سنة ٣٣٥هـ ونصير بن يحيى البلخي من أصحاب أبي سليمان الجوزجاني وأبي مطيع توفي سنة ٢٦٨هـ وقد ناهز التسعين، ومحمد بن مقاتل الرازي من أصحاب محمد بن الحسن توفي سنة ٢٤٨هـ وعصام بن يوسف توفي سنة ٢١٠هـ عن ٨٤ سنة، ووفيات بعض هؤلاء في نوازل أبي الليث السمرقندي، وقد وقع في بعض النسخ المطبوعة والمخطوطة وفي بعض ما طبع لي (أبو مقاتل) و(نصر) بدل (ابن مقاتل) و(نصير) غلطاً فوجبت الإشارة إلى ذلك، وهذا ما عَن لي ذكره قبل تلك الرسائل المروية عن فقيه الملة أبي حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه وعن أصحابه وسائر أئمة الفقه وعلماء هذه الأمة أجمعين.

محمد زاهد الكوثري

العالم والمتعلم

رواية أبي مقاتل عن أبي حنيفة

رضي الله عنهما

بتحقيق

محمد زاهد الكوثري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو الحسن علي^(١) بن خليل الدمشقي المعروف بابن قاضي العسكر أنبأنا أبو الحسن برهان الدين علي بن الحسن البلخي عن أبي المعين ميمون بن محمد المكحولي النسفي عن أبيه عن عبد الكريم بن موسى البزدوي عن أبي منصور محمد الماتريدي عن أبي بكر أحمد بن إسحاق الجوزجاني، عن أبي سليمان موسى الجوزجاني وعن محمد بن مقاتل الرازي كلاهما عن أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي وعصام بن يوسف البلخي وهما عن أبي مقاتل حفص بن سلم السمرقندي عن الإمام أبي حنيفة فيما أجابه على أسأله أنه قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى عباد الله الصالحين، أما بعد فأوصيك بتقوى الله وطاعته، وكفى بالله حسيباً وجازياً. ورزقنا الله حياة طيبة ومتقبلاً كريماً، وقد أجبتك فيما سألت عنه ولولا كراهية التطويل وأن يكثر لك شرحت لك الأمور التي أجبتك بها. ثم لا ألك ونفسي خيراً والله المستعان وعليه التكلان.

قال المنعلم - وهو أبو مقاتل -: أتيتك أيها العالم - وهو أبو حنيفة - لانتفع بمجالستك لما أتيت من فضلك، وأرجو أن ينفعني الله تعالى بك. فأفتني عافاك الله إن أنا سألتك، لتستحق بذلك الثواب من الله سبحانه إنني ابتليت بأصناف من الناس وسألوني عن أشياء لم أعتد لجوابها، ولم أترك الحق الذي بيدي. وإن عجزت عن

(١) روى عنه الحافظ الشريف المعياطي. وعنه الحافظ عبد القادر القرشي وأسانيد أصحاب الإثبات إليه معروفة (ز).

جوابهم، وعرفت أن للحق من يعبر عنه، وليس الحق بمنقوض والباطل مزهوق به، وكرهت أيضاً لنفسى الجهالة بأصل الدين وما انتحل من الحق وأن تكون منزلتى فى أصل ما أدعى كمنزلة الصبي المتعلم الذي لا علم له بأصل ما يتكلم به، أو كمنزلة المبرسم أو المجنون الذي يهذي بما ينقض على نفسه ويشين به نفسه، فأجبت أصلك الله تعالى أن أكون عالماً بأصل ما انتحل من الحق وأتكلم به حتى إذا جاءني ماردٌ يتمرد علي، أو يريد أن يزيلني عن الحق لم يطق، وإن جاءني متعلماً أوضححت له وأكون على بصيرة من أمري.

وقال العالم: نعم ما رأيت في ابتائك عما يفتيك، واعلم أن العمل تبع للعلم كما أن الأعضاء تبع للبصر، فالعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير، ومثل ذلك الزاد القليل الذي لا بد منه في المغازة مع الهداية بها أنفع من الجهل مع الزاد الكثير، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] و﴿إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولَئِكَ﴾ [الزهد: ١٩].

قال المتعلم: لقد زدني في طلب العلم رغبة، فأما قول الأصناف فإني سأبدأ بأدناهم منزلة عندي إن شاء الله تعالى، فأخبرني بالحجج عليهم رأيت أقواماً يقولون لا تدخلن هذه المداخل فإن أصحاب نبي الله ﷺ لم يدخلوا في شيء من هذه الأمور وقد يسعك ما وسعهم. وأن هؤلاء زادوني غمّاً، ووجدت مثلهم كمثل رجل في نهر عظيم كثير الماء كاد أن يغرق من قبل جهله بالمخاضة فيقول له آخر: اثبت مكانك ولا تطلبن المخاضة.

قال العالم رحمه الله: أراك قد أبصرت بعض عيوبهم والحجة عليهم، ولكن قل لهم إذا قالوا ألا يسعك ما وسع أصحاب النبي ﷺ: بلى يسعني ما وسعهم لو كنت بمنزلتهم، وليس بحضرتي مثل الذي كان بحضرتهم، وقد ابتلينا بمن يطعن علينا ويستحل الدماء منا، فلا يسعنا أن لا نعلم من المخطيء منا والمصيب؟ وأن لا نذب عن أنفسنا وحرمانا. فمثل أصحاب النبي ﷺ كقوم ليس بحضرتهم من يقاتلهم فلا يتكلفون السلاح، ونحن قد ابتلينا بمن يطعن علينا ويستحل الدماء منا، مع أن الرجل إذا كف لسانه عن الكلام فيما اختلف فيه الناس وقد سمع ذلك لم يطق أن يكف قلبه، لأنه لا بد للقلب من أن يكره أحد الأمرين أو الأمرين جميعاً. فأما إن يحبهما وهما مختلفان فهذا لا يكون، فإذا مال القلب إلى الجور أحب أهله. وإذا أحب القوم كان منهم، وإذا مال القلب إلى الحق وأمله كان لهم ولياً، وذلك بأن تحقيق الأعمال والكلام لا يكون إلا من قبل القلب، وذلك أن من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لم يكن عند الله مؤمناً. ومن آمن بقلبه ولم يتكلم بلسانه كان عند الله مؤمناً.

قال المتعلم: هو كما قلت ولكن بين لي هل يضرني إذا لم أعرف المخطيء من المصيب؟.

قال العالم رحمه الله: لا يضرك في خصلة، ويضرك بعد في خصال غير واحدة فأما الخصلة التي لا تضرك فإنها أنك لا تواخذ بعمل المخطيء، وأما الخصال التي تضرك فواحدة منها اسم الجهالة يقع عليك لأنك لا تعرف الخطأ من الصواب، والثانية عسى أن ينزل بك من الشبهة ما نزل بغيرك ولا تدري ما المخرج منها لأنك لا تدري أصيب أنت أم مخطيء فلا تنزع عنها، والثالثة لا تدري من تحب في الله ومن تبغض فيه لأنك لا تدري المخطيء من المصيب.

قال المتعلم: لقد كشفت عني الغطاء وجعلت أرى البرة في مذاكرتك: ولكن أرايت إن كان رجل يصف عدلاً، ولا يعرف جور من يخالف ولا عدله أيسعه ذلك وأن يقال إنه عارف بالحق أو هو من أهله؟.

قال العالم رحمه الله: إذا وصف عدلاً، ولا يعرف جور من يخالفه فإنه جاهل بالجور والعدل. واعلم يا أخي أن أجهل الأصناف كلها وأرداهم منزلة عندي لهؤلاء، لأن مثلهم كمثل أربعة نفر يؤتون بثوب أبيض فيسألون جميعاً عن لون ذلك الثوب فيقول واحد من هؤلاء الأربعة: هذا ثوب أحمر، ويقول الآخر هذا ثوب أصفر، ويقول الثالث ثوب أسود، ويقول الرابع ثوب أبيض فيقال له ما تقول في هؤلاء الثلاثة أصابوا أم أخطأوا؟ فيقول: أما أنا فقد أعلم أن الثوب أبيض وعسى أن يكون هؤلاء قد صدقوا، وكذلك هذا الصنف من الناس يقولون إنا نعلم أن الزاني ليس بكافر. وعسى أن يكون الذين يرون أن الزاني إذا زنى نزع منه الإيمان كما ينزع السريال كان صادقاً ولا تكذبه. ويقولون إن من مات ولم يحج فقد أطلق الحج فنحن نسبه مؤمناً ونصلي عليه ونستغفر له ونقضي عنه حجه ولا تكذب من يقول: مات يهودياً أو نصرانياً، ينكرون قول الشيعة ويقولون قولهم، وينكرون قول الخوارج ويقولون قولهم. وينكرون قول المرجئة ويقولون قولهم ويرون تحقيق ذلك وتزييف أقوال هؤلاء الأصناف الثلاثة، ويروون في ذلك روايات يزعمون أن نبي الله ﷺ قالها. وقد علمنا أن الله عز وجل إنما بعث رسوله رحمة ليجمع به الفرقه، وليزيد الألفة. ولم يبعثه ليفرق الكلمة، يحرش المسلمين بعضهم على بعض. ويزعمون أنه إنما جاء الاختلاف بهذه الروايات لأن منها ناسخاً ومنسوخاً فنحن نروي كما سمعناه. فويح لهم ما أقل اهتمامهم بأمر عاقبتهم حيث ينتصبون للناس فيحدثونهم بما قد علموا أن بعضه منسوخ، والعمل بالمنسوخ اليوم ضلالة. فيأخذ به الناس فيضلون. وقد نعلم أن

رسول الله ﷺ لم يكن ليفسر الآية الواحدة على نوعين فما كان من القرآن ناسخاً فسرهُ لجميع الناس ناسخاً، وكذلك المنسوخ فسرهُ لجميع الناس منسوخاً. وأما الأخبار والصفات التي قد كانت فإنه ليس في شيء منها منسوخ، وإنما دخل الناسخ والمنسوخ في الأمر والنهي.

قال المتعلم: جزاك الله عني الجنة، فنعم المعلم أنت إنك فتحت لي باباً من العلم لم أهتم له. وقد بينت لي من أقاويل هؤلاء القوم ما لا أبالي أن لا أزداد بصيرة في ضعف قولهم وعجز رأيهم. ولكن أخبرني بالرد على الصنف الثاني في قولهم إن دين الله كثير، وهو العمل بجميع ما افترض الله والكف عن جميع ما حرم الله.

قال العالم رضي الله عنه: ألسنت تعلم أن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين لم يكونوا على أديان مختلفة لم يكن كل رسول منهم يأمر قومه بترك دين الرسول الذي كان قبله لأن دينهم كان واحداً. وكان كل رسول يدعو إلى شريعة نفسه وينهى عن شريعة الرسول الذي قبله لأن شرائعهم كثيرة مختلفة. ولذلك قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِّنْكُمْ شَرْعٌ وَمِنْهَا مَا وَلَّوْا شَاءَ اللَّهُ لِيَسْلُكَكُمْ أَتَىٰ وَجَدَةً﴾ [المائدة: ٤٨]. وأوصاهم جميعاً بإقامة الدين وهو التوحيد وأن لا يفرقوا لأنه جعل دينهم واحداً فقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِمُوا الذِّينَ^(١) وَلَا تَنفَرُقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وقال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيْٓ إِلَىٰ آلِهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال جلّ وعلا: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الَّذِي رُسِّلَ إِلَيْكَ﴾ [الرؤم: ٣٠]. أي لا تبديل لدينه. فالدين لم يبدل ولم يحول ولم يغير، والشرائع قد غيرت وبدلت لأنه رب شيء قد كان حلالاً لأناس قد حرمه الله عز وجل على آخرين. ورب أمر أمر الله به أناساً ونهى عنه آخرين. فالشرائع كثيرة مختلفة. والشرائع هي الفرائض مع أنه لو كان العمل بجميع ما أمر الله به والكف عن جميع ما نهى الله عنه دينه لكان كل من ترك شيئاً مما أمر الله تعالى به أو ركب شيئاً مما نهى الله عنه تاركاً لدينه ولكان كافراً. وإذا صار كافراً ذهب الذي بينه وبين المسلمين من

(١) وللدين إطلاق يشمل الأحكام العملية كقوله تعالى: ﴿لِيَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢] وقوله عليه السلام: «إذا أراد الله بعبد خيراً فقه في الدين» فالدين الاستسلام لحكم الدليل القاطم. فالدليل الاعتقاد قائم دائماً فيستسلم له دائماً ودليل الأحكام العملية قابل للتسخ فما لم يغم دليل للتسخ فهو قائم الحكم وكذا الناسخ (ز).

المتاكحة والموارثة واتباع الجنائز وأكل الذبائح وأشباه هذا لأن الله تعالى أوجب ذلك كله بين المؤمنين من أجل الإيمان الذي به حرم الله تعالى دماءهم وأموالهم إلا يحدث. وإنما أمر الله تعالى المؤمنين بالفرائض بعدما أقروا بالدين فقال سبحانه: ﴿قُلْ لِمَا دَأَى الَّذِينَ مَاتُوا يُعَيَّرُوا الْمَلَكُوتُ﴾ [إبراهيم: ٣١]. وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ [البقرة: ١٧٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٤١] وأشباه هذا. فلو كانت هذه الفرائض هي الإيمان لم يسمهم مؤمنين حتى يعملوا بها وقد فصل الله تعالى الإيمان من العمل فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥]. وقال: ﴿بَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ رَحْمَةٍ لَنَا سَبْعِينَ مِائَةً أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [البقرة: ١١٢] أي مع إيمانهم. وقال: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩] فجعل الإيمان غير العمل. فالمؤمنون من قبل إيمانهم بالله يصلون ويزكون ويصومون ويحجون ويذكرون الله وليس من قبل صلاتهم وزكاتهم وصومهم وحجهم بالله يؤمنون. وذلك بأنهم آمنوا ثم عملوا فكان عملهم بالفرائض من قبل إيمانهم بالله. ولم يكن إيمانهم من قبل عملهم بالفرائض. ومثل ذلك أن الرجل إذا كان عليه الدين وهو يقر بالدين ثم يؤدي. وليس يؤدي ثم يقر بالدين. وليس إقراره من قبل أدائه ولكن أدائه من قبل إقراره. والعبيد من قبل إقرارهم لمواليهم بالعبودية يعملون لهم. وليس من قبل عملهم يقرون لهم بالعبودية. وذلك أنه كم من إنسان يعمل لآخر. ولا يكون بذلك مقرأ له بالعبودية. ولا يقع عليه اسم الإقرار بالعبودية. وآخر قد يكون مقرأ بالعبودية ولا يعمل فلا يذهب عنه اسم إقراره بالعبودية.

قال المتعلم: لحسن ما فرت ولكن أخبرني ما الإيمان؟

قال العالم رضي الله عنه: الإيمان هو التصديق والمعرفة واليقين والإقرار والإسلام، والناس في التصديق على ثلاثة منازل، فمنهم من يصدق بالله وبما جاء منه بقلبه ولسانه ومنهم من يصدق بلسانه ويكذب بقلبه ومنهم من يصدق بقلبه ويكذب بلسانه.

قال المتعلم: لقد فتحت لي مسألة لم أهتم إليها فأخبروني عن أهل هذه المنازل أهم عند الله مؤمنون؟

قال العالم رحمه الله: من صدق بالله وبما جاء من عند الله بقلبه ولسانه فهو عند الله وعند الناس مؤمن. ومن صدق بلسانه وكذب بقلبه كان عند الله كافراً وعند الناس مؤمناً، لأن الناس لا يعلمون ما في قلبه. وعليهم أن يسموه مؤمناً بما ظهر لهم من

الإقرار بهذه الشهادة وليس لهم أن يتكلفوا علم ما في القلوب. ومنهم من يكون عند الله مؤمناً وعند الناس كافراً وذلك بأن الرجل يكون مؤمناً بالله ويظهر الكفر في حالة التقية بلسانه فيسميه من لا يعرف أنه يتقي كافراً وهو عند الله مؤمن.

قال المتعلم: لقد وضحت عدلاً. ولكن أراك قد كثرت الإيمان في قولك إن الإيمان هو التصديق والمعرفة والإقرار والإسلام واليقين.

قال العالم رحمه الله: أصلحك الله لا تكونن منك العجلة، وثبت في الفتيا وإن أنكرت شيئاً مما أذكرك لك فسل عن تفسيره إن كنت مناصحاً. فرب كلمة يسمعها الإنسان فيكرهها فإذا أخبر بتفسيرها رضي بها. ولا تكونن كالذي يسمع الكلمة فيكرهها ثم يتفوه بها إرادة الشين فيذيعها بين الناس. ولا يقول عسى أن يكون لهذه الكلمة تفسير ووجه هو عدل ولا أعلمه أفلا أسأل صاحبي عن تفسيرها أو لعلها كلمة جرت على لسانه ولم يتعمد لها فينبغي لي أن أثبت ولا أفضح صاحبي ولا أشينه حتى أعلم ما وجه كلامه.

قال المتعلم: ثبتك الله ووفقك وأدام لك صالح الذي أعطاك قد عرفت الذي قلت: فلا تواخذني بما كان مني إني متعلم ولكن أخبرني عما وصفت من التصديق والمعرفة والإقرار والإسلام واليقين ما منزلتهن وتفسيرهن عندك؟

قال العالم رحمه الله: إن هذه أسماء مختلفة ومعناها واحد هو الإيمان وحده وذلك بأن يقر بأن الله ربه ويصدق بأن الله ربه ويتيقن بأن الله ربه ويعرف بأن الله ربه فهذه أسماء مختلفة ومعناها واحد كالرجل يقال له يا إنسان يا رجل يا فلان وإنما يعني القائل بها واحداً وقد دعاه بأسماء مختلفة.

قال المتعلم: رحمك الله لولا ما أعرف من نفسي من قلة العلم وعجز الرأي لم أقصد إليك. فإن رأيت مني ما تكره ودخلت عليك مؤونة فلا تلمني. فإن مؤونة معالجة مرض المريض على الطبيب ومؤونة عمى الأعمى على البصير كذلك ينبغي للعالم أن يتحمل مؤونة الجاهل. وقد عرفت أن من الكلام كلاماً يفرغ منه الجاهل إذا سمعه فإذا فسر له اطمأن. ولحسن ما فسرته الإيمان والتصديق واليقين والإخلاص ولكن أخبرني من أين ينبغي لنا أن نقول: إن إيماننا مثل إيمان الملائكة والرسول. وقد نعلم أنهم كانوا أطوع لله عز وجل منا.

قال العالم رضي الله عنه: قد علمت أنهم كانوا أطوع لله منا وقد حدثتك أن الإيمان غير العمل فإيماننا مثل إيمانهم لأن صدقنا من وحدانية الرب وربوبيته وقدرته

وبما جاء من عنده بمثل ما أقرت به الملائكة وصدقت به الأنبياء والرسل فمن هاهنا زعمنا أن إيماننا مثل إيمان الملائكة لأننا آمنّا بكل شيء آمنت به الملائكة مما عاينته الملائكة من عجائب آيات الله ولم نعاينه نحن.

قال المتعلم: جعلك الله من الفائزين ما أحسن ما وصفت وقد عرفت الآن أن إيماننا مثل إيمان الملائكة وتصديقنا مثل تصديقهم ويقيننا مثل يقينهم ولكن أخبرني من أين هم أشد خوفاً وأطوع لله منا؟ ومن أين قالت الجهاد إذا رأوا من إنسان زلة أو جزعاً عند مصيبة أو جبناً من عدو أو حرصاً على الهوى هذا من ضعف اليقين.

قال العالم رحمه الله: أما قول الجهاد هذا من ضعف اليقين فإنما قالوا ذلك لجهالتهم بتفسير اليقين. واليقين بالشيء هو العلم بالشيء حتى لا يشك فيه فليس أحد من أهل الشهادة يشك في الله وكتبه ورسله، وإن ركب ما ركب وإنما نقيس أمر الناس بأمر أنفسنا. لأنه ربما كانت منا الزلة أو الجزع عند المصيبة أو جبن من عدو فلا يدخل علينا شك في الله ولا في شيء مما جاء من عند الله فغيرنا عندنا بمنزلة أنفسنا. وأما قولك من أين هم أشد خوفاً أو أطوع لله منا فذلك لخصال فواحدة منها أنهم كما فضلوا بالنبوة والرسالة فضلوا كذلك بالخوف والرعدة وجميع مكارم الأخلاق على من سواهم، والخصلة الأخرى أنهم عاينوا من الملائكة والعجائب ما لم نعاين، والخصلة الثالثة أنهم كانوا لا يجزعون عند المصيبة، والرابعة أنهم كانوا يعاينون ما ينزل بغيرهم من العقوبة على المصيبة وكان ذلك أيضاً مما يحجزهم عن المعاصي.

قال المتعلم: لقد وقفت على ما وصفت فلم تزل تصف عدلاً وتقول عرفاً ولكن أحب أن تأتيني بقياس فيما وصفت من يقيننا ويقينهم وخوفنا وخوفهم وجرأتنا وجرأتهم كيف ذلك؟ فإن الجاهل إذا كان مهتماً بأمر عاقبه ويريد أن يتعلم ووصفت له أمراً لم يظن له فأنبئه بقياس كان أجدر أن يظن له.

قال العالم رحمه الله: نعم ما رأيت في طلب القياس، وهكذا يصنع من أراد أن ينتفع بالمذاكرة فيما بينه وبين صاحبه إذا لم يعرف ما قيل له التمس القياس، واعلم أن القياس الصواب يحقق لطالب الحق حقه، ومثل القياس مثل الشهوة العدول لصاحب الحق على ما يدعي من الحق ولولا إنكار الجهاد للحق لم يتكلف العلماء القياس والمقايسة. فاما ما طلبت من القياس في أن يقيننا ويقين الملائكة واحد وخوفهم أشد من خوفنا بأنه كيف يكون ذلك؟ فأخبرك أن القياس في ذلك كرجلين عالمين بالسباحة لا يفوق أحدهما صاحبه في شيء من الأمور فأنتهيا إلى نهر كثير

الحاء شديد الجرية فأحدهما على دخوله أجراً والآخر أجبن أو كرجلين بهما مرض واحد وأتيا بدواء واحد شديد المرارة فأحدهما على شربة أجراً والآخر أجبن .

قال المتعلم : لحسن ما فسرت لكن أخبرني إن كان إيماننا مثل إيمان الرسل ليس ثواب إيماننا مثل ثواب إيمانهم ، فإن كان ثواب إيماننا مثل ثواب إيمانهم فما فضلهم علينا ؟ وقد استويتا في الدنيا بالإيمان واستويتا في الآخرة في ثواب الإيمان فإن كان ثواب إيماننا دون ثواب إيمانهم أليس هذا ظلماً ، إذ كان إيماننا مثل إيمانهم ولم يجعل لنا من الثواب ما جعل لهم .

قال العالم رضي الله عنه : لقد أعظمت المسألة ، ولكن ثبت في الفتيا ألت تعلم أن إيماننا مثل إيمانهم ، لأننا آمنّا بكل شيء آمناً به الرسل ؟ ولهم بعد علينا الفضل في الثواب على الإيمان وجميع العبادة . لأن الله تعالى كما فضلهم بالنبوة على الناس كذلك فضل كلامهم وصلاتهم وبيوتهم ومساكنهم وجميع أمورهم على غيرها من الأشياء ، ولم يظلمنا ريتا إذ لم يجعل ثوابنا مثل ثوابهم وذلك أنه كان إنما يكون الظلم لو نقصنا حقنا فأسخطنا . فاما إذا زاد أولئك ولم ينقصنا حقنا وأعطانا حتى أرضينا ، فإن ذلك ليس بظلم ، والأنبياء والرسل لهم الفضل في الدنيا على جميع الناس . لأنهم هم القادة ، وهم أمناء الرحمن . ولا يدانيهم أحد من الناس . في عبادتهم وخوفهم وخشوعهم وتحملهم المؤنات في ذات الله تعالى وكذلك إنما أدرك الناس بإذن الله الفضل بهم . فلهم مثل أجور من يدخل الجنة بدعائهم .

قال المتعلم : لقد وصفت العدل فأوضحت فجزاك الله الجنة ولكن أخبرني هل تعلم من المعاصي شيئاً يعذب الله عليه (البتة) غير الشرك أو تزعم أنها كلها مغفورة فإن زعمت أن بعضها مغفور فما المغفور منها ؟ .

قال العالم رضي الله عنه : ما أعلم شيئاً من المعاصي يعذب الله عليه غير الشرك وما أستطيع الشهادة على أحد من أهل المعاصي من أهل القبلة أن الله يعذبه البتة عليها غير الإشراك بالله . وقد علمت أن بعضها مغفور ، ولا أعرفها لقول الله تعالى : ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نَهَوْا عَنْهُ نُكْفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء : ٣١] فلست أعرف جميع الكبائر ولا السيئات التي تغفر والتي لا تغفر لأنني لا أدري لعل الله يغفر ما دون الشرك من المعاصي كلها لأنه قال : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨] . فلست أدري لمن يشاء المغفرة منهم ولمن لا يشاء .

قال المتعلم: ألسنت تدري أنه لعل الله يغفر للقاتل ويعذب صاحب النظرة أليس عندك بمنزلة واحدة في الرجاء لهما؟.

قال العالم رحمه الله: قد أعلم أنه إن كان الله يغفر للقاتل فإن صاحب النظرة أجدر أن يغفر له، وإن عذب علي النظرة فهو على القتل أجدر أن يُعذب، لأنه تعالى قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ﴾ [الحجرات: ١٣] وصاحب النظرة إذا لم يقتل كان أتقى من القاتل، وأما ما ذكرت من الرجاء لهما فإنهما لا يستويان عندي لأنني لصاحب الذنب الصغير أرجى مني لصاحب الذنب الكبير، والقياس في ذلك رجلان ركب أحدهما البحر والآخر ركب نهراً صغيراً، وأنا أتخوف عليهما الغرق، وأرجو لهما النجاة جميعاً غير أنني على صاحب البحر أخوف أن يغرق مني على صاحب النهر الصغير، وأنا لصاحب النهر الصغير أرجى بالنجاة مني لصاحب البحر، وكذلك أنا على صاحب الذنب الكبير أخوف مني لصاحب الذنب الصغير، وأنا لصاحب الذنب الصغير أرجى مني لصاحب الذنب الكبير وأنا في ذلك أرجو لهما وأخاف عليهما على قدر أعمالهما.

قال المتعلم: ما أحسن ما تقيس ولكن أخبرني عن الاستغفار لصاحب الكبيرة أفضل أو الدعاء عليه أو أنت بالخيار فيما بين الدعاء عليه باللعة والاستغفار فبين لي هذا كله.

قال العالم رضي الله عنه: الذنب على منزلتين غير الإشراك بالله تعالى فأبي الذنبيين ركب هذا العبد فإن الدعاء له بالاستغفار أفضل وإن دعوت عليه باللعة لم تأثم، وذلك بأنه إذا ركب ذنباً منك وعفوت عنه ولم تدع عليه كان أفضل وإن ركب ذنباً فيما بينه وبين خالقه بعد أن كان لم يشرك بالله فرحمته ودعوت له بالمغفرة لحرمة الشهادة كان هذا أفضل وإن دعوت عليه بالهلاك لم تأثم. وذلك بأنك تقول يا رب خذ بذنبي، وإنما تكون آتماً إذا أنت قلت يا رب خذ بغير ذنب، فالاستغفار أفضل لخصلتين أما إحداهما فلأنه مؤمن، والأخرى لأنك لا تستيقن أن الله معذبه، ولو استيقنت أن الله معذبه لكان حراماً عليك الاستغفار له، وقد نهى الله عز وجل أن يستغفر لمن أوجب له النار، والذي يستغفر الله لمن قال الله أنه يعذبه فيسأل ربه أن يخلف قوله كالذي يقول: يا رب لا تمتني واحدة، وقد قال الله عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ كَلْبَتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فالدعاء لأهل هذه الشهادة بالمغفرة أفضل لحرمة هذه الشهادة والإقرار بها، لأنه ليس بشيء يطاع الله فيه أفضل من الإقرار بهذه الشهادة، وجميع ما أمر الله تعالى به من فرائضه في جنب الإقرار بهذه الشهادة أصغر من البيضة

في جنب السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما. فكما أن ذنب الإشراك أعظم كذلك أجر الشهادة أعظم، وقد ذكر الله عز وجل في تعظيم ذنب الإشراك ما لم يذكره في تعظيم شيء من الأعمال السيئة، فإنه قال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. ولم يقل مثل ذلك في شيء من الأعمال السيئة. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَلَطَ بِهِ الطُّيُورُ أَوْ تَهَوَّى بِوَالرَّيحِ فِي سَكَاةٍ سَجِيَّةٍ﴾ [الحج: ٣١] وقال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَكُوتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ نَفْثُ الْأَرْضِ وَنَفْثُ الْجِبَالِ هَذَا﴾ [مریم: ٩٠، ٩١] ولم يقل شيئاً من هذه الآيات في القتل وما هو دونه.

قال المتعلم: ما تزيديني إلا رغبة في مذكرك فجزاك الله عن جميع المؤمنين خيراً ما أحسن قولك ورأيك وسيرتك في محبتهم ومسيئتهم! وأعرفك بفضلهم وأرحمك بهم! ولكن أخبرني هل يفضل أهل العدل بعضهم بعضاً في قولهم في أهل القبلة؟

قال العالم رضي الله عنه: أما أهل العدل فقولهم في تعظيم حرمان الله واحد غير أن بعضهم أفضل من بعض في العلم والحجج في تعظيم حرمان الله تعالى والدعاء إليه وتحمل المؤنات فيه وشدة الاهتمام بفساد الأمة والبحث عن تعظيم حرمانهم والذب عنهم كمثّل عسكر بحضرة العدو، وقد اجتمعت كلمتهم وأيديهم على عدوهم غير أن بعضهم يفوق بعضاً في العلم بالقتال والحروب والمكايدة وبذل السلاح والمال والتحرّض للأصحاب على القتال.

قال المتعلم: لعمري ما أعرف من القياس (أوضح من هذا) ولكن أخبرني هل يكون المؤمن إذا ارتكب الكبائر لله عدوّاً؟

قال العالم رضي الله عنه: إن المؤمن لا يكون لله عدوّاً وإن ركب جميع الذنوب بعد أن لا يدع التوحيد. وذلك بأن العدو يبغض عدوه ويتناول عدوه بالمنقصة والمؤمن قد يرتكب العظيم من الذنب. والله مع ذلك أحب إليه مما سواه وذلك أنه لو خيّر بين أن يحرق بالنار أو يفترى على الله من قلبه لكان الإحراق بالنار أحب إليه من ذلك.

قال المتعلم: إن كان الله أحب إليه مما سواه فلم يعصيه؟ وهل يكون أحد يحب أحداً فيعصيه فيما يأمره؟

قال العالم رحمه الله: نعم قد يحب الولد والده وربما عصاه، وهذا المؤمن: الله أحب إليه مما سواه وإن عصاه، وإنما يعصيه لأن الشهوة ظاهرة غالبية، وإنما تغلب عليه الشهوات فإنه ربما كان الرجل عاملاً لسلطان فيتنزع عن عمله فيعذب بأنواع من العذاب ثم إذا ترك رجوع إلى عمله إن قدر عليه، والمرأة تلقى ما تلقى في نفسها ثم إذا قامت طلبت الولد.

قال المتعلم: قلت ما يعرف من غلبة الشهوة لأنه كم من عابد صرعه الشهوة وآدم وداود عليهما السلام منهم^(١) ولكن أخبرني عن هذا المؤمن أيركب المعصية وهو يعلم أنه يعذب عليها؟

قال العالم رحمه الله: ما يركبها وهو يعلم أنه يعذب عليها لكنه يركبها لخصلتين أما إحدهما فإنه يرجو المغفرة، وأما الأخرى فإنه يأمل التوبة قبل المرض والموت.

قال المتعلم: أو يقدم الرجل على ما يخاف أن يعذب عليه؟

قال العالم رحمه الله: نعم ربما يقدم الرجل على ما يخاف أن يضره من طعام أو شراب أو قتال أو ركوب بحر، ولولا ما يرجوه من النجاة من الغرق إذا ركب البحر، والظفر إذا قاتل ما أقدم على القتال ولا ركب البحر.

قال المتعلم: قد صدقت لأنني أعرف من نفسي أنني ربما أكلت الطعام يؤذيني فإذا فرغت ندمت ووطئت نفسي على أن لا أعود إليه. فإذا رأيت لم أصبر عنه، ولكن أخبرني عن الكفر، فإن الكفر له اسم وله تفسير.

قال العالم رحمه الله: إن الكفر له اسم وله تفسير وتفسيره الإنكار والجحود والتكذيب. وذلك أن الكفر بالعربية، والعرب وضعوا اسم الكفر على الإنكار، والله تعالى إنما أنزل الكتاب بلسان عربي، ومثل ذلك أنه إذا كان للرجل على آخر دراهم وقد حلت فتقاضاها فإن أقر بالحق ولم يقضه قال صاحبه ماطلني ولا يقول كافري، وإن هو أنكرها وجحدتها قال كافري ولم يقل ماطلني، وكذلك المؤمن إذا ترك فريضة من غير أن يكفر بها سمي مسيئاً؛ وإن تركها كفوراً بها سمي كافراً جاحداً بفرائض الله تعالى.

قال المتعلم رحمه الله: هذا عدل معروف أن يسمى الرجل جاحداً بما يجحد ومصدقاً بما يصدق، ومسيئاً بما يسيء، ومحسناً بما يحسن. ولكن أخبرني عن من يصف التوحيد غير أنه يقول أنا كافرٌ بمحمد ﷺ.

(١) هكذا في الأصل ولو كان المتعلم أرعى للأدب لكان أنسب (ز).

قال العالم رضي الله عنه: هذا لا يكون^(١) وإن كان سمينا كافرًا بالله كاذباً بما يقول أنه يعرف الله تعالى ويستدل على كفره بالله بكفره بمحمد لأن من كفر بالله كفر بمحمد. وليس من قبل كفره بمحمد كفره بالله كما أن النصاري من كفرهم بالواحد الذي ليس له ولد زعموا أن الله تعالى ثالث ثلاثة. وكذلك اليهود من كفرهم بالغني الذي لا يفتقر والجواد الذي لا يبخل والرب الذي ليس له ولد والملك الذي ليس له شبيه زعموا أن الله فقير ويد الله مغلوله وعزير ابن الله والله تعالى على مثال صورة ابن آدم؛ وكذلك الذين اتخذوا النيران وسجدوا للشمس والقمر. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَحْصُرُ عِلَالَتُنَا إِلَّا الْكَاثِرُونَ﴾ [المنكسوت: ٤٧] وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَقَّ يُحْكِمُوكَ فِيمَا شَجَرَ يَتَنَهَّمُ ثُمَّ لَا يَحْدُوا فِي آفَئِهِمْ حَرْبًا مِمَّا قَصَيْتَ وَنُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] فمن زعم أنه يعرف الله ويكفر بمحمد ﷺ استدللنا على إنكاره للرب بكفره بمحمد. ومثل ذلك لو أن رجلاً زعم أنه يطيق أن يحمل عشرين قفيزاً. ونحن نراه يعجز عن حمل القفيزين عرفنا أنه إذا عجز عن حمل القفيزين فهو في العشرين أعجز ومثل هذا لو أن رجلاً قال: إني أعرف أن الله تعالى حق غير أنني لا أقر بأن هذا الإنسان مخلوقه لعرفنا أنه كاذب فيما يزعم لأنه لو كان يعرف الله لعرف أن كل شيء سواه مخلوقه. ومثل ذلك رجلٌ بحضرة السراج ونار ضخمة وهما عنده بمنزلة واحدة في الدنو فزعم أنه يبصر السراج ولا يبصر النار المشتعلة في الحطب الضخم لعرفت أنه كاذب لأنه لو كان يبصر السراج لكان لتلك النار الضخمة أبصر.

قال المتعلم رحمه الله: قد فرجت عني ولكن أخبرني عمن يزعم لرسول الله أنا أعرف أنك رسول الله ولكن أشتهي أن أقتلك.

قال العالم رضي الله عنه: هذه من مسائل المعتبين. وهذا محال لو كان يعرف أنه رسول الله لم يشبه قتله ولا موته ولا أذاه. ومثل ذلك كالرجل الذي يزعم لآخر أنك أحب إلي من جميع الناس. ولكن أشتهي أن أقتلك بيدي وأكل لحمك. وليس أحد من الناس يزعم أنه يوحد الله تعالى ويؤمن بمحمد ويتناول رسول الله بمنقصة كأن يزعم أنه كان أعرابياً وكان فقيراً يريد به عيبه وانتقاصه فلو كان يعرف الله ويعرف أن محمداً رسوله لكان الله ورسوله أجل في عينيه من أن يتناول رسوله بذكر شيء يريد به عيبه وانتقاصه. وقد قال الله عز وجل في تعظيم منزلة الرسول: ﴿مَنْ يُطِيعِ

(١) يعني هذا لا يقع، وإن وقع سمينا كافرًا (ز).

الرَّسُولُ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴿[النساء: ٨٠]﴾ لأنه جعل الرسول قالداً لجميع خلقه من الجن والإنس. وأميناً على فرائضه وسننه. ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الخشر: ٧].

قال المتعلم رحمه الله: لقد أتيتني بالنور فنور الله طريقك يوم القيامة ولكن أخبرني عن يزعم أنه يعرف الله ويقول أنا أشتهي أن أزعم أن الله ولد.

قال العالم رضي الله عنه: سبحان الله فهل كان هذا وذا إلا واحداً. هذا رأساً ما سألت من قبل من مسائل المتعنتين. ولكن كيف تقول في ميت إنه يحتلم فكم لا يكون ميت يحتلم. فكذلك لا يكون موحد يشتهي أن يقول لله ولد.

قال المتعلم رحمه الله: هذا لعمرى كما قلت إنه من مسائل المتعنتين. وهذا محال من الكلام. ولكن أخبرني عن النفاق اليوم. اليس هو النفاق الأول والكفر اليوم هو الكفر الأول. وكيف النفاق الأول؟

قال العالم رضي الله عنه: نعم النفاق اليوم هو النفاق الأول والكفر اليوم هو الكفر الأول. كما أن الإسلام اليوم هو الإسلام الأول. فأخبرك عن ذلك النفاق الأول إنما كان التكذيب والجحود بالقلب وإظهار التصديق والإقرار باللسان. وكذلك هو اليوم فبمن كان وقد نعمتهم عز وجل في كتابه فقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافيقون: ١] فقال الله عز وجل ردأ عليهم وتكذياً لهم: ﴿وَأَلْفَ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافيقون: ١] وليس تكذيبهم بأن ما قالوا كذب. ولكن إنما كذبهم بأنهم لبسوا في الإقرار والتصديق كما يظهرون بالاستهم.

وفبهم قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِنَّا خَلَوْنَا إِلَىٰ شَيْطَانِيهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا عَزَّزْنَا بِكُمُ اللَّهُ وَكُنَّا فِيكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: ١٤] أي بمحمد وأصحابه بما نظهر لهم باللسان من الإقرار والتصديق.

قال المتعلم رحمه الله: هذا لعمرى عدلٌ معروف ولكن أخبرني من أين سمى الله الناس مؤمنين وكفاراً. ومن أين نحن نسيمهم مؤمنين وكفاراً؟

قال العالم رضي الله عنه: سماهم مؤمنين وكفاراً بما في القلوب لأنه تعالى يعلم ما في القلوب، ونحن نسيمهم مؤمنين وكفاراً بما يظهر لنا من ألسنتهم من التصديق والتكذيب والزي والعبادة، وذلك بأننا لو انتهينا إلى قوم لا نعرفهم غير أنهم في المساجد، مستقبلين إلى القبلة يصلون سميناهم مؤمنين، وسلمنا عليهم وعسى أن

يكونوا يهوداً أو نصارى، وكذلك كان المنافقون على عهد رسول الله ﷺ كان المسلمون يسمونهم مؤمنين بما يظهرون لهم من الإقرار، وهم عند الله كفارٌ بما في القلوب من التكذيب، فمن هاهنا أنا نسمي أناساً مؤمنين بما يظهر لنا منهم، وعسى أن يكونوا عند الله كفاراً، وآخرين نسميهم كفاراً بما يظهرون لنا من زي الكفار من غير أن يكون فيهم شيء من زي المؤمنين وعسى أن يكونوا عند الله تعالى مؤمنين من قبل إيمانهم بالله، ويصلون من غير أن نعلم ذلك منهم. فلا يؤاخذنا الله سبحانه وتعالى بذلك؛ لأنه لم يكلفنا علم القلوب والسرائر، وإنما كلفنا ربنا أن نسمي الناس مؤمنين ونحبهم ونبغضهم على ما يظهر لنا منهم، والله أعلم بالسرائر، وهكذا أمر الكرام الكاتبين أن يكتبوا ما يظهر لهم من الناس، وليسوا من القلوب بسبيل لأن ما في القلوب لا يعلمه أحد إلا الله أو رسول يوحى إليه فمن ادعى علم ما في القلوب بغير وحي فقد ادعى علم رب العالمين، ومن زعم أنه يعلم بما في القلوب وغير القلوب ما يعلم رب العالمين فقد أتى بعقوبة واستوجب النار والكفر.

قال المتعلم رحمه الله: قد وصفت العدل. ولكن أخبرني من أين جاء أصل الإرجاء وما تفسيره ومن الذي يؤخر ويرجأ أمره؟.

قال العالم رضي الله عنه: جاء أصل الإرجاء من قبل الملائكة حيث عرض الله عليهم الأسماء ثم قال لهم: ﴿أَلَيْسَ بِأَسْمَاءَ هَؤُلَاءِ﴾ [البقرة: ٣١] فخافت الملائكة الخطأ إن تكلموا بغير علم تعسفاً فوقفت وقالت: ﴿مُبَحَّتْكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: ٣٢] ولم يتدعوا. كالرجل الذي يسأل عن الأمر الذي هو به جاهل، فيتكلم فيه ولا يبالي، فإن لم يصب فهو مخطئ، وإن أصاب فهو غير محمود، لأنه قال تعسفاً بغير علم. ولذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. أي لا تقل ما لم تعلمه يقيناً وقال: ﴿إِنَّ أَلْسِنَةً وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]. فلم يرخص لرسوله أن يتكلم أو يعادي أو يقذف إنساناً بالبهتان بالظن من غير يقين. فكيف يصنع أناس يعادون ويعيبون آخرين، بالظن من غير يقين، وتفسير الوقوف أنه إذا سئلت عن أمر لا تعلمه من حرام أو حلال أو أنباء من كان قبلنا قلت: الله أعلم به. إذا جاء ثلاثة نفر بحديث لا نعلمه ولا نطبق علم ذلك بالتجارب والمقاييس ترد علم ذلك إلى الله تعالى وتقف. ومن تفسير الإرجاء أنه إذا كنت في قوم على أمر حسن جميل وفارتهم على ذلك ثم بلغك أنهم صاروا فريقين يقاتل بعضهم بعضاً فانتهيت إليهم، وهم على الأصل الذي فارتهم عليه وقتل بعضهم بعضاً فسألهم فيقول كل واحد من الفريقين إنه هو المظلوم، وليس

عليهم ولا لهم شهود من غيرهم، وقد ترى القتل بينهم وليس المظلوم والظالم منهم يبين، وهما خصمان لا تجوز شهادة بعضهم على بعض فينبغي لك أن تعلم أنهما ليسا كلاهما بمصبيين، وقد قتل بعضهم بعضاً، فإما أن يكونا مخطئين أو أحدهما مخطئاً والآخر مصيب، ومن الإرجاء أن ترجى أهل الذنوب ولا تقول إنهم من أهل النار أو من أهل الجنة فإن الناس عندنا على ثلاثة منازل: الأنبياء من أهل الجنة ومن قالت الأنبياء إنه من أهل الجنة فهو من أهل الجنة، والمنزلة الأخرى للمشركين نشهد عليهم أنهم من أهل النار، والمنزلة الثالثة للموحدين نقف عليهم فلا نشهد أنهم من أهل النار ولا من أهل الجنة، ولكننا نرجو لهم ونخاف عليهم ونقول كما قال الله تعالى: ﴿خَلَطُوا مَعَلَاً صَليحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢] فارجو لهم لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَمُوزُ أَن يُمِرَّكَ بِهِ وَيَتَوَفَّاكَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] ونخاف عليهم بذنوبهم وخطاياهم.

قال المتعلم رحمه الله: ما أعدل هذا القول وأبينه وأقره من الحق ولكن أخبرني هل أحد من الناس توجب له الجنة إن رأيته صواماً قواماً غير الأنبياء صلوات الله على نبينا وعليهم ومن قالت له الأنبياء؟.

قال العالم رضي الله عنه: لا أوجب الجنة إلا لمن أوجب النص، وكذلك النار.

قال المتعلم رحمه الله: فما قولك في أناس رروا: (إن المؤمن إذا زنى خلع الإيمان من رأسه كما يخلع القميص ثم إذا تاب أعيد إليه إيمانه^(١)) أنشك في قولهم أو تصدقهم. فإن صدقت قولهم دخلت في قول الخوارج وإن شككت في قولهم شككت

(١) أخرجه الحاكم بلفظ قريب من هذا لكن في سنده عبد الله بن الوليد التجبي وقد ضعفه الدارقطني وقال لا يعتبر بحديثه، ولينه ابن حجر، ولم يدرك ابن حجرية الكبير فيه انقطاع، ولم يشر إلى ذلك الذهبي، وليس التجبي ولا ابن حجرية الصخبر بشاميين كما توهم الحاكم على أن حديث أبي ذر من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق وحديث عبادة في المباينة. وآخره . . . ومن فعل شيئاً من ذلك - أي الزنى والسرقه - فعوقب به في الدنيا فهو كفارة ومن لم يعاقب فهو إلى الله إن شاء عفا وإن شاء علبه في غاية الصحة فلا يناهضهما حديث الحاكم وأما حديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» من أبي هريرة لمؤول عند الجمهور لمخالفة ظاهر معناه للإجماع والكتاب والسنة على ما في فتح الباري (١٢ - ٤٧) على أن في سنده يحيى بن عبد الله بن بكير وهو ممن لا يحتج به أبو حاتم وقد ضعفه النسائي فلا يناهض ما سبق بل أنكر بعض أهل العلم من السلف أن يكون ﷺ قاله كما حكى ابن حجر رواية عن ابن جرير الطبري. وأما حديث عكرمة فحديث خارجي فلا يقبل فيما يؤيد به مذهبه (ز).

في أمر الخوارج، ورجعت عن العدل الذي وصفت وإن كذبت قولهم قالوا أنت تكذب بقول نبي الله عليه الصلاة والسلام فإنهم رويوا ذلك عن رجال حتى ينتهي إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام.

قال العالم رضي الله عنه: أكذب هؤلاء ولا يكون تكذبي لهؤلاء ردي عليهم تكذيباً للنبي ﷺ، إنما يكون التكذيب لقول النبي عليه السلام أن يقول الرجل أنا مكذب لقول نبي الله ﷺ فأما إذا قال الرجل: أنا مؤمن بكل شيء تكلم به النبي عليه الصلاة والسلام غير أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يتكلم بالجور ولم يخالف القرآن، فإن هذا القول منه هو التصديق بالنبي وبالقرآن وتنزيهه له من الخلاف على القرآن، ولو خالف النبي القرآن، وتقول على الله غير الحق لم يدعه الله حتى يأخذه باليمين، ويقطع منه الوتين، كما قال الله عز وجل في القرآن: ﴿وَلَوْ لَوَّكُنَّا عَلَيْكَ بَرَصًا أَبْدَئًا لَنُخَذَّكَ مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۖ ثُمَّ لَقَضَيْنَا مِنْهُ الْوَيْتَيْنِ ۖ فَمَا يَسْكُرِينَ لَعَنَهُ حَنِيمٌ ۖ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧] ونبي الله لا يخالف كتاب الله تعالى، ومخالف كتاب الله لا يكون نبي الله.

وهذا الذي روي خلاف القرآن^(١) لأنه قال الله تعالى في القرآن: ﴿الَّذِينَ هَؤُلَاءِ﴾ [الثور: ٢] ولم ينف عنهم اسم الإيمان. وقال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيكُمُ الْبَغْيُ﴾ [النساء: ١٦]. فقوله منكم لم يعن به اليهود ولا النصارى وإنما عني به المسلمين. فرد كل رجل يحدث عن النبي ﷺ بخلاف القرآن ليس رداً على النبي ﷺ ولا تكذيباً له. ولكن رد على من يحدث عن النبي ﷺ بالباطل. والتهمة دخلت عليه ليس على نبي الله عليه السلام وكذلك كل شيء تكلم به نبي الله عليه الصلاة والسلام سمعناه أو لم نسمعه فعلى الرأس والعينين. قد أمانا به ونشهد أنه كما قال نبي الله. ونشهد أيضاً على النبي ﷺ أنه لم يأمر بشيء نهى الله عنه، ولم يقطع شيئاً وصله الله. ولا وصف أمراً وصف الله ذلك الأمر بغير ما وصف به النبي. ونشهد أنه كان موافقاً لله في جميع الأمور. لم يبتدع ولم يتقول على الله غير ما قال تعالى ولا كان من المتكلفين. ولذا قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

(١) قال الخطيب في (الفتاوى والمنقحة): إذا روى الثقة المأمون خبراً متصل الإسناد رد بأمور. أحداً أن يخالف موجبات العقول فيعلم بطلانه لأن الشرع إنما يرد بمجوزات العقول وأما خلاف العقول فلا. والثاني أن يخالف نص الكتاب أو السنة المتواترة فيعلم أنه لا أصل له أو منسوخ والثالث... (ز).

قال المتعلم رحمه الله: لحسن ما فسرت. ولكن أخبرني عن يزعم أن شارب الخمر لا يقبل منه صلاة أربعين ليلة أو أربعين يوماً. وبين لي ما هذا الذي يبطل الحسنات ويهدمها؟

قال العالم رضي الله عنه: إني لست أدري تفسير الذي يقولون إن الله لا يقبل من شارب الخمر صلاة أربعين ليلة أو يوماً، فلست أكذبهم ما داموا لا يفسرونه تفسيراً لا نعرفه مخالفاً للعدل. لأننا قد نعرف أن من عدل الله أن يأخذ العبد بما ركب من الذنب أو يعفو عنه. ولا يأخذه بما لم يرتكب من الذنب، وأن يحسب له ما أدى إليه من الفرائض ويكتب عليه ذنبه. ومثل ذلك لو أن رجلاً أدى من زكاة ماله خمسين درهماً. وقد كان عليه أكثر من ذلك فإنما يؤاخذ الله بما لم يؤد ويحسب له ما قد أدى. وكذلك إذا صام وصلى وحج وقتل فإنه يحسب له حسناته ويكتب عليه سيئاته ولذلك قال الله عز وجل: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤] يعني من الخير ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني من الشر. وقال: ﴿إِنِّي لَا أَشِيعُ عَمَلٍ عَمِلَ بَيْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقال: ﴿إِنَّا لَا نُشِيعُ لَبِيزٍ مِّنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] وقال: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَسَبْتُمْ لَكُمْ﴾ [يس: ٥٤] وقال: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كَسَبْتُمْ لَكُمْ﴾ [الطهور: ١٦] وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٥] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٦] ﴿[الزلزلة: ٧، ٨] وقال: ﴿وَكُلٌّ صَفِيرٌ وَكَبِيرٌ مُّسْتَعْطَرٌ﴾ [١٠] [الفجر: ٥٣]. فهو تبارك وتعالى يكتب الصغير من الحسنات والسيئات، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ الصُّورُ فَذُكِرَ الْمَوَاقِفُ الْيَمِينُ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَكِنْ كُنْتَ بِعَمَلِكُمْ مِنْ حَرْدٍ لِّبِنَا يَهُأْ وَكُنْ بِمَا حَسِبْتَ﴾ [١٧] ﴿[الأنبياء: ٤٧]. فمن قال لا، بهذا القول فإنه يصف الله تبارك وتعالى بالجور وقد آمن الله الناس من الظلم حيث قال: ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الأنبياء: ٤٧] ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَسَبْتُمْ لَكُمْ﴾ [يس: ٥٤] وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٦] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [٥] ﴿[الزلزلة: ٧، ٨]، وقد سقى نفسه شكوراً لأنه يشكر الحسنة. وهو أرحم الراحمين. وأما الحسنات فإنه لا يهدمها شيء غير ثلاث خصال. أما الواحد فالشرك بالله لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِبْرَهِيمَ فَقَدْ حَبَطَ عَمَلُهُ﴾ [المائدة: ٥] والأخرى أن يعمل الإنسان فيعتق نسماً أو يصل رجماً أو يتصدق بمال يريد بهذا كله وجه الله. ثم إذا غضب أو قال في غير الغضب امتناناً على صاحبه الذي كان المعروف منه إليه: ألم أعق ربك؟ أو يقول لمن وصله: ألم أصلك؟ وفي أشباه هذا يضرب به على رأسه. ولذلك قال الله عز وجل: ﴿لَا تُطْلُوا مَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤] والثالثة ما

كان من عمل يراني به الناس فإن ذلك العمل الصالح الذي رآى به لا يتقبله الله منه فما كان سوى هذا من السيئات فإنه لا يهدم الحسنات.

قال المتعلم رحمه الله: لقد وصفت الذي هو العدل ولكن أخبرني عمن يشهد عليك بالكفر ما شهادتك عليه؟

فقال العالم رضي الله عنه: شهادتي عليه أنه كاذب: ولا أسميه بذلك كافراً؛ ولكن أسميه كاذباً؛ لأن الحرمة حرمتان حرمة تنتهك من الله تعالى؛ وحرمة تنتهك من عبيد الله سبحانه: فالحرمة التي تنتهك من الله عز وجل هي الإشراف بالله والتكذيب والكفر؛ والحرمة التي تنتهك من عبيد الله؛ فذلك ما يكون بينهم من المظالم. ولا ينبغي أن يكون الذي يكذب على الله وعلى رسوله كالذي يكذب عليّ لأن الذي يكذب على الله وعلى رسوله ذنبه أعظم من أن لو كذب على جميع الناس، فالذي شهد علي بالكفر، فهو عندي كاذب، ولا يحل لي أن أكذب عليه لكذبه علي؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَا يَجْرِيَنَّكُمْ شَتَائُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَسْلُوا أَعِدُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] قال لا يحملنكم عداوة قوم أن تركوا العدل فيهم.

قال المتعلم رحمه الله: هذه صفة معروفة ولكن كيف نقول في رجل يشهد على نفسه بالكفر؟

قال العالم رضي الله عنه: إني أقول ليس ينبغي لي أن أحقق كذبه على نفسه وذلك لأنه لو قال لنفسه إنه حمار لا ينبغي لي أن أقول صدق غير أنه إن قال: إنه بريء من الله أو قال: لا أؤمن بالله ولا برسوله سميت كافراً وإن سقى نفسه مؤمناً. وكذلك إذا وخذ الله وأمن بما جاء من عند الله سميت مؤمناً وإن سقى نفسه كافراً.

قال المتعلم رحمه الله: أراك فيه أحسن قولاً منه في نفسه. وأنت أحق بذلك ولكن أخبرني أرايت إن قال لي: إني بريء من دينك أو مما تعبد؟

قال العالم رضي الله عنه: إن قال لي هذا لم أعجل ولكني أسأله عند ذلك أثبأ من دين الله؟ أو ثبأ من الله فأبي القولين قاله سميت كافراً مشركاً. فإن قال: لا أبرأ من الله ولا أبرأ من دين الله ولكن أبرأ من دينك لأن دينك هو الكفر بالله وأبرأ مما تعبد لأنك تعبد الشيطان. فإني لا أسميه كافراً. لأنه إنما يكذب علي.

قال المتعلم رحمه الله: هذا لعمرى هو قول أهل الورع والثبوت. ولكن أخبرني أليس من أطاع الشيطان وطلب مرضاته فهو كافراً وعابداً للشيطان؟

قال العالم رضي الله عنه: أوعلمت ما أردت بهذه المسألة أن المؤمن إذا عصى الله تعالى ليس يكون بمعصيته تلك مطيعاً للشيطان طالباً لمرضاته يتعمد ذلك وإن وافق عمله للشيطان طاعة ورضاً.

قال المتعلم رحمه الله: أخبرني عن العبادة ما تفسرها؟

قال العالم رضي الله عنه: اسم العبادة اسم جامع يجتمع فيه الطاعة والرغبة والإقرار بالربوبية. وذلك أنه إذا أطاع الله العبد في الإيمان به دخل عليه الرجاء والخوف من الله فإذا دخل عليه هذه الخصال الثلاث فقد عبده ولا يكون مؤمناً بغير رجاء ولا خوف ولكنه رُب مؤمن يكون خوفه من الله أشد وآخر يكون خوفه أقل. وكذلك من أطاع أحداً رجاء ثوابه أو مخافة عقابه من دون الله فقد عبده. ولو كان العمل بالطاعة وحدها في كل شيء عبادة لكان كل من أطاع غير الله تعالى فقد عبده.

قال المتعلم رحمه الله: ما أحسن ما قلت ولكن أخبرني أرايت من خاف شيئاً أو رجاً منفعة شيء هل يدخل عليه الكفر؟

قال العالم رضي الله عنه: الخوف والرجاء على منزلتين وإحدى المنزلتين من كان يرجو أحداً أو يخافه يرى أنه يملك له من دون الله ضرراً أو نفعاً فهو كافر. والمنزلة الأخرى من كان يرجو أحداً أو يخافه لرجائه الخير أو مخافة البلاء من الله تعالى عسى الله أن ينزل به على يدي آخر أو من سبب شيء فإن هذا لا يكون كافراً لأن الوالد يرجو ولده أن ينفعه ويرجو الرجل دابته أن تحمل له. ويرجو جاره أن يحسن إليه ويرجو السلطان أن يدفع عنه، فلا يدخل عليه الكفر. لأنه إنما رجاؤه من الله عسى أن يرزقه من ولده أو من جاره ويشرب الدواء عسى الله أن ينفعه به فلا يكون كافراً، وقد يخاف الشر ويفر منه مخافة أن يبتليه الله به. والقياس في ذلك موسى عليه الصلاة والسلام الذي اصطفاه الله تعالى برسالة وخصه بكلامه إياه حيث لم يجعل بينه وبين موسى رسولاً قال: ﴿فَلَخَّافُ أَنْ يَقْتُلُونَهُ﴾ [الشعراء: ١٤] وسيدنا محمد ﷺ حيث فرّ إلى الغار فلم يدخل عليهم الكفر. وكذلك أيضاً يخاف الرجل من السبع أو الحبة أو العقرب أو هدم بيت أو سيل أو أذى طعام يأكله، أو شراب يشربه، فلا يدخل عليه الكفر ولا الشك ولكن إنما يدخل الجبن.

قال المتعلم رحمه الله: لقد قلت ما نعرف، ولكن أخبرني عن المؤمن ما شأنه يهاب هذا المخلوق ما لا يهاب الله؟

قال العالم رضي الله عنه: ليس شيء أهيب إلى المؤمن من الله، وذلك لأنه ينزل به المرض الشديد في جسمه أو تنزل به المصيبة الموجهة من الله تعالى، فلا يقول في سر وعلاية بش ما صنعت يا رب، ولا يحدث نفسه بذلك ولا يزداد له إلا ذكراً، ولو نزل عشر عشر ذلك، من بعض ملوك الدنيا لتناوله وجوره بقلبه ولسانه عند أهل ثقته، حيث لا يسمع ذلك الملك كلامه، فالمؤمن يراقب الله تعالى في السر والعلاية وفي الحر والبرد، وملوك الدنيا لا يراقبون في السر والعلاية، ولا في الكره والرضا، ولأنه ربما أصابته الجنابة في ليلة باردة فهو يقوم على كره منه حيث لا يعلم أحد ما نزل به غير الله تعالى فيغتسل مخافة من الله أو يصوم في الحر الشديد وقد أصابه الجهد الشديد من العطش وليس بحضرته أحد فهو يراقب الله تعالى ويتصبر ولا يجزع لمخالفته، والرجل إنما يهاب الملك ما دام بحضرته، فإذا توارى عنه لم يبهه فمن هاهنا عرفنا بأنه ليس شيء بأهيب إلى المؤمن من الله تعالى.

قال المتعلم رحمه الله: قلت لعمرى هذا ما نعرفه من أنفسنا. ولكن أخبرني عن جهل الإيمان والكفر ما هو؟.

قال العالم رضي الله عنه: إن الناس إنما يكونون مؤمنين بمعرفتهم وتصديقهم بالرب جلّ وعلا. ويكونون كفاراً بإنكارهم بالرب تعالى. فأما إذا أقروا للرب بالعبودية وصدقوا بوحديته وبما جاء منه ولم يعلموا ما اسم الإيمان واسم الكفر لا يكونون بهذا كفاراً بعد أن علموا أن الإيمان خير، والكفر شر، كالرجل الذي يؤتى بالعسل والصبر. فيذوق منهما ويعلم أن العسل حلو. والصبر مر من غير أن يعلم ما اسم العسل؟ وما اسم الصبر؟ ولا يقال له جاهل بالحلاوة والمرارة. ولكن يقال له جاهل باسمهما. كذلك الذي لا يعلم ما اسم الإيمان والكفر. غير أنه يعلم أن الإيمان خير والكفر شر. فلا يقال له: إنه جاهل بالله ولكن يقال له: إنه جاهل باسم الإيمان والكفر.

قال المتعلم رحمه الله: أخبرني عن المؤمن إن عُدّب هل ينفعه إيمانه؟ وهل يُعُدّب بعد إيمانه وفيه الإيمان؟.

قال العالم رضي الله عنه: سألت عن مسائل لم تسأل مثلهن في مسألتك. وأنا أفتيك فيهن إن شاء الله. أما قولك إن عُدّب المؤمن فهل ينفعه إيمانه وفيه الإيمان إن عُدّب؟ نعم ينفعه إيمانه لأنه يرفع عنه أشد العذاب. وأشد العذاب إنما يكون على الكافر. لأنه لا ذنب أعظم من الكفر. وهذا المؤمن لم يكفر بالله ولكن عصاه في

بعض ما أمر به فيُعَذَّب إن عُدَّ على ما عمل. ولا يُعَذَّب على ما لم يعمل كالرجل الذي قتل ولم يسرق إنما يؤاخذ بالقتل. ولا يؤاخذ بالسرقه. وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُجْرَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤]. والمريض ما كان مرضه أقل كان أهون عليه. والذي يُعَذَّب في الدنيا ويرفع عنه أشد العذاب ويُعَذَّب بلون واحد فهو أهون عليه من أن يُعَذَّب بلونين. وكذلك المؤمن إن عُدَّ على ذنب واحد فهو أهون من أن يُعَذَّب على ذنبتين.

قال المتعلم رحمه الله: هذا لعمرى ما نعرف من العدل ولكن أخبرني من أين صار كفر الكفار واحداً وعبادتهم كثيرة مختلفة من حيث صار إيمان أهل السماء ومن آمن من أهل الأرض إيماناً واحداً وفرائضهم كثيرة مختلفة.

قال العالم رضي الله عنه: وذلك لأن فرائض الملائكة غير فرائضنا. وفرائضهم وفرائض الأولين غير فرائضنا. وإيمان أهل السماء وإيمان الأولين وإيماننا واحد لأننا آمنّا وعبدنا الرب عزّ وجلّ وحده وصدقنا جميعاً، فكذلك الكفار كفرهم وإنكارهم واحد وعبادتهم مختلفة، وذلك لأنك لو سألت اليهودي من تعبد؟ يقول الله أعبد وإذا سألته عن الله قال هو الذي عزير ولده وهو الذي على مثال البشر، ومن كان بهذه الصفة لم يكن مؤمناً بالله. وإذا سألت النصراني من تعبد؟ قال الله الله أعبد. وإذا سألته عن الله قال هو الذي في جسد عيسى وفي بطن مريم. يجتن في شيء ويحيط به شيء، ويلج في شيء، ومن كان بهذه الصفة لم يكن مؤمناً بالله. وإذا سألت المجوسي من تعبد؟ يقول الله أعبد فإذا سألته عن الله؟ قال هو الذي له الشريك والولد والصاحبة ومن كان بهذه الصفة لم يكن مؤمناً بالله فجهالة هؤلاء كلهم بالرب جلّ وعزّ وإنكارهم واحد. ونعوتهم وصفاتهم وعبادتهم كثيرة مختلفة. كمثّل ثلاثة نفر قال أحدهم: إن عندي لؤلؤة بيضاء ليس في العالم مثلاً، فأخرج حبة من عنب سوداء فحلف أنها لؤلؤة. وخاصم الناس في ذلك. وقال آخر: عندي اللؤلؤة المرتفعة التي ليس في العالم مثلاً، فأخرج سفرجلة فحلف على ذلك وخاصم الناس أنها لؤلؤة. وقال الثالث: اللؤلؤة اليتيمة هي التي عندي، وأخرج قطعة من مدر فجعل يحلف على ذلك، وخاصم الناس عليها أنها لؤلؤة، وكل هؤلاء اجتمع جهالتهم باللؤلؤة لأنه ليس أحد منهم يعرف اللؤلؤة، وصفاتهم كثيرة مختلفة، فتعرف بذلك أنك لا تعبد موصوفهم ولا معبودهم لأنهم يصفون الثلاثة والاثنتين وإنما يعبدون الذي يصفونه، وأنت تصف الواحد فمعبودك غير معبودهم، ومعبودهم غير معبودك ولذلك قال الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ يَكْفُرُ الْكَافِرُونَ ۚ لَا آئِبُهُ مَا تَعْبُدُونَ ۚ وَلَا أَنْتُمْ تَعْبُدُونَ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ١ - ٣].

قال المتعلم رحمه الله: لقد عرفت الذي وصفت أنه كما وصفت ولكن أخبرني من أين يكون هؤلاء جهالاً بالرب لا يعرفونه وهم يقولون الله ربنا؟.

قال العالم رضي الله عنه: قد أعرف الذي يقولون، إنهم يقولون إن الله ربنا وهم في ذلك لا يعرفونه لقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ لِّلْحَمْدِ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢٥﴾ [لقمان: ٢٥] يقول تعالى: أكثرهم يقول هذا القول بغير علم كالصبي الذي ولدته أمه أعمى فيذكر الليل والنهار والصفرة والحمرة من غير أن يعرف شيئاً من ذلك. وكذلك الكفار قد سمعوا اسم الله تعالى من المؤمنين وهم يقولون ما سمعوا من غير أن يعرفوه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ لَأَبْذَرُنَّ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُنَّ لَكُمَّ يَكْفُرُ ۖ وَهُمْ يُسْكِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

قال المتعلم رحمه الله: هو كما وصفت لكن أخبرني عن الرسول أمن قبل الله تعالى عرفته. أو تعرف الله من قبل الرسول. فإن زعمت أنك إنما تعرف الرسول من قبل الله فكيف يكون ذلك؟ والرسول هو الذي يدعوك إلى الله تعالى.

قال العالم رضي الله عنه: نعم نعرف الرسول من الله تعالى لأن الرسول وإن كان يدعو إلى الله تعالى، ولم يكن أحد يعلم بأن الذي يقول الرسول حق يقذف الله في قلبه التصديق والعلم بالرسول، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] ولو كانت معرفة الله من قبل الرسول لكانت المنة على الناس في معرفة الله من قبل الرسول لا من قبل الله ولكن المنة من الله على الرسول في معرفة الرب عز وجل والمنة لله على الناس بما عرفهم الله من التصديق بالرسول بل ينبغي أن نقول إن العبد لا يعرف شيئاً من الخير إلا من قبل الله.

قال المتعلم رحمه الله: قد فرجت عني ولكن أخبرني عن تفسير الولاية والبراءة هل يجتمعان في إنسان واحد.

قال العالم رضي الله عنه: الولاية هي الرضا بالعمل الحسن، والبراءة هي الكراهية على العمل السيئ، وربما اجتمعا في إنسان واحد، وربما لم يجتمعا فيه فهو المؤمن الذي يعمل صالحاً وسيئاً، وأنت تجامعه وتوافقه على العمل الصالح وتجه عليه وتخالفه وتفارقه على ما يعمل من السيئ وتكره له ذلك، فهذا ما سألت عن الولاية والبراءة يجتمعان في إنسان واحد. والذي فيه الكفر ليس فيه شيء من الصالحات، وأنت تبغضه وتفارقه في جميع ذلك والذي تحبه ولا تكره منه شيئاً فهو الرجل المؤمن الذي قد عمل بجميع الصالحات واجتنب القبيح فأنت تحب كل شيء منه، ولا تكره منه شيئاً.

قال المتعلم رحمه الله: ما أحسن ما قلت. ولكن أخبرني عن كفر النعم ما هو.

قال العالم رضي الله عنه: كفر النعم أن ينكر الرجل أن تكون النعم من الله، فإن أنكر شيئاً من النعم فزعم أنها ليست من الله فهو كافر بالله، لأن من كفر بالله كفر بالنعم، قال الله تعالى: ﴿يَمْرُقُونَ يَفْتَتَ اللَّهُ ثُمَّ يُكْرِهُنَّ﴾ [التحل: ٨٣] يقول إن الكفار يعرفون أن الليل ليل، والنهار نهار، ويعرفون الصحة والغنى، وجميع ما يتقلبون فيه من السعة والراحة أنها نعمة غير أنهم ينسبون ذلك إلى معبودهم الذي يعبدونه، ولا ينسبونه إلى الله الذي منه النعم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿يَمْرُقُونَ يَفْتَتَ اللَّهُ ثُمَّ يُكْرِهُنَّ﴾ [التحل: ٨٣] أي ينكرون أن تكون من الله الواحد الذي ليس كمثله شيء.

والله المتعان وحبنا الله ونعم الوكيل. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تم العالم والمتعلم والله الحمد

الفقه الأَبَسَطُ للإمام أبي حنيفة

تحقيقه
الإمام لعنلله الشيخ محمد زاهد بن حسنه بن علي الكورني
المؤلف ١٣٧١هـ

رواية أبي مطيع عن أبي حنيفة رضي الله عنهما

هو الفقه الأكبر رواية أبي مطيع عرف بالفقه الأيسر تمييزاً له عن الفقه الأكبر
رواية حماد بن أبي حنيفة عن أبيه، ورواه أبو مطيع هو الحكم بن عبد الله البلخي
صاحب أبي حنيفة حدث عن ابن عون وهشام بن حسان وعنه أحمد بن منيع وخالد بن
سالم الصفار وجماعة تفقه به أهل تلك الديار، قال الذهبي: كان بصيراً بالرأي علامة
كبير الشأن ولكنه واه في ضبط الأثر وكان ابن المبارك يعظمه ويجله لدينه وعلمه اهـ.

وطال كلام النقلة فيه يرمونه بالإرجاء والتجهّم والرأي راجع الميزان.

توفي سنة ١٩٩ هـ عن أربع وثمانين سنة تغمده الله برضوانه (ز).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. روى الإمام أبو بكر محمد بن محمد الكاساني. عن أبي بكر علاء الدين محمد بن أحمد السمرقندي. قال: أخبرنا أبو المعين ميمون بن محمد المكحولي النسفي أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن علي الكاشغري الملقب بالفضل. قال: أخبرنا أبو مالك نصران بن نصر الخثلي عن علي بن الحسن بن محمد الغزالي عن أبي الحسن علي بن أحمد الفارسي حدثنا نصير بن يحيى الفقيه. قال: سمعت أبا مطيع الحكم بن عبد الله البلخي يقول:

سألت أبا حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله تعالى عنه وعنهم عن الفقه الأكبر^(١) فقال: أن لا تكفر أحداً من أهل القبلة بظن. ولا تنفي أحداً من الإيمان. وأن تأمر بالمعروف. وتنهى عن المنكر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك. ولا تتبرأ من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا توالي أحداً دون أحد، وأن ترد أمر عثمان وعلي إلى الله تعالى.

وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: الفقه في الدين أفضل من الفقه في الأحكام ولأن يتفقه الرجل كيف يعبد ربه خير له من أن يجمع العلم الكثير.

قال أبو مطيع: قلت: فأخبرني عن أفضل الفقه. قال أبو حنيفة: أن يتعلم الرجل الإيمان بالله تعالى والشرائع والسنن والحدود واختلاف الأمة واتفاقها. قال: فأخبرني عن الإيمان. فقال^(٢): حدثني علقمة بن مرثد عن يحيى بن يعمر قال: قلت

(١) يريد به العلم المتعلق بتصحيح الاعتقاد. وهو أفضل الفقه عنده، والفقه على إطلاقه يشمل ما يفوزم الاعتقاد والعمل والخلق عند أبي حنيفة، ولذا يعرف الفقه بأنه معرفة النفس ما لها وما عليها (ز).

(٢) ولأبي حنيفة أسانيد في هذا الحديث منها روايته عن حماد عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود (ز).

لابن عمر رضي الله عنهما أخبرني عن الدين ما هو؟ قال: عليك بالإيمان فتعلمه. قلت: فأخبرني عن الإيمان ما هو؟ قال: فأخذ بيدي فانطلق بي إلى شيخ فأقعدني إلى جنبه فقال: إن هذا يسألني عن الإيمان كيف هو؟ فقال: والشيخ كان ممن شهد بداراً مع رسول الله ﷺ. قال ابن عمر: كنت إلى جنب رسول الله ﷺ وهذا الشيخ معي إذ دخل علينا رجل حسن اللمة متعمماً نحسبه من رجال البادية فتخطى رقاب الناس فوقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتؤمن بملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى. فقال: صدقت، فتعجبنا من تصديقه رسول الله ﷺ مع جهل أهل البادية. فقال: يا رسول الله، ما شرائع الإسلام؟ فقال: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً والاعتسال من الجنابة. فقال: صدقت. فتعجبنا لقوله بتصديقه رسول الله ﷺ كأنه يعلمه. فقال: يا رسول الله وما الإحسان؟ قال: أن تعمل لله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. فقال: صدقت. فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل. ثم مضى فلما توسط الناس لم نره.

فقال النبي ﷺ: «إن هذا جبريل أتاكم ليعلمكم معالم دينكم»^(١).

قال أبو مطيع: قلت لأبي حنيفة رحمه الله: فإذا استيقن بهذا وأقر به فهو مؤمن؟ قال: نعم إذا أقر بهذا فقد أقر بجملته الإسلام وهو مؤمن. فقلت: إذا أنكر بشيء من خلقه فقال: لا أدري من خالق هذا؟ قال: فإنه كفر لقوله تعالى: ﴿خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]. لكانه قال: له خالق غير الله، وكذلك لو قال: لا أعلم أن الله فرض علي الصلاة والصيام والزكاة فإنه قد كفر. لقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] ولقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ولقوله تعالى: ﴿فَتَبَيَّنَ اللَّهُ بَيْنَ تَسْوِيكَ رَيْبَيْنِ تَصِيحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْعَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَبَيْنَا رَيْبَيْنِ تَطْهَرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الرؤم: ١٧، ١٨] فإن قال: أؤمن بهذه الآية، ولا أعلم تأويلها ولا أعلم تفسيرها فإنه لا يكفر، لأنه مؤمن بالتنزيل ومخطيء في التفسير. قلت له: لو أقر بجملته الإسلام في أرض الشرك ولا يعلم شيئاً من الفرائض والشرائع ولا يقر بالكتاب ولا بشيء من شرائع الإسلام إلا أنه مقر بالله تعالى

(١) ورد حديث جبريل على ألفاظ مختلفة متقاربة في المعنى وليس هذا.

وبالإيمان ولا يقر بشيء من شرائع الإيمان فمات أهو مؤمن؟ قال: نعم^(١) قلت له: ولو لم يعلم شيئاً ولم يعمل به إلا أنه مقرر بالإيمان فمات. قال: هو مؤمن. قلت لأبي حنيفة: أخبرني عن الإيمان. قال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وتشهد بملأنكته وكتبه ورسله وجنته وناره وقيامته وخيره وشره وتشهد أنه لم يفوض الأعمال إلى أحد.

والناس صائرون إلى ما خلقوا له، وإلى ما جرت به المقادير فقلت له: أرايت إن أقر بهذا كله لكنه قال: المشية إلى أن شئت آمنت وإن شئت لم أومن لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. فقال: كذب في زعمه، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿كَذَلَا إِنَّمَا تَذَكَّرُ ۝ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْ ۝ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المذثر: ٥٤ - ٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]^(٢) وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] هذا وعبد، وبهذا لم يكفر، لأنه لم يرد الآية، وإنما أخطأ في تأويلها ولم يرد به تنزيلها قلت له إن قال إن أصابتنى مصيبة (فستلت) أي مما ابتلاني الله بها أو هي مما اكتسبت (أجبت قاتلاً) ليست هي مما ابتلاني الله بها أيكفر؟ قال: لا، قلت: ولم؟ قال: لأن الله تعالى قال: ﴿فَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ حَسْرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ نَجْوةٍ مِنْ نَفْسِكُمْ﴾ [النساء: ٧٩]. أي بذنبك وأنا قدرته عليك. وقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كُنْتُمْ آيْدِكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠] - أي بذنوبكم - وقال تعالى: ﴿يُصِلْ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣]، قال: إلا أنه أخطأ في التأويل، ومعنى قوله: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَوْتِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي بين المؤمن والكافر، وبين الكافر والإيمان.

(١) يعني حيث لم يبلغه الشرع في دار الشرك، وأما الإيمان بالله فدليل العقل كاف في وجوبه عنده قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَتَوَقَّرُ أَنْ يُثْقَلَ بِهِ﴾ [النساء: ٤٨] ولم يفيد ذلك بزمان ولا مكان، وأما الأحكام فلا يعذب بها إلا بعد تبليغها (ز).

(٢) ومن مقتضى حكمة الحكيم الخبير خلق العبد شيئاً مختاراً في أفعاله التكليفية، وشمول المشية الأزلية لتلك الأفعال لا يخرجها عن كونها اختيارية لتعبر انقلاب الحقائق وقد دلت النصوص على اختيار العبد وشمول المشية الأزلية. قال الله تعالى: ﴿لَا يَكُنْ لِلَّهِ نَفْسٌ إِلَّا وَمُتَمَّناً﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] وهذا هو الجمع بين النصوص، وقد سأل أبو حنيفة زيد بن علي الشهيد أقرر الله المعاصي؟ فقال: أفيصم قهراً؟! والتقدير والمشيئة والعلم متواردة عليها، والتقدير والمشيئة على وفق العلم (ز).

قال أبو حنيفة رحمه الله: إن الاستطاعة التي يعمل بها العبد المعصية هي بعينها تصلح لأن يعمل بها الطاعة وهو معاقب في صرف^(١) الاستطاعة التي أحدثها الله تعالى فيه وأمره أن يستعملها في الطاعة دون المعصية.

قلت: فإن قال: الله تعالى لِمَ يجبر عباده على ذنب ثم يعذبهم عليه فماذا نقول له؟ قال: قل له: هل يطيق العبد لنفسه ضراً ونفعاً؟ فإن قال: لا لأنهم مجبورون في الضر والنفع ما خلا الطاعة والمعصية. فقل له: هل خلق الله الشر؟ فإن قال: نعم. خرج من قوله وإن قال: لا، كفر لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّيَ الْفَلَكِيِّ ۝﴾ من سَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾ [الفلق: ١، ٢]. أخبر أن الله تعالى خلق الشر. قلت: فإن قال: ألستم تقولون إن الله شاء الكفر وشاء الإيمان. فإن قلنا نعم، يقول: أليس الله تعالى يقول: ﴿هُوَ أَهْلُ الْقُرْآنِ وَأَهْلُ الْغُرَفِ﴾ [المذثر: ٥٦] نقول: نعم، فيقول: أهو أهل الكفر؟ فما نقول له؟ قال: نقول: هو أهل لمن يشاء الطاعة وليس بأهل لمن يشاء المعصية. فإن قال: إن الله تعالى لم يشأ أن يقال عليه الكذب. فقل له: الغربة على الله من الكلام والمنطق أم لا؟ فإن قال: نعم، فقل: من علم آدم الأسماء كلها؟ فإن قال: الله، فقل: الكفر من الكلام أم لا؟ فإن قال: نعم، فقل: من أنطق الكافر؟ فإن قال: الله. خصموا أنفسهم، لأن الشرك من النطق، ولو شاء الله لما أنطقهم به. قلت: فإن قال: إن الرجل إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وإن شاء أكل وإن شاء لم يأكل، وإن شاء شرب وإن شاء لم يشرب. قال: فقل له: هل حكم الله على بني إسرائيل أن يعبروا البحر وقدر على فرعون الغرق؟ فإن قال: نعم، قل له: فهل يقع من فرعون أن لا يسير في طلب موسى وأن لا يفرق هو وأصحابه؟ فإن قال: نعم فقد كفر، وإن قال: لا، نقض قوله السابق.

(١) وصرف الاستطاعة هو منار التكليف وقد جعله الله بيد العبد المكلف فلا جبر عنده (ز).

باب في القدر

قال: حدثنا علي^(١) بن أحمد عن نصير بن يحيى قال: سمعت أبا مطيع يقول: قال أبو حنيفة رضي الله عنه: حدثنا حماد عن إبراهيم، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ خَلَقَ أَحَدُكُمْ يَجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نَظْفَةً ثُمَّ عُلُقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ مَضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلَكًا يَكْتُبُ عَلَيْهِ رِزْقَهُ وَاجْلَهُ وَشَقِيَّ أَمْ سَعِيدٍ، وَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنْ الرَّجُلُ لِيَعْمَلَ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنِّ فَيَمُوتُ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ الرَّجُلُ لِيَعْمَلَ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَمُوتُ فَيَدْخُلُهَا».

قلت: فما تقول فيمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيتبعه على ذلك ناس فيخرج على الجماعة هل ترى ذلك؟ قال: لا. قلت: ولم وقد أمر الله تعالى ورسوله بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا فريضة واجبة؟ فقال: هو كذلك لكن ما يفسدون من ذلك يكون أكثر مما يصلحون، من سفك الدماء واستحلال المحارم وانتهاك الأموال. وقد قال الله تعالى: ﴿لَكِنْ كَلَّا فَيَنبَغِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الْأُتْرُقَ بَيْنَهُمَا فَتَقَاتِلَا أَلَيْسَ بَيْنَهُمَا نِجَافٌ﴾ [الحجرات: ٩] قلت: فتقاتل الفئة الباغية بالسيف؟ قال: نعم. تأمر وتنهى فإن قبل وإلا فانتكته، فتكون مع الفئة العادلة وإن كان الإمام جائراً.

لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يضرركم جور من جار ولا عدل من عدل، لكم أجركم وعليه وزره»^(٢). قلت له: ما تقول في الخوارج المحكمية؟ قال: هم أخبث الخوارج، قلت له: أنكفروهم؟ قال: لا. ولكن نقاتلهم على ما قاتلهم الأئمة من أهل الخير: علي وعمر بن عبد العزيز. قلت: فإن الخوارج يكبرون ويصلون ويتلون القرآن أما تذكر حديث أبي أمامة رضي الله عنه حين دخل مسجد دمشق فإذا

(١) هو الفارسي شيخ الختلي في السند (ز).

(٢) وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة لكن هذا اللفظ لم أجده فعله رواية بالمعنى (ز).

فيه رؤوس ناس من الخوارج فقال لأبي غالب الحمصي: يا أبا غالب هؤلاء ناس من أهل أرضك فأحببت أن أعرفك من هؤلاء، هؤلاء كلاب أهل النار هؤلاء كلاب أهل النار وهم شر قتلى تحت أديم السماء - وأبو أمانة في ذلك يبكي - فقال أبو غالب: يا أبا أمانة ما يبكيك؟ إنهم كانوا مسلمين وأنت تقول لهم ما أسمع قال: أولاء، يقول الله تعالى فيهم: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧] قال له: أشيء تقوله برأيك أم سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: إني لو لم أسمعته منه إلا مرة أو مرتين أو ثلاث مرات إلى سبع مرات لما حدثكموه. فكفر الخوارج كفر النعم، كفر بما أنعم الله تعالى عليهم. قلت: الخوارج إذا خرجوا وحاربوا وأغاروا ثم صالحوا هل يتبعون بما فعلوا؟ قال: لا غرامة عليهم بعد سكون الحرب، ولا حد عليهم، والدم كذلك لا قصاص فيه. قلت: ولم ذلك؟ قال: للحديث الذي جاء أنه لما وقعت الفتنة بين الناس في قتل عثمان رضي الله عنه فاجتمعت الصحابة رضي الله عنهم على أن من أصاب دماً بتأويل فلا قود عليه.

ومن أصاب فرجاً حراماً بتأويل فلا حد عليه. ومن أصاب مالاً بتأويل فلا نوبة عليه إلا أن يوجد المال بعينه فيرد إلى صاحبه. قلت: قال قائل: لا أعرف الكافر كافراً. قال: هو مثله. قلت: فإن قال: لا أدري أين مصير الكافر؟ قال: هو جاحد لكتاب الله تعالى وهو كافر. قلت له: فما تقول لو أن رجلاً قيل له: مؤمن أنت؟ قال: الله أعلم، قال: هو شاك في إيمانه، قلت: فهل بين الكفر والإيمان منزلة إلا النفاق وهو أحد الثلاثة، إما مؤمن أو كافر أو منافق، قال: لا، ليس بمنافق من يشك في إيمانه، قلت: لم؟ قال: لحديث صاحب لمعاذ بن جبل وابن مسعود: حدثني حماد عن حارث بن مالك - وكان من أصحاب معاذ بن جبل الأنصاري - فلما حضره الموت بكى. قال معاذ: ما يبكيك يا حارث؟ قال: ما يبكيني موتك، قد علمت أن الآخرة خير لك من الأولى، لكن من المعلم بعدك؟ ويرى من العالم بعدك؟ قال: مهلاً وعليك بعبد الله بن مسعود فقال له: أوصني، فأوصاه بما شاء الله ثم قال: احذر زنة العالم، قال: فمات معاذ وقدم الحارث الكوفة إلى أصحاب عبد الله بن مسعود فنودي بالصلاة فقال الحارث: قوموا إلى هذه الدعوة، حق لكل مؤمن من سمعه أن يجيبه فنظروا إليه وقالوا: إنك لمؤمن، قال: نعم إني لمؤمن، فتغامزوا به، فلما خرج عبد الله قيل له ذلك، فقال للحارث مثل قولهم فنكس الحارث رأسه وبكى

وقال: رحم الله معاذاً فأخبر به ابن مسعود، فقال له: إنك لمؤمن، قال: نعم، قال: فتقول إنك من أهل الجنة، قال: رحم الله معاذاً فإنه أوصاني أن أحذر زلة العالم والأخذ بحكم المنافق، قال: فهل من زلة رأيت؟ قال: نشدتك بالله اليس النبي ﷺ كان والناس يومئذ على ثلاث فرق مؤمن في السر والعلانية، وكافر في السر والعلانية ومنافق في السر ومؤمن في العلانية فمن أي الثلاث أنت؟ قال: أما أنا فإذا ناشدني بالله فأني مؤمن في السر والعلانية. قال: فلم لمتني حيث قلت: إني لمؤمن؟ قال: أجل هذه زلتي فادفنها علي فرحم الله معاذاً. قلت لأبي حنيفة رحمه الله: فمن قال إني من أهل الجنة؟ قال: كذب. لا علم له به. قال: والمؤمن من يدخل الجنة بالإيمان فيعذب في النار بالأحداث. قلت فإنه قال: إنه من أهل النار؟ قال: كذب لا علم له به قد آيس من رحمة الله تعالى، قال أبو حنيفة رحمه الله: ينبغي أن يقول: أنا مؤمن حقاً، لأنه لا يشك في إيمانه قلت: أيكون إيمانه كإيمان الملائكة؟ قال: نعم^(١) قلت وإن قصر عمله فإنه مؤمن حقاً قال: فحدثني حديث حارثة أن النبي ﷺ قال له: «كيف أصبحت؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: «انظر ما تقول فإن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا حتى أظلمات نهاري وأسهرت ليلي. فكانني أنظر إلى عرش ربي، وكانني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها، وكانني أنظر إلى أهل النار حين يتضاغون فيها، فقال رسول الله ﷺ: «أصبحت فالزم، أصبت فالزم» ثم قال: «من سرّه أن ينظر إلى رجل نور الله تعالى قلبه فليتنظر إلى حارثة» ثم قال: يا رسول الله ادع الله لي بالشهادة فدعا له بها فاستشهد قلت: فما بال أقوام يقولون لا يدخل المؤمن النار؟ قال: «لا يدخل النار إلا كل مؤمن» قلت: والكافر؟ قال: «هم يؤمنون يومئذ» قلت: وكيف ذلك؟ قال: «لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمْ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (٢) فَلَرَّ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا» [عافر: ٨٤، ٨٥].

قال أبو حنيفة رحمه الله: من قتل نفساً بغير حق أو سرق أو قطع الطريق أو فجر أو فسق أو زنى أو شرب الخمر أو سكر فهو مؤمن فاسق، وليس بكافر، وإنما يعذبهم بالأحداث في النار ويخرجهم منها بالإيمان، قال أبو حنيفة رحمه الله: من آمن

(١) مهما كان الإيمان هو المقد الجازم لا يمكن فيه احتمال للتبعض أصلاً فيكون إيمان المؤمنين على حد سواء فالفاضل بينهم بالأعمال التي هي من كمال الإيمان وأما جعل العمل ركناً من الإيمان فلا يمكنه التملص مما وقع فيه الخواارج أو المعتزلة نعوذ بالله من سوء المتقلب (ز).

بجميع ما يؤمن به إلا أنه قال: لا أعرف موسى وعيسى أمرسلان هما أم غير مرسلين فهو كافر، ومن قال لا أدري الكافر أهو في الجنة أو في النار فهو كافر، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا﴾ [فاطر: ٣٦] وقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البُورُج: ١٠] وقال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]. قال أبو حنيفة رحمه الله: بلغني عن سعيد بن المسيب أنه قال: من لم ينزل الكفار منزلهم من النار فهو مثلهم. قلت: فأخبرني عمن يؤمن ولا يصلي ولا يصوم ولا يعمل شيئاً من هذه الأعمال هل يغني إيمانه شيئاً؟ قال: هو في مشيئة الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء رحمه. وقال: من لم يجحد شيئاً من كتابه فهو مؤمن. قال أبو حنيفة: حدثني بعض أهل العلم أن معاذ بن جبل رضي الله عنه لما قدم مدينة حمص اجتمعوا إليه وسأله شاب فقال: ما تقول فيمن يصلي ويصوم ويحج البيت ويجاهد في سبيل الله تعالى ويعتق ويؤدي زكاته غير أنه يشك في الله ورسوله؟ قال: هذا له النار، قال: فما تقول فيمن لا يصلي ولا يصوم ولا يحج البيت ولا يؤدي زكاته غير أنه مؤمن بالله ورسوله؟ قال: أرجو له وأخاف عليه. فقال الفتى: يا أبا عبد الرحمن كما أنه لا ينفع^(١) مع الشك عمل. فكذلك لا يضر^(٢) مع الإيمان شيء. ثم مضى الفتى، فقال معاذ: ليس في هذا الوادي أحد أفقه من هذا الفتى^(٣).

قال أبو حنيفة: فقاتل أهل البغي بالبغي لا بالكفر. وكن مع الفئة العادلة والسلطان الجائر. ولا تكن مع أهل البغي. فإن كان في أهل الجماعة فاسدون

(١) والمنفي النفع الخاص هنا وهو النفع الذي ينقل من الخلود في النار بدليل السياق فلا ينتفع الشاك في الله ورسوله بعمل من الأعمال في إنقاذه من الخلود في النار. ولذا ثبت في الشاك أنه في النار. والشك اللاحق يهدم الطاعة السابقة (ز).

(٢) وكذا المراد من الضرر المنفي هنا هو الضرر الخاص. وهو الضرر المزيل للرجاء بدليل السياق أيضاً فلا يكون المؤمن فاقداً للرجاء يائساً من العفو بما اقترف من ذنب ما دام مؤمناً وهو المراد بقول معاذ: (أرجو له وأخاف عليه) حيث لم يبت بدخوله في النار مرجحاً أمره إلى الله ولو لم يكن مراد الفتى هذا لما أثنى عليه معاذ رضي الله عنه، وإلا كان كلامه متناقضاً فحاشاه من ذلك، وتقييد المطلق بقرائن السياق والسباق في غاية الكثرة في اللسان العربي المبين وأما الإيمان اللاحق فيجب المعصيان السابق (ز).

(٣) وفي هذا المعنى ما أخرجه الحارثي عن أبي حنيفة عن الحارث بن عبد الرحمن عن أبي مسلم الخولاني، عن معاذ رضي الله عنه، راجع مسند الحارثي في مكتبة الأزهر في الحديث (رقم ١٩٣٠) في أواخر الكتاب في مرويات أبي حنيفة عن الحارث بن عبد الرحمن عن شيوخه ومثله في أوائل مختصر مسند الحارثي لمحمد عابد السدي وهو مطبوع (ز).

ظالمون. فإن فيهم أيضاً صالحين يعينونك عليهم، وإن كانت الجماعة باغية فاعتزلهم واخرج إلى غيرهم. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَبِعَمَّةً فَتَهَارِجُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧] وقال أيضاً: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَبِعَمَّةٌ فَإِنِّي فَأَهْدُونِي﴾ [التنكبوت: ٥٦].

قال أبو حنيفة رحمه الله: حدثنا حماد عن إبراهيم عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنهم: قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا ظهرت المعاصي في أرض فلم تطق أن تغيرها فتحول عنها إلى غيرها فاعبد بها ربك». وقال: حدثني بعض أهل العلم^(١) عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: «من تحول من أرض يخاف الفتنة فيها إلى أرض لا يخافها فيها كتب الله له أجر سبعين صديقاً».

قال أبو حنيفة: من قال لا أعرف ربي في السماء أو في الأرض فقد كفر^(٢) وكذا من قال إنه على العرش. ولا أدري العرش أفي السماء أو في الأرض^(٣)

(١) فهو مجهول كما أن الصحابي مجهول فليحذر (ز).

(٢) ولم يذكر في المتن وجه كفره فبيته الشاويح أبو الليث السمرقندي بقوله: (لأنه بهذا القول يومه أن يكون له تعالى مكان فكان مشركاً). ويدل على ذلك ما سيجيء في المتن: (قلت: أرايت لو قيل أين الله تعالى؟ يقال له: كان الله تعالى ولا مكان قبل أن يخلق الخلق، وكان الله تعالى ولم يكن أين ولا خلق ولا شيء، وهو خالق كل شيء يعني فلا يتصور الأينية إلا في الحوادث. ومما يدل على ذلك أيضاً قول الطحاوي في كتابه: (بيان اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن رحمهم الله): (ومن لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه. فإن ربنا جلّ وعلا موصوف بصفات الوجودانية. ممنوع بتبعات الفردانية. وليس في معناه أحد من البرية، تعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، ولا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات اه) وهذا جلي واضح مستثنى عن الإيضاح وسط القول في ذلك في كتاب (إشارات المرام من عبارات الإمام) للعلامة كمال الدين البياضي المطبوع حديثاً. وهو من أحسن ما نُشر إلى الآن في اعتقاد أهل السنة والجماعة على مذهب أئمتنا رضي الله عنهم (ز).

(٣) وهذا لفظ نسخة العلامة البياضي. وأما لفظ نسخة أبي الليث فهو (قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ تَتَرَجَّزِ أَسَافًا﴾ [طه: ٥] فإن قال أقول بهذه الآية ولكن لا أدري أين العرش في السماء أم في الأرض فقد كفر أيضاً). ولم يذكر في المتن هنا أيضاً وجه كفر هذا القائل في النسختين فبيته البياضي في (ص: ٢٠٠) من إشارات المرام، وبيته أبو الليث بقوله: (وهذا يرجع إلى المعنى الأول في الحقيقة لأنه إذا قال لا أدري أن العرش في السماء أم في الأرض فكأنه قال لا أدري أن الله في السماء أم في الأرض) فلا يكون منزهاً لله عن المكان مع وجوب تنزيهه عنه. ثم أفاض أبو الليث في الرد على الكرامية وسائر المشبهة القائلين بإثبات المكان له تعالى، وأبو الليث هذا تخرج على أبي جعفر الهنلاوي عن أبي القاسم الصفاق عن نصير بن يحيى البلخي راوية هذا الكتاب بسنده المعروف بين أهل العلم سلفاً وخلفاً. وأبو الليث هذا توفي =

= سنة ٣٧٣هـ. وبعد مائة سنة من هذا التاريخ نرى ينجم بين الحشوية شخص جريه يلقبه شركازة في الضلال بشيخ الإسلام. ويؤلف لهم كتاباً سماه «الفاروق» وكتاباً سماه «دم الكلام» وغيرهما. يضمنهما وروايات طامة. وآراء سخيفة للغاية بقتن بها كثيراً من الجهال. وهو الذي لا يتحاشى أن يروي عن كعب (أن الله سبحانه قال للجبال إني واطيء على جبل فتطاولت الجبال فتواضع الطور فهبط عليه). وكذا «أطيط العرش من ثقل الذات عليه» والحد ونحو ذلك ومما يقول في دم الكلام: «أن الأشعرية لا تحل ذبايحهم ولا مناكحتهم لأنهم ليسوا بمسلمين ولا أهل كتاب» باعتبار أنهم لا يقولون إن الله يسكن السماء. وهذا الأفاك تناول في «الفاروق» لفظ أبي حنيفة السابق. وتزيد فيه ما شاء تزيداً شائناً منافياً لنفي الأبنية المنصوص عليه في المتن الأصلي السابق ذكره المتداول بين أصحابنا على التوالي الطبقات ففاح بعض النسخ من الفقه الأكبر على هذا التزيد والإفك المبين فانتدع به بعض الأغرار ممن لم يؤنوا بصيرة فنسال الله الصون. وفي نسخة في رجال سندها الكوداني المذكور حاله في أواخر حسن التقاضي ما عبارته: (قال أبو حنيفة: من قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر لأن الله تعالى قال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﴿طه: ٥﴾ فإن قال: إنه تعالى على العرش استوى. ولكنه يقول: لا أهوي العرش في السماء أم في الأرض. قال هو كافر لأنه أنكر كون العرش في السماء لأن العرش في أعلى عليين) ولا وجود لهذه التعليلين في رواية أبي الليث وغيرهما من أصحابنا كما سبق، على أنه ليس فيهما إثبات مكان له تعالى وإنما فيهما إثبات استوائه تعالى على العرش استواء يليق بجلاله كما هو معتقد أهل الحق، وأنى ذلك من إثبات الاستقرار المكاني له تعالى على العرش؟ وذلك القائل جوز إثبات المكان له تعالى فأخذ يتحرى مكاناً له في السماء والأرض. وهذا جهل ياله وكفر به عند أبي حنيفة، لأن التجويز في حكم التنجيز في باب المعتقد، ومن أثبت له مكاناً حياً فما زال عابداً للنصم تعالى الله عن جهالات الجاهليين - راجع الجزء الثاني من العراصم عن القواصم لأبي بكر بن العربي، وهنا بسط القول في العرش والاستواء عليه عند أهل الحق، وهذا هو الموافق لنفي الأبن والمكان عنه - تعالى كما سيأتي في متن هذا الكتاب وللنص الموقوف في الوصية لأبي حنيفة وتجد ذلك كله مجموعاً في صعيد واحد في (إشارات المرام)، ولفظ اللعبي في العلو في التعليل الأول (وعرشه فوق سمواته) وفي التعليل الثاني (إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر) نقلاً عن فاروق الهروي بإقامة الضمير مقام الظاهر تمهيداً لصرفه إلى معتقد الحشوية. ولفظ ابن القيم في اجتماع الجيوش في التعليل الثاني: (لأنه أنكر أن يكون في السماء لأنه تعالى في أعلى عليين) نقلاً عن الهروي بواسطة شيخه فانظروا إلى هذا التصرف المعيب والبهت الغريب، فرأس المصيبة هو الهروي وزاده الشيخان ما شاء من غير ورع، وأين في الكتاب والسنة تعيين مكان له تعالى في أعلى عليين^(٥) (ز).

(٥) يتأنف نفسه في التزيد مرة يكفر من لا يقول: إنه على العرش فوق السماوات ومرة يكفر من لا يقول إنه في السماء. وأحدهما يتأنف الآخر وأبو حنيفة براء من الاثنين (ز).

الله تعالى من أعلى لا من أسفل^(١) لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء. وعليه ما روي في الحديث أن رجلاً أتى إلى النبي ﷺ بأمة سوداء فقال: وجب علي عتق رقبة مؤمنة، أفتجزىء هذه؟ فقال لها النبي ﷺ: «أؤمنة أنت؟» فقالت: نعم.

فقال: «أين الله»^(٢) فأشارت إلى السماء، فقال: «اعتقها فإنها مؤمنة». قال أبو حنيفة: من قال لا أعرف عذاب القبر فهو من الجهمية الهالكة لأنه أنكر قوله تعالى: ﴿سَمِعْتُهُمْ مِرَّتَيْنِ﴾ [التوبة: ١٠١] - يعني عذاب القبر - وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] - يعني في القبر - فإن قال: أؤمن بالآية ولا أؤمن بتأويلها وتفسيرها، قال: هو كافر لأن من القرآن ما هو تنزيله تأويله. فإن جحد بها فقد كفر، قال أبو حنيفة رحمه الله: حدثني رجل عن المنهال بن عمرو عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «شرار أمتي يقولون إنا في الجنة دون النار».

وحدثت عن أبي طبيان قال: قال رسول الله ﷺ: «ويل للمتألمين»^(٣) من أمتي قيل: يا رسول الله وما المتألمون؟ قال: «الذين يقولون فلان في الجنة وفلان في النار». وحدثت عن نافع عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا أمتي في الجنة ولا في النار دعوهم حتى يكون الله يحكم بينهم يوم القيامة». قال: وحدثني أبان عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: لا تنزلوا عبادي جنة ولا ناراً حتى أكون أنا الذي أحكم فيهم يوم القيامة وأنزلهم منازلهم». قلت: فأخبرني عن القاتل والصلاة خلفه؟ فقال: «الصلاة خلف كل بر وفاجر جائزة، فلك أجرك

(١) يشير إلى أن السماء قبلة الدعاء لا أنها مسكن رب العالمين تعالى شأنه فكيف سمعت الرأس مما يتبدل كل آن، وقد بسطنا ذلك فيما علقناه على السيف الصقيل والأسماء والصفات (ز).

(٢) سؤال استكشاف فلا يفيد إثبات المكان له تعالى كما في شرح المواقف، واستعمال أين للسؤال عن المكانة معروفة كقول عمرو بن العاص فأين الثريا وأين الثريز أين معاوية من علي.

والاحتلام على السماء قد يراد به مجرد علو الشأن بدون ملاحظة أي مكان. قال الشاعر:

علونا السماء مجدنا وجعدونا وإننا لنجني فوق ذلك مظهرها

وبسط القول في حديث الجارية فيما علقته على الأسماء والصفات للبيهقي. راجع (ص ٤٢٢) منه (ز).

(٣) أخرجه البخاري في تاريخه. والثاني على الله هو الحالف المتحكم في أنه يدخل فلاناً الجنة وفلاناً النار (ز).

وعليه وزره، قلت: أخبرني عن هؤلاء الذين يخرجون على الناس بسيفهم فيقاتلون وينالون منهم. قال: هم أصناف شتى وكلهم في النار.

قال: روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت بنو إسرائيل اثنتين وسبعين فرقة وستفترق أمي ثلاثاً وسبعين فرقة كلهم في النار إلا السواد الأعظم» قال: وحدثني حماد عن إبراهيم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث حدثاً في الإسلام فقد هلك ومن ابتدع بدعة فقد ضلّ ومن ضلّ ففي النار». حدثنا ميمون عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله علمني، قال: «فأذهب فتعلم القرآن» ثلاثاً. ثم قال له في الرابعة: «اقبل الحق ممن جاءك به حياً كان أو يغيضاً وتعلم القرآن ومل معه حيث مال».

قال: وحدثنا حماد عن إبراهيم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقول: إن شر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار. وقال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْمُرْنَا بِالْحَيَاةِ وَالْإِيمَانِ﴾ [الشعر: ٨] وقال الله تعالى لموسى على سيدنا ونبيينا عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلُّهُمُ الْآسَافِرُ﴾ [طه: ٨٥].

باب المشيئة

قلت: هل أمر الله تعالى بشيء ولم يشأ خلقه وشاء شيئاً ولم يأمر به وخلقه؟ قال: نعم. قلت: فما ذاك؟ قال: أمر الكافر بالإسلام ولم يشأ خلقه، وشاء الكفر للكافر ولم يأمر به وخلقه. قلت: هل رضي الله شيئاً ولم يأمر به؟ قال: نعم. كالعبادات النافلة. قلت: هل أمر الله تعالى بشيء ولم يرخص به؟ قال: لا. قلت: لم؟ قال: لأن كل شيء أمر به فقد رضي به. قلت: يعذب الله العباد على ما يرضى أو على ما لا يرضى؟ قال: يعذبهم الله على ما لا يرضى لأنه يعذبهم على الكفر والمعاصي ولا يرضى بها. قلت: فيعذبهم على ما يشاء أو على ما لا يشاء؟ قال: بل يعذبهم على ما يشاء لهم، لأنه يعذبهم على الكفر والمعاصي وشاء للكافر وللمعاصي المعصية. قلت: هل أمرهم بالإسلام ثم شاء لهم الكفر؟ قال: نعم. قلت: سبقت مشيئته أمره أو سبق أمره مشيئته؟ قال: سبقت مشيئته أمره، قلت: فمشيئة الله رضا له أم لا؟ قال: هو الله رضا ممن عمل بمشيئته وبرضاه وطاعته فيما أمر به ومن عمل خلاف ما أمر به فقد عمل بمشيئته ولم يعمل برضاه لكن عمل بمعصيته، ومعصيته غير

رضاء. قلت: يعذب العباد على ما يرضى؟ قال: يعذبهم على ما لا يرضى من الكفر ولكن يرضى أن يعذبهم ويستقم منهم بتركهم الطاعة وأخذهم بالمعصية. قلت: شاء الله للمؤمنين الكفر؟ قال: لا. ولكن شاء للمؤمنين الإيمان، كما شاء للكافرين الكفر وكما شاء لأصحاب الزنى الزنى وكما شاء لأصحاب السرقة السرقة وكما شاء لأصحاب العلم العلم وكما شاء لأصحاب الخير الخير، لأن الله تعالى شاء للكفار قبل أن يخلقهم أن يكونوا كفاراً ضالاً^(١). قلت: يعذب الله الكفار على ما يرضى أن يخلق أم على ما لا يرضى أن يخلق؟ قال: بل يعذبهم على ما يرضى أن يخلق. قلت: لم؟ قال: لأنه يعذبهم على الكفر ورضي أن يخلق الكفر، ولم يرض الكفر بعينه. قلت: قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِبِأَوِّ الْكَفْرِ﴾ [الزمر: ٧] فكيف يرضى أن يخلق الكفر؟ قال: يشاء لهم ولا يرضى به. قلت: لم؟ قال: لأنه خلق إبليس فرضي أن يخلق إبليس ولم يرض نفس إبليس، وكذلك الخمر والخنازير فرضي أن يخلقهن ولم يرض أنفسهن. قلت: لم؟ قال: لأنه لو رضي الخمر بعينها لكان من شربها قد شرب ما رضي الله، ولكنه لا يرضى الخمر ولا الكفر ولا إبليس ولا أفعاله ولكنه رضي محمداً ﷺ. قلت: رأيت اليهود حيث قالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ خَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤] أرضي الله لهم أن يقولوا ذلك؟ قال: لا.



باب آخر في المشيئة

إذا قيل له: رأيت لو شاء الله أن يخلق الخلق كلهم مطيعين مثل الملائكة هل كان قادراً؟ فإن قال لا فقد وصف الله تعالى بغير ما وصف به نفسه، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَائِرُ قَرَقًّ عِبَادُ﴾ [الأنعام: ١٨] وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْقَائِرُ عَلَى أَنْ يَمُتَ عَلَيْكُمْ حَذَابًا بَيْنَ يَدَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]. فإن قال: هو قادر، فقل رأيت لو شاء الله أن يكون إبليس مثل جبريل في الطاعة أما كان قادراً؟ فإن قال: لا، فقد ترك قوله ووصف الله تعالى بغير صفته، فإن قال: لو أنه زنى أو شرب أو قذف أليس هو بمشيئة الله؟ قيل: نعم. فإن قال: فلم تجري عليه الحدود؟ قيل: لا يترك ما أمر الله به لأنه لو قطع غلامه كان بمشيئة الله وذمه الناس، ولو أعتقه حمدوه عليه، وكلاهما وجدا

(١) ومشيئة الله في الأزل خلق الكفر والضلال لهم في المستقبل إنما هي من جهة أن العبد يختار ذلك فيخلقه الخالق على جاري عادته الحكمة، فليس في الأمر شمة الجبر. (ز).

بمشيئة الله تعالى، وقد عمل بمشيئة الله تعالى لكن من عمل بمشيئة المعصية فإنه ليس بها رضا ولا عدل في فعله^(١)، وقوله: فلم تجري عليه الحدود؟ سؤال فاسد على أصلهم، لأنهم لا يشنون مشيئة الله تعالى في كثير من المعاصي فلا تلزمه الحدود إلا على فعله مثل شرب الخمر، وقد فعلها جميعاً بمشيئة الله تعالى.

باب الرد على من يكفر بالذنب

قلت: أرايت لو أن رجلاً قال: من أذنب ذنباً فهو كافر. ما النقض عليه؟ فقال: يقال له: قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا إِذْ ذَهَبَ مُنْجِبًا فَقُلْنَا لَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَكُنَّ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فهو ظالم مؤمن وليس بكافر ولا منافق. وإخوة يوسف قالوا: ﴿يَتَأْتِيَكَ أَنْتَ غَدَوَاتُكَ أَرْبَا بَعَشْرَ مِائَةً﴾ [يوسف: ٩٧] وكانوا مدنيين لا كافرين وقال الله تعالى لمحمد عليه الصلاة والسلام: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] ولم يقل من كفر. وموسى حين قتل الرجل كان في قتله مذنباً لا كافراً. قال: وإذا قال: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى يقال له: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُمِيزُونَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فإن كنت مؤمناً فصل عليه وإن كنت غير مؤمن فلا تصل عليه. وقال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا مَاتُوا﴾ [الأنبياء: ٩] الآية. قال معاذ رضي الله عنه: من شك في الله فإن ذلك يبطل جميع حسناته ومن آمن وتعاطى المعاصي يرجى له المغفرة ويخاف عليه العقوبة. قال السائل لمعاذ رضي الله عنه: إذا كان الشك يهدم الحسنات فإن الإيمان أهدم وأهدم للسينات^(٢).

قال معاذ رضي الله عنه: والله ما رأيت رجلاً أعجب من هذا الرجل يسأل أمسلم أنت؟ فيقول: لا أدري. فيقال له: قولك لا أدري أعدل أم جور؟ فإن قال

(١) لأن تعلق مشيئة الخالق بخلق معصية العبد عند إرادة العبد فعلها باختياره، فلا يرى ذلك التعلق العبد من المسؤولية، وقد جرت حكمة الحكيم الخبير على خلق ما اختاره العبد من الأفعال التي تحت استطاعته تحقيقاً لمسؤوليته فمن أراد الهداية واستهداه يهديه، وفي الحديث القدسي: «كلكم ضال إلا من هدته فاستهدوني أهدكم». (ز).

(٢) يعني ما سبق من السينات لأن الإسلام يجب ما قبله، راجع حديث معاذ السابق (ز).

عدل فقل: أرايت ما كان في الدنيا عدلاً أليس في الآخرة عدلاً؟ فإن قال: نعم، فقل: أنؤمن بعدذاب القبر ومنكر ونكير وبالقدر خبره وشره من الله تعالى؟ فإن قال: نعم، فقل له: أؤمن أنت؟ فإن قال: لا أدري. فقل له: لا دريت ولا فهمت ولا أفلمحت. قلت: ومن قال: إن الجنة والنار ليستا بمخلوقتين. فقل له: هما شيء أو ليستا بشيء. وقد قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ كُنَّا كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٠٢] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القصص: ٤٩] وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْمِزُونَ عَلَيْهَا ظُهُورَهُمْ غَافِرِينَ﴾ [غافر: ٤٦]. فإن قال: إنهما تفتيان. فقل له: وصف الله نعيمها بقوله: ﴿لَا مَقْطُوعَ وَلَا مَمْنُوعَ﴾ [الواقعة: ٣٣] ومن قال: هما تفتيان بعد دخول أهلها فقل: فهما فقد كفر بالله تعالى لأنه أنكر الخلود فيهما.

قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: لا يوصف الله تعالى بصفات المخلوقين، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف وهو قول أهل السنة والجماعة، وهو يغضب ويرضى ولا يقال غضبه عقوبته ورضاه ثوابه، ونصفه كما وصف نفسه، أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد حي قيوم قادر سميع بصير عالم. يد الله فوق أيديهم ليست كأيدي خلقه وليست بجارحة، وهو خالق الأيدي، ووجهه ليس كوجوه خلقه. وهو خالق كل الوجوه، ونفسه ليس كنفس خلقه، وهو خالق النفوس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] قلت: أرايت لو قيل: أين الله تعالى؟ فقال: يقال له كان الله تعالى ولا مكان قبل أن يخلق الخلق، وكان الله تعالى ولم يكن أين ولا خلق ولا شيء، وهو خالق كل شيء. فإن قيل: بأي شيء شاء الشائي المشيء؟ فقل بالصفة، وهو قادر يقدر بالقدره وعالم يعلم بالعلم ومالك يملك بالملك. فإن قيل: أشاء بالمشيئة، وقدر بالمشيئة وشاء بالعلم؟ فقل: نعم^(١).



باب في الإيمان

فإن قيل: أين مستقر الإيمان؟ يقال معدنه ومستقره القلب، وفرعه في الجسد، فإن قيل: هو في أصبعك؟ فقل: نعم. فإن قيل: فإن قطعت أين يذهب الإيمان

(١) فتكون المشيئة تابعة للعلم والعلم تابع للمعلوم فلا يكون العبد مجبوراً في فعله الاختياري (ز).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص: ٣٤] والله أعلم^(١).

تم الفقه الأبيسط لأبي حنيفة رحمه الله

(١) هنا انتهى الكتاب في الأصول التي اطلعنا عليها، وشذت النسخة السعيدية بالهند على ما نقله مولانا العلامة المحقق أبو الوفاء رئيس جمعية إحياء المعارف التعمانية في حيدرآباد الدكن، وفيها زيادة: (قال أبو مطيع رحمه الله: سألت أبا حنيفة رحمه الله عليه أليس الله تعالى عدلاً حكيماً في أفعاله بخلقه؟ فقال: بلى، قلت: قد خلق واحداً أعشى، وآخر مقعداً، وآخر غنياً، وآخر فقيراً، وآخر أحمق، وآخر عاقلاً، وآخر أخرس. قال: هذا بفضل منه لبعضهم دون بعض. لأنه لم يجب عليه ذلك، فأعطى بعضاً، ومنع بعضاً، فهو كمن له عبيد، فأعطى واحداً ومنع آخر)، ولا نطعن إلى هذه الزيادة لعلها مما وجد لأبي مطيع في كتاب له آخر فزادها هنا من زاد، على أن ذلك خوض في سر القدر. وهذا ما لا يباح لأحد من البشر. وبعد ذلك زيادة أخرى وهي: (حدثنا علي بن أحمد قال: حدثنا إبراهيم بن حمدويه. قال: حدثنا يوسف بن أبان عن ليث بن خزيمة عن قتادة عن عمر رضي الله عنه قال: أيا رجل لا يتلى في جسده أربعين يوماً فليس فيه لله حاجة. وقال مقاتل بن سليمان من أصل الإيمان الذي جاء في القرآن قوله: ﴿وَلِكُلِّ أَلَمٍ مَّرٌّ مَائِدَةٌ وَأَقْبَهُ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي صلق بتوحيد **﴿وَأَقْبَهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْكُتْبُ وَالشُّبُهَاتُ﴾** [البقرة: ١٧٧] أي ذلك كله حق. وهي مما زاد مالك النسخة على الأصل كفاية من عنده، والسند لأصله لا أصلاً لا بأبي مطيع ولا بأبي حنيفة، وفيه رجال مجاهيل، وكتادة لم يدرك أحداً من الراشدين، ومقاتل ممن لا يروى عنه في مثل هذا الكتاب، فالمزيد يتبادي أنه مدرج لا صلة له بالكتاب والاعتماد على سائر الأصول. وسند شيخ الإسلام مصطفى عاشر المتوفى سنة ١٢١٩هـ في الفقه الأبيسط عن الحسين بن محمد بن الحسن الميمى البصري عن أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكوراني عن أبيه عن خير الدين الرملي عن محمد بن السراج عمر الحانوتي عن أبيه عن المحب محمد بن جرياش عن أبي الخير محمد بن محمد الرومي عن أبي الفتح محمد بن محمد الحريري عن أبيه القوام الأتقاني عن الحسين السنفافي عن محمد بن محمد بن نصر البخاري عن شمس الأئمة الكردي عن صاحب الهداية عن الفيض البيروخي عن العلاء السمرقندي عن أبي المعين النسفي عن الحسين بن علي الكاشغري عن نصران بن نصر الختلي عن علي بن الحسن بن محمد الغزال عن علي بن أحمد الفارسي عن نصير بن يحيى عن أبي مطيع عن أبي حنيفة رضي الله عنهم أجمعين. والاعتماد على رواية أصحابنا كما سبق. وسند شيخ الإسلام المذكور في العالم والمتمم إلى أبي المعين بن محمد النسفي بهذا السند عن أبيه عن عبد الكريم بن موسى البردوي عن أبي منصور الماتريدي عن أحمد بن إسحاق الجوزجاني عن أبي سليمان الجوزجاني وعن محمد بن مقاتل الرازي كلاهما عن أبي مطيع وعصام بن يوسف كلاهما عن أبي مقاتل عن أبي حنيفة رضي الله عنهم. وسند في الفقه الأكبر رواية حماد بن أبي حنيفة بالسند إلى نصير بن يحيى عن محمد بن مقاتل عن عصام بن يوسف عن حماد بن أبي حنيفة عن أبيه رضي الله عنهم.

- راجع (٢٢٦) من مكتبة شيخ الإسلام في المدينة المنورة زادها الله تشريفاً (ز).

الفقه الأكبر للإمام أبي حنيفة

تحقيقه
الإمام العلامة الشيخ محمد زاهد بن حسنة بن علي الكوثري
المتوفى ١٣٧١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أصل التوحيد وما يصح الاعتقاد عليه: يجب أن يقول آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، والقدر خيره وشره من الله تعالى، والحساب والميزان والجنة والنار حق كله.

والله تعالى واحد لا من طريق العدد ولكن من طريق أنه لا شريك له: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

لا يشبه شيئاً من الأشياء من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه، لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته الذاتية والفعلية. أما الذاتية: فالحياة والقدرة والعلم والكلام والسمع والبصر والإرادة. وأما الفعلية: فالتخليق والترزيق والإنشاء والإبداع والصنع وغير ذلك من صفات الفعل.

لم يزل ولا يزال بأسمائه وصفاته لم يحدث له اسم ولا صفة، لم يزل عالماً بعلمه والعلم صفة في الأزل، وقادراً بقدوته، والقدرة صفة في الأزل، ومتكلماً بكلامه، والكلام صفة في الأزل، وخالق بتخليقه، والتخليق صفة في الأزل، وفاعلاً بفعله. والفعل صفة في الأزل، والفاعل هو الله تعالى، والفعل صفة في الأزل، والمفعول مخلوق، وفعل الله تعالى غير مخلوق. وصفاته في الأزل غير محدثة ولا مخلوقة، فمن قال إنها مخلوقة أو محدثة، أو وقف أو شك فيها فهو كافر بالله تعالى.

والقرآن كلام الله تعالى، في المصاحف مكتوب، وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي عليه الصلاة والسلام منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق، وكتابتنا له مخلوقة، وقراءتنا له مخلوقة، والقرآن غير مخلوق.

وما ذكر الله تعالى في القرآن حكاية عن موسى وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعن فرعون وإبليس فإن ذلك كله كلام الله تعالى، إخباراً عنهم، وكلام الله تعالى غير مخلوق، وكلام موسى وغيره من المخلوقين مخلوق، والقرآن كلام الله تعالى فهو قديم لا كلامهم.

وسمع موسى عليه السلام كلام الله تعالى كما قال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. وقد كان الله تعالى متكلماً ولم يكن كلم موسى عليه السلام، وقد كان الله تعالى خالقاً في الأزل ولم يخلق الخلق، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فلما كلم الله موسى كلمه بكلامه الذي هو له صفة في الأزل، وصفاته كلها بخلاف صفات المخلوقين، يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، ويسمع لا كسمعنا، ويتكلم لا ككلامنا.

ونحن نتكلم بالآلات والحروف، والله تعالى يتكلم بلا آلة ولا حروف، والحروف مخلوقة وكلام الله تعالى غير مخلوق.

وهو شيء لا كالأشياء، ومعنى الشيء إثباته بلا جسم ولا جوهر ولا عرض، ولا حد له ولا ضد له ولا ند له ولا مثل له.

وله يد ووجه ونفس كما ذكره الله تعالى في القرآن، فما ذكر الله تعالى في القرآن من ذكر الوجه واليد والنفس فهو له صفات بلا كيف.

ولا يقال إن يده قدرته أو نعمته، لأن فيه إبطال الصفة، وهو قول أهل القدر والاعتزال ولكن يده صفة بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته تعالى بلا كيف.

خلق الله تعالى الأشياء لا من شيء، وكان الله تعالى عالماً في الأزل بالأشياء قبل كونها، وهو الذي قدر الأشياء وقضاها، ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء إلا بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره وكتبه في اللوح المحفوظ، ولكن كتبه بالوصف لا بالحكم.

والقضاء والقدر والمشيئة صفاته في الأزل بلا كيف، يعلم الله تعالى المعدوم في حال عدمه معدوماً، ويعلم أنه كيف يكون إذا أوجده، ويعلم الله تعالى الموجود في حال وجوده موجوداً، ويعلم أنه كيف يكون فناؤه، ويعلم الله تعالى القائم في حال قيامه قائماً وإذا قعد علمه قاعداً في حال قعوده من غير أن يتغير علمه أو يحدث له علم، ولكن التغير والاختلاف يحدث في المخلوقين.

خلق الله تعالى الخلق سليماً من الكفر والإيمان، ثم خاطبهم وأمرهم ونهاهم، فكفر من كفر بفعله وإنكاره وجحوده الحق بخذلان الله تعالى إياه، وآمن من آمن بفعله وإقراره وتصديقه بتوفيق الله تعالى إياه ونصرته له.

وأخرج ذرية آدم من صلبه على صور الذر فجعلهم عقلاء، فخطبهم وأمرهم بالإيمان ونهاهم عن الكفر، فأقروا له بالربوبية، فكان ذلك منهم إيماناً، فهم يولدون على تلك الفطرة، ومن كفر بعد ذلك فقد بذل وغير، ومن آمن وصدق فقد ثبت عليه وداوم.

ولم يجبر أحداً من خلقه على الكفر ولا على الإيمان، ولا خلقهم مؤمناً ولا كافراً، ولكن خلقهم أشخاصاً. والإيمان والكفر فعل العباد، ويعلم الله تعالى من يكفر في حال كفره كافراً. فإذا آمن بعد ذلك علمه مؤمناً في حال إيمانه وأحبه من غير أن يتغير علمه وصفته.

وجميع أفعال العباد من الحركة والسكون كسبهم على الحقيقة، والله تعالى خالقها، وهي كلها بمشيئته وعلمه وقضائه وقدره.

والطاعة كلها كانت واجبة بأمر الله تعالى وبمحبه وبرضائه وعلمه ومشيتته وقضائه وتقديره والمعاصي كلها بعلمه وقضائه وتقديره ومشيتته، لا بمحبه ولا برضائه ولا بأمره.

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام كلهم منزّهون عن الصفات والكبائر والكفر والقبائح، وقد كانت منهم زلات وخطايا. ومحمد عليه الصلاة والسلام حبيبه وعبد ورسوله ونبيه وصفيه ونقيه، ولم يعبد الصنم، ولم يشرك بالله تعالى طرفة عين قط، ولم يرتكب صغيرة ولا كبيرة قط.

وأفضل الناس بعد النبيين عليهم الصلاة والسلام أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب القاروق، ثم عثمان بن عفان ذو النورين، ثم علي بن أبي طالب المرتضى رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، عابدين ثابتين على الحق ومع الحق كما كانوا نتولاهم جميعاً.

ولا نذكر أحداً من أصحاب رسول الله إلا بخير.

ولا تكفر مسلماً بذنب من الذنوب وإن كانت كبيرة، إذا لم يستحلها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان، ونسميه مؤمناً حقيقة، ويجوز أن يموت مؤمناً فاسقاً غير كافر، والمسح على الخفين ستة، والتراويح في ليالي شهر رمضان ستة.

والصلاة خلف كل بر وفاجر من المؤمنين جائزة.

ولا نقول إن المؤمن لا تضره الذنوب، ولا نقول إنه لا يدخل النار، ولا نقول إنه يخلد فيها وإن كان فاسقاً، بعد أن يخرج من الدنيا مؤمناً.

ولا نقول إن حسناتنا مقبولة وسيئاتنا مغفورة كقول المرجئة، ولكن نقول من عمل حسنة بجميع شرائطها خالية عن العيوب المفسدة والمعاني المبطللة ولم يبطلها بالكفر والردة حتى خرج من الدنيا مؤمناً، فإن الله تعالى لا يضعها بل يقبلها منه ويثيب عليها.

وما كان من السيئات دون الشرك والكفر ولم يتب عنها صاحبها حتى مات مؤمناً فإنه في مشيئة الله تعالى، إن شاء عذبه بالنار، وإن شاء عفا عنه ولم يعذبه بالنار أصلاً.

والرباء إذا وقع في عمل من الأعمال فإنه يبطل أجره، وكذلك العجب.

والآيات ثابتة للأنبياء، والكرامات للأولياء حق. وأما التي تكون لأعدائه مثل إبليس وفرعون والدجال مما روي في الأخبار، أنه كان ويكون لهم، لا نسميها آيات ولا كرامات، ولكن نسميها قضاء حاجات لهم. وذلك لأن الله تعالى يقضي حاجات أعدائه استدراجاً لهم وعقوبة لهم، فيفترون به ويزدادون طغياناً وكفراً، وذلك كله جائز وممكن.

وكان الله تعالى خالقاً قبل أن يخلق ورازقاً قبل أن يرزق.

والله تعالى يرى في الآخرة ويراه المؤمنون وهم في الجنة بأعين رؤوسهم، بلا تشبيه ولا كيفية، ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة.

والإيمان هو الإقرار والتصديق.

وإيمان أهل السماء والأرض لا يزيد ولا ينقص من جهة المؤمن به، ويزيد وينقص من جهة اليقين والتصديق.

والمؤمنون مستوون في الإيمان والترحيد، متفاضلون في الأعمال.

والإسلام هو التسليم والانقياد لأوامر الله تعالى، فمن طريق اللغة فرق بين الإيمان والإسلام، ولكن لا يكون إيمان بلا إسلام، ولا يوجد إسلام بلا إيمان، وهما كالظهر مع البطن.

والدين اسم واقع على الإيمان والإسلام والشرائع كلها.

نعرف الله تعالى حق معرفته كما وصف الله نفسه في كتابه بجميع صفاته، وليس يقدر أحد أن يعبد الله تعالى حق عبادته كما هو أهل له، ولكنه يعبد به بأمره كما أمر بكتابه وسنة رسوله. ويستوي المؤمنون كلهم في المعرفة واليقين والتوكل والمحبة والخوف والرجاء والإيمان، ويتفاوتون فيما دون الإيمان في ذلك كله.

والله تعالى متفضل على عباده، عادل، قد يعطي من الثواب أضعاف ما يستوجبه العبد تفضلاً منه، وقد يعاقب على الذنب عدلاً منه، وقد يعفو فضلاً منه.

وشفاعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حق، وشفاعة نبينا عليه الصلاة والسلام للمؤمنين المذنبين ولأهل الكبائر منهم المستوجبين العقاب حق ثابت.

ووزن الأعمال بالميزان يوم القيامة حق، وحوض النبي عليه الصلاة والسلام حق، والقصاص فيما بين الخصوم بالحسنات يوم القيامة حق، وإن لم تكن لهم الحسنات فطرح السيئات عليهم حق جائز.

والجنة والنار مخلوقتان اليوم، لا تفتيان أبداً، ولا تموت الحور العين أبداً، ولا ينفى عقاب الله تعالى وثوابه سرمداً.

والله تعالى يهدي من يشاء فضلاً منه، ويضل من يشاء عدلاً منه، وإضلاله خذلانه، وتفسير الخذلان: أن لا يوفق العبد إلى ما يرضاه منه، وهو عدل منه، وكذا عقوبة المخذول على المعصية.

ولا يجوز أن نقول إن الشيطان يسلب الإيمان من العبد المؤمن قهراً وجبراً ولكن نقول العبد يدع الإيمان فيحسب يسلبه منه الشيطان.

وسؤال منكر ونكير حق كائن في القبر، وإعادة الروح إلى جسد العبد في قبره حق، وضغطة القبر وعذابه حق كائن للكفار كلهم ولبعض عصاة المؤمنين.

وكل شيء ذكره العلماء بالفارسية من صفات الله تعالى عز اسمه فجائز القول به. سوى اليد بالفارسية. ويجوز أن يقال «بروى خدای» عز وجل بلا تشبيه ولا كيفية.

وليس قرب الله تعالى ولا بُعده من طريق طول المسافة وقصرها، ولكن على معنى الكرامة والهوان.

والمطيع قريب منه بلا كيف، والعاصي بعيد عنه بلا كيف، والقرب والبعد والإقبال يقع على المناجي.

وكذلك جواره في الجنة والوقوف بين يديه بلا كيفية.

والقرآن منزل على رسول الله ﷺ وهو في المصاحف مكتوب، وآيات القرآن في معنى الكلام كلها مستوية في الفضيلة والعظمة إلا أن لبعضها فضيلة الذكر وفضيلة المذكور، مثل آية الكرسي لأن المذكور فيها جلال الله تعالى وعظمته وصفاته،

فاجتمعت فيها فضيلتان: فضيلة الذكر وفضيلة المذكور، ولبعضها فضيلة الذكر فحسب مثل قصة الكفار وليس للمذكور فيها فضل وهم الكفار، وكذلك الأسماء والصفات كلها مستوية في العظمة والفضل لا تفاوت بينهما.

وقاسم وظاهر وإبراهيم كانوا بني رسول الله ﷺ، وفاطمة ورقية وزينب وأم كلثوم كن جميعاً بنات رسول الله ﷺ ورضي عنهن.

وإذا أشكل على الإنسان شيء من دقائق علم التوحيد فإنه ينبغي له أن يعتقد في الحال ما هو الصواب عند الله تعالى إلى أن يجد عالماً فيسأله، ولا يسعه تأخير الطلب ولا يعذر بالوقف فيه ويكفر إن وقف.

وخبر المعراج حق ومن رده فهو مبتدع ضال، وخروج الدجال ومأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى عليه السلام من السماء، وسائر علامات يوم القيامة على ما وردت به الأخبار الصحيحة حق كائن، والله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.



رسالة أبي حنيفة إلى عثمان البتي

تمحيه
الامام العلامة الشيخ محمد زاهد بن حسن بن علي الكوتري
المتوفى ١٣٧١ هـ

في التبري مما يرمى به من الإرجاء كذباً وزوراً من جهلة أغرار

قال ابن قتيبة في المعارف: عثمان البتي - بفتح فتشديد - هو: عثمان بن سليمان بن جرموز، وكان من أهل الكوفة فانتقل إلى البصرة، وهو مولى لبني زهرة وكان يبيع البتوت فنسب إليها اهـ. وهي الثياب الغليظة. وقال الذهبي في الميزان: عثمان البتي الفقيه هو ابن مسلم ثقة إمام وقيل اسم أبيه أسلم وقيل سليمان اهـ. وفي المشتبّه: فقيه البصرة. زمن أبي حنيفة اهـ. توفي بالبصرة قبل وفاة أبي حنيفة بسبع سنوات، وبينهما مكاتبات لم يحفظ لنا التاريخ شيئاً منها غير هذه الرسالة، وكان من عظماء مجتهدي هذه الأمة، وممن انقضت مذاهبهم، وله انفرادات في الفقه ذكرها الطحاوي في (اختلاف العلماء) وأبو بكر الرازي في مختصره وابن المنذر في الأشراف لكن أهملها ابن جرير في اختلاف الفقهاء له، رضي الله عنه وعن سائر الأئمة ونفعنا ببركات علومهم (ز).



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، روى الإمام حسام الدين الحسين بن علي الحجاج السنفاقي، عن حافظ الدين محمد بن محمد بن نصر البخاري، عن شمس الأئمة محمد بن عبد الستار الكردي، عن برهان الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر بن عبد الجليل المرفياني عن ضياء الدين محمد بن الحسين بن ناصر اليرسوقي، عن علاء الدين أبي بكر محمد بن أحمد السمرقندي، عن أبي المعين ميمون بن محمد المكحولي النسفي، عن أبي زكريا يحيى بن مطرف البلخي، عن أبي صالح محمد بن الحسين السمرقندي عن أبي سعيد محمد بن أبي بكر البستي، عن أبي الحسن علي بن أحمد الفارسي عن نصير بن يحيى الفقيه، عن أبي عبد الله محمد بن سماعة التميمي، عن الإمام أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، عن الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه وعنهم أنه قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من أبي حنيفة إلى عثمان النبي: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله وطاعته وكفى بالله حسيباً وجازياً بلغني كتابك، وفهمت الذي فيه من نصيحتك، وقد كتب أنه دعاك إلى الكتاب بما كتبت حرصك على الخير والنصيحة، وعلى ذلك كان موضعه عندنا، كتبت تذكر أنه بلغك أنني من المرجئة^(١) وأني أقول: مؤمن ضال. وأن ذلك يشق عليك ولعمري ما في شيء باعد عن الله تعالى عذر لأهله، ولا فيما أحدث الناس وابتدعوا أمر يهتدى به،

(١) وقد عذّ المقيلي من غلطات الخواص جعل المرجيء اسماً لمن قال: إن صاحب الكبيرة إذا لم يتب تحت المشيئة، وصرف أحاديث ذم المرجئة إلى ذلك وإنما هم من قال: لا وعيد لأهل الصلاة فأخروهم عن الوعيد رأساً، وأما الدخول تحت المشيئة فصريح الكتاب والسنة لفظاً ومعلوماً تواتراً. ذكر ذلك في (الأبحاث) فيكون إرجاء أبي حنيفة محض السنة، ونيزه به على المعنى البدعي.

لله أن تفهم هذا، وأنت بالقرآن عالم. واعلم أن الأمر لو كان كما كتبت به إلينا أن الناس كانوا أهل تصديق قبل الفرائض ثم جاءت الفرائض، لكان ينبغي لأهل التصديق أن يستحقوا (اسم) التصديق بالعمل حين كلفوا به، ولم تفسر لي ما هم وما دينهم وما مستقرهم عندك (قبل ذلك)؟ إذا هم لم يستحقوا الاسم إلا بالعمل حين كلفوا فإن زعمت أنهم مؤمنون تجري عليهم أحكام المسلمين وحرمتهم صدقت. وكان صواباً. لما كتبت به إليك. وإن زعمت أنهم كفار فقد ابتدعت وخالفت النبي والقرآن. وإن قلت بقول من تعنت من أهل البدع وزعمت أنه ليس بكافر ولا مؤمن فاعلم أن هذا القول بدعة وخلاف للنبي ﷺ وأصحابه. وقد سمي علي رضي الله عنه أمير المؤمنين وعمر رضي الله عنه أمير المؤمنين. أو أمير المطيعين في الفرائض كلها يعنون؟ وقد سمي علي أهل حربه من أهل الشام مؤمنين في كتاب القضية. أو كانوا مهتدين وهو يقتلهم؟ وقد اقتتل أصحاب رسول الله ﷺ، ولم تكن الفئتان مهتدين جميعاً، فما اسم الباغية عندك؟ فوالله ما أعلم من ذنوب أهل القبلة ذنباً أعظم من القتل ثم دعاء أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام خاصة. فما اسم الفريقين عندك؟ وليسا مهتدين جميعاً فإن زعمت أنهما مهتدان جميعاً ابتدعت. وإن زعمت أنهما ضالان جميعاً ابتدعت وإن قلت أن أحدهما مهتد فما الآخر؟ فإن قلت الله أعلم أصبت. تفهم هذا الذي كتبت به إليك.

واعلم أنني أقول: أهل القبلة مؤمنون لست أخرجهم من الإيمان بتضييع شيء من الفرائض. فمن أطاع الله تعالى في الفرائض كلها مع الإيمان كان من أهل الجنة عندنا، ومن ترك الإيمان والعمل كان كافراً من أهل النار، ومن أصاب الإيمان وضيع شيئاً من الفرائض كان مؤمناً مذنباً، وكان لله تعالى فيه المشيئة إن شاء عذبه وإن شاء غفر له، فإن عذبه على تضييعه شيئاً فعلى ذنب يعذبه، وإن غفر له فذنباً يغفر. وإني أقول فيما مضى من اختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فيما كان بينهم، الله أعلم. ولا أظن هذا إلا وأبك في أهل القبلة لأنه أمر أصحاب رسول الله ﷺ وأمر (حملة) السنة والفقه. زعم^(١) أخوك عطاء بن أبي رباح ونحن نصف له هذا: أن هذا أمر أصحاب رسول الله ﷺ. وزعم أخوك نافع هذا وأنه فاروق (ابن عمر) على هذا. وزعم سالم عن سعيد بن جبير، هذا أمر أصحاب محمد ﷺ. وزعم أخوك نافع أن هذا أمر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وزعم ذلك أيضاً عبد الكريم عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن هذا أمره. وقد بلغني عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه حين كتب القضية أنه يسمي

(١) والزعم هنا بمعنى القول الحق بقريئة المقام. وهو من الأضداد فيعين المقام المراد. فكل هؤلاء لا يرون نفي الإيمان عن مرتكب الكبيرة (ز).

الطائفتين مؤمنين جميعاً. وزعم ذلك أيضاً عمر بن عبد العزيز كما رواه من لقيني من إخوانك فيما بلغني عنك. ثم قال: ضعوا لي في هذا كتاباً ثم أنشأ يعلمه ولده. ويأمرهم بتعليمه. علمه جلساؤك رحمك الله تعالى.

فكان بإمكان من المسلمين. واعلم أن أفضل ما علمتم وما تعلمون الناس السنة وأنت ينبغي لك أن تعرف أهلها الذين ينبغي أن يتعلموها.

وأما ما ذكرت من اسم المرجئة^(١) فما ذنب قوم تكلموا يعدل وسماهم أهل البدع بهذا الاسم؟ ولكنهم أهل العدل وأهل السنة، وإنما هذا اسم سماهم به أهل شأن، ولعمري ما يهجن عدلاً لو دعوت إليه الناس فوافقوك عليه أن سميتهم أهل شأن البتة، فلو فعلوا ذلك كان هذا الاسم بدعة، فهل يهجن ذلك ما أخذت به من أهل العدل، ثم إنه لولا كراهية التطويل وأن يكثر التفسير لشرحت لك الأمور التي أجتك بها فيما كتبت به، ثم إن أشكل عليك شيء أو أدخل عليك أهل البدع شيئاً فأعلمني أجبك فيه إن شاء الله تعالى، ثم لا ألوك ونفسي خيراً والله المستعان. لا تدع الكتاب إلا بسلامك وحاجتك، رزقنا الله منقلباً كريماً وحياء طيبة، وسلام الله عليك ورحمة الله وبركاته والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثم

(١) وعد من جعل مرتكب الكبيرة تحت مشيئة الله إن شاء عفا عنه وإن شاء هدبه بها من أهل الضلال لا يكون إلا من المعتزلة أو الخوارج أو ممن ساء سيرهم وهو غير شاعر وقد روى ابن أبي العوام الحافظ عن إبراهيم بن أحمد بن سهل الترمذي عن القاسم بن غسان المروزي القاضي عن أبيه عن محمد بن يعلى زنيور عن أبي حنيفة (ج) قال إبراهيم ثنا عبد الواحد بن أحمد الرازي بمكة ثنا موسى بن سهل الرازي أثباتنا بشار بن قيراط عن أبي حنيفة، دخلت أنا وعلقمة بن مرثد على عطاء بن أبي رباح فقلنا له يا أبا محمد إن بلادنا قوماً يكرهون أن يقولوا إنا مؤمنون ثم قالوا: قال عطاء: ولم ذلك؟ قال: يقولون إن قلنا نحن مؤمنون قلنا نحن من أهل الجنة فقال عطاء فليقولوا نحن مؤمنون ولا يقولون نحن من أهل الجنة فإنه ليس من ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا والله عز وجل عليه الحجة إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ثم قال عطاء: يا علقمة إن أصحابك كانوا يسمون أهل الجماعة حتى كان نافع بن الأزرق فهو الذي سماهم المرجئة. قال القاسم: قال أبي: وإنما سماهم المرجئة فيما بلغنا أنه كلم رجلاً من أهل السنة فقال له: أين تُنزل الكفار في الآخرة؟ قال: النار. قال: فأين تُنزل المؤمنين؟ قال: المؤمنون على ضربين: مؤمن برقي فهو في الجنة. ومؤمن فاجر ودي. فأمره إلى الله عز وجل إن شاء عذبه بذنوبه وإن شاء غفر له بإيمانه. قال: فأين تنزله؟ قال: لا أنزله ولكني أرجى. أمره إلى الله عز وجل. فقال: فأنت مرجيء. اهـ. فمن سمي أهل السنة بالمرجئة فقد نابع نافع بن الأزرق الخارجي الذي يرى تخليد مرتكب الكبيرة في النار (ز).

وَصِيَّةُ الْأَئِمَّامِ أَبِي حَنِيْفَةٍ فِي التَّوْحِيدِ

تَحْقِيقُهُ
الْأَمَامُ الْعَلَمَاءَةُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ زَاهِدُ بْنُ حَسَنِهِ بْنِ عَلِيٍّ الْكُوثَرِيُّ
الْمُتَوَفَّى ١٣٧١ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى: الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالجنان والإقرار وحده لا يكون إيماناً لأنه لو كان إيماناً لكان المنافقون كلهم مؤمنين وكذلك المعرفة وحدها لا تكون إيماناً لأنها لو كانت إيماناً لكان أهل الكتاب كلهم مؤمنين. قال الله تعالى في حق المنافقين: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وقال الله تعالى في حق أهل الكتاب: ﴿أَلَيْسَ أَتَيْنْتَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ كَمَا يَتْلُونَ آيَاتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦] والإيمان لا يزيد ولا ينقص لأنه لا يتصور نقصانه إلا بزيادة الكفر ولا يتصور زيادته إلا بنقصان الكفر وكيف يجوز أن يكون الشخص الواحد في حالة واحدة مؤمناً وكافراً والمؤمن مؤمن حقاً والكافر كافر حقاً وليس في الإيمان شك كما أنه ليس في الكفر شك لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ هُمُ السُّؤْمُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٤] و﴿أَوَلَيْكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء: ١٥١] والعاصون من أمة محمد ﷺ كلهم مؤمنون حقاً وليسوا بكافرين.

العمل غير الإيمان والإيمان غير العمل بدليل أن كثيراً من الأوقات يرتفع العمل عن المؤمن ولا يجوز أن يقال ارتفع عنه الإيمان فإن الحائض يرفع الله تعالى عنها الصلاة ولا يجوز أن يقال رفع عنها الإيمان أو أمرها بترك الإيمان وقد قال الشارع دعي الصوم ثم اقضيه ولا يجوز أن يقال دعي الإيمان ثم اقضيه ويجوز أن يقال ليس على الفقير الزكاة ولا يجوز أن يقال ليس على الفقير الإيمان.

وتقدير الخير والشر كله من الله تعالى لأنه لو زعم أحد أن تقدير الخير والشر من غيره لصار كافراً بالله تعالى ويطل توحيده.

ونقر بأن الأعمال ثلاثة: فريضة وفضيلة ومعصية. فالفريضة بأمر الله تعالى ومشيتته ومحبه ورضاه وقضائه وقدرته وتخليقه وحكمه وعلمه وتوفيقه وكتابته في اللوح المحفوظ والفضيلة ليست بأمر الله تعالى ولكن بمشيتته ومحبه ورضاه وقضائه وقدره وحكمه وعلمه وتوفيقه وكتابته في اللوح المحفوظ والفضيلة ليست بأمر الله تعالى وإلا كانت فريضة لكنها بمشيتته ومحبه ورضاه وقدره وقضائه وحكمه وعلمه وتوفيقه بإعطاء سلامة الأسباب والاستطاعة المقارنة وتخليقه أي تكوينه لأن الله خالق

أفعال العباد كما سيجيء البحث في ذلك وكتابه في اللوح المحفوظ والمعصية ليست بأمر الله تعالى ولكن بمشيئته لا بمحبته ويقضائه لا برضاه ويتقديره لا بتوقيفه وبخلافه وعلمه وكتابه في اللوح المحفوظ.

ونقر بأن الله سبحانه تعالى على العرش استوى من غير أن يكون له حاجة واستقر عليه وهو حافظ العرش وغير العرش من غير احتياج فلو كان محتاجاً لما قدر على إيجاد العالم وتديره كالمخلوقين ولو كان محتاجاً إلى الجلوس والقرار قبل خلق العرش أين كان الله؟ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ونقر بأن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق ووحيه وتنزيله لا هو ولا غيره بل هو صفته على التحقيق مكتوب في المصاحف مقروء، بالأسنة محفوظ في الصدور غير حال فيها. والحبر والكاغد والكتابة كلها مخلوقة لأنها أفعال العباد وكلام الله تعالى غير مخلوق لأن الكتابة والحروف والكلمات والآيات دلالة القرآن لحاجة العباد إليها وكلام الله تعالى قائم بذاته ومعناه مفهوم بهذه الأشياء فمن قال بأن كلام الله تعالى مخلوق فهو كافر بالله العظيم. والله تعالى معبود لا يزال عما كان وكلامه مقروء ومكتوب ومحفوظ من غير مزيلة عنه.

ونقر بأن أفضل هذه الأمة بعد نبينا محمد ﷺ أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم أجمعين، لقوله تعالى: ﴿وَالشَّيْخُونَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [١٠ - ١٢] وكل من كان أسبق فهو أفضل ويحبهم كل مؤمن تقي ويخضعهم كل منافق شقي.

ونقر بأن العبد مع أعماله وإقراره ومعرفته مخلوق فلما كان الفاعل مخلوقاً فأفعاله أولى أن تكون مخلوقة وأن الله تعالى خلق الخلق ولم يكن لهم طاقة لأنهم ضعفاء عاجزون والله تعالى خالقهم ورازقهم لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُنشِئُكُمْ ثُمَّ يُجَمِّعُكُمْ﴾ [الرؤم: ٤٠] والكسب حلال وجمع المال من الحلال حلال وجمع المال من الحرام حرام.

والناس على ثلاثة أصناف: المؤمن المخلص في إيمانه، والكافر الجاحد في كفره، والمنافق المداهن في نفاقه، والله تعالى فرض على المؤمن العمل وعلى الكافر الإيمان وعلى المنافق الإخلاص لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١] يعني يا أيها المؤمنون أطيعوا، ويا أيها الكافرون آمنوا، ويا أيها المنافقون أخلصوا.

والاستطاعة مع الفعل لا قبل الفعل ولا بعد الفعل لأنه لو كان قبل الفعل لكان العبد مستغنياً عن الله تعالى وقت الحاجة وهذا خلاف حكم النص لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ

الْقِيَّ وَأَشْرُ الْفَقْرَةِ» [محمد: ٣٨] ولو كان بعد الفعل لكان من المحال لأنه يلزم حصول الفعل بلا استطاعة ولا طاقة.

ونقر بأن المسح على الخفين واجب للمقيم يوماً وليلة وللمسافر ثلاثة أيام ولياليها لأن الحديث ورد هكذا فمن أنكره فإنه يخشى عليه الكفر لأنه قريب من الخبر المتواتر والقصر^(١) والإفطار في السفر رخصة بنص الكتاب لقوله تعالى: ﴿وَلَا مَعْزِرَةٌ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ [النساء: ١٠١] وفي الإفطار قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ونقر بأن الله تعالى أمر القلم بأن يكتب فقال القلم ماذا أكتب يا رب فقال الله تعالى اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ قَدْ قُضِيَ فِي الْكِتَابِ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

ونقر بأن عذاب القبر كائن لا محالة وسؤال منكر ونكير حق لورود الأحاديث، والجنة والنار حق وهما مخلوقتان لأهلها لقوله تعالى في حق المؤمنين: ﴿أُجِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] وفي حق الكفرة: ﴿أُجِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] خلقهما الله للثواب والعقاب، والميزان حق لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقراءة الكتب حق لقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَبِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤].

ونقر بأن الله تعالى يحيي هذه النفوس بعد الموت ويبعثهم في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة للجزاء والثواب وأداء الحقوق لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] ولقاء الله تعالى لأهل الجنة حق بلا كيفية ولا تشبيه ولا جهة. وشفاعتنا نبينا محمد ﷺ حق لكل من هو مؤمن من أهل الجنة وإن كان صاحب الكبيرة. وعائشة بعد خديجة الكبرى أفضل نساء العالمين وأم المؤمنين ومطهرة من الزنى بريئة عما قالت الروافض فيها فمن شهد عليها الزنى فهو ولد الزنى^(٢). وأهل الجنة في الجنة خالدون وأهل النار في النار خالدون لقوله تعالى في حق المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢] وفي حق الكفار: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩].

ثم

(١) أي قصر الصلاة الرباعية إلى اثنين.

(٢) بل من قال ذلك في عائشة بعد نزول القرآن ببراءتها فهو كافر خارج عن الملة بلا شك وليس ولد زنى فقط.

فهرس المحتويات

٥ الإمام الكوثري: بقلم الأستاذ الكير الشيخ محمد أبو زهرة
١٠ ترجمة الإمام الكوثري
١٥ نظرة هابرة في مزاهم من ينكر نزول عيسى قبل الآخرة
	فتوى الشيخ محمود شلتوت في وفاة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام،
١٧	ورفعه ونزوله منقولة عن كتابه «الفتاوى» ص ٥٢ - ٧٥
١٧ رفع عيسى عليه السلام
٢٢ مناقشة
٣٥ مجمل ما تضمنته فتوى الشيخ محمود شلتوت من آراء
٣٩ تقديم
٤١ أما ستموا من النزول؟ ١١٩
٤٩ العقيدة الدينية وطريق ثبوتها
٥٦ آيات في الرفع والنزول
٦٥ الة وثبوت العقيدة
٧٨ الإجماع وثبوت العقيدة
٨٩ الإنصاف
٩١ تقديم
١٣٣ فصل: وجوب الكف عن ذكر ما جرى بين الصحابة
١٤٥ فصل في الأخبار الواردة عن الفرق بين التلاوة والتملو والقراءة والمقروء ...
	فصل في بيان الأدلة الدالة على أن الحروف والأصوات هي من صفات
١٤٨ قراءة الفاريء لا أنها من كلام الباري
	فصل: قراءة القرآن تارة توصف بالصحة والحسن وتارة توصف بالفساد
١٦٠ والقبح، لأنها من أفعال العباد

- ١٦٨ فصل في بيان أن الفعل يضاف إلى الأمر به وإن لم يفعله
- ١٦٨ فصل في بيان أن الله تعالى قد فصل بين القراءة والمقروء
- فصل في بيان أنه إذا قرأ القارئ القرآن وحصل له الثواب، أحصل له
- ١٧٠ الثواب على فعله أو على غير فعله
- اختلاف المفسرين في تفسير الحروف المقطعة في أوائل السور على ثمانية
- ١٧٢ أقوال وبيان تلك الأقوال
- فصل في إبطال حجج من قال بإثبات قدم الحروف
- ١٧٦ فصل في الرد على من قال إن الله تعالى متكلم بحروف
- ١٧٨ فصل في الرد على من احتج في إثبات الصوت لكلام الله تعالى
- ١٧٨ معنى قوله ﷺ: «لا تسافروا بالقرآن» وقوله: «لو جعل هذا القرآن في إهاب»
- ١٨٤ تفسير قوله ﷺ: «من حفظ القرآن اختلط بدمه ولحمه»
- ١٨٧ فصل في الرد على من قال إذا كان القديم لا يحل في المصحف فما معنى
- تعظيمه وتوقيره
- ١٨٨ فصل فيما يتعلق بمسائل ثلاثة وفروعها: الخلق والإرادة والشفاعة والرؤية ..
- ١٨٩ قول أهل السنة والجماعة إن الله سبحانه وتعالى هو الخالق وحده
- ١٩٠ الرد على من احتج على خلق الأفعال بالآيات القرآنية
- ١٩٤ وجوب العلم بأنه لا يجري في العالم إلا ما يريد الله تعالى
- ٢٠٠ الرد على من يقول بأن شرك المشرك ليس بمشينة الله
- ٢٠٤ فصل في الشفاعة - افتراق المعتزلة في الشفاعة إلى فرقتين -
- ٢٠٩ فصل في شبه يراد بها دفع الأخبار الصحاح المجمع على صحتها
- ٢١٠ قول أهل السنة والجماعة بجواز رؤية الله تعالى - اختلاف الصحابة في رؤية
- رسول الله ﷺ لربه ليلة المعراج
- ٢١٥ دفع شبهة التشبيه
- ٢٢٩ باب ما جاء في القرآن العظيم من ذلك
- ٢٣١ باب ذكر الأحاديث التي سموها أخبار الصفات
- ٢٤١ دفع شبه من شبه وتمرد
- ٢٧٧ ترجمة الإمام الحصري مؤلف هذا الكتاب
- ٢٧٩

٢٨١ سبب تأليف هذا الكتاب
٢٨٣ تقديم
٣٢١ كلام ابن تيمية في الاستواء ووثوب الناس عليه
٣٣٨ مبحث الرد على ابن تيمية في قوله بفناء النار
٣٣٩ مبحث الرد عليه في القول بقدم العالم
٣٥٥ قصة الراهبين مع أبي عبد الله
٤٠٥ السيف الصقيل
٤٠٧ تقديم
٤٠٧ ترجمة السبكي
٤٠٩ التعريف بكتاب «السيف الصقيل»
٤١٥ التقديم للكتاب
٤١٥ انقشاع ظلمات الجاهلية بمبعثه ﷺ
٤١٥ تحين الأعداء الفرص للكيد بالمسلمين
٤١٦ انخداع سذج الرواة
٤١٧ فضل علماء أصول الدين في حراسة الدين
٤١٧ محاولة ابن تيمية بعث الحشوية من مرقدها
٤١٨ مسامرة ابن القيم لابن تيمية في فتنه
٤١٩ نماذج من أقوال أصحاب ابن القيم وأصداده والمتحايدين
٤٢٠ أحق الناس بالثناء
٤٢١ أخطر ما يطغى من صنوف الاستغناء
٤٢١ ردود السبكي على ابن تيمية والكلام في رده على نونية ابن القيم
٤٢٣ مقدمة الكتاب للمؤلف
٤٢٥ الأشعرية أعدل الفرق
٤٢٨ مجامع الزيف في نونية ابن القيم
٤٢٩ ناسي السبكي بإمام الحرمين في الرد على بعض جهلة أهل الحديث
٤٣٠ فصل مناظرة خيالية بين المشبه والمتزه... إلخ
٤٣٢ فصل أمثال مضروبة للمعطل والمشبه والموحد
٤٣٢ فصل من قصيدته النونية

٤٣٣ فصل تخيل الناظم في أفعال العباد .. الخ
٤٣٦ فصل استنكار الناظم إعادة المعدوم .. الخ
٤٣٧ فصل زعم الناظم قيام الله بالحوادث
٤٤٠ فصل عقد مجلس خيالي .. كلامه في وحدة الوجود
٤٤٣ فصل الفوقية الحسية .. الخ
٤٤٤ تسمية الناظم أهل الحق بحزب جنكز خان
٤٥٥ تصوير الناظم أهل الحق أسوأ تصوير
٤٥٦ كذب الناظم على الله ورسوله ﷺ
٤٥٨ فصل في قدوم ركب الإيمان وعسكر القرآن
٤٦٠ عدم تمييز الناظم بين اللازم والملزوم
٤٦٠ تخبط الناظم في الصوت
٤٦٢ كلام واف في أحاديث الصوت
٤٦٣ فصل: قوله: إنه يلزم من نفي صفة الكلام نفي الرسالة
٤٦٥ فصل وقية الناظم وشيخه في ابن حزم
٤٦٦ الكلام اللفظي
٤٦٦ فصل في مقالة الفلاسفة والقرامطة
٤٦٧ فصل في الاتحادية
٤٧٠ فصل القول في تجويز التسلسل في الماضي
٤٧٢ فصل في الرد على الجهمية المعطلة
٤٧٥ فصل نصوص عن ابن تيمية في الفوقية الحسية
٤٧٧ قول أبي حيان في ابن تيمية
٤٨١ فصل كلمة ابن تيمية في العلو والفوقية والرد عليه
٤٨٢ فصل حديث النزول
٤٨٣ فصل الإشارة إلى رفع الأيدي إلى السماء
٤٨٤ فصل دعوى الناظم في الرؤية بدون مقابلة
٤٨٥ فصل بسط الكلام في السؤال بـ «أين» في حديث الجارية
٤٨٧ توهين سند حديث أبي رزين
٤٨٩ تفنيد زعم الإجماع على الفوقية الحسية

٤٩٠ بسط الكلام في رد القول بالجهة
٤٩٢ تناقض ابن تيمية في الجهة وكذبه
٤٩٣ مخالفات ابن تيمية
٤٩٨ رد المصنف على الناظم في الفوقية
٤٩٨ روايات الضراب عن مالك في النزول
٥٠٠ قول الياضي في الحشوية
٥٠١ أحد المراسيم الصادرة في حق ابن تيمية
٥٠٤ نص الإمام أحمد في المجيء
٥٠٥ معنى كتب ربكم على نفسه بيده
٥٠٦ سخف عثمان بن سعيد في التمسك بحديث حصين في الفوقية
٥٠٧ الشعر المنسوب إلى ابن رواحة رضي الله عنه
٥٠٨ حديث بني قريظة
٥٠٩ حديث جابر رضي الله عنه
٥١٠ فصل: بحث ممتع في التأويل
٥١١ قول ابن حجر في التأويل
٥١٢ تحقيق ابن دقيق العيد
٥١٣ صنيع الصحابة في التأويل
٥١٣ اضطراب الحشوية
٥١٥ القول بالتجلي في الصور
٥١٦ تبديع الفلاسفة وإكفارهم
٥١٧ القول بتجرد الروح
٥١٨ نص من ابن تيمية في الحد والجسم
٥٢٢ قول السلف في العين واليد
٥٢٢ خداع الناظم وشيخه
٥٢٣ معنى القبضة عند الخلف
٥٢٤ المعطل في الأصل من ينفي الصانع
٥٢٨ فصل: في عهود المثبتين مع الله رب العالمين
٥٢٩ فصل: افتراءهم المثلث على الأشعرية
٥٣٠ فصل: في حياة الأنبياء

٥٣٠ فتيا الأئمة في إنكاره شد الرحل لزيارته ٥٣٠
٥٣١ نص ابن عقيل الحنبلي في تذكرته ٥٣١
٥٣٤ نصوص من المطالب العالية للفخر الرازي ٥٣٤
٥٣٨ فصل في الهدنة بين المعطلة والاتحادية حزب جنكسخان ٥٣٨
٥٣٨ فصل في مصارع المعطلة بأسة الموحدين ٥٣٨
٥٤٠ فصل في كسر الطاغوت الذي تفوا به الصفات ٥٤٠
٥٤٠ فصل في مبدأ العداوة بين الموحدين والمعتلين ٥٤٠
٥٤١ فصل في أن التعطيل أساس الزندقة ٥٤١
٥٤١ فصل في بهت أهل الشرك والتعطيل ٥٤١
٥٤٣ فصل في أذان أهل السنة بصريحها جهراً على رؤوس منابر الإسلام ٥٤٣
٥٤٥ فصل في تلازم التعطيل والشرك ٥٤٥
٥٤٦ فصل في مثل المشرك والمعتل ٥٤٦
٥٥٠ فصل في أسبق الناس دخولاً إلى الجنة ٥٥٠
٥٥١ فصل في عدد الجنات ٥٥١
٥٥٢ فصل في يوم المزيد ٥٥٢
٥٥٥ نص رسالة الإمام الذهبي إلى شيخ الإسلام ابن تيمية ٥٥٥
٥٥٧ نص الرسالة ٥٥٧
٥٥٩ لعاذا يقال للناظم ابن القيم ٥٥٩
٥٥٩ خاتمة نكملة الرد ٥٥٩
٥٦١ العالم والمتعلم، الفقه الأيسر - الفقه الأكبر، رسالة أبي حنيفة - الوصية ... ٥٦١
٥٦٣ كلمة عن العالم والمتعلم ورسالة أبي حنيفة إلى البتي والفقه الأيسر وروايتها ٥٦٣
٥٦٩ العالم والمتعلم رواية أبي مقاتل عن أبي حنيفة رضي الله عنهما ٥٦٩
٥٧١ تقديم ٥٧١
٥٩٧ رواية أبي مطيع عن أبي حنيفة رضي الله عنهما ٥٩٧
٥٩٩ تقديم ٥٩٩
٦٠٣ باب في القدر ٦٠٣
٦١٠ باب المشيئة ٦١٠
٦١١ باب آخر في المشيئة ٦١١

٦١٢ باب الرد على من يكفر بالذنب
٦١٣ باب في الإيمان
٦١٧ الفقه الأكبر
٦١٩ تقديم
	رسالة أبي حنيفة إلى عثمان البتي عالم أهل البصرة رضي الله عنهما في
٦٢٧ التبري مما يرمى به من الإرجاء كذباً وزوراً من جهلة أغرار
٦٢٩ تقديم
	كتاب وصية الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي رضي الله عنه في
٦٣٣ التوحيد
٦٣٥ تقديم
٦٣٩ فهرس المحتويات

